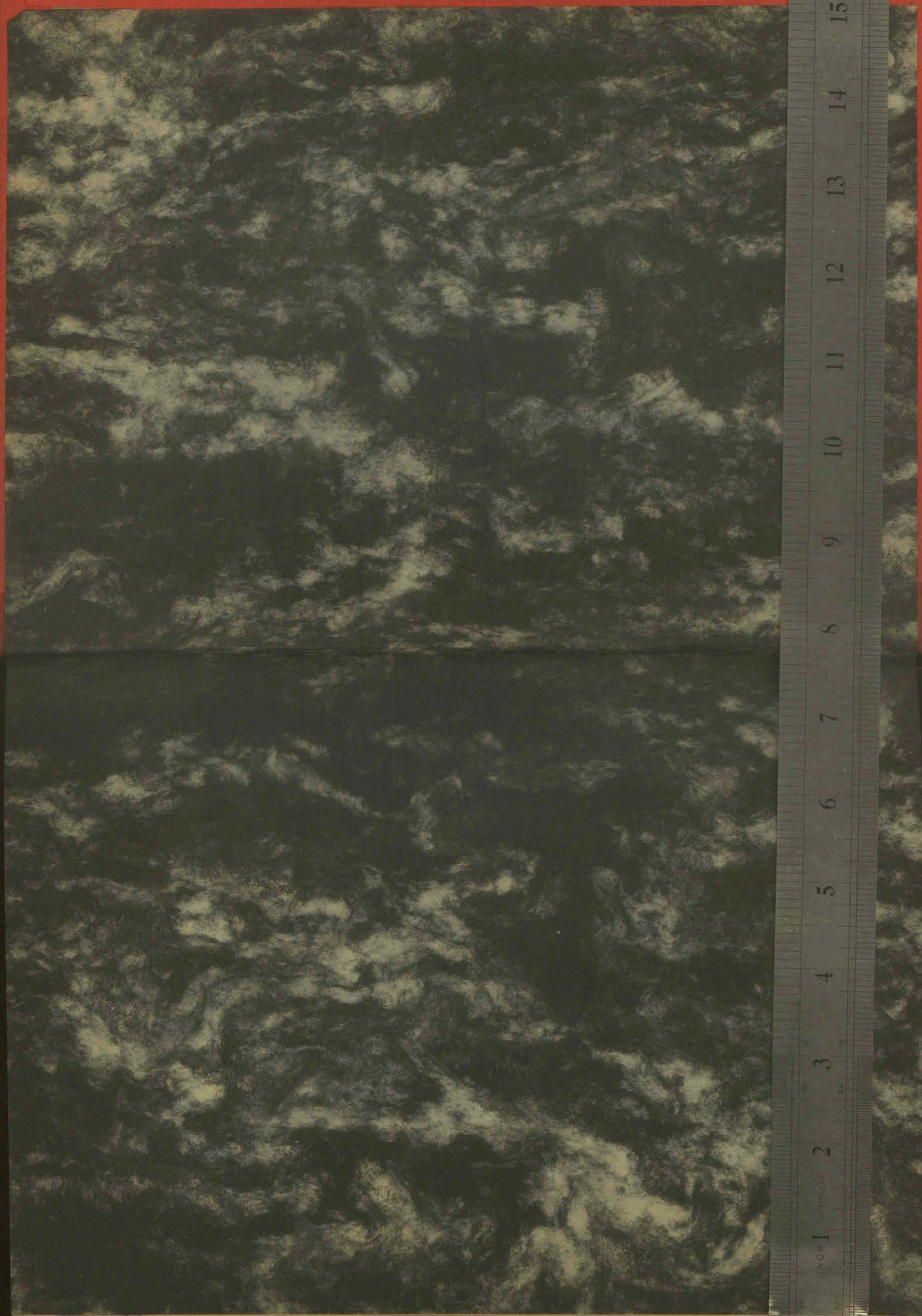

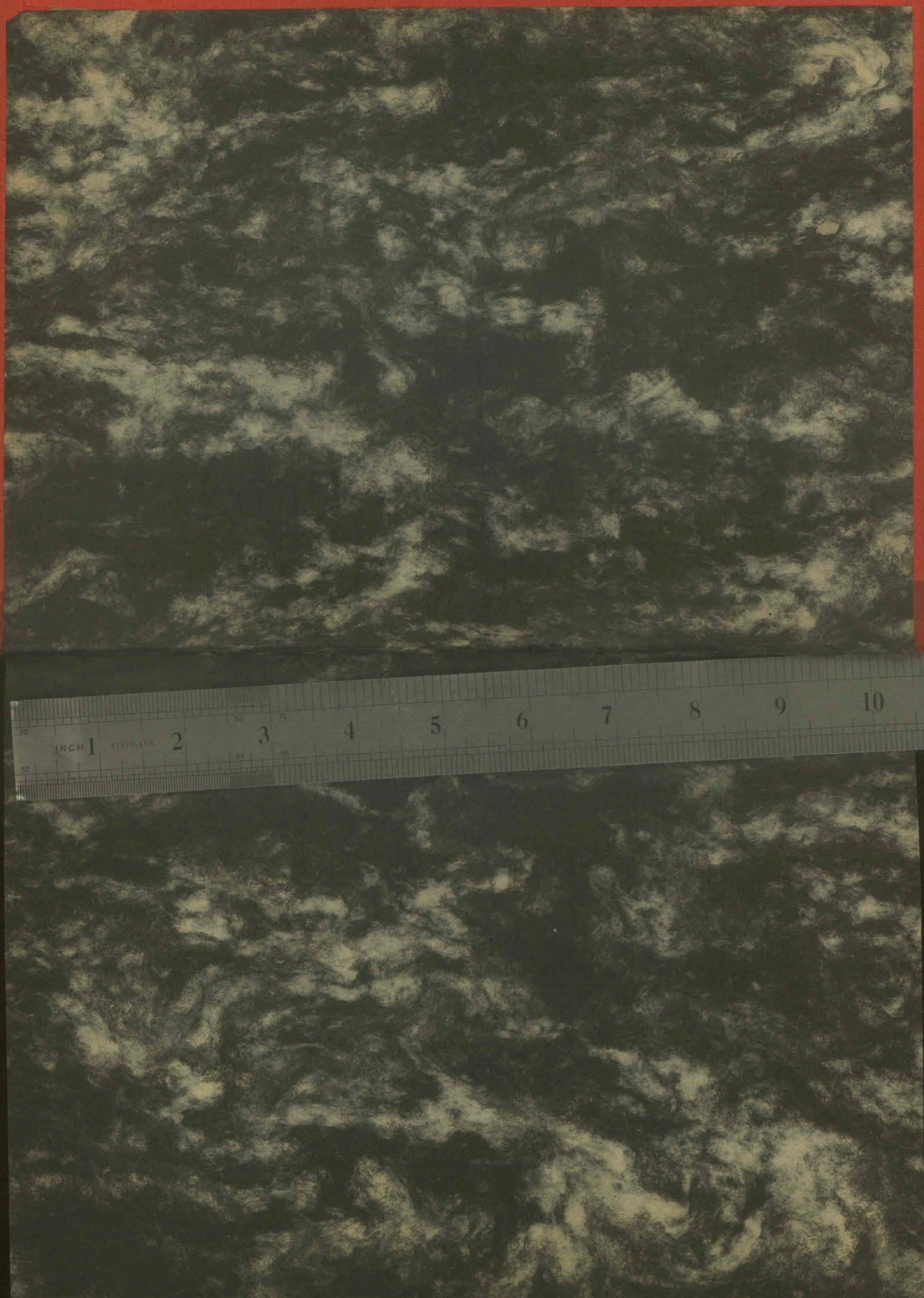
INCH 1 2 3 4 5 6 7 8 9 10

XXII-A-10
٤٢٥٤٨
٣٢
٩-د

تفسير أبي السعود

المسمى

ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم

لخاتمة المحققين وامام المدققين قاضى القضاة أبى السعود محمد بن محمد العمادى

ولد رحمه الله تعالى سنة ٨٩٦ هجرية وتوفى سنة ٩٥١

الجزء الثانى

صححت هذه الطبعة بمعرفة بعض أفاضل العلماء وقوبلت على عدة نسخ وقرئت فى المرة الأخيرة على حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ حسن محمد المسعودى

المدرس بالقسم العالى بالأزهر

٤٢٥٨

الملتزم

محمد محمد عبد اللطيف

صاحب المكتبة الحسينية المصرية

بالأزهر الشريف بمصر

الطبعة الأولى

سنة ١٣٤٧ هجرية — سنة ١٩٢٨ ميلادية

المطبعة المصرية

ادارة محمد محمد عبد اللطيف

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المائدة مدنية وهى مائة وعشرون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) الوفاء القيام بموجب العقد وكذا الايفاء والعقد هو العهد الموثق المشبه بعقد الحبل ونحوه والمراد بالعقود مايعم جميع ما ألزمه الله تعالى عباده وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية ومايعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن دينا بأن يحمل الأمر على معنى يعم الوجوب والندب أمر بذلك أولا على وجه الاجمال ثم شرع فى تفصيل الأحكام التى أمر بالايفاء بها وبدئ بما يتعلق بضروريات معايشهم فقيل (أحلت لكم بهيمة الأنعام) البهيمة كل ذات أربع واضافتها الى الأنعام للبيان كثوب الخز وافرادها لارادة الجنس أى أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام وهى الأزواج الثمانية المعدودة فى سورة الأنعام وألحق بها الظباء وبقر الوحش ونحوهما وقيل هى المرادة بالبهيمة هنا لتقدم بيان حل الأنعام والاضافة لما بينهما من المشابهة والمماثلة فى الاجترار وعدم الأنياب وفائدتها الاشعار بعلة الحكم المشتركة بين المضافين كأنه قيل أحلت لكم البهيمة الشبيهة بالأنعام التى بين احلالها فيما سبق المماثلة لها فى مناط الحكم وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من اظهار العناية بالمقدم لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة الى وروده فيتمكن عندها فضل تمكن (الا مايتلى عليكم) استثناء من بهيمة الأنعام أى الا محرم مايتلى عليكم من قوله تعالى حرمت عليكم الميتة ونحوه أو الا مايتلى عليكم آية تحريمه (غير محلى الصيد) أى الاصطياد فى البر أو أكل صيده وهو نصب على الحالية من ضمير لكم ومعنى عدم احلالهم له تقرير حرمته عملا واعتقادا وهو شائع فى الكتاب والسنة وقوله تعالى (وأنتم حرم) أى محرمون حال من الضمير فى محلى وفائدة تقييد احلال بهيمة الأنعام بماذكر من عدم احلال الصيد حال الاحرام على تقدير كون المراد بها الظباء ونظائرها ظاهرة لما أن احلالها غير مطلق كأنه قيل أحل لكم الصيد حال كونكم ممتنعين عنه عند احرامكم وأما على التقدير الأول ففائدته اتمام النعمة واظهار الامتنان باحلالها بتذكير احتياجهم اليه فان حرمة الصيد فى حالة الاحرام من مظان حاجتهم الى احلال غيره حينئذ كأنه قيل أحلت لكم الأنعام مطلقا حال كونكم ممتنعين عن تحصيل مايغنيكم عنها فى بعض الأوقات محتاجين الى احلالها وفى اسناد عدم الاحلال اليهم بالمعنى المذكور مع حصول المراد بأن يقال غير محلل لكم أو محرما عليكم الصيد حال احرامكم مزيد تربية للامتنان وتقرير للحاجة ببيان علتها القريبة فان تحريم الصيد عليهم انما يوجب حاجتهم الى احلال مايغنيهم عنه باعتبار تحريمهم له عملا واعتقادا مع مافى ذلك من وصفهم بما هو اللائق بهم (ان الله يحكم مايريد) من الأحكام حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فيدخل فيها ماذكر من التحليل والتحريم دخولا أوليا ومعنى الايفاء بهما الجريان على موجبهما عقدا وعملا والاجتناب عن تحليل المحرمات وتحريم بعض المحللات كالبحيرة ونظائرها التى سيأتى بيانها (يا أيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله) لما بين حرمة احلال الاحرام

الذى هو من شعائر الحج عقب ذلك ببيان حرمة احلال سائر الشعائر واضافتها الى الله عز وجل لتشريفها وتهويل الخطب فى احلالها وهى جمع شعيرة وهى اسم لما أشعر أى جعل شعارا وعلما للنسك من مواقيت الحج ومرامى الجمار والمطاف والمسعى والأفعال التى هى علامات الحاج يعرف بها من الاحرام والطواف والسعى والحلق والنحر واحلالها أن يتهاون بحرمتها ويحال بينها وبين المتنسكين بها ويحدث فى أشهر الحج مايصد به الناس عن الحج وقيل المراد بها دين الله لقوله تعالى ومن يعظم شعائر الله أى دينه وقيل حرمات الله وقيل فرائضه التى حدها لعباده واحلالها الاخلال بها والاول أنسب بالمقام (ولا الشهر الحرام) أى لاتحلوه بالقتال فيه وقيل بالنسئ والأول هو الأولى بحال المؤمنين والمراد به شهر الحج وقيل الأشهر الأربعة الحرم والافراد لارادة الجنس (ولا الهدى) بأن يتعرض له بالغصب أو بالمنع عن بلوغ محله وهو ما أهدى الى الكعبة من ابل أو بقر أو شاء جمع هدية كجدى وجدية (ولا القلائد) هى جمع قلادة وهى ما يقلد به الهدى من نعل أو لحاء شجر ليعلم به أنه هدى فلا يتعرض له والمراد النهى عن التعرض لذوات القلائد من الهدى وهى البدن وعطفها على الهدى مع دخولها فيه لمزيد التوصية بها لمزيتها على ماعداها كما عطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام كأنه قيل والقلائد منه خصوصا أو النهى عن التعرض لنفس القلائد مبالغة فى النهى عن التعرض لأصحابها على معنى لاتحلوا قلائدها فضلا عن أن تحلوها كما نهى عن ابداء الزينة بقوله تعالى ولا يبدين زينتهن مبالغة فى النهى عن ابداء مواقعها (ولا آمين البيت الحرام) أى لا تحلوا قوما قاصدين زيارته بأن تصدوهم عن ذلك بأى وجه كان وقيل هناك مضاف محذوف أى قتال قوم أو أذى قوم آمين الخ وقرئ ولا آمى البيت الحرام بالاضافة وقوله تعالى (يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا) حال من المستكن فى آمين لا صفة له لأن المختار أن اسم الفاعل اذا وصف بطل عمله أى قاصدين زيارته حال كونهم طالبين أن يثيبهم الله تعالى ويرضى عنهم وتنكير فضلا ورضوانا للتفخيم ومن ربهم متعلق بنفس الفعل أو بمحذوف وقع صفة لفضلا مغنية عن وصف ماعطف عليه بها أى فضلا كائنا من ربهم ورضوانا كذلك والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لتشريفهم والاشعار بحصول مبتغاهم وقرئ تبتغون على الخطاب فالجملة حينئذ حال من ضمير المخاطبين فى لا تحلوا على أن المراد بيان منافاة حالهم هذه للنهى عنه لاتقييد النهى بها واضافة الرب الى ضمير الآمين للايماء الى اقتصار التشريف عليهم وحرمان المخاطبين عنه وعن نيل المبتغى وفى ذلك من تعليل النهى وتأكيده والمبالغة فى استنكار المنهى عنه مالا يخفى ومن ههنا قيل ان المراد بالآمين هم المسلمون خاصة وبه تمسك من ذهب الى أن الآية محكمة وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال سورة المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها وقال الحسن رحمه الله تعالى ليس فيها منسوخ وعن أبى ميسرة فيها ثمان عشرة فريضة وليس فيها منسوخ وقد قيل هم المشركون خاصة لانهم المحتاجون الى نهى المؤمنين عن احلالهم دون المؤمنين على أن حرمة احلالهم ثبتت بطريق دلالة النص ويؤيده أن الآية نزلت فى الحطم بن ضبعة البكرى وقد كان أتى المدينة فخلف خيله خارجها فدخل على النبى عليه الصلاة والسلام وحده ووعده أن يأتى بأصحابه فيسلموا ثم خرج من عنده عليه السلام فمر بسرح المدينة فاستاقه فلما كان فى العام القابل خرج من اليمامة حاجا فى حجاج بكر بن وائل ومعه تجارة عظيمة وقد قلدوا الهدى فسأل المسلمون النبى صلى الله عليه وسلم أن يخلى بينهم وبينه فأباه النبى عليه الصلاة والسلام فأنزل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله الآية وفسر ابتغاء الفضل بطلب الرزق بالتجارة وابتغاء الرضوان بأنهم كانوا يزعمون أنهم على سداد من دينهم وأن الحج يقربهم الى الله تعالى فوصفهم الله تعالى بظنهم وذلك الظن الفاسد وان كان بمعزل من استتباع رضوانه تعالى لكن لا بعد فى كونه مدارا لحصول بعض مقاصدهم

الدنيوية وخلاصهم عن المكاره العاجلة لاسيما فى ضمن مراعاة حقوق الله تعالى وتعظيم شعائره وقال قتادة هو أن يصلح معايشهم فى الدنيا ولا يعجل لهم العقوبة فيها وقيل هم المسلمون والمشركون لما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن المسلمين والمشركين كانوا يحجون جميعا فنهى الله المسلمين أن يمنعوا أحدا عن حج البيت بقوله تعالى لاتحلوا الآية ثم نزل بعد ذلك انما المشركون نجس فلايقربوا المسجد الحرام وقوله تعالى ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله وقال مجاهد والشعبى لاتحلوا نسخ بقوله تعالى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ولاريب فى تناول الآمين للمشركين قطعا اما استقلالا واما اشتراكا لما سيأتى من قوله تعالى ولايجرمنكم شنآن قوم الخ فيتعين النسخ كلا أو بعضا ولابد فى الوجه الاخير من تفسير الفضل والرضوان بما يناسب الفريقين فقيل ابتغاء الفضل أى الرزق للمؤمنين والمشركين عامة وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة ويجوز أن يكون الفضل على اطلاقه شاملا للفضل الاخروى أيضا ويختص ابتغاؤه بالمؤمنين ﴿واذا حللتم فاصطادوا﴾ تصريح بما أشير اليه بقوله تعالى وأنتم حرم من انتهاء حرمة الصيد بانتفاء موجبها والامر للاباحة بعد الحظر كأنه قيل واذا حللتم فلاجناح عليكم فى الاصطياد وقرئ أحللتم وهو لغة فى حل وقرئ بكسر الفاء بالقاء حركة همزة الوصل عليها وهو ضعيف جدا ﴿ولايجرمنكم﴾ نهى عن احلال قوم من الآمين خصوا به مع اندراجهم فى النهى عن احلال الكل كافة لاستقلالهم بأمور ربما يتوهم كونها مصححة لاحلالهم داعية اليه وجرم جار مجرى كسب فى المعنى وفى التعدى الى مفعول واحد والى اثنين يقال جرم ذنبا نحو كسبه وجرمته ذنبا نحو كسبته اياه خلا أن جرم يستعمل غالبا فى كسب ما لاخير فيه وهو السبب فى ايثاره ههنا على الثانى وقد ينقل الأول من كل منهما بالهمزة الى معنى الثانى فيقال أجرمته ذنبا وأكسبته اياه وعليه قراءة من قرأ يجرمنكم بضم الياء ﴿شنآن قوم﴾ بفتح النون وقرئ بسكونها وكلاهما مصدر أضيف الى مفعوله لا الى فاعله كما قيل وهو شدة البغض وغاية المقت ﴿أن صدوكم﴾ متعلق بالشنآن باضمار لام العلة أى لأن صدوكم عام الحديبية ﴿عن المسجد الحرام﴾ عن زيارته والطواف به للعمرة وهذه آية بينة فى عموم آمين للمشركين قطعا وقرئ ان صدوكم على أنه شرط معترض أغنى عن جوابه لايجرمنكم قد أبرز الصد المحقق فيما سبق فى معرض المفروض للتوبيخ والتنبيه على أن حقه أن لايكون وقوعه الاعلى سبيل الفرض والتقدير ﴿أن تعتدوا﴾ أى عليهم وانما حذف تعويلا على ظهوره وايماء الى أن المقصد الأصلى من النهى منع صدور الاعتداء عن المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر لامنع وقوعه على القوم مراعاة لجانبهم وهو ثانى مفعولى يجرمنكم أى لايكسبنكم شدة بغضكم لهم لصدهم اياكم عن المسجد الحرام اعتداءكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفى وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للشنآن عن كسب الاعتداء للمخاطبين لكنه فى الحقيقة نهى لهم عن الاعتداء على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشئ ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية وقد يوجه النهى الى المسبب ويراد النهى عن السبب كما فى قوله لاأرينك ههنا يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه ولعل تأخير هذا النهى عن قوله تعالى واذا حللتم فاصطادوا مع ظهور تعلقه بما قبله للايذان بأن حرمة الاعتداء لا تنتهى بالخروج عن الاحرام كانتهاء حرمة الاصطياد به بل هى باقية مالم تنقطع علاقتهم عن الشعائر بالكلية وبذلك يعلم بقاء حرمة التعرض لسائر الآمين بالطريق الأولى ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ لما كان الاعتداء غالبا بطريق التظاهر والتعاون أمروا اثر ما نهوا عنه بأن يتعاونوا على كل ما هو من باب البر والتقوى ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى فدخل فيه مانحن بصدده من التعاون على العفو والاغضاء عما وقع منهم دخولا أوليا ثم نهوا عن التعاون فى كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصى بقوله تعالى ﴿ولاتعاونوا على الاثم والعدوان﴾ فاندرج فيه النهى عن التعاون على الاعتداء والانتقام

بالطريق البرهانى وأصل لاتعاونوا لاتتعاونوا فحذف منه احدى التاءين تخفيفا وانما أخر النهى عن الأمر مع تقدم التخلية على التحلية مسارعة الى ايجاب ما هو مقصود بالذات فان المقصود من ايجاب ترك التعاون على الاثم والعدوان انما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى ثم أمروا بقوله تعالى ﴿واتقوا الله﴾ بالاتقاء فى جميع الامور التى من جملتها مخالفة ماذكر من الأوامر والنواهى فثبت وجوب الاتقاء فيها بالطريق البرهانى ثم علل ذلك بقوله تعالى ﴿ان الله شديد العقاب﴾ أى لمن لايتقيه فيعاقبكم لامحالة ان لم تتقوه واظهار الاسم الجليل لما مر مرارا من ادخال الروعة وتربية المهابة وتقوية استقلال الجملة ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ شروع فى بيان المحرمات التى أشير اليها بقوله تعالى الا ما يتلى عليكم والميتة ما فارقه الروح من غير ذبح ﴿والدم﴾ أى المسفوح منه لقوله تعالى أو دما مسفوحا وكان أهل الجاهلية يصبونه فى الامعاء ويشوونه ويقولون لم يحرم من فزد له أى من فصدله ﴿ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ أى رفع الصوت لغير الله عند ذبحه كقولهم باسم اللات والعزى ﴿والمنخنقة﴾ أى التى ماتت بالخنق ﴿والموقوذة﴾ أى التى قتلت بالضرب بالخشب ونحوه من وقذته اذا ضربته ﴿والمتردية﴾ أى التى تردت من علو أو الى بئر فماتت ﴿والنطيحة﴾ أى التى نطحتها أخرى فماتت بالنطح والتاء للنقل وقرئ والمنطوحة ﴿وما أكل السبع﴾ أى وما أكل منه السبع فمات وقرئ بسكون الباء وقرئ وأكيل السبع وفيه دليل على أن جوارح الصيد اذا أكلت مما صادته لم يحل ﴿الا ما أدركتم ذكاته﴾ وفيه بقية حياة يضطرب اضطراب المذبوح وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع والذكاة فى الشرع بقطع الحلقوم والمرئ بمحدد ﴿وما ذبح على النصب﴾ قيل هو مفرد وقيل جمع نصاب وقرئ بسكون الصاد وأياما كان فهو واحد الانصاب وهى أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة وقيل هى الاصنام ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ جمع زلم وهو القدح أى وحرم عليكم الاستقسام بالأقداح وذلك أنهم اذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها أمرنى ربى وعلى الثانى نهانى ربى وعلى الثالث غفل فان خرج الآمر مضوا على ذلك وان خرج الناهى اجتنبوا عنه وان خرج الغافل أجالوها مرة أخرى فمعنى الاستقسام طلب معرفة ماقسم لهم بالازلام وقيل هو استقسام الجزور بالاقداح على الانصباء المعهودة ﴿ذلكم﴾ اشارة الى الاستقسام بالازلام ومعنى البعد فيه للاشارة الى بعد منزلته فى الشر ﴿فسق﴾ تمرد وخروج عن الحد ودخول فى علم الغيب وضلال باعتقاد أنه طريق اليه وافتراء على الله سبحانه ان كان هو المراد بقولهم ربى وشرك وجهالة ان كان هو الصنم وقيل ذلكم اشارة الى تناول المحرمات المعدودة لان معنى تحريمها تحريم تناولها ﴿اليوم﴾ اللام للعهد والمراد به الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الماضية والآتية وقيل يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر الجمعة يوم عرفة فى حجة الوداع والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على العضباء فكادت عضد الناقة تندق لثقلها فبركت وأياما كان فهو منصوب على أنه ظرف لقوله تعالى ﴿يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أى من ابطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث أو غيرها أو من أن يغلبوكم عليه لما شاهدوا من أن الله عز وجل وفى بوعده حيث أظهره على الدين كله وهو الانسب بقوله تعالى ﴿فلا تخشوهم﴾ أى أن يظهروا عليكم ﴿واخشون﴾ أى وأخلصوا الى الخشية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ بالنصر والاظهار على الأديان كلها أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد وتقديم الجار والمجرور للايذان من أول الامر بأن الاكمال لمنفعتهم ومصلحتهم كما فى قوله تعالى ألم نشرح لك صدرك وعليكم فى قوله تعالى ﴿وأتممت عليكم نعمتى﴾ متعلق بأتممت لابنعمتى لان المصدر لايتقدم عليه معموله وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرات أى أتممتها بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكها والنهى عن حج المشرك وطواف العريان أو باكمال الدين والشرائع أو

متعلقة بأمسكن أى فكلوا بعض ما أمسكنه عليكم وهو الذى لم يأكلن منه وأما ما أكلن منه فهو مما أمسكنه على أنفسهن لقوله عليه الصلاة والسلام لعدى بن حاتم وان أكل منه فلا تأكل انما أمسك على نفسه واليه ذهب أكثر الفقهاء وقال بعضهم لا يشترط عدم الاكل فى سباع الطير لما أن تأديبها الى هذه الدرجة متعذر وقال آخرون لا يشترط ذلك مطلقا وقد روى عن سلمان وسعد بن أبى وقاص وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهم أنه اذا أكل الكلب ثلثيه وبقى ثلثه وقد ذكرت اسم الله عليه فكل ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ الضمير لما علمتم أى سموا عليه عند ارساله أو لما أمسكنه أى سموا عليه اذا أدركتم ذكاته ﴿واتقوا الله﴾ فى شأن محرماته ﴿ان الله سريع الحساب﴾ أى سريع اتيان حسابه أو سريع تمامه اذا شرع فيه يتم فى أقرب ما يكون من الزمان والمعنى على التقديرين أنه يؤاخذكم سريعا فى كل ما جل ودق واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم ﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾ قيل المراد بالايام الثلاثة وقت واحد وانما كرر للتأكيد ولاختلاف الأحداث الواقعة فيه حسن تكريره والمراد بالطيبات ما مر ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب﴾ أى اليهود والنصارى واستثنى على رضى الله تعالى عنه نصارى بنى تغلب وقال ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها الا شرب الخمر وبه أخذ الشافعى رضى الله عنه والمراد بطعامهم ما يتناول ذبائحهم وغيرها ﴿حل لكم﴾ أى حلال وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال لا بأس وهو قول عامة التابعين وبه أخذ أبو حنيفة رضى الله عنه وأصحابه وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عنده وقال صاحباه هما صنفان صنف يقرؤن الزبور ويعبدون الملائكة عليهم السلام وصنف لا يقرؤن كتابا ويعبدون النجوم فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب وأما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب فى أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم لقوله عليه الصلاة والسلام سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم ﴿وطعامكم حل لهم﴾ فلا عليكم أن تطعموهم وتبيعوه منهم ولو حرم عليهم لم يجز ذلك ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ رفع على أنه مبتدأ حذف خبره لدلالة ما تقدم عليه أى حل لكم أيضا والمراد بهن الحرائر العفائف وتخصيصهن بالذكر للبعث على ما هو الاولى لا النفى ما عداهن فان نكاح الاماء المسلمات صحيح بالاتفاق وكذا نكاح غير العفائف منهن وأما الاماء الكتابيات فهن كالمسلمات عند أبى حنيفة رضى الله عنه خلافا للشافعى رضى الله عنه ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أى هن أيضا حل لكم وان كن حربيات وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا تحل الحربيات ﴿اذا آتيتموهن أجورهن﴾ أى مهورهن وتقييد الحل بايتائها لتأكيد وجوبها والحث على الأولى وقيل المراد بايتائها التزامها واذا ظرفية عاملها حل المحذوف وقيل شرطية حذف جوابها أى اذا آتيتموهن أجورهن حللن لكم ﴿محصنين﴾ حال من فاعل آتيتموهن أى حال كونكم أعفاء بالنكاح وكذا قوله تعالى ﴿غير مسافحين﴾ وقيل هو حال من ضمير محصنين وقيل صفة لمحصنين أى غير مجاهرين بالزنا ﴿ولا متخذى أخدان﴾ أى ولا مسرين به والخدن الصديق يقع على الذكر والانثى وهو اما مجرور عطفا على مسافحين وزيدت لا لتأكيد النفى المستفاد من غير أو منصوب عطفا على غير مسافحين باعتبار أوجهه الثلاثة ﴿ومن يكفر بالايمان﴾ أى ومن ينكر شرائع الاسلام التى من جملتها ما بين ههنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة ويمتنع عن قبولها ﴿فقد حبط عمله﴾ الصالح الذى عمله قبل ذلك ﴿وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ هو مبتدأ من الخاسرين خبره وفى متعلقة بما تعلق به الخبر من الكون المطلق وقيل بمحذوف دل عليه المذكور أى خاسر فى الآخرة وقيل بالخاسرين على أن الالف واللام للتعريف لا موصولة لأن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها وقيل يغتفر فى الظرف ما لا يغتفر فى غيره كما فى قوله

ربيته حتى اذا تمعددا ... كان جزائى بالعصا أن أجلدا

بالهداية والتوفيق قيل معنى أتممت عليكم نعمتى أنجزت لكم وعدى بقولى ولأتم نعمتى عليكم ﴿ورضيت لكم الاسلام دينا﴾ أى اخترته لكم من بين الاديان وهو الدين عند الله لا غير . عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن رجلا من اليهود قال له يا أمير المؤمنين آية فى كتابكم تقرؤنها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال أى آية قال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى الآية قال عمر رضى الله تعالى عنه قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذى أنزلت فيه على النبى عليه الصلاة والسلام وهو قائم بعرفة يوم الجمعة أشار رضى الله تعالى عنه الى أن ذلك اليوم عيد لنا . وروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضى الله تعالى عنه فقال له النبى عليه الصلاة والسلام ما يبكيك يا عمر قال أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا فاذا كمل فانه لا يكمل شىء الا نقص فقال عليه الصلاة والسلام صدقت فكانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمالبث بعد ذلك الا أحدا وثمانين يوما ﴿فمن اضطر﴾ متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض بما يوجب أن يجتنب عنه وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والاسلام المرضى أى فمن اضطر الى تناول شىء من هذه المحرمات ﴿فى مخمصة﴾ أى مجاعة يخاف معها الموت أو مباديه ﴿غير متجانف لاثم﴾ قيل غير مائل ومنحرف اليه بأن يأكلها تلذذا أو مجاوزا حد الرخصة أو ينتزعها من مضطر آخر كقوله تعالى غير باغ ولا عاد ﴿فان الله غفور رحيم﴾ لا يؤاخذه بذلك ﴿يسألونك ماذا أحل لهم﴾ شروع فى تفصيل المحللات التى ذكر بعضها على وجه الاجمال اثر بيان المحرمات كأنهم سألوا عنها عند بيان أضدادها ولتضمن السؤال معنى القول أوقع على الجملة فماذا مبتدأ وأحل لهم خبره وضمير الغيبة لما أن يسألون بلفظ الغيبة فانه كما يعتبر حال المحكى عنه فيقال أقسم زيد لأفعلن يعتبر حال الحاكى فيقال أقسم زيد ليفعلن والمسئول ما أحل لهم من المطاعم ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ أى ما لم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه كما فى قوله تعالى ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴿وما علمتم من الجوارح﴾ عطف على الطيبات بتقدير المضاف على أن ما موصولة والعائد محذوف أى وصيد ما علمتموه أو مبتدأ على أن ما شرطية والجواب فكلوا وقد جوز كونها مبتدأ على تقدير كونها موصولة أيضا والخبر كلوا وانما دخلته الفاء تشبيها للموصول باسم الشرط ومن الجوارح حال من الموصول أو ضميره المحذوف والجوارح الكواسب من سباع البهائم والطير وقيل سميت بها لانها تجرح الصيد غالبا ﴿مكلبين﴾ أى معلمين لها الصيد والمكلب مؤدب الجوارح ومضريها بالصيد مشتق من الكلب لان التأديب كثيرا ما يقع فيه أو لان كل سبع يسمى كلبا لقوله عليه الصلاة والسلام فى حق عتبة بن أبى لهب حين أراد سفر الشأم فقال النبى عليه الصلاة والسلام اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فأكله الأسد واتصابه على الحالية من فاعل علمتم وفائدتها المبالغة فى التعليم لما أن اسم المكلب لا يقع الا على النحرير فى علمه وقرىء مكلبين بالتخفيف والمعنى واحد ﴿تعلمونهن﴾ حال ثانية منه أو حال من ضمير مكلبين أو استئناف ﴿مما علمكم الله﴾ من الحيل وطرق التعليم والتأديب فان العلم به الهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل الذى هو منحة منه أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بارسال صاحبه وانزجاره بزجره وانصرافه بدعائه وامساك الصيد عليه وعدم أكله منه ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ قد مر فيما سبق أن هذه الجملة على تقدير كون ما شرطية جواب الشرط وعلى تقدير كونها موصولة مرفوعة على الابتداء خبرها وأما على تقدير كونها عطفا على الطيبات فهى جملة متفرعة على بيان حل صيد الجوارح المعلمة مبينة للمضاف المقدر الذى هو المعطوف وبه يتعلق الاحلال حقيقة ومشيرة الى نتيجة التعليم وأثره داخلة تحت الامر فالفاء فيها كما فى قوله أمرتك الخير ففعل ما أمرت به ومن تبعيضية لما أن البعض مما لا يتعلق به الاكل كالجلود والعظام والريش وغير ذلك وما موصولة أو موصوفة حذف عائدها وعلى

﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ شروع فى بيان الشرائع المتعلقة بدينهم بعد بيان ما يتعلق بدنياهم ﴿اذا قمتم الى الصلوة﴾ أى أردتم القيام اليها كما فى قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله عبر عن ارادة الفعل بالفعل المسبب عنها مجازا للايجاز والتنبيه على أن من أراد الصلاة حقه أن يبادر اليها بحيث لا ينفك عن ارادتها أو اذا قصدتم الصلاة اطلاقا لاسم أحد لازميها على لازمها الآخر وظاهر الآية الكريمة يوجب الوضوء على كل قائم اليها وان لم يكن محدثا لما أن الأمر للوجوب قطعا والاجماع على خلافه وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد فقال عمر رضى الله تعالى عنه صنعت شيئاً لم تكن تصنعه فقال عليه الصلاة والسلام عمدا فعلته ياعمر يعنى بيانا للجواز وحمل الأمر بالنسبة الى غير المحدث على الندب مما لا مساغ له فالوجه أن الخطاب خاص بالمحدثين بقرينة دلالة الحال واشتراط الحدث فى التيمم الذى هو بدله ومانقل عن النبى عليه الصلاة والسلام والخلفاء من أنهم كانوا يتوضئون لكل صلاة فلا دلالة فيه على أنهم كانوا يفعلونه بطريق الوجوب أصلا كيف لا وما روى عنه عليه الصلاة والسلام من قوله من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات صريح فى أن ذلك كان منهم بطريق الندب وماقيل كان ذلك أول الأمر ثم نسخ يرده قوله عليه الصلاة والسلام المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ أى أمروا عليها الماء ولا حاجة الى الدلك خلافا لمالك ﴿وأيديكم الى المرافق﴾ الجمهور على دخول المرفقين فى المغسول ولذلك قيل الى بمعنى مع كما فى قوله تعالى ويزدكم قوة الى قوتكم وقيل هى انما تفيد معنى الغاية مطلقا وأما دخولها فى الحكم أو خروجها منه فلا دلالة لها عليه وانما هو أمر يدور على الدليل الخارجى كما فى حفظت القرآن من أوله الى آخره وقوله تعالى فنظرة الى ميسرة فان الدخول فى الاول والخروج فى الثانى متيقن بناء على تحقق الدليل وحيث لم يتحقق ذلك فى الآية وكانت الأيدى متناولة للمرافق حكم بدخولها فيها احتياطا وقيل الى من حيث افادتها للغاية تقتضى خروجها لكن لما لم تتميز الغاية ههنا عن ذى الغاية وجب ادخالها احتياطا ﴿وامسحوا برؤسكم﴾ الباء مزيدة وقيل للتبعيض فانه الفارق بين قولك مسحت المنديل ومسحت بالمنديل وتحقيقه أنها تدل على تضمين الفعل معنى الالصاق فكأنه قيل وألصقوا المسح برؤسكم وذلك لا يقتضى الاستيعاب كما يقتضيه مالو قيل وامسحوا رؤسكم فانه كقوله تعالى فاغسلوا وجوهكم واختلف العلماء فى القدر الواجب فأوجب الشافعى أقل ما ينطلق عليه الاسم أخذا باليقين وأبو حنيفة ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث مسح على ناصيته وقدرها بربع الرأس ومالك مسح الكل أخذا بالاحتياط ﴿وأرجلكم الى الكعبين﴾ بالنصب عطفا على وجوهكم ويؤيده السنة الشائعة وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة والتحديد اذ المسح لم يعهد محدودا وقرئ بالجر على الجوار ونظيره فى القرآن كثير كقوله تعالى عذاب يوم أليم ونظائره وللنحاة فى ذلك باب مفرد وفائدته التنبيه على أنه ينبغى أن يقتصد فى صب الماء عليها ويغسلها غسلا قريبا من المسح وفى الفصل بينه وبين أخواته ايماء الى أفضلية الترتيب وقرئ بالرفع أى وأرجلكم مغسولة ﴿وان كنتم جنبا فاطهروا﴾ أى فاغتسلوا وقرئ فاطهروا أى فطهروا أبدانكم وفى تعليق الأمر بالطهارة الكبرى بالحدث الاكبر اشارة الى اشتراط الأمر بالطهارة الصغرى بالحدث الاصغر ﴿وان كنتم مرضى﴾ مرضا يخاف به الهلاك أو ازدياده باستعمال الماء ﴿أو على سفر﴾ أى مستقرين عليه ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ من لابتداء الغاية وقيل للتبعيض وهى متعلقة بامسحوا وقرئ فأموا صعيدا وقد مر تفسير الآية الكريمة مشبعا فى سورة النساء فليرجع اليه ولعل التكرير ليتصل الكلام فى أنواع الطهارة ﴿مايريدالله﴾ أى مايريد بالامر بالطهارة للصلاة أو بالامر بالتيمم ﴿ليجعل عليكم من حرج﴾ من ضيق فى الامتثال

به ﴿ولكن يريد﴾ مايريد بذلك ﴿ليطهركم﴾ أى لينظفكم أو ليطهركم عن الذنوب فان الوضوء مكفر لها أو ليطهركم بالتراب اذا أعوزكم التطهر بالماء فمفعول يريد فى الموضعين محذوف واللام للعلة وقيل مزيدة والمعنى مايريدالله أن يجعل عليكم من حرج فى باب الطهارة حتى لا يرخص لكم فى التيمم ولكن يريد أن يطهركم بالتراب اذا أعوزكم التطهر بالماء ﴿وليتم﴾ بشرعه ماهو مطهرة لابدانكم ومكفرة لذنوبكم ﴿نعمته عليكم﴾ فى الدين أو ليتم برخصة انعامه عليكم بعزائمه ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمته ومن لطائف الآية الكريمة أنها مشتملة على سبعة أمور كلها مثنى طهارتان أصل وبدل والاصل اثنان مستوعب وغير مستوعب وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود وأن آلتهما مائع وجامد وموجبهما حدث أصغر وأكبر وأن المبيح للعدول الى البدل مرض وسفر وان الموعود عليهما تطهير الذنوب واتمام النعمة ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ بالاسلام لتذكركم المنعم وترغبكم فى شكره ﴿وميثاقه الذى واثقكم به﴾ أى عهده المؤكد الذى أخذه عليكم وقوله تعالى ﴿اذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ ظرف لواثقكم به أو لمحذوف وقع حالا من الضمير المجرور فى به أو من ميثاقه أى كائنا وقت قولكم سمعنا وأطعنا وفائدة التقييد به تأكيد وجوب مراعاته بتذكر قبولهم والتزامهم بالمحافظة عليه وهو الميثاق الذى أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله عليه الصلاة والسلام على السمع والطاعة فى حال العسر واليسر والمنشط والمكره وقيل هو الميثاق الواقع ليلة العقبة وفى بيعة الرضوان واضافته اليه تعالى مع صدوره عنه عليه الصلاة والسلام لكون المرجع اليه كما نطق به قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله وقال مجاهد هو الميثاق الذى أخذه الله تعالى على عباده حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام ﴿واتقوا الله﴾ أى فى نسيان نعمته ونقض ميثاقه أو فى كل ماتأتون وماتذرون فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا ﴿ان الله عليم بذات الصدور﴾ أى بخفياتها الملابسة لها ملابسة تامة مصححة لاطلاق الصاحب عليها فيجازيكم عليها فما ظنكم بجليات الاعمال والجملة اعتراض تذييلى وتعليل للامر بالاتقاء واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ شروع فى بيان الشرائع المتعلقة بما يجرى بينهم وبين غيرهم اثر بيان مايتعلق بأنفسهم ﴿كونوا قوامين لله﴾ مقيمين لأوامره ممتثلين بها معظمين لها مراعين لحقوقها ﴿شهداء بالقسط﴾ أى بالعدل ﴿ولا يجرمنكم﴾ أى لا يحملنكم ﴿شنآن قوم﴾ أى شدة بغضكم لهم ﴿على أن لا تعدلوا﴾ فلا تشهدوا فى حقوقهم بالعدل أو فتعتدوا عليهم بارتكاب مالا يحل كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيا وغير ذلك ﴿اعدلوا هو﴾ أى العدل ﴿أقرب للتقوى﴾ الذى أمرتم به صرح لهم بالامر بالعدل وبين أنه بمكان من التقوى بعد مانهاهم عن الجور وبين أنه مقتضى الهوى واذا كان وجوب العدل فى حق الكفار بهذه المثابة فما ظنك بوجوبه فى حق المسلمين ﴿واتقوا الله﴾ أمر بالتقوى اثر مابين أن العدل أقرب له اعتناء بشأنه وتنبيها على أنه ملاك الأمر ﴿ان الله خبير بما تعملون﴾ من الأعمال فيجازيكم بذلك وتكرير هذا الحكم امالاختلاف السبب كما قيل ان الاول نزل فى المشركين وهذا فى اليهود أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة فى اطفاء ثائرة الغيظ والجملة تعليل لما قبلها واظهار الجلالة لما مر مرات وحيث كان مضمونها منبئا عن الوعد والوعيد عقب بالوعد لمن يحافظ على طاعته تعالى وبالوعيد لمن يخل بها فقيل ﴿وعدالله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ التى من جملتها العدل والتقوى ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ حذف ثانى مفعولى وعد استغناء عنه بهذه الجملة فانه استئناف مبين له وقيل الجملة فى موقع المفعول فان الوعد ضرب من القول فكأنه قيل وعدهم هذا القول ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ التى من جملتها ماتليت من النصوص الناطقة بالأمر

بالعدل والتقوى ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر وتكذيب الآيات ﴿أصحاب الجحيم﴾ ملابسوها ملابسة مؤبدة . من السنة السنية القرآنية شفع الوعد بالوعيد والجمع بين الترغيب والترهيب ايفاء لحق الدعوة بالتبشير والانذار ﴿ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ تذكير لنعمة الانجاء من الشر اثر تذكير نعمة ايصال الخير الذى هو نعمة الاسلام وما يتبعها من الميثاق وعليكم متعلق بنعمة الله أو بمحذوف وقع حالا منها وقوله تعالى ﴿اذهم قوم﴾ على الاول ظرف لنفس النعمة وعلى الثانى لما تعلق به عليكم ولا سبيل الى كونه ظرفا لاذكروا لتنافى زمانيهما أى اذكروا انعامه تعالى عليكم أو اذكروا نعمته كائنة عليكم فى وقت هممهم ﴿أن يبسطوا اليكم أيديهم﴾ أى بأن يبطشوا بكم بالقتل والاهلاك يقال بسط اليه يده اذا بطش به و بسط اليه لسانه اذا شتمه وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة الى بيان رجوع ضرر البسط وغائلته اليهم حملا لهم من أول الأمر على الاعتداد بنعمة دفعه كما أن تقديم لكم فى قوله عز وجل هو الذى خلق لكم مافى الأرض للمبادرة الى بيان كون المخلوق من منافعهم تعجيلا للمسرة ﴿فكف أيديهم عنكم﴾ عطف على هم وهو النعمة التى أريد تذكيرها وذكر الهم للايذان بوقوعها عند مزيد الحاجة اليها والفاء للتعقيب المفيد لتمام النعمة وكمالها واظهار أيديهم فى موقع الاضمار لزيادة التقرير أى منع أيديهم أن تمد اليكم عقيب همهم بذلك لا أنه كفها عنكم بعد مامدوها اليكم وفيه من الدلالة على كمال النعمة من حيث أنها لم تكن مشوبة بضرر الخوف والانزعاج الذى قلما يعرى عنه الكف بعد المد مالا يخفى مكانه وذلك ماروى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعسفان فى غزوة ذى أنمار وهى غزوة ذات الرقاع وهى السابعة من مغازيه عليه الصلاة والسلام قاموا الى الظهر معا فلما صلوا ندم المشركون ألا كانوا قد أكبوا عليهم فقالوا ان لهم بعدها صلاة هى أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم يعنون صلاة العصر وهموا أن يوقعوا بهم اذا قاموا اليها فرد الله تعالى كيدهم بأن أنزل صلاة الخوف وقيل هو ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى قريظة ومعه الشيخان وعلى رضى الله تعالى عنهم يستقرضهم لدية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ يحسبهما مشركين فقالوا نعم ياأبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونعطيك ماسألت فأجلسوه فى صفة وهموا بالفتك به وعمد عمرو بن جحاش الى رحا عظيمة يطرحها عليه فأمسك الله تعالى يده ونزل جبريل عليه السلام فأخبره فخرج عليه الصلاة والسلام وقيل هو ماروى أنه عليه الصلاة والسلام نزل منزلا وتفرق أصحابه فى العضاه يستظلون بها فعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه بشجرة فجاء أعرابى فأخذه وسله فقال من يمنعك منى فقال صلى الله عليه وسلم الله تعالى فأسقطه جبريل عليه السلام من يده فأخذه الرسول عليه الصلاة والسلام فقال من يمنعك منى فقال لا أحد أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ﴿واتقوا الله﴾ عطف على اذكروا أى اتقوه فى رعاية حقوق نعمته ولا تخلوا بشكرها أو فى كل ماتأتون وماتذرون فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا ﴿وعلى الله﴾ أى عليه تعالى خاصة دون غيره استقلالا واشتراكا ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فانه يكفيهم فى ايصال كل خير ودفع كل شر والجملة تذييل مقرر لما قبله وايثار صيغة أمر الغائب واسنادها الى المؤمنين لايجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهانى وللايذان بأن ماوصفوا به عند الخطاب من وصف الايمان داع الى ماأمروا به من التوكل والتقوى وازع عن الاخلال بهما واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة التذييلية ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل﴾ كلام مستأنف مشتمل على ذكر بعض ماصدر عن بنى اسرائيل من الخيانة ونقض الميثاق وما أدى اليه ذلك من التبعات مسوق لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله تعالى ومراعاة حق الميثاق الذى واثقهم به وتحذيرهم من نقضه أو لتقرير ماذكر من الهم بالبطش وتحقيقه على تقدير كون ذلك من بنى قريظة حسبما

مر من الرواية ببيان أن الغدر والخيانة عادة لهم قديمة توارثوها من أسلافهم واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتفخيم الميثاق وتهويل الخطب فى نقضه مع مافيه من رعاية حق الاستئناف المستدعى للانقطاع عما قبله والالتفات فى قوله تعالى ﴿وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا﴾ للجرى على سنن الكبرياء أو لأن البعث كان بواسطة موسى عليه السلام كما سيأتى وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر والنقيب فعيل بمعنى فاعل مشتق من النقب وهو التفتيش ومنه قوله تعالى فنقبوا فى البلاد سمى بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم وأسرارهم . قال الزجاج وأصله من النقب وهو الثقب الواسع . روى أن بنى اسرائيل لما استقروا بمصر بعد مهلك فرعون أمرهم الله عز وجل بالمسير الى أريحاء أرض الشام وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون وقال لهم انى كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرجوا اليها وجاهدوا من فيها وانى ناصركم وأمر موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا أمينا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقة عليهم فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بنى اسرائيل وتكفل اليهم النقباء وساربهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فرأوا أجراما عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا وقد نهاهم موسى عن ذلك فنكثوا الميثاق الا كالب بن يوفنا نقيب سبط يهوذا و يوشع بن نون نقيب سبط افرايم بن يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام قيل لما توجه النقباء الى أرضهم للتجسس لقيهم عوج بن عنق وكان طوله ثلاثة آلاف وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وقد عاش ثلاثة آلاف سنة وكان على رأسه حزمة حطب فأخذهم وجعلهم فى الحزمة وانطلق بهم الى امرأته وقال انظرى الى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا فطرحهم بين يديها وقال ألا أطحنهم برجلى فقالت لا بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل فجعلوا يتعرفون أحوالهم وكان لايحمل عنقود عنبهم الا خمسة رجال أو أربعة فلما خرج النقباء قال بعضهم لبعض ان أخبرتم بنى اسرائيل بخبر القوم ارتدوا عن نبى الله ولكن اكتموه الا عن موسى وهرون عليهما السلام فيكونان هما يريان رأيهما فأخذ كل منهم ينهى سبطه عن قتالهم ويخبرهم بما رأى الا كالب و يوشع وكان معسكر موسى فرسخا فى فرسخ فجاء عوج حتى نظر اليهم ثم رجع الى الجبل فقور منه صخرة عظيمة على قدر العسكر ثم حملها على رأسه ليطبقها عليهم فبعث الله تعالى الهدهد فقور من الصخرة وسطها المحاذى لرأسه فانتقبت فوقعت فى عنق عوج وطوقته فصرعته وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع وكذا طول العصا فترامى فى السماء عشرة أذرع فما أصاب العصا الا كعبه وهو مصروع فقتله قالوا فأقبلت جماعة ومعهم الخناجر حتى حزوا رأسه ﴿وقال الله﴾ أى لبنى اسرائيل فقط اذ هم المحتاجون الى ماذكر من الترغيب والترهيب كما ينبئ عنه الالتفات مع مافيه من تربية المهابة وتأكيد مايتضمنه الكلام من الوعد ﴿انى معكم﴾ أى بالعلم والقدرة والنصرة لا بالنصرة فقط فان تنبيههم على علمه تعالى بكل مايأتون ومايذرون وعلى كونهم تحت قدرته وملكوته مما يحملهم على الجد فى الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه كأنه قيل انى معكم أسمع كلامكم وأرى أعمالكم وأعلم ضمائركم فأجازيكم بذلك هذا وقد قيل المراد بالميثاق هو الميثاق بالايمان والتوحيد و بالنقباء ملوك بنى اسرائيل الذين ينقبون أحوالهم و يلون أمورهم بالأمر والنهى واقامة العدل وهو الانسب بقوله تعالى ﴿لئن أقمتم الصلوة و آتيتم الزكوة و آمنتم برسلى﴾ أى بجميعهم واللام موطئة للقسم المحذوف وتأخير الايمان عن اقامة الصلاة وايتاء الزكاة مع كونهما من الفروع المترتبة عليه لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم لتكذيب بعض الرسل عليهم السلام ولمراعاة المقارنة بينه و بين قوله تعالى ﴿وعزرتموهم﴾ أى نصرتموهم وقويتموهم وأصله الذب وقيل التعظيم والتوقير

والثناء بخير وقرئ وعزرتموهم بالتخفيف ﴿وأقرضتم الله﴾ بالانفاق فى سبيل الخير أو بالتصدق بالصدقات المندوبة وقوله تعالى ﴿قرضا حسنا﴾ اما مصدر مؤكد وارد على غير صيغة المصدر كما فى قوله تعالى فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا أو مفعول ثان لأقرضتم على أنه اسم للمال المقرض وقوله تعالى ﴿لأكفرن عنكم سيآتكم﴾ جواب للقسم المدلول عليه باللام ساد مسد جواب الشرط ﴿ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ عطف على ماقبله داخل معه فى حكم الجواب متأخر عنه فى الحصول أيضا ضرورة تقدم التخلية على التحلية ﴿فمن كفر﴾ أى برسلى أو بشىء مما عدد فى حيز الشرط والفاء لترتيب بيان حكم من كفر على بيان حكم من آمن تقوية للترغيب بالترهيب ﴿بعد ذلك﴾ الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم الموجب للايمان قطعا ﴿منكم﴾ متعلق بمضمر وقع حالا من فاعل كفر ولعل تغيير السبك حيث لم يقل وان كفرتم عطفا على الشرطية السابقة لاخراج كفر الكل عن حيز الاحتمال واسقاط من كفر عن رتبة الخطاب وليس المراد احداث الكفر بعد الايمان بل مايعم الاستمرار عليه أيضا كأنه قيل فمن اتصف بالكفر بعد ذلك خلا أنه قصد بايراد مايدل على الحدوث بيان ترقيهم فى مراتب الكفر فان الاتصاف بشىء بعد ورود مايوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أى وسط الطريق الواضح ضلالا بينا وأخطأه خطأ فاحشا لاعذر معه أصلا بخلاف من كفر قبل ذلك اذر بما يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم له معذرة ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ الباء سببية ومامزيدة لتأكيد الكلام وتمكينه فى النفس أى بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لايشىء آخر استقلالا أوانضماما ﴿لعناهم﴾ طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا أومسخناهم قردة وخنازير أوأذللناهم بضرب الجزية عليهم وتخصيص البيان بماذكر مع أن حقه أن يبين بعد بيان تحقق نفس اللعن والنقض بأن يقال مثلا فنقضوا ميثاقهم فلعناهم ضرورة تقدم هيئة الشىء البسيطة على هيئته المركبة للايذان بأن تحققهما أمر جلى غنى عن البيان وانما المحتاج الى ذلك مابينهما من السببية والمسببية ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ بحيث لاتتأثر من الآيات والنذر وقيل أمليناالهم ولم نعاجلهم بالعقوبة حتى قست أوخذلناهم ومنعناهم الالطاف حتى صارت كذلك وقرئ قسية وهى امامبالغة قاسية واما بمعنى رديئة من قولهم درهم قسى أى ردىء اذا كان مغشوشا له يبس وخشونة وقرئ بكسر القاف اتباعا لها بالسين ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ استئناف لبيان مرتبة قساوة قلوبهم فانه لامرتبة أعظم مما يصحح الاجتراء على تغيير كلام الله عز وجل والافتراء عليه وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقيل حال من مفعول لعناهم ﴿ونسوا حظا﴾ أى تركوا نصيبا وافرا ﴿مما ذكروا به﴾ من التوراة أومن اتباع محمد عليه الصلاة والسلام وقيل حرفوا التوراة وزلت أشياء منها عن حفظهم وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية ﴿ولاتزال تطلع على خائنة منهم﴾ أى خيانة على أنها مصدر كلاغية وكاذبة أوفعلة خائنة أى ذات خيانة أوطائفة خائنة أوشخص خائنة على أن التاء للمبالغة أونفس خائنة ومنهم متعلق بمحذوف وقع صفة لها خلا أن من على الوجهين الأولين ابتدائية أى على خيانة أوعلى فعلة خائنة كائنة منهم صادرة عنهم وعلى الوجوه الباقية تبعيضية والمعنى أن الغدر والخيانة عادة مستمرة لهم ولأسلافهم بحيث لايكادون يتركونها أويكتمونها فلاتزال ترى ذلك منهم ﴿الاقليلا منهم﴾ استثناء من الضمير المجرور فى منهم على الوجوه كلها وقيل من خائنة على الوجوه الثلاثة الأخيرة والمرادبهم الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل من خائنة على الوجه الثانى فالمراد بالقليل الفعل القليل ومن ابتدائية كما مر أى الافعلا قليلا كائنا منهم ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ أى ان تابوا وآمنوا أوعاهدوا والتزموا الجزية وقيل مطلق نسخ بآية السيف ﴿ان الله يحب المحسنين﴾ تعليل للامر وحث على الامتثال به

وتنبيه على أن العفو على الاطلاق من باب الاحسان ﴿ومن الذين قالوا انانصارى أخذنا ميثاقهم﴾ بيان لقبائح النصارى وجناياتهم اثر بيان قبائح اليهود وخياناتهم ومن متعلقة بأخذنا اذ التقدير وأخذنا من الذين قالوا انانصارى ميثاقهم وتقديم الجار والمجرور للاهتمام به ولان ذكر حال احدى الطائفتين مما يوقع فى ذهن السامع أن حال الاخرى ماذا فكأنه قيل ومن الطائفة الاخرى أيضا أخذنا ميثاقهم وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع خبرا لمبتدا محذوف قامت صفته أوصلته مقامه أى ومنهم قوم أخذنا ميثاقهم أومن أخذنا ميثاقهم وضمير ميثاقهم راجع الى الموصوف المقدر وأما فى الوجه الأول فراجع الى الموصول وقيل راجع الى بنى اسرائيل أى أخذنا من هؤلاء ميثاق أولئك أى مثل ميثاقهم من الايمان بالله والرسل وبما يتفرع على ذلك من أفعال الخير وانما نسب تسميتهم نصارى الى أنفسهم دون أن يقال ومن النصارى ايذانا بأنهم فى قولهم نحن أنصار الله بمعزل من الصدق وانما هو تقول محض منهم وليسوا من نصرة الله تعالى فى شىء أو اظهارا لكمال سوء صنيعهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم فان ادعاءهم لنصرته تعالى يستدعى ثباتهم على طاعته تعالى ومراعاة ميثاقه ﴿فنسوا﴾ عقيب أخذ الميثاق من غير تلعثم ﴿حظا﴾ وافرا ﴿مما ذكروا به﴾ فى تضاعيف الميثاق من الايمان بالله تعالى وغير ذلك حسبما مر آنفا وقيل هو ما كتب عليهم فى الانجيل من أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام فتركوه ونبذوه وراء ظهورهم واتبعوا أهواءهم فاختلفوا وتفرقوا نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصارا للشيطان ﴿فأغرينا﴾ أى ألزمنا وألصقنا من غرى بالشىء اذا لزمه ولصق به وأغراه غيره ومنه الغراء وقوله تعالى ﴿بينهم﴾ اما ظرف لأغرينا أومتعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله أى أغرينا ﴿العداوة والبغضاء﴾ كائنة بينهم ولاسبيل الى جعله ظرفا لهما لأن المصدر لايعمل فيما قبله وقوله تعالى ﴿الى يوم القيامة﴾ اما غاية للاغراء أوللعداوة والبغضاء أى يتعادون ويتباغضون الى يوم القيامة حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة وآراؤهم الزائغة المؤدية الى التفرق الى الفرق الثلاث فضمير بينهم لهم خاصة وقيل لهم ولليهود أى أغرينا العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ وعيد شديد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت أى يجازيهم بما عملوه على الاستمرار من نقض الميثاق ونسيان الحظ الوافر مما ذكروا به وسوف لتأكيد الوعيد والالتفات الى ذكر الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة لتشديد الوعيد والتعبير عن العمل بالصنع للايذان برسوخهم فى ذلك وعن المجازاة بالتنبئة للتنبيه على أنهم لايعلمون حقيقة مايعملونه من الأعمال السيئة واستتباعها للعذاب فيكون ترتيب العذاب عليها فى افادة العلم بحقيقة حالها بمنزلة الاخبار بها ﴿ياأهل الكتاب﴾ التفات الى خطاب الفريقين على أن الكتاب جنس شامل للتوراة والانجيل اثر بيان أحوالهما من الخيانة وغيرها من فنون القبائح ودعوة لهم الى الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن وايرادهم بعنوان أهلية الكتاب لانطواء الكلام المصدر به على مايتعلق بالكتاب وللمبالغة فى التشنيع فان أهلية الكتاب من موجبات مراعاته والعمل بمقتضاه وبيان مافيه من الأحكام وقد فعلوا من الكتم والتحريف مافعلوا وهم يعلمون ﴿قد جاءكم رسولنا﴾ الاضافة للتشريف والايذان بوجوب اتباعه وقوله تعالى ﴿يبين لكم﴾ حال من رسولنا وايثار الجملة الفعلية على غيرها للدلالة على تجدد البيان أى قد جاءكم رسولنا حال كونه مبينا لكم على التدريج حسبما تقتضيه المصلحة ﴿كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ أى التوراة والانجيل كبعثة محمد عليه الصلاة والسلام وآية الرجم فى التوراة وبشارة عيسى بأحمد عليهما السلام فى الانجيل وتأخير كثيرا عن الجار والمجرور لما مر مرارا من اظهار العناية بالمقدم لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر لأن ماحقه التقديم اذا أخر لاسيما مع الاشعار بكونه من منافع المخاطب تبقى النفس

مترقبة الى وروده فيتمكن عندها اذا ورد فضل تمكن ولأن فى المؤخر ضرب تفصيل ربما يخل تقديمه بتجاذب أطراف النظم الكريم فان مما متعلق بمحذوف وقع صفة لكثيرا وماموصولة اسمية ومابعدها صلتها والعائد اليهامحذوف ومن الكتاب متعلق بمحذوف هو حال من العائد المحذوف والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرارهم على الكتم والاخفاء أى يبين لكم كثيرا من الذى تخفونه على الاستمرار حال كونه من الكتاب الذى أنتم أهله والمتمسكون به ﴿ويعفو عن كثير﴾ أى ولا يظهر كثيرا مما تخفونه اذا لم تدع اليه داعية دينية صيانة لكم عن زيادة الافتضاح كما يفصح عنه التعبير عن عدم الاظهار بالعفو وفيه حث لهم على عدم الاخفاء ترغيبا وترهيبا والجملة معطوفة على الجملة الحالية داخلة فى حكمها وقيل يعفو عن كثير منكم ولا يؤاخذه وقوله تعالى ﴿قد جاءكم من الله نور﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان أن فائدة مجىء الرسول ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه بل له منافع لا تحصى ومن الله متعلق بجاء ومن لابتداء الغاية مجازا أو بمحذوف وقع حالا من نور وأياً ما كان فهو تصريح بما يشعر به اضافة الرسول من مجيئه من جنابه عز وجل وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للمسارعة الى بيان كون المجىء من جهته العالية والتشويق الى الجائى ولأن فيه نوع تطويل يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم كما فى قوله تعالى وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين وتنوين نور للتفخيم والمراد به وبقوله تعالى ﴿وكتاب مبين﴾ القرآن لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك وابانة ماخفى على الناس من الحق والاعجاز البين والعطف لتنزيل المغايرة بالعنوان منزلة المغايرة بالذات وقيل المراد بالأول هو الرسول عليه الصلاة والسلام وبالثانى القرآن ﴿يهدى به الله﴾ توحيد الضمير المجرور لاتحاد المرجع بالذات أو لكونهما فى حكم الواحد أو أريد يهدى بما ذكر وتقديم الجار والمجرور للاهتمام واظهار الجلالة لاظهار كمال الاعتناء بأمر الهداية ومحل الجملة الرفع على أنها صفة ثانية لكتاب أو النصب على الحالية منه لتخصصه بالصفة ﴿من اتبع رضوانه﴾ أى رضاه بالايمان به ومن موصولة أو موصوفة ﴿سبل السلام﴾ أى طرق السلامة من العذاب والنجاة من العقاب أو سبل الله تعالى وهى شريعته التى شرعها للناس قيل هو مفعول ثان ليهدى والحق أن انتصابه بنزع الخافض على طريقة قوله تعالى واختار موسى قومه وانما يعدى الى الثانى بالى أو باللام كما فى قوله تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴿ويخرجهم﴾ الضمير لمن والجمع باعتبار المعنى كما أن الافراد فى اتبع باعتبار اللفظ ﴿من الظلمات﴾ أى ظلمات فنون الكفر والضلال ﴿الى النور﴾ الى الايمان ﴿باذنه﴾ بتيسيره أو بارادته ﴿ويهديهم الى صراط مستقيم﴾ هو أقرب الطرق الى الله تعالى ومؤد اليه لا محالة وهذه الهداية عين الهداية الى سبل السلام وانما عطفت عليها تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله تعالى ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴿لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم﴾ أى لا غير كما يقال الكرم هو التقوى وهم اليعقوبية القائلون بأنه تعالى قد يحل فى بدن انسان معين أو فى روحه وقيل لم يصرح به أحد منهم لكن حيث اعتقدوا اتصافه بصفات الله الخاصة وقد اعترفوا بأن الله تعالى موجود فلزمهم القول بأنه المسيح لا غير وقيل لما زعموا أن فيه لاهوتا وقالوا لا اله الا واحد لزمهم أن يكون هو المسيح فنسب اليهم لازم قولهم توضيحا لجهلهم وتفضيحا لمعتقدهم ﴿قل﴾ أى تبكيتا لهم واظهاراً لبطلان قولهم الفاسد والقاما لهم الحجر والفاء فى قوله تعالى ﴿فمن يملك من الله شيئا﴾ فصيحة ومن استفهامية للانكار والتوبيخ والملك الضبط والحفظ التام عن حزم ومن متعلقة به على حذف المضاف أى ان كان الامر كما تزعمون فمن يمنع من قدرته تعالى وارادته شيئا وحقيقته فمن يستطيع أن يمسك شيئا منهما ﴿ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الارض جميعا﴾ ومن حق من

يكون الها أن لا يتعلق به ولا بشأن من شئونه بل بشىء من الموجودات قدرة غيره بوجه من الوجوه فضلا عن أن يعجز عن دفع شىء منها عند تعلقها بهلاكه فلما كان عجزه بينا لا ريب فيه ظهر كونه بمعزل مما تقولوا فى حقه والمراد بالاهلاك الاماتة والاعدام مطلقا لا بطريق السخط والغضب واظهار المسيح على الوجه الذى نسبوا اليه الألوهية فى مقام الاضمار لزيادة التقرير والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره وملكوته تعالى ونفى المالكية المذكورة بالاستفهام الانكارى عن كل أحد مع تحقق الالزام والتبكيت بنفيها عن المسيح فقط بأن يقال فهل يملك شيئاً من الله ان أراد الخ لتحقيق الحق بنفى الألوهية عن كل ماعداه سبحانه واثبات المطلوب فى ضمنه بالطريق البرهانى فان انتفاء المالكية المستلزم لاستحالة الألوهية متى ظهر بالنسبة الى الكل ظهر بالنسبة الى المسيح على أبلغ وجه وآكده فيظهر استحالة ألوهيته قطعا وتعميم ارادة الاهلاك للكل مع حصول ماذكر من التحقيق بقصرها عليه بأن يقال فمن يملك من الله شيئاً ان أراد أن يهلك المسيح لتهويل الخطب واظهار كمال العجز ببيان أن الكل تحت قهره تعالى وملكوته لا يقدر أحد على دفع ماأريد به فضلا عن دفع ما أريد بغيره وللايذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات فى كونه عرضة للهلاك كما أنه أسوة لها فيما ذكر من العجز وعدم استحقاق الألوهية وتخصيص أمه بالذكر مع اندراجها فى ضمن من فى الارض لزيادة تأكيد عجز المسيح ولعل نظمها فى سلك من فرض ارادة اهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها انموذجا لحال بقية من فرض اهلاكه كأنه قيل قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن فى الارض وقد أهلك أمه فهل مانعه أحد فكذا حال من عداها من الموجودين وقوله تعالى ﴿ولله ملك السموات والارض وما بينهما﴾ أى ما بين قطرى العالم الجسمانى لا بين وجه الارض ومقعر فلك القمر فقط فيتناول مافى السموات من الملائكة عليهم السلام وما فى أعماق الارض والبحار من المخلوقات تنصيص على كون الكل تحت قهره تعالى وملكوته اثر الاشارة الى كون البعض أى من فى الأرض كذلك أى له تعالى وحده ملك جميع الموجودات والتصرف المطلق فيها ايجادا واعداما واحياء واماتة لا لأحد سواه استقلالا ولا اشتراكا فهو تحقيق لاختصاص الألوهية به تعالى اثر بيان انتفائها عن كل ماسواه وقوله تعالى ﴿يخلق ما يشاء﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزيح مااعتراهم من الشبهة فى أمر المسيح لولادته من غير أب وخلق الطير واحياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص أى يخلق ما يشاء من أنواع الخلق والايجاد على أن ما نكرة موصوفة محلها النصب على المصدرية لا على المفعولية كأنه قيل يخلق أى خلق يشاؤه فتارة يخلق من غير أصل كخلق السموات والارض وأخرى من أصل كخلق ما بينهما فينشىء من أصل ليس من جنسه كخلق آدم وكثير من الحيوانات ومن أصل يجانسه اما من ذكر وحده كخلق حواء أو انثى وحدها كخلق عيسى عليه السلام أو منهما كخلق سائر الناس ويخلق بلا توسط شىء من المخلوقات كخلق عامة المخلوقات وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر كخلق الطير على يد عيسى عليه السلام معجزة له واحياء الموتى وابراء الاكمه والأبرص وغير ذلك فيجب أن ينسب كله اليه تعالى لا الى من أجرى ذلك على يده ﴿والله على كل شىء قدير﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله واظهار الاسم الجليل للتعليل وتقوية استقلال الجملة ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة وبيان لبطلانها بعد ذكر ما صدر عن أحدهما وبيان بطلانه أى قالت اليهود نحن أشياع ابنه عزير وقالت النصارى نحن أشياع ابنه المسيح كما قيل لأشياع أبى خبيب وهو عبد الله بن الزبير الخبيبيون وكما يقول أقارب الملوك عند المفاخرة نحن الملوك وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان النبى عليه الصلاة والسلام دعا جماعة من اليهود الى دين الاسلام وخوفهم بعقاب الله تعالى فقالوا كيف تخوفنا

به ونحن أبناء الله وأحباؤه وقيل ان النصارى يتلون فى الانجيل أن المسيح قال لهم انى ذاهب الى أبى وأبيكم وقيل أرادوا أن الله تعالى كالأب لنا فى الحنو والعطف ونحن كالأبناء له فى القرب والمنزلة وبالجملة أنهم كانوا يدعون أن لهم فضلا ومزية عند الله تعالى على سائر الخلق فرد عليهم ذلك وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿قل﴾ الزاما لهم وتبكيتا ﴿فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ أى ان صح مازعمتم فلأى شئ يعذبكم فى الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم فى الآخرة بالنار أياما بعدد أيام عبادتكم العجل ولوكان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ماصدر ولما وقع عليكم ماوقع وقوله تعالى ﴿بل أنتم بشر﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى لستم كذلك بل أنتم بشر ﴿ممن خلق﴾ أى من جنس من خلقه الله تعالى من غير مزية لكم عليهم ﴿يغفر لمن يشاء﴾ أن يغفر له من أولئك المخلوقين وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله ﴿ويعذب من يشاء﴾ أن يعذبه منهم وهم الذين كفروا به وبرسله مثلكم ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ من الموجودات لاينتمى اليه سبحانه شئ منها الا بالمملوكية والعبودية والمقهورية تحت ملكوته يتصرف فيهم كيف يشاء ايجادا واعداما احياء واماتة واثابة وتعذيبا فأنى لهم ادعاء مازعموا ﴿واليه المصير﴾ فى الآخرة خاصة لاالى غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازى كلا من المحسن والمسئ بما يستدعيه عمله من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه ﴿ياأهل الكتاب﴾ تكرير للخطاب بطريق الالتفات ولطف فى الدعوة ﴿قد جاءكم رسولنا يبين لكم﴾ حال من رسولنا وايثاره على مبينا لما مر فيما سبق أى يبين لكم الشرائع والأحكام الدينية المقرونة بالوعد والوعيد ومن جملتها مابين فى الآيات السابقة من بطلان أقاويلكم الشنعاء وما سيأتى من أخبار الأمم السالفة وانما حذف تعويلا على ظهور أن مجئ الرسول انما هو لبيانها أو يفعل لكم البيان ويبذله لكم فى كل ماتحتاجون فيه الى البيان من أمور الدين وأما تقدير مثل ما سبق فى قوله تعالى كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب كما قيل فمع كونه تكريرا من غير فائدة يرده قوله عز وجل ﴿على فترة من الرسل﴾ فان فتور الارسال وانقطاع الوحى انما يحوج الى بيان الشرائع والأحكام لاالى بيان ما كتموه وعلى فترة متعلق بجاءكم على الظرفية كما فى قوله تعالى واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان أى جاءكم على حين فتور من الارسال وانقطاع من الوحى ومزيد احتياج الى بيان الشرائع والأحكام الدينية أو بمحذوف وقع حالا من ضمير يبين أو من ضمير لكم أى يبين لكم ماذكر حال كونه على فترة من الرسل أو حال كونكم عليها أحوج ما كنتم الى البيان ومن الرسل متعلق بمحذوف وقع صفة لفترة أى كائنة من الرسل مبتدأة من جهتهم وقوله تعالى ﴿أن تقولوا﴾ تعليل لمجئ الرسول بالبيان على حذف المضاف أى كراهة أن تقولوا معتذرين عن تفريطكم فى مراعاة أحكام الدين ﴿ماجاءنا من بشير ولا نذير﴾ وقد انطمست آثار الشرائع السابقة وانقطعت أخبارها وزيادة من فى الفاعل للمبالغة فى نفى المجئ وتنكير بشير ونذير للتقليل وهذا كما ترى يقتضى أن المقدر أو المنوى فيما سبق هو الشرائع والأحكام لا كيفما كانت بل مشفوعة بما ذكر من الوعد والوعيد وقوله تعالى ﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾ متعلق بمحذوف ينبئ عنه الفاء الفصيحة وتبين أنه معلل به وتنوين بشير ونذير للتفخيم أى لاتعتذروا بذلك فقد جاءكم بشير أى بشير ونذير أى نذير ﴿والله على كل شئ قدير﴾ فيقدر على الارسال تترى كما فعله بين موسى وعيسى عليهما السلام حيث كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألف نبى وعلى الارسال بعد الفترة كما فعله بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام حيث كان بينهما ستمائة سنة أو خمسمائة وتسع وستون سنة أو خمسمائة وست وأربعون سنة وأربعة أنبياء على ماروى الكلبى ثلاثة من بنى اسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسى وقيل لم يكن بعد عيسى عليه السلام الارسول الله عليه السلام وهو الأنسب بما فى تنوين فترة من التفخيم اللائق بمقام الامتنان عليهم بأن الرسول قد بعث اليهم عند كمال حاجتهم اليه بسبب مضى دهر طويل

بعد انقطاع الوحى ليهشوا اليه ويعدوه أعظم نعمة من الله تعالى وفتح باب الى الرحمة وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل اليهم من ينبههم من غفلتهم ﴿واذ قال موسى لقومه﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان مافعلت بنو اسرائيل بعد أخذ الميثاق منهم وتفصيل كيفية نقضهم له وتعلقه بما قبله من حيث أن ماذكر فيه من الامور التى وصف النبى عليه السلام ببيانها ومن حيث اشتماله على انتفاء فترة الرسل فيما بينهم واذ نصب على أنه مفعول لفعل مقدر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن أهل الكتاب ليعدد عليهم ماصدر عن بعضهم من الجنايات أى واذكر لهم وقت قول موسى لقومه ناصحا لهم ومستميلا لهم باضافتهم اليه ﴿ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾ وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ماوقع فيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل على ماوقع فيه تفصيلا فاذا استحضر كان ماوقع فيه حاضرا بتفاصيله كأنه مشاهد عيانا وعليكم متعلق بنفس النعمة اذا جعلت مصدرا وبمحذوف وقع حالا منها اذا جعلت اسما أى اذكروا انعامه عليكم أواذكروا نعمته كائنة عليكم وكذا اذ فى قوله تعالى ﴿اذ جعل فيكم أنبياء﴾ أى اذكروا انعامه تعالى عليكم فى وقت جعله أواذكروا نعمته تعالى كائنة عليكم فى وقت جعله فيما بينكم من أقربائكم أنبياء ذوى عدد كثير وأولى شأن خطير حيث لم يبعث من أمة من الأمم مابعث من بنى اسرائيل من الأنبياء ﴿وجعلكم ملوكا﴾ عطف على جعل فيكم داخل فى حكمه أى جعل فيكم أومنكم ملوكا كثيرة فانه قد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الانبياء وانما حذف الظرف تعويلا على ظهور الأمر أوجعل الكل فى مقام الامتنان عليهم ملوكا لما أن أقارب الملوك يقولون عند المفاخرة نحن الملوك وانما لم يسلك ذلك المسلك فيما قبله لما أن منصب النبوة من عظم الخطر وعزة المطلب وصعوبة المنال ليس بحيث يليق أن ينسب اليه ولو مجازا من ليس ممن اصطفاه الله تعالى له وقيل كانوا مملوكين فى أيدى القبط فأنقذهم الله تعالى فسمى انقاذهم ملكا وقيل الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار وقيل من له بيت وخدم وقيل من له مال لايحتاج معه الى تكلف الأعمال وتحمل المشاق ﴿وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين﴾ من فلق البحر واغراق العدو وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغير ذلك مما آتاهم الله تعالى من الأمور العظام والمراد بالعالمين الأمم الخالية الى زمانهم وقيل من عالمى زمانهم ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ كرر النداء بالاضافة التشريفية اهتماما بشأن الأمر ومبالغة فى حثهم على الامتثال به والأرض هى أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين وقيل هى الطور وماحوله وقيل دمشق وفلسطين وبعض الأردن وقيل هى الشأم ﴿التى كتب الله لكم﴾ أى كتب فى اللوح المحفوظ أنها تكون مسكنا لكم ان آمنتم وأطعتم لقوله تعالى لهم بعد ماعصوا فانها محرمة عليهم وقوله تعالى ﴿ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ فان ترتيب الخيبة والخسران على الارتداد يدل على اشتراط الكتب بالمجاهدة المترتبة على الايمان والطاعة قطعا أى لاترجعوا مدبرين خوفا من الجبابرة فالجار والمجرور متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ترتدوا ويجوز أن يتعلق بنفس الفعل قيل لما سمعوا أحوالهم من النقباء بكوا وقالوا ياليتنا متنا بمصر تعالوا نجعل لنا رأسا ينصرف بنا الى مصر أولا ترتدوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق بالله تعالى وقوله فتنقلبوا اما مجزوم عطفا على ترتدوا أو منصوب على جواب النهى والخسران خسران الدين والدنيا لاسيما دخول ما كتب لهم ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى نشأ من مساق الكلام كأنه قيل فماذا قالوا بمقابلة أمره عليه السلام ونهيه فقيل قالوا غير ممتثلين بذلك ﴿ياموسى ان فيها قوما جبارين﴾ متغلبين لا يتأتى منازعتهم ولا يتسنى مناصبتهم والجبار العاتى الذى يجبر الناس ويقسرهم كائنا من كان على مايريده كائنا ما كان فعال من جبره على الأمر أى أجبره عليه ﴿وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾

من غير صنع من قبلنا فانه لاطاقة لنا باخراجهم منها ﴿فان يخرجوا منها﴾ بسبب من الأسباب التى لاتعلق لنا بها ﴿فانا داخلون﴾ حينئذ أتوا بهذه الشرطية مع كون مضمونها مفهوما مما سبق من توقيت عدم الدخول بخروجهم منها تصريحا بالمقصود وتنصيصا على أن امتناعهم من دخولها ليس الا لمكانهم فيها وأتوا فى الجزاء بالجملة الاسمية المصدرة بحرف التحقيق دلالة على تقرر الدخول وثباته عند تحقق الشرط لامحالة واظهارا لكمال الرغبة فيه وفى الامتثال بالأمر ﴿قال رجلان﴾ استئناف كما سبق كأنه قيل هل اتفقوا على ذلك أو خالفهم البعض فقيل قال رجلان ﴿من الذين يخافون﴾ أى يخافون الله تعالى دون العدو و يتقونه فى مخالفة أمره ونهيه و به قرأ ابن مسعود وفيه تعريض بأن من عداهما لايخافونه تعالى بل يخافون العدو وقيل من الذين يخافون العدو أى منهم فى النسب لافى الخوف وهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا من النقباء وقيل هما رجلان من الجبابرة أسلما وسارا الى موسى عليه السلام فالواو حينئذ لبنى اسرائيل والموصول عبارة عن الجبابرة واليهم يعود العائد المحذوف أى من الذين يخافهم بنو اسرائيل و يعضده قراءة من قرأ يخافون على صيغة المبنى للمفعول أى المخوفين وعلى الأول يكون هذا من الاخافة أى من الذين يخوفون من الله تعالى بالتذكير أو يخوفهم الوعيد ﴿أنعم الله عليهما﴾ أى بالتثبيت و ربط الجأش والوقوف على شئونه تعالى والثقة بوعده أو بالايمان وهو صفة ثانية لرجلان أواعتراض وقيل حال من الضمير فى يخافون أومن رجلان لتخصصه بالصفة أى قالا مخاطبين لهم ومشجعين ﴿ادخلوا عليهم الباب﴾ أى باب بلدهم وتقديم الجار والمجرور عليه للاهتمام به لأن المقصود انما هو دخول الباب وهم فى بلدهم أى باغتوهم وضاغطوهم فى المضيق وامنعوهم من البروز الى الصحراء لئلا يجدوا للحرب مجالا ﴿فاذا دخلتموه﴾ أى باب بلدهم وهم فيه ﴿فانكم غالبون﴾ من غير حاجة الى القتال فانا قد رأيناهم وشاهدنا أن قلوبهم ضعيفة وان كانت أجسادهم عظيمة فلا تخشوهم واهجموا عليهم فى المضايق فانهم لا يقدرون فيها على الكر والفر وقيل انما حكما بالغلبة لما علماها من جهة موسى عليه السلام ومن قوله تعالى كتب الله لكم أو لما علما من سنته تعالى فى نصرة رسله وما عهدا من صنعه تعالى لموسى عليه السلام من قهر أعدائه والأول أنسب بتعليق الغلبة بالدخول ﴿وعلى الله﴾ تعالى خاصة ﴿فتوكلوا﴾ بعد ترتيب الأسباب و لا تعتمدوا عليها فانها بمعزل من التأثير وانما التأثير من عند الله العزيز القدير ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ أى مؤمنين به تعالى مصدقين لوعده فان ذلك مما يوجب التوكل عليه حتما ﴿قالوا﴾ استئناف كما سبق أى قالوا غير مبالين بهما و بمقالتهما مخاطبين لموسى عليه السلام اظهارا لاصرارهم على القول الأول وتصريحا بمخالفتهم له عليه السلام ﴿ياموسى انا لن ندخلها﴾ أى أرض الجبابرة فضلا عن دخول بابهم وهم فى بلدهم ﴿أبدا﴾ أى دهرا طويلا ﴿مادامو فيها﴾ أى فى أرضهم وهو بدل من أبدا بدل البعض أوعطف بيان ﴿فاذهب﴾ الفاء فصيحة أى فاذا كان الأمر كذلك فاذهب ﴿أنت و ربك فقاتلا﴾ أى فقاتلاهم انما قالوا ذلك استهانة واستهزاء به سبحانه و برسوله وعدم مبالاة بهما وقصدوا ذا بهما حقيقة كما ينبئ عنه غاية جهلهم وقسوة قلوبهم وقيل أرادوا ارادتهما وقصدهما كما تقول كلمته فذهب يجيبنى كأنهم قالوا فأريدا قتالهم واقصداهم وقيل التقدير فاذهب أنت و ربك يعينك و لا يساعده قوله تعالى فقاتلا ولم يذكروا هرون و لا الرجلين كأنهم لم يجزموا بذهابهم أولم يعبأوا بقتالهم وقوله تعالى ﴿انا ههنا قاعدون﴾ يؤيد الوجه الأول وأرادوا بذلك عدم التقدم لاعدم التأخر ﴿قال﴾ عليه السلام لما رأى منهم مارأى من العناد على طريقة البث والحزن والشكوى الى الله تعالى مع رقة القلب التى بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة ﴿رب انى لاأملك الا نفسى وأخى﴾ عطف على نفسى وقيل على الضمير فى انى على معنى انى لا أملك الا نفسى وان أخى لا يملك الا نفسه وقيل على الضمير فى لاأملك للفصل

﴿فافرق بيننا﴾ يريد نفسه وأخاه والفاء لترتيب الفرق أو الدعاء به على ماقبله ﴿و بين القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن طاعتك المصرين على عصيانك بأن تحكم لنا بما نستحقه وعليهم بما يستحقونه وقيل بالتبعيد بيننا و بينهم وتخليصنا من صحبتهم ﴿قال فانها﴾ أى الأرض المقدسة والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها من الدعاء ﴿محرمة عليهم﴾ تحريم منع لاتحريم تعبد لايدخلونها و لايملكونها لان كتابتها لهم كانت مشروطة بالايمان والجهاد وحيث نكصوا على أدبارهم حرموا ذلك وانقلبوا خاسرين وقوله تعالى ﴿أربعين سنة﴾ ان جعل ظرفا لمحرمة يكون التحريم موقتا لامؤبدا فلا يكون مخالفا لظاهر قوله تعالى كتب الله لكم فالمراد بتحريمها عليهم أنه لايدخلها أحد منهم فى هذه المدة لكن لابمعنى أن كلهم يدخلونها بعدها بل بعضهم ممن بقى حسبما روى أن موسى عليه السلام سار بمن بقى من بنى اسرائيل الى أريحا وكان يوشع بن نون على مقدمته ففتحها وأقام بها ماشاء الله تعالى ثم قبضه عليه السلام وقيل لم يدخلها أحد ممن قال لن ندخلها أبدا وانما دخلها مع موسى عليه السلام النواشى من ذرياتهم فالموقت بالاربعين فى الحقيقة تحريمها على ذرياتهم وانما جعل تحريمها عليهم لما بينهما من العلاقة التامة المتاخمة للاتحاد وقوله تعالى ﴿يتيهون فى الارض﴾ أى يتحيرون فى البرية استئناف لبيان كيفية حرمانهم أو حال من ضمير عليهم وقيل الظرف متعلق بيتيهون فيكون التيه موقتا والتحريم مطلقا قيل كانوا ستمائة ألف مقاتل وكان طول البرية تسعين فرسخا وقد تاهوا فى ستة فراسخ أو تسعة فراسخ فى ثلاثين فرسخا وقيل فى ستة فراسخ فى اثنى عشر فرسخا. روى أنهم كانوا كل يوم يسيرون جادين حتى اذا أمسوا اذا هم بحيث ارتحلوا وكان الغمام يظلهم من حر الشمس و يطلع بالليل عمود من نور يضئ لهم و ينزل عليهم المن والسلوى و لا تطول شعورهم واذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر بطول يطوله وهذه الانعامات عليهم مع أنهم معاقبون لما أن عقابهم كان بطريق العرك والتأديب. قيل كان موسى وهرون معهم ولكن كان ذلك لهما روحا وسلامة كالنار لابراهيم وملائكة العذاب عليهم السلام و روى أن هرون مات فى التيه ومات موسى بعده فيه بسنة ودخل يوشع أريحا بعد موته بثلاثة أشهر و لا يساعده ظاهر النظم الكريم فانه تعالى بعد ماقبل دعوته على بنى اسرائيل وعذبهم بالتيه بعيد أن ينجى بعض المدعو عليهم أو ذراريهم و يقدر وفاتهما فى محل العقوبة ظاهرا وان كان ذلك لهما منزل روح و راحة وقد قيل انهما لم يكونا معهم فى التيه وهو الأنسب بتفسير الفرق بالمباعدة ومن قال بأنهما كانا معهم فيه فقد فسر الفرق بما ذكر من الحكم بما يستحقه كل فريق ﴿فلا تأس﴾ فلا تحزن ﴿على القوم الفاسقين﴾ روى أنه عليه السلام ندم على دعائه عليهم فقيل لاتندم و لاتحزن فانهم أحقاء بذلك لفسقهم ﴿واتل عليهم﴾ عطف على مقدر تعلق به قوله تعالى واذقال موسى الخ وتعلقه به من حيث أنه تمهيد لما سيأتى من جنايات بنى اسرائيل بعد ماكتب عليهم ماكتب وجاءتهم الرسل بما جاءت به من البينات ﴿نبأ ابنى آدم﴾ هما قابيل وهابيل ونقل عن الحسن والضحاك أنهما رجلان من بنى اسرائيل بقرينة آخر القصة وليس كذلك. أوحى الله عز وجل الى آدم أن يزوج كلا منهما توأمة الآخر وكانت توأمة قابيل أجمل واسمها اقليما فحسد عليها أخاه وسخط و زعم أن ذلك ليس من عند الله تعالى بل من جهة آدم عليه السلام فقال لهما عليه السلام قربا قربانا فمن أيكما قبل تزوجها ففعلا فنزلت نار على قربان هابيل فأكلته ولم تتعرض لقربان قابيل فازداد قابيل حسدا وسخطا وفعل مافعل ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر محذوف أى تلاوة ملتبسة بالحق والصحة أو حالا من فاعل اتل أو من مفعوله أى ملتبسا أنت أو نبأهما بالحق والصدق حسبما تقرر فى كتب الأولين ﴿اذ قربا قربانا﴾ منصوب بالنبأ ظرف له أى اتل قصتهما ونبأهما فى ذلك الوقت وقيل بدل منه على حذف المضاف أي اتل عليهم نبأهما نبأ ذلك الوقت و ردعليه بأن اذلا يضاف اليها غير الزمان كوقتئذ وحينئذ

والقربان اسم لما يتقرب به الى الله تعالى من نسك أوصدقة كالحلوان اسم لما يحلى أى يعطى وتوحيده لما أنه فى الاصل مصدر وقيل تقديرة اذ قرب كل منهما قربانا ﴿فتقبل من أحدهما﴾ هو هابيل قيل كان هو صاحب ضرع وقرب جملا سمينا فنزلت نار فأكلته ﴿ولم يتقبل من الآخر﴾ هو قابيل قيل كان هو صاحب زرع وقرب أردأ ما عنده من القمح فلم تتعرض له النار أصلا ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قال من لم يتقبل قربانه فقيل قال لأخيه لتضاعف سخطه وحسده لما ظهر فضله عليه عند الله عز وجل ﴿لأقتلنك﴾ أى والله لأقتلنك بالنون المشددة وقرئ بالمخففة ﴿قال﴾ استئناف كما قبله أى قال الذى تقبل قربانه لما رأى أن حسده لقبول قربانه وعدم قبول قربان نفسه ﴿انما يتقبل الله﴾ أى القربان ﴿من المتقين﴾ لامن غيرهم وانما تقبل قربانى ورد قربانك لما فينا من التقوى وعدمه أى انما أتيت من قبل نفسك لامن قبلى فلم تقتلنى خلا أنه لم يصرح بذلك بل سلك مسلك التعريض حذارا من تهييج غضبه وحملا له على التقوى والاقلاع عما نواه ولذلك اسند الفعل الى الاسم الجليل لتربية المهابة ثم صرح بتقواه على وجه يستدعى سكون غيظه لوكان له عقل وازع حيث قال بطريق التوكيد ﴿لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك﴾ حيث صدر الشرطية باللام الموطئة للقسم وقدم الجار والمجرور على المفعول الصريح ايذانا من أول الامر برجوع ضرر البسط وغائلته اليه ولم يجعل جواب القسم الساد مسد جواب الشرط جملة فعلية موافقة لما فى الشرط بل اسمية مصدرة بما الحجازية المفيدة لتأكيد النفى بما فى خبرها من الباء للمبالغة فى اظهار براءته عن بسط اليد ببيان استمراره على نفى البسط كما فى قوله تعالى وماهم بمؤمنين وقوله وماهم بخارجين منها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت كذلك السلبية تدل بمعونته على دوام الانتفاء لاعلى انتفاء الدوام وذلك باعتبار الدوام والاستمرار بعد اعتبار النفى لاقبله حتى يرد النفى على المقيد بالدوام فيرفع قيده أى والله لئن باشرت قتلى حسبما أوعدتنى به وتحقق ذلك منك ماأنا بفاعل مثله لك فى وقت من الأوقات ثم علل ذلك بقوله ﴿انى أخاف الله رب العالمين﴾ وفيه من ارشاد قابيل الى خشية الله تعالى على أبلغ وجه وآكده ما لايخفى كأنه قال انى أخافه تعالى ان بسطت يدى اليك لأقتلك أن يعاقبنى وان كان ذلك منى لدفع عداوتك عنى فما ظنك بحالك وأنت البادئ العادى وفى وصفه تعالى بربوبية العالمين تأكيد للخوف قيل كان هابيل أقوى منه ولكن تحرج عن قتله واستسلم خوفا من الله تعالى لأن القتل للدفع لم يكن مباحا حينئذ وقيل تحريا لما هو الأفضل حسبما قال عليه السلام كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل ويأباه التعليل بخوفه تعالى الا أن يدعى أن ترك الأولى عنده بمنزلة المعصية فى استتباع الغائلة مبالغة فى التنزه وقوله تعالى ﴿انى أريد أن تبوء باثمى واثمك﴾ تعليل آخر لامتناعه عن المعارضة على أنه غرض متأخر عنه كما أن الاول باعث متقدم عليه وانما لم يعطف عليه تنبيها على كفاية كل منهما فى العلية والمعنى انى أريد باستسلامى لك وامتناعى عن التعرض لك أن ترجع باثمى أى بمثل اثمى لو بسطت يدى اليك وباثمك ببسط يدك الى كما فى قوله عليه السلام المستبان ماقالا فعلى البادئ مالم يعتد المظلوم أى على البادئ عين اثم سبه ومثل سب صاحبه بحكم كونه سببا له وقيل معنى باثمى اثم قتلى ومعنى باثمك اثمك الذى لأجله لم يتقبل قربانك وكلاهما نصب على الحالية أى ترجع ملتبسا بالاثمين حاملا لهما ولعل مراده بالذات انما هو عدم ملابسته للاثم لاملابسة أخيه له وقيل المراد بالاثم عقوبته ولاريب فى جواز ارادة عقوبة العاصى ممن علم أنه لايرعوى عن المعصية أصلا ويأباه قوله تعالى ﴿فتكون من أصحاب النار﴾ فان كونه منهم انما يترتب على رجوعه بالاثمين لا على ابتلائه بعقوبتهما وحمل العقوبة على نوع آخر يترتب عليها العقوبة النارية يرده قوله تعالى وذلك جزاء الظالمين فانه صريح فى أن كونه من أصحاب النار تمام

العقوبة وكمالها والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبلها ولقد سلك فى صرفه عما نواه من الشر كل مسلك من العظة والتذكير بالترغيب تارة والترهيب أخرى فما أورثه ذلك الا الاصرار على الغى والانهماك فى الفساد ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾ أى وسعته وسهلته من طاع له المرتع اذا اتسع وترتيب التطويع على ماحكى من مقالات هابيل مع تحققه قبلها أيضا كما يفصح عنه قوله لأقتلنك لما أن بقاء الفعل بعد تقرر مايزيله من الدواعى القوية وان كان استمرارا عليه بحسب الظاهر لكنه فى الحقيقة أمر حادث وصنع جديد كما فى قولك وعظته فلم يتعظ أو لان هذه المرتبة من التطويع لم تكن حاصلة قبل ذلك بناء على تردده فى قدرته على القتل لما أنه كان أقوى منه وانما حصلت بعد وقوفه على استسلام هابيل وعدم معارضته له والتصريح بأخوته لكمال تقبيح ماسولته نفسه وقرئ فطاوعت على أنه فاعل بمعنى فعل أوعلى أن قتل أخيه كأنه دعى نفسه الى الاقدام عليه فطاوعته ولم تمتنع وله لزيادة الربط كقولك حفظت لزيد ماله ﴿فقتله﴾ قيل لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل فتمثل ابليس وأخذ طائرا ووضع رأسه على حجر ثم شدخها بحجر آخر فتعلم منه فرضخ رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم لايستعصى عليه وقيل اغتاله وهو نائم وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة واختلف فى موضع قتله فقيل عند عقبة حراء وقيل بالبصرة فى موضع المسجد الاعظم وقيل فى جبل بود ولما قتله تركه بالعراء لايدرى مايصنع به نخاف عليه السباع فحمله فى جراب على ظهره أربعين يوما وقيل سنة حتى أروح وعكفت عليه الطيور والسباع تنظر متى يرمى به فتأكله ﴿فأصبح من الخاسرين﴾ دينا ودنيا ﴿فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه﴾ روى أنه تعالى بعث غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه حفرة فألقاه فيها والمستكن فى يريه لله تعالى أو للغراب واللام على الاول متعلقة ببعث حتما وعلى الثانى يبحث ويجوز تعلقها ببعث أيضا وكيف حال من ضمير يوارى والجملة ثانى مفعولى يرى والمراد بسوأة أخيه جسده الميت ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قال عند مشاهدة حال الغراب فقيل قال ﴿ياويلتى﴾ هى كلمة جزع وتحسر والألف بدل من ياء المتكلم والمعنى ياويلتى احضرى فهذا أوانك والويل والويلة الهلكة ﴿أعجزت أن أكون﴾ أى عن أن أكون ﴿مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى﴾ تعجب من عدم اهتدائه الى مااهتدى اليه الغراب وقوله تعالى فأوارى بالنصب عطف على أن أكون وقرئ بالرفع أى فأنا أوارى ﴿فأصبح من النادمين﴾ أى على قتله لما كابد فيه من التحير فى أمره وحمله على رقبته مدة طويلة . روى أنه لما قتله اسود جسده وكان أبيض فسأله آدم عن أخيه فقال ما كنت عليه وكيلا قال بل قتلته ولذلك اسود جسدك ومكث آدم بعده مائة سنة لايضحك وقيل لما قتل قابيل هابيل هرب الى عدن من أرض اليمن فأتاه ابليس فقال له انما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يخدمها ويعبدها فان عبدتها أيضا حصل مقصودك فبنى بيت نار فعبدها وهو أول من عبد النار ﴿من أجل ذلك﴾ شروع فيما هو المقصود من تلاوة النبأ من بيان بعض آخر من جنايات بنى اسرائيل ومعاصيهم وذلك اشارة الى عظم شأن القتل وافراط قبحه المفهومين مما ذكر فى تضاعيف القصة من استعظام هابيل له وكمال اجتنابه عن مباشرته وان كان ذلك بطريق الدفع عن نفسه واستسلامه لأن يقتل خوفا من عقابه وبيان استتباعه لتحمل القاتل لاثم المقتول ومن كون قابيل بمباشرته من جملة الخاسرين دينهم ودنياهم ومن ندامته على فعله مع مافيه من العتو وشدة الشكيمة وقساوة القلب والاجل فى الاصل مصدر أجل شرا اذا جناه استعمل فى تعليل الجنايات كما فى قولهم من جراك فعلته أى من أن جررته وجنيته ثم اتسع فيه واستعمل فى كل تعليل وقرئ من أجل بكسر الهمزة وهى لغة فيه وقرئ من اجل بحذف الهمزة والقاء فتحتها على النون ومن لابتداء الغاية متعلقة بقوله تعالى ﴿كتبنا على بنى اسرائيل﴾ وتقديمها عليه للقصر أى من

ذلك ابتداء الكتب ومنه نشأ لا من شئ آخر أى قضينا عليهم و بينا ﴿أنه من قتل نفسا﴾ واحدة من النفوس ﴿بغير نفس﴾ أى بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿أو فساد فى الارض﴾ أى فساد يوجب اهدار دمها وهو عطف على ما أضيف اليه غير على معنى نفى كلا الأمرين معا كما فى قولك من صلى بغير وضوء أو تيمم بطلت صلاته لا نفى أحدهما كما فى قولك من صلى بغير وضوء أو ثوب بطلت صلاته ومدار الاستعمالين اعتبار ورود النفى على ما يستفاد من كلمة أو من الترديد بين الأمرين المنبئ عن التخيير والاباحة واعتبار العكس ومناط الاعتبارين اختلاف حال ما أضيف اليه غير من الأمرين بحسب اشتراط نقيض الحكم بتحقق أحدهما واشتراطه بتحققهما معا ففى الاول يرد النفى على الترديد الواقع بين الأمرين قبل ورود فيفيد نفيهما معا وفى الثانى يرد الترديد على النفى فيفيد نفى أحدهما حتما اذ ليس قبل ورود النفى ترديد حتى يتصور عكسه وتوضيحه أن كل حكم شرط بتحقق أحد شيئين مثلا فنقيضه مشروط بانتفائهما معا وكل حكم شرط بتحققهما معا فنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شئ مشروط بنقيض شرطه ولا ريب فى أن نقيض الايجاب الجزئى كما فى الحكم الاول هو السلب الكلى ونقيض الايجاب الكلى كما فى الحكم الثانى هو رفعه المستلزم للسلب الجزئى فثبت اشتراط نقيض الأول بانتفائهما معا واشتراط نقيض الثانى بانتفاء أحدهما ولما كان الحكم فى قولك من صلى بوضوء أو تيمم صحت صلاته مشروطا بتحقق أحدهما مبهما كان نقيضه فى قولك من صلى بغير وضوء أو تيمم بطلت صلاته مشروطا بنقيض الشرط المذكور البتة وهو انتفاؤهما معا فتعين ورود النفى المستفاد من غير على الترديد الواقع بين الوضوء والتيمم بكلمة أو فانتفى تحققهما معا ضرورة عموم النفى الوارد على المبهم وعلى هذا يدور ما قالوا انه اذا قيل جالس العلماء أو الزهاد ثم أدخل عليه لا الناهية امتنع فعل الجميع نحو ولا تطع منهم آثما أو كفورا اذ المعنى لا تفعل أحدهما فأيهما فعله فهو أحدهما وأما قولك من صلى بوضوء أو ثوب صحت صلاته فحيث كان الحكم فيه مشروطا بتحقق كلا الأمرين كان نقيضه فى قولك من صلى بغير وضوء أو ثوب بطلت صلاته مشروطا بنقيض الشرط المذكور وهو انتفاء أحدهما فتعين ورود الترديد على النفى فأفاد نفى أحدهما ولا يخفى أن اباحة القتل مشروطة بأحد ما ذكر من القتل والفساد ومن ضرورته اشتراط حرمته بانتفائهما معا فتعين ورود النفى على الترديد لا محالة كأنه قيل من قتل نفسا بغير أحدهما ﴿فكأنما قتل الناس جميعا﴾ فمن قال فى تفسيره أو بغير فساد فقد أبعد عن توفية النظم الكريم حقه وما فى كأنما كافة مهيئة لوقوع الفعل بعدها وجميعا حال من الناس أو تأكيد ومناط التشبيه اشتراك الفعلين فى هتك حرمة الدماء والاستعصاء على الله تعالى وتجسير الناس على القتل وفى استتباع القود واستجلاب غضب الله تعالى وعذابه العظيم ﴿ومن أحياها﴾ أى تسبب لبقاء نفس واحدة موصوفة بعدم ما ذكر من القتل والفساد فى الارض اما بنهى قاتلها عن قتلها أو استنقاذها من سائر أسباب الهلكة بوجه من الوجوه ﴿فكأنما أحيا الناس جميعا﴾ وجه التشبيه ظاهر والمقصود تهويل أمر القتل وتفخيم شأن الاحياء بتصوير كل منهما بصورة لائقة به فى ايجاب الرهبة والرغبة ولذلك صدر النظم الكريم بضمير الشأن المنبئ عن كمال شهرته ونباهته وتبادره الى الاذهان عند ذكر الضمير الموجب لزيادة تقرير ما بعده فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الأمر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده فضل تمكن كأنه قيل ان الشأن الخطير هذا ﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات﴾ جملة مستقلة غير معطوفة على كتبنا أكدت بالتوكيد القسمى وحرف التحقيق لكمال العناية بتحقق مضمونها وانما لم يقل ولقد أرسلنا اليهم رسلنا الخ للتصريح بوصول الرسالة اليهم فانه أدل على تناهيهم فى العتو والمكابرة أى و بالله لقد جاءتهم رسلنا حسبما أرسلناهم بالآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم تأكيدا لوجوب مراعاته وتأييدا لتحتم المحافظة عليه

﴿ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك﴾ أى بعد ما ذكر من الكتب وتأكيد الأمر بارسال الرسل تترى وتجديد العهد مرة بعد أخرى و وضع اسم الاشارة موضع الضمير للايذان بكمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايماء الى علو درجته و بعد منزلته فى عظم الشأن وثم للتراخى فى الرتبة والاستبعاد ﴿فى الارض﴾ متعلق بقوله تعالى ﴿لمسرفون﴾ وكذا الظرف المتقدم ولا يقدح فيه توسط اللام بينه و بينهما لأنها لام الابتداء وحقها الدخول على المبتدا وانما دخولها على الخبر لمكان ان فهى فى حيزها الاصلى حكما والاسراف فى كل أمر التباعد عن حد الاعتدال مع عدم مبالاة به أى مسرفون فى القتل غير مبالين به ولما كان اسرافهم فى أمر القتل مستلزما لتفريطهم فى شأن الاحياء وجودا وذكرا وكان هو أقبح الأمرين وأفظعهما اكتفى بذكره فى مقام التشنيع ﴿انما جزاء الذين يحاربون الله و رسوله﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حكم نوع من أنواع القتل وما يتعلق به من الفساد بأخذ المال ونظائره وتعيين موجبه العاجل والآجل اثر بيان عظم شأن القتل بغير حق وأدرج فيه بيان ما أشير اليه اجمالا من الفساد المبيح للقتل قيل أى يحاربون رسوله وذكر الله تعالى للتمهيد والتنبيه على رفعة محله عنده عز وجل ومحاربة أهل شريعته وسالكى طريقته من المسلمين محاربة له عليه السلام فيعم الحكم من يحاربهم ولو بعد أعصار بطريق العبارة دون الدلالة والقياس لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول فيحتاج فى تعميمه لغيرهم الى دليل آخر وقيل جعل محاربة المسلمين محاربة لله تعالى و رسوله تعظيما لهم والمعنى يحاربون أولياءهما وأصل الحرب السلب والمراد ههنا قطع الطريق وقيل المكابرة بطريق اللصوصية وان كانت فى مصر ﴿و يسعون فى الارض﴾ عطف على يحاربون والجار والمجرور متعلق به وقوله تعالى ﴿فسادا﴾ اما مصدر وقع موقع الحال من فاعل يسعون أى مفسدين أو مفعول له أى للفساد أو مصدر مؤكد ليسعون لأنه فى معنى يفسدون على أنه مصدر من أفسد بحذف الزوائد أو اسم مصدر . قيل نزلت الآية فى قوم هلال بن عويمر الاسلمى وكان وادعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن أتاه من المسلمين فهو آمن لا يهاج ومن مر بهلال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو آمن لا يهاج فمر قوم من بنى كنانة يريدون الاسلام بناس من قوم هلال ولم يكن هلال يومئذ شاهدا فقطعوا عليهم وقتلوهم وأخذوا أموالهم وقيل نزلت فى العرنيين وقصتهم مشهورة وقيل فى قوم من أهل الكتاب بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا فى الارض ولما كانت المحاربة والفساد على مراتب متفاوتة و وجوه شتى من القتل بدون أخذ المال ومن القتل مع أخذه وأخذه بدون القتل ومن الاخافة بدون قتل وأخذ شرعت لكل مرتبة من تلك المراتب عقوبة معينة بطريق التوزيع فقيل ﴿أن يقتلوا﴾ أى حدا من غير صلب ان افردوا القتل ولو عفا الأولياء لا يلتفت الى ذلك لأنه حق الشرع ولا فرق بين أن يكون القتل بآلة جارحة أو لا ﴿أو يصلبوا﴾ أى مع القتل ان جمعوا بين القتل والأخذ بأن يصلبوا أحياء وتبعج بطونهم برمح الى أن يموتوا و فى ظاهر الرواية أن الامام مخير ان شاء اكتفى بذلك وان شاء قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وقتلهم وصلبهم وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقرئ بالتخفيف فيهما ﴿أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ أى أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى ان اقتصروا على أخذ المال من مسلم أو ذمى وكان المقدار بحيث لو قسم عليهم أصاب كلا منهم عشرة دراهم أو ما يساويها قيمته أما قطع أيديهم فلأخذ المال وأما قطع أرجلهم فلاخافة الطريق بتفويت أمنه ﴿أو ينفوا من الأرض﴾ ان لم يفعلوا غير الاخافة والسعى للفساد والمراد بالنفى عندنا هو الحبس فانه نفى عن وجه الارض لدفع شرهم عن أهلها و يعزرون أيضا لمباشرتهم منكر الاخافة وازالة الأمن وعند الشافعى رضى الله عنه النفى من بلد الى بلد لا يزال

يطلب وهو هارب فزعا وقيل هو النفى عن بلده فقط وكانوا ينفونهم الى دهلك وهو بلد فى أقصى تهامة وناصع وهو بلد من بلاد الحبشة ﴿ذلك﴾ أى مافصل من الاحكام والاجزية قيل هو مبتدأ وقوله تعالى ﴿لهم خزى﴾ جملة من خبر مقدم على المبتدا وقوله تعالى ﴿فى الدنيا﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لخزى أو متعلق بخزى على الظرفية والجملة فى محل الرفع على أنها خبر لذلك وقيل خزى خبر لذلك ولهم متعلق بمحذوف وقع حالا من خزى لأنه فى الاصل صفة له فلما قدم انتصب حالا و فى الدنيا اما صفة لخزى أو متعلق به على مامر والخزى الذل والفضيحة ﴿ولهم فى الآخرة﴾ غير هذا ﴿عذاب عظيم﴾ لايقادر قدره لغاية عظم جنايتهم فقوله تعالى لهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر و فى الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالا من عذاب لانه فى الاصل صفة له فلما قدم انتصب حالا أى كائنا فى الآخرة ﴿الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله عز وجل كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ أما ما هو من حقوق الاولياء من القصاص ونحوه فاليهم ذلك ان شاؤا عفوا وان أحبوا استوفوا وانما يسقط بالتوبة وجوب استيفائه لاجوازه وعن على رضى الله عنه أن الحرث بن بدر جاءه تائبا بعد ما كان يقطع الطريق فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ لما ذكر عظم شأن القتل والفساد و بين حكمهما وأشير فى تضاعيف ذلك الى مغفرته تعالى لمن تاب من جنايته أمر المؤمنون بأن يتقوه تعالى فى كل ما يأتون ومايذرون بترك مايجب اتقاؤه من المعاصى التى من جملتها ماذكر من القتل والفساد و بفعل الطاعات التى من زمرتها السعى فى احياء النفوس ودفع الفساد والمسارعة الى التوبة والاستغفار ﴿وابتغوا﴾ أى اطلبوا لانفسكم ﴿اليه﴾ أى الى ثوابه والزلفى منه ﴿الوسيلة﴾ هى فعيلة بمعنى مايتوسل به و يتقرب الى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصى من وسل الى كذا أى تقرب اليه بشئ واليه متعلق بها قدم عليها للاهتمام به وليست بمصدر حتى لا تعمل فيما قبلها ولعل المراد بها الاتقاء المأمور به فانه ملاك الامر كله كما أشير اليه وذريعة لنيل كل خير ومنجاة من كل ضير فالجملة حينئذ جارية مما قبلها مجرى البيان والتأكيد أو مطلق الوسيلة وهو داخل فيها دخولا أوليا وقيل الجملة الاولى أمر بترك المعاصى والثانية أمر بفعل الطاعات وحيث كان فى كل من ترك المعاصى المشتهاة للنفس وفعل الطاعات المكروهة لها كلفة ومشقة عقب الامر بهما بقوله تعالى ﴿وجاهدوا فى سبيله﴾ بمحاربة أعدائه البارزة والكامنة ﴿لعلكم تفلحون﴾ بنيل مرضاته والفوز بكراماته ﴿ان الذين كفروا﴾ كلام مبتدأ مسوق لتأكيد وجوب الامتثال بالاوامر السابقة وترغيب المؤمنين فى المسارعة الى تحصيل الوسيلة اليه عز وجل قبل انقضاء أوانه ببيان استحالة توسل الكفار يوم القيامة بأقوى الوسائل الى النجاة من العذاب فضلا عن نيل الثواب ﴿لو أن لهم﴾ أى لكل واحد منهم كما فى قوله تعالى و لو أن لكل نفس ظلمت الخ لا لجميعهم اذ ليس فى ذلك هذه المرتبة من تهويل الامر وتفظيع الحال ﴿ما فى الارض﴾ أى من أصناف أموالها وذخائرها وسائر منافعها قاطبة وهو اسم أن ولهم خبرها ومحلها الرفع بلا خلاف خلا أنه عند سيبويه رفع على الابتداء و لاحاجة فيه الى الخبر لاشتمال صلتها على المسند والمسند اليه وقد اختصت من بين سائر مايؤول بالاسم بالوقوع بعد لو وقيل الخبر محذوف ثم قيل يقدر مقدما أى لو ثابت كون ما فى الأرض لهم وقيل يقدر مؤخرا أى لو كون ما فى الارض لهم ثابت وعند المبرد والزجاج والكوفيين رفع على الفاعلية والفعل مقدر بعد لو أى لو ثبت أن لهم مافى الارض وقوله تعالى ﴿جميعا﴾ توكيد للموصول أو حال منه ﴿ومثله﴾ بالنصب عطف عليه وقوله تعالى ﴿معه﴾ ظرف وقع حالا من المعطوف والضمير راجع الى الموصول وفائدته التصريح بفرض كينونتهما لهم بطريق المعية لا بطريق التعاقب تحقيقا لكمال فظاعة الأمر مع ما فيه من نوع اشعار بكونهما شيئا واحدا وتمهيدا لافراد الضمير الراجع اليهما

واللام فى قوله تعالى ﴿ليفتدوا به﴾ متعلقة بما تعلق به خبر أن أعنى الاستقرار المقدر فى لهم و بالخبر المقدر عند من يرى تقدير الخبر مقدما أو مؤخرا و بالفعل المقدر بعد لو على رأى المبرد ومن نحا نحوه ولا ريب فى أن مدار الافتداء بما ذكر هو كونه لهم لا ثبوت كونه لهم وان كان مستلزما له والباء فى به متعلقة بالافتداء والضمير راجع الى الموصول ومثله معا وتوحيده اما لما أشير اليه واما لاجرائه مجرى اسم الاشارة كأنه قيل بذلك كما فى قوله كأنه فى الجلد توليع البهق أى كأن ذلك وقيل هو راجع الى الموصول والعائد الى المعطوف أعنى مثله محذوف كما حذف الخبر من قيار فى قوله فانى وقيار بها لغريب أى وقيار أيضا غريب وقد جوز أن يكون نصب ومثله على أنه مفعول معه ناصبه الفعل المقدر بعد لو تفريعا على مذهب المبرد ومن رأى رأيه وأنت خبير بأنه يؤدى الى كون الرافع للفاعل غير الناصب للمفعول معه لأن المعنى على اعتبار المعية بين ما فى الارض ومثله فى الكينونة لهم لا فى ثبوت تلك الكينونة وتحققها ولا مساغ لجعل ناصبه الاستقرار المقدر فى لهم لما أن سيبويه قد نص على اسم الاشارة وحرف الجر المتضمن للاستقرار لا يعملان فى المفعول معه وأن قوله هذا لك وأباك قبيح وان جوزه بعض النحاة فى الظرف وحرف الجر وقوله تعالى ﴿من عذاب يوم القيامة﴾ متعلق بالافتداء أيضا أى لو أن ما فى الارض ومثله ثابت لهم ليجعلوه فدية لأنفسهم من العذاب الواقع يومئذ ﴿ماتقبل منهم﴾ ذلك وهو جواب لو وترتيبه على كون ذلك لهم لأجل افتدائهم به من غير ذكر الافتداء بأن يقال وافتدوا به مع أن الرد والقبول انما يترتب عليه لا على مباديه للايذان بأنه أمر محقق الوقوع غنى عن الذكر وانما المحتاج الى الفرض قدرتهم على ماذكر أو للمبالغة فى تحقق الرد وتخييل أنه وقع قبل الافتداء على منهاج مافى قوله تعالى أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده حيث لم يقل فأتى به فرآه فلما الخ ومافى قوله تعالى وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه من غير ذكر خروجه عليه السلام عليهن و رؤيتهن له والجملة الامتناعية بحالها خبر ان الذين كفروا والمراد تمثيل لزوم العذاب لهم واستحالة نجاتهم منه بوجه من الوجوه المحققة والمفروضة وعن النبى عليه الصلاة والسلام يقال للكافر أرأيت لو كان لك ملء الارض ذهبا أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقال له قد سئلت أيسر من ذلك وهو كلمة الشهادة وقوله تعالى ﴿ولهم عذاب أليم﴾ تصريح بما أشير اليه بعدم قبول فديتهم لزيادة تقريره و بيان هوله وشدته قيل محله النصب على الحالية وقيل الرفع عطفا على خبر ان وقيل عطف على ان الذين فلا محل له كالمعطوف عليه ﴿يريدون أن يخرجوا من النار﴾ استئناف مسوق لبيان حالهم فى أثناء مكابدة العذاب مبنى على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فكيف يكون حالهم أو ماذا يصنعون فقيل يريدون الخ وقد بين فى تضاعيفه أن عذابهم عذاب النار قيل انهم يقصدون ذلك و يطلبون المخرج فيلفحهم لهب النار و يرفعهم الى فوق فهناك يريدون الخروج و لات حين مناص وقيل يكادون يخرجون منها لقوة النار وزيادة رفعها اياهم وقيل يتمنونه و يريدونه بقلوبهم وقوله عز وجل ﴿وماهم بخارجين منها﴾ اما حال من فاعل يريدون أو اعتراض وأيا ما كان فايثار الجملة الاسمية على الفعلية مصدرة بما الحجازية الدالة بما فى خبرها من الباء على تأكيد النفى لبيان كمال سوء حالهم باستمرار عدم خروجهم منها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تفيد بمعونة المقام دوام الثبوت تفيد السلبية أيضا بمعونته دوام النفى لانفى الدوام كما مر فى قوله تعالى ما أنا بباسط الخ وقرئ أن يخرجوا على بناء المفعول من الاخراج ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ تصريح بما أشير اليه آنفا من عدم تناهى مدته بعد بيان شدته ﴿والسارق والسارقة﴾ شروع فى بيان حكم السرقة الصغرى بعد بيان أحكام الكبرى وقد عرفت اقتضاء الحال لايرادها توسط بينهما من المقال ولما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال صرح بالسارقة أيضا مع أن المعهود فى الكتاب والسنة ادراج النساء فى الأحكام الواردة فى شأن الرجال بطريق الدلالة لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة

فى الزجر وهو مبتدأ خبره عند سيبويه محذوف تقديره وفيما يتلى عليكم أو وفيما فرض عليكم السارق والسارقة أى حكمهما وعند المبرد قوله تعالى ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط اذ المعنى الذى سرق والتى سرقت وقرئ بالنصب وفضلها سيبويه على قراءة الرفع لأن الانشاء لا يقع خبرا الا بتأويل واضمار والسرقة أخذ مال الغير خفية وانما توجب القطع اذا كان الأخذ من حرز والمأخوذ يساوى عشرة دراهم فما فوقها مع شروط فصلت فى موقعها والمراد بأيديهما أيمانهما كما يفصح عنه قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم ولذلك ساغ وضع الجمع موضع المثنى كما فى قوله تعالى فقد صغت قلوبكما اكتفاء بتثنية المضاف اليه واليد اسم لتمام الجارحة ولذلك ذهب الخوارج الى أن المقطع هو المنكب والجمهور على أنه الرسغ لأنه عليه الصلاة والسلام أتى بسارق فأمر بقطع يمينه منه ﴿جزاء﴾ نصب على أنه مفعول له أى فاقطعوا للجزاء أو مصدر مؤكد لفعله الذى يدل عليه فاقطعوا أى فجازوهما جزاء وقوله تعالى ﴿بما كسبا﴾ على الاول متعلق بجزاء وعلى الثانى باقطعوا وما مصدرية أى بسبب كسبهما أو موصولة أى ما كسباه من السرقة التى تباشر بالأيدى وقوله تعالى ﴿نكالا﴾ مفعول له أيضا على البدلية من جزاء لأنهما من نوع واحد وقيل القطع معلل بالجزاء والقطع المعلل معلل بالنكال وقيل هو منصوب بجزاء على طريقة الأحوال المتداخلة فانه علة للجزاء والجزاء علة للقطع كما اذا قلت ضربته تأديباً له احسانا اليه فان الضرب معلل بالتأديب والتأديب معلل بالاحسان وقد أجازوا فى قوله عز وجل أن يكفر بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده أن يكون بغيا مفعولا له ناصبه أن يكفروا ثم قالوا ان قوله تعالى أن ينزل الله مفعول له ناصبه بغيا على أن التنزيل علة للبغى والبغى علة للكفر وقوله تعالى ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لنكالا أى نكالا كائنا منه تعالى ﴿والله عزيز﴾ غالب على أمره يمضيه كيف يشاء من غير ند ينازعه ولا ضد يمانعه ﴿حكيم﴾ فى شرائعه لا يحكم الا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ولذلك شرع هذه الشرائع المنطوية على فنون الحكم والمصالح ﴿فمن تاب﴾ أى من السراق الى الله تعالى ﴿من بعد ظلمه﴾ الذى هو سرقته والتصريح به مع أن التوبة لا تتصور قبله لبيان عظم نعمته تعالى بتذكير عظم جنايته ﴿وأصلح﴾ أى أمره بالتفصى عن تبعات ما باشره والعزم على ترك المعاودة اليها ﴿فان الله يتوب عليه﴾ أى يقبل توبته فلا يعذبه فى الآخرة وأما القطع فلا تسقطه التوبة عندنا لأن فيه حق المسروق منه وتسقطه عند الشافعى فى أحد قوليه ﴿ان الله غفور رحيم﴾ مبالغ فى المغفرة والرحمة ولذلك يقبل توبته وهو تعليل لما قبله واظهار الاسم الجليل للاشعار بعلة الحكم وتأييد استقلال الجملة وكذا فى قوله عز وجل ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض﴾ فان عنوان الألوهية مدار أحكام ملكوتهما والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ والجملة خبر لأن وهى مع ما فى حيزها سادة مسد مفعولى تعلم عند الجمهور وما فيه من تكرير الاسناد لتقوية الحكم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين وقيل لكل أحد صالح للخطاب والاستفهام الانكارى لتقرير العلم والمراد به الاستشهاد بذلك على قدرته تعالى على ما سيأتى من التعذيب والمغفرة على أبلغ وجه وأتمه أى ألم تعلم أن الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهما وفيما فيهما ايجادا واعداما واحياء واماتة الى غير ذلك حسبما تقتضيه مشيئته ﴿يعذب من يشاء﴾ أن يعذبه ﴿ويغفر لمن يشاء﴾ أن يغفر له من غير ند يساهمه ولا ضد يزاحمه وتقديم التعذيب على المغفرة لمراعاة ما بين سببيهما من الترتيب والجملة اما تقرير لكون ملكوت السموات والأرض له سبحانه أو خبر آخر لأن ﴿والله على كل شئ قدير﴾ فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة والاظهار فى موقع الاضمار لما مر مرارا والجملة تذييل مقرر لما قبلها ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر﴾

خوطب عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للتشريف والاشعار بما يوجب عدم الحزن والمسارعة فى الشئ الوقوع فيه بسرعة ورغبة وايثار كلمة فى على كلمة الى الواقعة فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة الخ للايماء الى أنهم مستقرون فى الكفر لا يبرحونه وانما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه الى بعض آخر منها كاظهار موالاة المشركين وابراز آثار الكيد للاسلام ونحو ذلك كما فى قوله تعالى أولئك يسارعون فى الخيرات فانهم مستمرون على الخير مسارعون فى أنواعه وأفراده والتعبير عنهم بالموصول للاشارة بما فى حيز صلته الى مدار الحزن وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للكفرة عن أن يحزنوه عليه الصلاة والسلام بمسارعتهم فى الكفر لكنه فى الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن التأثر من ذلك والمبالاة بهم على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشئ ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وقلع له من أصله وقد يوجه النهى الى المسبب ويراد به النهى عن السبب كما فى قوله لا أرينك ههنا يريد نهى مخاطبه عن الحضور بين يديه وقرئ لا يحزنك من أحزنه منقولا من حزن بكسر الزاى وقرئ يسرعون يقال أسرع فيه الشيب أى وقع فيه سريعا أى لا تحزن ولا تبال بتهافتهم فى الكفر بسرعة وقوله تعالى ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم﴾ بيان للمسارعين فى الكفر وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يسارعون وقيل من الموصول أى كائنين من الذين الخ والباء متعلقة بقالوا لا بآمنا وقوله تعالى ﴿ولم تؤمن قلوبهم﴾ جملة حالية من ضمير قالوا وقيل عطف على قالوا وقوله تعالى ﴿ومن الذين هادوا﴾ عطف على من الذين قالوا الخ وبه يتم بيان المسارعين فى الكفر بتقسيمهم الى قسمين المنافقين واليهود فقوله تعالى ﴿سماعون للكذب﴾ خبر لمبتدأ محذوف راجع الى الفريقين أو الى المسارعين وأما رجوعه الى الذين هادوا فمخل بعموم الوعيد الآتى ومباديه للكل كما ستقف عليه وكذا جعل قوله ومن الذين الخ خبرا على أن قوله سماعون صفة لمبتدأ محذوف أى ومنهم قوم سماعون الخ لأدائه الى اختصاص ما عدد من القبائح وما يترتب عليها من الغوائل الدنيوية والأخروية بهم فالوجه ما ذكر أولا أى هم سماعون واللام اما للتقوية العمل واما لتضمين السماع معنى القبول واما لام كى والمفعول محذوف والمعنى هم مبالغون فى سماع الكذب أو فى قبول ما يفتريه أحبارهم من الكذب على الله سبحانه وتحريف كتابه أو سماعون أخبارك وأحاديثكم ليكذبوا عليكم بأن يمسخوها بالزيادة والنقص والتبديل والتغيير أو أخبار الناس وأقاويلهم الدائرة فيما بينهم ليكذبوا فيها بأن يرجفوا بقتل المؤمنين وانكسار سراياهم ونحو ذلك مما يضر بهم وأياما كان فالجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهى فان كونهم سماعين للكذب على الوجوه المذكورة وابتناء أمورهم على مالا أصل له من الأباطيل والأراجيف مما يقتضى عدم المبالاة بهم وترك الاعتداد بما يأتون وما يذرون للقطع بظهور بطلان أكاذيبهم واختلال ما بنوا عليها من الأفاعيل الفاسدة المؤدية الى الخزى والعذاب كما سيأتى وقرئ سماعين للكذب بالنصب على الذم وقوله تعالى ﴿سماعون لقوم آخرين﴾ خبر ثان للمبتدأ المقدر مقرر للأول ومبين لما هو المراد بالكذب على الوجهين الأولين واللام مثل ما فى سمع الله لمن حمده فى الرجوع الى معنى من أى قبل منه حمده والمعنى مبالغون فى قبول كلام قوم آخرين وأما كونها لام التعليل بمعنى سماعون منه عليه الصلاة والسلام لأجل قوم آخرين وجههم عيونا ليبلغوهم ما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام أو كونها متعلقة بالكذب على أن سماعون الثانى مكرر للتأكيد بمعنى سماعون ليكذبوا لقوم آخرين فلا يكاد يساعده النظم الكريم أصلا وقوله تعالى ﴿لم يأتوك﴾ صفة أخرى لقوم أى لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك تكبرا وافراطا فى البغضاء قيل هم يهود خيبر والسماعون بنو قريظة وقوله تعالى ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ صفة أخرى لقوم وصفوا أولا بمغايرتهم للسماعين تنبيها على استقلالهم وأصالتهم فى الرأى والتدبير ثم بعدم حضورهم مجلس الرسول عليه الصلاة

والسلام ايذانا بكمال طغيانهم فى الضلال ثم باستمرارهم على التحريف بيانا لافراطهم فى العتو والمكابرة والاجتراء على الافتراء على الله تعالى وتعيينا للكذب الذى سمعه السماعون أى يميلونه و يزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها اما لفظا باهماله أو تغيير وضعه واما معنى بحمله على غير المراد واجرائه فى غير مورده وقيل الجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب ناعية عليهم شنائعهم وقيل خبر مبتدأ محذوف راجع الى القوم وقوله تعالى ﴿يقولون﴾ كالجملة السابقة فى الوجوه المذكورة ويجوز أن يكون حالا من ضمير يحرفون وأما تجويز كونها صفة لسماعون أو حالا من الضمير فيه فمما لا سبيل اليه أصلا كيف لا وان مقول القول ناطق بأن قائله ممن لا يحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم والمخاطب به ممن يحضره فكيف يمكن أن يقوله السماعون المترددون اليه عليه الصلاة والسلام لمن لا يحوم حوله قطعا وادعاء قول السماعين لأعقابهم المخالطين للمسلمين تعسف ظاهر مخل بجزالة النظم الكريم والحق الذى لا محيد عنه أن المحرفين والقائلين هم القوم الآخرون أى يقولون لأتباعهم السماعين لهم عند القائهم اليهم أقاويلهم الباطلة مشيرين الى كلامهم الباطل ﴿ان أوتيتم﴾ من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿هذا فخذوه﴾ واعملوا بموجبه فانه الحق ﴿وان لم تؤتوه﴾ بل أوتيتم غيره ﴿فاحذروا﴾ أى فاحذروا قبوله واياكم واياه وفى ترتيب الأمر بالحذر على مجرد عدم ايتاء المحرف من المبالغة فى التحذير مالا يخفى . روى أن شريفا من خيبر زنى بشريفة وهما محصنان وحدهما الرجم فى التوراة فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا رهطا منهم الى بنى قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقالوا ان أمركم بالجلد والتحميم فاقبلوا وان أمركم بالرجم فلا تقبلوا وأرسلوا الزانيين معهم فأمرهم بالرجم فأبوا أن يأخذوا به فقال جبريل عليه السلام اجعل بينك وبينهم ابن صوريا و وصفه له فقال عليه الصلاة والسلام هل تعرفون شابا أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا قالوا نعم وهو أعلم يهودى على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى بن عمران فى التوراة قال فأرسلوا اليه ففعلوا فاتاهم فقال له النبى عليه الصلاة والسلام أنت ابن صوريا قال نعم قال عليه الصلاة والسلام وأنت أعلم اليهود قال كذلك يزعمون قال لهم أترضون به حكما قالوا نعم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى لا اله الا هو الذى فلق البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى ورفع فوقكم الطور وأنزل عليكم التوراة فيها حلاله وحرامه هل تجدون فى كتابكم الرجم على من أحصن قال نعم والذى ذكرتنى به لولا خشيت أن يحرقنى التوراة ان كذبت أو غيرت ما اعترفت لك ولكن كيف هى فى كتابك يا محمد قال عليه الصلاة والسلام اذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخل فيها كما يدخل الميل فى المكحلة وجب عليه الرجم قال ابن صوريا والذى أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله فى التوراة على موسى فوثب عليه سفلة اليهود فقال خفت ان كذبته أن ينزل علينا العذاب ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله النبى الامى العربى الذى بشر به المرسلون وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب المسجد ﴿ومن يرد الله فتنته﴾ أى ضلالته أو فضيحته كائنا من كان فيندرج فيه المذكورون اندراجا أوليا وعدم التصريح بكونهم كذلك للاشعار بكمال ظهوره واستغنائه عن ذكره ﴿فلن تملك له﴾ فلن تستطيع له ﴿من الله شيئا﴾ فى دفعها والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ومبينة لعدم انفكاكهم عن القبائح المذكورة أبدا ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين من المنافقين واليهود ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفساد وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ أى من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهماكهم فيهما واصرارهم عليهما واعراضهم عن صرف اختيارهم الى تحصيل الهداية بالكلية كما ينبئ عنه وصفهم بالمسارعة فى الكفر أولا وشرح فنون ضلالاتهم آخرا والجملة استئناف مبين لكون ارادته تعالى لفتنتهم

منوطة بسوء اختيارهم وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء ﴿لهم فى الدنيا خزى﴾ أما المنافقون فخزيهم فضيحتهم وهتك سترتهم بظهور نفاقهم فيما بين المسلمين وأما خزى اليهود فالذل والجزية والافتضاح بظهور كذبهم فى كتمان نص التوراة وتكبير خزى للتفخيم وهو مبتدأ ولهم خبره وفى الدنيا متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار وكذا الحال فى قوله تعالى ﴿ولهم فى الآخرة﴾ أى مع الخزى الدنيوى ﴿عذاب عظيم﴾ هو الخلود فى النار وضمير لهم فى الجملتين للمنافقين واليهود جميعا لا لليهود خاصة كما قيل وتكرير لهم مع اتحاد المرجع لزيادة التقرير والتأكيد والجملتان استئناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل أفعالهم وأحوالهم الموجبة للعقاب كأنه قيل فما لهم من العقوبة فقيل لهم فى الدنيا الآية ﴿سماعون للكذب﴾ خبر آخر للمبتدا المقدر كرر تأكيدا لما قبله وتمهيدا لما بعده من قوله تعالى ﴿أكالون للسحت﴾ وهو أيضا خبر آخر للمقدر وارد على طريقة الذم أو بناء على أن المراد بالكذب ما يفتعله الراشون عند الاكالين والسحت بضم السين وسكون الحاء فى الأصل كل ما لا يحل كسبه وقيل هو الحرام مطلقا من سحته اذا استأصله سمى به لأنه مسحوت البركة والمراد به ههنا اما الرشا التى كان يأخذها المحرفون على تحريفهم وسائر أحكامهم الزائغة وهو المشهور أو ما كان يأخذه نقراؤهم من أغنيائهم من المال ليقيموا على اليهودية كما قيل واما مطلق الحرام المنتظم لما ذكر انتظاما أوليا وقرئ للسحت بضم السين والحاء و بفتحهما و بفتح السين وسكون الحاء و بكسر السين وسكون الحاء وعن النبى عليه الصلاة والسلام كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به ﴿فان جاءوك﴾ لما بين تفاصيل أمورهم الواهية وأحوالهم المختلفة الموجبة لعدم المبالاة بهم و بأفاعيلهم حسبما أمر به عليه الصلاة والسلام خوطب عليه الصلاة والسلام ببعض ما يبتنى عليه من الأحكام بطريق التفريع والفاء فصيحة أى واذا كان حالهم كما شرح فان جاءوك متحاكمين اليك فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ غير مبال بهم ولا خائف من جهتهم أصلا وهذا كما ترى تخيير له عليه الصلاة والسلام بين الأمرين فقيل هو فى أمر خاص هو ما ذكر من زنا المحصن وقيل فى قتيل قتل من اليهود فى بنى قريظة والنضير فتحاكموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بنو قريظة اخواننا بنو النضير أبونا واحد ودينا واحد ونبينا واحد واذا قتلوا منا قتيلا لم يرضوا بالقود وأعطونا سبعين وسقا من تمر واذا قتلنا منهم قتلوا القاتل وأخذوا منا الضعف مائة وأربعين وسقا من تمر وان كان القتيل امرأة قتلوا بها الرجل منا و بالرجل منهم الرجلين منا و بالعبد منهم الحر منا فاقض بيننا فجعل عليه الصلاة والسلام الدية سواء وقيل هو عام فى جميع الحكومات ثم اختلفوا فمن قائل انه ثابت وهو المروى عن عطاء والنخعى والشعبى وقتادة وأبى بكر الاصم وأبى مسلم وقائل انه منسوخ وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم ينسخ من المائدة الا آيتان قوله تعالى لا تحلوا شعائر الله نسخها قوله تعالى فاقتلوا المشركين وقوله تعالى فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم نسخها قوله تعالى وأن احكم بينهم بما أنزل الله وعليه مشايخنا ﴿وان تعرض عنهم﴾ بيان لحال الأمرين اثر تخييره عليه الصلاة والسلام بينهما وتقديم حال الاعراض للمسارعة الى بيان أن لا ضرر فيه حيث كان مظنة الضرر لما أنهم كانوا لا يتحاكمون اليه عليه الصلاة والسلام الا لطلب الايسر والاهون عليهم فاذا أعرض عنهم وأبى الحكومة بينهم شق ذلك عليهم فتشتد عداوتهم ومضارتهم له عليه الصلاة والسلام فأمنه الله عز وجل بقوله ﴿فلن يضروك شيئا﴾ من الضرر فان الله عاصمك من الناس ﴿وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ بالعدل الذى أمرت به كما حكمت بالرجم ﴿ان الله يحب المقسطين﴾ ومن ضرورته أن يحفظهم عن كل مكروه ومحذور ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به و بكتابه والحال أن الحكم منصوص

عليه فى كتابهم الذى يدعون الايمان به وتنبيه على أنهم ماقصدوا بالتحكيم معرفة الحق واقامة الشرع وانما طلبوا به ماهو أهون عليهم وان لم يكن ذلك حكم الله على زعمهم فقوله تعالى وعندهم التوراة حال من فاعل يحكمونك وقوله تعالى فيهاحكم الله حال من التوراة ان جعلت مرتفعة بالظرف وان جعلت مبتدا فهو حال من ضميرها المستكن فى الخبر وقيل استئناف مسوق لبيان أن عندهم مايغنيهم عن التحكيم وتأنيثها لكونها نظيرة المؤنث فى كلامهم كموماة ودوداة ﴿ثم يتولون﴾ عطف على يحكمونك داخل فى حكم التعجيب وثم للتراخى فى الرتبة وقوله تعالى ﴿من بعد ذلك﴾ أى من بعدما حكموك تصريح بما علم قطعا تأكيد الاستبعاد والتعجيب أى ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم من بعدمارضوا بحكمك وقوله تعالى ﴿وماأولئك بالمؤمنين﴾ تذييل مقرر لفحوى ماقبله ووضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للقصد الى احضارهم فى الذهن بما وصفوا به من القبائح ايماء الى علة الحكم والى أنهم قد تميزوا بذلك عن غيرهم أكمل تميز حتى انتظموا فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى العتو والمكابرة أى وما أولئك الموصوفون بما ذكر بالمؤمنين أى بكتابهم لاعراضهم عنه أولا وعن حكمك الموافق له ثانيا أو بهما وقيل وما أولئك بالكاملين فى الايمان تهكما بهم ﴿انا أنزلنا التوراة﴾ كلام مستأنف سيق لبيان علو شأن التوراة ووجوب مراعاة أحكامها وأنها لم تزل مرعية فيما بين الانبياء ومن يقتدى بهم كابرا عن كابر مقبولة لكل أحد من الحكام والمتحاكمين محفوظة عن المخالفة والتبديل تحقيقا لما وصف به المحرفون من عدم ايمانهم بها وتقريرا لكفرهم وظلمهم وقوله تعالى ﴿فيها هدى ونور﴾ حال من التوراة فان مافيها من الشرائع والأحكام من حيث ارشادها للناس الى الحق الذى لامحيد عنه هدى ومن حيث اظهارها وكشفها ما استبهم من الأحكام وما يتعلق بها من الأمور المستورة بظلمات الجهل نور وقوله تعالى ﴿يحكم بها النبيون﴾ أى أنبياء بنى اسرائيل وقيل موسى ومن بعده من الانبياء جملة مستأنفة مبينة لرفعة رتبتها وسمو طبقتها وقد جوز كونه حالا من التوراة فيكون حالا مقدرة أى يحكمون بأحكامها ويحملون الناس عليها وبه تمسك من ذهب الى أن شريعة من قبلنا شريعة لنا مالم تنسخ وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق الى المؤخر ولان فى المؤخر وما يتعلق به نوع طول ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقوله تعالى ﴿الذين أسلموا﴾ صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح دون التخصيص والتوضيح لكن لا للقصد الى مدحهم بذلك حقيقة فان النبوة أعظم من الاسلام قطعا فيكون وصفهم به بعد وصفهم بها تنزلا من الاعلى الى الادنى بل لتنويه شأن الصفة فان ابراز وصف فى معرض مدح العظماء منبئ عن عظم قدر الوصف لامحالة كما فى وصف الانبياء بالصلاح ووصف الملائكة بالايمان عليهم السلام ولذلك قيل أوصاف الاشراف أشراف الاوصاف وفيه رفع لشأن المسلمين وتعريض باليهود وأنهم بمعزل من الاسلام والاقتداء بدين الانبياء عليهم السلام لاسيما مع ملاحظة ماوصفوا به فى قوله تعالى ﴿للذين هادوا﴾ وهو متعلق بيحكم أى يحكمون فيما بينهم واللام اما لبيان اختصاص الحكم بهم أعم من أن يكون لهم أو عليهم كأنه قيل لاجل الذين هادوا واما للايذان بنفعه للمحكوم عليه أيضا باسقاط التبعة عنه واما للاشعار بكمال رضاهم به وانقيادهم له كأنه أمر نافع لكلا الفريقين ففيه تعريض بالمحرفين وقيل التقدير للذين هادوا وعليهم فحذف ماحذف لدلالة ماذكر عليه وقيل هو متعلق بأنزلنا وقيل بهدى ونور وفيه فصل بين المصدر ومعموله وقيل متعلق بمحذوف وقع صفة لهما أى هدى ونور كائنان للذين هادوا ﴿والربانيون والاحبار﴾ أى الزهاد والعلماء من ولد هرون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الربانيون الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم

بصغاره قبل كباره والاحبار هم الفقهاء واحده حبر بالفتح والكسر والثانى أفصح وهو رأى الفراء مأخوذ من التحبير والتحسين فانهم يحبرون العلم ويزينونه ويبينونه وهو عطف على النبيون أى هم أيضا يحكمون بأحكامها وتوسيط المحكوم لهم بين المعطوفين للايذان بأن الاصل فى الحكم بها وحمل الناس على مافيها هم النبيون وانما الربانيون والاحبار خلفاء ونواب لهم فى ذلك كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿بما استحفظوا﴾ أى بالذى استحفظوه من جهة النبيين وهو التوراة حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل على الاطلاق ولا ريب فى أن ذلك منهم عليهم السلام استخلاف لهم فى اجراء أحكامها من غير اخلال بشئ منها وفى ابهامها أولا ثم بيانها ثانيا بقوله تعالى ﴿من كتاب الله﴾ من تفخيمها واجلالها ذاتا واضافة وتأكيد ايجاب حفظها والعمل بما فيها مالا يخفى وايرادها بعنوان الكتاب للايماء الى ايجاب حفظها عن التغيير من جهة الكتابة والباء الداخلة على الموصول متعلقة بيحكم لكن لا على أنها صلة له كالتى فى قوله تعالى بها ليلزم تعلق حرفى جر متحدى المعنى بفعل واحد بل على أنها سببية أى ويحكم الربانيون والاحبار أيضا بسبب ماحفظوه من كتاب الله حسبما وصاهم به أنبياؤهم وسألوهم أن يحفظوه وليس المراد بسببيته لحكمهم ذلك سببيته من حيث الذات بل من حيث كونه محفوظا فان تعليق حكمهم بالموصول مشعر بسببية الحفظ المترتب لامحالة على مافى حيز الصلة من الاستحفاظ له وقيل الباء صلة لفعل مقدر معطوف على قوله تعالى يحكم بها النبيون عطف جملة على جملة أى ويحكم الربانيون والاحبار بحكم كتاب الله الذى سألهم أنبياؤهم أن يحفظوه من التغيير ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ أى رقباء يحمونه من أن يحوم حوله التغيير والتبديل بوجه من الوجوه فتغيير الاسلوب لما ذكر من المزايا وقيل بما استحفظوا بدل من قوله تعالى بها باعادة العامل وهو بعيد وكذا تجويز كون الضمير فى استحفظوا للانبياء والربانيين والاحبار جميعا على أن الاستحفاظ من جناب الله عز وجل أى كلفهم الله تعالى أن يحفظوه ويكونوا عليه شهداء وقوله تعالى وتقدس ﴿فلا تخشوا الناس﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهى بطريق الدلالة دون العبارة والفاء لترتيب النهى على مافصل من حال التوراة وكونها معتنى بشأنها فيما بين الانبياء عليهم السلام ومن يقتدى بهم من الربانيين والاحبار المتقدمين عملا وحفظا فان ذلك مما يوجب الاجتناب عن الاخلال بوظائف مراعاتها والمحافظة عليها بأى وجه كان فضلا عن التحريف والتغيير ولما كان مدار جراءتهم على ذلك خشية ذى سلطان أو رغبة فى الحظوظ الدنيوية نهوا عن كل منهما صريحا أى اذا كان شأنها كما ذكر فلاتخشوا الناس كائنا من كان واقتدوا فى مراعاة أحكامها وحفظها بمن قبلكم من الانبياء وأشياعهم ﴿واخشون﴾ فى الاخلال بحقوق مراعاتها فكيف بالتعرض لها بسوء ﴿ولا تشتروا بآياتى﴾ الاشتراء استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه لابذل الثمن لتحصيلها كما قيل ثم استعير لاخذ شئ بدلا مما كان له عينا كان أو معنى أخذا منوطا بالرغبة فيما أخذ والاعراض عما أعطى ونبذ كما فصل فى تفسير قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فالمعنى لاتستبدلوا بآياتى التى فيها بأن تخرجوها منها أو تتركوا العمل بها وتأخذوا لأنفسكم بدلا منها ﴿ثمنا قليلا﴾ من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية فانها وان جلت قليلة مسترذلة فى نفسها لاسيما بالنسبة الى ما فات عنهم بترك العمل بها وانما عبر عن المشترى الذى هو العمدة فى عقود المعاوضة والمقصد الاصلى بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة الى تحصيله وأبرزت الآيات التى حقها أن يتنافس فيها المتنافسون فى معرض الآلات والوسايط حيث قرنت بالباء التى تصحب الوسائل ايذانا بمبالغتهم فى التعكيس بأن جعلوا المقصد الاقصى وسيلة والوسيلة الادنى مقصدا ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ كائنا من كان دون المخاطبين خاصة فانهم مندرجون فيه اندراجا أوليا أى من لم يحكم بذلك مستهينا به منكرا له كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله تعالى

اقتضاء بينا ﴿فأولئك﴾ اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فيما سبق باعتبار لفظها ﴿هم الكافرون﴾ لاستهانتهم به وهم اما ضمير الفصل أو مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر لأولئك وقد مر تفصيله فى مطلع سورة البقرة والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبلها أبلغ تقرير وتحذير عن الاخلال به أشد تحذير حيث علق فيه الحكم بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى فكيف وقد انضم اليه الحكم بخلافه لاسيما مع مباشرة مانهوا عنه من تحريفه و وضع غيره موضعه وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ﴿وكتبنا﴾ عطف على أنزلنا التوراة ﴿عليهم﴾ أى على الذين هادوا وقرئ وأنزل الله على بنى اسرائيل ﴿فيها﴾ أى فى التوراة ﴿أن النفس بالنفس﴾ أى تقاد بها اذا قتلتها بغير حق ﴿والعين﴾ تفقأ ﴿بالعين﴾ اذا فقئت بغير حق ﴿والانف﴾ يجدع ﴿بالانف﴾ المقطوع بغير حق ﴿والاذن﴾ تصلم ﴿بالاذن﴾ المقطوعة ظلما ﴿والسن﴾ تقلع ﴿بالسن﴾ المقلوعة بغير حق ﴿والجروح قصاص﴾ أى ذات قصاص اذا كانت بحيث تعرف المساواة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم كانوا لايقتلون الرجل بالمرأة فنزلت وقرئ وان الجروح قصاص وقرئ والعين الى آخره بالرفع عطفا على محل أن النفس لان المعنى كتبنا عليهم النفس بالنفس اما الاجراء كتبنا مجرى قلنا واما لان معنى الجملة التى هى قولك النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما يقع عليه القراءة تقول كتبت الحمد لله وقرأت سورة أنزلناها ﴿فمن تصدق﴾ أى من المستحقين ﴿به﴾ أى بالقصاص أى فمن عفا عنه والتعبير عنه بالتصدق للمبالغة فى الترغيب فيه ﴿فهو﴾ أى التصدق ﴿كفارة له﴾ أى للمتصدق يكفر الله تعالى بها ذنوبه وقيل للجانى اذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه مالزمه وقرئ فهو كفارته له أى فالمتصدق كفارته التى يستحقها بالتصدق له لاينقص منها شئ وهو تعظيم لما فعل كقوله تعالى فأجره على الله ﴿ومن لم يحكم﴾ كائنا من كان فيتناول من لايرى قتل الرجل بالمرأة من اليهود تناولا بينا ﴿بما أنزل الله﴾ من الاحكام والشرائع كائنا ما كان فيدخل فيها الاحكام المحكية دخولا أوليا ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ المبالغون فى الظلم المتعدون لحدوده تعالى الواضعون للشئ فى غير موضعه والجملة تذييل مقرر لايجاب العمل بالاحكام المذكورة ﴿وقفينا على آثارهم﴾ شروع فى بيان أحكام الانجيل اثر بيان أحكام التوراة وهو عطف على أنزلنا التوراة أى آثار النبيين المذكورين يقال قفيته بفلان اذا أتبعته اياه فحذف المفعول لدلالة الجار والمجرور عليه أى قفيناهم ﴿بعيسى ابن مريم﴾ أى أرسلناه عقيبهم ﴿مصدقا لما بين يديه من التوراة﴾ حال من عيسى عليه السلام ﴿وآتيناه الانجيل﴾ عطف على قفينا وقرئ بفتح الهمزة ﴿فيه هدى ونور﴾ كما فى التوراة وهو فى محل النصب على أنه حال من الانجيل أى كائنا فيه ذلك كأنه قيل مشتملا على هدى ونور وتنوين هدى ونور للتفخيم ويندرج فى ذلك شواهد نبوته عليه السلام ﴿ومصدقا لما بين يديه من التوراة﴾ عطف عليه داخل فى حكم الحالية وتكرير مابين يديه من التوراة لزيادة التقرير ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ عطف على مصدقا منتظم معه فى سلك الحالية جعل كله هدى بعد ماجعل مشتملا عليه حيث قيل فيه هدى وتخصيص كونه هدى وموعظة بالمتقين لانهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه ﴿وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه﴾ أمر مبتدأ لهم بأن يحكموا و يعملوا بما فيه من الأمور التى من جملتها دلائل رسالته عليه الصلاة والسلام وشواهد نبوته وما قرره الشريعة الشريفة من أحكامه وأما أحكامه المنسوخة فليس الحكم بها حكما بما أنزل الله فيه بل هو ابطال وتعطيل له اذ هو شاهد بنسخها وانتهاء وقت العمل بها لان شهادته بصحة ماينسخها من الشريعة شهادة بنسخها و بأن أحكامه ماقررته تلك الشريعة التى شهد بصحتها كما سيأتى فى قوله تعالى يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والانجيل الآية وقيل هو حكاية للأمر الوارد عليهم بتقدير فعل معطوف على آتيناه أى وقلنا ليحكم أهل الانجيل الخ وقرئ وأن ليحكم

على أن أن موصولة بالأمر كما فى قولك أمرته بأن قم كأنه قيل وآتيناه الانجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الانجيل الخ وقرئ على صيغة المضارع ولام التعليل على أنها متعلقة بمقدر كأنه قيل وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه آتيناه اياه وقد عطف على هدى وموعظة على أنهما مفعول لهما كأنه قيل وللهدى والموعظة آتيناه اياه وللحكم بما أنزل الله فيه ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ منكرا له مستهينا به ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ المتمردون الخارجون عن الايمان والجملة تذييل مقرر لمضمون الجملة السابقة ومؤكد لوجوب الامتثال بالأمر وفيه دلالة على أن الانجيل مشتمل على الأحكام وأن عيسى عليه السلام كان مستقلا بالشرع مأمورا بالعمل بما فيه من الأحكام قلت أو كثرت لابما فى التوراة خاصة وحمله على معنى وليحكم بما أنزل الله فيه من ايجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر ﴿وأنزلنا اليك الكتاب﴾ أى الفرد الكامل الحقيق بأن يسمى كتابا على الاطلاق لحيازته جميع الأوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوى وتفوقه على بقية أفراده وهو القرآن الكريم فاللام للعهد والجملة عطف على أنزلنا وما عطف عليه وقوله تعالى ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا مؤكدة من الكتاب أى ملتبسا بالحق والصدق وقيل من فاعل أنزلنا وقيل من الكاف فى اليك وقوله تعالى ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ حال من الكتاب أى حال كونه مصدقا لما تقدمه اما من حيث أنه نازل حسبما نعت فيه أو من حيث أنه موافق له فى القصص والمواعيد والدعوة الى الحق والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش وأما مايتراءى من مخالفته له فى بعض جزئيات الأحكام المتغيرة بسبب تغير الاعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة بل هى موافقة لها من حيث ان كلا من تلك الأحكام حق بالاضافة الى عصره متضمن للحكمة التى عليها يدور أمر الشريعة وليس فى المتقدم دلالة على أبدية أحكامه المنسوخة حتى يخالفه الناسخ المتأخر وانما يدل على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها وزوالها بل نقول هو ناطق بزوالها لما أن النطق بصحة ماينسخها نطق بنسخها وزوالها وقوله تعالى ﴿من الكتاب﴾ بيان لما واللام للجنس اذ المراد هو الكتاب السماوى وهو بهذا العنوان جنس برأسه وان كان فى نفسه نوعا مخصوصا من مدلول لفظ الكتاب وعن هذا قالوا اللام للعهد الا أن ذلك لاينتهى الى خصوصية الفردية بل الى خصوصية النوعية التى هى أخص من مطلق الكتاب وهو ظاهر ومن الكتاب السماوى أيضا حيث خص بما عدا القرآن ﴿ومهيمنا عليه﴾ أى رقيبا على سائر الكتب المحفوظة من التغيير لأنه يشهد لها بالصحة والثبات ويقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها و يعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها و لا ريب فى أن تمييز أحكامها الباقية على المشروعية أبدا عما انتهى وقت مشروعيته وخرج عنها من أحكام كونه مهيمنا عليه وقرئ ومهيمنا عليه على صيغة المفعول أى هو من عليه وحوفظ من التغيير والتبديل كقوله عز وجل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والحافظ اما من جهته تعالى كما فى قوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون أو الحفاظ فى الأعصار والأمصار والفاء فى قوله تعالى ﴿فاحكم بينهم﴾ لترتيب مابعدها على ماقبلها فان كون شأن القرآن العظيم حقا مصدقا لما قبله من الكتب المنزلة على الأمم مهيمنا عليه من موجبات الحكم المأمور به أى اذا كان القرآن كما ذكر فاحكم بين أهل الكتابين عند تحاكمهم اليك ﴿بما أنزل الله﴾ أى بما أنزله اليك فانه مشتمل على جميع الأحكام الشرعية الباقية فى الكتب الالهية وتقديم بينهم للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على علية ما فى حيز الصلة للحكم والالتفات باظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ الزائغة ﴿عما جاءك من الحق﴾ الذى لاعدول عنه وعن متعلقة بلاتتبع على تضمين معنى العدول ونحوه كأنه قيل ولا تعدل عما جاءك من الحق متبعا أهواءهم وقيل بمحذوف وقع حالا من فاعله أى لاتتبع أهواءهم عادلا

عما جاءك وفيه أن ماوقع حالا لابد أن يكون فعلا عاما ووضع الموصول موضع ضمير الموصول الأول للايماء بما فى حيز الصلة من مجىء الحق الى مايوجب كمال الاجتناب عن اتباع الأهواء وقوله تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ كلام مستأنف جىء به لحمل أهل الكتابين من معاصريه عليه الصلاة والسلام على الانقياد لحكمه بما أنزل اليه من القرآن الكريم ببيان أنه هو الذى كلفوا العمل به دون غيره من الكتابين وانما الذين كلفوا العمل بهما من مضى قبل نسخهما من الأمم السالفة والخطاب بطريق التلوين والالتفات للناس كافة لكن لا للموجودين خاصة بل للماضين أيضا بطريق التغليب واللام متعلقة بجعلنا المتعدى لواحد وهو اخبار بجعل ماض لا انشاء وتقديمها عليه للتخصيص ومنكم متعلق بمحذوف وقع صفة لما عوض عنه تنوين كل ولا ضير فى توسط جعلنا بين الصفة والموصوف كما فى قوله تعالى أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات الخ والمعنى لكل أمة كائنة منكم أيها الأمم الباقية والخالية جعلنا أى عينا و وضعنا شرعة ومنهاجا خاصين بتلك الأمة لا تكاد أمة تتخطى شرعتها التى عينت لها فالأمة التى كانت من مبعث موسى الى مبعث عيسى عليهما السلام شرعتهم التوراة والتى كانت من مبعث عيسى الى مبعث النبى عليهما الصلاة والسلام شرعتهم الانجيل وأما أنتم أيها الموجودون فشرعتكم القرآن ليس الا فآمنوا به واعملوا بما فيه والشرعة والشريعة هى الطريقة الى الماء شبه بها الدين لكونه سببا موصولا الى ماهو سبب للحياة الأبدية كما أن الماء سبب للحياة الفانية والمنهاج الطريق الواضح فى الدين من نهج الأمر اذا وضح وقرىء شرعة بفتح الشين قيل فيه دليل على أنا غير متعبدين بشرائع من قبلنا والتحقيق أنا متعبدون بأحكامها الباقية من حيث أنها أحكام شرعتنا لا من حيث أنها شرعة للأولين ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ متفقة على دين واحد فى جميع الأعصار من غير اختلاف بينكم وبين من قبلكم من الأمم فى شىء من الأحكام الدينية ولا نسخ ولا تحويل ومفعول المشيئة محذوف تعويلا على دلالة الجزاء عليه أى ولو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة لجعلكم الخ وقيل المعنى لوشاء الله اجتماعكم على الاسلام لأجبركم عليه ﴿ولكن ليبلوكم﴾ متعلق بمحذوف يستدعيه النظام أى ولكن لم يشأ ذلك أى أن يجعلكم أمة واحدة بل شاء ماعليه السنة الالهية الجارية فيما بين الأمم ليعاملكم معاملة من يبتليكم ﴿فيما آتاكم﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها وقرونها هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى المشيئة الالهية المبنية على أساس الحكم البالغة والمصالح النافعة لكم فى معاشكم ومعادكم أو تزيغون عن الحق وتتبعون الهوى وتستبدلون المضرة بالجدوى وتشترون الضلالة بالهدى وبهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة المذكورة ليس مجرد الابتلاء بل العمدة فى ذلك ماأشير اليه من انطواء الاختلاف على مافيه مصلحتهم معاشا ومعادا كما ينبىء عنه قوله عز وجل ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أى اذا كان الأمر كما ذكر فسارعوا الى ماهو خير لكم فى الدارين من العقائد الحقة والأعمال الصالحة المندرجة فى القرآن الكريم وابتدروها انتهازا للفرصة واحرازا لسابقة الفضل والتقدم ففيه من تأكيد الترغيب فى الاذعان للحق وتشديد التحذير عن الزيغ مالا يخفى وقوله تعالى ﴿الى الله مرجعكم﴾ استئناف مسوق مساق التعليل لاستباق الخيرات بما فيه من الوعد والوعيد وقوله تعالى ﴿جميعا﴾ حال من ضمير الخطاب والعامل فيه اما المصدر المنحل الى حرف مصدرى وفعل مبنى للفاعل أو مبنى للمفعول واما الاستقرار المقدر فى الجار ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ أى فيفعل بكم من الجزاء الفاصل بين المحق والمبطل مالا يبقى لكم معه شائبة شك فيما كنتم فيه تختلفون فى الدنيا وانما عبر عن ذلك بما ذكر لوقوعه موقع ازالة الاختلاف التى هى وظيفة الاخبار ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ عطف على الكتاب أى أنزلنا اليك الكتاب والحكم بما فيه والتعرض لعنوان انزاله تعالى اياه لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر أو على الحق أى أنزلناه بالحق وبأن احكم وحكاية

انزال الأمر بهذا الحكم بعد مامر من الأمر الصريح بذلك تأكيد له وتمهيد لما يعقبه من قوله تعالى ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل اليك﴾ أى يصرفوك عن بعضه ولو كان أقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق واظهار الاسم الجليل لتأكيد الأمر بتهويل الخطب وأن بصلته بدل اشتمال من ضميرهم أى احذر فتنتهم أو مفعول له أى احذرهم مخافة أن يفتنوك واعادة ماأنزل الله لتأكيد التحذير بتهويل الخطب . روى أن أحبار اليهود قالوا اذهبوا بنا الى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فذهبوا اليه صلى الله عليه وسلم وقالوا يا أبا القاسم قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا ان اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم وأن بيننا و بين قومنا خصومة فنتحاكم اليك فتقضى لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿فان تولوا﴾ أى أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى وأرادوا غيره ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أى بذنب توليهم عن حكم الله عز وجل وانما عبر عنه بذلك ايذانا بأن لهم ذنوبا كثيرة هذا مع كمال عظمه واحد من جملتها و فى هذا الابهام تعظيم للتولى كما فى قول لبيد أو يرتبط بعض النفوس حمامها يريد به نفسه أى نفسا كبيرة ونفسا أى نفس ﴿وان كثيرا من الناس لفاسقون﴾ أى متمردون فى الكفر مصرون عليه خارجون عن الحدود المعهودة وهو اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ انكار وتعجيب من حالهم وتوبيخ لهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية وتقديم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الانكار والتعجيب لأن التولى عن حكمه عليه الصلاة والسلام وطلب حكم آخر منكر عجيب وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب والمراد بالجاهلية اما الملة الجاهلية التى هى متابعة الهوى الموجبة للميل والمداهنة فى الأحكام فيكون تعييرا لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التى هى هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع الى وحى واما أهل الجاهلية وحكمهم ما كانوا عليه من التفاضل فيما بين القتلى حيث روى أن بنى النضير لما تحاكموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خصومة قتل وقعت بينهم و بين بنى قريظة طلبوا اليه عليه الصلاة والسلام أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل فقال عليه الصلاة والسلام القتلى سواء فقال بنو النضير نحن لا نرضى بذلك فنزلت وقرىء برفع الحكم على أنه مبتدأ و يبغون خبره والراجع محذوف حذفه فى قوله تعالى أهذا الذى بعث الله رسولا وقد استضعف ذلك فى غير الشعر وقرىء بتاء الخطاب اما بالالتفات لتشديد التوبيخ واما بتقدير القول أى قل لهم أفحكم الخ وقرىء بفتح الحاء والكاف أى ألحاكما كحكام الجاهلية يبغون ﴿ومن أحسن من الله حكما﴾ انكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه تعالى أو مساويه وان كان ظاهر السبك غير متعرض لنفى المساواة وانكارها وقد مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله ﴿لقوم يوقنون﴾ أى عندهم واللام كما فى هيت لك أى هذا الاستفهام لهم فانهم الذين يتدبرون الأمور بأنظارهم فيعلمون يقينا أن حكم الله عز وجل أحسن الأحكام وأعدلها ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب يعم حكمه كافة المؤمنين من المخلصين وغيرهم وان كان سبب وروده بعضا منهم كما سيأتى و وصفهم بعنوان الايمان لحملهم من أول الأمر على الانزجار عما نهوا عنه بقوله عز وجل ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ فان تذكير اتصافهم بضد صفات الفريقين من أقوى الزواجر عن موالاتهما أى لا يتخذ أحد منكم أحدا منهم وليا بمعنى لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الأحباب ومعاشرتهم لا بمعنى لا تجعلوهم أولياء لكم حقيقة فانه أمر ممتنع فى نفسه لا يتعلق به النهى ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أى بعض كل فريق من ذينك الفريقين أولياء بعض آخر من ذلك الفريق لا من الفريق الآخر وانما أوثر الاجمال فى البيان تعويلا على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين فريقى اليهود والنصارى رأسا والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهى

وتأكيد ايجاب الاجتناب عن المنهى عنه أى بعضهم أولياء بعض متفقون على كلمة واحدة فى كل ما يأتون وما يذرون ومن ضرورته اجماع الكل على مضادتكم ومضارتكم بحيث يسومونكم السوء ويبغونكم الغوائل فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة وقوله تعالى ﴿ومن يتولهم منكم فانه منهم﴾ حكم مستنتج منه فان انحصار الموالاة فيما بينهم يستدعى كون من يواليهم منهم ضرورة أن الاتحاد فى الدين الذى عليه يدور أمر الموالاة حيث لم يكن بكونهم ممن يواليهم من المؤمنين تعين أن يكون ذلك بكون من يواليهم منهم وفيه زجر شديد للمؤمنين عن اظهار صورة الموالاة لهم وان لم تكن موالاة فى الحقيقة وقوله تعالى ﴿ان الله لا يهدى القوم الظالمين﴾ تعليل لكون من يتولاهم منهم أى لا يهديهم الى الايمان بل يخليهم وشأنهم فيقعون فى الكفر والضلالة وانما وضع المظهر موضع ضميرهم تنبيها على أن توليهم ظلم لما أنه تعريض لأنفسهم للعذاب الخالد ووضع للشئ فى غير موضعه وقوله تعالى ﴿فترى الذين فى قلوبهم مرض﴾ بيان لكيفية توليهم واشعار بسببه وبما يؤول اليه أمرهم والفاء للايذان بترتبه على عدم الهداية والخطاب اما للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين واما لكل أحد ممن له أهلية له وفيه مزيد تشنيع للتشنيع أى لا يهديهم بل يذرهم وشأنهم فتراهم الخ وانما وضع موضع الضمير الموصول ليشار بما فى حيز صلته الى أن ما ارتكبوه من التولى بسبب ما فى قلوبهم من مرض النفاق ورخاوة العقد فى الدين وقوله تعالى ﴿يسارعون فيهم﴾ حال من الموصول والرؤية بصرية وقيل مفعول ثان والرؤية قلبية والاول هو الانسب بظهور نفاقهم أى تراهم مسارعين فى موالاتهم وانما قيل فيهم مبالغة فى بيان رغبتهم فيها وتهالكهم عليها وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على أنهم مستقرون فى الموالاة وانما مسارعتهم من بعض مراتبها الى بعض آخر منها كما فى قوله تعالى أولئك يسارعون فى الخيرات لا أنهم خارجون عنها متوجهون اليها كما فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة وقرئ فيرى بياء الغيبة على أن الضمير لله سبحانه وقيل لمن تصح منه الرؤية وقيل الفاعل هو الموصول والمفعول هو الجملة على حذف أن المصدرية والرؤية قلبية أى ويرى القوم الذين فى قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم فلما حذفت أن انقلب الفعل مرفوعا كما فى قول من قال

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى والمراد بهم عبدالله بن أبى وأضرابه الذين كانوا يسارعون فى موادة اليهود ونصارى نجران وكانوا يعتذرون الى المؤمنين بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم صروف الزمان وذلك قوله تعالى ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ وهو حال من ضمير يسارعون والدائرة من الصفات الغالبة التى لا يذكر معها موصوفها أى تدور علينا دائرة من دوائر الدهر ودولة من دوله بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار وقيل نخشى أن يصيبنا مكروه من مكاره الدهر كالجدب والقحط فلا يعطونا الميرة والقرض . روى أن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان لى موالى من اليهود كثيرا عددهم وانى أبرأ الى الله ورسوله من ولايتهم وأوالى الله ورسوله فقال عبدالله بن أبى انى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالى وهم يهود بنى قينقاع ولعله يظهر للمؤمنين أنه يريد بالدوائر المعنى الأخير ويضمر فى نفسه المعنى الأول وقوله تعالى ﴿فعسى الله أن يأتى بالفتح﴾ رد من جهة الله تعالى لعللهم الباطلة وقطع لاطماعهم الفارغة وتبشير للمؤمنين بالظفر فان عسى منه سبحانه وعد محتوم لما أن الكريم اذا أطمع أطعم لامحالة فما ظنك بأكرم الأكرمين وأن يأتى فى محل النصب على أنه خبر عسى وهو رأى الأخفش أو على أنه مفعول به وهو رأى سيبويه لئلا يلزم الاخبار عن الجثة بالحدث كما فى قولك عسى زيد أن يقوم والمراد بالفتح فتح مكة قاله الكلبى والسدى وقال الضحاك فتح قرى اليهود من خيبر وفدك وقال قتادة ومقاتل هو القضاء الفصل بنصره عليه الصلاة والسلام على من خالفه واعزاز الدين ﴿أو أمر من عنده﴾ بقطع شأفة اليهود من القتل والاجلاء ﴿فيصبحوا﴾

أى أولئك المنافقون المتعللون بما ذكر وهو عطف على يأتى داخل معه فى حيز خبر عسى وان لم يكن فيه ضمير يعود الى اسمها فان فاء السببية مغنية عن ذلك فانها تجعل الجملتين كجملة واحدة ﴿على ما أسروا فى أنفسهم نادمين﴾ وهو ما كانوا يكتمونه فى أنفسهم من الكفر والشك فى أمره عليه الصلاة والسلام وتعليق الندامة به لا بما كانوا يظهرونه من موالاة الكفرة لما أنه الذى كان يحملهم على الموالاة ويغريهم عليها فدل ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ كلام مبتدأ مسوق لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة وقرئ بغير واو على أنه جواب سؤال نشأ مما سبق كأنه قيل فماذا يقول المؤمنون حينئذ وقرئ ويقول بالنصب عطفا على يصبحوا وقيل على يأتى باعتبار المعنى كأنه قيل فعسى أن يأتى الله بالفتح ويقول الذين آمنوا والأول أوجه لأن هذا القول انما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة المنافقين لا عند اتيان الفتح فقط والمعنى ويقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين الى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ويرجون دولتهم ويظهرون لهم غاية المحبة وعدم المفارقة عنهم فى السراء والضراء عند مشاهدتهم لخيبة رجائهم وانعكاس تقديرهم بوقوع ضد ما كانوا يترقبونه ويتعللون به تعجيبا للمخاطبين من حالهم وتعريضا بهم ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم﴾ أى بالنصرة والمعونة كما قالوا فيما حكى عنهم وان قوتلتم لننصرنكم واسم الاشارة مبتدأ وما بعده خبره والمعنى انكار ما فعلوه واستبعاده وتخطئتهم فى ذلك أو يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين الى المنافقين أيضا أهؤلاء الذين أقسموا للكفرة انهم لمعكم فالخطاب فى معكم لليهود على التقديرين الا أنه على الأول من جهة المؤمنين وعلى الثانى من جهة المقسمين وهذه الجملة لا محل لها من الاعراب لأنها تفسير وحكاية لمعنى أقسموا لكن لا بألفاظهم والالقيل انا معكم وجهد الأيمان أغلظها وهو فى الأصل مصدر ونصبه على الحال على تقدير وأقسموا بالله يجهدون جهد أيمانهم فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ولا يبالى بتعريفه لفظا لأنه مؤول بنكرة أى مجتهدين فى أيمانهم أو على المصدر أى أقسموا اقسام اجتهاد فى اليمين وقوله تعالى ﴿حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ اما جملة مستأنفة مسوقة من جهته تعالى لبيان مآل ما صنعوه من ادعاء الولاية والاقسام على المعية فى المنشط والمكره اثر الاشارة الى بطلانه بالاستفهام الانكارى واما خبر ثان للمبتدا عند من يجوز كونه جملة كما فى قوله تعالى فاذا هى حية تسعى أو هو الخبر والموصول مع ما فى حيز صلته صفة لاسم الاشارة فالاستفهام حينئذ للتقرير وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم والمعنى بطلت أعمالهم التى عملوها فى شأن موالاتكم وسعوا فى ذلك سعيا بليغا حيث لم تكن لكم دونة فيتفعوا بما صنعوا من المساعى وتحملوا من مكابدة المشاق وفيه من الاستهزاء بالمنافقين والتقريع للمخاطبين ما لا يخفى وقيل قاله بعض المؤمنين مخاطبا لبعض تعجبا من سوء حال المنافقين واغتباطا بما من الله تعالى على أنفسهم من التوفيق للاخلاص أهؤلاء الذين أقسموا لكم باغلاظ الأيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار بطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين الناس وأنت خبير بأن ذلك الكلام من المؤمنين انما يليق بما لو أظهر المنافقون حينئذ خلاف ما كانوا يدعونه ويقسمون عليه من ولاية المؤمنين ومعاضدتهم على الكفار فظهر كذبهم وافتضحوا بذلك على رؤس الأشهاد وبطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين المؤمنين ولا ريب فى أنهم يومئذ أشد ادعاء وأكثر اقساما منهم قبل ذلك فضلا عن أن يظهروا خلاف ذلك وانما الذى يظهر منهم الندامة على ما صنعوا وليس ذلك علامة ظاهرة الدلالة على كفرهم وكذبهم فى ادعائهم فانهم يدعون أن ليست ندامتهم الا على ما أظهروه من موالاة الكفرة خشية اصابة الدائرة ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ وقرئ يرتدد بالفك على لغة الحجاز والادغام لغة تميم لما نهى فيما سلف عن موالاة اليهود والنصارى وبين أن موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين وفصل

مصيرأمر من يوليهم من المنافقين شرع فى بيان حال المرتدين على الاطلاق وهذا من الكائنات التى أخبر عنها القرآن قبل وقوعها. روى أنه ارتدعن الاسلام احدى عشرة فرقة ثلاث فى عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام بنو مدلج ورئيسهم ذوالخمار وهو الأسود العنسى كان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده فأخرج منها عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب عليه الصلاة والسلام الى معاذ بن جبل والى سادات اليمن فأهلكه الله تعالى على يدى فيروز الديلمى بيته فقتله وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ليلة قتل فسر به المسلمون وقبض عليه الصلاة والسلام من الغد وأتى خبره فى آخر شهر ربيع الأول و بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب تنبأ وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله أما بعد فان الأرض نصفها لى ونصفها لك فأجاب عليه الصلاة والسلام من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين فحاربه أبو بكر رضى الله عنه بجنود المسلمين وقتل على يدى وحشى قاتل حمزة رضى الله عنه وكان يقول قتلت فى جاهليتى خير الناس وفى اسلامى شر الناس و بنو أسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث اليه أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد فانهزم بعد القتال الى الشأم فأسلم وحسن اسلامه وسبع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه فزارة قوم عيينة بن حصن وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيرى و بنوسليم قوم الفجاءة ابن عبد ياليل و بنو يربوع قوم مالك بن نويرة و بعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التى زوجت نفسها من مسيلمة الكذاب وفيها يقول أبو العلاء المعرى فى كتاب استغفر واستغفرى

آمت سجاح ووالاها مسيلمة كذابة فى بنى الدنيا وكذاب

و كندة قوم الاشعث بن قيس و بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد وكفى الله تعالى أمرهم على يد أبى بكر رضى الله عنه وفرقة واحدة فى عهد عمر رضى الله عنه غسان قوم جبلة بن الايهم نصرته اللطمة وسيرته الى بلاد الروم وقصته مشهورة وقوله تعالى ﴿فسوف يأتى الله﴾ جواب الشرط والعائد الى اسم الشرط محذوف أى فسوف يأتى الله مكانهم بعد اهلاكهم ﴿بقوم يحبهم﴾ أى يريد بهم خيرى الدنيا والآخرة ومحل الجملة الجر على أنها صفة لقوم وقوله تعالى ﴿ويحبونه﴾ أى يريدون طاعته و يتحرزون عن معاصيه معطوف عليها داخل فى حكمها قيل هم أهل اليمن لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام أشار الى أبى موسى الأشعرى وقال قوم هذا وقيل هم الانصار رضى الله عنهم وقيل هم الفرس لما روى أنه عليه السلام سئل عنهم فضرب بيده الكريمة على عاتق سلمان رضى الله عنه وقال هذا وذووه ثم قال لو كان الايمان معلقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس وقيل هم ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وثلاثة آلاف من أفناء الناس جاهدوا يوم القادسية ﴿أذلة على المؤمنين﴾ جمع ذليل لاذلول فان جمعه ذلل أى أرقاء رحماء متذللين ومتواضعين لهم واستعماله بعلى اما لتضمين معنى العطف والحنو أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم أو لرعاية المقابلة بينه و بين ما فى قوله تعالى ﴿أعزة على الكافرين﴾ أى أشداء متغلبين عليهم من عزه اذا غلبه كما فى قوله عز وعلا أشداء على الكفار رحماء بينهم وهما صفتان أخريان لقوم ترك بينهما العاطف للدلالة على استقلالهم بالاتصاف بكل منهما وفيه دليل على صحة تأخير الصفة الصريحة عن غير الصريحة من الجملة والظرف كما فى قوله تعالى وهذا كتاب أنزلناه مبارك وقوله تعالى ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث وقوله تعالى ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث وماذهب اليه من لايجوزه من أن قوله تعالى يحبهم ويحبونه كلام معترض وأن مبارك خبر بعد خبر أو خبر لمبتدا محذوف وأن من ربهم ومن الرحمن حالان مقدمتان من ضمير محدث تكلف لايخفى وقرئ أذلة أعزة بالنصب على الحالية من قوم لتخصصه بالصفة ﴿يجاهدون فى سبيل الله﴾ صفة أخرى لقوم مترتبة على ماقبلها مبينة مع مابعدها لكيفية

عزتهم أو حال من الضمير فى أعزة ﴿ولايخافون لومة لائم﴾ عطف على يجاهدون بمعنى أنهم جامعون بين المجاهدة فى سبيل الله و بين التصلب فى الدين وفيه تعريض بالمنافقين فانهم كانوا اذا خرجوا فى جيش المسلمين خافوا أولياءهم اليهود فلا يكادون يعملون شيئا يلحقهم فيه لوم من جهتهم وقيل هو حال من فاعل يجاهدون بمعنى أنهم يجاهدون وحالهم خلاف حال المنافقين واعترض عليه بأنهم نصوا على أن المضارع المنفى بلا أو ما كالمثبت فى عدم جواز مباشرة واو الحال له واللومة المرة من اللوم وفيها و فى تنكير لائم مبالغة لاتخفى ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماتقدم من الأوصاف الجليلة ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الفضل ﴿فضل الله﴾ أى لطفه واحسانه لا أنهم مستقلون فى الاتصاف بها ﴿يؤتيه من يشاء﴾ ايتاءه اياه و يوفقه لكسبه وتحصيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿والله واسع﴾ كثير الفواضل والألطاف ﴿عليم﴾ مبالغ فى العلم بجميع الأشياء التى من جملتها من هو أهل للفضل والتوفيق والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله واظهار الاسم الجليل للاشعار بالعلة وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضية ﴿انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ لما نهاهم الله عز وجل عن موالاة الكفرة وعلله بأن بعضهم أولياء بعض لايتصور ولايتهم للمؤمنين و بين أن من يتولاهم يكون من جملتهم بين ههنا من هو وليهم بطريق قصر الولاية عليه كأنه قيل لاتتخذوهم أولياء لان بعضهم أولياء بعض وليسوا بأوليائكم انما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة ولا تتخطوهم الى غيرهم وانما أفرد الولى مع تعدده للايذان بأن الولاية أصالة لله تعالى وولايته عليه السلام وكذا ولاية المؤمنين بطريق التبعية لولايته عز وجل ﴿الذين يقيمون الصلوة و يؤتون الزكوة﴾ صفة للذين آمنوا جرياته مجرى الاسم أو بدل منه أو نصب على المدح أو رفع عليه ﴿وهم راكعون﴾ حال من فاعل الفعلين أى يعملون ماذكر من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى وقيل هو حال مخصوصة بايتاء الزكاة والركوع ركوع الصلاة والمراد بيان كمال رغبتهم فى الاحسان ومسارعتهم اليه وروى أنها نزلت فى على رضى الله عنه حين سأله سائل وهو راكع فطرح اليه خاتمه كأنه كان مرجا فى خنصره غير محتاج فى اخراجه الى كثير عمل يؤدى الى فساد الصلاة ولفظ الجمع حينئذ لترغيب الناس فى مثل فعله رضى الله عنه وفيه دلالة على أن صدقة التطوع تسمى زكاة ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا﴾ أوثر الاظهار على أن يقال ومن يتولهم رعاية لما مر من نكتة بيان أصالته تعالى فى الولاية كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فان حزب الله هم الغالبون﴾ حيث أضيف الحزب اليه تعالى خاصة وهو أيضا من باب وضع الظاهر موضع الضمير العائد الى من أى فانهم الغالبون لكنهم جعلوا حزب الله تعالى تعظيما لهم واثباتا لغلبتهم بالطريق البرهانى كأنه قيل ومن يتول هؤلاء فانهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا﴾ روى أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرا الاسلام ثم نافقا وكان رجال من المؤمنين يوادونهما فنهوا عن موالاتهما ورتب النهى على وصف يعمهما وغيرهما تعميما للحكم وتنبيها على العلة وايذانا بأن من هذا شأنه جدير بالمعاداة فكيف بالموالاة ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ بيان للمستهزئين والتعرض لعنوان ايتاء الكتاب لبيان كمال شناعتهم وغاية ضلالتهم لما أن ايتاء الكتاب وازع لهم عن الاستهزاء بالدين المؤسس على الكتاب المصدق لكتابهم ﴿والكفار﴾ أى المشركين خصوا به لتضاعف كفرهم وهو عطف على الموصول الاول ففيه اشعار بأنهم ليسوا بمستهزئين كما ينبئ عنه تخصيص الخطاب بأهل الكتاب فى قوله تعالى ياأهل الكتاب هل تنقمون منا الآية وقرئ بالجر عطفا على الموصول الاخير و يعضده قراءة أبى ومن الكفار وقراءة عبدالله ومن الذين أشركوا فهم أيضا من جملة المستهزئين ﴿أولياء﴾ وجانبوهم كل المجانبة ﴿واتقوا الله﴾ فى ذلك بترك موالاتهم أو بترك المناهى

على الاطلاق فيدخل فيه ترك موالاتهم دخولا أوليا ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ أى حقا فان قضية الايمان توجب الاتقاء
لامحالة ﴿واذا ناديتم الى الصلوة اتخذوها﴾ أى الصلاة او المناداة ففيه دلالة على شرعية الاذان ﴿هزوا ولعبا﴾
بيان لاستهزائهم بحكم خاص من أحكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على الاطلاق اظهارا لكمال شقاوتهم. روى
أن نصرانيا بالمدينة كان اذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمدا رسول الله يقول أحرق الله الكاذب فدخل خادمه ذات
ليلة بنار وأهله نيام فتطايرت منه شرارة فى البيت فأحرقته وأهله جميعا ﴿ذلك﴾ أى الاستهزاء المذكور ﴿بأنهم﴾
بسبب أنهم ﴿قوم لا يعقلون﴾ فان السفه يؤدى الى الجهل بمحاسن الحق والهزؤ به ولو كان لهم عقل فى الجملة لما
اجترءوا على تلك العظيمة ﴿قل﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق تلوين الخطاب بعد نهى المؤمنين عن تولى
المستهزئين بأن يخاطبهم ويبين أن الدين منزه عما يصحح صدور ما صدر عنهم من الاستهزاء ويظهر لهم سبب ما ارتكبوه
ويلقمهم الحجر أى قل لاولئك الفجرة ﴿يا أهل الكتاب﴾ وصفوا بأهلية الكتاب تمهيدا لما سيأتى من تبكيتهم
والزامهم بكفرهم بكتابهم ﴿هل تنقمون منا﴾ من نقم منه كذا اذا عابه وأنكره وكرهه ينقمه من حد ضرب وقرىء
بفتح القاف من حد علم وهى أيضا لغة أى ما تعيبون وما تنكرون منا ﴿الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا﴾ من القرآن
المجيد ﴿وما أنزل من قبل﴾ أى من قبل انزاله من التوراة والانجيل المنزلين عليكم وسائر الكتب الالهية ﴿وأن
أكثركم فاسقون﴾ أى متمردون خارجون عن الايمان بما ذكر فان الكفر بالقرآن مستلزم للكفر بما يصدقه
لامحالة وهو عطف على أن آمنا على أنه مفعول له لتنقمون والمفعول الذى هو الدين محذوف ثقة بدلالة ماقبله ومابعده
عليه دلالة واضحة فان اتخاذ الدين هزوا ولعبا عين نقمه وانكاره والايمان بما فصل عين الدين الذى نقموه خلا أنه أبرز
فى معرض علة نقمهم له تسجيلا عليهم بكمال المكابرة والتعكيس حيث جعلوه موجبا لنقمه مع كونه فى نفسه موجبا لقبوله
وارتضائه فالاستثناء من أعم العلل أى ما تنقمون منا ديننا لعلة من العلل الا لأن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل
من كتبكم ولان أكثركم متمردون غير مؤمنين بواحد مما ذكر حتى لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطق بصحة كتابنا لآمنتم
به واسناد الفسق الى أكثرهم لأنهم الحاملون لأعقابهم على التمرد والعناد وقيل عطف عليه على أنه مفعول لتنقمون منا
لكن لا على أن المستثنى مجموع المعطوفين بل هو ما يلزمهما من المخالفة كأنه قيل ما تنقمون منا الا مخالفتكم حيث دخلنا
الايمان وأنتم خارجون عنه وقيل على حذف المضاف أى واعتقاد أن أكثركم فاسقون وقيل عطف على ما أى ما تنقمون
منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وبأنكم فاسقون وقيل عطف على علة محذوفة أى لقلة انصافكم ولأن أكثركم فاسقون
وقيل الواو بمعنى مع أى ما تنقمون منا الا الايمان مع أن أكثركم الخ وقيل هو منصوب بفعل مقدر دل عليه المذكور
أى ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف أى وفسقكم معلوم أى ثابت والجملة
حالية أو معترضة وقرىء بان المكسورة والجملة مستأنفة مبينة لكون أكثرهم فاسقين متمردين ﴿قل هل أنبئكم بشر
من ذلك﴾ لما أمر عليه الصلاة والسلام بالزامهم وتبكيتهم ببيان أن مدار نقمهم للدين انما هو اشتماله على ما يوجب
ارتضاءه عندهم أيضا وكفرهم بما هو مسلم لهم أمر عليه الصلاة والسلام عقيبه بأن يبكتهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب
حقيقة ما هم عليه من الدين المحرف وينعى عليهم فى ضمن البيان جناياتهم وما حاق بهم من تبعاتها وعقوباتها على منهاج
التعريض لئلا يحملهم التصريح بذلك على ركوب متن المكابرة والعناد ويخاطبهم قبل البيان بما ينبىء عن عظم شأن
المبين ويستدعى اقبالهم على تلقيه من الجملة الاستفهامية المشوقة الى المخبر به والتنبئة المشعرة بكونه أمرا خطيرا لما أن
النبأ هو الخبر الذى له شأن وخطر وحيث كان مناط النقم شرية المنقوم حقيقة أو اعتقادا وكان مجرد النقم غير مفيد

لشريته البتة قيل بشر من ذلك ولم يقل بأنقم من ذلك تحقيقا لشرية ما سيذكر وزيادة تقرير لها وقيل انما قيل ذلك
لوقوعه فى عبارة المخاطبين حيث أتى نفر من اليهود فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دينه فقال عليه الصلاة والسلام
أومن بالله وما أنزل الينا الى قوله ونحن له مسلمون فحين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام قالوا لا نعلم شرا من دينكم وانما
اعتبر الشرية بالنسبة الى الدين وهو منزه عن شائبة الشرية بالكلية مجاراة معهم على زعمهم الباطل المنعقد على كمال شريته
ليثبت أن دينهم شر من كل شر أى هل أخبركم بما هو شر فى الحقيقة مما تعتقدونه شرا وان كان فى نفسه خيرا محضا
﴿مثوبة عند الله﴾ أى جزاء ثابتا فى حكمه وقرىء مثوبة وهى لغة فيها كمشورة ومشورة وهى مختصة بالخير كما أن العقوبة
مختصة بالشر وانما وضعت ههنا موضعها على طريقة قوله تحية بينهم ضرب وجيع ونصبها على التميز من بشر وقوله عز
وجل ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ خبر لمبتدا محذوف بتقدير مضاف قبله مناسب لما أشير اليه بكلمة ذلك أى دين
من لعنه الخ أو بتقدير مضاف قبلها مناسب لمن أى بشر من أهل ذلك والجملة على التقديرين استئناف وقع جوابا عن
سؤال نشأ من الجملة الاستفهامية اما على حالها وهو الظاهر المناسب لسياق النظم الكريم واما باعتبار التقدير فيها فكأنه
قيل ما الذى هو شر من ذلك فقيل هو دين من لعنه الله الخ أو قيل فى السؤال من ذا الذى هو شر من أهل ذلك فقيل هو
من لعنه الله ووضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وادخال الروعة وتهويل أمر اللعن وما تبعه والموصول
عبارة عن المخاطبين حيث أبعدهم الله تعالى من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم فى المعاصى بعد وضوح الآيات
وسنوح البينات ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ أى مسخ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم
كفار مائدة عيسى عليه السلام وقيل كلا المسخين فى أصحاب السبت مسخت شبانهم قردة وشيوخهم خنازير وجمع
الضمير الراجع الى الموصول فى منهم باعتبار معناه كما أن افراد الضميرين الاولين باعتبار لفظه وايثار وضعه موضع
ضمير الخطاب المناسب لأنبئكم للقصد الى اثبات الشرية بما عدد فى حيز صلته من الامور الهائلة الموجبة لها على الطريقة
البرهانية مع ما فيه من الاحتراز عن تهييج لجاجهم ﴿وعبد الطاغوت﴾ عطف على صلة من وافراد الضمير لما مر
وكذا عبد الطاغوت على قراءة البناء للمفعول ورفع الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بمعنى صار معبودا فالراجع الى
الموصول محذوف على القراءتين أى عبد فيهم أو بينهم وتقديم أوصافهم المذكورة بصدد اثبات شرية دينهم على وصفهم
هذا مع أنه الأصل المستتبع لها فى الوجود وان دلالته على شريته بالذات لان عبادة الطاغوت عين دينهم البين البطلان
ودلالتها عليها بطريق الاستدلال بشرية الآثار على شرية ما يوجبها من الاعتقاد والعمل اما للقصد الى تبكيتهم من أول
الأمر بوصفهم بما لا سبيل لهم الى الجحود لا بشريته وفظاعته ولا باتصافهم به واما للايذان باستقلال كل من المقدم
والمؤخر بالدلالة على ما ذكر من الشرية ولو روعى ترتيب الوجود وقيل من عبد الطاغوت ولعنه الله وغضب عليه الخ لربما
فهم أن علة الشرية هو المجموع وقد قرىء عابد الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بالاضافة على أنه نعت كفطن ويقظ
وكذا عبدة الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بالاضافة على أنه جمع عابد كخدم أو على أن أصله عبدة حذفت تاؤه للاضافة
بالنصب فى الكل عطفا على القردة والخنازير وقرىء عبد الطاغوت بالجر عطفا على من بناء على أنه مجرور بتقدير المضاف
وقد قيل ان من مجرور على أنه بدل من شر على أحد الوجهين المذكورين فى تقدير المضاف وأنت خبير بأن ذلك مع
اقتضائه اخلاء النظم الكريم عن المزايا المذكورة بالمرة مما لا سبيل اليه قطعا ضرورة أن المقصود الأصلى ليس مضمون الجملة
الاستفهامية بل هو كما مر مقدمة سيقت أمام المقصود لهز المخاطبين وتوجيه أذهانهم نحو تلقى ما يلقى اليهم عقيبها بجملة خبرية
موافقة فى الكيفية للسؤال الناشىء عنها وهو المقصود افادته وعليه يدور ذلك الالزام والتبكيت حسبما شرح فاذا جعل الموصول

بما فى حيز صلته من تتمة الجملة الاستفهامية فأين الذى يأتى اليهم عقيبها جوابا عما نشأ منها من السؤال ليحصل به الالزام والتبكيت وأما الجملة الآتية فبمعزل من صلاحية الجواب كيف لا ولا بد من موافقته فى الكيفية للسؤال الناشئ عن الجملة الاستفهامية وقد عرفت أن السؤال الناشئ عنها يستدعى وقوع الشر من تتمة المخبر عنه لا خبرا كما فى الجملة المذكورة وسيتضح ذلك مزيد اتضاح باذن الله تعالى والمراد بالطاغوت العجل وقيل هو الكهنة وكل من أطاعوه فى معصية الله عز وجل فيعم الحكم دين النصارى أيضا ويتضح وجه تأخير ذكر عبادته عن العقوبات المذكورة اذ لو قدمت عليها لتوهم اشتراك الفريقين فى تلك العقوبات ولما كان مآل ماذكر بصدد التبكيت أن ماهو شر مما نقموه دينهم أو أن من هو شر من أهل مانقموه أنفسهم بحسب ماقدر من المضافين وكانت الشرية على كلا الوجهين من تتمة الموضوع غير مقصودة الاثبات لدينهم أو لأنفسهم عقب ذلك باثباتها لهم على وجه يشعر بعلية ماذكر من القبائح لثبوتها لهم بجملة مستأنفة مسوقة من جهته سبحانه شهادة عليهم بكمال الشرارة والضلال أو داخلة تحت الأمر تأكيدا للالزام وتشديدا للتبكيت فقيل ﴿أولئك شر مكانا﴾ فاسم الاشارة عبارة عمن ذكرت صفاتهم الخبيثة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشرارة أى أولئك الموصوفون بتلك القبائح والفضائح شر مكانهم جعل مكانا شرا ليكون أبلغ فى الدلالة على شرارتهم وقيل شر مكانا أى منصرفا ﴿وأضل عن سواء السبيل﴾ عطف على شر مقرر له أى أكثر ضلالا عن الطريق المستقيم وفيه دلالة على كون دينهم شرا محضا بعيدا عن الحق لأن مايسلكونه من الطريق دينهم فاذا كانوا أضل كان دينهم ضلالا مبينا لاغاية وراءه وصيغة التفضيل فى الموضعين للزيادة مطلقا لا بالاضافة الى من يشاركهم فى أصل الشرارة والضلال ﴿واذا جاءوكم قالوا آمنا﴾ نزلت فى ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظهرون له الايمان نفاقا فالخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والجمع للتعظيم أو له مع من عنده من المسلمين أى اذا جاءوكم أظهروا الاسلام ﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ أى يخرجون من عندك ملتبسين بالكفر كما دخلوا لم يؤثر فيهم ماسمعوا منك والجملتان حالان من فاعل قالوا و بالكفر و به حالان من فاعل دخلوا وخرجوا وقد وان دخلت لتقريب الماضى من الحال ليصح أن يقع حالا أفادت أيضا بما فيها من معنى التوقع أن أمارات النفاق كانت لائحة وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يظنه و يتوقع أن يظهره الله تعالى و لذلك قيل ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ أى من الكفر وفيه وعيد شديد لهم ﴿وترى﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب والرؤية بصرية ﴿كثيرا منهم﴾ من اليهود والمنافقين وقوله تعالى ﴿يسارعون فى الاثم﴾ حال من كثيرا وقيل مفعول ثان والرؤية قلبية والأول أنسب بحالهم وظهور نفاقهم والمسارعة المبادرة والمباشرة للشئ بسرعة وايثار كلمة فى على كلمة الى الواقعة فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة الخ لما ذكر فى قوله تعالى فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم والمراد بالاثم الكذب على الاطلاق وقيل الحرام وقيل كلمة الشرك وقولهم عزير ابن الله وقيل هو مايختص بهم من الآثام ﴿والعدوان﴾ أى الظلم المتعدى الى الغير أو مجاوزة الحد فى المعاصى ﴿وأكلهم السحت﴾ أى الحرام خصه بالذكر مع اندراجه فى الاثم للمبالغة فى التقبيح ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ أى لبئس شيأ كانوا يعملونه والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ قال الحسن الربانيون علماء الانجيل والاحبار علماء التوراة وقيل كلهم فى اليهود وهو تحضيض للذين يقتدى بهم أفناؤهم و يعلمون قباحة ماهم فيه وسوء مغبته على نهى أسافلهم عن ذلك مع توبيخ لهم على تركه ﴿عن قولهم الاثم وأكلهم السحت﴾ مع علمهم بقبحهما ومشاهدتهم لمباشرتهم لها ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ وهذا أبلغ مما قيل فى حق عامتهم لما أن العمل لا يبلغ درجة

الصنع مالم يتدرب فيه صاحبه ولم يحصل فيه مهارة تامة و لذلك ذم به خواصهم و لأن ترك الحسنة أقبح من مواقعة المعصية لأن النفس تلتذ بها وتميل اليها و لا كذلك ترك الانكار عليها فكان جديرا بأبلغ ذم وفيه مما ينعى على العلماء توانيهم فى النهى عن المنكرات مالايخفى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها أشد آية فى القرآن وعن الضحاك مافى القرآن آية أخوف عندى منها ﴿وقالت اليهود﴾ قال ابن عباس وعكرمة والضحاك ان الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله سبحانه بأن كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبوه كف عنهم مابسط عليهم فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء ﴿يد الله مغلولة﴾ وحيث لم ينكر عليه الآخرون ورضوا به نسبت تلك العظيمة الى الكل كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم وأرادوا بذلك لعنهم الله أنه تعالى ممسك يقتر بالرزق فان كلا من غل اليد و بسطها مجاز عن محض البخل والجود من غير قصد فى ذلك الى اثبات يد وغل أو بسط ألا يرى أنهم يستعملونه حيث لا يتصور فيه ذلك كما فى قوله تعالى

جاد الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداه تلاعه و وهاده

وقد سلك لبيد هذا المسلك السديد حيث قال

وغداة ريح قد شهدت وقرة اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فانه انما أراد بذلك اثبات القدرة التامة للشمال على التصرف فى القرة كيفما تشاء على طريقة المجاز من غير أن يخطر بباله أن يثبت لها يدا و لا للقرة زماما وأصله كناية فيمن يجوز عليه ارادة المعنى الحقيقى كما مر فى قوله تعالى و لاينظر اليهم يوم القيامة فى سورة آل عمران وقيل أرادوا ماحكى عنهم بقوله تعالى لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء ﴿غلت أيديهم﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم والمسكنة أو بالفقر والنكد أو بغل الايدى حقيقة بأن يكونوا أسارى مغلولين فى الدنيا و يسحبوا الى النار بأغلالها فى الآخرة فتكون المطابقة حينئذ من حيث اللفظ وملاحظة المعنى الاصلى كما فى سبنى سب الله دابره ﴿ولعنوا﴾ عطف على الدعاء الأول أى أبعدوا من رحمة الله تعالى ﴿بما قالوا﴾ أى بسبب ما قالوا من الكلمة الشنعاء وقيل كلاهما خبر ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام أى كلا ليس كذلك بل هو فى غاية ما يكون من الجود واليه أشير بتثنية اليد فان أقصى ماينتهى اليه همم الاسخياء أن يعطوا مايعطونه بكلتا يديهم وقيل التثنية للتنبيه على منحه تعالى لنعمتى الدنيا والآخرة وقيل على اعطائه اكراما وعلى اعطائه استدراجا ﴿ينفق كيف يشاء﴾ جملة مستأنفة واردة لتأكيد كمال جوده وللتنبيه على سر ما ابتلوا به من الضيق الذى اتخذوه من غاية جهلهم وضلالهم ذريعة الى الاجتراء على تلك الكفرة العظيمة والمعنى أن ذلك ليس لقصور فى فيضه بل لأن انفاقه تابع لمشيئته المبنية على الحكم التى عليها يدور أمر المعاش والمعاد وقد اقتضت الحكمة بسبب مافيهم من شؤم المعاصى أن يضيق عليهم كما يشير اليه ما سيأتى من قوله عز وجل و لو أنهم أقاموا التوراة والانجيل الآية وكيف ظرف ليشاء والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير ينفق أى ينفق كائنا على أى حال يشاء أى كائنا على مشيئته أى مريدا وترك ذكر ماينفقه لقصد التعميم ﴿وليزيدن كثيرا منهم﴾ وهم علماؤهم ورؤساؤهم ﴿ماأنزل اليك﴾ من القرآن المشتمل على هذه الآيات وتقديم المفعول للاعتناء به وتخصيص الكثير منهم بهذا الحكم لما أن بعضهم ليس كذلك ﴿من ربك﴾ متعلق بأنزل كما أن اليك كذلك وتأخيره عنه مع أن حق المبدأ أن يتقدم على المنتهى لاقتضاء المقام الاهتمام ببيان المنتهى لأن مدار الزيادة هو النزول اليه عليه السلام كما فى قوله تعالى وأنزل لكم من السماء ماء والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام ﴿طغيانا وكفرا﴾ مفعول ثان للزيادة أى ليزيدنهم طغيانا على طغيانهم

وكفرا على كفرهم القديمين امامن حيث الشدة والغلو واما من حيث الكم والكثرة اذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم بحسب المقدار كما أن الطعام الصالح للاصحاء يزيد المرضى مرضا ﴿وألقينا بينهم﴾ أى بين اليهود فان بعضهم جبرية وبعضهم قدرية وبعضهم مرجئة وبعضهم مشبهة ﴿العداوة والبغضاء﴾ فلا يكاد تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم والجملة مبتدأة مسوقة لازاحة ماعسى يتوهم من ذكر طغيانهم وكفرهم من الاجتماع على أمر يؤدى الى الاضرار بالمسلمين قيل العداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو مبغض بلا عكس كلى ﴿الى يوم القيامة﴾ متعلق بألقينا وقيل بالبغضاء ﴿كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله﴾ تصريح بما أشير اليه من عدم وصول غائلة ماهم فيه الى المسلمين أى كلما أرادوا محاربة الرسول عليه الصلاة والسلام ورتبوا مباديها وركبوا فى ذلك متن كل صعب وذلول ردهم الله تعالى وقهرهم أو كلما أرادوا حرب أحد غلبوا فانهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله تعالى عليهم بخت نصر ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس الرومى ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين وللحرب اما صلة لأوقدوا أو متعلق بمحذوف وقع صفة لنارا أى كائنة للحرب ﴿ويسعون فى الارض فسادا﴾ أى يجتهدون فى الكيد للاسلام وأهله واثارة الشر والفتنة فيما بينهم مما يغاير ما عبر عنه بايقاد نار الحرب وفسادا اما مفعول له أو فى موقع المصدر أى يسعون للفساد أو يسعون سعى فساد ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ ولذلك أطفأ ثائرة افسادهم واللام اما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا واما للعهد ووضع المظهر مقام الضمير للتعليل وبيان كونهم راسخين فى الافساد ﴿ولو أن أهل الكتاب﴾ أى اليهود والنصارى على أن المراد بالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والانجيل وانما ذكروا بذلك العنوان تأكيدا للتشنيع فان أهلية الكتاب توجب ايمانهم به واقامتهم له لامحالة فكفرهم به وعدم اقامتهم له وهم أهله أقبح من كل قبيح وأشنع من كل شنيع فمفعول قوله تعالى ﴿آمنوا﴾ محذوف ثقة بظهوره مما سبق من قوله تعالى هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ومالحق من قوله تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة الخ أى ولو أنهم مع صدور ما صدر عنهم من فنون الجنايات قولا وفعلا آمنوا بما نفى عنهم الايمان به فيندرج فيه فرض ايمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وأما ارادة ايمانهم به عليه السلام خاصة فيأباها المقام لأن ماذكر فيما سبق ومالحق من كفرهم به عليه السلام انما ذكر مشفوعا بكفرهم بكتابهم أيضا قصدا الى الالزام والتبكيت ببيان أن الكفر به عليه الصلاة والسلام مستلزم للكفر بكتابهم فحمل الايمان ههنا على الايمان به عليه السلام خاصة مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم ﴿واتقوا﴾ ماعددنا من معاصيهم التى من جملتها مخالفة كتابهم ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ التى اقترفوها وان كانت فى غاية العظم ونهاية الكثرة ولم تؤاخذهم بها ﴿ولأدخلناهم﴾ مع ذلك ﴿جنات النعيم﴾ وتكرير اللام لتأكيد الوعد وفيه تنبيه على كمال عظم ذنوبهم وكثرة معاصيهم وأن الاسلام يجب ماقبله من السيئات وان جلت وجاوزت كل حد معهود ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل﴾ بمراعاة مافيهما من الأحكام التى من جملتها شواهد نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ومبشرات بعثته فان اقامتهما انما تكون بذلك لا بمراعاة جميع مافيهما من الأحكام لانتساخ بعضها بنزول القرآن فليست مراعاة الكل من اقامتهما فى شئ ﴿وما أنزل اليهم من ربهم﴾ من القرآن المجيد المصدق لكتبهم وايراده بهذا العنوان للايذان بوجوب اقامته عليهم لنزوله اليهم وللتصريح ببطلان ما كانوا يدعونه من عدم نزوله الى بنى اسرائيل وتقديم اليهم لما مر من قبل وفى اضافة الرب الى ضميرهم مزيد لطف بهم فى الدعوة الى الاقامة وقيل المراد بما أنزل اليهم كتب أنبياء بنى اسرائيل مثل كتاب شعياء وكتاب حنقوق وكتاب دانيال فانها مملوءة بالبشارة بمبعثه صلى الله عليه وسلم ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أى لوسع عليهم أرزاقهم بأن

يفيض عليهم بركات السماء والارض أو بأن يكثر ثمرات الاشجار وغلال الزروع أو بأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار فيجتنوا ماتهدل منها من رؤس الأشجار ويلتقطوا ماتساقط منها على الأرض وقيل المراد المبالغة فى شرح السعة والخصب لاتعيين الجهتين كأنه قيل لأكلوا من كل جهة ومفعول أكلوا محذوف لقصد التعميم أو للقصد الى نفس الفعل كما فى قوله فلان يعطى ويمنع ومن فى الموضعين لابتداء الغاية وفى هاتين الشرطيتين من حثهم على ماذكر من الايمان والتقوى والاقامة بالوعد بنيل سعادة الدارين وزجرهم عن الاخلال به بما ذكر ببيان افضائه الى الحرمان عنها وتنبيههم على أن ماأصابهم من الضنك والضيق انما هو من شؤم جناياتهم لا لقصور فى فيض الفياض مالا يخفى ﴿منهم أمة مقتصدة﴾ جملة مستأنفة مبنية على سؤال نشأ من مضمون الجملتين المصدرتين بحرف الامتناع الدالتين على انتفاء الايمان والاتقاء واقامة الكتب المنزلة من أهل الكتاب كأنه قيل هل كلهم كذلك مصرون على عدم الايمان الخ فقيل منهم أمة مقتصدة اما على أن منهم مبتدأ باعتبار مضمونه أى بعضهم أمة واما بتقدير الموصوف أى بعض كائن منهم كما مر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية أى طائفة معتدلة وهم المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وثمانية وأربعون من النصارى وقيل طائفة حالهم أمم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وكثير منهم﴾ مبتدأ لتخصصه بالصفة خبره ﴿ساء ما يعملون﴾ أى مقول فى حقهم هذا القول أى بئسما يعملون وفيه معنى التعجب أى ماأسوأ عملهم من العناد والمكابرة وتحريف الحق والاعراض عنه والافراط فى العداوة وهم الاجلاف المتعصبون ككعب بن الاشرف وأشباهه والروم ﴿يا أيها الرسول﴾ نودى عليه السلام بعنوان الرسالة تشريفا له وايذانا بأنها من موجبات الاتيان بما أمر به من تبليغ ما أوحى اليه ﴿بلغ ما أنزل اليك﴾ أى جميع ما أنزل اليك من الأحكام وما يتعلق بها كائنا ما كان وفى قوله تعالى ﴿من ربك﴾ أى مالك أمورك ومبلغك الى كمالك اللائق بك عدة ضمنية بحفظه عليه السلام وكلاءته أى بلغه غير مراقب فى ذلك أحدا ولا خائف أن ينالك مكروه أبدا ﴿وان لم تفعل﴾ ما أمرت به من تبليغ الجميع بالمعنى المذكور كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فما بلغت رسالته﴾ فان مالا تتعلق به الأحكام أصلا من الاسرار الخفية ليست مما يقصد تبليغه الى الناس أى فما بلغت شيئا من رسالته وانسلخت مما شرفت به من عنوان الرسالة بالمرة لما أن بعضها ليس أولى بالاداء من بعض فاذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها لادلاء كل منها بما يدليه غيرها وكونها لذلك فى حكم شئ واحد ولا ريب فى أن الواحد لا يكون مبلغا غير مبلغ مؤمنا به غير مؤمن به ولأن كتمان بعضها اضاعة لما أدى منها كترك بعض أركان الصلاة فان غرض الدعوة ينتقض بذلك وقيل فكأنك مابلغت شيئا منها كقوله تعالى فكأنما قتل الناس جميعا من حيث أن كتمان البعض والكل سواء فى الشناعة واستجلاب العقاب وقرئ فما بلغت رسالاتى وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان كتمت آية لم تبلغ رسالاتى وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى الله برسالاته فضقت بها ذرعا فأوحى الله الى ان لم تبلغ رسالاتى عذبتك وضمن لى العصمة فقويت وذلك قوله تعالى ﴿والله يعصمك من الناس﴾ فانه كما ترى عدة كريمة بعصمته من لحوق ضرهم بروحه العزيز باعثة له عليه السلام على الجد فى تحقيق ماأمر به من التبليغ غير مكترث بعداوتهم وكيدهم وعن أنس رضى الله عنه أنه عليه السلام كان يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدم فقال انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمنى الله من الناس وقوله تعالى ﴿ان الله لا يهدى القوم الكافرين﴾ تعليل لعصمته تعالى له عليه السلام أى لا يمكنهم مما يريدون بك من الاضرار وايراد الآية الكريمة فى تضاعيف الآيات الواردة فى حق أهل الكتاب لما أن الكل قوارع يسوء الكفار سماعها ويشق على الرسول صلى الله عليه وسلم مشافهتهم بها وخصوصا ما يتلوها من النص الناعى

عليهم كمال ضلالتهم ولذلك أعيد الأمر فقيل ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ مخاطبا للفريقين ﴿لستم على شئ﴾ أى دين يعتدبه ويليق بأن يسمى شيئا لظهور بطلانه ووضوح فساده وفى هذا التعبير من التحقير والتصغير مالا غاية وراءه ﴿حتى تقيموا التوراة والانجيل﴾ أى تراعوهما وتحافظوا على مافيهما من الأمور التى من جملتها دلائل رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وشواهد نبوته فان اقامتهما انما تكون بذلك وأما مراعاة أحكامهما المنسوخة فليست من اقامتهما فى شئ بل هى تعطيل لهما ورد لشهادتهما لانهما شاهدان بنسخها وانتهاء وقت العمل بها لان شهادتهما بصحة ماينسخها شهادة بنسخها وخروجها عن كونها من أحكامهما وأن أحكامهما ماقرره النبى الذى بشر فيهما ببعثته وذكر فى تضاعيفهما نعوته فاذن اقامتهما بيان شواهد النبوة والعمل بما قرره الشريعة من الأحكام كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿وما أنزل اليكم من ربكم﴾ أى القرآن المجيد بالايمان به فان اقامة الجميع لاتتأتى بغير ذلك وتقديم اقامة الكتابين على اقامته مع أنها المقصودة بالذات لرعاية حق الشهادة واستنزالهم عن رتبة الشقاق وايراده بعنوان الانزال اليهم لما مر من التصريح بأنهم مأمورون باقامته والايمان به لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب وفى اضافة الرب الى ضميرهم ماأشير اليه من اللطف فى الدعوة وقيل المراد بما أنزل اليهم كتب أنبياء بنى اسرائيل كما مر وقيل الكتب الالهية فانها بأسرها آمرة بالايمان لمن صدقته المعجزة ناطقة بوجوب الطاعة له . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن جماعة من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تقرأ أن التوراة حق من عند الله تعالى فقال عليه السلام بلى فقالوا فانا مؤمنون بها ولا نؤمن بغيرها فنزلت وقوله تعالى ﴿وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ جملة مستأنفة مبينة لشدة شكيمتهم وغلوهم فى المكابرة والعناد وعدم افادة التبليغ نفعا وتصديرها بالقسم لتأكيد مضمونها وتحقيق مدلولها والمراد بالكثير المذكور علماؤهم ورؤساؤهم ونسبة الانزال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع نسبته فيما مر اليهم للايذان بكمال انسلاخهم عن تلك النسبة ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أى لاتتأسف ولاتحزن عليهم لافراطهم فى الطغيان والكفر بما تبالغه اليهم فان غائلته آيلة اليهم وتبعته حائقة بهم لاتتخطاهم وفى المؤمنين مندوحة لك عنهم ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالرسوخ فى الكفر ﴿ان الذين آمنوا﴾ كلام مستأنف مسوق لترغيب من عدا المذكورين فى الايمان والعمل الصالح أى الذين آمنوا بألسنتهم فقط وهم المنافقون وقيل أعم من أن يواطئها قلوبهم أولا ﴿والذين هادوا﴾ أى دخلوا فى اليهودية ﴿والصابئون والنصارى﴾ جمع نصران وقد مر تفصيله فى سورة البقرة وقوله تعالى والصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخر عما فى حيزان والتقدير ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كيت وكيت والصابئون كذلك كقوله فانى وقيارها لغريب وقوله

والا فاعلموا أنا وأنتم بغاة مابقينا فى شقاق

خلا أنه وسط بين اسم ان وخبرها دلالة على أن الصابئين مع ظهور ضلالهم وزيغهم عن الاديان كلها حيث قبلت توبتهم ان صح منهم الايمان والعمل الصالح فغيرهم أولى بذلك وقيل الجملة الآتية خبر للمبتدا المذكور وخبر ان مقدر كما فى قوله

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقيل النصارى مرفوع على الابتداء كقوله تعالى والصابئون عطفا عليه وهو مع خبره عطف على الجملة المصدرة بان ولا مساغ لعطفه وحده على محل ان واسمها لاشتراط ذلك بالفراغ عن الخبر والا لارتفع الخبر بان والابتداء معا واعتذر عنه بأن ذلك اذا كان المذكور خبرا لهما وأما اذا كان خبر المعطوف محذوفا فلا محذور فيه ولا على الضمير فى هادوا لعدم التأكيد والفصل ولاستلزامه كون الصابئين هودا وقرئ والصابيون بياء صريحة بتخفيف الهمزة وقرئ والصابون

وهو من صبا يصبو لانهم صبوا الى اتباع الهوى والشهوات فى دينهم وقرئ والصابئين وقرئ يا أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون وقوله تعالى ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا﴾ اما فى محل الرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط وجمع الضمائر الأخيرة باعتبار معنى الموصول كما أن افراد ما فى صلته باعتبار لفظه والجملة خبران والعائد الى اسمها محذوف أى من آمن منهم واما فى محل النصب على أنه بدل من اسم ان وماعطف عليه والخبر قوله تعالى فلا خوف والفاء كما فى قوله عز وعلا ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم الآية فالمعنى على تقدير كون المراد بالذين آمنوا المنافقين وهو الاظهر من أحدث من هذه الطوائف ايمانا خالصا بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق لا كما يزعمه أهل الكتاب فان ذلك بمعزل من أن يكون ايمانا بهما وعمل عملا صالحا حسبما يقتضيه الايمان بهما فلا خوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب ولا هم يحزنون حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا لان النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام وأما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا مطلق المتدينين بدين الاسلام المخلصين منهم والمنافقين فالمراد بمن آمن من اتصف منهم بالايمان الخالص بالمبدا والمعاد على الاطلاق سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كما هو شأن المخلصين أو بطريق احداثه وانشائه كما هو حال من عداهم من المنافقين وسائر الطوائف وفائدة التعميم للمخلصين المبالغة فى ترغيب الباقين فى الايمان ببيان أن تأخرهم فى الاتصاف به غير مخل بكونهم أسوة لاولئك الاقدمين الاعلام وأما ماقيل المعنى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فما لاسبيل اليه أصلا كما مر تفصيله فى سورة البقرة ﴿لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل﴾ كلام مبتدأ مسوق لبيان بعض آخر من جناياتهم المنادية باستبعاد الايمان منهم أى بالله لقد أخذنا ميثاقهم بالتوحيد وسائر الشرائع والأحكام المكتوبة عليهم فى التوراة ﴿وأرسلنا اليهم رسلا﴾ ذوى عدد كثير وأولى شأن خطير ليقرروهم على مراعاة حقوق الميثاق ويطلعوهم على مايأتون ويذرون فى دينهم ويتعهدوهم بالعظة والتذكير وقوله تعالى ﴿كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم﴾ جملة شرطية مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الاخبار بأخذ الميثاق وارسال الرسل وجواب الشرط محذوف كأنه قيل فماذا فعلوا بالرسل فقيل كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما لاتحبه أنفسهم المنهمكة فى الغى والفساد من الأحكام الحقة والشرائع عصوه وعادوه وقوله تعالى ﴿فريقا كذبوا وفريقا يقتلون﴾ جواب مستأنف عن استفسار كيفية ماأظهروه من آثار المخالفة المفهومة من الشرطية على طريقة الاجمال كأنه قيل كيف فعلوا بهم فقيل فريقا منهم كذبوهم من غير أن يتعرضوا لهم بشئ آخر من المضار وفريقا آخر منهم لم يكتفوا بتكذيبهم بل قتلوهم أيضا وانما أوثر عليه صيغة المضارع على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها الهائلة للتعجيب منها وللتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر وللمحافظة على رؤس الآى الكريمة وتقديم فريقا فى الموضعين للاهتمام به وتشويق السامع الى مافعلوا به لا للقصر هذا وأما جعل الشرطية صفة لرسلا كما ذهب اليه الجمهور فلا يساعده المقام أصلا ضرورة أن الجملة الخبرية اذا جعلت صفة أوصلة ينسخ مافيها من الحكم وتجعل عنوانا للموصوف تتمة له فى اثبات أمر آخر له ولذلك يجب أن يكون الوصف معلوم الانتساب الى الموصوف عند السامع قبل جعله وصفا له ومن ههنا قالوا ان الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها أوصاف ولا ريب فى أن ماسيق له النظم انما هو بيان أنهم جعلوا كل من جاءهم من رسل الله تعالى عرضة للقتل أو التكذيب حسبما يفيده جعلها استئنافا على أبلغ وجه وآكده لا بيان أنه تعالى أرسل اليهم رسلا

موصوفين بكون كل منهم كذلك كما هو مقتضى جعلها صفة ﴿وحسبوا أن لاتكون فتنة﴾ أى حسب بنو اسرائيل أن لا يصيبهم من الله تعالى بما أتوا من الداهية الدهياء والخطة الشنعاء بلاء وعذاب وقرئ لاتكون بالرفع على أن أن هى المخففة من أن واسمها ضمير الشان المحذوف وأصله أنه لاتكون فتنة وتعليق فعل الحسبان بها وهى للتحقيق لتنزيله منزلة العلم لكمال قوته وأن بما فى حيزها ساد مسد مفعوليه ﴿فعموا﴾ عطف على حسبوا والفاء للدلالة على ترتب مابعدها على ماقبلها أى أمنوا بأس الله تعالى فتمادوا فى فنون الغى والفساد وعموا عن الدين بعدما هداهم الرسل الى معالمه الظاهرة وبينوا لهم مناهجه الواضحة ﴿وصموا﴾ عن استماع الحق الذى ألقوه عليهم ولذلك فعلوا بهم مافعلوا وهذا اشارة الى المرة الاولى من مرتى افساد بنى اسرائيل حين خالفوا أحكام التوراة وركبوا المحارم وقتلوا شعياء وقيل حبسوا أرمياء عليهما السلام لاالى عبادتهم العجل كماقيل فانها وان كانت معصية عظيمة ناشئة عن كمال العمى والصمم لكنها فى عصر موسى عليه السلام ولاتعلق لها بما حكى عنهم مما فعلوا بالرسل الذين جاؤوهم بعده عليه السلام بأعصار ﴿ثم تاب الله عليهم﴾ حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد بعدما كانوا ببابل دهرا طويلا تحت قهر بخت نصر أسارى فى غاية الذل والمهانة فوجه الله عز وجل ملكا عظيما من ملوك فارس الى بيت المقدس ليعمره وينجى بقايا بنى اسرائيل من أسر بخت نصر بعد مهلكه وردهم الى وطنهم وتراجع من تفرق منهم فى الاكناف فعمروه ثلاثين سنة فكثروا وكانوا كأحسن ماكانوا عليه وقيل لما ورث بهمن ابن اسفنديار الملك من جده كستاسف ألقى الله عز وجل فى قلبه شفقة عليهم فردهم الى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من أتباع بخت نصر فقامت فيهم الانبياء فرجعوا الى أحسن ماكانوا عليه من الحال وذلك قوله تعالى ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأما ماقيل من أن المراد قبول توبتهم عن عبادة العجل فقد عرفت أن ذلك لاتعلق له بالمقام ولم يسند التوبة اليهم كسائر أحوالهم من الحسبان والعمى والصمم تجافيا عن التصريح بنسبة الخير اليهم وانما أشير اليها فى ضمن بيان توبته تعالى عليهم تمهيدا لبيان نقضهم اياها بقوله تعالى ﴿ثم عموا وصموا﴾ وهو اشارة الى المرة الآخرة من مرتى افسادهم وهو اجتراؤهم على قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام لاالى طلبهم الرؤية كما قيل لما عرفت سره فان فنون الجنايات الصادرة عنهم لاتكاد تتناهى خلا أن انحصار ماحكى عنهم ههنا فى المرتين وترتبه على حكاية مافعلوا بالرسل عليهم السلام يقضى بأن المراد ماذكرناه والله عنده علم الكتاب وقرئ عموا وصموا بالضم على تقدير عماهم الله وصمهم أى رماهم وضربهم بالعمى والصمم كما يقال نزكته اذا ضربته بالنيزك وركبته اذا ضربته بركبتك وقوله تعالى ﴿كثير منهم﴾ بدل من الضمير فى الفعلين وقيل خبر مبتدا محذوف أى أولئك كثير منهم ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أى بما عملوا وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورتها الفظيعة ورعاية للفواصل والجملة تذييل أشير به الى بطلان حسبانهم المذكور ووقوع العذاب من حيث لم يحتسبوا اشارة اجمالية اكتفى بها تعويلا على مافصل نوع تفصيل فى سورة بنى اسرائيل والمعنى حسبوا أن لايصيبهم عذاب ففعلوا مافعلوا من الجنايات العظيمة المستوجبة لأشد العقوبات والله بصير بتفاصيلها فكيف لايؤاخذهم بها ومن أين لهم ذلك الحسبان الباطل ولقد وقع ذلك فى المرة الاولى حيث سلط الله تعالى عليهم بخت نصر عامل لهراسب على بابل وقيل جالوت الجزرى وقيل سنجاريب من أهل نينوى والاول هو الاظهر فاستولى على بيت المقدس فقتل من أهله أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية الى أرضه فبقوا هناك على أقصى ما يكون من الذل والنكد الى أن أحدثوا توبة صحيحة فردهم الله عز وجل الى ماحكى عنهم من حسن الحال ثم عادوا الى المرة الآخرة من الافساد فبعث الله تعالى عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك

الطوائف اسمه خيدرود وقيل خيدروس ففعل بهم مافعل قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال ماصدقونى فقتل عليه ألوفا منهم ثم قال ان لم تصدقونى ماتركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى عليه السلام فقال بمثل هذا ينتقم الله تعالى منكم ثم قال يايحيى قد علم ربى وربك ماأصاب قومك من أجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل أن لاأبقى أحدا منهم فهدأ ﴿لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم﴾ شروع فى تفصيل قبائح النصارى وابطال أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود وهؤلاء هم الذين قالوا ان مريم ولدت إلهاً قيل هم الملكانية والماريعقوبية منهم وقيل هم اليعقوبية خاصة قالوا ومعنى هذا أن الله تعالى حل فى ذات عيسى واتحد بذاته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿وقال المسيح﴾ حال من فاعل قالوا بتقدير قد مفيدة لمزيد تقبيح حالهم ببيان تكذيبهم للمسيح وعدم انزجارهم عما أصروا عليه بما أوعدهم به أى قالوا ذلك وقد قال المسيح مخاطبا لهم ﴿يابنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم﴾ فانى عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقى وخالقكم ﴿انه﴾ أى الشأن ﴿من يشرك بالله﴾ أى شيئاً فى عبادته أو فيما يختص به من صفات الألوهية ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾ فلن يدخلها أبدا كما لايصل اليه المحرم عليه المحرم فانها دار الموحدين واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة ﴿ومأواه النار﴾ فانها هى المعدة للمشركين وهذا بيان لابتلائهم بالعقاب اثر بيان حرمانهم الثواب ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أى مالهم من أحد ينصرهم بانقاذهم من النار اما بطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة والجمع لمراعاة المقابلة بالظالمين واللام اما للعهد والجمع باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها واما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا ووضعه على الأول موضع الضمير للتسجيل عليهم بأنهم ظلموا بالاشراك وعدلوا عن طريق الحق والجملة تذييل مقرر لما قبله وهو اما من تمام كلام عيسى عليه السلام واما وارد من جهته تعالى تأكيدا لمقالته عليه السلام وتقريرا لمضمونها وقد قيل انه من كلامه عز وجل على معنى أنهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على عيسى عليه السلام فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم ورده وأنكره وان كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره أو من قول عيسى عليه السلام على معنى لاينصركم أحد فيما تقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبعده عن المعقول وأنت خبير بأن التعبير عما حكى عنه عليه السلام من مقابلته لقولهم الباطل بصريح الرد والانكار والوعيد بحرمان الجنة ودخول النار بمجرد عدم مساعدته على ذلك ونفى نصرته له مع خلوه عن الفائدة تصوير للقوى بصورة الضعيف وتهوين للخطب فى مقام تهويله بل ربما يوهم ذلك بحسب الظاهر مالا يليق بشأنه عليه السلام من توهم المساعدة والنصرة لاسيما مع ملاحظة قوله وان كانوا معظمين له الخ الا أن يحمل الكلام على التهكم بهم وكذا الحال على تقدير كونه من تمام كلامه عليه السلام فان زجره عليه السلام اياهم عن قولهم الفاسد بما ذكر من عدم الناصر والمساعد بعد زجره اياهم بما مر من الرد الأكيد والوعيد الشديد بمعزل من الافادة والتأثير ولا سبيل ههنا الى الاعتذار بالتهكم ﴿لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة﴾ شروع فى بيان كفر طائفة أخرى منهم ومعنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الأعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع الجمهور أن ينصب مابعده بأن يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة وانما ينصبه اذا كان مابعده دونه بمرتبة كما فى قولك عاشر تسعة وتاسع ثمانية قيل انهم يقولون ان الالهية مشتركة بين الله سبحانه وتعالى وعيسى ومريم وكل واحد من هؤلاء اله ويؤكده قوله تعالى للمسيح أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله فقوله تعالى ثالث ثلاثة أى أحد ثلاثة آلهة وهو المتبادر من ظاهر قوله تعالى ﴿وما من اله الا اله واحد﴾ أى والحال أنه ليس فى الوجود ذات واجب مستحق للعبادة من حيث أنه مبدأ جميع

الموجودات الا اله موصوف بالوحدانية متعال عن قبول الشركة ومن مزيدة للاستغراق وقيل انهم يقولون الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وانهم يريدون بالأول الذات وقيل الوجود و بالثانى العلم و بالثالث الحياة فمعنى قوله تعالى وما من اله الا اله واحد الا اله واحد بالذات منزه عن شائبة التعدد بوجه من الوجوه ﴿وان لم ينتهوا عما يقولون﴾ من الكفر الشنيع ولم يوحدوا وقوله تعالى ﴿ليمسن الذين كفروا﴾ جواب قسم محذوف ساد مسد جواب الشرط أى و بالله ان لم ينتهوا ليمسنهم وانما وضع موضع ضميرهم الموصول لتكرير الشهادة عليهم بالكفر فمن فى قوله تعالى ﴿منهم﴾ بيانية أو ليمسن الذين بقوا منهم على ما كانوا عليه من الكفر فمن تبعيضية وانما جئ بالفعل المنبئ عن الحدوث تنبيها على أن الاستمرار عليه بعد ورود ماينحى عليه بالقلع من نص عيسى عليه السلام وغيره كفر جديد وغلو زائد على ما كانوا عليه من أصل الكفر ﴿عذاب أليم﴾ أى نوع شديد الالم من العذاب وهمزة الاستفهام فى قوله تعالى ﴿أفلا يتوبون الى الله و يستغفرونه﴾ لانكار الواقع واستبعاده لا لانكار الوقوع وفيه تعجيب من اصرارهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائغة والأقاويل الباطلة فلا يتوبون الى الله تعالى و يستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عما نسبوه اليه من الاتحاد والحلول فمدار الانكار والتعجيب عدم الانتهاء وعدم التوبة معا أو أيسمعون هذه الشهادات المكررة والتشديدات المقررة فلا يتوبون عقيب ذلك فمدارهما عدم التوبة عقيب تحقق مايوجبها من سماع تلك القوارع الهائلة وقوله عز وجل ﴿والله غفور رحيم﴾ جملة حالية من فاعل يستغفرونه مؤكدة للانكار والتعجيب من اصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم الى الاستغفار أى والحال أنه تعالى مبالغ فى المغفرة فيغفر لهم عند استغفارهم و يمنحهم من فضله ﴿ما المسيح ابن مريم الا رسول﴾ استئناف مسوق لتحقيق الحق الذى لامحيد عنه و بيان حقيقة حاله عليه السلام وحال أمه بالاشارة أو لا الى أشرف مالهما من نعوت الكمال التى بها صارا من زمرة أكمل أفراد الجنس وآخرا الى الوصف المشترك بينهما و بين جميع أفراد البشر بل أفراد الحيوان استنزالا لهم بطريق التدريج عن رتبة الاصرار على ماتقولوا عليهما وارشادا لهم الى التوبة والاستغفار أى هو مقصور على الرسالة لايكاد يتخطاها وقوله تعالى ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول منبئة عن اتصافه بما ينافى الالوهية فان خلو الرسل السالفة عليهم السلام منذر بخلوه المقتضى لاستحالة ألوهيته أى ماهو الا رسول كالرسل الخالية من قبله خصه الله تعالى ببعض من الآيات كما خص كلا منهم ببعض آخر منها فان أحيى الموتى على يده فقد أحيى العصا فى يد موسى عليه السلام وجعلت حية تسعى وهو أعجب منه وان خلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم وهو أغرب منه وكل ذلك من جنابه عز وجل وانما موسى وعيسى مظاهر لشئونه وأفعاله ﴿وأمه صديقة﴾ أى وما أمه أيضا الا كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق أو التصديق و يبالغن فى الاتصاف به فما رتبتهما الارتبة بشرين أحدهما نبى والآخر صحابى فمن أين لكم أن تصفوهما بما لا يوصف به سائر الانبياء وخواصهم ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ استئناف مبين لما أشير اليه من كونهما كسائر أفراد البشر فى الاحتياج الى مايحتاج اليه كل فرد من أفراده بل من أفراد الحيوان وقوله عز وجل ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ تعجيب من حال الذين يدعون لهما الربوبية ولا يرعوون عن ذلك بعد ما بين لهم حقيقة حالهما بيانا لايحوم حوله شائبة ريب و كيف معمول لنبين والجملة فى حيز النصب معلقة لانظر أى انظر كيف نبين لهم الآيات الباهرة المنادية ببطلان ماتقولوا عليهما نداء يكاد يسمعه صم الجبال ﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾ أى كيف يصرفون عن استماعها والتأمل فيها والكلام فيه كما فيما قبله وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة فى التعجيب وثم لاظهار مابين العجبين من التفاوت أى ان بياننا للآيات أمر بديع فى

بابه بالغ لاقاصى الغايات القاصية من التحقيق والايضاح واعراضهم عنها مع انتفاء مايصححه بالمرة وتعاضد مايوجب قبولها أعجب وأبدع ﴿قل﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بالزامهم وتبكيتهم اثر تعجيبه من أحوالهم ﴿أتعبدون من دون الله﴾ أى متجاوزين اياه وتقديمه على قوله تعالى ﴿مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا﴾ لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر والموصول عبارة عن عيسى عليه السلام وايثاره على كلمة من لتحقيق ماهو المراد من كونه بمعزل من الالوهية رأسا ببيان انتظامه عليه السلام فى سلك الاشياء التى لاقدرة لها على شئ أصلا وهو عليه السلام وان كان يملك ذلك بتمليكه تعالى اياه لكنه لايملكه من ذاته و لايملك مثل مايضر به الله تعالى من البلايا والمصائب وماينفع به من الصحة وتقديم الضرر على النفع لأن التحرز عنه أهم من تحرى النفع ولان أدنى درجات التأثير دفع الشر ثم جلب الخير وقوله تعالى ﴿والله هو السميع العليم﴾ حال من فاعل أتعبدون مؤكد للانكار والتوبيخ ومقرر للالزام والتبكيت والرابط هو الواو أى أتشركون بالله تعالى مالا يقدر على شئ من ضركم ونفعكم والحال أن الله تعالى هو المختص بالاحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات التى من جملتها ماأنتم عليه من الأقوال الباطلة والعقائد الزائغة والأعمال السيئة و بالقدرة الباهرة على جميع المقدورات التى من جملتها مضاركم ومنافعكم فى الدنيا والآخرة ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى فريق أهل الكتاب بطريق الالتفات على لسان النبى عليه الصلاة والسلام بعد ابطال مسلك كل منهما للمبالغة فى زجرهم عما سلكوه من المسلك الباطل وارشادهم الى الامم المثتاء ﴿لاتغلوا فى دينكم﴾ أى لاتتجاوزوا الحد وهو نهى للنصارى عن رفع عيسى عن رتبة الرسالة الى ماتقولوا فى حقه من العظيمة ولليهود عن وضعهم له عليه السلام عن رتبته العلية الى ماتقولوا عليه من الكلمة الشنعاء وقيل هو خاص بالنصارى كما فى سورة النساء فذكرهم بعنوان أهلية الكتاب لتذكير أن الانجيل أيضا نهاهم عن الغلو وقوله تعالى ﴿غير الحق﴾ نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى لاتغلوا فى دينكم غلوا غير الحق أى غلوا باطلا أو حال من ضمير الفاعل أى لاتغلوا مجاوزين الحق أو من دينكم أى لاتغلوا فى دينكم حال كونه باطلا وقيل نصب على الاستثناء المتصل وقيل على المنقطع ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ هم أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا من الفريقين أو من النصارى على القولين قبل مبعث النبى عليه الصلاة والسلام فى شريعتهم ﴿وأضلوا كثيرا﴾ أى قوما كثيرا ممن شايعهم فى الزيغ والضلال أو اضلالا كثيرا والمفعول محذوف ﴿وضلوا﴾ عند بعثة النبى عليه الصلاة والسلام وتوضيح محجة الحق وتبيين مناهج الاسلام ﴿عن سواء السبيل﴾ حين كذبوه وحسدوه و بغوا عليه وقيل الاول اشارة الى ضلالهم عن مقتضى العقل والثانى الى ضلالهم عما جاء به الشرع ﴿لعن الذين كفروا﴾ أى لعنهم الله عز وجل و بناء الفعل للمفعول للجرى على سنن الكبرياء ﴿من بنى اسرائيل﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من فاعل كفروا وقوله تعالى ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ متعلق بلعن أى لعنهم الله تعالى فى الزبور والانجيل على لسانهما وقيل ان أهل ايلة لما اعتدوا فى السبت دعا عليهم داود عليه السلام وقال اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخهم الله قردة وأصحاب المائدة لما كفروا قال عيسى عليه السلام اللهم عذب من كفر بعدما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين والعنهم كما لعنت أصحاب السبت فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل مافيهم امرأة ولا صبى ﴿ذلك﴾ اشارة الى اللعن المذكور وايثاره على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازه عن نظائره وانتظامه بسببه فى سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان بكمال فظاعته وبعد درجته فى الشناعة والهول وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ والجملة مستأنفة واقعة موقع الجواب عما نشأ من

الكلام كأنه قيل بأى سبب وقع ذلك فقيل ذلك اللعن الهائل الفظيع بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمر كما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل وينبئ عنه قوله تعالى ﴿كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه﴾ فانه استئناف مفيد بعبارته لاستمرار عدم التناهى عن المنكر ولا يمكن استمراره الا باستمرار تعاطى المنكرات وليس المراد بالتناهى أن ينهى كل واحد منهم الآخر عما يفعله من المنكر كما هو المعنى المشهور لصيغة التفاعل بل مجرد صدور النهى عن أشخاص متعددة من غير اعتبار أن يكون كل واحد منهم ناهيا ومنهيا معا كما فى تراءوا الهلال وقيل التناهى بمعنى الانتهاء يقال تناهى عن الامر وانتهى عنه اذا امتنع عنه وتركه فالجملة حينئذ مفسرة لما قبلها من المعصية والاعتداء ومفيدة لاستمرارهما صريحا وعلى الاول مفيدة لاستمرار انتفاء النهى عن المنكر بأن لا يوجد فيما بينهم من يتولاه فى وقت من الاوقات ومن ضرورته استمرار فعل المنكر حسبما سبق وعلى كل تقدير فما يفيده تنكير المنكر من الوحدة نوعية لا شخصية فلا يقدح وصفه بالفعل الماضى فى تعلق النهى به لما أن متعلق الفعل انما هو فرد من أفراد ما يتعلق به النهى والانتهاء من مطلق المنكر باعتبار تحققه فى ضمن أى فرد كان من أفراده على أن المضى المعتبر فى الصفة انما هو بالنسبة الى زمان النزول لا الى زمان النهى حتى يلزم كون النهى بعد الفعل فلا حاجة الى تقدير المعاودة أو المثل أو جعل الفعل عبارة عن الارادة على أن المعاودة كالنهى لا تتعلق بالمنكر المفعول فلا بد من المصير الى أحد ماذكر من الوجهين أو الى تقدير المثل أو الى جعل الفعل عبارة عن أرادته وفى كل ذلك تعسف لايخفى ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ تقبيح لسوء أعمالهم وتعجيب منه بالتوكيد القسمى كيف لاوقد أداهم الى ماشرح من اللعن الكبير وليس فى تسببه بذلك دلالة على خروج كفرهم عن السببية مع الاشارة الى سببيته له فيما سبق من قوله تعالى لعن الذين كفروا فان اجراء الحكم على الموصول مشعر بعلية مافى حيز الصلة له لما أن ماذكر فى حيز السببية مشتمل على كفرهم أيضا ﴿ترى كثيرا منهم﴾ أى من أهل الكتاب ككعب بن الاشرف وأضرابه حيث خرجوا الى مشركى مكة ليتفقوا على محاربة النبى عليه الصلاة السلام والرؤية بصرية وقوله تعالى ﴿يتولون الذين كفروا﴾ حال من كثيرا لكونه موصوفا أى يوالون المشركين بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل من منافقى أهل الكتاب يتولون اليهود وهو قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومجاهد والحسن وقيل يوالون المشركين ويصافونهم ﴿لبئس ماقدمت لهم أنفسهم﴾ لبئس شيأ قدموا ليردوا عليه يوم القيامة ﴿أن سخط الله عليهم﴾ هو المخصوص بالذم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تنبيها على كمال التعلق والارتباط بينهما كأنهما شىء واحد ومبالغة فى الذم أى موجب سخطه تعالى ومحله الرفع على الابتداء والجملة قبله خبره والرابط عند من يشترطه هو العموم أو لاحاجة اليه لان الجملة عين المبتدا أو على أنه خبر لمبتدا محذوف ينبئ عنه الجملة المتقدمة كأنه قيل ماهو أو أى شىء هو فقيل هو أن سخط الله عليهم وقيل المخصوص بالذم محذوف وما اسم تام معرفة فى محل رفع بالفاعلية لفعل الذم وقدمت لهم أنفسهم جملة فى محل الرفع على أنها صفة للمخصوص بالذم قائمة مقامه والتقدير لبئس الشىء شىء قدمته لهم أنفسهم فقوله تعالى أن سخط الله عليهم بدل من شىء المحذوف وهذا مذهب سيبويه ﴿وفى العذاب﴾ أى عذاب جهنم ﴿هم خالدون﴾ أبدالآبدين ﴿ولوكانوا﴾ أى الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب ﴿يؤمنون بالله والنبى﴾ أى نبيهم ﴿وما أنزل اليه﴾ من الكتاب أولو كان المنافقون يؤمنون بالله ونبينا ايمانا صحيحا ﴿ما اتخذوهم﴾ أى المشركين أو اليهود ﴿أولياء﴾ فان الايمان بما ذكر وازع عن توليهم قطعا ﴿ولكن كثيرا منهم فاسقون﴾ خارجون عن الدين والايمان بالله ونبيهم وكتابهم أو متمردون فى النفاق مفرطون فيه ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير

ماقبلها من قبائح اليهود وعراقتهم فى الكفر وسائر أحوالهم الشنيعة التى من جملتها موالاتهم للمشركين أكدت بالتوكيد القسمى اعتناء ببيان تحقق مضمونها والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد صالح له ايذانا بأن حالهم مما لايخفى على أحد من الناس والوجدان متعد الى اثنين أحدهما أشد الناس والثانى اليهود وماعطف عليه وقيل بالعكس لانهما فى الاصل مبتدأ وخبر ومصب الفائدة هو الخبر لا المبتدأ ولاضير فى التقديم والتأخير اذا دل على الترتيب دليل وهنا دليل واضح عليه وهو أن المقصود بيان كون الطائفتين أشد الناس عداوة للمؤمنين لا كون أشدهم عداوة لهم الطائفتين المذكورتين وأنت خبير بأنه بمعزل من الدلالة على ذلك كيف لا والافادة فى الصورة الثانية أتم وأكمل مع خلوها عن تعسف التقديم والتأخير اذ المعنى انك ان قصدت أن تعرف من أشد الناس عداوة للمؤمنين وتتبعت أحوال الطوائف طرا وأحطت بما لديهم خبرا وبالغت فى تعرف أحوالهم الظاهرة والباطنة وسعيت فى تطلب ماعندهم من الامور البارزة والكامنة لتجدن الاشد تينك الطائفتين لاغير فتأمل واللام الداخلة على الموصول متعلقة بعداوة مقوية لعملها ولا يضر كونها مؤنثة بالتاء مبنية عليها كما فى قوله ورهبة عقابك وقيل متعلقة بمحذوف هو صفة لعداوة أى كائنة للذين آمنوا وصفهم الله تعالى بذلك لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم وانهماكهم فى اتباع الهوى وقربهم الى التقليد وبعدهم عن التحقيق وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الانبياء والاجتراء على تكذيبهم ومناصبتهم وفى تقديم اليهود على المشركين بعد لزومهما فى قرن واحد اشعار بتقدمهم عليهم فى العداوة كما أن فى تقديمهم عليهم فى قوله تعالى ولتجدنهم أحرص الناس على حيوة ومن الذين أشركوا ايذانا بتقدمهم عليهم فى الحرص ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا﴾ أعيد الموصول مع صلته روما لزيادة التوضيح والبيان ﴿الذين قالوا انا نصارى﴾ عبر عنهم بذلك اشعارا بقرب مودتهم حيث يدعون أنهم أنصار الله وأولياء أهل الحق وان لم يظهروا اعتقاد حقية الاسلام وعلى هذه النكتة مبنى الوجه الثانى فى تفسير قوله تعالى ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم والكلام فى مفعولى لتجدن وتعلق اللام كالذى سبق والعدول عن جعل مافيه التفاوت بين الفريقين شيئا واحدا قد تفاوتا فيه بالشدة والضعف أو بالقرب والبعد بأن يقال آخرا ولتجدن أضعفهم عداوة الخ أو بأن يقال أولا لتجدن أبعد الناس مودة الخ للايذان بكمال تباين مابين الفريقين من التفاوت ببيان أن أحدهما فى أقصى مراتب أحد النقيضين والآخر فى أقرب مراتب النقيض الآخر ﴿ذلك﴾ أى كونهم أقرب مودة للمؤمنين ﴿بأن منهم﴾ أى بسبب أن منهم ﴿قسيسين﴾ وهم علماء النصارى وعبادهم ورؤساؤهم والقسيس صيغة مبالغة من تقسس الشىء اذا تتبعه وطلبه بالليل سموا به لمبالغتهم فى تتبع العلم قاله الراغب وقيل القس بفتح القاف تتبع الشىء ومنه سمى عالم النصارى قسيسا لتتبعه العلم وقيل قص الاثر وقسه بمعنى وقيل أنه أعجمى وقال قطرب القس والقسيس العالم بلغة الروم وقيل ضيعت النصارى الانجيل ومافيه وبقى منهم رجل يقال له قسيسا لم يبدل دينه فمن راعى هديه ودينه قيل له قسيس ﴿ورهبانا﴾ وهو جمع راهب كراكب وركبان وفارس وفرسان وقيل أنه يطلق على الواحد وعلى الجمع وأنشد فيه قول من قال

لوعاينت رهبان دير فى قلل لاقبل الرهبان يعدو ونزل

والترهب التعبد فى الصومعة قال الراغب الرهبانية الغلو فى تحمل التعبد من فرط الخوف والتنكير لافادة الكثرة ولا بد من اعتبارها فى القسيسين أيضا اذهى التى تدل على مودة جنس النصارى للمؤمنين فان اتصاف أفراد كثيرة لجنس بخصلة مظنة لاتصاف الجنس بها والا فمن اليهود أيضا قوم مهتدون ألا يرى الى عبد الله بن سلام واضرابه قال تعالى من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون الخ لكنهم لما لم يكونوا فى الكثرة كالذين من

النصارى لم يتعد حكمهم الى جنس اليهود ﴿وأنهم لا يستكبرون﴾ عطف على أن منهم أى و بأنهم لا يستكبرون عن قبول الحق اذا فهموه و يتواضعون و لا يتكبرون كاليهود وهذه الخصلة شاملة لجميع أفراد الجنس فسببيتها لاقربيتهم مودة المؤمنين واضحة وفيه دليل على أن التواضع والاقبال على العلم والعمل والاعراض عن الشهوات محمود وان كان ذلك من كافر ﴿واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول﴾ عطف على لا يستكبرون أى ذلك بسبب أنهم لا يستكبرون وأن أعينهم تفيض من الدمع عند سماع القرآن وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم الى قبول الحق وعدم ابائهم اياه ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾ أى تمتلئ بالدمع فاستعير له الفيض الذى هو الانصباب عن امتلاء مبالغة أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها ﴿مما عرفوا من الحق﴾ من الاولى لابتداء الغاية والثانية لتبيين الموصول أى ابتدأ الفيض ونشأ من معرفة الحق وحصل من أجله و بسببه و يحتمل أن تكون الثانية تبعيضية لان ما عرفوه بعض الحق وحيث أبكاهم ذلك فما ظنك بهم لو عرفوا كله وقرؤا القرآن وأحاطوا بالسنة وقرئ ترى أعينهم على صيغة المبنى للمفعول ﴿يقولون﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم عند سماع القرآن كأنه قيل ماذا يقولون فقيل يقولون ﴿ربنا آمنا﴾ بهذا أو بمن أنزل هذا عليه أو بهما وقيل حال من الضمير فى عرفوا أو من الضمير المجرور فى أعينهم لما أن المضاف جزؤه كما فى قوله تعالى ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أى الذين شهدوا بأنه حق أو بنبوته أو مع أمته الذين هم شهداء على الامم يوم القيامة وانما قالوا ذلك لانهم وجدوا ذكرهم فى الانجيل كذلك ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق﴾ كلام مستأنف قالوه تحقيقا لايمانهم وتقريرا له بانكار سبب انتفائه ونفيه بالكلية على أن قوله تعالى لا نؤمن حال من الضمير فى لنا والعامل ما فيه من الاستقرار أى أى شئ حصل لنا غير مؤمنين على توجيه الانكار والنفى الى السبب والمسبب جميعا كما فى قوله تعالى ومالى لا أعبد الذى فطرنى ونظائره لا الى السبب فقط مع تحقق المسبب كما فى قوله تعالى فمالهم لا يؤمنون وأمثاله فان همزة الاستفهام كما تكون تارة لانكار الواقع كما فى أتضرب أباك وأخرى لانكار الوقوع كما فى أأضرب أبى كذلك ما الاستفهامية قد تكون لانكار سبب الواقع ونفيه فقط كما فى الآية الثانية وقوله تعالى مالكم لا ترجون لله وقارا فيكون مضمون الجملة الحالية محققا فان كلا من عدم الايمان وعدم الرجاء أمر محقق قد أنكر ونفى سببه وقد تكون الانكار سبب الوقوع ونفيه فيسريان الى المسبب أيضا كما فى الآية الاولى فيكون مضمون الجملة الحالية مفروضا قطعا فان عدم العبادة أمر مفروض حتما وقوله تعالى ﴿ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ حال أخرى من الضمير المذكور بتقدير مبتدا والعامل فيها هو العامل فى الاولى مقيدا بها أى أى شئ حصل لنا غير مؤمنين ونحن نطمع فى صحبة الصالحين أو من الضمير فى لا نؤمن على معنى أنهم أنكروا على أنفسهم عدم ايمانهم مع أنهم يطمعون فى صحبة المؤمنين وقيل معطوف على نؤمن على معنى ومالنا نجمع بين ترك الايمان و بين الطمع المذكور ﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾ أى عن اعتقاد من قولك هذا قول فلان أى معتقده وقرئ فآتاهم الله ﴿جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾ أى الذين أحسنوا النظر والعمل أو الذين اعتادوا الاحسان فى الامور والآيات الاربع . روى أنها نزلت فى النجاشى وأصحابه بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه فقرأه ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه وأحضر القسيسين والرهبان فأمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم فبكوا وآمنوا بالقرآن وقيل نزلت فى ثلاثين أو سبعين رجلا من قومه وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم سورة مريم فبكوا وآمنوا ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ عطف التكذيب بآيات الله على الكفر مع أنه ضرب منه لما أن القصد الى بيان حال

المكذبين وذكرهم بمقابلة المصدقين بها جمعا بين الترغيب والترهيب ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ أى ما طاب ولذ منه كأنه لما تضمن ما سلف من مدح النصارى على الترهب ترغيب المؤمنين فى كسر النفس و رفض الشهوات عقب ذلك بالنهى عن الافراط فى الباب أى لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم أو لا تقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم فى العزم على تركها تزهدا منكم وتقشفا و روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف القيامة لأصحابه يوما فبالغ وأشبع الكلام فى الانذار فرقوا واجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين وأن لا يناموا على الفرش و لا يأكلوا اللحم والودك و لا يقربوا النساء والطيب و يرفضوا الدنيا و يلبسوا المسوح و يسيحوا فى الارض و يجبوا مذاكيرهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم انى لم أومر بذلك ان لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وافطروا وقوموا وناموا فانى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى فنزلت ﴿و لا تعتدوا﴾ أى و لا تتعدوا حدود ما أحل لكم الى ما حرم عليكم أو و لا تسرفوا فى تناول الطيبات أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلما فنهى عن مطلق الاعتداء ليدخل تحته النهى عن تحريمها دخولا أوليا لوروده عقيبه أو أريد و لا تعتدوا بذلك ﴿ان الله لا يحب المعتدين﴾ تعليل لما قبله ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا﴾ أى ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله فحلالا مفعول كلوا ومما رزقكم اما حال منه تقدمت عليه لكونه نكرة أو متعلق بكلوا ومن ابتدائية أو هو المفعول وحلالا حال من الموصول أو من عائده المحذوف أو صفة لمصدر محذوف أى أكلا حلالا وعلى الوجوه كلها لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة ﴿واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون﴾ توكيد للوصية بما أمر به فان الايمان به تعالى يوجب المبالغة فى التقوى والانتهاء عما نهى عنه ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ اللغو فى اليمين الساقط الذى لا يتعلق به حكم وهو عندنا أن يحلف على شئ يظن أنه كذلك وليس كما يظن وهو قول مجاهد قيل كانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظن أنه قربة فلما نزل النهى قالوا كيف بأيماننا فنزلت وعند الشافعى رحمه الله تعالى ما يبدو من المرء من غير قصد كقوله لا والله و بلى والله وهو قول عائشة رضى الله تعالى عنها و فى أيمانكم صلة يؤاخذكم أو اللغو لأنه مصدر أو حال منه ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أى بتعقيدكم الايمان وتوثيقها عليه بالقصد والنية والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتموه اذا حنثتم أو بنكث ما عقدتم فحذف للعلم به وقرئ بالتخفيف وقرئ عاقدتم بمعنى عقدتم ﴿فكفارته﴾ أى فكفارة نكثه وهى الفعلة التى من شأنها أن تكفر الخطيئة وتسترها واستدل بظاهره على جواز التكفير قبل الحنث وعندنا لا يجوز ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا فليأت الذى هو خير ثم ليكفر عن يمينه ﴿اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ أى من أقصده فى النوع أو المقدار وهو نصف صاع من بر لكل مسكين ومحله النصب لأنه صفة مفعول محذوف تقديره أن تطعموا عشرة مساكين طعاما كائنا من أوسط ما تطعمون أو الرفع على أنه بدل من اطعام وأهلون جمع أهل كأرضون جمع أرض وقرئ أهاليكم بسكون الياء على لغة من يسكنها فى الحالات الثلاث كالألف وهذا أيضا جمع أهل كالأراضى فى جمع أرض والليالى فى جمع ليل وقيل جمع أهلاة ﴿أو كسوتهم﴾ عطف على اطعام أو على محل من أوسط على تقدير كونه بدلا من اطعام وهو ثوب يغطى العورة وقيل ثوب جامع قميص أو رداء أو ازار وقرئ بضم الكاف وهى لغة كقدوة فى قدوة واسوة فى اسوة وقرئ أو كاسوتهم على أن الكاف فى محل الرفع تقديره أو اطعامهم كاسوتهم بمعنى أو كمثل ما تطعمون أهليكم اسرافا وتقتيرا تواسون بينهم و بينهم ان لم تطعموهم الأوسط ﴿أو تحرير رقبة﴾ أى أو اعتاق انسان كيفما كان وشرط الشافعى رضى الله تعالى عنه فيه الايمان قياسا على كفارة القتل ومعنى أو ايجاب احدى الخصال

مطلقا وخيار التعيين للمكلف ﴿فمن لم يجد﴾ أى شيئا من الامور المذكورة ﴿فصيام﴾ أى فكفارته صيام ﴿ثلاثة أيام﴾ والتتابع شرط عندنا لقراءة ثلاثة أيام متتابعات والشافعى رضى الله عنه لا يرى الشواذ حجة ﴿ذلك﴾ أى الذى ذكر ﴿كفارة أيمانكم اذا حلفتم﴾ أى وحنثتم ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ بأن تضنوا بها ولا تبذلوها كما يشعر به قوله تعالى اذا حلفتم وقيل بأن تبروا فيها ما استطعتم ولم يفت بها خير أو بأن تكفروها اذا حنثتم وقيل احفظوها كيف حلفتم بها ولا تنسوها تهاونا بها ﴿كذلك﴾ اشارة الى مصدر الفعل الآتى لا الى تبيين آخر مفهوم مما سبق والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحله فى الاصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير يبين الله تبيينا كائنا مثل ذلك التبيين فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار نفس المصدر لا نعته وقد مر تفصيله فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا أى ذلك البيان البديع ﴿يبين الله لكم آياته﴾ أعلام شريعته وأحكامه لا بيانا أدنى منه وتقديم لكم على المفعول لما مر مرارا ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج ﴿يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب﴾ أى الاصنام المنصوبة للعبادة ﴿والأزلام﴾ سلف تفسيرها فى أوائل السورة الكريمة ﴿رجس﴾ قذر تعاف عنه العقول وافراده لأنه خبر الخمر وخبر المعطوفات محذوف ثقة بالمذكور أو المضاف محذوف أى شأن الخمر والميسر الخ ﴿من عمل الشيطان﴾ فى محل الرفع على أنه صفة رجس أى كائن من عمله لأنه مسبب من تسويله وتزيينه ﴿فاجتنبوه﴾ أى الرجس أو ما ذكر ﴿لعلكم تفلحون﴾ أى راجين فلاحكم وقيل لكى تفلحوا بالاجتناب عنه وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى لعلكم تتقون ولقد أكد تحريم الخمر والميسر فى هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد حيث صدرت الجملة بانما وقرنا بالاصنام والازلام وسميا رجسا من عمل الشيطان تنبيها على أن تعاطيهما شر بحت وأمر بالاجتناب عن عينهما وجعل ذلك سببا يرجى منه الفلاح فيكون ارتكابهما خيبة ومحققة ثم قرر ذلك ببيان مافيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقيل ﴿انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر﴾ وهو اشارة الى مفاسدهما الدنيوية ﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾ اشارة الى مفاسدهما الدينية وتخصيصهما باعادة الذكر وشرح مافيهما من الوبال للتنبيه على أن المقصود بيان حالها وذكر الاصنام والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما فى الحرمة والشرارة لقوله عليه الصلاة والسلام شارب الخمر كعابد الوثن وتخصيص الصلاة بالافراد مع دخولها فى الذكر للتعظيم والاشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الايمان لما أنها عماده ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبا على ما تقدم من أصناف الصوارف فقيل ﴿فهل أنتم منتهون﴾ ايذانا بأن الامر فى الزجر والتحذير وكشف ما فيهما من المفاسد والشرور قد بلغ الغاية وأن الأعذار قد انقطعت بالكلية ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ عطف على اجتنبوه أى أطيعوهما فى جميع ما أمرا به ونهيا عنه ﴿واحذروا﴾ أى مخالفتهما فى ذلك فيدخل فيه مخالفة أمرهما ونهيهما فى الخمر والميسر دخولا أوليا ﴿فان توليتم﴾ أى أعرضتم عن الامتثال بما أمرتم به من الاجتناب عن الخمر والميسر وعن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام والاحتراز عن مخالفتهما ﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه وخرج عن عهدة الرسالة أى خروج وقامت عليكم الحجة وانتهت الاعذار وانقطعت العلل ومابقى بعد ذلك الا العقاب وفيه من عظم التهديد وشدة الوعيد مالا يخفى وأما ماقيل من أن المعنى فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول لأنه ما كلف الا البلاغ المبين بالآيات وقد فعل وانما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتموه فلا يساعده المقام اذ لا يتوهم منهم ادعاء أنهم بتوليهم يضرونه عليه الصلاة والسلام حتى يرد عليهم بأنهم

لا يضرونه وانما يضرون أنفسهم ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح﴾ أى اثم وحرج ﴿فيما طعموا﴾ أى تناولوا أكلا أو شربا فان استعماله فى الشرب أيضا مستفيض منه قوله تعالى ومن لم يطعمه فانه منى قيل لما أنزل الله تعالى تحريم الخمر بعد غزوة الاحزاب قال رجال من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام أصيب فلان يوم بدر وفلان يوم أحد وهم يشربونها ونحن نشهد أنهم فى الجنة وفى رواية أخرى لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة رضى الله تعالى عنهم يارسول الله فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر وفى رواية أخرى قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه يارسول الله كيف باخواننا الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وفعلوا القمار فنزلت وليست كلمة ما فى ما طعموا عبارة عن المباحات خاصة والا لزم تقييد اباحتها باتقاء ما عداها من المحرمات لقوله تعالى ﴿اذا ما اتقوا﴾ واللازم منتف بالضرورة بل هى على عمومها موصولة كانت أو موصوفة وانما تخصصت بذلك القيد الطارئ عليها والمعنى ليس عليهم جناح فيما تناولوه من المأكول والمشروب كائنا ما كان اذا اتقوا أن يكون فى ذلك شئ من المحرمات والا لم يكن نفى الجناح فى كل ما طعموه بل فى بعضه ولا محذور فيه اذ اللازم منه تقييد اباحة الكل بأن لا يكون فيه محرم لا تقييد اباحة بعضه باتقاء بعض آخر منه كما هو اللازم من الاول ﴿وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ أى واستمروا على الايمان والاعمال الصالحة وقوله تعالى ﴿ثم اتقوا﴾ عطف على اتقوا داخل معه فى حيز الشرط أى اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك مع كونه مباحا فيما سبق ﴿وآمنوا﴾ أى بتحريمه وتقديم الاتقاء عليه اما للاعتناء به أو لأنه الذى يدل على التحريم الحادث الذى هو المؤمن به أو واستمروا على الايمان ﴿ثم اتقوا﴾ أى ما حرم عليهم بعد ذلك مما كان مباحا من قبل على أن المشروط بالاتقاء فى كل مرة اباحة كل ما طعموه فى ذلك الوقت لا اباحة كل ما طعموه قبله لانتساخ اباحة بعضه حينئذ ﴿وأحسنوا﴾ أى عملوا الاعمال الحسنة الجميلة المنتظمة لجميع ما ذكر من الاعمال القلبية والقالبية وليس تخصيص هذه المرات بالذكر لتخصيص الحكم بها بل لبيان التعدد والتكرر بالغا ما بلغ والمعنى أنهم اذا اتقوا المحرمات واستمروا على ما هم عليه من الايمان والاعمال الصالحة وكانوا فى طاعة الله ومراعاة أوامره ونواهيه بحيث كلما حرم عليهم شئ من المباحات اتقوه ثم وثم فلا جناح عليهم فيما طعموه فى كل مرة من المطاعم والمشارب اذ ليس فيها شئ محرم عند طعمه وأنت خبير بأن ما عدا اتقاء المحرمات من الصفات الجميلة المذكورة لا دخل لها فى انتفاء الجناح وانما ذكرت فى حيز اذا شهادة باتصاف الذين سئل عن حالهم بها ومدحا لهم بذلك وحمدا لاحوالهم وقد أشير الى ذلك حيث جعلت تلك الصفات تبعا للاتقاء فى كل مرة تمييزا بينها وبين ما له دخل فى الحكم فان مساق النظم الكريم بطريق العبارة وان كان لبيان حال المتصفين بما ذكر من النعوت فيما سيأتى بقضية كلمة اذا ما لكنه قد أخرج مخرج الجواب عن حال الماضين لاثبات الحكم فى حقهم فى ضمن التشريع الكلى على الوجه البرهانى بطريق دلالة النص بناء على كمال اشتهارهم بالاتصاف بها فكأنه قيل ليس عليهم جناح فيما طعموه اذ كانوا فى طاعته تعالى مع ما لهم من الصفات الحميدة بحيث كلما أمروا بشئ تلقوه بالامتثال وانما كانوا يتعاطون الخمر والميسر فى حياتهم لعدم تحريمها اذ ذاك ولو حرما فى عصرهم لاتقوهما بالمرة . هذا وقد قيل التكرير باعتبار الاوقات الثلاثة أو باعتبار الحالات الثلاث استعمال الانسان التقوى بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله عز وجل ولذلك جئ بالاحسان فى الكرة الثالثة بدل الايمان اشارة الى ما قاله عليه الصلاة والسلام فى تفسيره أو باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى أو باعتبار ما يتقى فانه ينبغى أن يترك المحرمات توقيا من العقاب والشبهات توقيا من الوقوع فى الحرام وبعض المباحات حفظا للنفس عن الخسة وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة وقيل التكرير لمجرد التأكيد كما فى قوله تعالى كلا سوف تعلمون ثم

كلا سوف تعلمون ونظائره وقيل المراد بالاول اتقاء الكفر وبالثانى اتقاء الكبائر وبالثالث اتقاء الصغائر ولاريب فى أنه لاتعلق لهذه الاعتبارات بالمقام فأحسن التأمل ﴿والله يحب المحسنين﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله أبلغ تقرير ﴿ياأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله﴾ جواب قسم محذوف أى والله ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليتعرف أحوالكم ﴿بشىء من الصيد﴾ أى من صيد البر مأكولا أوغير مأكول ماعدا المستثنيات من الفواسق فاللام للعهد نزلت عام الحديبية ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون كانت الوحوش تغشاهم فى رحالهم بحيث كانوا متمكنين من صيدها أخذا بأيديهم وطعنا برماحهم وذلك قوله تعالى ﴿تناله أيديكم ورماحكم﴾ فهموا بأخذها فنزلت وروى أنه عن لهم حمار وحش فحمل عليه أبو اليسر بن عمرو فطعنه برمحه وقتله فقيل له قتلته وأنت محرم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عن ذلك فأنزل الله تعالى الآية فالتأكيد القسمى فى ليبلونكم انما هو لتحقيق أن ماوقع من عدم توحش الصيد عنهم ليس الا لابتلائهم لالتحقيق وقوع المبتلى به كما لو كان النزول قبل الابتلاء وتنكير شىء للتحقير المؤذن بأن ذلك ليس من الفتن الهائلة التى تزل فيها أقدام الراسخين كالابتلاء بقتل الأنفس واتلاف الأموال وانما هو من قبيل ماابتلى به أهل ايلة من صيد البحر وفائدته التنبيه على أن من لم يثبت فى مثل هذا كيف يثبت عند شدائد المحن فمن فى قوله تعالى من الصيد بيانية قطعا أى بشىء حقير هو الصيد وجعلها تبعيضية يقتضى اعتبار قلته وحقارته بالنسبة الى كل الصيد لا بالنسبة الى عظائم البلايا فيعرى الكلام عن التنبيه المذكور ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ أى ليتميز الخائف من عقابه الاخروى وهو غائب مترقب لقوة ايمانه فلا يتعرض للصيد ممن لايخافه كذلك لضعف ايمانه فيقدم عليه وانما عبر عن ذلك بعلم الله تعالى اللازم لما يذانا بمدار الجزاء ثوابا وعقابا فانه أدخل فى حملهم على الخوف وقيل المعنى ليتعلق علمه تعالى بمن يخافه بالفعل فان علمه تعالى بأنه سيخافه وان كان متعلقا به قبل خوفه لكن تعلقه بأنه خائف بالفعل وهو الذى يدور عليه أمر الجزاء انما يكون عند تحقق الخوف بالفعل وقيل هناك مضاف محذوف والتقدير ليعلم أولياء الله وقرىء ليعلم من الاعلام على حذف المفعول الأول أى ليعلم الله عباده الخ والعلم على القراءتين متعد الى واحد واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ أى بعد بيان أن ماوقع ابتلاء من جهته تعالى لما ذكر من الحكمة لابعد تحريمه أو النهى عنه كما قاله بعضهم اذ النهى والتحريم ليس أمرا حادثا يترتب عليه الشرطية بالفاء ولابعد الابتلاء كما اختاره آخرون لان نفس الابتلاء لايصلح مدارا لتشديد العذاب بل ربما يتوهم كونه عذرا مسوغا لتخفيفه وانما الموجب للتشديد بيان كونه ابتلاء لان الاعتداء بعد ذلك مكابرة صريحة وعدم مبالاة بتدبير الله تعالى وخروج عن طاعته وانخلاع عن خوفه وخشيته بالكلية أى فمن تعرض للصيد بعدما بينا أن ماوقع من كثرة الصيد وعدم توحشه منهم ابتلاء مؤدى لتميز المطيع من العاصى ﴿فله عذاب أليم﴾ لما ذكر من أنه مكابرة محضة ولان من لايملك زمام نفسه ولا يراعى حكم الله تعالى فى أمثال هذه البلايا الهينة لايكاد يراعيه فى عظائم المداحض والمراد بالعذاب الأليم عذاب الدارين قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يوسع ظهره وبطنه جلدا وينزع ثيابه ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ شروع فى بيان مايتدارك به الاعتداء من الأحكام اثر بيان مايلحقه من العذاب والتصريح بالنهى فى قوله تعالى ﴿لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ مع كونه معلوما لاسيما من قوله تعالى غير محلى الصيد وأنتم حرم لتأكيد الحرمة وترتيب مايعقبه عليه واللام فى الصيد للعهد حسبما سلف وحرم جمع حرام وهو المحرم وان كان فى الحل وفى حكمه من فى الحرم وان كان حلالا كردح جمع رداح والجملة حال من فاعل لاتقتلوا أى لاتقتلوه وأنتم محرمون ﴿ومن قتله﴾ أى الصيد المعهود وذكر القتل فى الموضعين دون الذبح للايذان بكونه فى حكم الميتة ﴿منكم﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل قتله أى كائنا منكم ﴿متعمداً﴾

حال منه أيضا أى ذاكرا لاحرامه عالما بحرمة قتل مايقتله والتقييد بالتعمد مع أن محظورات الاحرام يستوى فيها العمد والخطأ لما أن الآية نزلت فى المتعمد كما مر من قصة أبى اليسر ولأن الأصل فعل المتعمد والخطأ لاحق به للتغليظ وعن الزهرى نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه لا أرى فى الخطأ شيئاً أخذا باشتراط التعمد فى الآية وهو قول داود وعن مجاهد والحسن أن المراد بالتعمد هو تعمد القتل مع نسيان الاحرام أما اذا قتله عمدا وهو ذاكر لاحرامه فلا حكم عليه وأمره الى الله عزوجل لأنه أعظم من أن يكون له كفارة ﴿فجزاء مثل ماقتل﴾ برفعهما أى فعليه جزاء مماثل لما قتله وقرىء برفع الاول ونصب الثانى على اعمال المصدر وقرىء بجر الثانى على اضافته الى مفعوله وقرىء فجزاؤه مثل ماقتل على الابتداء والخبرية وقرىء بنصبهما على تقدير فليجز جزاء أو فعليه أن يجزى جزاء مثل ماقتل والمراد به عند أبى حنيفة وأبى يوسف رضى الله عنهما المثل باعتبار القيمة يقوم الصيد حيث صيد أو فى أقرب الاماكن اليه فان بلغت قيمته قيمة هدى يخير الجانى بين أن يشترى بها ماقيمته قيمة الصيد فيهديه الى الحرم وبين أن يشترى بها طعاما فيعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوما فان فضل مالا يبلغ طعام مسكين تصدق به أو صام عنه يوما كاملا اذلم يعهد فى الشرع صوم مادونه فيكون قوله تعالى ﴿من النعم﴾ بيانا للهدى المشترى بالقيمة على أحد وجوه التخيير فان من فعل ذلك يصدق عليه أنه جزى بمثل ماقتل من النعم وعند مالك والشافعى رحمهما الله تعالى ومن يرى رأيهما هو المثل باعتبار الخلقة والهيئة لأن الله تعالى أوجب مثل المقتول مقيدا بالنعم فمن اعتبر المثل بالقيمة فقد خالف النص وعن الصحابة رضى الله عنهم أنهم أوجبوا فى النعامة بدنة وفى الظبى شاة وفى حمار الوحش بقرة وفى الارنب عناقا وعن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال الضبع صيد وفيه شاة اذا قتله المحرم ولنا أن النص أوجب المثل والمثل المطلق فى الكتاب والسنة واجماع الأمة والمعقول يراد به اما المثل صورة ومعنى واما المثل معنى وأما المثل صورة بلا معنى فلا اعتبار له فى الشرع أصلا واذا لم يمكن ارادة الاول اجماعا تعينت ارادة الثانى لكونه معهودا فى الشرع كما فى حقوق العباد ألا يرى أن المماثلة بين أفراد نوع واحد مع كونها فى غاية القوة والظهور لم يعتبرها الشرع ولم يجعل الحيوان عند الاتلاف مضمونا بفرد آخر من نوعه مماثل له فى عامة الاوصاف بل مضمونا بقيمته مع أن المنصوص عليه فى أمثاله انما هو المثل قال تعالى فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم فحيث لم تعتبر تلك المماثلة القوية مع تيسر معرفتها وسهولة مراعاتها فلأن لاتعتبر مابين أفراد أنواع مختلفة من المماثلة الضعيفة الخفية مع صعوبة مأخذها وتعسر المحافظة عليها أولى وأحرى ولان القيمة قد أريدت فيما لانظير له اجماعا فلم يبق غيره مرادا اذ لاعموم للمشترك فى مواقع الاثبات والمراد بالمروى ايجاب النظير باعتبار القيمة لا باعتبار العين ثم الموجب الاصلى للجناية والجزاء المماثل للمقتول انما هو قيمته لكن لا باعتبار أن يعمد الجانى اليها فيصرفها الى المصارف ابتداء بل باعتبار أن يجعلها معيارا فيقدر بها احدى الخصال الثلاث فيقيمها مقامها فقوله تعالى مثل ماقتل وصف لازم للجزاء غير مفارق عنه بحال وأما قوله تعالى من النعم فوصف له معتبر فى ثانى الحال بناء على وصفه الاول الذى هو المعيار له ولما بعده من الطعام والصيام فحقهما أن يعطفا على الوصف المفارق لا على الوصف اللازم فضلا عن العطف على الموصوف كما سيأتى باذن الله تعالى ومما يرشدك الى أن المراد بالمثل هو القيمة قوله عز وجل ﴿يحكم به﴾ أى بمثل ماقتل ﴿ذواعدل منكم﴾ أى حكمان عادلان من المسلمين لكن لا لأن التقويم هو الذى يحتاج الى النظر والاجتهاد من العدول دون الاشياء المشاهدة التى يستوى فى معرفتها كل أحد من الناس فان ذلك ناشىء من الغفلة عما أرادوا بما به المماثلة بل لأن ماجعلوه مدار المماثلة بين الصيد وبين النعم من ضرب مشاكلة ومضاهاة فى بعض الاوصاف والهيئات

مع تحقق التباين بينهما فى بقية الأحوال مما لايهتدى اليه من أساطين أئمة الاجتهاد وصناديد أهل الهداية والارشاد الا المؤيدون بالقوة القدسية ألا يرى أن الامام الشافعى رضى الله عنه أوجب فى قتل الحمامة شاة بناء على ما أثبت بينهما من المماثلة من حيث أن كلا منهما يعب ويهدر مع أن النسبة بينهما من سائر الحيثيات كما بين الضب والنون فكيف يفوض معرفة أمثال هذه الدقائق العويصة الى رأى عدلين من آحاد الناس على أن الحكم بهذا المعنى انما يتعلق بالانواع لا بالاشخاص فبعد ماعين بمقابلة كل نوع من أنواع الصيد نوع من أنواع النعم يتم الحكم ولا يبقى عند وقوع خصوصيات الحوادث حاجة الى حكم أصلا وقرئ يحكم به ذو عدل على ارادة جنس العادل دون الوحدة وقيل بل على ارادة الامام والجملة صفة لجزاء أو حال منه لتخصصه بالصفة وقوله تعالى ﴿هديا﴾ حال مقدرة من الضمير فى به أو من جزاء لما ذكر من تخصصه بالصفة أو بدل من مثل فيمن نصبه أو من محله فيمن جره أو نصب على المصدر أى يهديه هديا والجملة صفة أخرى لجزاء ﴿بالغ الكعبة﴾ صفة لهديا لأن الاضافة غير حقيقية ﴿أو كفارة﴾ عطف على محل من النعم على أنه خبر مبتدا محذوف والجملة صفة ثانية لجزاء كما أشير اليه وقوله تعالى ﴿طعام مساكين﴾ عطف بيان لكفارة عند من لايخصصه بالمعارف أو بدل منه أو خبر مبتدا محذوف أى هى طعام مساكين وقوله تعالى ﴿أو عدل ذلك صياما﴾ عطف على طعام الخ كأنه قيل فعليه جزاء مماثل للمقتول هو من النعم أو طعام مساكين أو صيام أيام بعددهم فحينئذ تكون المماثلة وصفا لازما للجزاء يقدر به الهدى والطعام والصيام أما الاولان فبلا واسطة وأما الثالث فبواسطة الثانى فيختار الجانى كلامنها بدلا من الآخرين هذا وقد قيل ان قوله تعالى أو كفارة عطف على جزاء فلا يبقى حينئذ فى النظم الكريم مايقدر به الطعام والصيام والالتجاء الى القياس على الهدى تعسف لايخفى هذا على قراءة جزاء بالرفع وعلى سائر القراءات فقوله تعالى أو كفارة خبر مبتدا محذوف والجملة معطوفة على جملة هو من النعم وقرئ أو كفارة طعام مساكين بالاضافة لتبيين نوع الكفارة وقرئ طعام مسكين على أن التبيين يحصل بالواحد الدال على الجنس وقرئ أو عدل بكسر العين والفرق بينهما أن عدل الشئ ماعادله من غير جنسه كالصوم والاطعام وعدله ماعدل به فى المقدار كأن المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول وذلك اشارة الى الطعام وصياما تمييز للعدل والخيار فى ذلك للجانى عند أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله وللحكمين عند محمد رحمه الله ﴿ليذوق وبال أمره﴾ متعلق بالاستقرار فى الجار والمجرور أى فعليه جزاء ليذوق الخ وقيل بفعل يدل عليه الكلام كأنه قيل شرع ذلك عليه ليذوق وبال أمره أى سوء عاقبة هتكه لحرمة الاحرام والوبال فى الأصل المكروه والضرر الذى ينال فى العاقبة من عمل سوء لثقله ومنه قوله تعالى فأخذناه أخذا وبيلا ومنه الطعام الوبيل وهو الذى لاتستمرئه المعدة ﴿عفا الله عما سلف﴾ من قتل الصيد محرما قبل أن يسألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام وقيل عما سلف منه فى الجاهلية لانهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرما ﴿ومن عاد﴾ الى قتل الصيد بعد النهى عنه وهو محرم ﴿فينتقم الله منه﴾ خبر مبتدا محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه ولذلك دخلت الفاء كقوله تعالى فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا أى فذلك لايخاف الخ وقوله تعالى ومن كفر فأمتعه أى فأنا أمتعه والمراد بالانتقام التعذيب فى الآخرة وأما الكفارة فعن عطاء وابراهيم وسعيد بن جبير والحسن أنها واجبة على العائد وعن ابن عباس رضى الله عنهما وشريح أنه لا كفارة عليه تعلقا بالظاهر ﴿والله عزيز﴾ غالب لايغالب ﴿ذو انتقام﴾ شديد فينتقم ممن أصر على المعصية والاعتداء ﴿أحل لكم﴾ الخطاب للمحرمين ﴿صيد البحر﴾ أى مايصاد فى المياه كلها بحرا كان أو نهرا أو غديرا وهو مالايعيش الا فى الماء مأكولا أو غير مأكول ﴿وطعامه﴾ أى ومايطعم من صيده وهو تخصيص بعد تعميم والمعنى

أحل لكم التعرض لجميع مايصاد فى المياه والانتفاع به وأكل مايؤكل منه وهو السمك عندنا وعند ابن أبى ليلى جميع مايصاد فيه على أن تفسير الآية عنده أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه وقرئ وطعمه وقيل صيد البحر ماصيد فيه وطعامه ماقذفه أو نضب عنه ﴿متاعا لكم﴾ نصب على أنه مفعول له مختص بالطعام كما أن نافلة فى قوله تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة حال مختصة بيعقوب عليه السلام أى أحل لكم طعامه تمتيعا للمقيمين منكم يأكلونه طريا ﴿والسيارة﴾ منكم يتزودونه قديدا وقيل نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر أى متعكم به متاعا وقيل مؤكد لمعنى أحل لكم فانه فى قوة متعكم به تمتيعا كقوله تعالى كتاب الله عليكم ﴿وحرم عليكم صيد البر﴾ وقرئ على بناء الفعل للفاعل ونصب صيد البر وهو مايفرخ فيه وان كان يعيش فى الماء فى بعض الأوقات كطير الماء ﴿مادمتم حرما﴾ أى محرمين وقرئ بكسر الدال من دام يدام وظاهره يوجب حرمة ماصاده الحلال على المحرم وان لم يكن له مدخل فيه وهو قول عمر وابن عباس رضى الله عنهم وعن أبى هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير رضى الله عنهم أنه يحل له أكل ماصاده الحلال وان صاده لاجله اذا لم يشر اليه ولم يدل عليه وكذا ماذبحه قبل احرامه وهو مذهب أبى حنيفة لان الخطاب للمحرمين فكأنه قيل وحرم عليكم ماصدتم فى البر فيخرج منه مصيد غيرهم وعند مالك والشافعى وأحمد لايباح ماصيد له ﴿واتقوا الله﴾ فيما نهاكم عنه أو فى جميع المعاصى التى من جملتها ذلك ﴿الذى اليه تحشرون﴾ لاالى غيره حتى يتوهم الخلاص من أخذه تعالى بالالتجاء اليه ﴿جعل الله الكعبة﴾ قال مجاهد سميت كعبة لكونها مكعبة مربعة وقيل لانفرادها من البناء وقيل لارتفاعها من الارض ونتوئها وقوله تعالى ﴿البيت الحرام﴾ عطف بيان على جهة المدح دون التوضيح كما تجئ الصفة كذلك وقيل مفعول ثان لجعل وقوله تعالى ﴿قياما للناس﴾ نصب على الحال ويرده عطف مابعده على المفعول الأول كما سيجئ بل هذا هو المفعول الثانى وقيل الجعل بمعنى الانشاء والخلق وهو حال كما مر ومعنى كونه قياما لهم أنه مدار لقيام أمر دينهم ودنياهم اذ هو سبب لانتعاشهم فى أمور معاشهم ومعادهم يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف ويربح فيه التجار ويتوجه اليه الحجاج والعمار وقرئ قيما على أنه مصدر على وزن شبع أعل عينه بما أعل فى فعله ﴿والشهر الحرام﴾ أى الذى يؤدى فيه الحج وهو ذو الحجة وقيل جنس الشهر الحرام وهو وما بعده عطف على الكعبة فالمفعول الثانى محذوف ثقة بما مر أى وجعل الشهر الحرام ﴿والهدى والقلائد﴾ أيضا قياما لهم والمراد بالقلائد ذوات القلائد وهى البدن خصت بالذكر لان الثواب فيها أكثر وبهاء الحج بها أظهر ﴿ذلك﴾ اشارة الى الجعل المذكور خاصة أو مع ماذكر من الأمر بحفظ حرمة الاحرام وغيره ومحله النصب بفعل مقدر يدل عليه السياق وهو العامل فى اللام بعده أى شرع ذلك ﴿لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات ومافى الارض﴾ فان تشريع هذه الشرائع المستتبعة لدفع المضار الدينية والدنيوية قبل وقوعها وجلب المنافع الاولوية والأخروية من أوضح الدلائل على حكمة الشارع وعدم خروج شئ عن علمه المحيط وقوله تعالى ﴿وأن الله بكل شئ عليم﴾ تعميم اثر تخصيص للتأكيد ويجوز أن يراد بما فى السموات والارض الاعيان الموجودة فيهما وبكل شئ الأمور المتعلقة بتلك الموجودات من العوارض والاحوال التى هى من قبيل المعانى ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب﴾ وعيد لمن انتهك محارمه أو أصر على ذلك وقوله تعالى ﴿وأن الله غفور رحيم﴾ وعد لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى أو أقلع عن الانتهاك بعد تعاطيه ووجه تقديم الوعيد ظاهر ﴿ماعلى الرسول الا البلاغ﴾ تشديد فى ايجاب القيام بما أمر به أى الرسول قد أتى بما وجب عليه من التبليغ بما لامزيد عليه وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم من بعد فى التفريط ﴿والله يعلم ماتبدون وما تكتمون﴾ فيؤاخذكم بذلك نقيرا وقطميرا ﴿قل لايستوى الخبيث والطيب﴾ حكم عام فى نفى المساواة عند الله تعالى

بين الردىء من الاشخاص والأعمال والأموال و بين جيدها قصد به الترغيب فى جيد كل منها والتحذير عن رديئها وان كان سبب النزول شريح بن ضبعة البكرى الذى مرت قصته فى تفسير قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله الخ وقيل نزل فى رجل سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام ان الخمر كانت تجارتى وانى اعتقدت من بيعها مالا فهل ينفعنى من ذلك المال ان عملت فيه بطاعة الله تعالى فقال النبى عليه الصلاة والسلام ان أنفقته فى حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل جناح بعوضة ان الله لا يقبل الا الطيب وقال عطاء والحسن رضى الله عنهما الخبيث والطيب الحرام والحلال وتقديم الخبيث فى الذكر للاشعار من أول الأمر بأن القصور الذى ينبىء عنه عدم الاستواء فيه لا فى مقابله فان مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وان جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر كما فى قوله تعالى هل يستوى الأعمى والبصير الى غير ذلك وأما قوله تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فلعل تقديم الفاضل فيه لما أن صلته ملكة لصلة المفضول ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ أى وان سرك كثرته والخطاب لكل واحد من الذين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بخطابهم والواو لعطف الشرطية على مثلها المقدر وقيل للحال وقد مر أى لو لم تعجبك كثرة الخبيث و لو أعجبتك وكلتاهما فى موقع الحال من فاعل لا يستوى أى لا يستويان كائنين على كل حال مفروض كما فى قولك أحسن الى فلان وان أساء اليك أى أحسن اليه ان لم يسىء اليك وان أساء اليك أى كائنا على كل حال مفروض وقد حذفت الاولى حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فان الشىء اذا تحقق مع المعارض فلأن يتحقق بدونه أولى وعلى هذا السر يدور ما فى لو وان الوصليتين من المبالغة والتأكيد وجواب لو محذوف فى الجملتين لدلالة ما قبلهما عليه وسيأتى تمام تحقيقه فى مواقع عديدة باذن الله عز وجل ﴿فاتقوا الله يا أولى الألباب﴾ أى فى تحرى الخبيث وان كثر وآثروا عليه الطيب وان قل فان مدار الاعتبار هو الجودة والرداءة لا الكثرة والقلة فالمحمود القليل خير من المذموم الكثير بل كلما كثر الخبيث كان أخبث ﴿لعلكم تفلحون﴾ راجين أن تنالوا الفلاح ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾ واسم جمع على رأى الخليل وسيبويه وجمهور البصريين كطرفاء وقصباء أصله شيآء بهمزتين بينهما الف فقلبت الكلمة بتقديم لامها على فائها فصار وزنها لفعاء ومنعت الصرف لالف التأنيث الممدودة وقيل هو جمع شىء على أنه مخفف من شىء كهين مخفف من هين والأصل أشيئاء كأهوناء بزنة أفعلاء فاجتمعت همزتان لام الكلمة والتى للتأنيث اذ الألف كالهمزة فخففت الكلمة بأن قلبت الهمزة الأولى ياء لانكسار ما قبلها فصارت أشيياء فاجتمعت ياءان أو لاهما عين الكلمة فحذفت تخفيفا فصارت أشياء وزنها أفلاء ومنعت الصرف لألف التأنيث وقيل انما حذفت من أشيياء الياء المنقلبة من الهمزة التى هى لام الكلمة وفتحت الياء المكسورة لتسلم الف الجمع فوزنها أفعاء وقوله تعالى ﴿ان تبد لكم تسؤكم﴾ صفة لأشياء داعية الى الانتهاء عن السؤال عنها وحيث كانت المساءة فى هذه الشرطية معلقة بابدائها لا بالسؤال عنها عقبت بشرطية أخرى ناطقة باستلزام السؤال عنها لابدائها الموجب للمحذور قطعا فقيل ﴿وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أى تلك الأشياء الموجبة للمساءة بالوحى كما ينبىء عنه تقييد السؤال بحين التنزيل والمراد بها ما يشق عليهم و يغمهم من التكاليف الصعبة التى لا يطيقون بها والأسرار الخفية التى يفتضحون بظهورها ونحو ذلك مما لا خير فيه فكما أن السؤال عن الأمور الواقعة مستتبع لابدائها كذلك السؤال عن تلك التكاليف مستتبع لايجابها عليهم بطريق التشديد لاساءتهم الأدب واجترائهم على المسألة والمراجعة وتجاوزهم عما يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر الله عز وجل من غير بحث فيه ولا تعرض لكيفيته وكميته أى لا تكثروا مسائلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما لا يعنيكم من نحو تكاليف شاقة عليكم ان أفتاكم بها و كلفكم اياها

حسبما أوحى اليه لم تطيقوا بها ونحو بعض أمور مستورة تكرهون بروزها وذلك مثل ما روى عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال ان الله تعالى كتب عليكم الحج فقام رجل من بنى أسد يقال له عكاشة بن محصن وقيل هو سراقة بن مالك فقال أفى كل عام يا رسول الله فأعرض عنه حتى أعاد مسألته ثلاث مرات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم ولو تركتم لكفرتم فاتركونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ومثل ما روى عن أنس وأبى هريرة رضى الله عنهما أنه سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء حتى أحفوه فى المسألة فقام عليه الصلاة والسلام مغضبا خطيبا فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال سلونى فوالله ما تسألونى عن شىء مادمت فى مقامى هذا الا بينته لكم فأشفق أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام أن يكون بين يدى أمر قد حضر قال أنس رضى الله عنه فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فلا أجد رجلا الا وهو لاف رأسه فى ثوبه يبكى فقام رجل من قريش من بنى سهم يقال له عبد الله بن حذافة وكان اذا لاحى الرجال يدعى الى غير أبيه وقال يا نبى الله من أبى فقال عليه الصلاة والسلام أبوك حذافة بن قيس الزهرى وقام آخر وقال أين أبى قال عليه الصلاة والسلام فى النار ثم قام عمر رضى الله عنه فقال رضينا بالله تعالى ربا و بالاسلام دينا و بمحمد رسولا نبيا نعوذ بالله تعالى من الفتن انا حديثو عهد بجاهلية وشرك فاعف عنا يا رسول الله فسكن غضبه عليه الصلاة والسلام ﴿عفا الله عنها﴾ استئناف مسوق لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتهم عن المساءة بل لأنها فى نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفا عنها وفيه من حثهم على الجد فى الانتهاء عنها ما لا يخفى وضمير عنها للمسألة المدلول عليها بلا تسألوا أى عفا الله تعالى عن مسائلكم السالفة حيث لم يفرض عليكم الحج فى كل عام جزاء بمسألتكم وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية بسائر مسائلكم فلا تعودوا الى مثلها وأما جعله صفة أخرى لأشياء على أن الضمير لها بمعنى لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلفكم اياها فما لا سبيل اليه أصلا لاقتضائه أن يكون الحج قد فرض أولا فى كل عام ثم نسخ بطريق العفو وأن يكون ذلك معلوما للمخاطبين ضرورة أن حق الوصف أن يكون معلوم الثبوت للموصوف عند المخاطب قبل جعله وصفا له وكلاهما ضرورى الانتفاء قطعا على أنه يستدعى اختصاص النهى بمسألة الحج ونحوها ان سلم وقوعها مع أن النظم الكريم صريح فى أنه مسوق للنهى عن السؤال عن الأشياء التى يسوؤهم ابداؤها سواء كانت من قبيل الأحكام والتكاليف الموجبة لمساءتهم بانشائها وايجابها بسبب السؤال عقوبة وتشديدا كمسألة الحج لولا عفوه تعالى عنها أو من قبيل الأمور الواقعة قبل السؤال الموجبة للمساءة بالاخبار بها كمسألة من قال أين أبى . ان قلت تلك الاشياء غير موجبة للمساءة البتة بل هى محتملة لايجاب المسرة أيضا لان ايجابها للاولى ان كان من حيث وجودها فهى من حيث عدمها موجبة للاخرى قطعا وليست احدى الحيثيتين محققة عند السائل وانما غرضه من السؤال ظهورها كيف كانت بل ظهورها بحيثية ايجابها للمسرة فلم عبر عنها بحيثية ايجابها للمساءة قلت لتحقيق المنهى عنه كما ستعرفه مع ما فيه من تأكيد النهى وتشديده لان تلك الحيثية هى الموجبة للانتهاء والانزجار لا حيثية ايجابها للمسرة و لا حيثية ترددها بين الايجابين . ان قيل الشرطية الثانية ناطقة بأن السؤال عن تلك الاشياء الموجبة للمساءة مستلزم لابدائها البتة كما مر فلم تخلف الابداء عن السؤال فى مسئلة الحج حيث لم يفرض فى كل عام قلنا لوقوع السؤال قبل ورود النهى وما ذكر فى الشرطية انما هو السؤال الواقع بعد وروده اذ هو الموجب للتغليظ والتشديد و لا تخلف فيه . ان قيل ما ذكرته انما يتمشى فيما اذا كان السؤال عن الأمور المترددة بين الوقوع وعدمه كما ذكر من التكاليف الشاقة وأما اذا كان عن الأمور الواقعة قبله

فلايكاد يتسنى لأن ما يتعلق به الابداء هو الذى وقع فى نفس الأمر ولا مرد له سواء كان السؤال قبل النهى أو بعده وقد يكون الواقع ما يوجب المسرة كما فى مسئلة عبد الله بن حذافة فيكون هو الذى يتعلق به الابداء لاغير. فيتعين التخلف حتما قلنا لا احتمال للتخلف فضلا عن التعين فان المنهى عنه فى الحقيقة انما هو السؤال عن الأشياء الموجبة للمساءة الواقعة فى نفس الأمر قبل السؤال كسؤال من قال أين أبى لا عما يعمها وغيرها مما ليس بواقع لكنه محتمل للوقوع عند المكلفين حتى يلزم التخلف فى صورة عدم الوقوع وجملة الكلام أن مدلول النظم الكريم بطريق العبارة انما هو النهى عن السؤال عن الأشياء التى يوجب ابداؤها المساءة البتة اما بأن تكون تلك الأشياء بعرضية الوقوع فتبدى عند السؤال بطريق الانشاء عقوبة وتشديدا كما فى صورة كونها من قبيل التكاليف الشاقة واما بأن تكون واقعة فى نفس الأمر قبل السؤال فتبدى عنده بطريق الاخبار بها فالتخلف ممتنع فى الصورتين معا ومنشأ توهمه عدم الفرق بين المنهى عنه وبين غيره بناء على عدم امتيازما هو موجود أو بعرضية الوجود من تلك الأشياء فى نفس الأمر وما ليس كذلك عند المكلفين وملاحظتهم للكل باحتمال الوجود والعدم وفائدة هذا الابهام الانتهاء عن السؤال عن تلك الأشياء على الاطلاق حذارا بداء المكروه ﴿والله غفور حليم﴾ اعتراض تذييلى مقرر لعفوه تعالى أى مبالغ فى مغفرة الذنوب والاغضاء عن المعاصى ولذلك عفا عنكم ولم يؤاخذكم بعقوبة ما فرط منكم ﴿قد سألها قوم﴾ أى سألوا هذه المسألة لكن لا عينها بل مثلها فى كونها محظورة ومستتبعة للوبال وعدم التصريح بالمثل للمبالغة فى التحذير ﴿من قبلكم﴾ متعلق بسألها ﴿ثم أصبحوا بها﴾ أى بسببها أو بمرجوعها ﴿كافرين﴾ فان بنى اسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم فى أشياء فاذا أمروا بها تركوها فهلكوا ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ رد وابطال لما ابتدعه أهل الجاهلية حيث كانوا اذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أى شقوها وحرموا ركوبها ودرها ولا تطرد عن ماء ولا عن مرعى وكان يقول الرجل اذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضى فناقتى سائبة وجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها وقيل كان الرجل اذا أعتق عبدا قال هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث واذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم وان ولدت ذكرا فهو لآلهتهم وان ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم واذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى ومعنى ما جعل ما شرع وما وضع ولذلك عدى الى مفعول واحد هو بحيرة وما عطف عليها ومن مزيدة لتأكيد النفى فان الجعل التكوينى كما يجئ تارة متعديا الى مفعولين وأخرى الى واحد كذلك الجعل التشريعى يجئ مرة متعديا الى مفعولين كما فى قوله تعالى جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس وأخرى الى واحد كما فى الآية الكريمة ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ حيث يفعلون ما يفعلون ويقولون الله أمرنا بهذا واما مهم عمرو بن لحى فانه أول من فعل هذه الأفاعيل الباطلة هذا شأن رؤسائهم وكبرائهم ﴿وأكثرهم﴾ وهم أراذلهم الذين يتبعونهم من معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يشهد به سياق النظم الكريم ﴿لا يعقلون﴾ أنه افتراء باطل حتى يخالفوهم ويهتدوا الى الحق بأنفسهم فيقعون فى أسر التقليد وهذا بيان لقصور عقولهم وعجزهم عن الاهتداء بأنفسهم وقوله عز وجل ﴿واذا قيل لهم﴾ أى للذين عبر عنهم بأكثرهم على سبيل الهداية والارشاد ﴿تعالوا الى ما أنزل الله من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿والى الرسول﴾ الذى أنزل هو عليه لتقفوا على حقيقة الحال وتميزوا الحرام من الحلال ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ بيان لعنادهم واستعصائهم على الهادى الى الحق وانقيادهم للداعى الى الضلال ﴿أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾ قيل الواو للحال دخلت عليها

الهمزة للانكار والتعجيب أى أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم جهلة ضالين وقيل للعطف على شرطية أخرى مقدرة قبلها وهو الأظهر والتقدير أحسبهم ذلك أو أيقولون هذا القول ولو لم يكن آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا لا يعلمون الخ وكلتاهما فى موقع الحال أى أحسبهم ماوجدوا عليه آباءهم كائنين على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة كيف لا وأن الشئ اذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى كما فى قولك أحسن الى فلان وان أساء اليك أى أحسن اليه ان لم يسئ اليك وان أساء أى أحسن اليه كائنا على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها دلالة ظاهرة اذ الاحسان حيث أمر به عند المانع فلأن يؤمر به عند عدمه أولى وعلى هذا السر يدور ما فى ان ولو الوصليتين من المبالغة والتأكيد وجواب لو محذوف لدلالة ماسبق عليه أى لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون حسبهم ذلك أو يقولون ذلك وما فى لو من معنى الامتناع والاستبعاد انما هو بالنظر الى زعمهم لا الى نفس الأمر وفائدته المبالغة فى الانكار والتعجيب ببيان أن ماقالوه موجب للانكار والتعجيب اذا كان كون آبائهم جهلة ضالين فى حيز الاحتمال البعيد فكيف اذا كان ذلك واقعا لاريب فيه وقيل مآل الوجهين واحد لأن الجملة المقدرة حال فكذا ماعطف عليها وأنت خبير بأن الحال على الوجه الأخير بمجموع الجملتين لا الأخيرة فقط وأن الواو للعطف لا للحال وقدم التحقيق فى قوله تعالى أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون فتدبر ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ أى الزموا أمر أنفسكم واصلاحها وقرئ بالرفع على الابتداء أى واجبة عليكم أنفسكم وقوله عز وجل ﴿لا يضركم من ضل اذا اهتديتم﴾ اما مجزوم على أنه جواب للأمر أو نهى مؤكد له وانما ضمت الراء اتباعا لضمة الضاد المنقولة اليها من الراء المدغمة اذ الأصل لا يضرركم ويؤيده القراءة بفتح الراء وقراءة من قرأ لا يضركم بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره واما مرفوع على أنه كلام مستأنف فى موقع التعليل لما قبله ويعضده قراءة من قرأ لا يضيركم أى لا يضركم ضلال من ضل اذا كنتم مهتدين ولا يتوهمن أن فيه رخصة فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع استطاعتهما كيف لا ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر حسبما تنفى به الطاقة قال عليه الصلاة والسلام من رأى منكم منكرا فاستطاع أن يغيره فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وقد روى أن الصديق رضى الله تعالى عنه قال يوما على المنبر يا أيها الناس انكم تقرءون هذه الآية وتضعونها غير موضعها ولا تدرون ماهى وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس اذا رأوا منكرا فلم يغيروه عمهم الله بعقاب فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ولا تغتروا بقول الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا الخ فيقول أحدكم على نفسى والله لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لهم وعنه عليه الصلاة والسلام مامن قوم عمل فيهم منكر أوسن فيهم قبيح فلم يغيروه ولم ينكروه الاوحق على الله تعالى أن يعمهم بالعقوبة جميعا ثم لا يستجاب لهم والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة وكانوا يتمنون ايمانهم وهم من الضلال بحيث لا يكادون يرعوون عنه بالأمر والنهى وقيل كان الرجل اذا أسلم لاموه وقالوا له سفهت آباءك وضللتهم أى نسبتهم الى السفاهة والضلال فنزلت تسلية له بأن ضلال آبائه لا يضره ولا يشينه ﴿الى الله﴾ لا الى أحد سواه ﴿مرجعكم﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿جميعا﴾ بحيث لا يتخلف عنه أحد من المهتدين وغيرهم ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ فى الدنيا من أعمال الهداية والضلال فهو وعد ووعيد للفريقين وتنبيه على أن أحدا لا يؤاخذ بعمل غيره ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ استئناف مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بأمور دنياهم اثر بيان الأحوال المتعلقة بأمور دينهم وتصديره بحرف النداء والتنبيه لاظهار كمال العناية بمضمونه وقوله عز

وجل ﴿شهادة بينكم﴾ بالرفع والاضافة الى الظرف توسعا اما باعتبار جريانها بينهم أو باعتبار تعلقها بما يجرى بينهم من الخصومات مبتدأ وقوله تعالى ﴿اذا حضر أحدكم الموت﴾ أى شارفه وظهرت علائمه ظرف لها وتقديم المفعول لافادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت ورود عليها فانه أدخل فى تهوين أمر الموت وقوله تعالى ﴿حين الوصية﴾ بدل منه لاظرف للموت كما توهم ولا لحضوره كما قيل فان فى الابدال تنبيها على أن الوصية من المهمات المقررة التى لاينبغى أن يتهاون بها المسلم ويذهل عنها وقوله تعالى ﴿اثنان﴾ خبر للمبتدا بتقدير المضاف أى شهادة بينكم حينئذ شهادة اثنين أو فاعل شهادة بينكم على أن خبرها محذوف أى فيما نزل عليكم أن يشهد بينكم اثنان وقرئ شهادة بالرفع والتنوين والاعراب كما سبق وقرئ شهادة بالنصب والتنوين على أن عاملها مضمر هو العامل فى اثنان أيضا أى ليقم شهادة بينكم اثنان ﴿ذوا عدل منكم﴾ أى من أقاربكم لأنهم أعلم بأحوال الميت وأنصح له وأقرب الى تحرى ماهو أصلح له وقيل من المسلمين وهما صفتان لاثنان ﴿أو آخران﴾ عطف على اثنان تابع له فيما ذكر من الخبرية والفاعلية أى أو شهادة آخرين أو أن يشهد بينكم آخران أو ليقم شهادة بينكم آخران وقوله تعالى ﴿من غيركم﴾ صفة لآخران أى كائنان من غيركم أى من الأجانب وقيل من أهل الذمة وقد كان ذلك فى بدء الاسلام لعزة وجود المسلمين لاسيما فى السفر ثم نسخ وعن مكحول أنه نسخها قوله تعالى وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴿ان أنتم﴾ مرفوع بمضمر يفسره مابعده تقديره ان ضربتم فلما حذف الفعل انفصل الضمير وهذا رأى جمهور البصريين وذهب الأخفش والكوفيون الى أنه مبتدأ بناء على جواز وقوع المبتدا بعد ان الشرطية بجواز وقوعه بعد اذا فقوله تعالى ﴿ضربتم فى الأرض﴾ أى سافرتم فيها لاحل له من الاعراب عند الأولين لكونه مفسرا ومرفوع على الخبرية عند الباقين وقوله تعالى ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ عطف على الشرطية وجوابه محذوف لدلالة ماقبله عليه أى ان سافرتم فقاربكم الأجل حينئذ وما معكم من الأقارب أو من أهل الاسلام من يتولى أمر الشهادة كما هو الغالب المعتاد فى الأسفار فليشهد آخران أو فاستشهدوا آخرين أو فالشاهدان آخران كذا قيل والأنسب أن يقدر عين ماسبق أى فآخران على معنى شهادة بينكم شهادة آخرين أو فأن يشهد آخران على الوجوه المذكورة ثمة وقوله تعالى ﴿تحبسونهما﴾ استئناف وقع جوابا عما نشأ من اشتراط العدالة كأنه قيل فكيف نصنع ان ارتبنا بالشاهدين فقيل تحبسونهما أى تقفونهما وتصبرونهما للتحليف ﴿من بعد الصلوة﴾ وقيل هو صفة لآخران والشرط بجوابه المحذوف اعتراض فائدته الدلالة على أن اللائق اشهاد الأقارب أو أهل الاسلام وأما اشهاد الآخرين فعند الضرورة الملجئة اليه وأنت خبير بأنه يقتضى اختصاص الحبس بالآخرين مع شموله للأولين أيضا قطعا على أن اعتبار اتصافهما بذلك يأباه مقام الأمر باشهادهما اذ مآله فآخران شأنهما الحبس والتحليف وان أمكن اتمام التقريب باعتبار قيد الارتياب بهما كما يفيده الاعتراض الآتى والمراد بالصلاة صلاة العصر وعدم تعيينها لتعينها عندهم بالتحليف بعدها لأنه وقت اجتماع الناس ووقت تصادم ملائكة الليل وملائكة النهار ولأن جميع أهل الأديان يعظمونه ويجتنبون فيه الحلف الكاذب وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام وقتئذ حلف من حلف كما سيأتى وقيل بعد أى صلاة كانت لانها داعية الى النطق بالصدق وناهية عن الكذب والزور ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿فيقسمان بالله﴾ عطف على تحبسونهما وقوله تعالى ﴿ان ارتبتم﴾ شرطية محذوفة الجواب لدلالة ماسبق من الحبس والاقسام عليه سيقت من جهته تعالى معترضة بين القسم وجوابه للتنبيه على اختصاص الحبس والتحليف بحال الارتياب أى ان ارتاب بهما الوارث منكم بخيانة وأخذ شىء من التركة فاحبسوهما وحلفوهما بالله وقوله تعالى ﴿لانشترى به ثمنا﴾ جواب للقسم وليس هذا من قبيل مااجتمع فيه قسم وشرط فاكتفى بذكر جواب سابقهما

عن جواب الآخر كما هو الواقع غالبا فان ذلك انما يكون عند سد جواب السابق مسد جواب اللاحق لاتحاد مضمونهما كما فى قولك والله ان أتيتنى لأكرمنك ولاريب فى استحالة ذلك ههنا لأن القسم وجوابه كلاهما وقد عرفت أن الشرط من جهته تعالى والاشتراء هو استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه لابذله لتحصيلها كما قيل وان كان مستلزما له فان المعتبر فى عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب المعتبر فى عقد البيع ثم استعير لأخذ شىء بازالة ماعنده عينا كان أو معنى على وجه الرغبة فى المأخوذ والاعراض عن الزائل كما هو المعتبر فى المستعار منه حسبما مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والضمير فى به لله والمعنى لانأخذ لانفسنا بدلا من الله أى من حرمته عرضا من الدنيا بأن نهتكها ونزيلها بالحلف الكاذب أى لانحلف بالله كاذبين لأجل المال وقيل الضمير للقسم فلا بد من تقدير مضاف البتة أى لانستبدل بصحة القسم بالله أى لانأخذ لانفسنا بدلا منها عرضا من الدنيا بأن نزيل عنه وصف الصدق ونصفه بالكذب أى لانحلف كاذبين كما ذكر والا فلا سداد للمعنى سواء أريد به القسم الصادق أو الكاذب أما ان أريد به الكاذب فلأنه يفوت حينئذ ماهو المعتبر فى الاستعارة من كون الزائل شيئا مرغوبا فيه عند الحالف كحرمة اسم الله تعالى ووصف الصحة والصدق فى القسم ولاريب فى أن القسم الكاذب ليس كذلك وأما ان أريد به الصادق فلأنه وان أمكن أن يتوسل باستعماله الى عرض الدنيا كالقسم الكاذب لكن لامحذور فيه وأما التوسل اليه بترك استعماله فلا امكان له ههنا حتى يصح التبرؤ منه وانما يتوسل اليه باستعمال القسم الكاذب وليس استعماله من لوازم ترك استعمال الصادق ضرورة جواز تركهما معا حتى يتصور جعل ماأخذ باستعماله مأخوذا بترك استعمال الصادق كما فى صورة تقدير المضاف فان ازالة وصف الصدق عن القسم مع بقاء الموصوف مستلزمة لثبوت وصف الكذب له البتة فتأمل وقوله تعالى ﴿ولو كان﴾ أى المقسم له المدلول عليه بفحوى الكلام ﴿ذا قربى﴾ أى قريبا منا تأكيد لتبرئهم من الحلف كاذبا ومبالغة فى التنزه عنه كأنهما قالا لانأخذ لأنفسنا بدلا من حرمة اسمه تعالى مالا ولو انضم اليه رعاية جانب الاقرباء فكيف اذا لم يكن كذلك وصيانة أنفسهما وان كانت أهم من رعاية الاقرباء لكنها ليست ضميمة للمال بل هى راجعة اليه وجواب لو محذوف ثقة بدلالة ماسبق عليه أى لانشترى به ثمنا والجملة معطوفة على أخرى مثلها كما فصل فى تفسير قوله تعالى ولو أعجبك الخ وقوله عز وجل ﴿ولانكتم شهادة الله﴾ أى الشهادة التى أمرنا الله تعالى باقامتها معطوف على لانشترى به داخل معه فى حكم القسم وعن الشعبى أنه وقف على شهادة ثم ابتدأ آلله بالمد على حذف حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه وبغير مد كقولهم الله لأفعلن ﴿انا اذا لمن الآثمين﴾ أى ان كتمناها وقرئ لملاثمين بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وادخال النون فيها ﴿فان عثر﴾ أى اطلع بعد التحليف ﴿على أنهما استحقا اثما﴾ حسبما اعترفا به بقولهما انا اذا لمن الآثمين أى فعلا مايوجب اثما من تحريف وكتم بأن ظهر بأيديهما شىء من التركة وادعيا استحقاقهما له بوجه من الوجوه كما وقع فى سبب النزول حسبما سيأتى ﴿فآخران﴾ أى رجلان آخران وهو مبتدأ خبره ﴿يقومان مقامهما﴾ ولامحذور فى الفصل بالخبر بين المبتدا وبين وصفه الذى هو الجار والمجرور بعده أى يقومان مقام اللذين عثر على خيانتهما وليس المراد بمقامهما مقام أداء الشهادة التى تولياها ولم يؤدياها كما هى بل هو مقام الحبس والتحليف على الوجه المذكور لاظهار الحق وابراز كذبهما فيما ادعيا من استحقاقهما لما فى أيديهما ﴿من الذين استحق﴾ على البناء للفاعل على قراءة على وابن عباس وأبى رضى الله عنهم أى من أهل الميت الذين استحق ﴿عليهم الأوليان﴾ من بينهم أى الأقربان الى الميت الوارثان له الأحقان بالشهادة أى باليمين كما ستعرفه ومفعول استحق محذوف أى استحقا عليهم أن يجردوهما للقيام بها لأنها حقهما ويظهروا بهما كذب الكاذبين وهما فى الحقيقة الآخران القائمان مقام الأولين على وضع

المظهر مقام المضمر وقرئ على البناء للمفعول وهو الاظهر أى من الذين استحق عليهم الاثم أى جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته فالأوليان مرفوع على أنه خبر لمبتدا محذوف كأنه قيل ومن هما فقيل الأوليان أو هو بدل من الضمير فى يقومان أو من آخران وقد جوز ارتفاعه باستحق على حذف المضاف أى استحق عليهم انتداب الاولين منهم للشهادة وقرئ الاولين على أنه صفة للذين الخ مجرورا أو منصوب على المدح ومعنى الأولية التقدم على الاجانب فى الشهادة لكونهم أحق بها وقرئ الاولين على التثنية وانتصابه على المدح وقرئ الأولان ﴿فيقسمان بالله﴾ عطف على يقومان ﴿لشهادتنا﴾ المراد بالشهادة اليمين كما فى قوله تعالى فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله أى ليميننا على أنهما كاذبان فيما ادعيا من الاستحقاق مع كونها حقة صادقة فى نفسها ﴿أحق﴾ بالقبول ﴿من شهادتهما﴾ أى من يمينهما مع كونها كاذبة فى نفسها لما أنه قد ظهر للناس استحقاقهما للاثم ويميننا منزهة عن الريب والريبة فصيغة التفضيل مع أنه لاحقية فى يمينهما رأسا انما هى لامكان قبولها فى الجملة باعتبار احتمال صدقهما فى ادعاء تملكهما لما ظهر فى أيديهما ﴿وما اعتدينا﴾ عطف على جواب القسم أى ما تجاوزنا فيها الحق أو ما اعتدينا عليهما بابطال حقهما ﴿انا اذا لمن الظالمين﴾ استئناف مقرر لما قبله أى انا ان اعتدينا فى يميننا لمن الظالمين أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى أو لمن الواضعين الحق فى غير موضعه ومعنى النظم الكريم أن المحتضر ينبغى أن يشهد على وصيته عدلين من ذوى نسبه أو دينه فان لم يجدهما بأن كان فى سفر فآخران من غيرهم ثم ان وقع ارتياب بهما أقسما على أنهما ما كتما من الشهادة ولا من التركة شيئا بالتغليظ فى الوقت فان اطلع بعد ذلك على كذبهما بأن ظهر بأيديهما شئ من التركة وادعيا تملكه من جهة الميت حلف الورثة وعمل بأيمانهم ولعل تخصيص الاثنين لخصوص الواقعة فانه روى أن تميم بن أوس الدارى وعدى ابن يزيد خرجا الى الشأم للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل بن أبى مريم مولى عمرو بن العاص وكان مسلما مهاجرا فلما قدموا الشأم مرض بديل فكتب كتابا فيه جميع مامعه وطرحه فى متاعه ولم يخبرهما بذلك وأوصى اليهما بأن يدفعا متاعه الى أهله ومات ففتشاه فوجدا فيه اناء من فضة وزنه ثلثمائة مثقال منقوشا بالذهب فغيباه ودفعا المتاع الى أهله فأصابوا فيه الكتاب فطلبوا منهما الاناء فقالا ماندرى انما أوصى الينا بشئ وأمرنا أن ندفعه اليكم ففعلنا وما لنا بالاناء من علم فرفعوهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل يا أيها الذين آمنوا الآية فاستحلفهما بعد صلاة العصر عند المنبر بالله الذى لااله الا هو أنهما لم يختانا شيأ مما دفع ولا كتما فحلفا على ذلك فخلى عليه الصلاة والسلام سبيلهما ثم ان الاناء وجد بمكة فقال من بيده اشتريته من تميم وعدى وقيل لما طالت المدة أظهراه فبلغ ذلك بنى سهم فطلبوه منهما فقالا كنا اشتريناه من بديل فقالوا ألم نقل لكما هل باع صاحبنا من متاعه شيأ فقلتما لا فقالا ما كان لنا بينة فكره هنا أن نقر به فرفعوهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله عز وجل فان عثر الآية فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبى وداعة السهميان فحلفا بالله بعد العصر أنهما كذبا وخانا فدفع الاناء اليهما وفى رواية الى أولياء الميت واعلم أنهما ان كانا وارثين لبديل فلا نسخ الا فى وصف اليمين فان الوارث لايحلف على البتات والا فهو منسوخ ﴿ذلك﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن ماذكر مستتبع للنافع وارد على مقتضى الحكمة والمصلحة أى الحكم الذى تقدم تفصيله ﴿أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أى أقرب الى أن يؤدى الشهود الشهادة على وجهها الذى تحملوها عليه من غير تحريف ولا خيانة خوفا من العذاب الأخروى وهذه كما ترى حكمة شرعية التحليف بالتغليظ المذكور وقوله تعالى ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ بيان لحكمة شرعية رد اليمين على الورثة معطوف على مقدر ينبئ عنه المقام كأنه قيل ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح

على رؤس الاشهاد بابطال أيمانهم والعمل بأيمان الورثة فينزجروا عن الخيانة المؤدية اليه فأى الخوفين وقع حصل المقصد الذى هو الاتيان بالشهادة على وجهها وقيل هو عطف على يأتوا على معنى أن ذلك أقرب الى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو الى أن يخافوا الافتضاح برد اليمين على الورثة فلا يحلفوا على موجب شهادتهم ان لم يأتوا بها على وجهها فيظهر كذبهم بنكولهم وأما ماقيل من أن المعنى ان ذلك أقرب الى أحد الأمرين اللذين أيهما وقع كان فيه الصلاح أداء الشهادة على الصدق والامتناع عن أدائها على الكذب فيأباه المقام اذ لاتعلق له بالحادثة أصلا ضرورة أن الشاهد مضطر فيها الى الجواب فالامتناع عن الشهادة الكاذبة مستلزم للاتيان بالصادقة قطعا فليس هناك أمران أيهما وقع كان فيه الصلاح حتى يتوسط بينهما كلمة أو وانما يتأتى ذلك فى شهود لم يتهموا بخيانة على أن اضافة الامتناع عن الشهادة الكاذبة الى خوف رد اليمين على الورثة ونسبة الاتيان بالصادقة الى غيره مع أن مايقتضى أحدهما يقتضى الآخر لامحالة تحكم بحت فتأمل ﴿واتقوا الله﴾ فى مخالفة أحكامه التى من جملتها هذا الحكم ﴿واسمعوا﴾ ماتؤمرون به كائنا ما كان سمع طاعة وقبول ﴿والله لايهدى القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن الطاعة أى فان لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم فاسقين والله لايهدى القوم الفاسقين أى الى طريق الجنة أو الى مافيه نفعهم ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ نصب على أنه بدل اشتمال من مفعول اتقوا لما بينهما من الملابسة فان مدار البدلية ليس ملابسة الظرفية والمظروفية ونحوها فقط بل هو تعلق ما مصحح لانتقال الذهن من المبدل منه الى البدل بوجه اجمالى كما فيما نحن فيه فان كونه تعالى خالق الأشياء كافة مالك يوم الدين خاصة كاف فى الباب مع أن الأمر بتقوى الله تعالى يتبادر منه الى الذهن أن المتقى أى شأن من شئونه وأى فعل من أفعاله وقيل هناك مضاف محذوف به يتحقق الاشتمال أى اتقوا عقاب الله فحينئذ يجوز انتصابه منه بطريق الظرفية وقيل منصوب بمضمر معطوف على اتقوا وما عطف عليه أى واحذروا وأو اذكروا يوم الخ فان تذكير ذلك اليوم الهائل مما يضطرهم الى تقوى الله عز وجل وتلقى أمره بسمع الاجابة والطاعة وقيل هو ظرف لقوله تعالى لايهدى أى لايهديهم يومئذ الى طريق الجنة كما يهدى اليه المؤمنين وقيل منصوب بقوله تعالى واسمعوا بحذف مضاف أى اسمعوا خبر ذلك اليوم وقيل منصوب بفعل مؤخر قد حذف للدلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانه لكمال فظاعة مايقع فيه من الطامة التامة والدواهى العامة كأنه قيل يوم يجمع الله الرسل فيقول الخ يكون من الاحوال والاهوال مالا يفى ببيانه نطاق المقال واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة وتشديد التهويل وتخصيص الرسل بالذكر ليس لاختصاص الجمع بهم دون الامم كيف لا وذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وقد قال الله تعالى يوم ندعو كل أناس بامامهم بل لاباتة شرفهم وأصالتهم والايذان بعدم الحاجة الى التصريح بجمع غيرهم بناء على ظهور كونهم أتباعا لهم ولاظهار سقوط منزلتهم وعدم لياقتهم بالانتظام فى سلك جمع الرسل كيف لاوهم عليهم السلام يجمعون على وجه الاجلال وأولئك يسحبون على وجوههم بالاغلال ﴿فيقول﴾ لهم مشيرا الى خروجهم عن عهدة الرسالة كما ينبغى حسبما يعرب عنه تخصيص السؤال بجواب الامم اعرابا واضحا والاصدر الخطاب بأن يقال هل بلغتم رسالاتى وماذا فى قوله عز وجل ﴿ماذا أجبتم﴾ عبارة عن مصدر الفعل فهو نصب على المصدرية أى أى اجابة أجبتم من جهة أممكم اجابة قبول أو اجابة رد وقيل عبارة عن الجواب فهو فى محل النصب بعد حذف الجار عنه أى بأى جواب أجبتم وعلى التقديرين فنى توجيه السؤال عما صدر عنهم وهم شهود الى الرسل عليهم السلام كسؤال الموءودة بمحضر من الوائد والعدول عن اسناد الجواب اليهم بأن يقال ماذا أجابوا من الانباء عن كمال تحقير شأنهم وشدة الغيظ والسخط عليهم مالا يخفى ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا يقول الرسل عليهم السلام هنالك فقيل يقولون ﴿لاعلم لنا﴾ وصيغة الماضى

للدلالة على التقرر والتحقق كما فى قوله تعالى ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الاعراف ونظائرهما وانما يقولون ذلك تفويضا للامر الى علمه تعالى واحاطته بما اعتراهم من جهتهم من مقاساة الاهوال ومعاناة الهموم والاوجال وعرضا لعجزهم عن بيانه لكثرته وفظاعته ﴿انك أنت علام الغيوب﴾ تعليل لذلك أى فتعلم ما أجابوا وأظهروا لنا وما لم نعلمه مما أضمروه فى قلوبهم وفيه اظهار للشكاة ورد للامر الى علمه تعالى بما لقوا من قبلهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاء الى ربهم فى الانتقام منهم وقيل المعنى لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا وانما الحكم للخاتمة ورد ذلك بأنهم يعرفونهم بسيماهم فكيف يخفى عليهم أمرهم وأنت خبير بأن مرادهم حينئذ أن بعضهم كانوا فى زمانهم على الحق ثم صاروا كفرة وعن ابن عباس ومجاهد والسدى رضى الله عنهم أنهم يفزعون من أول الامر ويذهلون عن الجواب ثم يجيبون بعد ما ثابت اليهم عقولهم بالشهادة على أممهم ولا يلائمه التعليل المذكور وقيل المراد به المبالغة فى تحقيق فضيحتهم وقرئ علام الغيوب بالنصب على النداء أو الاختصاص بالمدح على أن الكلام قد تم عند قوله تعالى أنت أى انك أنت المنعوت بنعوت كمالك المعروف بذلك ﴿اذ قال الله ياعيسى ابن مريم﴾ شروع فى بيان ماجرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيل اثر بيان ماجرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الاجمال ليكون ذلك كالانموذج لتفاصيل أحوال الباقين وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلا من بين شئون سائر الرسل عليهم السلام مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعيت عليهم فى السورة الكريمة جناياتهم فتفصيله أعظم عليهم وأجلب لحسرتهم وندامتهم وأفت فى أعضادهم وأدخل فى صرفهم عن غيهم وعنادهم واذ بدل من يوم يجمع الله الخ وصيغة الماضى لما ذكر من الدلالة على تحقق الوقوع واظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار لما مر من المبالغة فى التهويل وكلمة على فى قوله تعالى ﴿اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك﴾ متعلقة بنفس النعمة ان جعلت مصدرا أى اذكر انعامى عليكما أو بمحذوف هو حال منها ان جعلت اسما أى اذكر نعمتى كائنة عليكما وليس المراد بامره عليه السلام يومئذ بذكر النعمة المنتظمة فى سلك التعديد تكليفه عليه السلام شكرها والقيام بمواجبها ولات حين تكليف مع خروجه عليه السلام عن عهدة الشكر فى أوانه أى خروج بل اظهار أمره عليه السلام بتعداد تلك النعم حسبما ينه الله تعالى اعتدادا بها وتلذذا بذكرها على رؤس الاشهاد لتكون حكاية ذلك على ما أنبأ عنه النظم الكريم توبيخا ومزجرة للكفرة المختلفين فى شأنه عليه السلام افراطا وتفريطا وابطالا لقولهما جميعا ﴿اذ أيدتك﴾ ظرف لنعمتى أى اذكر انعامى عليكما وقت تأييدى لك أو حال منها أى اذكرها كائنة وقت تأييدى لك وقرئ آيدتك والمعنى واحد أى قويتك ﴿بروح القدس﴾ بجبريل عليه السلام لتثبيت الحجة أو بالكلام الذى يحيى به الدين واضافته الى القدس لانه سبب الطهر عن أوضار الآثام أو يحيى به الموتى أو النفوس حياة أبدية وقيل الأرواح مختلفة الحقائق فمنها طاهرة نورانية ومنها خبيثة ظلمانية ومنها مشرقة ومنها كدرة ومنها حرة ومنها نذلة وكان روحه عليه السلام طاهرة مشرقة نورانية علوية وأياما كان فهو نعمة عليهما ﴿تكلم الناس فى المهد وكهلا﴾ استئناف مبين لتأييده عليه السلام أو حال من الكاف وذكر تكليمه عليه السلام فى حال الكهولة لبيان أن كلامه عليه السلام فى تينك الحالتين كان على نسق واحد بديع صادرا عن كمال العقل مقارنا لرزانة الرأى والتدبير وبه استدل على أنه عليه السلام سينزل من السماء لما أنه عليه السلام رفع قبل التكهل قال ابن عباس رضى الله عنهما أرسله الله تعالى وهو ابن ثلاثين سنة ومكث فى رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله تعالى اليه ﴿واذ علمتك الكتاب﴾ عطف على قوله تعالى اذ أيدتك منصوب بما نصبه أى اذكر نعمتى عليكما وقت تعليمى

لك الكتاب ﴿والحكمة﴾ أى جنسهما ﴿والتوراة والانجيل﴾ خصا بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة اظهارا لشرفهما وقيل الخط والحكمة الكلام المحكم الصواب ﴿واذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾ أى تصور منه هيئة مماثلة لهيئة الطير ﴿باذنى﴾ بتسهيلى وتيسيرى لا على أن يكون الخلق صادرا عنه عليه السلام حقيقة بل على أن يظهر ذلك على يده عليه السلام عند مباشرة الأسباب مع كون الخلق حقيقة لله تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فتنفخ فيها﴾ أى فى الهيئة المصورة ﴿فتكون﴾ أى تلك الهيئة ﴿طيرا باذنى﴾ فان اذنه تعالى لو لم يكن عبارة عن تكوينه تعالى للطير بل عن محض تيسيره مع صدور الفعل حقيقة عما أسند اليه لكان هذا تكونا من جهة الهيئة وتكرير قوله باذنى فى الطير مع كونه شيأ واحدا للتنبيه على أن كلا من التصوير والنفخ أمر معظم بديع لا يتسنى ولا يترتب عليه شئ الا باذنه تعالى ﴿وتبرئ الأكمه والأبرص باذنى﴾ عطف على تخلق ﴿واذ تخرج الموتى باذنى﴾ عطف على اذ تخلق أعيد فيه اذ لكون اخراج الموتى من قبورهم لاسيما بعد ماصارت رميما معجزة باهرة ونعمة جليلة حقيقة بتذكير وقتها صريحا قيل أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية وتكرير قوله باذنى فى المواضع الأربعة للاعتناء بتحقيق الحق ببيان أن تلك الخوارق ليست من قبل عيسى عليه الصلاة والسلام بل من جهته سبحانه قد أظهرها على يديه معجزة له ونعمة خصها به وأما ذكره فى سورة آل عمران مرتين لما أن ذلك موضع الاخبار وهذا موضع تعداد النعم ﴿واذ كففت بنى اسرائيل عنك﴾ عطف على اذ تخرج أى منعت اليهود الذين أرادوا بك السوء عن التعرض لك ﴿اذ جئتهم بالبينات﴾ بالمعجزات الواضحة مما ذكر ومالم يذكر كالاخبار بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ونحو ذلك وهو ظرف لكففت لكن لا باعتبار المجئ بها فقط بل باعتبار ما يعقبه من قوله تعالى ﴿فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين﴾ فان قولهم ذلك مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله عليه السلام المحوج الى الكف أى كففتهم عنك حين قالوا ذلك عند مجيئك اياهم بالبينات وانما وضع موضع ضميرهم الموصول لذمهم بما فى حيز الصلة فكلمة من بيانية وهذا اشارة الى ماجاء به والتذكير لأن اشارتهم الى مارأوه من نفس المسمى من حيث هو أو من حيث هو سحر لا من حيث هو مسمى بالبينات وقرئ ان هذا الا ساحر مبين فهذا حينئذ اشارة الى عيسى عليه السلام ﴿واذ أوحيت الى الحواريين﴾ عطف على ماقبله من أخواتها الواقعة ظروفا للنعمة التى أمر بذكرها وهى وان كانت فى الحقيقة عين مايفيده الجمل التى أضيف اليها تلك الظروف من التأييد بروح القدس وتعليم الكتاب والحكمة وسائر الخوارق المعدودة لكنها لمغايرتها لها بعنوان منبئ عن غاية الاحسان أمر بذكرها من تلك الحيثية وجعلت عاملة فى تلك الظروف لكفاية المغايرة الاعتبارية فى تحقيق ما اعتبر فى مدلول كلمة اذ من تعدد النسبة فانه ظرف موضوع لزمان نسبتين ماضيتين واقعتين فيه احداهما معلومة الوقوع فيه للمخاطب دون الأخرى فيراد افادة وقوعها أيضا له فيضاف الى الجملة المفيدة للنسبة الأولى ويجعل ظرفا معمولا للنسبة الثانية ثم قد تكون المغايرة بين النسبتين بالذات كما فى قولك اذكر احسانى اليك اذ أحسنت الى تريد تنبيه المخاطب على وقوع احسانك اليه وقت وقوع احسانه اليك وهما نسبتان متغايرتان بالذات وقد تكون بالاعتبار كما فى قولك اذكر احسانى اليك اذ منعتك من المعصية تريد تنبيهه على كون منعه منها احسانا اليه لا على احسان آخر واقع حينئذ ومن هذا القبيل عامة ماوقع فى التنزيل من قوله تعالى ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا الآية وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم الى غير ذلك من النظائر ومعنى ايحائه تعالى اليهم أمره تعالى اياهم فى الانجيل على لسانه عليه السلام وقيل الهامه تعالى اياهم كما فى قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وأن فى قوله تعالى ﴿أن آمنوا بى وبرسولى﴾ مفسرة لما فى الايحاء من معنى القول وقيل مصدرية وايراده

عليه السلام بعنوان الرسالة للتنبيه على كيفية الايمان به عليه السلام كأنه قيل آمنوا بوحدانيتى فى الألوهية والربوبية وبرسالة رسولى ولاتزيلوه عن حيزه حطا ولارفعا وقوله تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قالوا حين أوحى اليهم ذلك فقيل قالوا ﴿آمنا﴾ أى بما ذكر من وحدانيته تعالى وبرسالة رسوله كما يؤذن به قولهم ﴿واشهد بأننا مسلمون﴾ أى مخلصون فى ايماننا من أسلم وجهه لله وهذا القول منهم بمقتضى وحيه تعالى وأمره لهم بذلك نعمة جليلة كسائر النعم الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام وكل ذلك نعمة على والدته أيضا. روى أنه عليه السلام لما علم أنه سيؤمر بذكر هاتيك النعم العظام جعل يلبس الشعر ويأكل الشجر ولايدخر شيأ لغد يقول لكل يوم رزقه لم يكن له بيت فيخرب ولا ولد فيموت أينما أمسى بات ﴿اذ قال الحواريون﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ماجرى بينه عليه السلام وبين قومه منقطع عما قبله كما ينبئ عنه الاظهار فى موقع الاضمار واذ منصوب بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام بطريق تلوين الخطاب والالتفات لكن لا لأن الخطاب السابق لعيسى عليه السلام فانه ليس بخطاب وانما هو حكاية خطاب بل لأن الخطاب لمن خوطب بقوله تعالى واتقوا الله الآية فتأمل كأنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم عقيب حكاية ماصدر عن الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله تعالى الفائضة على عيسى عليه السلام اذكر للناس وقت قولهم الخ وقيل هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاءهم الايمان والاخلاص لم يكن عن تحقيق وايقان ولا يساعده النظم الكريم ﴿ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ اختلف فى أنهم هل كانوا مؤمنين أو لا فقيل كانوا كافرين شاكين فى قدرة الله تعالى على ماذكروا وفى صدق عيسى عليه السلام كاذبين فى دعوى الايمان والاخلاص وقيل كانوا مؤمنين وسؤالهم للاطمئنان والتثبت لا لازاحة الشك وهل يستطيع سؤال عن الفعل دون القدرة عليه تعبيرا عنه بلازمه وقيل الاستطاعة على ماتقتضيه الحكمة والارادة لاعلى ماتقتضيه القدرة وقيل المعنى هل يطيع ربك بمعنى هل يجيبك واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب بمعنى أجاب وقرئ هل تستطيع ربك أى سؤال ربك والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عنه وهى قراءة على وعائشة وابن عباس ومعاذ رضى الله عنهم وسعيد بن جبير فى آخرين والمائدة الخوان الذى عليه الطعام من ماده اذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم اليه ونظيره قولهم شجرة مطعمة وقال أبو عبيد هى فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال ناشئ مما قبله كأنه قيل فماذا قال لهم عيسى عليه السلام حين قالوا ذلك فقيل قال ﴿اتقوا الله﴾ أى من أمثال هذا السؤال ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ أى بكمال قدرته تعالى وبصحة نبوتى أو ان صدقتم فى ادعاء الايمان والاسلام فان ذلك مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات وقيل أمرهم بالتقوى ليصير ذلك ذريعة لحصول المسئول كقوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب وقوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة ﴿قالوا﴾ استئناف كما سبق ﴿نريد أن نأكل منها﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم الى السؤال أى لسنا نريد بالسؤال ازاحة شبهتنا فى قدرته سبحانه على تنزيلها أو فى صحة نبوتك حتى يقدح ذلك فى الايمان والتقوى بل نريد أن نأكل منها أى أكل تبرك وقيل أكل حاجة وتمتع ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ بكمال قدرته تعالى وان كنا مؤمنين به من قبل فان انضمام علم المشاهدة الى العلم الاستدلالى مما يوجب ازدياد الطمأنينة وقوة اليقين ﴿ونعلم﴾ أى علما يقينيا لايحوم حوله شائبة شبهة أصلا وقرئ ليعلم على البناء للمفعول ﴿أن قد صدقتنا﴾ أن هى المخففة من أن وضمير الشان محذوف أى ونعلم أنه قد صدقتنا فى دعوى النبوة وأن الله يجيب دعوتنا وان كنا عالمين بذلك من قبل ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بنى أسرائيل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقينا

ويؤمن بسببها كفارهم أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر وعليها متعلق بالشاهدين ان جعل اللام للتعريف وبيان لما يشهدون عليه ان جعلت موصولة كأنه قيل على أى شئ يشهدون فقيل عليها فان ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول أو هو حال من اسم كان أو هو متعلق بمحذوف يفسره من الشاهدين ﴿قال عيسى ابن مريم﴾ لما رأى عليه السلام أن لهم غرضا صحيحا فى ذلك وأنهم لا يقلعون عنه أزمع على استدعائها واستنزالها وأراد أن يلزمهم الحجة بكمالها. روى أنه عليه الصلاة والسلام اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين فطأطأ رأسه وغض بصره ثم قال ﴿اللهم ربنا﴾ ناداه سبحانه وتعالى مرتين مرة بوصف الالوهية الجامعة لجميع الكمالات ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية اظهارا لغاية التضرع ومبالغة فى الاستدعاء ﴿أنزل علينا﴾ تقديم الظرف على قوله ﴿مائدة﴾ لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقوله ﴿من السماء﴾ متعلق بأنزل أو بمحذوف هو صفة لمائدة أى كائنة من السماء نازلة منها وقوله ﴿تكون لنا عيدا﴾ فى محل النصب على أنه صفة لمائدة واسم تكون ضمير المائدة وخبرها اما عيدا ولنا حال منه أو من ضمير تكون عند من يجوز اعمالها فى الحال واما لنا وعيدا حال من الضمير فى لنا لأنه وقع خبرا فيحمل ضميرا أو من ضمير تكون عند من يرى ذلك أى يكون يوم نزولها عيدا تعظمه وانما أسند ذلك الى المائدة لأن شرف اليوم مستعار من شرفها وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمى يوم العيد عيدا وقرئ تكن بالجزم على جواب الأمر كما فى قوله تعالى فهب لى من لدنك وليا يرثنى خلا أن قراءة الجزم هناك متواترة وههنا من الشواذ ﴿لأولنا وآخرنا﴾ بدل من لنا باعادة العامل أى عيدا لمتقدمينا ومتأخرينا. روى أنها نزلت يوم الاحد ولذلك اتخذه النصارى عيدا وقيل للرؤساء منا والأتباع وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا وقرئ لأولانا وأخرانا بمعنى الأمة والطائفة ﴿وآية﴾ عطف على عيدا ﴿منك﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لآية أى كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتى ﴿وارزقنا﴾ أى المائدة أو الشكر عليها ﴿وأنت خير الرازقين﴾ تذييل جار مجرى التعليل أى خير من يرزق لأنه خالق الارزاق ومعطيها بلا عوض وفى اقباله عليه السلام على الدعاء بتكرير النداء المنبئ عن كمال الضراعة والابتهال وزيادته مالم يخطر ببال السائلين من الامور الداعية الى الاجابة والقبول دلالة واضحة على أنهم كانوا مؤمنين وأن سؤالهم كان لتحصيل الطمأنينة كما فى قول ابراهيم عليه السلام رب أرنى كيف تحيى الموتى والا لما قبل اعتذارهم بما ذكروه ولما أضاف اليه من عنده مايؤكده ويقربه الى القبول ﴿قال الله﴾ استئناف كما سبق ﴿انى منزلها عليكم﴾ ورود الاجابة منه تعالى بصيغة التفعيل المنبئة عن التكثير مع كون الدعاء منه عليه السلام بصيغة الافعال لاظهار كمال اللطف والاحسان كما فى قوله تعالى قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب الخ بعد قوله تعالى لئن أنجانا من هذه الخ مع مافيه من مراعاة ماوقع فى عبارة السائلين وفى تصدير الجملة بكلمة التحقيق وجعل خبرها اسما تحقيق للوعد وايذان بأنه تعالى منجز له لامحالة من غير صارف يثنيه ولامانع يلويه واشعار بالاستمرار أى انى منزل المائدة عليكم مرات كثيرة وقرئ بالتخفيف وقيل الانزال والتنزيل بمعنى واحد ﴿فمن يكفر بعد﴾ أى بعد تنزيلها ﴿منكم﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يكفر ﴿فانى أعذبه﴾ بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية الباهرة ﴿عذابا﴾ اسم مصدر بمعنى التعذيب وقيل مصدر بحذف الزوائد وانتصابه على المصدرية بالتقديرين المذكورين وجوز أن يكون مفعولا به على الاتساع وقوله تعالى ﴿لاأعذبه﴾ فى محل النصب على أنه صفة لعذابا والضمير له أى أعذبه تعذيبا لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿أحدا من العالمين﴾ أى من عالمى زمانهم أو من العالمين جميعا قيل لما سمعوا هذا الوعيد الشديد خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا لانريدها فلم تنزل وبه قال مجاهد والحسن رحمهما الله والصحيح الذى عليه جماهير الامة ومشاهير الأئمة أنها قد

نزلت . روى أنه عليه السلام لما دعا بما دعا وأجيب بما اجيب اذا بسفرة حمراء نزلت بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون اليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة للعالمين ولا تجعلها مثلة وعقوبة ثم قام وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسما وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث واذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون رأس الحواريين يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة قال ليس منهما ولكنه شىء اخترعه الله تعالى بالقدرة العالية كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله فقالوا يا روح الله لو أرينا من هذه الآية آية أخرى فقال يا سمكة احيي باذن الله فاضطربت ثم قال لها عودى كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة ثم عصوا فمسخوا قردة وخنازير وقيل كانت تأتيهم أربعين يوما غبا يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى اذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون فى ظلها ولم يأكل منها فقير الاغنى مدة عمره ولا مريض الا برىء ولم يمرض أبدا ثم أوحى الله تعالى الى عيسى عليه الصلاة والسلام أن اجعل مائدتى فى الفقراء والمرضى دون الأغنياء والاصحاء فاضطرب الناس لذلك فمسخ منهم من مسخ فأصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات ويأكلون العذرة فى الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا الى عيسى عليه السلام وبكوا على الممسوخين فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيكون ويشيرون برؤسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عيسى عليه السلام قال لهم صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ماشئتم يعطكم فصاموا فلما فرغوا قالوا انا لو عملنا لاحد فقضينا عمله لأطعمنا وسألوا الله تعالى المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم قال كعب نزلت منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل الطعام الا اللحم وقال قتادة كان عليها ثمر من ثمار الجنة وقال عطية العوفى نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شىء وقال الكلبى ومقاتل نزلت سمكة وخمسة أرغفة فأكلوا ماشاء الله تعالى والناس ألف ونيف فلما رجعوا الى قراهم ونشروا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقالوا ويحكم انما سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن أراد فتنته رجع الى كفره فمسخوا خنازير فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ ﴿واذ قال الله ياعيسى ابن مريم﴾ معطوف على اذ قال الحواريون منصوب بما نصبه من المضمر المخاطب به النبى صلى الله عليه وسلم أو بمضمر مستقل معطوف على ذلك أى اذكر للناس وقت قول الله عز وجل له عليه السلام فى الآخرة توبيخا للكفرة وتبكيتا لهم بأقراره عليه السلام على رؤس الاشهاد بالعبودية وأمره لهم بعبادته عز وجل وصيغة الماضى لما مر من الدلالة على التحقق والوقوع ﴿أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين﴾ الاتخاذ اما متعد الى مفعولين فالهين ثانيهما واما الى واحد فهو حال من المفعول وليس مدار أصل الكلام أن القول متيقن والاستفهام لتعيين القائل كما هو المتبادر من ايلاء الهمزة المبتدأ على الاستعمال الفاشى وعليه قوله تعالى أأنت فعلت هذا بآلهتنا ونظائره بل على أن المتيقن هو الاتخاذ والاستفهام لتعيين أنه بأمره عليه السلام أو من تلقاء أنفسهم كما فى قوله تعالى أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل وقوله تعالى ﴿من دون الله﴾ متعلق بالاتخاذ ومحله النصب على أنه حال من فاعله أى متجاوزين الله أو بمحذوف هو صفة لالهين أى كائنين من دونه تعالى وأيا ما كان فالمراد اتخاذهما بطريق اشراكهما به سبحانه كما فى قوله تعالى ومن الناس

من يتخذ من دون الله أندادا وقوله عز وجل ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله الى قوله سبحانه وتعالى عما يشركون اذ به يتأتى التوبيخ ويتسنى التقريع والتبكيت ومن توهم أن ذلك بطريق الاستقلال ثم اعتذر عنه بأن النصارى يعتقدون أن المعجزات التى ظهرت على يد عيسى ومريم عليهما الصلاة والسلام لم يخلقها الله تعالى بل هما خلقاها فصح أنهم اتخذوهما فى حق بعض الأشياء الهين مستقلين ولم يتخذوه تعالى الها فى حق ذلك البعض فقد أبعد عن الحق بمراحل وأما من تعمق فقال ان عبادته تعالى مع عبادة غيره كلا عبادة فمن عبده تعالى مع عبادتهما كأنه عبدهما ولم يعبده تعالى فقد غفل عما يحديه واشتغل بما لا يعنيه كدأب من قبله فان توبيخهم انما يحصل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحا لا بما يلزمه بضرب من التأويل واظهار الاسم الجليل لكونه فى حيز القول المسند الى عيسى عليه السلام ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فماذا يقول عيسى عليه السلام حينئذ فقيل يقول وايثار صيغة الماضى لما مر مرارا ﴿سبحانك﴾ سبحان علم للتسبيح وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه وفيه من المبالغة فى التنزيه من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الأرض ومن جهة النقل الى صيغة التفعيل ومن جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة المشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى أى أنزهك تنزيها لائقا بك من أن أقول ذلك أو من أن يقال فى حقك ذلك وأما تقدير من أن يكون لك شريك فى الالوهية فلا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى ﴿ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق﴾ استئناف مقرر للتنزيه ومبين للمنزه منه وما عبارة عن القول المذكور أى ما يستقيم وما ينبغى لى أن أقول قولا لا يحق لى أن أقوله وايثار ليس على الفعل المنفى لظهور دلالته على استمرار انتفاء الحقية وافادة التأكيد بما فى حيزه من الباء فان اسمه ضميره العائد الى ما وخبره بحق والجار والمجرور فيما بينهما للتبيين كما فى سقيا لك ونحوه وقوله تعالى ﴿ان كنت قلته فقد علمته﴾ استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام بالطريق البرهانى فان صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعا فحيث انتفى علمه تعالى به انتفى صدوره عنه حتما ضرورة أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم ﴿تعلم ما فى نفسى﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله كأنه قيل لانك تعلم ما أخفيه فى نفسى فكيف بما أعلنه وقوله تعالى ﴿ولا أعلم ما فى نفسك﴾ بيان للواقع واظهار لقصوره أى ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك وقوله فى نفسك للمشاكلة وقيل المراد بالنفس هو الذات ونسبة المعلومات اليها لما أنها مرجع الصفات التى من جملتها العلم المتعلق بها فلم يكن كنسبتها الى الحقيقة وقوله تعالى ﴿انك أنت علام الغيوب﴾ تعليل لمضمون الجملتين منطوقا ومفهوما وقوله تعالى ﴿ما قلت لهم الا ما أمرتنى به﴾ استئناف مسوق لبيان ما صدر عنه قد أدرج فيه عدم صدور القول المذكور عنه على أبلغ وجه وآكده حيث حكم بانتفاء صدور جميع الأقوال المغايرة للمأمور به فدخل فيه انتفاء صدور القول المذكور دخولا أوليا أى ما أمرتهم الا بما أمرتنى به وانما قيل ما قلت لهم نزولا على قضية حسن الأدب ومراعاة لما ورد فى الاستفهام وقوله تعالى ﴿أن اعبدوا الله ربى وربكم﴾ تفسير للمأمور به وقيل عطف بيان للضمير فى به وقيل بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقا ليلزم بقاء الموصول بلا عائد وقيل خبر مضمر أو مفعوله مثل هو أو أعنى ﴿وكنت عليهم شهيدا﴾ رقيبا أراعى أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك وأمنعهم عن المخالفة أو مشاهدا لاحوالهم من كفر وايمان ﴿ما دمت فيهم﴾ ما مصدرية ظرفية تقدر بمصدر مضاف اليه زمان ودمت صلتها أى كنت شهيدا عليهم مدة دوامى فيما بينهم ﴿فلما توفيتنى﴾ بالرفع الى السماء كما فى قوله تعالى انى متوفيك ورافعك الى فان التوفى أخذ الشىء وافيا

والموت نوع منه قال تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾ لاغيرك فأنت ضمير الفصل أوتأكيد وقرئ الرقيب بالرفع على أنه خبر أنت والجملة خبر لكان وعليهم متعلق به أى أنت كنت الحافظ لأعمالهم والمراقب فمنعت من أردت عصمته عن المخالفة بالارشاد الى الدلائل والتنبيه عليها بارسال الرسل وانزال الآيات وخذلت من خذلت من الضالين فقالوا ماقالوا ﴿وأنت على كل شئ شهيد﴾ اعتراض تذييلى مقرر لماقبله وفيه ايذان بأنه تعالى كان هو الشهيد على الكل حين كونه عليه السلام فيما بينهم وعلى متعلقة بشهيد والتقديم لمراعاة الفاصلة ﴿ان تعذبهم فانهم عبادك﴾ وقداستحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك ﴿وان تغفرلهم فانك أنت العزيز﴾ أى القوى القادر على جميع المقدورات ومن جملتها الثواب والعقاب ﴿الحكيم﴾ الذى لايريد ولا يفعل الاما فيه حكمة ومصلحة فان المغفرة مستحسنة لكل مجرم فان عذبت فعدل وان غفرت ففضل وعدم غفران الشرك انما هو بمقتضى الوعيد فلاامتناع فيه لذاته ليمنع الترديد وقيل الترديد بالنسبة الى فرقتين والمعنى ان تعذبهم أى من كفر منهم وان تغفر لهم أى من آمن منهم ﴿قال الله﴾ كلام مستأنف ختم به حكاية ماحكى مما يقع يوم يجمع الله الرسل عليهم الصلاة والسلام واشير الى نتيجته ومآله أى يقول الله تعالى يومئذ عقيب جواب عيسى عليه السلام مشيرا الى صدقه فى ضمن بيان حال الصادقين الذين هو فى زمرتهم وصيغة الماضى لمامر فى نظائره مرارا وقوله تعالى ﴿هذا﴾ اشارة الى ذلك اليوم وهو مبتدأ خبره مابعده أى هذا اليوم الذى حكى بعض مايقع فيه اجمالا و بعضه تفصيلا ﴿يوم ينفع الصادقين﴾ بالرفع والاضافة والمراد بالصادقين كما ينبئ عنه الاسم المستمرون فى الدارين على الصدق فى الامور الدينية التى معظمها التوحيد الذى نحن بصدده والشرائع والأحكام المتعلقة به من الرسل الناطقين بالحق والصدق الداعين الى ذلك و به تحصل الشهادة بصدق عيسى عليه السلام ومن الامم المصدقين لهم المقتدين بهم عقدا وعملا و به يتحقق المقصود بالحكاية من ترغيب السامعين فى الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لا كل من صدق فى أى شئ كان ضرورة أن الجانى المعترف فى الدنيا بجنايته لاينفعه يومئذ اعترافه وصدقه ﴿صدقهم﴾ أى صدقهم فيما ذكر من أمور الدين فى الدنيا اذهو المستتبع للنفع يومئذ واعتبار استمراره فى الدارين مع أنه لاحاجة اليه كما عرفت ولادخل له فى استتباع النفع والجزاء مما لاوجه له وهذه القراءة هى التى أطبق عليها الجمهور وهى الأليق بسباق النظم الكريم وسياقه وقد قرئ يوم بالنصب اما على أنه ظرف لقال فهذا حينئذ اشارة الى قوله تعالى أأنت قلت الخ واما على أنه خبر لهذا فهو حينئذ اشارة الى جواب عيسى عليه السلام أى هذا الجواب منه عليه السلام واقع يوم ينفع الخ أو الى السؤال والجواب معا وقيل هو خبر ولكنه بنى على الفتح وليس بصحيح عند البصريين لأنه مضاف الى متمكن وقرئ يوم بالرفع والتنوين كقوله تعالى واتقوا يوما لا تجزى الآية ﴿لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا﴾ استئناف مسوق لبيان النفع المذكور كأنه قيل ما لهم من النفع فقيل لهم نعيم دائم وثواب خالد وقوله تعالى ﴿رضى الله عنهم﴾ استئناف آخر لبيان أنه عز وجل أفاض عليهم غير ما ذكر من الجنات ما لا قدر لها عنده وهو رضوانه الذى لا غاية وراءه كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ورضوا عنه﴾ اذ لا شئ أعز منه حتى يمتد اليه أعناق الهمم ﴿ذلك﴾ اشارة الى نيل رضوانه تعالى وقيل الى نيل الكل ﴿الفوز العظيم﴾ لما أن عظم شأن الفوز تابع لعظم شأن المطلوب الذى تعلق به الفوز وقد عرفت أن لا مطلب وراء ذلك أصلا وقوله تعالى ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن﴾ تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد ما زعموا فى حق المسيح وأمه أى له تعالى خاصة ملك السموات والأرض وما فيهما من العقلاء وغيرهم يتصرف فيها كيف يشاء ايجادا واعداما احياء واماتة وأمرا ونهيا من غير أن يكون لشئ من

الأشياء مدخل فى ذلك وفى ايثار ما على من المختصة بالعقلاء على تقدير تناولها للكل مراعاة للاصل واشارة الى تساوى الفريقين فى استحالة الربوبية حسب تساويهما فى تحقق المربوبية وعلى تقدير اختصاصها بغير العقلاء تنبيه على كمال قصورهم عن رتبة الألوهية واهانة بهم بتغليب غيرهم عليهم ﴿وهو على كل شئ﴾ من الأشياء ﴿قدير﴾ مبالغ فى القدرة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المائدة أعطى من الأجر عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودى ونصرانى يتنفس فى الدنيا

سـورة الأنعام

مكية غير ست آيات أو ثلاث من قوله تعالى قل تعالوا أتل . وهى مائة وخمس وستون آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الحمد لله﴾ تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة أولا باسم الذات الذى عليه يدور كافة مايوجبه من صفات الكمال واليه يؤول جميع نعوت الجلال والجمال للايذان بأنه عز وجل هو المستحق له بذاته لما مر من اقتضاء اختصاص الحقيقة به سبحانه لاقتسار جميع أفرادها عليه بالطريق البرهانى و وصفه تعالى ثانيا بما ينبئ عن تفصيل بعض موجباته المنتظمة فى سلك الاجمال من عظائم الآثار وجلائل الأفعال من قوله عز وجل ﴿الذى خلق السموات والأرض﴾ للتنبيه على استحقاقه تعالى له واستقلاله به باعتبار أفعاله العظام وآلائه الجسام أيضا وتخصيص خلقهما بالذكر لاشتمالهما على جملة الآثار العلوية والسفلية وعمامة الآلاء الجلية والخفية التى أجلها نعمة الوجود الكافية فى ايجاب حمده تعالى على كل موجود فكيف بما يتفرع عليها من فنون النعم الأنفسية والآفاقية المنوط بها مصالح العباد فى المعاش والمعاد أى أنشأهما على ما هما عليه من النمط الفائق والطراز الرائق منطويتين من أنواع البدائع وأصناف الروائع على ما تتحير فيه العقول والأفكار من تعاجيب العبر والآثار تبصرة وذكرى لأولى الابصار وجمع السموات لظهور تعدد طبقاتها واختلاف آثارها وحركاتها وتقديمها لشرفها وعلو مكانها وتقدمها وجودا على الأرض كما هى ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ عطف على خلق مترتب عليه لكون جعلهما مسبوقا بخلق منشئهما ومحلهما داخل معه فى حكم الاشعار بعلة الحمد فكما أن خلق السموات والارض ومابينهما لكونه أثرا عظيما ونعمة جليلة موجب لاختصاص الحمد بخالقهما جل وعلا كذلك جعل الظلمات والنور لكونه أمرا خطيرا ونعمة عظيمة مقتض لاختصاصه بجاعلهما والجعل هو الانشاء والابداع كالخلق خلا أن ذلك مختص بالانشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما فى الآية الكريمة وللتشريعى أيضا كما فى قوله تعالى ما جعل الله من بحيرة الآية وأيا ما كان فهو انباء عن ملابسة مفعوله بشئ آخر بأن يكون فيه أو له أو منه أو نحو ذلك ملابسة مصححة لأن يتوسط بينهما شئ من الظروف لغوا كان أو مستقرا لكن لا على أن يكون عمدة فى الكلام بل قيدا فيه كما فى قوله عز وجل وجعل بينهما برزخا وقوله تعالى وجعل فيها رواسى وقوله تعالى واجعل لنا من لدنك وليا الآية فان كل واحد من هذه الظروف اما متعلق بنفس الجعل أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله تقدمت عليه لكونه نكرة وأيا ما كان فهو قيد فى الكلام حتى اذا اقتضى الحال وقوعه عمدة فيه يكون الجعل متعديا الى اثنين هو ثانيهما كما فى قوله تعالى يجعلون أصابعهم فى آذانهم و ربما يشتبه الامر فيظن أنه عمدة فيه وهو فى الحقيقة قيد بأحد الوجهين كما سلف فى قوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة حيث قيل ان الظرف مفعول ثان لجاعل وقد أشير هناك الى أن الذى يقضى به الذوق السليم وتقتضيه جزالة النظم الكريم أنه متعلق بجاعل أو بمحذوف وقع حالا من المفعول وأن المفعول

الثانى هوخليفة وأن الأول محذوف على ما مر تفصيله وجمع الظلمات لظهور كثرة أسبابها ومحالها عند الناس ومشاهدتهم لها على التفصيل وتقديمها على النور لتقدم الاعدام على الملكات مع ما فيه من رعاية حسن المقابلة بين القرينتين وقوله تعالى ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ معطوف على الجملة السابقة الناطقة بما مر من موجبات اختصاصه تعالى بالحمد المستدعى لاقتصار العبادة عليه كما حقق فى تفسير الفاتحة الكريمة مسوق لانكار ما عليه الكفرة واستبعاده من مخالفتهم لمضمونها واجترائهم على ما يقضى ببطلانه بديهة العقول والمعنى أنه تعالى مختص باستحقاق الحمد والعبادة باعتبار ذاته و باعتبار ما فصل من شئونه العظيمة الخاصة به الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه ثم هؤلاء الكفرة لا يعملون بموجبه و يعدلون به سبحانه أى يسوون به غيره فى العبادة التى هى أقصى غايات الشكر الذى رأسه الحمد مع كون كل ما سواه مخلوقا له غير متصف بشئ من مبادى الحمد وكلمة ثم لاستبعاد الشرك بعد وضوح ماذكر من الآيات التكوينية القاضية ببطلانه لا بعد بيانه بالآيات التنزيلية والموصول عبارة عن طائفة الكفار جارٍ مجرى الاسم لهم من غير أن يجعل كفرهم بما يجب أن يؤمن به كلا أو بعضا عنوانا للموضوع فان ذلك مخل باستبعاد ما أسند اليهم من الاشراك والباء متعلقة بيعدلون ووضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح والتقديم لمزيد الاهتمام والمسارعة الى تحقيق مدار الانكار والاستبعاد والمحافظة على الفواصل وترك المفعول لظهوره أو لتوجيه الانكار الى نفس الفعل بتنزيله منزلة اللازم ايذانا بأنه المدار فى الاستبعاد والاستنكار لا خصوصية المفعول هذا هو الحقيق بجزالة التنزيل والخليق بفخامة شأنه الجليل وأما جعل الباء صلة لكفروا على أن يعدلون من العدول والمعنى أن الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته فيرده أن كفرهم به تعالى لاسيما باعتبار ربوبيته تعالى لهم أشد شناعة وأعظم جناية من عدولهم عن حمده عز وجل لتحققه مع اغفاله أيضا فجعل أهون الشرين عمدة فى الكلام مقصود الافادة واخراج أعظمهما مخرج القيد المفروغ عنه مما لا عهد له فى الكلام السديد فكيف بالنظم التنزيلى هذا وقد قيل انه معطوف على خلق السموات والمعنى أنه تعالى خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به سبحانه مالا يقدر على شئ منه لكن لا على قصد أنه صلة مستقلة ليكون بمنزلة أن يقال الحمد لله الذى عدلوا به بل على أنه داخل تحت الصلة بحيث يكون الكل صلة واحدة كأنه قيل الحمد لله الذى كان منه تلك النعم العظام ثم من الكفرة الكفر وأنت خبير بأن ما ينتظم فى سلك الصلة المنبئة عن موجبات حمده عز وجل حقه أن يكون له دخل فى ذلك الانباء ولو فى الجملة ولا ريب فى أن كفرهم بمعزل منه وادعاء أن له دخلا فيه لدلالته على كمال الجود كأنه قيل الحمد لله الذى أنعم بمثل هذه النعم العظام على من لا يحمده تعسف لا يساعده النظام وتعكيس يأباه المقام كيف لا ومساق النظم الكريم كما تفصح عنه الآيات الآتية تشنيع الكفرة وتوبيخهم ببيان غاية اساءتهم مع نهاية احسانه تعالى اليهم لا ببيان نهاية احسانه تعالى اليهم مع غاية اساءتهم فى حقه تعالى كما يقتضيه الادعاء المذكور وبهذا اتضح أنه لا سبيل الى جعل المعطوف من روادف المعطوف عليه لما أن حق الصلة أن تكون غير مقصودة الافادة فما ظنك بما هو من روادفها وقد عرفت أن المعطوف هو الذى سيق له الكلام فتأمل وكن على الحق المبين ﴿هو الذى خلقكم من طين﴾ استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث مع مشاهدتهم لما يوجب الايمان به اثر بيان بطلان اشراكهم به تعالى مع معاينتهم لموجبات توحيده وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث مع أن ماذكر من خلق السموات والارض من أوضحها وأظهرها كما ورد فى قوله تعالى أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم لما أن محل النزاع بعثهم فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر وهم بشئون أنفسهم أعرف والتعامى

عن الحجة النيرة أقبح والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ أى ابتدأ خلقكم منه فانه المادة الأولى للكل لما أنه منشأ آدم الذى هو أبو البشر وانما نسب هذا الخلق الى المخاطبين لا الى آدم عليه السلام وهو المخلوق منه حقيقة بأن يقال هو الذى خلق أباكم الخ مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه فى ايجاب الايمان بالبعث و بطلان الامتراء لتوضيح منهاج القياس وللمبالغة فى ازاحة الاشتباه والالتباس مع مافيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمة خفية هى أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من انشائه عليه السلام منه حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكأن خلقه عليه السلام من الطين خلقا لكل أحد من فروعه منه ولما كان خلقه على هذا النمط السارى الى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم قدرة الخلاق العليم وكمال علمه وحكمته وكان ابتداء حال المخاطبين أولى بأن يكون معيارا لانتهائها فعل مافعل ولله در شأن التنزيل وعلى هذا السر مدار قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم الخ وقوله تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا كما سيأتى وقيل المعنى خلق أباكم منه على حذف المضاف وقيل معنى خلقهم منه خلقهم من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الارض وأياما كان ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث مالا يخفى فان من قدر على احياء مالم يشم رائحة الحياة قط كان على احياء ماقارنها مدة أظهر قدرة ﴿ثم قضى﴾ أى كتب لموت كل واحد منكم ﴿أجلا﴾ خاصا به أى حدا معينا من الزمان ينفى عند حلوله لامحالة وكلمة ثم للايذان بتفاوت مابين خلقهم و بين تقدير آجالهم حسبما تقتضيه الحكم البالغة ﴿وأجل مسمى﴾ أى حد معين لبعثكم جميعا وهو مبتدأ لتخصصه بالصفة كما فى قوله تعالى ولعبد مؤمن ولوقوعه فى موقع التفصيل كما فى قول من قال

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وشق عندنا لم يحول

وتنوينه لتفخيم شأنه وتهويل أمره ولذلك أوثر تقديمه على الخبر الذى هو ﴿عنده﴾ مع أن الشائع المستفيض هو التأخير كما فى قولك عندى كلام حق ولى كتاب نفيس كأنه قيل وأى أجل مسمى مثبت معين فى علمه لا يتغير ولا يقف على وقت حلوله أحد لا مجملا ولا مفصلا وأما أجل الموت فمعلوم اجمالا وتقريبا بناء على ظهور أماراته أو على ماهو المعتاد فى اعمار الانسان وتسميته أجلا انما هى باعتبار كونه غاية لمدة لبثهم فى القبور لا باعتبار كونه مبدأ لمدة القيامة كما أن مدار التسمية فى الأجل الأول هو كونه آخر مدة الحياة لا كونه أول مدة الممات لما أن الأجل فى اللغة عبارة عن آخر المدة لا عن أولها وقيل الأجل الأول مابين الخلق والموت والثانى مابين الموت والبعث من البرزخ فان الأجل كما يطلق على آخر المدة يطلق على كلها وهو الأوفق لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله تعالى قضى لكل أحد أجلين أجلا من مولده الى موته وأجلا من موته الى مبعثه فان كان برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث فى أجل العمر وان كان فاجرا قاطعا نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث وذلك قوله تعالى وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب فمعنى عدم تغير الأجل حينئذ عدم تغير آخره والأول هو الأشهر الاليق بتفخيم الأجل الثانى المنوط باختصاصه بعلمه تعالى والأنسب بتهويله المبنى على مقارنته للطامة الكبرى فان كون بعضه معلوما للخلق ومضيه من غير أن يقع فيه شئ من الدواهى كما يستلزمه الحمل على المعنى الثانى مخل بذلك قطعا ومعنى زيادة الأجل ونقصه فيما روى تأخير الأجل الأول وتقديمه ﴿ثم أنتم تمترون﴾ استبعاد واستنكار لامترائهم فى البعث بعد معاينتهم لما ذكر من الحجج الباهرة الدالة عليه أى تمترون فى وقوعه وتحققه فى نفسه مع مشاهدتكم فى أنفسكم من الشواهد ما يقطع مادة الامتراء بالكلية فان من قدر على افاضة الحياة وما يتفرع عليها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة لشئ منها أصلا

كان أوضح اقتدارا على افاضتها على مادة قد استعدت لها وقارنتها مدة ومن ههنا تبين أن ماقيل من أن الأجل الأول هو النوم والثانى هو الموت أو أن الأول أجل الماضين والثانى أجل الباقين أو أن الأول مقدار مامضى من عمر كل أحد والثانى مقدار مابقى منه مما لا وجه له أصلا لما رأيت من أن مساق النظم الكريم استبعاد امترائهم فى البعث الذى عبر عن وقته بالأجل المسمى فحيث أريد به أحد ماذكر من الأمور الثلاثة فنى أى شئ يمترون ووصفهم بالامتراء الذى هو الشك وتوجيه الاستبعاد اليه مع أنهم جازمون بانتفاء البعث مصرون على انكاره كما ينبئ عنه قولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ونظائره للدلالة على أن جزمهم المذكور فى أقصى مراتب الاستبعاد والاستنكار وقوله تعالى ﴿وهو الله﴾ جملة من مبتدا وخبر معطوفة على ماقبلها مسوقة لبيان شمول أحكام الهيته تعالى لجميع المخلوقات واحاطة علمه بتفاصيل أحوال العباد وأعمالهم المؤدية الى الجزاء اثر الاشارة الى تحقق المعاد فى تضاعيف بيان كيفية خلقهم وتقدير آجالهم وقوله تعالى ﴿فى السموات وفى الارض﴾ متعلق بالمعنى الوصفى الذى ينبئ عنه الاسم الجليل اما باعتبار أصل اشتقاقه وكونه علما للمعبود بالحق كأنه قيل وهو المعبود فيهما واما باعتبار أنه اسم اشتهر بما اشتهرت به الذات من صفات الكمال فلوحظ معه منها مايقتضيه المقام من المالكية الكلية والتصرف الكامل حسبما تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة فعلق به الظرف من تلك الحيثية فصار كأنه قيل وهو المالك أو المتصرف المدبر فيهما كما فى قوله تعالى وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله وليس المراد بما ذكر من الاعتبارين أن الاسم الجليل يحمل على معناه اللغوى أو على معنى المالك أو المتصرف أو نحو ذلك بل مجرد ملاحظة أحد المعانى المذكورة فى ضمنه كما لوحظ مع اسم الأسد فى قوله أسد على الخ ما اشتهر به من وصف الجراءة التى اشتهر بها مسماه فجرى مجرى علم وبهذا تبين أن ماقيل بصدد التصوير والتفسير أى هو المعروف بذلك فى السموات وفى الارض أو هو المعروف المشتهر بالصفات الكمالية أو هو المعروف بالالهية فيهما أو نحو ذلك بمعزل من التحقيق فان المعتبر مع الاسم هو نفس الوصف الذى اشتهر به اذ هو الذى يقتضيه المقام حسبما بين آنفا لاشتهاره به ألا يرى أن كلمة على فى المثال المذكور لا يمكن تعليقها باشتهار الاسم بالجراءة قطعا وقيل هو متعلق بما يفيده التركيب الحصرى من التوحد والتفرد كأنه قيل وهو المتوحد بالالهية فيهما وقيل بما تقرر عند الكل من اطلاق هذا الاسم عليه خاصة كأنه قيل وهو الذى يقال له الله فيهما لا يشرك به شئ فى هذا الاسم على الوجه الذى سبق من اعتبار معنى التوحد أو القول فى نحوى الكلام بطريق الاستتباع لا على حمل الاسم الجليل على معنى المتوحد بالالهية أو على تقدير القول وقد جوز أن يكون الظرف خبرا ثانيا على أن كونه سبحانه فيهما عبارة عن كونه تعالى مبالغا فى العلم بما فيهما بناء على تنزيل علمه المقدس عن حصول الصور والاشباح لكونه حضوريا منزلة كونه تعالى فيهما وتصويره به على طريقة التمثيل المبنى على تشبيه حالة علمه تعالى بما فيهما بحالة كونه تعالى فيهما فان العالم اذا كان فى مكان كان عالما به وبما فيه على وجه لا يخفى عليه منه شئ فعلى هذا يكون قوله عز وجل ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ أى ما أسررتموه وما جهرتم به من الأقوال أو ما أسررتموه وما أعلنتموه كائنا ما كان من الأقوال والأعمال بيانا وتقريرا لمضمونه وتحقيقا للمعنى المراد منه وتعليق علمه عز وجل بما ذكر خاصة مع شموله لجميع مافيهما حسبما تفيده الجملة السابقة لانسياق النظم الكريم الى بيان حال المخاطبين وكذا على الوجه الثانى فان ملاحظة الاسم الجليل من حيث المالكية الكلية والتصرف الكامل الجارى على النمط المذكور مستتبعة لملاحظة علمه المحيط حتما فيكون هذا بيانا وتقريرا له بلا ريب وأما على الأوجه الثلاثة الباقية فلا سبيل الى كونه بيانا لكن لا لما قيل من أنه لا دلالة لاستواء السر والجهر فى علمه تعالى على ما اعتبر فيهما من المعبودية والاختصاص بهذا الاسم اذ ربما يعبد ويختص به من ليس له كمال العلم فانه باطل قطعا اذ المراد

بما ذكر هو المعبودية بالحق والاختصاص بالاسم الجليل ولا ريب فى أنهما مما لا يتصور فيمن ليس له كمال العلم بديهة بل لان ماذكر من العلم غير معتبر فى مدلول شئ من المعبودية بالحق والاختصاص بالاسم حتى يكون هذا بيانا له وبهذا تبين أنه ليس ببيان على الوجه الثالث أيضا لما أن التوحد بالالهية لا يعتبر فى مفهومه العلم الكامل ليكون هذا بيانا له بل هو معتبر فيما صدق عليه المتوحد وذلك غير كاف فى البيانية وقيل هو خبر بعد خبر عند من يجوز كون الخبر الثانى جملة كما فى قوله تعالى فاذا هى حية تسعى وقيل هو الخبر والاسم الجليل بدل من هو وبه يتعلق الظرف المتقدم ويكفى فى ذلك كون المعلوم فيهما كما فى قولك رميت الصيد فى الحرم اذا كان هو فيه وأنت خارجه ولعل جعل سرهم وجهرهم فيهما لتوسيع الدائرة وتصوير أنه لا يعزب عن علمه شئ منهما فى أى مكان كان لا لانهما قد يكونان فى السموات أيضا وتعميم الخطاب لاهلها تعسف لا يخفى ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ أى ما تفعلونه لجلب نفع أو دفع ضر من الأعمال المكتسبة بالقلوب أو بالجوارح سرا أو علانية وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فيما سبق على التفسير الثانى للسر والجهر لاظهار كمال الاعتناء بها لأنها التى يتعلق بها الجزاء وهو السر فى اعادة يعلم ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ كلام مستأنف وارد لبيان كفرهم بآيات الله واعراضهم عنها بالكلية بعد ما بين فى الآية الاولى اشراكهم بالله سبحانه واعراضهم عن بعض آيات التوحيد وفى الآية الثانية امتراؤهم فى البعث واعراضهم عن بعض آياته والالتفات للاشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحا وتعدد جناياتهم لغيرهم ذما لهم وتقبيحا لحالهم فمنافية وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو للدلالة على الاستمرار التجددى ومن الاولى مزيدة للاستغراق والثانية تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لآية واضافة الآيات الى اسم الرب المضاف الى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤا عليه فى حقها والمراد بها اما الآيات التنزيلية فاتيانها نزولها والمعنى مايأتيهم آية من الآيات القرآنية التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله عز وجل المنبئة عن جريان أحكام ألوهيته تعالى على كافة الكائنات واحاطة علمه بجميع أحوال الخلق وأعمالهم الموجبة للاقبال عليها والايمان بها ﴿الا كانوا عنها معرضين﴾ أى على وجه التكذيب والاستهزاء كما ستقف عليه وأما الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات فاتيانها ظهورها لهم والمعنى ما يظهر لهم آية من الآيات التكوينية التى من جملتها ماذكر من جلائل شئونه تعالى الشاهدة بوحدانيته الا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى الى الايمان بمكونها وايثاره على أن يقال الا أعرضوا عنها كما وقع مثله فى قوله تعالى وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر للدلالة على استمرارهم على الاعراض حسب استمرار اتيان الآيات وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل والجملة فى محل النصب على أنها حال من مفعول تأتى أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما وأيا ما كان ففيها دلالة بينة على كمال مسارعتهم الى الاعراض وايقاعهم له فى آن الاتيان كما يفصح عنه كلمة لما فى قوله تعالى ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ فان الحق عبارة عن القرآن الذى أعرضوا عنه حين أعرضوا عن كل آية آية منه عبر عنه بذلك ابانة لكمال قبح مافعلوا به فان تكذيب الحق مما لا يتصور صدوره عن أحد والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها لكن لا على أنها شئ مغاير له فى الحقيقة واقع عقيبه أو حاصل بسببه بل على أن الأول هو عين الثانى حقيقة وانما الترتيب بحسب التغاير الاعتبارى وقد لتحقيق ذلك المعنى كما فى قوله تعالى فقد جاؤا ظلما وزورا بعد قوله تعالى وقال الذين كفروا ان هذا الا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فان ماجاءوه أى فعلوه من الظلم والزور عين قولهم المحكى لكنه لما كان مغايرا له مفهوما وأشنع منه حالا رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لأمره كذلك مفهوم التكذيب بالحق حيث كان أشنع من مفهوم الاعراض المذكور أخرج مخرج اللازم البين البطلان فرتب

عليه بالفاء اظهارا لغاية بطلانه ثم قيد ذلك بكونه بلا تأمل تأكيدا لشناعته وتمهيدا لبيان أن ما كذبوا به آثر ذى أثير له عواقب جليلة ستبدو لهم البتة والمعنى أنهم حيث أعرضوا عن تلك الآيات عند اتيانها فقد كذبوا بما لا يمكن تكذيبه أصلا من غير أن يتدبروا فى حاله ومآله و يقفوا على مافى تضاعيفه من الشواهد الموجبة لتصديقه كقوله تعالى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن﴾ فان ما عبارة عن الحق المذكور عبر عنه بذلك تهويلا لأمره بابهامه وتعليلا للحكم بما فى حيز الصلة وأنباؤه عبارة عما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة التى نطقت بها آيات الوعيد و فى لفظ الانباء ايذان بغاية العظم لما أن النبأ لا يطلق الا على خبر عظيم الوقع وحملها على العقوبات الآجلة أو على ظهور الاسلام وعلو كلمته يأباه الآيات الآتية وسوف لتأكيد مضمون الجملة وتقريره أى فسيأتيهم البتة وان تأخر مصداق أنباء الشئ الذى كانوا يكذبون به قبل من غير أن يتدبروا فى عواقبه وانما قيل يستهزؤن ايذانا بأن تكذيبهم كان مقرونا بالاستهزاء كما أشير اليه هذا على أن يراد بالآيات الآية القرآنية وهو الاظهر وأما ان أريد بها الآيات التكوينية فالفاء داخلة على علة جواب شرط محذوف والاعراض على حقيقته كأنه قيل ان كانوا معرضين عن تلك الآيات فلا تعجب فقد فعلوا بما هو أعظم منها ما هو أعظم من الاعراض حيث كذبوا بالحق الذى هو أعظم الآيات و لامساغ لحمل الآيات فى هذا الوجه على كلها أصلا وأما ماقيل من أن المعنى أنهم لما كانوا معرضين عن الآيات كلها كذبوا بالقرآن فمما ينبغى تنزيه التنزيل عن أمثاله ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ استئناف مسوق لتعيين ماهو المراد بالانباء التى سبق بها الوعيد وتقرير اتيانها بطريق الاستشهاد وهمزة الانكار لتقرير الرؤية وهى عرفانية مستدعية لمفعول واحد وكم استفهامية كانت أو خبرية معلقة لها عن العمل مفيدة للتكثير سادة مع ما فى حيزها مسد مفعولها منصوبة بأهلكنا على المفعولية على أنها عبارة عن الاشخاص ومن قرن مميز لها على أنه عبارة عن أهل عصر من الاعصار سموا بذلك لاقترانهم برهة من الدهر كما فى قوله عليه الصلاة والسلام خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم الحديث وقيل هو عبارة عن مدة من الزمان والمضاف محذوف أى من أهل قرن وأما انتصابها على المصدرية أو على الظرفية على أنها عبارة عن المصدر أو عن الزمان فتعسف ظاهر ومن الاولى ابتدائية متعلقة بأهلكنا أى ألم يعرفوا بمعاينة الآثار وسماع الاخبار كم أمة أهلكنا من قبل أهل مكة أى من قبل خلقهم أو من قبل زمانهم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه كعاد وثمود وأضرابهم وقوله تعالى ﴿مكناهم فى الارض﴾ استئناف لبيان كيفية الاهلاك وتفصيل مباديه مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل كيف كان ذلك فقيل مكناهم الخ وقيل هو صفة لقرن لما أن النكرة مفتقرة الى مخصص فاذا وليها مايصلح مخصصا لها تعين وصفيته لها وأنت خبير بأن تنوينه التفخيمى مغن له عن استدعاء الصفة على أن ذلك مع اقتضائه أن يكون مضمونه ومضمون ماعطف عليه من الجمل الاربع أمرا مفروغا عنه غير مقصود بسياق النظم مؤد الى اختلال النظم الكريم كيف لا والمعنى حينئذ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن موصوفين بكذا و كذا و باهلاكنا اياهم بذنوبهم وأنه بين الفساد وتمكين الشئ فى الارض جعله قارا فيها ولما لزمه جعلها مقراله ورد الاستعمال بكل منهما فقيل تارة مكنه فى الارض ومنه قوله تعالى ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وأخرى مكن له فى الارض ومنه قوله تعالى انا مكناله فى الارض حتى أجرى كل منهما مجرى الآخر ومنه قوله تعالى ﴿مالم نمكن لكم﴾ بعد قوله تعالى مكناهم فى الارض كأنه قيل فى الاول مكنا لهم أو فى الثانى مالم نمكنكم ومانكرة موصوفة بما بعدها من الجملة المنفية والعائد محذوف محلها النصب على المصدرية أى مكناهم تمكينا لم نمكنه لكم والالتفات لما فى مواجهتهم بضعف الحال مزيد بيان لشأن الفريقين ولدفع الاشتباه من أول الأمر عن مرجعى

الضميرين ﴿وأرسلنا السماء﴾ أى المطر أو السحاب أو المظلة لأنها مبدأ المطر ﴿عليهم﴾ متعلق بأرسلنا ﴿مدرارا﴾ أى مغزارا حال من السماء ﴿وجعلنا الانهار﴾ أى صيرناها فقوله تعالى ﴿تجرى من تحتهم﴾ مفعول ثان لجعلنا أو أنشأناها فهو حال من مفعوله ومن تحتهم متعلق بتجرى وفيه من الدلالة على كونها مسخرة لهم مستمرة على الجريان على الوجه المذكور ما ليس فى أن يقال وأجرينا الانهار من تحتهم وليس المراد بتعداد هاتيك النعم العظام الفائضة عليهم بعد ذكر تمكينهم بيان عظم جنايتهم فى كفرانها واستحقاقهم بذلك لأعظم العقوبات بل بيان حيازتهم لجميع أسباب نيل المآرب ومبادى الأمن والنجاة من المكاره والمعاطب وعدم اغناء ذلك عنهم شيأ والمعنى أعطيناهم من البسطة فى الاجسام والامتداد فى الاعمار والسعة من الاموال والاستظهار بأسباب الدنيا فى استجلاب المنافع واستدفاع المضار مالم نعط أهل مكة ففعلوا مافعلوا ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ أى أهلكنا كل قرن من تلك القرون بسبب مايخصهم من الذنوب فما أغنى عنهم تلك العدد والاسباب فسيحل بهؤلاء مثل ماحل بهم من العذاب وهذا كما ترى آخر ما به الاستشهاد والاعتبار وأما قوله سبحانه ﴿وأنشأنا من بعدهم﴾ أى أحدثنا من بعد اهلاك كل قرن ﴿قرنا آخرين﴾ بدلا من الهالكين فلبيان كمال قدرته تعالى وسعة سلطانه وأن ماذكر من اهلاك الأمم الكثيرة لم ينقص من ملكه شيأ بل كلما أهلك أمة أنشأ بدلها أخرى ﴿ولو نزلنا عليك﴾ جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب لبيان شدة شكيمتهم فى المكابرة ومايتفرع عليها من الاقاويل الباطلة اثر بيان اعراضهم عن آيات الله تعالى وتكذيبهم بالحق واستحقاقهم بذلك لنزول العذاب ونسبة التنزيل ههنا اليه عليه السلام مع نسبة اتيان الآيات ومجئ الحق فيما سبق اليهم للاشعار بقدحهم فى نبوته عليه السلام فى ضمن قدحهم فيما نزل عليه صريحا وقال الكلبى ومقاتل نزلت فى النضر بن الحرث وعبد الله بن أبى أمية ونوفل بن خويلد حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنك رسوله ﴿كتابا﴾ ان جعل اسما كالامام فقوله تعالى ﴿فى قرطاس﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له أى كتابا كائنا فى صحيفة وان جعل مصدرا بمعنى المكتوب فهو متعلق بنفسه ﴿فلمسوه﴾ أى الكتاب وقيل القرطاس وقوله تعالى ﴿بأيديهم﴾ مع ظهور أن اللمس لا يكون عادة الا بالايدى لزيادة التعيين ودفع احتمال التجوز الواقع فى قوله تعالى وأنا لمسنا السماء أى تفحصنا أى فمسوه بأيديهم بعد مارأوه بأعينهم بحيث لم يبق لهم فى شأنه اشتباه ولم يقدروا على الاعتذار بتسكير الابصار ﴿لقال الذين كفروا﴾ أى لقالوا وانما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على اتصافهم بما فى حيز الصلة من الكفر الذى لا يخفى حسن موقعه باعتبار مفهومه اللغوى أيضا ﴿ان هذا﴾ أى ماهذا مشيرين الى ذلك الكتاب ﴿الا سحر مبين﴾ أى بين كونه سحرا تعنتا وعنادا للحق بعد ظهوره كما هو دأب المفحم المحجوج وديدن المكابر اللجوج ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ شروع فى قدحهم فى نبوته عليه السلام صريحا بعد ما أشير الى قدحهم فيها ضمنا وقيل هو معطوف على جواب لو وليس بذاك لما أن تلك المقالة الشنعاء ليست مما يقدر صدوره عنهم على تقدير تنزيل الكتاب المذكور بل هى من أباطيلهم المحققة وخرافاتهم الملفقة التى يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل أى هلا أنزل عليه عليه السلام ملك بحيث نراه و يكلمنا أنه نبى حسبما نقل عنهم فيما روى عن الكلبى ومقاتل ونظيره قولهم لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ولما كان مدار هذا الاقتراح على شيئين انزال الملك كما هو وجعله معه عليه السلام نذيرا أجيب عنه بأن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الوجود أصلا لاشتماله على أمرين متباينين لا يجتمعان فى الوجود لما أن انزال الملك على صورته يقتضى انتفاء جعله نذيرا وجعله نذيرا يستدعى عدم انزاله على صورته لا محالة وقد أشير الى الاول بقوله تعالى ﴿ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر﴾ أى لو أنزلنا

ملكا على هيئته حسبما اقترحوه والحال أنه من هول المنظر بحيث لاتطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية ألايرى أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة و يفاوضونهم على الصور البشرية كضيف ابراهيم و لوط وخصم داود عليهم السلام وغير ذلك وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى القدسية فماظنك بمن عداهم من العوام فلو شاهدوه كذلك لقضى أمر هلاكهم بالكلية واستحال جعله نذيرا وهو مع كونه خلاف مطلوبهم مستلزم لاخلاء العالم عما عليه يدور نظام الدنيا والآخرة من ارسال الرسل وتأسيس الشرائع وقد قال سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وفيه كما ترى ايذان بانهم فى ذلك الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه وان عدم الاجابة اليه للبقيا عليهم وبناء الفعل الأول فى الجواب للفاعل الذى هو نون العظمة مع كونه فى السؤال مبنيا للمفعول لتهويل الأمر وتربية المهابة و بناء الثانى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وكلمة ثم فى قوله تعالى ﴿ثم لاينظرون﴾ أى لايمهلون بعد نزوله طرفة عين فضلا عن أن ينذروابه كما هو المقصود بالانذار للتنبيه على تفاوت مابين قضاء الأمر وعدم الانظار فان مفاجأة العذاب أشد من نفس العذاب وأشق وقيل فى سبب اهلاكهم أنهم اذا عاينوا الملك قدنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورته وهى آية لاشئ أبين منها ثم لم يؤمنوا لم يكن بدمن اهلاكهم وقيل انهم اذا رأوه يزول الاختيار الذى هو قاعدة التكليف فيجب اهلاكهم والى الثانى بقوله تعالى ﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا﴾ على أن الضمير الاول للنذير المفهوم من فحوى الكلام بمعونة المقام وانما لم يجعل للملك المذكور قبله بأن يعكس ترتيب المفعولين و يقال ولو جعلناه نذيرا لجعلناه رجلا مع فهم المراد منه أيضا لتحقيق أن مناط ابراز الجعل الأول فى معرض الفرض والتقدير ومدار استلزامه للثانى انما هو ملكية النذير لانذيرية الملك وذلك لأن الجعل حقه أن يكون مفعوله الأول مبتدأ والثانى خبرا لكونه بمعنى التصيير المنقول من صار الداخل على المبتدا والخبر ولاريب فى أن مصب الفائدة ومدار اللزوم بين طرفى الشرطية هو محمول المقدم لا موضوعه فحيث كانت امتناعية أريد بها بيان انتفاء الجعل الأول لاستلزامه المحذور الذى هو الجعل الثانى وجب أن يجعل مدار الاستلزام فى الاول مفعولا ثانيا لامحالة ولذلك جعل مقابله فى الجعل الثانى كذلك ابانة لكمال التنافى بينهما الموجب لانتفاء الملزوم والضمير الثانى للملك لا لما رجع اليه الأول والمعنى لوجعلنا النذير الذى اقترحوه ملكا لمثلنا ذلك الملك رجلا لما مر من عدم استطاعة الآحاد لمعاينة الملك على هيكله وفى ايثار رجلا على بشر الايذان بأن الجعل بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة وتعيين لما يقع به التمثيل وقوله تعالى ﴿وللبسنا عليهم﴾ عطف على جواب لو مبنى على الجواب الأول وقرئ بحذف لام الجواب اكتفاء بما فى المعطوف عليه يقال لبست الامر على القوم ألبسه اذا شبهته وجعلته مشكلا عليهم وأصله الستر بالثوب وقرئ الفعلان بالتشديد للمبالغة أى ولخلطنا عليهم بتمثيله رجلا ﴿ما يلبسون﴾ على أنفسهم حينئذ بأن يقولوا له انما أنت بشر ولست بملك ولو استدل على ملكيته بالقرآن المعجز الناطق بها أو بمعجزات أخر غير ملجئة الى التصديق لكذبوه كما كذبوا النبى عليه الصلاة والسلام ولو أظهر لهم صورته الاصلية لزم الامر الاول والتعبير عن تمثيله تعالى رجلا باللبس اما لكونه فى صورة اللبس أو لكونه سببا للبسهم أو لوقوعه فى صحبته بطريق المشاكلة وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكا كأنه قيل لوفعلناه لفعلنا ما لايليق بشأننا من لبس الامر عليهم وقد جوز أن يكون المعنى وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة فى كفرهم بآيات الله البينة ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من قومه وفى تصدير الجملة بلام القسم وحرف التحقيق من الاعتناء بها ما لايخفى وتنوين رسل للتفخيم والتكثير ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسل أى و بالله لقد استهزئ برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل

زمانك على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ﴿فحاق﴾ عقيبه أى أحاط أو نزل أو حل أو نحو ذلك فان معناه يدور على الشمول واللزوم ولايكاد يستعمل الا فى الشر والحيق ما يشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى ﴿بالذين سخروا منهم﴾ أى استهزؤا بهم من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذى هو قوله تعالى ﴿ما كانوا به يستهزؤن﴾ للمسارعة الى بيان لحوق الشر بهم وما اما موصولة مفيدة للتهويل أى فأحاط بهم الذى كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لأجله واما مصدرية أى فنزل بهم و بال استهزائهم وتقديم الجار والمجرور على الفعل لرعاية الفواصل ﴿قل سيروا فى الأرض﴾ بعد بيان ما فعلت الامم الخالية وما فعل بهم خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بانذار قومه وتذكيرهم باحوالهم الفظيعة تحذيرا لهم عما هم عليه وتكملة للتسلية بما فى ضمنه من العدة اللطيفة بأنه سيحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم الاولين ولقد أنجز ذلك يوم بدر أى انجاز أى سيروا فى الارض لتعرف أحوال أولئك الامم ﴿ثم انظروا﴾ أى تفكروا ﴿كيف كان عاقبة المكذبين﴾ وكلمة ثم اما لان النظر فى آثار الهالكين لايتسنى الا بعد انتهاء السير الى أماكنهم واما لابانة مابينهما من التفاوت فى مراتب الوجوب وهو الاظهر فان وجوب السير ليس الا لكونه وسيلة الى النظر كما يفصح عنه العطف بالفاء فى قوله عز وجل فانظروا الآية وأما أن الأمر الاول لاباحة السير للتجارة ونحوها والثانى لايجاب النظر فى آثارهم وثم لتباعد ما بين الواجب والمباح فلا يناسب المقام وكيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة النصب بنزع الخافض أى تفكروا فى أنهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال والعاقبة مصدر كالعافية ونظائرها وهى منتهى الأمر ومآله و وضع المكذبين موضع المستهزئين لتحقيق أن مدار اصابة ماأصابهم هو التكذيب لينزجر السامعون عنه لاعن الاستهزاء فقط مع بقاء التكذيب بحاله بناء على توهم أنه المدار فى ذلك ﴿قل﴾ لهم بطريق الالجاء والتبكيت ﴿لمن مافى السموات والارض﴾ من العقلاء وغيرهم أى لمن الكائنات جميعا خلقا وملكا وتصرفا وقوله تعالى ﴿قل لله﴾ تقرير لهم وتنبيه على أنه المتعين للجواب بالاتفاق بحيث لايأتى لاحد أن يجيب بغيره كما نطق به قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقوله تعالى ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ جملة مستقلة داخلة تحت الأمر ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق شمول ملكه وقدرته للكل مسوقة لبيان أنه تعالى رؤف بعباده لايعجل عليهم بالعقوبة و يقبل منهم التوبة والانابة وأن ماسبق ذكره ومالحق من أحكام الغضب ليس من مقتضيات ذاته تعالى بل من جهة الخلق كيف لا ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة وهداهم الى معرفته وتوحيده بنصب الآيات الانفسية والآفاقية وارسال الرسل وانزال الكتب المشحونة بالدعوة الى موجبات رضوانه والتحذير عن مقتضيات سخطه وقد بدلوا فطرة الله تبديلا وأعرضوا عن الآيات بالمرة وكذبوا بالكتب واستهزؤا بالرسل وماظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين ولولا شمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضا مسلك الغابرين ومعنى كتب الرحمة على نفسه أنه تعالى قضاها وأوجبها بطريق التفضل والاحسان على ذاته المقدسة بالذات لابتوسط شئ أصلا وقيل هو ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما قضى الله تعالى الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتى سبقت غضبى وعنه فى رواية أنه عليه الصلاة والسلام قال لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتابا فهو عنده فوق العرش ان رحمتى غلبت غضبى وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب ماأول شئ ابتدأه الله تعالى من خلقه فقال كعب كتب الله كتابا لم يكتبه بقلم ولا مداد كتابة الزبرجد واللؤلؤ والياقوت انى أنا الله لا اله الا أنا سبقت رحمتى غضبى ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقا بالخلق وأكثر وصولا اليهم مع أنها من مقتضيات الذات المفيضة للخير و فى التعبير عن الذات بالنفس حجة على من ادعى أن لفظ النفس لايطلق

على الله تعالى وان أريد به الذات الا مشاكلة لما ترى من انتفاء المشاكلة ههنا بنوعيها وقوله تعالى ﴿ليجمعنكم الى يوم القيامة﴾ جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق للوعيد على اشراكهم واغفالهم النظر أى والله ليجمعنكم فى القبور مبعوثين أو محشورين الى يوم القيامة فيجازيكم على شرككم وسائر معاصيكم وان أمهلكم بموجب رحمته ولم يعاجلكم بالعقوبة الدنيوية وقيل الى بمعنى اللام أى ليجمعنكم ليوم القيامة كقوله تعالى انك جامع الناس ليوم لاريب فيه وقيل هى بمعنى فى أى ليجمعنكم فى يوم القيامة ﴿لاريب فيه﴾ أى فى اليوم أو فى الجمع وقوله تعالى ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أى يتضييع رأس مالهم وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام واستماع الوحى وغير ذلك من آثار الرحمة فى موضع النصب أو الرفع على الذم أى أعنى الذين الخ أوهم الذين الخ أو هو مبتدأ والخبر قوله تعالى ﴿فهم لايؤمنون﴾ والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط والاشعار بأن عدم ايمانهم بسبب خسرانهم فان ابطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك فى التقليد واغفال النظر أدى بهم الى الاصرار على الكفر والامتناع من الايمان والجملة تذييل مسوق من جهته تعالى لتقبيح حالهم غير داخل تحت الامر ﴿وله﴾ أى لله عز وجل خاصة ﴿ماسكن فى الليل والنهار﴾ نزل الملوان منزلة المكان فعبر عن نسبة الاشياء الزمانية اليهما بالسكنى فيهما وتعديته بكلمة فى كما فى قوله تعالى وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم أو السكون مقابل الحركة والمراد ماسكن فيهما أو تحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر ﴿وهو السميع﴾ المبالغ فى سماع كل مسموع ﴿العليم﴾ المبالغ فى العلم بكل معلوم فلا يخفى عليه شىء من الاقوال والافعال ﴿قل﴾ لهم بعد مابكتهم بما سبق من الخطاب ﴿أغير الله أتخذوليا﴾ أى معبودا بطريق الاستقلال أو الاشتراك وانما ساطت الهمزة على المفعول الأول لاعلى الفعل ايذانا بأن المنكر هو اتخاذ غير الله وليا لااتخاذ الولى مطلقا كما فى قوله تعالى أغير الله أبغى ربا وقوله تعالى أفغير الله تأمرونى أعبد الخ ﴿فاطر السموات والارض﴾ أى مبدعهما بالجر صفة للجلالة مؤكدة للانكار لانه بمعنى الماضى ولذلك قرىء فطر ولا يضر الفصل بينهما بالجملة لانها ليست بأجنبية اذ هى عاملة فى عامل الموصوف أو بدل فان الفصل بينه وبين المبدل منه أسهل لان البدل على نية تكرير العامل وقرىء بالرفع والنصب على المدح وعن ابن عباس رضى الله عنهما ماعرفت معنى الفاطر حتى اختصم الى أعرابيان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أى ابتدأتها ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ أى يرزق الخلق ولا يرزق وتخصيص الطعام بالذكر لشدة الحاجة اليه أو لانه معظم مايصل الى المرزوق من الرزق ومحل الجملة النصب على الحالية فان مضمونها مقرر لوجوب اتخاذه سبحانه وتعالى وليا وقرىء ولا يطعم بفتح الياء وبعكس القراءة الاولى أيضا على أن الضمير لغير الله والمعنى أأشرك بمن هو فاطر السموات والارض ماهو نازل عن رتبة الحيوانية وبينهما للفاعل على أن الثانى بمعنى يستطعم أو على معنى أنه يطعم تارة ولا يطعم أخرى كقوله تعالى يقبض ويبسط ﴿قل﴾ بعد بيان أن اتخاذ غيره تعالى وليا مما يقضى ببطلانه بديهة العقول ﴿انى أمرت﴾ من جنابه عز وجل ﴿أن أكون أول من أسلم﴾ وجهه لله مخلصا له لان النبى امام أمته فى الاسلام كقوله تعالى وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين وقوله تعالى سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين ﴿ولا تكونن﴾ أى وقيل لى ولاتكونن ﴿من المشركين﴾ أى فى أمر من أمور الدين ومعناه أمرت بالاسلام ونهيت عن الشرك وقد جوز عطفه على الامر ﴿قل انى أخاف ان عصيت ربى﴾ أى بمخالفة أمره ونهيه أى عصيان كان فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا وفيه بيان لكمال اجتنابه عليه السلام عن المعاصى على الاطلاق وقوله تعالى ﴿عذاب يوم عظيم﴾ أى عذاب يوم القيامة مفعول خاف والشرطية معترضة بينهما والجواب محذوف لدلالة ماقبله عليه وفيه قطع لاطماعهم الفارغة وتعريض بأنهم عصاة

مستوجبون للعذاب العظيم ﴿من يصرف عنه﴾ على البناء للمفعول أى العذاب وقرىء على البناء للفاعل والضمير لله سبحانه وقد قرىء بالاظهار والمفعول محذوف وقوله تعالى ﴿يومئذ﴾ ظرف للصرف أى فى ذلك اليوم العظيم وقد جوز أن يكون هو المفعول على قراءة البناء للفاعل بحذف المضاف أى عذاب يومئذ ﴿فقد رحمه﴾ أى نجاه وأنعم عليه وقيل فقد أدخله الجنة كما فى قوله تعالى فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز والجملة مستأنفة مؤكدة لتهويل العذاب وضمير عنه ورحمه لمن وهو عبارة عن غير العاصى ﴿وذلك﴾ اشارة الى الصرف أو الرحمة لأنها مؤولة بأن مع الفعل وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجته وبعد مكانه فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿الفوز المبين﴾ أى الظاهر كونه فوزا وهو الظفر بالبغية والألف واللام لقصره على ذلك ﴿وان يمسسك الله بضر﴾ أى بلية كمرض وفقر ونحو ذلك ﴿فلا كاشف له﴾ أى فلا قادر على كشفه عنك ﴿الا هو﴾ وحده ﴿وان يمسسك بخير﴾ من صحة ونعمة ونحو ذلك ﴿فهو على كل شىء قدير﴾ ومن جملته ذلك فيقدر عليه فيمسك به ويحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه أو على رفعه أحد كقوله تعالى فلا راد لفضله وحمله على تأكيد الجوابين يأباه الفاء . تذكرة روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ثم أردفنى خلفه ثم سار بى ميلا ثم التفت الى فقال ياغلام فقلت لبيك يارسول الله فقال احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة واذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله فقد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله عليك ماقدروا عليه فان استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان فى الصبر على ماتكره خيرا كثيرا واعلم أن النصر مع الصبر وأن مع الكرب فرجا وأن مع العسر يسرا ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة ﴿وهو الحكيم﴾ فى كل مايفعله ويأمر به ﴿الخبير﴾ بأحوال عباده وخفايا أمورهم واللام فى المواضع الثلاثة للقصر ﴿قل أى شىء أكبر شهادة﴾ روى أن قريشا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يامحمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول الله فنزلت فأى مبتدأ وأكبر خبره وشهادة نصب على التمييز وقوله تعالى ﴿قل الله﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بأن يتولى الجواب بنفسه اما للايذان بتعينه وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره أو لأنهم ربما يتلعثمون فيه لاالتردد فى أنه أكبر من كل شىء بل فى كونه شهيدا فى هذا الشأن وقوله تعالى ﴿شهيد﴾ خبر مبتدا محذوف أى هو شهيد ﴿بينى وبينكم﴾ ويجوز أن يكون الله شهيد بينى وبينكم هو الجواب لأنه اذا كان هو الشهيد بينه وبينهم كان أكبر شىء شهادة شهيدا له عليه الصلاة والسلام وتكرير البين لتحقيق المقابلة ﴿وأوحى الى﴾ أى من جهته تعالى ﴿هذا القرآن﴾ الشاهد بصحة رسالتى ﴿لأنذركم به﴾ بما فيه من الوعيد والاقتصار على ذكر الانذار لما أن الكلام مع الكفرة ﴿ومن بلغ﴾ عطف على ضمير المخاطبين أى لأنذركم به ياأهل مكة وسائر من بلغه من الاسود والأحمر أو من الثقلين أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد الى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين يوم نزوله ومن سيوجد بعد الى يوم القيامة خلا أن ذلك بطريق العبارة فى الكل عند الحنابلة وبالاجماع عندنا فى غير الموجودين وفى غير المكلفين يومئذ كما مر فى أول سورة النساء ﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ تقرير لهم مع انكار واستبعاد ﴿قل لاأشهد﴾ بذلك وان شهدتم به فانه باطل صرف ﴿قل﴾ تكرير للامر للتأكيد ﴿انما هو اله واحد﴾ أى بل انما أشهد أنه تعالى لااله الا هو ﴿وانى برىء مما تشركون﴾ من الاصنام أو من اشراككم

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ جواب عما سبق من قولهم لقد سألنا عنك اليهود والنصارى أخر عن تعيين الشهيد مسارعة الى الزامهم بالجواب عن تحكمهم بقولهم فأرنا من يشهد لك الخ والمراد بالموصول اليهود والنصارى و بالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والانجيل وايرادهم بعنوان ايتاء الكتاب للايذان بمدار ما أسند اليهم بقوله تعالى ﴿يعرفونه﴾ أى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة الكتابين بحليته ونعوته المذكورة فيهما ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ بحلاهم بحيث لا يشكون فى ذلك أصلا . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة قال عمر رضى الله عنه لعبد الله بن سلام أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآية وكيف هذه المعرفة فقال ياعمر لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابنى ولأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى لأنى لا أدرى ما صنع النساء وأشهد أنه حق من الله تعالى ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ من أهل الكتابين والمشركين بأن ضيعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها وأعرضوا عن البينات الموجبة للايمان بالكلية ﴿فهم لا يؤمنون﴾ لما أنهم مطبوع على قلوبهم ومحل الموصول الرفع على الابتداء وخبره الجملة المصدرة بالفاء لشبه الموصول بالشرط وقيل على أنه خبر مبتدا محذوف أى هم الذين خسروا الخ وقيل على أنه نعت للموصول الأول وقيل النصب على الذم فقوله تعالى فهم لا يؤمنون على الوجوه الأخيرة عطف على جملة الذين آتيناهم الكتاب الخ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ بوصفهم النبى الموعود فى الكتابين بخلاف أوصافه عليه الصلاة والسلام فانه افتراء على الله سبحانه و بقولهم الملائكة بنات الله وقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله ونحو ذلك وهو انكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساو يالله وان كان سبك التركيب غير متعرض لانكار المساواة ونفيها يشهد به العرف الفاشى والاستعمال المطرد فانه اذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل ألا يرى الى قوله عز و جل لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون بعد قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا الخ والسر فى ذلك أن النسبة بين الشيئين انما تتصور غالبا لاسيما فى باب المغالبة بالتفاوت زيادة ونقصانا فاذا لم يكن أحدهما أزيد يتحقق النقصان لامحالة ﴿أو كذب بآياته﴾ كأن كذبوا بالقرآن الذى من جملته الآية الناطقة بأنهم يعرفونه عليه الصلاة والسلام كما يعرفون أبناءهم و بالمعجزات وسموها سحرا وحرفوا التوراة وغيروا نعوته عليه الصلاة والسلام فان ذلك تكذيب بآياته تعالى وكلمة أو للايذان بأن كلا من الافتراء والتكذيب وحده بالغ غاية الافراط فى الظلم فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ونفوا ما أثبته قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿انه﴾ الضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع مافيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الأمر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل ان الشأن الخطير هذا هو ﴿لا يفلح الظالمون﴾ أى لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب واذا كان حال الظالمين هذا فما ظنك بمن فى الغاية القاصية من الظلم ﴿و يوم نحشرهم جميعا﴾ منصوب على الظرفية بمضمر مؤخر قد حذف ايذانا بضيق العبارة عن شرحه و بيانه وايماء الى عدم استطاعة السامعين لسماعه لكمال فظاعة مايقع فيه من الطامة والداهية التامة كأنه قيل و يوم نحشرهم جميعا ﴿ثم نقول﴾ لهم ما نقول كان من الأحوال والأهوال مالا يحيط به دائرة المقال وتقدير صيغة الماضى للدلالة على التحقق ولحسن موقع عطف قوله تعالى ثم لم تكن الخ عليه وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم أى واذكر لهم للتخويف والتحذير يوم نحشرهم الخ وقيل وليتقوا أو ليحذروا يوم نحشرهم الخ والضمير للكل وجميعا حال منه وقرئ يحشرهم جميعا ثم يقول بالياء فيهما ﴿للذين أشركوا﴾ أى نقول لهم خاصة للتوبيخ والتقريع على رؤس الأشهاد ﴿أين شركاؤكم﴾ أى

آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله سبحانه واضافتها اليهم لما أن شركتها ليست الا بتسميتهم وتقولهم الكاذب كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ أى تزعمونها شركاء فحذف المفعولان معا وهذا السؤال المنبئ عن غيبة الشركاء مع عموم الحشر لها لقوله تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله وغير ذلك من النصوص انما يقع بعد ما جرى بينها و بينهم من التبرؤ من الجانبين وتقطع ما بينهم من الأسباب والعلائق حسبما يحكيه قوله تعالى فزيلنا بينهم الخ ونحو ذلك من الآيات الكريمة اما بعدم حضورها حينئذ فى الحقيقة بابعادها من ذلك الموقف واما بتنزيل عدم حضورها بعنوان الشركة والشفاعة منزلة عدم حضورها فى الحقيقة اذ ليس السؤال عنها من حيث ذواتها بل انما هو من حيث انها شركاء كما يعرب عنه الوصف بالموصول و لا ريب فى أن عدم الوصف يوجب عدم الموصوف من حيث هو موصوف فهى من حيث هى شركاء غائبة لامحالة وان كانت حاضرة من حيث ذواتها أصناما كانت أو غيرها وأما ما يقال من أنه يحال بينها و بينهم فى وقت التوبيخ ليفقدوهم فى الساعة التى علقوا بها الرجاء فيها فيروا مكان خزيهم وحسرتهم فربما يشعر بعدم شعورهم بحقيقة الحال وعدم انقطاع حبال رجائهم عنها بعد وقد عرفت أنهم شاهدوها قبل ذلك وانصرمت عروة أطماعهم عنها بالكلية على أنها معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب فى البرزخ وانما الذى يحصل يوم الحشر الانكشاف الجلى واليقين القوى المترتب على المحاضرة والمحاورة ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ بتأنيث الفعل و رفع فتنتهم على أنه اسم له والخبر ﴿الا أن قالوا﴾ وقرئ بنصب فتنتهم على أنها الخبر والاسم الا أن قالوا والتأنيث للخبر كما فى قولهم من كانت أمك وقرئ بالتذكير مع رفع الفتنة ونصبها و رفعها أنسب بحسب المعنى والجملة عطف على ماقدر عاملا فى يوم نحشرهم كما أشير اليه فيما سلف والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء وفتنتهم اما كفرهم مرادا به عاقبته أى لم تكن عاقبة كفرهم الذى لزموه مدة أعمارهم وافتخروا به شيئا من الأشياء الا جحوده والتبرؤ منه بأن يقولوا ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ وأما جوابهم عبر عنه بالفتنة لأنه كذب و وصفه تعالى بربوبيته لهم للمبالغة فى التبرؤ من الاشراك وقرئ ربنا على النداء فهو لاظهار الضراعة والابتهال فى استدعاء قبول المعذرة وانما يقولون ذلك مع علمهم بأنه بمعزل من النفع رأسا من فرط الحيرة والدهش وحمله على معنى ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا فى الدنيا أنا على خطأ فى معتقدنا مما لا ينبغى أن يتوهم أصلا فانه مما يوهم أن لهم عذرا ما وأن لهم قدرة على الاعتذار فى الجملة وذلك مخل بكمال هول اليوم قطعا على أنه قد قضى ببطلانه قوله تعالى ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ فانه تعجيب من كذبهم الصريح بانكار صدور الاشراك عنهم فى الدنيا أى انظر كيف كذبوا على أنفسهم فى قولهم ذلك فانه أمر عجيب فى الغاية وأما حمله على كذبهم فى الدنيا فتمحل يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه وقوله تعالى ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ عطف على كذبوا داخل معه فى حكم التعجيب وما مصدرية أو موصولة قد حذف عائدها والمعنى انظر كيف كذبوا باليمين الفاجرة المغلظة على أنفسهم بانكار صدور ما صدر عنهم وكيف ضل عنهم أى زال وذهب افتراؤهم أو ما كانوا يفترونه من الاشراك حتى نفوا صدوره عنهم بالكلية وتبرءوا منه بالمرة وقيل ما عبارة عن الشركاء وايقاع الافتراء عليها مع أنه فى الحقيقة واقع على أحوالها من الالهية والشركة والشفاعة ونحوها للمبالغة فى أمرها كأنها نفس المفترى وقيل الجملة كلام مستأنف غير داخل فى حيز التعجيب ﴿ومنهم من يستمع اليك﴾ كلام مبتدأ مسوق لحكاية ما صدر فى الدنيا عن بعض المشركين من أحكام الكفر ثم بيان ما سيصدر عنهم يوم الحشر تقريرا لما قبله وتحقيقا لمضمونه والضمير للذين أشركوا ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف كما فى قوله تعالى ومنا دون ذلك أى وجمع منا الخ ومن موصولة أو موصوفة محلها الرفع على الخبرية والمعنى و بعضهم أو و بعض منهم الذى يستمع

اليك أو فريق يستمع اليك على أن مناط الافادة اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين وقد مر فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ . روى أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر وكان صاحب أخبار ياأبا قتيلة مايقول محمد فقال والذى جعلها بيته ماأدرى مايقول الا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ماحدثكم من القرون الماضية فقال أبو سفيان انى لأراه حقا فقال أبو جهل كلا فنزلت ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ من الجعل بمعنى الانشاء وعلى متعلقة به وضمير قلوبهم راجع الى من وجمعيته بالنظر الى معناها كما أن افراد ضمير يستمع بالنظر الى لفظها وقد روعى جانب المعنى فى قوله تعالى ومنهم من يستمعون اليك الآية والأكنة جمع كنان وهو ما يستر به الشئ وتنوينها للتفخيم والجملة اما مستأنفة للاخبار بما تضمنه من الختم أو حال من فاعل يستمع باضمار قد عند من يقدرها قبل الماضى الواقع حالا أى يستمعون اليك وقد ألقينا على قلوبهم أغطية كثيرة لا يقادر قدرها خارجة عما يتعارفه الناس ﴿أن يفقهوه﴾ أى كراهة أن يفقهوا مايستمعونه من القرآن المدلول عليه بذكر الاستماع ويجوز أن يكون مفعولا لما ينبئ عنه الكلام أى منعناهم أن يفقهوه ﴿وفى آذانهم وقرا﴾ صمما وثقلا مانعا من سماعه والكلام فيه كما فى قوله تعالى على قلوبهم أكنة وهذا تمثيل معرب عن كمال جهلهم بشئون النبى عليه الصلاة والسلام وفرط نبوة قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ونبو أسماعهم له وقد مر تحقيقه فى أول سورة البقرة وقيل هو حكاية لما قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر الآية وأنت خبير بأن مرادهم بذلك الاخبار بما اعتقدوه فى حق القرآن والنبى عليه الصلاة والسلام جهلا وكفرا من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والايمان ككون القرآن سحرا وشعرا وأساطير الأولين وقس على ماتخيلوه فى حق النبى صلى الله عليه وسلم لا الاخبار بأن هناك أمرا وراء ذلك قد حال بينهم وبين ادراكه حائل من قبلهم حتى يمكن حمل النظم الكريم على ذلك ﴿وان يروا كل آية﴾ من الآيات القرآنية أى يشاهدوها بسماعها ﴿لا يؤمنوا بها﴾ على عموم النفى لا على نفى العموم أى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم اياها كما هى لما مر من حالهم ﴿حتى اذا جاءوك يجادلونك﴾ هى حتى التى تقع بعدها الجمل والجملة هى قوله تعالى اذا جاءوك ﴿يقول الذين كفروا﴾ وما بينهما حال من فاعل جاءوا وانما وضع الموصول موضع الضمير ذما لهم بما فى حيز الصلة واشعارا بعلة الحكم أى بلغوا من التكذيب والمكابرة الى أنهم اذا جاءوك مجادلين لك لايكتفون بمجرد عدم الايمان بما سمعوا من الآيات الكريمة بل يقولون ﴿ان هذا﴾ أى ماهذا ﴿الا أساطير الاولين﴾ فان عد أحسن الحديث وأصدقه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من قبيل الاباطيل والخرافات رتبة من الكفر لا غاية وراءها ويجوز أن تكون حتى جارة واذا ظرفية بمعنى وقت مجيئهم ويجادلونك حال كما سبق وقوله تعالى يقول الذين كفروا الخ تفسير للمجادلة والاساطير جمع أسطورة أو اسطارة أو جمع اسطار وهو جمع سطر بالتحريك وأصل الكل السطر بمعنى الخط ﴿وهم ينهون عنه﴾ الضمير المرفوع للمذكورين والمجرور للقرآن أى لا يقنعون بما ذكر من تكذيبه وعده من قبيل الاساطير بل ينهون الناس عن استماعه لئلا يقفوا على حقيته فيؤمنوا به ﴿وينأون عنه﴾ أى يتباعدون عنه بأنفسهم اظهارا لغاية نفورهم عنه وتأكيدا لنهيهم عنه فان اجتناب الناهى عن المنهى عنه من متممات النهى ولعل ذلك هو السر فى تأخير النأى عن النهى وقيل الضمير المجرور للنبى عليه الصلاة والسلام وقيل المرفوع لابى طالب ولعل جمعيته باعتبار استتباعه لاتباعه فانه كان ينهى قريشا عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وينأى عنه فلا يؤمن به وروى أنهم اجتمعوا اليه وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا فقال

والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لامحالة انه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

فنزلت ﴿وان يهلكون﴾ أى مايهلكون بما فعلوا من النهى والنأى ﴿الا أنفسهم﴾ بتعريضها لاشد العذاب وأفظعه عاجلا وآجلا وهو عذاب الضلال والاضلال وقوله تعالى ﴿وما يشعرون﴾ حال من ضمير يهلكون أى يقصرون الاهلاك على أنفسهم والحال أنهم مايشعرون أى لا باهلاكهم أنفسهم ولا باقتصار ذلك عليها من غير أن يضروا بذلك شيأ من القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وانما عبر عنه بالاهلاك مع أن المنفى عن غيرهم مطلق الضرر اذ غاية مايؤدى اليه مافعلوا من القدح فى القرآن الكريم المانعة فى تمشى أحكامه وظهور أمر الدين للايذان بأن مايحيق بهم هو الهلاك لا الضرر المطلق على أن مقصدهم لم يكن مطلق المانعة فيما ذكر بل كانوا يبغون الغوائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ويجوز أن يكون الاهلاك معتبرا بالنسبة الى الذين يضلونهم بالنهى فقصره على أنفسهم حينئذ مع شموله للفريقين مبنى على تنزيل عذاب الضلال عند عذاب الاضلال منزلة العدم ﴿ولو ترى اذ وقفوا على النار﴾ شروع فى حكاية مايصدر عنهم يوم القيامة من القول المناقض لما صدر عنهم فى الدنيا من القبائح المحكية مع كونه كذبا فى نفسه والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل المشاهدة والعيان قصدا الى بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الشناعة والفظاعة الى حيث لايختص استغرابها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الامور العجيبة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها وجواب لو محذوف ثقة بظهوره وايذانا بقصور العبارة عن تفصيله وكذا مفعول ترى لدلالة مافى حيز الظرف عليه أى لو تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها لرأيت مالا يسعه التعبير وصيغة الماضى للدلالة على التحقق أو حين يطلعون عليها اطلاعا وهى تحتهم أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها من قولهم وقفته على كذا اذا فهمته وعرفته وقرئ وقفوا على البناء للفاعل من وقف عليه وقوفا ﴿فقالوا ياليتنا نرد﴾ أى الى الدنيا تمنيا للرجوع والخلاص وهيهات ولات حين مناص ﴿ولا نكذب بآيات ربنا﴾ أى بآياته الناطقة بأحوال النار وأهوالها الآمرة باتقائها اذهى التى تخطر حينئذ ببالهم ويتحسرون على مافرطوا فى حقها أو بجميع آياته المنتظمة لتلك الآيات انتظاما أوليا ﴿ونكون من المؤمنين﴾ بها العاملين بمقتضاها حتى لانرى هذا الموقف الهائل أو نكون من فريق المؤمنين الناجين من العذاب الفائزين بحسن المآب ونصب الفعلين على جواب التمنى باضمار أن بعد الواو واجرائها مجرى الفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود وابن اسحق فلا نكذب والمعنى ان رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين وقيل ينسبك من أن المصدرية ومن الفعل بعدها مصدر ويقدر قبله مصدر متوهم فيعطف هذا عليه كأنه قيل ليت لنا ردا وانتفاء تكذيب وكونا من المؤمنين وقرئ برفعهما على أنه كلام مستأنف كقوله دعنى ولا أعود أى وأنا لا أعود تركتنى أو لم تتركنى أو عطف على نرد أو حال من ضميره فيكون داخلا فى حكم التمنى كالوجه الاخير للنصب وتعلق التكذيب الآتى به لما تضمنه من العدة بالايمان وعدم التكذيب كمن قال ليتنى رزقت مالا فأكافئك على صنيعك فانه متمن فى معنى الواعد فلو رزق مالا ولم يكافئ صاحبه يكون مكذبا لامحالة وقرئ برفع الاول ونصب الثانى وقد مر وجههما ﴿بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل﴾ اضراب عما ينبئ عنه التمنى من الوعد بتصديق الآيات والايمان بها أى ليس ذلك عن عزيمة صادقة ناشئة عن رغبة فى الايمان وشوق الى تحصيله والاتصاف به بل لانه ظهر لهم

فى موقفهم ذلك ما كانوا يخفونه فى الدنيا من الداهية الدهياء وظنوا أنهم مواقعوها فلخوفها وهول مطلعها قالوا ما قالوا والمراد بها النار التى وقفوا عليها اذهى التى سيق الكلام لتهويل أمرها والتعجيب من فظاعة حال الموقوفين عليها و باخفائها تكذيبهم بها فان التكذيب بالشئ كفر به واخفاء له لامحالة وايثاره على صريح التكذيب الوارد فى قوله عز وجل هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون وقوله تعالى هذه النار التى كنتم بها تكذبون مع كونه أنسب بما قبله من قولهم و لا نكذب بآيات ربنا لمراعاة مافى مقابلته من البدو هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم وأما ماقيل من أن المراد بما يخفون كفرهم ومعاصيهم أو قبائحهم وفضائحهم التى كانوا يكتمونها من الناس فتظهر فى صحفهم و بشهادة جوارحهم عليهم أو شركهم الذى يجحدون به فى بعض مواقف القيامة بقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ثم يظهر بما ذكر من شهادة الجوارح عليهم أو ماأخفاه رؤساء الكفرة عن أتباعهم من أمر البعث والنشور أوما كتمه علماء أهل الكتابين من صحة نبوة النبى عليه الصلاة والسلام ونعوته الشريفة عن عوامهم على أن الضمير المجرور للعوام والمرفوع للخواص أو كفرهم الذى أخفوه عن المؤمنين والضمير المجرور للمؤمنين والمرفوع للمنافقين فبعد الاغضاء عما فى كل منها من الاعتساف والاختلال لاسبيل الى شئ من ذلك أصلا لما عرفت من أن سوق النظم الشريف لتهويل أمر النار وتفظيع حال أهلها وقد ذكر وقوفهم عليها وأشير الى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة والدهشة مالا يحيط به الوصف ورتب عليه تمنيهم المذكور بالفاء القاضية بسببية ماقبلها لما بعدها فاسقاط النار بعد ذلك من تلك السببية وهى فى نفسها أدهى الدواهى وأزجر الزواجر واسنادها الى شئ من الامور المذكورة التى دونها فى الهول والزجر مع عدم جريان ذكرها ثمة أمر يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله وأما ماقيل من أن المراد جزاء ما كانوا يخفون فمن قبيل دخول البيوت من ظهورها وأبوابها مفتوحة فتأمل ﴿ولو ردوا﴾ أى من موقفهم ذلك الى الدنيا حسبما تمنوه وغاب عنهم ماشاهدوه من الاهوال ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ من فنون القبائح التى من جملتها التكذيب المذكور ونسوا ماعاينوه بالكلية لاقتصار أنظارهم على الشاهد دون الغائب ﴿وانهم لكاذبون﴾ أى لقوم ديدنهم الكذب فى كل مايأتون ومايذرون ﴿وقالوا﴾ عطف على عادوا داخل فى حيز الجواب وتوسيط قوله تعالى وانهم لكاذبون بينهما لانه اعتراض مسوق لتقرير ما أفاده الشرطية من كذبهم المخصوص ولو أخر لأوهم أن المراد تكذيبهم فى انكارهم البعث والمعنى لو ردوا الى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وقالوا ﴿ان هى﴾ أى ماالحياة ﴿الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ بعد مافارقنا هذه الحياة كان لم يروا مارأوا من الاحوال التى أولها البعث والنشور ﴿ولو ترى اذ وقفوا على ربهم﴾ الكلام فيه كالذى مر فى نظيره خلا أن الوقوف ههنا مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجانى بين يدى سيده للعقاب وقيل عرفوا ربهم حق التعريف وقيل وقفوا على جزاء ربهم وقوله تعالى ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام السابق كأنه قيل فماذا قال لهم ربهم اذ ذاك فقيل قال ﴿أليس هذا﴾ مشيرا الى ماشاهدوه من البعث ومايتبعه من الامور العظام ﴿بالحق﴾ تقريعا لهم على تكذيبهم لذلك وقولهم عند سماع مايتعلق به ماهو بحق وماهو الاباطل ﴿قالوا﴾ استئناف كما سبق ﴿بلى وربنا﴾ أكدوا اعترافهم باليمين اظهارا لكمال يقينهم بحقيته وايذانا بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط طمعا فى نفعه ﴿قال﴾ استئناف كما مر ﴿فذوقوا العذاب﴾ الذى عاينتموه والفاء لترتيب التعذيب على اعترافهم بحقية ما كفروا به فى الدنيا لكن لاعلى أن مدار التعذيب هو اعترافهم بذلك بل هو كفرهم السابق بما اعترفوا بحقيته الآن كما نطق به قوله عز وجل ﴿بما كنتم تكفرون﴾ أى بسبب كفركم فى الدنيا بذلك أو بكل مايجب الايمان به فيدخل كفرهم به دخولا أوليا ولعل هذا التوبيخ والتقريع انما يقع بعد ما وقفوا

على النار فقالوا ماقالوا اذ الظاهر أنه لا يبقى بعد هذا الأمر الا العذاب ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ هم الذين حكيت أحوالهم لكن وضع الموصول موضع الضمير للايذان بتسبب خسرانهم بما فى حيز الصلة من التكذيب بلقائه تعالى بقيام الساعة ومايترتب عليه من البعث وأحكامه المتفرعة عليه واستمرارهم على ذلك فان كلمة حتى فى قوله تعالى ﴿حتى اذا جاءتهم الساعة﴾ غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم فانه أبدى لا حد له ﴿بغتة﴾ البغت والبغتة مفاجأة الشئ بسرعة من غير شعور به يقال بغته بغتا و بغتة أى فجأة وانتصابها اما على أنها مصدر واقع موقع الحال من فاعل جاءتهم أى مباغتة أومن مفعوله أى مبغوتين واما على أنها مصدر مؤكد على غير الصدر فان جاءتهم فى معنى بغتتهم كقولهم أتيته ركضا أومصدر مؤكد لفعل محذوف وقع حالا من فاعل جاءتهم أى جاءتهم الساعة تبغتهم بغتة. ﴿قالوا﴾ جواب اذا ﴿ياحسرتنا﴾ تعالى فهذا أوانك والحسرة شدة الندم وهذا التحسر وان كان يعتريهم عند الموت لكن لما كان ذلك من مبادى الساعة سمى باسمها ولذلك قال عليه الصلاة والسلام من مات فقد قامت قيامته أوجعل مجئ الساعة بعد الموت كالواقع بغير فترة لسرعته ﴿على مافرطنا فيها﴾ أى على تفريطنا فى شأن الساعة وتقصيرنا فى مراعاة حقها والاستعداد لها بالايمان بها واكتساب الأعمال الصالحة كما فى قوله تعالى على مافرطت فى جنب الله وقيل الضمير للحياة الدنيا وانلم يجر لها ذكر لكونها معلومة والتفريط التقصير فى الشئ مع القدرة على فعله وقيل هو التضييع وقيل الفرط السبق ومنه الفارط أى السابق ومعنى فرط خلى السبق لغيره فالتضعيف فيه للسلب كما فى جلدت البعير وقوله تعالى ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ حال من فاعل قالوا فائدته الايذان بأن عذابهم ليس مقصورا على ماذكر من الحسرة على مافات و زال بل يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقال والايماء الى أن تلك الحسرة من الشدة بحيث لاتزول و لاتنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات والسر فى ذلك أن العذاب الروحانى أشد من الجسمانى نعوذ برحمة الله عز وجل منهما والوزر فى الأصل الحمل الثقيل سمى به الاثم والذنب لغاية ثقله على صاحبه وذكر الظهور كذكر الايدى فى قوله تعالى فبما كسبت أيديكم فان المعتاد حمل الاثقال على الظهور كما أن المألوف هو الكسب بالايدى والمعنى انهم يتحسرون على مالم يعملوا من الحسنات والحال أنهم يحملون أو زار ماعملوا من السيئات ﴿ألا ساء مايزرون﴾ تذييل مقرر لما قبله وتكملة له أى بئس شيأ يزرونه و زرهم ﴿وما الحيوة الدنيا الا لعب ولهو﴾ لما حقق فيما سبق أن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يلقون فيها من الخطوب مايلقون بين بعده حال تينك الحياتين فى أنفسهما واللعب عمل يشغل النفس و يفترها عما تنتفع به واللهو صرفها عن الجد الى الهزل والمعنى اما على حذف المضاف أوعلى جعل الحياة الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة كما فى قول الخنساء فانما هى اقبال وادبار أى وما أعمال الدنيا أى الأعمال المتعلقة بها من حيث هى هى أو وماهى من حيث انها محل لكسب تلك الأعمال الا لعب يشغل الناس و يلهيهم بما فيه من منفعة سريعة الزوال و لذة وشيكة الاضمحلال عما يعقبهم منفعة جليلة باقية و لذة حقيقية غير متناهية من الايمان والعمل الصالح ﴿وللدار الآخرة﴾ التى هى محل الحياة الاخرى ﴿خير للذين يتقون﴾ الكفر والمعاصى لأن منافعها خالصة عن المضار و لذاتها غير منغصة بالآلام مستمرة على الدوام ﴿أفلا تعقلون﴾ ذلك حتى تتقوا ماأنتم عليه من الكفر والعصيان والفاء للعطف على مقدر أى أتغفلون فلا تعقلون أوألا تتفكرون فتعقلون وقرئ يعقلون على الغيبة ﴿قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون﴾ استئناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن الذى يعتريه مما حكى عن الكفرة من الاصرار على التكذيب والمبالغة فيه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من الله عز وجل وأن ما يفعلون فى حقه فهو راجع اليه تعالى فى الحقيقة وأنه ينتقم منهم لا محالة أشد انتقام وكلمة قد لتأكيد العلم بما ذكر المفيد لتأكيد

الوعيد كما فى قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه وقوله تعالى قد يعلم الله المعوقين ونحوهما باخراجها الى معنى التكثير حسبما يخرج اليه ربما فى مثل قوله وان تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود

جريا على سنن العرب عند قصد الافراط فى التكثير تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندى وعنده مقانب جمة يريد بذلك التمادى فى تكثير فرسانه ولكنه يروم اظهار براءته عن التزيد وابراز أنه ممن يقلل كثير ماعنده فضلا عن تكثير القليل وعليه قوله عز وجل ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وهذه طريقة انما تسلك عند كون الأمر من الوضوح بحيث لاتحوم حوله شائبة ريب حقيقة كما فى الآيات الكريمة المذكورة أو ادعاء كما فى البيت وقوله قد أترك القرن مصفرا أنامله وقوله ولكنه قد يهلك المال نائله والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة تعلقه وهو متعد الى اثنين ومابعده ساد مسدهما واسم ان ضمير الشان وخبرها الجملة المفسر قله والموصول فاعل يحزنك وعائده محذوف أى الذى يقولونه وهو ماحكى عنهم من قولهم انهذا الا أساطير الأولين ونحو ذلك وقرئ ليحزنك من أحزن المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى ﴿فانهم لايكذبونك﴾ تعليل لما يشعر به الكلام السابق من النهى عن الاعتداد بما قالوا لكن لا بطريق التشاغل عنه وعده هينا والاقبال التام على ماهو أهم منه من استعظام جحودهم بآيات الله عز وجل كما قيل فانه مع كونه بمعزل من التسلية بالكلية مما يوهم كون حزنه عليه الصلاة والسلام لخاصة نفسه بل بطريق التسلى بما يفيده من بلوغه عليه الصلاة والسلام فى جلالة القدر ورفعة المحل والزلفى من الله عز وجل الى حيث لاغاية وراءه حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه الصلاة والسلام تكذيبا لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله بل نفى تكذيبهم عنه عليه الصلاة والسلام وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ايذانا بكمال القرب واضمحلال شئونه عليه الصلاة والسلام فى شأن الله عز وجل نعم فيه استعظام لجنايتهم منبئ عن عظم عقوبتهم كأنه قيل لاتعتد به وكله الى الله تعالى فانهم فى تكذيبهم ذلك لايكذبونك فى الحقيقة ﴿ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أى ولكنهم بآياته تعالى يكذبون فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالرسوخ فى الظلم الذى جحودهم هذا فن من فنونه والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ماأقدموا عليه من جحود آياته تعالى وايراد الجحود فى مورد التكذيب للايذان بأن آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد وأن من ينكرها فانما ينكرها بطريق الجحود الذى هو عبارة عن الانكار مع العلم بخلافه كما فى قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم وهو المعنى بقول من قال أنه نفى مافى القلب اثباته أواثبات مافى القلب نفيه والباء متعلقة بيجحدون يقال جحد حقه وبحقه اذا أنكره وهو يعلمه وقيل هو لتضمين الجحود معنى التكذيب وأياما كان فتقديم الجار والمجرور للقصر وقيل المعنى فانهم لايكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بألسنتهم ويعضده ما روى من أن الاخنس بن شريق قال لأبى جهل ياأبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس عندنا أحد غيرنا فقال له والله ان محمدا لصادق وما كذب قط ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فنزلت وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب فى شئ ولكنهم كانوا يجحدون وقيل فانهم لايكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ولكنهم يجحدون بآيات الله كما يروى أن أباجهل كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم مانكذبك وانك عندنا لصادق ولكنا نكذب ماجئتنا به فنزلت وكأن صدق المخبر عند الخبيث بمطابقة خبره لاعتقاده والاول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية وقرئ لايكذبونك من الاكذاب فقيل كلاهما بمعنى واحد كأكثر وكثر وأنزل ونزل وهو الأظهر وقيل معنى أكذبه وجده كاذبا وينقل عن الكسائى أن

العرب تقول كذبت الرجل أى نسبت الكذب اليه وأكذبته أى نسبت الكذب الى ماجاء به لا اليه وقوله تعالى ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾ افتنان فى تسليته عليه الصلاة والسلام فان عموم البلية ربما يهون أمرها بعض تهوين وارشاد له عليه الصلاة والسلام الى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فى الصبر على ماأصابهم من أممهم من فنون الأذية وعدة ضمنية له عليه الصلاة والسلام بمثل مامنحوه من النصر وتصدير الكلام بالقسم لتأكيد التسلية وتنوين رسل للتفخيم والتكثير ومن اما متعلقة بكذبت أو بمحذوف وقع صفة لرسل أى وبالله لقد كذبت من قبل تكذيبك رسل أولوشأن خطير وذوو عدد كثير أو كذبت رسل كانوا من زمان قبل زمانك ﴿فصبروا على ما كذبوا﴾ مامصدرية وقوله تعالى ﴿وأوذوا﴾ عطف على كذبوا داخل فى حكمه فانسبك منهما مصدران من المبنى للمفعول أى فصبروا على تكذيبهم وايذائهم فتأس بهم واصطبر على مانالك من قومك والمراد بايذائهم اماعين تكذيبهم واما مايقارنه من فنون الايذاء لم يصرح به ثقة باستلزام التكذيب اياه غالبا وأياما كان ففيه تأكيد للتسلية وقيل عطف على صبروا وقيل على كذبت وقيل هو استئناف وقوله تعالى ﴿حتى أتاهم نصرنا﴾ غاية للصبر وفيه ايذان بأن نصره تعالى اياهم أمر مقرر لامرد له وأنه متوجه اليهم لابد من اتيانه البتة والالتفات الى نون العظمة لابراز الاعتناء بشأن النصر وقوله تعالى ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ اعتراض مقرر لما قبله من اتيان نصره اياهم والمراد بكلماته تعالى مايئ عنه قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقوله تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلى من المواعيد السابقة للرسل عليهم الصلاة والسلام الدالة على نصرة رسول الله أيضا لانفس الآيات المذكورة ونظائرها فان الاخبار بعدم تبدلها انما يفيد عدم تبدل المواعيد الواردة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة دون المواعيد السابقة للرسل عليهم الصلاة والسلام ويجوز أن يراد بكلماته تعالى جميع كلماته التى من جملتها تلك المواعيد الكريمة ويدخل فيها المواعيد الواردة فى حقه عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا والالتفات الى الاسم الجليل للاشعار بعلة الحكم فان الألوهية من موجبات أن لايغالبه أحد فى فعل من الأفعال ولا يقع منه تعالى خلف فى قول من الأقوال وقوله تعالى ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ جملة قسمية جئ بها لتحقيق مامنحوا من النصر وتأكيد ما فى ضمنه من الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لتقرير جميع ماذكر من تكذيب الأمم وما ترتب عليه من الأمور والجار والمجرور فى محل الرفع على أنه فاعل اما باعتبار مضمونه أى بعض نبأ المرسلين أو بتقدير الموصوف أى بعض من نبأ المرسلين كما مر فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية وأياما كان فالمراد بنبئهم عليهم السلام على الأول نصره تعالى اياهم بعد اللتيا والتى وعلى الثانى جميع ماجرى بينهم وبين أممهم على مايئ عنه قوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا الآية وقيل فى محل النصب على الحالية من المستكن فى جاء العائد الى مايفهم من الجملة السابقة أى ولقد جاءك هذا الخبر كائنا من نبأ المرسلين ﴿وان كان كبر عليك اعراضهم﴾ كلام مستأنف مسوق لتأكيد ايجاب الصبر المستفاد من التسلية ببيان أنه أمر لامحيد عنه أصلا أى ان كان عظم عليك وشق اعراضهم عن الايمان بما جئت به من القرآن الكريم حسبما يفصح عنه ماحكى عنهم من تسميتهم له أساطير الأولين وتنائيهم عنه ونهيهم الناس عنه وقيل أن الحرث بن عامر ابن نوفل بن عبد مناف أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى محضر من قريش فقال يامحمد ائتنا بآية من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل وأنا أصدقك فأبى الله أن يأتى بآية مما اقترحوا فأعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك عليه لما أنه عليه الصلاة والسلام كان شديد الحرص على ايمان قومه فكان اذا سألوا آية يود أن ينزلها الله تعالى طمعاً

فى ايمانهم فنزلت فقوله تعالى اعراضهم مرتفع بكبر وتقديم الجار والمجرور عليه لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر والجملة فى محل النصب على أنها خبر لكان مفسرة لاسمها الذى هو ضمير الشأن ولا حاجة الى تقدير قد وقيل اسم كان اعراضهم وكبر جملة فعلية فى محل النصب على أنها خبر لها مقدم على اسمها لأنه فعل رافع لضمير مستتر كما هو المشهور وعلى التقديرين فقوله تعالى ﴿فان استطعت﴾ الخ شرطية أخرى محذوفة الجواب وقعت جوابا للشرط الأول والمعنى ان شق عليك اعراضهم عن الايمان بما جئت به من البينات وعدم عدهم لها من قبيل الآيات وأحببت أن تجيبهم الى ماسألوه اقتراحا فان استطعت ﴿أن تبتغى نفقا﴾ أى سربا ومنفذا ﴿فى الأرض﴾ تنفذ فيه الى جوفها ﴿أو سلما﴾ أى مصعدا ﴿فى السماء﴾ تعرج به فيها ﴿فتأتيهم﴾ منهما ﴿بآية﴾ مما اقترحوه فافعل وقد جوز أن يكون ابتغاؤهما نفس الاتيان بالآية فالفاء فى فتأتيهم حينئذ تفسيرية وتنوين آية للتفخيم أى فان استطعت أن تبتغيهما فتجعل ذلك آية لهم فافعل والظرفان متعلقان بمحذوفين هما نعتان لنفقا وسلما والأول لمجرد التأكيد اذ النفق لا يكون الا فى الأرض أو بتبتغى وقد جوز تعلقهما بمحذوف وقع حالا من فاعل تبتغى أى أن تبتغى نفقا كائنا أنت فى الأرض أو سلما كائنا فى السماء وفيه من الدلالة على تبالغ حرصه عليه الصلاة والسلام على اسلام قومه وترامية الى حيث لو قدر على أن يأتى بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لفعل رجاء لايمانهم مالا يخفى وايثار الابتغاء على الاتخاذ ونحوه للايذان بأن ماذكر من النفق والسلم مما لا يستطاع ابتغاؤه فكيف باتخاذه ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ أى ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم على ما أنتم عليه من الهدى لفعله بأن يوفقهم للايمان فيؤمنوا معكم ولكن لم يشأ لعدم صرف اختيارهم الى جانب الهدى مع تمكنهم التام منه فى مشاهدتهم للآيات الداعية اليه لا أنه تعالى لم يوفقهم له مع توجههم الى تحصيله وقيل لوشاء الله لجمعهم عليه بأن يأتيهم بآية ملجئة اليه ولكن لم يفعله لخروجه عن الحكمة وقوله تعالى ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان عليه من الحرص الشديد على اسلامهم والميل الى اتيان مايقترحونه من الآيات طمعاً فى ايمانهم مرتب على بيان عدم تعلق مشيئته تعالى بهدايتهم والمعنى واذا عرفت أنه تعالى لم يشأ هدايتهم وايمانهم بأحد الوجهين فلا تكونن بالحرص الشديد على اسلامهم أو الميل الى نزول مقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شئونه تعالى التى من جملتها ماذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بايمانهم أما اختيارا فلعدم توجههم اليه وأما اضطرارا فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار ويجوز أن يراد بالجاهلين على الوجه الثانى المقترحون ويراد بالنهى منعه عليه الصلاة والسلام من المساعدة على اقتراحهم وايرادهم بعنوان الجهل دون الكفر ونحوه لتحقيق مناط النهى الذى هو الوصف الجامع بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم ﴿انما يستجيب الذين يسمعون﴾ تقرير لما مر من أن على قلوبهم أكنة مانعة من الفقه وفى آذانهم وقرا حاجزا من السماع وتحقيق لكونهم بذلك من قبيل الموتى لايتصور منهم الايمان البتة والاستجابة الاجابة المقارنة للقبول أى انما يقبل دعوتك الى الايمان الذين يسمعون مايلقى اليهم سماع تفهم وتدبر دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى انك لاتسمع الموتى وقوله تعالى ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ تمثيل لاختصاصه تعالى بالقدرة على توفيقهم للايمان باختصاصه تعالى بالقدرة على بعث الموتى من القبور وقيل بيان لاستمرارهم على الكفر وعدم اقلاعهم عنه أصلا على أن الموتى من القبور وقيل بيان مستعار للكفرة بناء على تشبيه جهلهم بموتهم أى وهؤلاء الكفرة يبعثهم الله تعالى من قبورهم ﴿ثم اليه يرجعون﴾ للجزاء فحينئذ يستجيبون وأما قبل ذلك فلا سبيل اليه وقرئ يرجعون على البناء للفاعل من رجع رجوعا والمشهورة أوفى بحق المقام لابنائه عن كون مرجعهم اليه تعالى بطريق

الاضطرار ﴿وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه﴾ حكاية لبعض آخر من أباطيلهم بعد حكاية ما قالوا فى حق القرآن الكريم وبيان مايتعلق به والقائلون رؤساء قريش وقيل الحرث بن عامر بن نوفل وأصحابه ولقد بلغت بهم الضلالة والطغيان الى حيث لم يقتنعوا بما شاهدوا من البينات التى تخر لها صم الجبال حتى اجترؤا على ادعاء أنها ليست من قبيل الآيات وانما هى ما اقترحوه من الخوارق الملجئة أو المعقبة للعذاب كما قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية والتنزيل بمعنى الانزال كما ينبئ عنه القراءة بالتخفيف فيما سيأتى وما يفيده التعرض لعنوان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من الاشعار بالعلية انما هو بطريق التعريض بالتهكم من جهتهم واطلاق الآية فى قوله تعالى ﴿قل ان الله قادر على أن ينزل آية﴾ مع أن المراد بها ماهو من الخوارق المذكورة لا آية ما من الآيات لفساد المعنى بحاراة معهم على زعمهم ويجوز أن يراد بها آية موجبة لهلاكهم كانزال ملائكة العذاب ونحوه على أن تنوينها للتفخيم والتهويل كما أن اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة مع مافيه من الاشعار بعلة القدرة الباهرة والاقتصار فى الجواب على بيان قدرته تعالى على تنزيلها مع أنها ليست فى حيز الانكار للايذان بأن عدم تنزيله تعالى اياها مع قدرته عليه لحكمة بالغة يجب معرفتها وهم عنها غافلون كما ينبئ عنه الاستدراك بقوله تعالى ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أى ليسوا من أهل العلم على أن المفعول مطروح بالكلية أو لا يعلمون شيئاً على أنه محذوف مدلول عليه بقرينة المقام والمعنى أنه تعالى قادر على أن ينزل آية من ذلك أو آية أى آية ولكن أكثرهم لا يعلمون فلا يدرون أن عدم تنزيلها مع ظهور قدرته عليه لما أن فى تنزيلها قلعا لأساس التكليف المبنى على قاعدة الاختيار أو استئصالا لهم بالكلية فيقترحونها جهلا ويتخذون عدم تنزيلها ذريعة الى التكذيب وتخصيص عدم العلم بأكثرهم لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال وانما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعنادا وقوله تعالى ﴿وما من دابة فى الارض﴾ الخ كلام مستأنف مسوق لبيان كمال قدرته عز وجل وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه تعالى قادر على تنزيل الآية وانما لا ينزلها محافظة على الحكم البالغة وزيادة من لتأكيد الاستغراق وفى متعلقة بمحذوف هو وصف لدابة مفيد لزيادة التعميم كأنه قيل ومافرد من أفراد الدواب يستقر فى قطر من أقطار الارض وكذا زيادة الوصف فى قوله تعالى ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ مع مافيه من زيادة التقرير أى ولا طائر من الطيور يطير فى ناحية من نواحى الجو بجناحيه كما هو المشاهد المعتاد وقرئ ولا طائر بالرفع عطفا على محل الجار والمجرور كأنه قيل ومادابة ولا طائر ﴿الا أمم﴾ أى طوائف متخالفة والجمع باعتبار المعنى كأنه قيل ومامن دواب ولا طير الا أمم ﴿أمثالكم﴾ أى كل أمة منها مثلكم فى أن أحوالها محفوظة وأمورها مقننة ومصالحها مرعية جارية على سنن السداد ومنتظمة فى سلك التقديرات الالهية والتدبيرات الربانية ﴿مافرطنا فى الكتاب من شئ﴾ يقال فرط الشئ أى ضيعه وتركه قال ساعدة ابن جوية معه سقاء لا يفرط حمله أى لا يتركه ولا يفارقه ويقال فرط فى الشئ أى أهمل ماينبغى أن يكون فيه وأغفله فقوله تعالى فى الكتاب أى فى القرآن على الأول ظرف لغو وقوله تعالى من شئ مفعول لفرطنا ومن مزيدة للاستغراق أى ماتركنا فى القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التى من جملتها بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته على ماينبغى وعلى الثانى مفعول للفعل ومن شئ فى موضع المصدر أى ماجعلنا الكتاب مفرطا فيه شيئاً من التفريط بل ذكرنا فيه كل مالا بد من ذكره وأيا ما كان فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبلها وقيل الكتاب اللوح فالمراد بالاعتراض الاشارة الى أن أحوال الأمم مستقصاة فى اللوح المحفوظ غير مقصورة على هذا القدر المجمل وقرئ فرطنا بالتخفيف وقوله تعالى ﴿ثم الى ربهم يحشرون﴾ بيان لأحوال الأمم المذكورة فى الآخرة بعد بيان أحوالها فى الدنيا وايراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء لاجرائها مجراهم والتعبير عنها بالأمم أى الى مالك أمورهم يحشرون يوم القيامة كدأبكم لا الى غيره فيجازيهم

فينصف بعضهم من بعض حتى يبلغ من عدله أن يأخذ للجماء من القرناء وقيل حشرها موتها ويأباه مقام تهويل الخطب وتفظيع الحال وقوله تعالى ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ متعلق بقوله تعالى مافرطنا فى الكتاب من شئ والموصول عبارة عن المعهودين فى قوله تعالى ومنهم من يستمع اليك الآيات ومحله الرفع على الابتداء خبره مابعده أى أو ردنا فى القرآن جميع الأمور المهمة وأزحنا به العلل والاعذار والذين كذبوا بآياتنا التى هى منه ﴿صم﴾ لايسمعونها سمع تدبر وفهم فلذلك يسمونها أساطير الأولين ولايعدونها من الآيات ويقترحون غيرها ﴿وبكم﴾ لايقدرون على أن ينطقوا بالحق ولذلك لايستجيبون دعوتك بها وقوله تعالى ﴿فى الظلمات﴾ أى فى ظلمات الكفر أو ظلمات الجهل والعناد والتقليد اما خبر ثان للمبتدا على أنه عبارة عن العمى كما فى قوله تعالى صم بكم عمى واما متعلق بمحذوف وقع حالا من المستكن فى الخبر كأنه قيل ضالون كائنين فى الظلمات أو صفة لبكم أى بكم كائنون فى الظلمات والمراد به بيان كمال عراقتهم فى الجهل وسوء الحال فان الأصم الأبكم اذا كان بصيرا ربما يفهم شيئاً باشارة غيره وان لم يفهمه بعبارته وكذا يشعر غيره بما فى ضميره بالاشارة وان كان معزولا عن العبارة وأما اذا كان مع ذلك أعمى أوكان فى الظلمات فينسد عليه باب الفهم والتفهيم بالكلية وقوله تعالى ﴿من يشأ الله يضلله﴾ تحقيق للحق وتقرير لما سبق من حالهم ببيان أنهم من أهل الطبع لايتأتى منهم الايمان أصلا فمن مبتدأ خبره مابعده ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وانتفاء الغرابة فى تعلقها به أى من يشأ الله اضلاله أى أن يخلق فيه الضلال يضلله أى يخلقه فيه لكن لا ابتداء بطريق الجبر من غير أن يكون له دخل ما فى ذلك بل عند صرف اختياره الى كسبه وتحصيله وقس عليه قوله تعالى ﴿ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ لايضل من ذهب اليه ولايزل من ثبت قدمه عليه ﴿قل أرأيتكم﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبكتهم ويلقمهم الحجر بما لا سبيل لهم الى النكير والكاف حرف جئ به لتأكيد الخطاب لا محل له من الاعراب ومبنى التركيب وان كان على الاستخبار عن الرؤية قلبية كانت أو بصرية لكن المراد به الاستخبار عن متعلقها أى أخبرونى ﴿ان أتاكم عذاب الله﴾ حسبما أتى الأمم السابقة من أنواع العذاب الدنيوى ﴿أو أتتكم الساعة﴾ التى لامحيص عنها البتة ﴿أغير الله تدعون﴾ هذا مناط الاستخبار ومحط التبكيت وقوله تعالى ﴿ان كنتم صادقين﴾ متعلق بأرأيتكم مؤكد للتبكيت كاشف عن كذبهم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى ان كنتم صادقين فى أن أصنامكم آلهة كما أنها دعواكم المعروفة أو ان كنتم قوما صادقين فأخبرونى أغير الله تدعون ان أتاكم عذاب الله الخ فان صدقهم بأى معنى كان من موجبات اخبارهم بدعائهم غيره سبحانه وأما جعل الجواب مايدل عليه قوله تعالى أغير الله تدعون أعنى قادعوه على أن الضمير لغير الله فخل بجزالة النظم الكريم كيف لا والمطلوب منهم انما هو الاخبار بدعائهم غيره تعالى عند اتيان مايأتى لانفس دعائهم اياه وقوله تعالى ﴿بل اياه تدعون﴾ عطف على جملة منفية ينبئ عنها الجملة التى تعلق بها الاستخبار انباء جليا كأنه قيل لاغيره تعالى تدعون بل اياه تدعون وقوله تعالى ﴿فيكشف ماتدعون اليه﴾ أى الى كشفه عطف على تدعون أى فيكشفه اثر دعائكم وقوله تعالى ﴿ان شاء﴾ أى ان شاء كشفه لبيان أن قبول دعائهم غير مطرد بل هو تابع لمشيئته المبنية على حكم خفية قد استأثر الله تعالى بعلمها فقد يقبله كما فى بعض دعواتهم المتعلقة بكشف العذاب الدنيوى وقد لا يقبله كما فى بعض آخر منها وفى جميع مايتعلق بكشف العذاب الأخروى الذى من جملته الساعة وقوله تعالى ﴿وتنسون ماتشركون﴾ أى تتركون ماتشركونه به تعالى من الأصنام تركا كليا عطف على تدعون أيضا وتوسيط الكشف بينهما مع تقارنهما وتأخر الكشف عنهما لاظهار كمال العناية بشأن الكشف والايذان بترتبه على الدعاء خاصة وقوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أن منهم من لايدعو الله

تعالى عند اتيان العذاب أيضا لتماديهم فى الغى والضلال لايتأثرون بالزواجر التكوينية كما لايتأثرون بالزواجر التنزيلية وتصديره بالجملة القسمية لاظهار مزيد الاهتمام بمضمونه ومفعول أرسلنا محذوف لما أن مقتضى المقام بيان حال المرسل اليهم لاحال المرسلين أى وبالله لقد أرسلنا رسلا ﴿الى أمم﴾ كثيرة ﴿من قبلك﴾ أى كائنة من زمان قبل زمانك ﴿فأخذناهم﴾ أى فكذبوا رسلهم فأخذناهم ﴿بالبأساء﴾ أى بالشدة والفقر ﴿والضراء﴾ أى الضر والآفات وهما صيغتا تأنيث لامذكر لهما ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أى لكى يدعوا الله تعالى فى كشفها بالتضرع والتذلل ويتوبوا اليه من كفرهم ومعاصيهم ﴿فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ أى فلم يتضرعوا حينئذ مع تحقق مايستدعيه ﴿ولكن قست قلوبهم﴾ استدراك عما قبله أى فلم يتضرعوا اليه تعالى برقة القلب والخضوع مع تحقق مايدعوهم اليه ولكن ظهر منهم نقيضه حيث قست قلوبهم أى استمرت على ماهى عليه من القساوة أو ازدادت قساوة كقولك لم يكرمنى اذ جئته ولكن أهاننى ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ من الكفر والمعاصى فلم يخطروا ببالهم أن ما اعتراهم من البأساء والضراء ما اعتراهم الا لأجله وقيل الاستدراك لبيان أنه لم يكن لهم فى ترك التضرع عذر سوى قسوة قلوبهم والاعجاب بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم وقوله تعالى ﴿فلما نسوا ماذكروا به﴾ عطف على مقدر ينساق اليه النظم الكريم أى فانهمكوا فيه ونسوا ماذكروا به من البأساء والضراء فلما نسوه ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شئ﴾ من فنون النعماء على منهاج الاستدراج لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال مكر بالقوم ورب الكعبة وقرئ فتحنا بالتشديد للتكثير وفى ترتيب الفتح على النسيان المذكور اشعار بأن التذكر فى الجملة غير خال عن النفع وحتى فى قوله تعالى ﴿حتى اذا فرحوا بما أوتوا﴾ هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية كما فى قوله تعالى حتى اذا جاء أمرنا الآية ونظائره وهى مع ذلك غاية لقوله تعالى فتحنا أو لما يدل هو عليه كأنه قيل ففعلوا مافعلوا حتى اذا اطمأنوا بما أتيح لهم وبطروا وأشروا ﴿أخذناهم بغتة﴾ أى نزل بهم عذابنا فجأة ليكون أشد عليهم وقعا وأفظع هولا ﴿فاذاهم مبلسون﴾ متحسرون غاية الحسرة آيسون من كل خير واجمون وفى الجملة الاسمية دلالة على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعة ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أى أخرهم بحيث لم يبق منهم أحد من دبره مد براود بورا أى تبعه ووضع الظاهر موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم فان هلاكهم بسبب ظلمهم الذى هو وضع الكفر موضع الشكر واقامة المعاصى مقام الطاعات ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على ماجرى عليهم من النكال فان اهلاك الكفار والعصاة من حيث أنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة مستجابة للحمد لاسيما مع مافيه من اعلاء كلمة الحق التى نطقت بها رسلهم عليهم السلام ﴿قل أرأيتم﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتكرير التبكيت عليهم وتثنية الالزام بعد تكملة الالزام الأول ببيان أنه أمر مستمر لم يزل جاريا فى الامم وهذا أيضا استخبار عن متعلق الرؤية وان كان بحسب الظاهر استخبارا عن نفس الرؤية ﴿ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ بأن أصمكم وأعماكم بالكلية ﴿وختم على قلوبكم﴾ بأن غطى عليها بما لايبقى لكم معه عقل وفهم أصلا وتصيرون مجانين ويجوز أن يكون الختم عطفا تفسيريا للاخذ المذكور فان السمع والبصر طريقان للقلب منهما يرد مايرده من المدركات فأخذهما سد لبابه بالكلية وهو السر فى تقديم أخذهما على ختمها وأما تقديم السمع على الابصار فلانه مورد الآيات القرآنية وافراده لما أن أصله مصدر وقوله تعالى ﴿من اله﴾ مبتدأ وخبر ومن استفهامية وقوله تعالى ﴿غير الله﴾ صفة للخبر وقوله تعالى ﴿يأتيكم به﴾ أى بذاك على أن الضمير مستعار لاسم الاشارة أو بما أخذ وختم عليه صفة أخرى له والجملة متعلق الرؤية ومناط الاستخبار أى أخبرونى ان سلب الله مشاعركم من اله غيره تعالى يأتيكم بها وقوله تعالى ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من

عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة أى انظر كيف نكررها ونقررها مصروفة من أسلوب الى أسلوب تارة بترتيب المقدمات العقلية وتارة بطريق الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير ﴿ثم هم يصدفون﴾ عطف على نصرف داخل فى حكمه وهو العمدة فى التعجيب وثم لاستبعاد صدوفهم أى اعراضهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديع الموجب للاقبال عليها ﴿قل أرأيتكم﴾ تبكيت آخر لهم بالجائهم الى الاعتراف باختصاص العذاب بهم ﴿ان أتاكم عذاب الله﴾ أى عذابه العاجل الخاص بكم كما أتى من قبلكم من الامم ﴿بغتة﴾ أى فجأة من غير أن يظهر منه مخايل الاتيان وحيث تضمن هذا معنى الخفية قوبل بقوله تعالى ﴿أوجهرة﴾ أى بعد ظهور أماراته وعلائمه وقيل ليلا أونهارا كما فى قوله تعالى بياتا أونهارا لما أن الغالب فيما أتى ليلا البغتة وفيما أتى نهارا الجهرة وقرئ بغتة أوجهرة وهما فى موضع المصدر أى اتيان بغتة أواتيان جهرة وتقديم البغتة لكونها أهول وأفظع وقوله تعالى ﴿هل يهلك﴾ متعلق الاستخبار والاستفهام للتقرير أى قل لهم تقريرا لهم باختصاص الهلاك بهم أخبرونى ان أتاكم عذابه تعالى حسبما تستحقونه هل يهلك بذلك العذاب الا أنتم أى هل يهلك غيركم ممن لا يستحقه وانما وضع موضعه ﴿الا القوم الظالمون﴾ تسجيلا عليهم بالظلم وايذانا بأن مناط اهلاكهم ظلمهم الذى هو وضعهم الكفر موضع الايمان وقيل المراد بالظالمين الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا قال الزجاج هل يهلك الا أنتم ومن أشبهكم وياباه تخصيص الاتيان بهم وقيل الاستفهام بمعنى النفى فمتعلق الاستخبار حينئذ محذوف كأنه قيل أخبرونى ان أتاكم عذابه تعالى بغتة أوجهرة ماذا يكون الحال ثم قيل بيانا لذلك ما يهلك الا القوم الظالمون أى ما يهلك بذلك العذاب الخاص بكم الا أنتم فمن قيد الهلاك بهلاك التعذيب والسخط لتحقيق الحصر باخراج غير الظالمين لما أنه ليس بطريق التعذيب والسخط بل بطريق الاثابة ورفع الدرجة فقد أهمل ما يجديه واشتغل بما لا يعنيه وأخل بجزالة النظم الكريم وقرئ هل يهلك من الثلاثى ﴿وما نرسل المرسلين﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان وظائف منصب الرسالة على الاطلاق وتحقيق ما فى عهدة الرسل عليهم السلام واظهار أن ما يقترحه الكفرة عليه عليه السلام ليس مما يتعلق بالرسالة أصلا وصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الالهية وقوله تعالى ﴿الا مبشرين ومنذرين﴾ حالان مقدرتان من المرسلين أى ما نرسلهم الا مقدرا تبشيرهم وانذارهم ففيهما معنى العلة الغائية قطعا أى ليبشروا قومهم بالثواب على الطاعة وينذروهم بالعقاب على المعصية أى ليخبروهم بالخبر السار والخبر الضار دنيويا كان أوأخرويا ومن غير أن يكون لهم دخل ما فى وقوع المخبر به أصلا وعليه يدور القصر والالزم أن لا يكون بيان الشرائع والأحكام من وظائف الرسالة والفاء فى قوله تعالى ﴿فمن آمن وأصلح﴾ لترتيب ما بعدها على ماقبلها ومن موصولة والفاء فى قوله تعالى ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ لشبه الموصول بالشرط أى لا خوف عليهم من العذاب الذى أنذروه دنيويا كان أو أخرويا ولا هم يحزنون بفوات ما بشروا به من الثواب العاجل والآجل وتقديم نفى الخوف على نفى الحزن لمراعاة حق المقام وجمع الضمائر الثلاثة الراجعة الى من باعتبار معناها كما أن افراد الضميرين السابقين باعتبار لفظها أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما تقرر فى موضعه من أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ألا يرى أن الجملة الاسمية تدل بمعونة المقام على استمرار الثبوت فاذا دخل عليها حرف النفى دلت على استمرار الانتفاء لا على انتفاء الاستمرار كذلك المضارع الخالى عن حرف النفى يفيد استمرار الثبوت فاذا دخل عليه حرف النفى

يفيد استمرار الانتفاء لا انتفاء الاستمرار ولا بعد فى ذلك فان قولك ما زيدا ضربت مفيد لاختصاص النفى لا نفى الاختصاص كما بين فى محله وقوله عز وجل ﴿والذين كذبوا﴾ عطف على من آمن داخل فى حكمه وقوله تعالى ﴿بآياتنا﴾ اشارة الى أن ما ينطق به الرسل عليهم السلام عند التبشير والانذار ويبلغونه الى الامم آياته تعالى وأن من آمن به فقد آمن بآياته تعالى ومن كذب به فقد كذب بها وفيه من الترغيب فى الايمان به والتحذير عن تكذيبه ما لا يخفى والمعنى ما نرسل المرسلين الا ليخبروا أممهم من جهتنا بما سيقع منا من الامور السارة والضارة لا ليوقعوها استقلالا من تلقاء أنفسهم أو استدعاء من قبلنا حتى يقترحوا عليهم ما يقترحون فاذا كان الامر كذلك فمن آمن بما أخبروا به من قبلنا تبشيرا أو انذارا فى ضمن آياتنا وأصلح ما يجب اصلاحه من أعماله أو دخل فى الصلاح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا التى بلغوها عند التبشير والانذار ﴿يمسهم العذاب﴾ أى العذاب الذى أنذروه عاجلا أو آجلا أو حقيقة العذاب وجنسه المنتظم له انتظاما أوليا ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أى بسبب فسقهم المستمر الذى هو الاصرار على الخروج عن التصديق والطاعة ﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله﴾ استئناف مبنى على ما أسس من السنة الالهية فى شأن ارسال الرسل وانزال الكتب مسوق لاظهار تبرئه صلى الله عليه وسلم عما يدور عليه مقترحاتهم أى قل للكفرة الذين يقترحون عليك تارة تنزيل الآيات وأخرى غير ذلك لا أدعى أن خزائن مقدوراته تعالى مفوضة الى أتصرف فيها كيفما أشاء استقلالا أو استدعاء حتى تقترحوا على تنزيل الآيات أو انزال العذاب أو قلب الجبال ذهبا أو غير ذلك مما لا يليق بشأنى وجعل هذا تبرؤا عن دعوى الالهية مما لا وجه له قطعا وقوله تعالى ﴿ولا أعلم الغيب﴾ عطف على محل عندى خزائن الله أى ولا أدعى أيضا أنى أعلم الغيب من أفعاله تعالى حتى تسألونى عن وقت الساعة أو وقت نزول العذاب أو نحوهما ﴿ولا أقول لكم انى ملك﴾ حتى تكلفونى من الافاعيل الخارقة للعادات ما لا يطيق به البشر من الرقى فى السماء ونحوه أو تعدوا عدم اتصافى بصفاتهم قادحا فى أمرى كما ينبئ عنه قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق والمعنى انى لا أدعى شيأ من هذه الاشياء الثلاثة حتى تقترحوا على ما هو من آثارها وأحكامها وتجعلوا عدم اجابتى الى ذلك دليلا على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة التى لا تعلق لها بشئ مما ذكر قطعا بل انما هى عبارة عن تلقى الوحى من جهة الله عز وجل والعمل بمقتضاه فحسب حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ان أتبع الا ما يوحى الى﴾ لا على معنى تخصيص اتباعه صلى الله عليه وسلم بما يوحى اليه دون غيره بتوجيه القصر الى المفعول بالقياس الى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر الى ما يتعلق بالفعل باعتبار النفى فى الاصل والاثبات فى القيد بل على معنى تخصيص حاله صلى الله عليه وسلم باتباع ما يوحى اليه بتوجيه القصر الى نفس الفعل بالقياس الى ما يغيره من الافعال لكن لا باعتبار النفى والاثبات معا فى خصوصية فان ذلك غير ممكن قطعا بل باعتبار النفى فيما يتضمنه من مطلق الفعل والاثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فان كل فعل من الافعال الخاصة كنصر مثلا ينحل عند التحقيق الى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل والى معنى خاص يقومه فان معناه فعل النصر برشدك الى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الاعطاء والمنع فمورد القصر فى الحقيقة ما يتعلق بالفعل بتوجيه النفى الى الاصل والاثبات الى القيد كأنه قيل ما أفعل الا اتباع ما يوحى الى من غير أن يكون لى مدخل ما فى الوحى أو فى الموحى بطريق الاستدعاء أو بوجه آخر من الوجوه أصلا ﴿قل هل يستوى الأعمى والبصير﴾ مثل للضال والمهتدى على الاطلاق والاستفهام انكارى والمراد انكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ومن يعلمها وفيه من الاشعار بكمال ظهورها ومن التنفير عن الضلال والترغيب فى الاهتداء ما لا يخفى وتكرير الأمر لتثنية التبكيت وتأكيد الالزام وقوله تعالى

﴿أفلا تتفكرون﴾ تقريع وتوبيخ داخل تحت الأمر والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا تسمعون هذا الكلام الحق فلا تتفكرون فيه أو أتسمعون فلا تتفكرون فيه فمناط التوبيخ فى الأول عدم الأمرين معا وفى الثانى عدم التفكر مع تحقق مايوجبه ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم﴾ بعد ماحكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن من الكفرة قوما لا يتعظون بتصريف الآيات الباهرة ولا يتأثرون بمشاهدة المعجزات القاهرة قد ايفت مشاعرهم بالكلية والتحقوا بالأموات وقرر ذلك بأن كرر عليهم من فنون التبكيت والالزام مايلقمهم الحجر أى القام فأبوا الا الاباء والنكير وما نجع فيهم عظة ولا تذكير وما أفادهم الانذار الا الاصرار على الانكار أمر عليه الصلاة والسلام بتوجيه الانذار الى من يتوقع منهم التأثر فى الجملة وهم المجوزون منهم للحشر على الوجه الآتى سواء كانوا جازمين بأصله كأهل الكتاب وبعض المشركين المعترفين بالبعث المترددين فى شفاعة آبائهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالأولين أو فى شفاعة الأصنام كالآخرين أو مترددين فيهما معا كبعض الكفرة الذين يعلم من حالهم أنهم اذا سمعوا بحديث البعث يخافون أن يكون حقا وأما المنكرون للحشر رأسا والقائلون به القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الأصنام فهم خارجون ممن أمر بانذارهم وقد قيل هم المفرطون فى الأعمال من المؤمنين ولا يساعده سباق النظم الكريم ولا سياقه بل فيه مايقضى باستحالة صحته كما ستقف عليه والضمير المجرور لما يوحى أو لما دل هو عليه من القرآن والمفعول الثانى للانذار اما العذاب الأخروى المدلول عليه بما فى حيز الصلة واما مطلق العذاب الذى ورد به الوعيد والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلى لتربية المهابة وتحقيق المخافة وقوله تعالى ﴿ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع﴾ فى حيز النصب على الحالية من ضمير يحشروا ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من اسم ليس لأنه فى الأصل صفة له فلما قدم عليه انتصب حالا خلا أن الحال الأولى لاخراج الحشر الذى لم يقيد بها عن حيز الخوف وتحقيق أن مانيط به الخوف هو الحشر على تلك الحالة لا الحشر كيفما كان ضرورة أن المعترفين به الجازمين بنصرة غيره تعالى بمنزلة المنكرين له فى عدم الخوف الذى عليه يدور أمر الانذار وأما الحال الثانية فليست لاخراج الولى الذى لم يقيد بها عن حيز الانتفاء لفساد المعنى لاستلزام ثبوت ولايته تعالى لهم كما فى قوله تعالى ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير بل لتحقيق مدار خوفهم وهو فقدان ماعلقوا به رجاءهم وذلك انما هو ولاية غيره سبحانه وتعالى فى قوله تعالى ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء والمعنى أنذر به الذين يخافون أن يحشروا غير منصورين من جهة أنصارهم على زعمهم ومن هذا اتضح أن لاسبيل الى كون المراد بالخائفين المفرطين من المؤمنين اذ ليس لهم ولى سواه تعالى ليخافوا الحشر بدون نصرته وانما الذى يخافونه الحشر بدون نصرته عز وجل وقوله تعالى ﴿لعلهم يتقون﴾ تعليل للأمر أى أنذرهم لكى يتقوا الكفر والمعاصى أو حال من ضمير الأمر أى أنذرهم راجيا تقواهم أو من الموصول أى أنذرهم مرجوا منهم التقوى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى﴾ لما أمر صلى الله عليه وسلم بانذار المذكورين لينتظموا فى سلك المتقين نهى صلى الله عليه وسلم عن كون ذلك بحيث يؤدى الى طردهم . روى أن رؤساء من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو طردت هؤلاء الأعبد وأرواح جباههم يعنون فقراء المسلمين كعمار وصهيب وخباب وبلال وأضرابهم رضى الله تعالى عنهم جلسنا اليك وحادثناك فقال صلى الله عليه وسلم ماأنا بطارد المؤمنين فقالوا فأقمهم عنا اذا جئنا فاذا قمنا فأقعدهم معك ان شئت قال صلى الله عليه وسلم نعم طمعا فى ايمانهم . وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال له عليه الصلاة والسلام لو فعلت حتى ننظر الى مايصيرون وقيل ان عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدى والحرث بن نوفل وقرصة بن عبيد وعمرو بن نوفل

وأشراف بنى عبد مناف من أهل الكفر أتوا أبا طالب فقالوا يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمدا يطرد موالينا وخلفاءنا وهم عبيدنا وعتقاؤنا كان أعظم فى صدورنا وأدنى لاتباعنا اياه فأتى أبو طالب الى النبى صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذى كلموه فقال عمر رضى الله عنه لو فعلت ذلك حتى ننظر ماالذى يريدون والى مايصيرون وقال سلمان وخباب فينا نزلت هذه الآية جاء الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وعباس بن مرداس وذو وهم من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبى صلى الله عليه وسلم جالسا مع أناس من ضعفاء المؤمنين فلما رأوهم حوله صلى الله عليه وسلم حقروهم فأتوه عليه الصلاة والسلام فقالوا يارسول الله لو جاست فى صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم فجالسناك وحادثناك وأخذنا عنك فقال صلى الله عليه وسلم ماأنا بطارد المؤمنين قالوا فانا نحب أن تجعل لنا معك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحيى أن ترانا مع هؤلاء الأعبد فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم ان شئت قال صلى الله عليه وسلم نعم قالوا فاكتب لنا كتابا فدعا بالصحيفة وبعلى رضى الله تعالى عنه ليكتب ونحن قعود فى ناحية فنزل جبريل عليه السلام بالآية فرمى عليه السلام بالصحيفة ودعانا فأتيناه وجلسنا عنده وكنا ندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته وكان يقوم عنا اذا أراد القيام فنزلت واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم فترك القيام عنا الى أن نقوم عنه وقال الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات والمراد بذكر الوقتين الدوام وقيل صلاة الفجر والعصر وقرئ بالغدوة وقوله تعالى ﴿يريدون وجهه﴾ حال من ضمير يدعون أى يدعونه تعالى مخلصين له فيه وتقييده به لتأكيد عليته للنهى فان الاخلاص من أقوى موجبات الاكرام المضاد للطرد وقوله تعالى ﴿ماعليك من حسابهم من شئ﴾ اعتراض وسط بين النهى وجوابه تقريرا له ودفعا لما عسى يتوهم كونه مسوغا لطردهم من أقاويل الطاعنين فى دينهم كدأب قوم نوح حيث قالوا مانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى أى ماعليك شئ مامن حساب ايمانهم وأعمالهم الباطنة حتى تتصدى له وتبنى على ذلك ما تراه من الأحكام وانما وظيفتك حسبما هو شأن منصب النبوة اعتبار ظواهر الأعمال واجراء الأحكام على موجبها وأما بواطن الأمور فحسابها على العليم بذات الصدور كقوله تعالى ان حسابهم الا على ربى وذكر قوله تعالى ﴿وما من حسابك عليهم من شئ﴾ مع أن الجواب قد تم بما قبله للمبالغة فى بيان انتفاء كون حسابهم عليه صلى الله عليه وسلم بنظمه فى سلك ما لاشبهة فيه أصلا وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام عليهم على طريقة قوله تعالى لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون وأما ماقيل من أن ذلك لتنزيل الجملتين منزلة جملة واحدة لتأدية معنى واحد على نهج قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى فغير حقيق بجلالة شأن التنزيل وتقديم عليك فى الجملة الأولى للقصد الى ايراد النفى على اختصاص حسابهم به صلى الله عليه وسلم اذ هو الداعى الى تصديه عليه الصلاة والسلام لحسابهم وقيل الضمير للمشركين والمعنى انك لا تؤاخذ بحسابهم حتى يهمك ايمانهم ويدعوك الحرص عليه الى أن تطرد المؤمنين وقوله تعالى ﴿فتطردهم﴾ جواب النفى وقوله تعالى ﴿فتكون من الظالمين﴾ جواب النهى وقد جوز عطفه على فتطردهم على طريقة التسبيب وليس بذاك ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ استئناف مبين لما نشأ عنه ماسبق من النهى وذلك اشارة الى مصدر مابعده من الفعل الذى هو عبارة عن تقديمه تعالى لفقراء المؤمنين فى أمر الدين بتوفيقهم للايمان مع ماهم عليه فى أمر الدنيا من كمال سوء الحال وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الكمال والكاف مقحمة لتأكيد ماأفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الاصل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف والتقدير فتنا بعضهم ببعض فتونا كائنا مثل ذلك الفتون ثم قدم على الفعل لافادة القصر المفيد لعدم القصور فقط واعتبرت الكاف مقحمة فصار نفس المصدر

المؤكد لانعتاً له والمعنى ذلك الفتون الكامل البديع فتنا أى ابتلينا بعض الناس ببعضهم لافتونا غيره حيث قدمنا الآخرين فى أمر الدين على الاولين المتقدمين عليهم فى أمر الدنيا تقدما كليا واللام فى قوله تعالى ﴿ليقولوا﴾ للعاقبة أى ليقول البعض الأولون مشيرين الى الآخرين محقرين لهم نظرا الى مابينهما من التفاوت الفاحش الدنيوى وتعاميا عما هو مناط التفضيل حقيقة ﴿أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ بأن وفقهم لاصابة الحق ولما يسعدهم عنده تعالى من دوننا ونحن المقدمون والرؤساء وهم العبيد والفقراء وغرضهم بذلك انكار وقوع المن رأسا على طريقة قولهم لوكان خيرا ماسبقونا اليه لاتحقير الممنون عليهم مع الاعتراف بوقوعه بطريق الاعتراض عليه تعالى وقوله تعالى ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ رد لقولهم ذلك وابطال له واشارة الى أن مدار استحقاق الانعام معرفة شأن النعمة والاعتراف بحق المنعم والاستفهام لتقرير عليه البالغ بذلك أى أليس الله بأعلم بالشاكرين لنعمه حتى تستبعدوا انعامه عليهم وفيه من الاشارة الى أن أولئك الضعفاء عارفون بحق نعم الله تعالى فى تنزيل القرآن والتوفيق للايمان شاكرون له تعالى على ذلك مع التعريض بأن القائلين بمعزل من ذلك كله مالا يخفى ﴿واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا﴾ هم الذين نهى عن طردهم وصفوا بالايمان بآيات الله عز وجل كما وصفوا بالمداومة على عبادته تعالى بالاخلاص تنبيها على احرازهم لفضيلتى العلم والعمل وتأخير هذا الوصف مع تقدمه على الوصف الأول لما أن مدار الوعد بالرحمة والمغفرة هو الايمان بها كما أن مناط النهى عن الطرد فيما سبق هو المداومة على العبادة وقوله تعالى ﴿فقل سلام عليكم﴾ أمر بتبشيرهم بالسلامة عن كل مكروه بعد انذار مقابليهم وقيل بتبليغ سلامه تعالى اليهم وقيل بأن يبدأهم بالسلام وقوله تعالى ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أى قضاها وأوجبها على ذاته المقدسة بطريق التفضل والاحسان بالذات لابتوسط شىء ما أصلا تبشيرلهم بسعة رحمته تعالى و بنيل المطالب اثر تبشيرهم بالسلامة عن المكاره وقبوله التوبة منهم و فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم اظهار اللطف بهم والاشعار بعلة الحكم وقيل ان قوما جاءوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا انا أصبنا ذنوبا عظاما فلم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا فنزلت وقوله تعالى ﴿أنه من عمل منكم سوءا﴾ بدل من الرحمة وقرىء بكسر انه على أنه تفسير للرحمة بطريق الاستئناف وقوله تعالى ﴿بجهالة﴾ حال من فاعل عمل أى عمله وهو جاهل بحقيقة مايتبعه من المضار والتقييد بذلك للايذان بأن المؤمن لايباشر مايعلم أنه يؤدى الى الضرر أو عمله ملتبسا بجهالة ﴿ثم تاب من بعده﴾ أى من بعد عمله أو من بعد سفهه ﴿وأصلح﴾ أى ماأفسده تداركا وعزما على أن لايعود اليه أبدا ﴿فأنه غفور رحيم﴾ أى فأمره أنه غفور رحيم أو فله أنه غفور رحيم وقرىء فانه بالكسر على أنه استئناف وقع فى صدر الجملة الواقعة خبراً لمن على أنها موصولة أوجزايا لها على أنها شرطية ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ قد مر آنفا مافيه من الكلام أى هذا التفصيل البديع نفصل الآيات فى صفة أهل الطاعة وأهل الاجرام المصرين منهم والأوابين ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ بتأنيث الفعل بناء على تأنيث الفاعل وقرىء بالتذكير بناء على تذكيره فان السبيل مما يذكر و يؤنث وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور لم يقصد تعليله بها بعينها وانما قصد الاشعار بأن له فوائد جمة من جملتها ماذكر أو علة لفعل مقدر هو عبارة عن المذكور فيكون مستأنفا أى ولتستبين سبيلهم نفعل مانفعل من التفصيل وقرىء بنصب السبيل على أن الفعل متعد وتاؤه للخطاب أى ولتستوضح أنت يامحمد سبيل المجرمين فتعاملهم بما يليق بهم ﴿قل انى نهيت﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بالرجوع الى مخاطبة المصرين على الشرك اثر ماأمر بمعاملة من عداهم من أهل الانذار والتبشير بما يليق بحالهم أى قل لهم قطعا لاطماعهم الفارغة عن ركونه عليه الصلاة والسلام اليهم و بيانا لكون ماهم عليه من الدين هوى محضا وضلالا بحتا انى صرفت و زجرت بما نصب لى

من الأدلة وأنزل على من الآيات فى أمر التوحيد ﴿أن أعبد الذين تدعون﴾ أى عن عبادة ماتعبدونه ﴿من دون الله﴾ كائنا ماكان ﴿قل﴾ كرر الأمر مع قرب العهد اعتناء بشأن المأمور به أو ايذانا باختلاف المقولين من حيث أن الأول حكاية لما من جهته تعالى من النهى والثانى حكاية لما من جهته صلى الله عليه وسلم من الانتهاء عما ذكر من عبادة مايعبدونه وانما قيل ﴿لاأتبع أهواءكم﴾ استجهالا لهم وتنصيصا على أنهم فيما هم فيه تابعون لأهواء باطلة وليسوا على شىء مما ينطلق عليه الدين أصلا واشعارا بما يوجب النهى والانتهاء وقوله تعالى ﴿قد ضللت إذاً﴾ استئناف مؤكد لانتهائه عما نهى عنه مقرر لكونهم فى غاية الضلال والغواية أى ان اتبعت أهواءكم فقد ضللت وقوله تعالى ﴿وما أنا من المهتدين﴾ عطف على ماقبله والعدول الى الجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار أى دوام النفى واستمراره لانفى الدوام والاستمرار كما مر مرارا أى ماأنا فى شىء من الهدى حين أكون فى عبادهم وقوله تعالى ﴿قل انى على بينة﴾ تحقيق للحق الذى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم و بيان لاتباعه اياه اثر ابطال الباطل الذى عليه الكفرة و بيان عدم اتباعه له والبينة الحجة الواضحة التى تفصل بين الحق والباطل والمراد بها القرآن والوحى وقيل هى الحجج العقلية أو مايعمها و لا يساعده المقام والتنوين للتفخيم وقوله تعالى ﴿من ربى﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لبينة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم من التشريف و رفع المنزلة مالايخفى وقوله تعالى ﴿وكذبتم به﴾ اما جملة مستأنفة أو حالية بتقدير قد أو بدونه جىء بها لاستقباح مضمونها واستبعاد وقوعه مع تحقق مايقتضى عدمه من غاية وضوح البينة والضمير المجرور للبينة والتذكير باعتبار المعنى المراد والمعنى انى على بينة عظيمة كائنة من ربى وكذبتم بها و بما فيها من الاخبار التى من جملتها الوعيد بمجىء العذاب وقوله تعالى ﴿ماعندى ماتستعجلون به﴾ استئناف مبين لخطئهم فى شأن ماجعلوه منشأ لتكذيبهم بها وهو عدم مجىء ماوعد فيها من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد ان كنتم صادقين بطريق الاستهزاء أو بطريق الالزام على زعمهم أى ليس ماتستعجلونه من العذاب الموعود فى القرآن وتجعلون تأخره ذريعة الى تكذيبه فى حكمى وقدرتى حتى أجىء به وأظهر لكم صدقه أو ليس أمره بمفوض الى ﴿ان الحكم﴾ أى ما الحكم فى ذلك تعجيلا وتأخيرا أو ما الحكم فى جميع الأشياء فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا ﴿الا لله﴾ وحده من غير أن يكون لغيره دخل ما فيه بوجه من الوجوه وقوله تعالى ﴿يقص الحق﴾ أى يتبعه بيان لشئونه تعالى فى الحكم المعهود أو فى جميع أحكامه المنتظمة له انتظاما أوليا أى لايحكم الا بما هو حق فيثبت حقيقة التأخير وقرىء يقضى فانتصاب الحق حينئذ على المصدرية أى يقضى القضاء الحق أو على المفعولية أى يصنع الحق ويدبره من قولهم قضى الدرع اذا صنعها وأصل القضاء الفصل بتمام الأمر وأصل الحكم المنع فكأنه يمنع الباطل عن معارضة الحق أو الخصم عن التعدى على صاحبه ﴿وهو خير الفاصلين﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله مشير الى أن قص الحق هنا بطريق خاص هو الفصل بين الحق والباطل هذا هو الذى تستدعيه جزالة التنزيل وقد قيل ان المعنى انى من معرفة ربى وأنه لامعبود سواه على حجة واضحة وشاهد صدق وكذبتم به أنتم حيث أشركتم به تعالى غيره وأنت خبير بأن مساق النظم الكريم فيما سبق وما لحق على وصفهم بتكذيب آيات الله تعالى بسبب عدم مجىء العذاب الموعود فيها فتكذيبهم به سبحانه فى أمر التوحيد مما لاتعلق له بالمقام أصلا ﴿قل لو أن عندى﴾ أى فى قدرتى ومكنتى ﴿ماتستعجلون به﴾ من العذاب الذى ورد به الوعيد بأن يكون أمره مفوضا الى من جهته تعالى ﴿لقضى الأمر بينى و بينكم﴾ أى بأن ينزل ذلك عليكم اثر استعجالكم بقولكم متى هذا الوعد ونظائره و فى بناء الفعل للمفعول من الايذان بتعين الفاعل الذى هو

الله تعالى وتهويل الأمر ومراعاة حسن الأدب مالايخفى فما قيل فى تفسيره لأهلكتكم عاجلا غضبا لربى ولتخلصت منكم سريعا بمعزل من توفية المقام حقه وقوله تعالى ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ اعتراض مقرر لما أفادته الجملة الامتناعية من انتفاء كون أمر العذاب مفوضا اليه صلى الله عليه وسلم المستتبع لانتفاء قضاء الأمر وتعليل له والمعنى والله تعالى أعلم بحال الظالمين وبأنهم مستحقون للامهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب ولذلك لم يفوض الأمر الى فلم يقض الأمر بتعجيل العذاب والله أعلم ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ بيان لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى من حيث العلم اثر بيان اختصاص كلها به تعالى من حيث القدرة والمفاتح اما جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن فهو مستعار لمكان الغيب كأنها مخازن خزنت فيها الأمور الغيبية يغلق عليها ويفتح واما جمع مفتح بكسرها وهو المفتاح ويؤيده قراءة من قرأ مفاتيح الغيب فهو مستعار لما يتوصل به الى تلك الأمور بناء على الاستعارة الأولى أى عنده تعالى خاصة خزائن غيوبه أو مايتوصل به اليها وقوله عز وجل ﴿لايعلمها الا هو﴾ تأكيد لمضمون ماقبله وايذان بأن المراد هو الاختصاص من حيث العلم لا من حيث القدرة والمعنى أن ماتستعجلونه من العذاب ليس مقدورا لى حتى ألزمكم بتعجيله ولا معلوما لدى لأخبركم وقت نزوله بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلما فينزله حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وقوله تعالى ﴿ويعلم مافى البر والبحر﴾ بيان لتعلق علمه تعالى بالمشاهدات اثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملة له وتنبيها على أن الكل بالنسبة الى علمه المحيط سواء فى الجلاء أى يعلم مافيهما من الموجودات مفصلة على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثر أفرادها وقوله تعالى ﴿وما تسقط من ورقة الا يعلمها﴾ بيان لتعلقه بأحوالها المتغيرة بعد بيان تعلقه بذواتها فان تخصيص حال السقوط بالذكر ليس الا بطريق الاكتفاء بذكرها عن ذكر سائر الأحوال كما أن ذكر حال الورقة وماعطف عليها خاصة دون أحوال سائر مافيهما من فنون الموجودات الفائتة للحصر باعتبار أنها أنموذج لأحوال سائرها وقوله تعالى ﴿ولاحبة﴾ عطف على ورقة وقوله تعالى ﴿فى ظلمات الأرض﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لحبة مفيدة لكمال نفوذ علمه تعالى أى ولاحبة كائنة فى بطون الأرض الا يعلمها وكذا قوله تعالى ﴿ولارطب ولايابس﴾ معطوفان عليها داخلان فى حكمها وقوله تعالى ﴿الا فى كتاب مبين﴾ بدل من الاستثناء الأول بدل الكل على أن الكتاب المبين عبارة عن علمه تعالى أو بدل الاشتمال على أنه عبارة عن اللوح المحفوظ وقرئ الاخيران بالرفع عطفا على محل من ورقة وقيل رفعهما بالابتداء والخبر الا فى كتاب مبين وهو الأنسب بالمقام لشمول الرطب واليابس حينئذ لما ليس من شأنه السقوط وقد نقل قراءة الرفع فى ولاحبة أيضا ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل﴾ أى ينيمكم فيه على استعارة التوفى من الاماتة للانامة لما بين الموت والنوم من المشاركة فى زوال الاحساس والتمييز وأصله قبض الشئ بتمامه ﴿ويعلم ماجرحتم بالنهار﴾ أى ماكسبتم فيه والمراد بالليل والنهار الجنس المتحقق فى كل فرد من افرادهما اذ بالتوفى والبعث الموجودين فيها يتحقق قضاء الاجل المسمى المترتب عليها لا فى بعضها والمراد بعلمه تعالى ذلك علمه قبل الجرح كما يلوح به تقديم ذكره على البعث أى يعلم ماتجرحون بالنهار وصيغة الماضى للدلالة على التحقق وتخصيص التوفى بالليل والجرح بالنهار مع تحقق كل منهما فيما خص بالآخر للجرى على سنن العادة ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ أى يوقظكم فى النهار عطف على يتوفاكم وتوسيط قوله تعالى ويعلم الخ بينهما لبيان مافى بعثهم من عظيم الاحسان اليهم بالتنبيه على أن مايكتسبونه من السيئات مع كونها موجبة لابقائهم على التوفى بل لاهلاكهم بالمرة يفيض عليهم الحياة ويمهلهم كما ينبئ عنه كلمة التراخى كأنه قيل هو الذى يتوفاكم فى جنس الليالى ثم يبعثكم فى جنس النهر مع علمه بما ستجرحون فيها ﴿ليقضى أجل مسمى﴾ معين لكل فرد فرد بحيث لايكاد يتخطى أحد ماعين له طرفة عين ﴿ثم اليه مرجعكم﴾

أى رجوعكم بالموت لا الى غيره أصلا ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ بالمجازاة باعمالكم التى كنتم تعملونها فى تلك الليالى والأيام وقيل الخطاب مخصوص بالكفرة والمعنى انكم ملقون كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار وانه تعالى مطلع على أعمالكم يبعثكم الله من القبور فى شأن ماقطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ليقضى الأجل الذى سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم وفيه مالايخفى من التكلف والاخلال لافضائه الى كون البعث معللا بقضاء الأجل المضروب له ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ أى هو المتصرف فى أمورهم لاغيره يفعل بهم مايشاء ايجادا واعداما واحياء واماتة وتعذيبا واثابة الى غير ذلك ﴿ويرسل عليكم﴾ خاصة أيها المكلفون ﴿حفظة﴾ من الملائكة وهم الكرام الكاتبون وعليكم متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقيل متعلق بمحذوف هو حال من حفظة اذ لو تأخر لكان صفة أى كائنين عليكم وقيل متعلق بحفظة والمحفوظ محذوف على كل حال أى يرسل عليكم ملائكة يحفظون أعمالكم كائنة ماكانت وفى ذلك حكمة جليلة ونعمة جليلة لما أن المكلف اذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رؤس الاشهاد كان ذلك أزجر له عن تعاطى المعاصى والقبائح وأن العبد اذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشمه احتشامه من خدمه الواقفين على أحواله وحتى فى قوله تعالى ﴿حتى اذا جاء أحدكم الموت﴾ هى التى يبتدأ بها الكلام وهى مع ذلك تجعل مابعدها من الجملة الشرطية غاية لما قبلها كأنه قيل ويرسل عليكم حفظة يحفظون أعمالكم مدة حياتكم حتى اذا انتهت مدة أحدكم كائنا من كان وجاءه أسباب الموت ومباديه ﴿توفته رسلنا﴾ الآخرون المفوض اليهم ذلك وهم ملك الموت وأعوانه وانتهى هناك حفظ الحفظة وقرئ توفاه ماضيا أو مضارعا بطرح احدى التاءين ﴿وهم﴾ أى الرسل ﴿لايفرطون﴾ أى بالتوانى والتأخير وقرئ مخففا من الافراط أى لايجاوزون ماحدلهم بزيادة أو نقصان والجملة حال من رسلنا وقيل مستأنفة سيقت لبيان اعتنائهم بما أمروا به وقوله تعالى ﴿ثم ردوا﴾ عطف على توفته والضمير للكل المدلول عليه بأحدكم وهو السر فى مجيئه بطريق الالتفات تغليبا والافراد أولا والجمع آخرا لوقوع التوفى على الانفراد والرد على الاجتماع أى ثم ردوا بعد البعث بالحشر ﴿الى الله﴾ أى الى حكمه وجزائه فى موقف الحساب ﴿مولاهم﴾ أى مالكهم الذى يلى أمورهم على الاطلاق لاناصر هم كما فى قوله تعالى وأن الكافرين لامولى لهم ﴿الحق﴾ الذى لايقضى الا بالعدل وقرئ بالنصب على المدح ﴿ألاله الحكم﴾ يومئذ صورة ومعنى لا لأحد غيره بوجه من الوجوه ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ يحاسب جميع الخلائق فى أسرع زمان وأقصره لايشغله حساب عن حساب ولاشأن عن شأن وفى الحديث ان الله تعالى يحاسب الكل فى مقدار حلب شاة ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ أى قل تقريرا لهم بانحطاط شركائهم عن رتبة الالهية من ينجيكم من شدائدهما الهائلة التى تبطل الحواس وتدهش العقول ولذلك استعير لها الظلمات المبطلة لحاسة البصر يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب أو من الخسف فى البر والغرق فى البحر وقرئ ينجيكم من الانجاء والمعنى واحد وقوله تعالى ﴿تدعونه﴾ نصب على الحالية من مفعول ينجيكم والضمير لمن أى من ينجيكم منها حال كونكم داعين له أو من فاعله أى من ينجيكم منها حال كونه مدعوا من جهتكم وقوله تعالى ﴿تضرعا وخفية﴾ اما حال من فاعل تدعونه أو مصدر مؤكد له أى تدعونه متضرعين جهارا ومسرين أو تدعونه دعاء اعلان واخفاء وقرئ خفية بكسر الخاء وقوله تعالى ﴿لئن أنجيتنا﴾ حال من الفاعل أيضا على تقدير القول أى تدعونه قائلين لئن أنجيتنا ﴿من هذه﴾ الشدة والورطة التى عبر عنها بالظلمات ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ أى الراسخين فى الشكر المداومين عليه لأجل هذه النعمة أو جميع النعماء التى من جملتها هذه

وقرئ لئن أنجانا مراعاة لقوله تعالى تدعونه ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ أمر صلى الله عليه وسلم بتقرير الجواب مع كونه من وظائفهم للايذان بأنه متعين عندهم ولبناء قوله تعالى ﴿ثم أنتم تشركون﴾ عليه أى الله تعالى وحده ينجيكم مما تدعونه الى كشفه من الشدائد المذكورة وغيرها من الغموم والكرب ثم أنتم بعد ماتشاهدون هذه النعم الجليلة تشركون بعبادته تعالى غيره وقرئ ينجيكم بالتخفيف وقوله تعالى ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا﴾ استئناف مسوق لبيان أنه تعالى هو القادر على القائهم فى المهالك اثر بيان أنه هو المنجى لهم منها وفيه وعيد ضمنى بالعذاب لاشراكهم المذكور على طريقة قوله عز وجل أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر الى قوله تعالى أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى الآية وعليكم متعلق ببيعث وتقديمه على مفعوله الصريح للاعتناء به والمسارعة الى بيان كون المبعوث مما يضرهم ولتهويل أمر المؤخر وقوله تعالى ﴿من فوقكم﴾ متعلق به أيضا أو بمحذوف وقع صفة لعذابا أى عذابا كائنا من جهة الفوق كما فعل بمن فعل من قوم لوط وأصحاب الفيل وأضرابهم ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ أو من جهة السفل كما فعل بفرعون وقارون وقيل من فوقكم أكابركم ورؤسائكم ومن تحت أرجلكم سفلتكم وعبيدكم وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع فلا منع لما كان من الجهتين معا كما فعل بقوم نوح ﴿أو يلبسكم شيعا﴾ أى يخلطكم فرقا متحزبين على أهواء شتى كل فرقة مشايعة لامام فينشب بينكم القتال فتختلطوا فى الملاحم كقول الحماسى

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى اذا التبست نفضت لها يدى

﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ عطف على يبعث وقرئ بنون العظمة على طريقة الالتفات لتهويل الأمر والمبالغة فى التحذير والبعض الأول الكفار والآخر المؤمنون ففيه وعد ووعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال عند قوله تعالى عذابا من فوقكم أعوذ بوجهك وعند قوله تعالى أو من تحت أرجلكم أعوذ بوجهك وعند قوله تعالى أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض هذا أهون أو هذا أيسر وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال سألت ربى أن لا يبعث على أمتى عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطانى ذلك وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنى ذلك ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ من حال الى حال ﴿لعلهم يفقهون﴾ كى يفقهوا ويقفوا على جلية الامر فيرجعوا عما هم عليه من المكابرة والعناد ﴿وكذب به﴾ أى بالعذاب الموعود أو القرآن المجيد الناطق بمجيئه ﴿قومك﴾ أى المعاندون منهم ولعل ايرادهم بهذا العنوان للايذان بكمال سوء حالهم فان تكذيبهم بذلك مع كونهم من قومه عليه الصلاة والسلام مما يقضى بغاية عتوهم ومكابرتهم وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من اظهار الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقوله تعالى ﴿وهو الحق﴾ حال من الضمير المجرور أى كذبوا به والحال أنه الواقع لامحالة أو انه الكتاب الصادق فى كل ما نطق به وقيل هو استئناف وأيا ما كان ففيه دلالة على عظم جنايتهم ونهاية قبحها ﴿قل﴾ لهم منبها على ما يؤل اليه أمرهم وعلى أنك قد أديت ما عليك من وظائف الرسالة ﴿لست عليكم بوكيل﴾ بحفيظ وكل الى أمركم لامنعكم من التكذيب وأجبركم على التصديق انما أنا منذر وقد خرجت عن العهدة حيث أخبرتكم بما سترونه ﴿لكل نبأ﴾ أى لكل شئ ينبأ به من الانباء التى من جملتها عذابكم أو لكل خبر من الاخبار التى من جملتها خبر مجيئه ﴿مستقر﴾ أى وقت استقرار ووقوع البتة أو وقت استقرار بوقوع مدلوله ﴿وسوف تعلمون﴾ أى حال نبئكم فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معا وسوف للتأكيد كما فى قوله تعالى ولتعلمن نبأه بعد حين ﴿واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا﴾ أى بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها كما هو دأب قريش وديدنهم ﴿فأعرض عنهم﴾ بترك مجالستهم والقيام عنهم وقوله تعالى ﴿حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾ غاية للاعراض أى استمر على الاعراض الى أن يخوضوا فى حديث غير آياتنا

والتذكير باعتبار كونها حديثا فان وصف الحديث بمغايرتها مشير الى اعتبارها بعنوان الحديثية وقيل باعتبار كونها قرآنا ﴿واما ينسينك الشيطان﴾ بأن يشغلك فتنسى النهى فتجالسهم ابتداء أو بقاء وقرئ ينسينك من النسية ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ أى بعد تذكر النهى ﴿مع القوم الظالمين﴾ أى معهم فوضع المظهر موضع المضمر نعيا عليهم أنهم بذلك الخوض ظالمون واضعون للتكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم راسخون فى ذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المسلمين حين نهوا عن مجالستهم عند خوضهم فى الآيات قالوا لئن كنا نقول كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت فنزلت أى ما على الذين يتقون قبائح أعمال الخائضين وأحوالهم ﴿من حسابهم﴾ أى مما يحاسبون عليه من الجرائر ﴿من شئ﴾ أى شئ ما على أنه فى محل الرفع على أنه مبتدأ وما تميمية أو اسم لها وهى حجازية ومن مزيدة للاستغراق ومن حسابهم حال منه وعلى الذين يتقون فى محل الرفع على أنه خبر للمبتدا أو لما الحجازية على رأى من لا يجيز اعمالها فى الخبر المقدم مطلقا أو فى محل النصب على رأى من يجوز اعمالها فى الخبر المقدم عند كونه ظرفا أو حرف جر ﴿ولكن ذكرى﴾ استدراك من النفى السابق أى ولكن عليهم أن يذكروهم و يمنعوهم عما هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير و يظهروا لهم الكراهة والنكير ومحل ذكرى اما النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف أى عليهم أن يذكروهم تذكيرا أو الرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر أى ولكن عليهم ذكرى ﴿لعلهم يتقون﴾ أى يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم وقد جوز كون الضمير للموصول أى يذكروهم رجاء أن يثبتوا على تقواهم أو يزدادوها ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم﴾ الذى كلفوه وأمروا باقامة مواجبه ﴿لعبا ولهوا﴾ حيث سخروا به واستهزءوا أو بنوا أمر دينهم على مالا يكاد يتعاطاه العاقل بطريق الجد وانما يصدر عنه لو صدر بطريق اللعب واللهو كعبادة الاصنام وتحريم البحائر والسوائب ونحو ذلك والمعنى أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم وقيل هو تهديد لهم كقوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا الآية ﴿وغرتهم الحيوة الدنيا﴾ واطمأنوا بها حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبدا ﴿وذكر به﴾ أى بالقرآن من يصلح للتذكير ﴿أن تبسل نفس بما كسبت﴾ أى لئلا تبسل كقوله تعالى أن تضلوا الآية أو مخافة أن تبسل أو كراهة أن تبسل نفوس كثيرة كما فى قوله تعالى علمت نفس ما أحضرت وترتهن لسوء عملها وأصل الابسال والبسل المنع ومنه أسد باسل لان فريسته لا تفلت منه أو لانه يمتنع والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه وهذا بسل عليك أى حرام ممنوع وقد جوز أن يكون الضمير المجرور فى به راجعا الى الابسال مع عدم جريان ذكره كما فى ضمير الشأن وتكون الجملة بدلا منه مفسرا له لما فى الابهام أولا والتفسير ثانيا من التفخيم وزيادة التقرير كما فى قوله على جوده لضن بالماء حاتم بحر حاتم على أنه بدل من ضمير جوده فالمعنى وذكر بارتهان النفوس وحبسها بما كسبت وقوله تعالى ﴿ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع﴾ استئناف مسوق للاخبار بذلك وقيل فى محل النصب على أنه حال من ضمير كسبت وقيل فى محل الرفع على أنه وصف لنفس والاظهر أنه حال من نفس فانه فى قوة نفس كافرة أو نفوس كثيرة كما فى قوله تعالى علمت نفس ما أحضرت ومن دون الله متعلق بمحذوف هو حال من ولى كما بين فى تفسير قوله تعالى وأنذر به الآية وقيل هو خبر لليس فيكون لها حينئذ متعلقا بمحذوف على البيان ﴿وان تعدل﴾ أى ان تفد تلك النفس ﴿كل عدل﴾ أى كل فداء على أنه مصدر مؤكد ﴿لا يؤخذ منها﴾ على اسناد الفعل الى الجار والمجرور لا الى ضمير العدل كما فى قوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل فانه المفدى به لا المصدر كما نحن فيه ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى سوء الحال ومحله الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿الذين أبسلوا بما كسبوا﴾ والجملة مستأنفة سيقت اثر

تحذيرهم من الابسال المذكور لبيان أنهم المبتلون بذلك أى أولئك المتخذون دينهم لعبا ولهوا المغترون بالحياة الدنيا هم الذين أبسلوا بما كسبوا وقوله تعالى ﴿لهم شراب من حميم﴾ استئناف آخر مبين لكيفية الابسال المذكور وعاقبته مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل ماذا لهم حين أبسلوا بما كسبوا فقيل لهم شراب من ماء مغلى يتجرجر فى بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم ﴿وعذاب أليم﴾ بنار تشتعل بأبدانهم ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أى بسبب كفرهم المستمر فى الدنيا وقد جوز أن يكون لهم شراب الخ حالا من ضمير أبسلوا وترتيب ماذكر من العذابين على كفرهم مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضا حسبما ينطق به قوله تعالى بما كسبوا لانه العمدة فى ايجاب العذاب والأهم فى باب التحذير أوأريد بكفرهم ماهو أعم منه ومن مستتبعاته من المعاصى والسيئات هذا وقد جوز أن يكون أولئك اشارة الى النفوس المدلول عليها بنفس محله الرفع بالابتداء والموصول الثانى صفته أو بدل منه ولهم شراب الخ خبره والجملة مسوقة لبيان تبعة الابسال ﴿قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا﴾ قيل نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن الى عبادة الأصنام فتوجيه الأمر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للايذان بما بينهما من الاتصال والاتحاد تنويها لشأن الصديق رضى الله تعالى عنه أى أنعبد متجاوزين عبادة الله الجامع لجميع صفات الألوهية التى من جملتها القدرة على النفع والضر مالا يقدر على نفعنا اذا عبدناه ولا على ضرنا اذا تركناه وأدنى مراتب المعبودية القدرة على ذلك وقوله تعالى ﴿ونرد على أعقابنا﴾ عطف على ندعوا داخل فى حكم الانكار والنفى أى ونرد الى الشرك والتعبير عنه بالرد على الأعقاب لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ماهو علم فى القبح مع مافيه من الاشارة الى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر وايثار نرد على نرتد لتوجيه الانكار الى الارتداد برد الغير تصريحا بمخالفة المضلين وقطعا لاطماعهم الفارغة وايذانا بأن الارتداد من غير راد ليس فى حيز الاحتمال ليحتاج الى نفيه وانكاره وقوله تعالى ﴿بعد اذ هدانا الله﴾ أى الى الاسلام وأنقذنا من الشرك متعلق بنرد مسوق لتأكيد النكير لا لتحقيق معنى الرد وتصويره فقط والا لكفى أن يقال بعد اذ اهتدينا كأنه قيل ونرد الى الشرك باضلال المضل بعد اذ هدانا الله الذى لاهادى سواه وقوله تعالى ﴿كالذى استهوته الشياطين﴾ فى محل النصب على أنه حال من مرفوع نرد أى أنرد على أعقابنا مشبهين بالذى استهوته مردة الجن واستغوته الى المهامه والمهالك أوعلى أنه نعت لمصدر محذوف أى أنرد ردا مثل رد الذى استهوته الخ والاستهواء استفعال من هوى فى الأرض اذا ذهب فيها كأنها طلبت هويه وحرصت عليه وقرئ استهواه بألف مماله وقوله تعالى ﴿فى الأرض﴾ اما متعلق باستهوته أو بمحذوف هو حال من مفعوله أى كائنا فى الأرض وكذا قوله تعالى ﴿حيران﴾ حال منه على أنها بدل من الأولى أو حال ثانية عند من يجيزها أومن الذى أومن المستكن فى الظرف أى تائها ضالا عن الجادة لايدرى مايصنع وقوله تعالى ﴿له أصحاب﴾ جملة فى محل النصب على أنها صفة لحيران أو حال من الضمير فيه أومستأنفة سيقت لبيان حاله وقوله تعالى ﴿يدعونه الى الهدى﴾ صفة لاصحاب أى لذلك المستهوى رفقة يهدونه الى الطريق المستقيم تسمية له بالمصدر مبالغة كأنه نفس الهدى ﴿ائتنا﴾ على ارادة القول على أنه بدل ممن يدعونه أو حال من فاعله أى يقولون ائتنا وفيه اشارة الى أنهم مهتدون ثابتون على الطريق المستقيم وأن من يدعونه ليس ممن يعرف الطريق المستقيم ليدعى الى اتيانه وانما يدرك سمت الداعى ومورد النعيق فقط ﴿قل ان هدى الله﴾ الذى هدانا اليه وهو الاسلام ﴿هو الهدى﴾ وحده وماعداه ضلال محض وغى بحت كقوله تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال ونحوه وتكرير الأمر للاعتناء بشأن المأمور به ولأن ماسبق للزجر عن الشرك وهذا حث على الاسلام وهو توطئة لما بعده فان اختصاص الهدى بهداه تعالى مما يوجب الامتثال بالأوامر

الواردة بعده ﴿وأمرنا﴾ عطف على ان هدى الله هو الهدى داخل تحت القول واللام فى ﴿لنسلم لرب العالمين﴾ لتعليل الأمر المحكى وتعيين ماأريد به من الأوامر الثلاثة كما فى قوله تعالى قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلوة وينفقوا الآية كأنه قيل أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم وقيل هى بمعنى الباء أى أمرنا بأن نسلم وقيل زائدة أى أمرنا أن نسلم على حذف الباء وقوله تعالى ﴿وأن أقيموا الصلوة واتقوه﴾ أى الله تعالى فى مخالفة أمره عطف على نسلم على الوجوه الثلاثة على أن أن المصدرية اذا وصلت بالأمر يتجرد هو عن معنى الأمر نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال فالمعنى على الأول أمرنا أى قيل لنا أسلموا وأقيموا الصلاة واتقوا الله لأجل أن نسلم ونقيم الصلاة ونتقيه تعالى وعلى الاخيرين أمرنا بأن نسلم ونقيم الصلاة ونتقيه تعالى والتعرض لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الأمر وتأكيد وجوب الامتثال به كما أن قوله تعالى ﴿وهو الذى اليه تحشرون﴾ جملة مستأنفة موجبة للامتثال بما أمر به من الأمور الثلاثة ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض﴾ أريد بخلقهما خلق مافيهما أيضا وتقدم التصريح بذلك لظهور اشتمالهما على جميع العلويات والسفليات وقوله تعالى ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف هو حال من فاعل خلق أومن مفعوله أوصفة لمصدره المؤكد له أى قائما بالحق أوملتبسة بالحق أوخلقا ملتبسا به وقوله تعالى ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ استئناف لبيان أن خلقه تعالى لما ذكر من السموات والارض ليس مما يتوقف على مادة أومدة بل يتم بمحض الأمر التكوينى من غير توقف على شئ آخر أصلا وأن ذلك الأمر المتعلق بكل فرد فرد من أفراد المخلوقات فى حين معين من أفراد الاحيان حق فى نفسه متضمن للحكمة ويوم ظرف لمضمون جملة قوله الحق والواو بحسب المعنى داخل عليها وتقديمه عليها للاعتناء به من حيث أنه مدار الحقية وترك ذكر المقول له للثقة بغاية ظهوره والمراد بالقول كلمة كن تحقيقا أو تمثيلا كما هو المشهور فالمعنى وأمره المتعلق بكل شئ يريد خلقه من الاشياء فى حين تعلقه به لاقبله ولابعده من أفراد الأحيان الحق أى المشهود له بالحقية المعروف بها هذا وقد قيل قوله مبتدأ والحق صفته ويوم يقول خبره مقدما عليه كقولك يوم الجمعة القتال وانتصابه بمعنى الاستقرار وحاصل المعنى قوله الحق كائن حين يقول لشئ من الأشياء كن فيكون ذلك الشئ وقيل يوم منصوب بالعطف على السموات أوعلى الضمير فى واتقوه أو بمحذوف دل عليه بالحق وقوله الحق مبتدأ وخبر أو فاعل يكون على معنى حين يقول لقوله الحق أى لقضائه الحق كن فيكون والمراد حين يكون الأشياء ويحدثها أوحين تقوم القيامة فيكون التكوين حشر الاجساد واحياءها فتأمل حق التأمل ﴿وله الملك يوم ينفخ فى الصور﴾ تقييد اختصاص الملك به تعالى بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات لغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازية الكائنة فى الدنيا المصححة للملكية المجازية فى الجملة كقوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أى هو عالمهما ﴿وهو الحكيم﴾ فى كل مايفعله ﴿الخبير﴾ بجميع الامور الجلية والخفية ﴿واذ قال ابراهيم﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام معطوف على قل أندعوا لا على أقيموا كما قيل لفساد المعنى أى واذكر لهم بعد ما أنكرت عليهم عبادة ما لا يقدر على نفع وضر وحققت أن الهدى هو هدى الله ومايتبعه من شئونه تعالى وقت قول ابراهيم الذى يدعون أنهم على ملته موبخا ﴿لأبيه آزر﴾ على عبادة الأصنام فان ذلك مما يبكتهم وينادى بفساد طريقتهم وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة لما مر مرارا من المبالغة فى ايجاب ذكرها وآزر بزنة آدم وعابر وعازر وفالغ وكذلك تارح ذكره محمد بن اسحق والضحاك والكلبى وكان من قرية من سواد الكوفة ومنع صرفه للعجمة والعلمية وقيل اسمه بالسريانية تارح وآزر لقبه المشهور وقيل اسم صنم لقب هو به للزومه عبادته فهو عطف بيان لابيه أو بدل منه

وقال الضحاك معناه الشيخ الهرم وقال الزجاج المخطئ وقال الفراء وسليمان التيمى المعوج فهو نعت له كما اذا جعل مشتقا من الازر أوالوز أو أريد به عابد آزر على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقرئ آزر على النداء وهو دليل العلمية اذلا يحذف حرف النداء الامن الاعلام ﴿أتتخذ﴾ متعد الى مفعولين هما ﴿أصناما آلهة﴾ أى أتجعلها لنفسك آلهة على توجيه الانكار الى اتخاذ الجنس من غير اعتبار الجمعية وانما ايراد صيغة الجمع باعتبار الوقوع وقرئ أازرا بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاء ساكنة وراء منونة منصوبة وهو اسم صنم ومعناه أتعبد ازرا ثم قيل تتخذ أصناما آلهة تثبيتا لذلك وتقريرا وهو داخل تحت الانكار لكونه بيانا له وقيل الازر القوة والمعنى ألأجل القوة والمظاهرة تتخذ أصناما آلهة انكاراً لتعززه بها على طريقة قوله تعالى أيبتغون عندهم العزة ﴿انى أراك وقومك﴾ الذين يتبعونك فى عبادتها ﴿فى ضلال﴾ عن الحق ﴿مبين﴾ أى بين كونه ضلالا لااشتباه فيه أصلا والرؤية اما علمية فالظرف مفعولها الثانى واما بصرية فهو حال من المفعول والجملة تعليل للانكار والتوبيخ ﴿وكذلك نرى ابراهيم﴾ هذه الاراءة من الرؤية البصرية المستعارة للمعرفة ونظر البصيرة أى عرفناه وبصرناه وصيغة الاستقبال حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها وذلك اشارة الى مصدر نرى لاالى اراءة أخرى مفهومة من قوله انى أراك ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه بذلك وانتظامه بسببه فى سلك الامور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير نرى ابراهيم اراءة كائنة مثل تلك الاراءة فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار المشار اليه نفس المصدر المؤكد لانعته أى ذلك التبصير البديع نبصره عليه السلام ﴿ملكوت السموات والأرض﴾ أى ربوبيته تعالى ومالكيته لهما وسلطانه القاهر عليهما وكونهما بما فيهما مربوبا ومملوكا له تعالى لاتبصيرا آخر أدنى منه والملكوت مصدر على زنة المبالغة كالرهبوت والجبروت ومعناه الملك العظيم والسلطان القاهر ثم هل هو مختص بملك الله عز سلطانه أو لا فقد قيل وقيل والأول هو الاظهر وبه قال الراغب وقيل ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما روى أنه كشف له عليه السلام عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين وقيل آياتهما وقيل ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الأرض الجبال والأشجار والبحار وهذه الأقوال لاتقتضى أن تكون الاراءة بصرية اذليس المراد باراءة ماذكر من الامور الحسية مجرد تمكينه عليه السلام من ابصارها ومشاهدتها فى أنفسها بل اطلاعه عليه السلام على حقائقها وتعريفها من حيث دلالتها على شئونه عز وجل ولاريب فى أن ذلك ليس مما يدرك حسا كما ينبئ عنه اسم الاشارة المفصح عن كون المشار اليه أمرا بديعا فان الاراءة البصرية المعتادة بمعزل من تلك المثابة وقرئ ترى بالتاء واسناد الفعل الى الملكوت أى تبصره عليه السلام دلائل الربوبية واللام فى قوله تعالى ﴿وليكون من الموقنين﴾ متعلقة بمحذوف مؤخر والجملة اعتراض مقرر لما قبلها أى وليكون من زمرة الراسخين فى الايقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى فعلنا مافعلنا من التبصير البديع المذكور لالأمر آخر فان الوصول الى تلك الغاية القاصية كمال مترتب على ذلك التبصير لاعينه وليس القصر لبيان انحصار فائدته فى ذلك كيف لا وارشاد الخلق والزام المشركين كما سيأتى من فوائده بلامرية بل لبيان أنه الأصل الأصيل والباقى من مستتبعاته وقيل هى متعلقة بالفعل السابق والجملة معطوفة على علة أخرى محذوفة ينسحب عليها الكلام أى ليستدل بها وليكون الخ فينبغى أن يراد بملكوتهما بدائعهما وآياتهما لأن الاستدلال من غايات اراءتها لامن غايات اراءة نفس الربوبية وقوله تعالى ﴿فلما جن عليه الليل﴾ على الأول وهو الحق المبين عطف على قال ابراهيم داخل تحت ماأمر بذكره بالأمر

بذكر وقته وماينهما اعتراض مقرر لما سبق ومالحق فان تعريفه عليه السلام ربوبيته ومالكيته للسموات والأرض ومافيهما وكون الكل مقهورا تحت ملكوته مفتقرا اليه فى الوجود وسائر مايترتب عليه من الكمالات وكونه من الراسخين فى معرفة شئونه تعالى الواصلين الى ذروة عين اليقين مما يقضى بأن يحكم عليه السلام باستحالة الهية ماسواه سبحانه من الأصنام والكواكب وعلى الثانى هو تفصيل لما ذكر من اراءة ملكوت السموات والارض وبيان لكيفية استدلاله عليه السلام ووصوله الى رتبة الايقان ومعنى جن عليه الليل ستره بظلامه وقوله تعالى ﴿رأى كوكبا﴾ جواب لما فان رؤيته انما تتحقق بزوال نور الشمس عن الحس وهذا صريح فى أنه لم يكن فى ابتداء الطلوع بل كان غيبته عن الحس بطريق الاضمحلال بنور الشمس والتحقيق أنه كان قريبا من الغروب كما ستعرفه قيل كان ذلك الكوكب هو الزهرة وقيل هو المشترى وقوله تعالى ﴿قال هذا ربى﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الشرطية السابقة المتفرعة على بيان اراءته عليه السلام ملكوت السموات والارض فان ذلك مما يحمل السامع على استكشاف ماظهر منه عليه السلام من آثار تلك الاراءة وأحكامها كأنه قيل فماذا صنع عليه السلام حين رأى الكوكب فقيل قال على سبيل الوضع والفرض هذا ربى مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فان المستدل على فساد قول يحكيه على رأى خصمه ثم يكر عليه بالابطال ولعل سلوك هذه الطريقة فى بيان استحالة ربوبية الكواكب دون بيان استحالة الهية الأصنام لما أن هذا أخفى بطلانا واستحالة من الاول فلو صدع بالحق من أول الأمر كما فعله فى حق عبادة الاصنام لتمادوا فى المكابرة والعناد ولجوا فى طغيانهم يعمهون وقيل قاله عليه السلام على وجه النظر والاستدلال وكان ذلك فى زمان مراهقته وأول أوان بلوغه وهو مبنى على تفسير الملكوت بآياتهما وعطف قوله تعالى ليكون على ماذكر من العلة المقدرة وجعل قوله تعالى فلما جن الخ تفصيلا لماذكر من الاراءة وبيانا لكيفية الاستدلال وأنت خبير بأن كل ذلك مما يخل بجزالة النظم الجليل وجلالة منصب الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿فلما أفل﴾ أى غرب ﴿قال لاأحب الآفلين﴾ أى الارباب المنتقلين من مكان الى مكان المتغيرين من حال الى حال المحتجبين بالاستار فانهم بمعزل من استحقاق الربوبية قطعا ﴿فلما رأى القمر بازغا﴾ أى مبتدئا فى الطلوع اثر غروب الكوكب ﴿قال هذا ربى﴾ على الاسلوب السابق ﴿فلما أفل﴾ كما أفل النجم ﴿قال لئن لم يهدنى ربى﴾ الى جنابه الذى هو الحق الذى لايحيد عنه ﴿لأكونن من القوم الضالين﴾ فان شيئاً مما رأيته لايليق بالربوبية وهذا مبالغة منه عليه السلام فى اظهار النصفة ولعله عليه السلام كان اذ ذاك فى موضع كان فى جانبه الغربى جبل شامخ يستتر به الكوكب والقمر وقت الظهر من النهار أو بعده بقليل وكان الكوكب قريبا منه وأفقه الشرقى مكشوف أو لا والا فطلوع القمر بعد أفول الكوكب ثم أفوله قبل طلوع الشمس كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فلما رأى الشمس بازغة﴾ أى مبتدئة فى الطلوع مما لايكاد يتصور ﴿قال﴾ أى على النهج السابق ﴿هذا ربى﴾ وانما لم يؤنث لما أن المشار اليه والمحكوم عليه بالربوبية هو الجرم المشاهد من حيث هو لامن حيث هو مسمى باسم من الاسامى فضلا عن حيثية تسميته بالشمس أو لتذكير الخبر وصيانة الرب عن وصمة التأنيث وقوله تعالى ﴿هذا أكبر﴾ تأكيد لما رامه عليه السلام من اظهار النصفة مع اشارة خفية الى فساد دينهم من جهة أخرى ببيان أن الاكبر أحق بالربوبية من الاصغر ﴿فلما أفلت﴾ هى أيضا كما أفل الكوكب والقمر ﴿قال﴾ مخاطبا للكل صادعا بالحق بين أظهرهم ﴿ياقوم انى برىء مما تشركون﴾ أى من الذى تشركونه من الاجرام المحدثة المتغيرة من حالة الى أخرى المسخرة لمحدثها أو من اشراككم وترتيب هذا الحكم ونظيريه على الافول دون البزوغ والظهور من ضرورياتسوق الاحتجاج على هذا المساق الحكيم فان كلا منهما وان كان فى نفسه انتقالا منافيا لاستحقاق معروضه للربوبية قطعا لكن لما كان الأول حالة موجبة لظهور

الآثار والاحكام ملائمة لتوهم الاستحقاق فى الجملة رتب عليها الحكم الأول على الطريقة المذكورة وحيث كان الثانى حالة مقتضية لانطماس الآثار و بطلان الاحكام المنافيين للاستحقاق المذكور منافاة بينة يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد رتب عليها مارتب ثم لما تبرأ عليه السلام منهم توجه الى مبدع هدى المصنوعات ومنشئها فقال ﴿انى وجهت وجهى للذى فطر السموات﴾ التى هذه الاجرام التى تعبدونها من أجزائها ﴿والارض﴾ التى تغيب هى فيها ﴿حنيفا﴾ أى مائلا عن الاديان الباطلة والعقائد الزائغة كلها ﴿وما أنا من المشركين﴾ فى شىء من الأفعال والأقوال ﴿وحاجه قومه﴾ أى شرعوا فى مغالبته فى أمر التوحيد ﴿قال﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية محاجتهم كأنه قيل فماذا قال عليه السلام حين حاجوه فقيل قال منكرا لما اجترءوا عليه من محاجته مع قصورهم عن تلك الرتبة وعزة المطلب وقوة الخصم ﴿أتحاجونى فى الله﴾ بادغام نون الجمع فى نون الوقاية وقرىء بحذف الأولى وقوله تعالى ﴿وقد هدان﴾ حال من ضمير المتكلم مؤكدة للانكار فان كونه عليه السلام مهديا من جهة الله تعالى ومؤيدا من عنده مما يوجب استحالة محاجته عليه السلام أى أتجادلوننى فى شأنه تعالى و وحدانيته والحال أنه تعالى هدانى الى الحق بعد ماسلكت طريقتكم بالفرض والتقدير وتبين بطلانها تبينا تاما كما شاهدتموه وقوله تعالى ﴿و لا أخاف ماتشركون به﴾ جواب عما خوفوه عليه السلام فى أثناء المحاجة من اصابة مكروه من جهة أصنامهم كما قال لهود عليه السلام قومه ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ولعلهم فعلوا ذلك حين فعل عليه السلام بآلهتهم مافعل وما موصولة اسمية حذف عائدها وقوله تعالى ﴿الا أن يشاء ربى شيئاً﴾ استثناء مفرغ من أعم الأوقات أى لا أخاف ماتشركونه به سبحانه من معبوداتكم فى وقت من الاوقات الا فى وقت مشيئته تعالى شيئاً من اصابة مكروه بى من جهتها وذلك انما هو من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فيه أصلا وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام اظهار منه لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى واستسلام لامره واعتراف بكونه تحت ملكوته و ربوبيته وقوله تعالى ﴿وسع ربى كل شىء علما﴾ كأنه تعليل للاستثناء أى أحاط بكل شىء علما فلا يبعد أن يكون فى علمه تعالى أن يحيق بى مكروه من قبلها بسبب من الاسباب وفى الاظهار فى موضع الاضمار تأكيد للمعنى المذكور واستلذاذ بذكره تعالى ﴿أفلا تتذكرون﴾ أى أتعرضون عن التأمل فى أن آلهتكم جمادات غير قادرة على شىء مامن نفع و لاضر فلا تتذكرون أنها غير قادرة على اضرارى وفى ايراد التذكر دون التفكر ونظائره اشارة الى أن أمر أصنامهم مركوز فى العقول لايتوقف الاعلى التذكر وقوله تعالى ﴿وكيف أخاف ماأشركتم﴾ استئناف مسوق لنفى الخوف عنه عليه السلام بحسب زعم الكفرة بالطريق الالزامى كما سيأتى بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفس الامر والاستفهام لانكار الوقوع ونفيه بالكلية كما فى قوله تعالى كيف يكون للمشركين عهد عند الله الآية لا لانكار الواقع واستبعاده مع وقوعه كما فى قوله تعالى كيف تكفرون بالله الخ وفى توجيه الانكار الى كيفية الخوف من المبالغة ماليس فى توجيهه الى نفسه بأن يقال أأخاف لما أن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الاحوال وكيفية من الكيفيات قطعا فاذا انتفى جميع أحواله و كيفياته فقد انتفى وجوده من جميع الجهات بالطريق البرهانى وقوله تعالى ﴿و لاتخافون أنكم أشركتم بالله﴾ حال من ضمير أخاف بتقدير مبتدأ والواو كافية فى الربط من غير حاجة الى الضمير العائد الى ذى الحال وهو مقرر لانكار الخوف ونفيه عنه عليه السلام ومفيد لاعترافهم بذلك فانهم حيث لم يخافوا فى محل الخوف فلأن لايخاف عليه السلام فى محل الامن أولى وأحرى أى وكيف أخاف أنا ماليس فى حيز الخوف أصلا وأنتم لاتخافون غائلة ماهو أعظم المخوفات وأهولها وهو اشراككم بالله الذى ليس كمثله شىء فى الارض ولا فى السماء ماهو من جملة مخلوقاته وانما عبر عنه بقوله تعالى ﴿مالم ينزل به﴾ أى باشراكه

﴿عليكم سلطانا﴾ على طريقة التهكم مع الايذان بأن الأمور الدينية لايعول فيها الا على الحجة المنزلة من عند الله تعالى و فى تعليق الخوف الثانى باشراكهم من المبالغة ومراعاة حسن الادب مالايخفى هذا وأما ماقيل من أن قوله تعالى و لاتخافون الخ معطوف على أخاف داخل معه فى حكم الانكار والتعجيب فمما لاسبيل اليه أصلا لافضائه الى فساد المعنى قطعا كيف لا وقد عرفت أن الانكار بمعنى النفى بالكلية فيؤول المعنى الى نفى الخوف عنه عليه الصلاة والسلام ونفى نفيه عنهم وأنه بين الفساد وحمل الانكار فى الاول على معنى نفى الوقوع و فى الثانى على استبعاد الواقع مما لامساغ له على أن قوله تعالى ﴿فأى الفريقين أحق بالأمن﴾ ناطق ببطلانه حتما فانه كلام مرتب على انكار خوفه عليه الصلاة والسلام فى محل الأمن مع تحقق عدم خوفهم فى محل الخوف مسوق لالجائهم الى الاعتراف باستحقاقه عليه الصلاة والسلام لما هو عليه من الأمن و بعدم استحقاقهم لما هم عليه وانما جىء بصيغة التفضيل المشعرة باستحقاقهم له فى الجملة لاستنزالهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سنن الانصاف والمراد بالفريقين الفريق الآمن فى محل الأمن والفريق الآمن فى محل الخوف فايثار ماعليه النظم الكريم على أن يقال فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم لتأكيد الالجاء الى الجواب الحق بالتنبيه على علة الحكم والتفادى عن التصريح بتخطئتهم لالمجرد الاحتراز عن تزكية النفس ﴿ان كنتم تعلمون﴾ المفعول اما محذوف تعويلا على ظهوره بمعونة المقام أى ان كنتم تعلمون من أحق بذلك أو قصدا الى التعميم أى ان كنتم تعلمون شيأ واما متروك بالمرة أى ان كنتم من أولى العلم وجواب الشرط محذوف أى فأخبرونى ﴿الذين آمنوا﴾ استئناف من جهته تعالى مبين للجواب الحق الذى لامحيد عنه أى الفريق الذين آمنوا ﴿ولم يلبسوا ايمانهم﴾ ذلك أى لم يخلطوه ﴿بظلم﴾ أى بشرك كما يفعله الفريق المشركون حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله عز وجل وأن عبادتهم للاصنام من تتمات ايمانهم وأحكامه لكونها لأجل التقريب والشفاعة كما قالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وهذا معنى الخلط ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصول من حيث اتصافه بما فى حيز الصلة وفى الاشارة اليه بعد وصفه بما ذكر ايذان بأنهم تميزوا بذلك عن غيرهم وانتظموا فى سلك الامور المشاهدة ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم و بعد منزلتهم فى الشرف وهو مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿لهم الأمن﴾ جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر وقعت خبرا لأولئك وهو مع خبره خبر للمبتدا الاول الذى هو الموصول و يجوز أن يكون أولئك بدلا من الموصول أو عطف بيان له ولهم خبرا للموصول والأمن فاعلا للظرف لاعتماده على المبتدا ويجوز أن يكون لهم خبرا مقدما والامن مبتدأ والجملة خبرا للموصول ويجوز أن يكون أولئك مبتدأ ثانيا ولهم خبره والامن فاعلا له والجملة خبر الموصول أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الايمان الخالص عن شوب الشرك لهم الامن فقط ﴿وهم مهتدون﴾ الى الحق ومن عداهم فى ضلال مبين. روى أنه لما نزلت الآية شق ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال عليه الصلاة والسلام ليس ماتظنون انما هو ماقال لقمان لابنه يابنى لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم وليس الايمان به أن يصدق بوجود الصانع الحكيم ويخلط بهذا التصديق الاشراك به وليس من قضية الخلط بقاء الأصل بعد الخلط حقيقة وقيل المراد بالظلم المعصية التى تفسق صاحبها والظاهر هو الأول لورود مورد الجواب عن حال الفريقين ﴿وتلك﴾ اشارة الى مااحتج به ابراهيم عليه السلام من قوله تعالى فلما جن وقيل من قوله أتحاجونى الى قوله مهتدون ومافى اسم الاشارة من معنى البعد لتفخيم شأن المشار اليه والاشعار بعلو طبقته وسمو منزلته فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿حجتنا﴾ خبره و فى اضافتها الى نون العظمة من التفخيم مالايخفى وقوله تعالى ﴿آتيناها ابراهيم﴾ أى أرشدناه اليها أو علمناه اياها فى محل النصب على أنه حال من حجتنا والعامل فيها معنى الاشارة كما فى قوله تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا أو فى محل الرفع على أنه

خبر ثان أوهو الخبر وحجتنا بدل أو بيان للمبتدا وابراهيم مفعول أول لآتينا قدم عليه الثانى لكونه ضميرا وقوله تعالى ﴿على قومه﴾ متعلق بحجتنا ان جعل خبرا لتلك أو بمحذوف ان جعل بدلا أى آتينا ابراهيم حجة على قومه وقيل بقوله آتينا ﴿نرفع﴾ بنون العظمة وقرئ بالياء على طريقة الالتفات وكذا الفعل الآتى ﴿درجات﴾ أى رتبا عظيمة عالية من العلم والحكمة وانتصابها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض أى الى درجات أو على التمييز والمفعول قوله تعالى ﴿من نشاء﴾ وتأخيره على الوجوه الثلاثة الأخيرة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ومفعول المشيئة محذوف أى من نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على أن ذلك سنة مستمرة جارية فيما بين المصطفين الأخيار غير مختصة بابراهيم عليه السلام وقرئ بالاضافة الى من والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها لا محل لها من الاعراب وقيل هى فى محل النصب على أنها حال من فاعل آتينا أى حال كوننا رافعين الخ ﴿ان ربك حكيم﴾ فى كل ما فعل من رفع وخفض ﴿عليم﴾ بحال من يرفعه واستعداده له على مراتب متفاوتة والجملة تعليل لما قبلها وفى وضع الرب مضافا الى ضميره عليه السلام موضع نون العظمة بطريق الالتفات فى تضاعيف بيان أحوال ابراهيم عليه السلام اظهار لمزيد لطف وعناية به عليه السلام ﴿ووهبنا له اسحق ويعقوب﴾ عطف على قوله تعالى وتلك حجتنا الخ فان عطف كل من الجملة الفعلية والاسمية على الأخرى مما لا نزاع فى جوازه ولا مساغ لعطفه على آتيناها لأنه محلا من الاعراب نصبا ورفعا حسبما بين من قبل فلو عطف هذا عليه لكان فى حكمه من الحالية والخبرية المستدعيتين للرابط ولا سبيل اليه ههنا ﴿كلا﴾ مفعول لما بعده وتقديمه عليه للقصر لكن لا بالنسبة الى غيرهما مطلقا بل بالنسبة الى أحدهما أى كل واحد منهما ﴿هدينا﴾ لا أحدهما دون الآخر وترك ذكر المهدى اليه لظهور أنه الذى أوتى ابراهيم وأنهما مقتديان به ﴿ونوحا﴾ منصوب بمضمر يفسره ﴿هدينا من قبل﴾ أى من قبل ابراهيم عليه السلام عد هدايته نعمة على ابراهيم عليه السلام لأن شرف الوالد سار الى الولد ﴿ومن ذريته﴾ الضمير لابراهيم لأن مساق النظم الكريم لبيان شئونه العظيمة من ايتاء الحجة ورفع الدرجات وهبة الأولاد الانبياء وابقاء هذه الكرامة فى نسله الى يوم القيامة كل ذلك لالزام من ينتمى الى ملته عليه السلام من المشركين واليهود وقيل لنوح لأنه أقرب ولأن يونس ولوطا ليسا من ذرية ابراهيم فلو كان الضمير له لاختص بالمعدودين فى هذه الآية والتى بعدها وأما المذكورون فى الآية الثالثة فعطف على نوح وروى عن ابن عباس أن هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون الى ذرية ابراهيم وان كان منهم من لم يلحقه بولاد من قبل أم ولا أب لأن لوطا ابن أخى ابراهيم والعرب تجعل العم أبا كما أخبر الله تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق مع أن اسمعيل عم يعقوب ﴿داود وسليمان﴾ منصوبان بمضمر مفهوم مما سبق وكذا ماعطف عليهما وبه يتعلق من ذريته وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بشأنه مع مافى المفاعيل من نوع طول ربما يخل تأخيره بتجاوب النظم الكريم أى وهدينا من ذريته داود وسليمان ﴿وأيوب﴾ هو ابن اموص من أسباط عيص ابن اسحق ﴿ويوسف وموسى وهرون﴾ أو بمحذوف وقع حالا من المذكورين أى وهديناهم حال كونهم من ذريته ﴿وكذلك﴾ اشارة الى مايفهم من النظم الكريم من جزاء ابراهيم عليه السلام ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير ﴿نجزى المحسنين﴾ جزاء مثل ذلك الجزاء والتقديم للقصر وقد مر تحقيقه مرارا والمراد بالمحسنين الجنس وبمماثلة جزائهم لجزائه عليه السلام مطلق المشابهة فى مقابلة الاحسان بالاحسان والمكافأة بين الأعمال والأجزية من غير بخس لا المماثلة من كل وجه ضرورة أن الجزاء بكثرة الأولاد الأنبياء مما اختص به ابراهيم عليه السلام والأقرب أن لام المحسنين للعهد وذلك اشارة الى مصدر الفعل الذى بعده وهو عبارة عما أوتى

المذكورون من فنون الكرامات ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقته والكاف لتأكيد ماأفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير ونجزى المحسنين المذكورين جزاء كائنا مثل ذلك الجزاء فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار المشار اليه نفس المصدر المؤكد لانعتآله أى وذلك الجزاء البديع نجزى المحسنين المذكورين لاجزاء آخر أدنى منه والاظهار فى موضع الاضمار للثناء عليهم بالاحسان الذى هو عبارة عن الاتيان بالاعمال الحسنة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المقارن لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك والجملة اعتراض مقرر لما قبلها ﴿وزكريا﴾ هو ابن آذن ﴿ويحيى﴾ ابنه ﴿وعيسى﴾ هو ابن مريم وفيه دليل بين على أن الذرية تتناول أولاد البنات ﴿والياس﴾ قيل هو ادريس جد نوح فيكون البيان مخصوصا بمن فى الآية الاولى وقيل هو من أسباط هرون أخى موسى عليهما السلام ﴿كل﴾ أى كل واحد من أولئك المذكورين ﴿من الصالحين﴾ أى من الكاملين فى الصلاح الذى هو عبارة عن الاتيان بما ينبغى والتحرز عما لا ينبغى والجملة اعتراض جئ به للثناء عليهم بالصلاح ﴿واسمعيل واليسع﴾ هو ابن اخطوب بن العجوز وقرئ واللليسع وهو على القراءتين علم أعجمى أدخل عليه اللام ولا اشتقاق له ويقال انه يوشع بن نون وقيل انه منقول من مضارع وسع واللام كما فى يزيد فى قول من قال

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا شديدا بأعباء الخلافة كاهله

﴿ويونس﴾ هو ابن متى ﴿ولوطا﴾ هو ابن هاران بن أخى ابراهيم عليه السلام ﴿وكلا﴾ أى وكل واحد من أولئك المذكورين ﴿فضلنا﴾ بالنبوة لا بعضهم دون بعض ﴿على العالمين﴾ على عالمى عصرهم والجملة اعتراض كأختيها وقوله تعالى ﴿ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم﴾ اما متعلق بما تعلق به من ذريته ومن ابتدائية والمفعول محذوف أى وهدينا من آبائهم وذرياتهم واخوانهم جماعات كثيرة واما معطوف على كلا ومن تبعيضية أى وفضلنا بعض آبائهم الخ ﴿واجتبيناهم﴾ عطف على فضلنا أى اصطفيناهم ﴿وهديناهم الى صراط مستقيم﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لبيان ماهدوا اليه ﴿ذلك﴾ اشارة الى مايفهم من النظم الكريم من مصادر الأفعال المذكورة وقيل الى مادانوا به ومافى ذلك من معنى البعد لما مر مرارا ﴿هدى الله﴾ الاضافة للتشريف ﴿يهدى به من يشاء من عباده﴾ وهم المستعدون للهداية والارشاد وفيه اشارة الى أنه تعالى متفضل بالهداية ﴿ولو أشركوا﴾ أى هؤلاء المذكورون ﴿لحبط عنهم﴾ مع فضلهم وعلو طبقاتهم ﴿ماكانوا يعملون﴾ من الأعمال المرضية الصالحة فكيف بمن عداهم وهم وأعمالهم أعمالهم ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر والمعطوفين عليهم عليهم السلام باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها من النعوت الجليلة الثابتة لهم ومافيه من معنى البعد لما مر غير مرة من الايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والشرف وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ أى جنس الكتاب المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية والمراد بايتائه التفهيم التام بما فيه من الحقائق والتمكين من الاحاطة بالجلائل والدقائق أعم من أن يكون ذلك بالانزال ابتداء أو بالايراث بقاء فان المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين ﴿والحكم﴾ أى الحكمة أوفصل الأمر على مايقتضيه الحق والصواب ﴿والنبوة﴾ أى الرسالة ﴿فان يكفر بها﴾ أى بهذه الثلاثة أو بالنبوة الجامعة للباقين ﴿هؤلاء﴾ أى كفار قريش فانهم بكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن كافرون بما يصدقه جميعا وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ﴿فقد وكلنا بها﴾ أى أمرنا بمراعاتها

ووفقنا للايمان بها والقيام بحقوقها ﴿قوما ليسوا بها بكافرين﴾ أى فى وقت من الاوقات بل مستمرون على الايمان بها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تفيد دوام الثبوت كذلك السلبية تفيد دوام النفى بمعونة المقام لانفى الدوام كما حقق فى مقامه قال ابن عباس ومجاهد رضى الله تعالى عنهما هم الأنصار وأهل المدينة وقيل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقيل كل مؤمن من بنى آدم وقيل الفرس فان كلا من هؤلاء الطوائف موفقون للايمان بالأنبياء وبالكتب المنزلة اليهم عاملون بما فيها من أصول الشرائع وفروعها الباقية فى شريعتنا وبه يتحقق الخروج عن عهدة التوكيل والتكليف دون المنسوخة منها فانها بانتساخها خارجة عن كونها من أحكامها وقد مر تحقيقه فى تفسير سورة المائدة وقيل هم الانبياء المذكورون فالمراد بالتوكيل الأمر بما هو أعم من اجراء أحكامها كما هو شأنهم فى حق كتابهم ومن اعتقاد حقيتها كما هو شأنهم فى حق سائر الكتب التى من جملتها القرآن الكريم وقيل هم الملائكة فالتوكيل هو الأمر بانزالها وحفظها واعتقاد حقيتها وأيا ما كان فتنكير قوما للتفخيم والباء الأولى صلة لكافرين قدمت عليه محافظة على الفواصل والثانية لتأكيد النفى وأما تقديم صلة وكلنا على مفعوله الصريح فلما ذكر آنفا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ولأن فيه نوع طول ربما يؤدى تقديمه الى الاخلال بتجاوب النظم الكريم أو الى الفصل بين الصفة والموصوف وجواب الشرط محذوف يدل عليه المذكور أى فان يكفر بها هؤلاء فلا اعتداد به أصلا فقد وفقنا للايمان بها قوما نخاما ليسوا بكافرين بها قطعا بل مستمرون على الايمان بها والعمل بما فيها فنى ايمانهم بها مندوحة عن ايمان هؤلاء ومن هذا تبين أن الوجه أن يكون المراد بالقوم احدى الطوائف المذكورة اذ بايمانهم بالقرآن والعمل بأحكامه تتحقق الغنية عن ايمان الكفرة به والعمل بأحكامه وأما الانبياء والملائكة عليهم السلام فايمانهم به ليس من قبيل ايمان آحاد الأمة كما أشير اليه ﴿أولئك﴾ اشارة الى الانبياء المذكورين وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿الذين هدى الله﴾ أى الى الحق والنهج المستقيم والالتفات الى الاسم الجليل للاشعار بعلة الهداية ﴿فبهداهم اقتده﴾ أى فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد بغيرهم والمراد بهداهم طريقتهم فى الايمان بالله تعالى وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ فانها بعد النسخ لاتبقى هدى والهاء فى اقتده للوقف حقها أن تسقط فى الدرج واستحسن اثباتها فيه أيضا اجراء له مجرى الوقف واقتداء بالامام وقرئ باشباعها على أنها كناية المصدر ﴿قل لا أسألكم عليه﴾ أى على القرآن أو على التبليغ فان مساق الكلام يدل عليهما وان لم يجر ذكرهما ﴿أجرا﴾ من جهتكم كما لم يسأله من قبلى من الانبياء عليهم السلام وهذا من جملة ما أمر صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم فيه ﴿ان هو﴾ أى ما القرآن ﴿الا ذكرى للعالمين﴾ أى عظة وتذكير لهم كافة من جهته سبحانه فلا يختص بقوم دون آخرين ﴿وما قدروا الله﴾ لما بين شأن القرآن العظيم وأنه نعمة جليلة منه تعالى على كافة الأمم حسبما ينطق به قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين عقب ذلك ببيان غمطهم اياها وكفرهم بها على وجه سرى ذلك الى الكفر بجميع الكتب الالهية وأصل القدر السبر والحزر يقال قدر الشئ يقدره بالضم قدرا اذا سبره وحزره ليعرف مقداره ثم استعمل فى معرفة الشئ فى مقداره وأحواله وأوصافه وقوله تعالى ﴿حق قدره﴾ نصب على المصدرية وهو فى الأصل صفة للمصدر أى قدره الحق فلما أضيف الى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه موصوفه أى ما عرفوه تعالى حق معرفته فى اللطف بعباده والرحمة عليهم ولم يراعوا حقوقه تعالى فى ذلك بل أخلوا بها اخلالا ﴿اذ قالوا﴾ منكرين لبعثة الرسل وانزال الكتب كافرين بنعمته الجليلة فيهما ﴿وما أنزل الله على بشر من شئ﴾ فنفى معرفتهم لقدره سبحانه كناية عن حطهم لقدره الجليل ووصفهم له تعالى بنقيض نعته الجميل كما أن نفى المحبة

فى مثل ان الله لايحب الكافرين كناية عن البغض والسخط والا فنفى معرفة قدره تعالى يتحقق مع عدم التعرض لحطه بل مع السعى فى تحصيل المعرفة كما فى قول من يناجى مستقصرا لمعرفته وعبادته سبحانك ماعرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك أو ماعرفوه حق معرفته فى السخط على الكفار وشدة بطشه تعالى بهم حسبما نطق به القرآن حين اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء فالنفى بمعناه الحقيقى والقائلون هم اليهود وقد قالوه مبالغة فى انكار انزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فألزموا بما لاسبيل لهم الى انكاره أصلا حيث قيل ﴿قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى﴾ أى قل لهم ذلك على طريقة التبكيت والقام الحجر وروى أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها ان الله يبغض الحبر السمين فأنت الحبر السمين قد سمنت من مالك الذى تطعمك اليهود فضحك القوم فغضب ثم التفت الى عمر رضى الله عنه فقال ما أنزل الله على بشر من شئ فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف وقيل هم المشركون والزامهم انزال التوراة لما أنه كان عندهم من المشاهير الذائعة ولذلك كانوا يقولون لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ووصف الكتاب بالوصول اليهم لزيادة التقريع وتشديد التبكيت وكذا تقييده بقوله تعالى ﴿نورا وهدى﴾ فان كونه بينا بنفسه ومبينا لغيره مما يؤكد الالزام أى تأكيد وانتصابهما على الحالية من الكتاب والعامل أنزل أو من الضمير فى به والعامل جاء واللام فى قوله تعالى ﴿للناس﴾ اما متعلق بهدى أو بمحذوف هو صفة له أى هدى كائنا للناس وليس المراد بهذا مجرد الزامهم بالاعتراف بانزال التوراة فقط بل بانزال القرآن أيضا فان الاعتراف بانزالها مستلزم للاعتراف بانزاله قطعا لما فيها من الشواهد الناطقة به وقد نعى عليهم ما فعلوا بها من التحريف والتغيير حيث قيل ﴿تجعلونه قراطيس﴾ أى تضعونه فى قراطيس مقطعة وورقات مفرقة بحذف الجار بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم أو تجعلونه نفس القراطيس المقطعة وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة والجملة حال كما سبق وقوله تعالى ﴿تبدونها﴾ صفة لقراطيس وقوله تعالى ﴿وتخفون كثيرا﴾ معطوف عليه والعائد الى الموصول محذوف أى كثيرا منها وقيل كلام مبتدأ لامحل له من الاعراب والمراد بالكثير نعوت النبى عليه الصلاة والسلام وسائر ما كتموه من أحكام التوراة وقرئ الأفعال الثلاثة بالياء حملا على قالوا وما قدروا وقوله تعالى ﴿وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ قيل هو حال من فاعل تجعلونه باضمار قد أو بدونه على اختلاف الرأيين قلت فينبغى أن يجعل ما عبارة عما أخذوه من الكتاب من العلوم والشرائع ليكون التقييد بالحال مفيدا لتأكيد التوبيخ وتشديد التشنيع فان ما فعلوه بالكتاب من التفريق والتقطيع لما ذكر من الابداء والاخفاء شناعة عظيمة فى نفسها ومع ملاحظة كونه مأخذ لعلومهم ومعارفهم أشنع وأعظم لاعما تلقوه من جهة النبى صلى الله عليه وسلم زيادة على ما فى التوراة وبيانا لما التبس عليهم وعلى آبائهم من مشكلاتها حسبما ينطق به قوله تعالى ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون كما قالوا لأن تلقيهم لذلك من القرآن الكريم ليس مما يزجرهم عما صنعوا بالتوراة أما ما ورد فيه زيادة على ما فيها فلا نه لاتعلق له بها نفيا ولا اثباتا وأما ما ورد بطريق البيان فلأن مدار ما فعلوا بها من التبديل والتحريف ليس ما وقع فيها من التباس الأمر واشتباه الحال حتى يقلعوا عن ذلك بايضاحه وبيانه فتكون الجملة حينئذ خالية عن تأكيد التوبيخ فلا تستحق أن تقع موقع الحال بل الوجه حينئذ أن تكون استئنافا مقررا لما قبلها من مجئ الكتاب بطريق التكملة والاستطراد والتمهيد لما يعقبه من مجئ القرآن ولا سبيل الى جعل ما عبارة عما كتموه من أحكام التوراة كما يفصح عنه قوله تعالى قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب فان

ظهوره وان كان مزجرة لهم عن الكتم مخافة الافتضاح ومصححا لوقوع الجملة فى موقع الحال لكن ذلك مما يعلمه الكاتمون حتما هذا وقد قيل الخطاب لمن آمن من قريش كما فى قوله تعالى لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم وقوله تعالى ﴿قل الله﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عنهم اشعارا بتعين الجواب بحيث لا محيد عنه وايذانا بأنهم ألجموا ولم يقدروا على التكلم أصلا ﴿ثم ذرهم فى خوضهم﴾ فى باطلهم الذى يخوضون فيه ولا عليك بعد الزام الحجة واقام الحجر ﴿يلعبون﴾ حال من الضمير الأول والظرف صلة للفعل المقدم أو المؤخر أو متعلق بمحذوف هو حال من مفعول الاول أو من فاعل الثانى أو من الضمير الثانى لأنه فاعل فى الحقيقة والظرف متصل بالاول ﴿وهذا كتاب أنزلناه﴾ تحقيق لنزول القرآن الكريم بعد تقرير انزال ما بشر به من التوراة وتكذيب لهم فى كلتهم الشنعاء اثر تكذيب ﴿مبارك﴾ أى كثير الفوائد وجم المنافع ﴿مصدق الذى بين يديه﴾ من التوراة لنزوله حسبما وصف فيها أو الكتب التى قبله فانه مصدق للكل فى اثبات التوحيد والأمر به ونفى الشرك والنهى عنه وفى سائر أصول الشرائع التى لا تنسخ ﴿ولتنذر أم القرى﴾ عطف على ما دل عليه مبارك أى للبركات ولانذار أهل مكة وانما ذكرت باسمها المنبئ عن كونها أعظم القرى شأنا وقبلة لأهلها قاطبة ايذانا بأن انذار أهلها أصل مستتبع لانذار أهل الأرض كافة وقرئ لينذر بالياء على أن الضمير للكتاب ﴿ومن حولها﴾ من أهل المدر والوبر فى المشارق والمغارب ﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾ وبما فيها من أفانين العذاب ﴿يؤمنون به﴾ أى بالكتاب لأنهم يخافون العاقبة ولا يزال الخوف يحملهم على النظر والتأمل حتى يؤمنوا به ﴿وهم على صلواتهم يحافظون﴾ تخصيص محافظتهم على الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات التى لا بد للمؤمنين من أدائها للايذان بانافتها من بين سائر الطاعات وكونها أشرف العبادات بعد الايمان ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ فزعم أنه تعالى بعثه نبيا كمسيلمة الكذاب والاسود العنسى أو اختلق عليه أحكاما من الحل والحرمة كعمرو بن لحى ومتابعيه أى هو أظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب على نفى الاظلم منه وانكاره من غير تعرض لنفى المساوى وانكاره فان الاستعمال الفاشى فى قولك من أفضل من زيد أولا أكرم منه على أنه أفضل من كل فاضل وأكرم من كل كريم وقد مر تمام الكلام فيه ﴿أو قال أوحى الى﴾ من جهته تعالى ﴿ولم يوح اليه﴾ أى والحال أنه لم يوح اليه ﴿شئ﴾ أصلا كعبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فلما نزلت ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين فلما بلغ ثم أنشأناه خلقا آخر قال عبد الله تبارك الله أحسن الخالقين تعجبا من تفصيل خلق الانسان ثم قال عليه الصلاة والسلام اكتبها كذلك فشك عبد الله وقال لئن كان محمد صادقا فقد أوحى الى كما أوحى اليه ولئن كان كاذبا فقد قلت كما قال ﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ كالذين قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿ولو ترى اذ الظالمون﴾ حذف مفعول ترى لدلالة الظرف عليه أى ولو ترى الظالمين اذ هم ﴿فى غمرات الموت﴾ أى شدائده من غمره اذا غشيه ﴿والملائكة باسطوا أيديهم﴾ بقبض أرواحهم كالمتقاضى الملظ الملح يبسط يده الى من عليه الحق ويعنف عليه فى المطالبة من غير امهال وتنفيس أو باسطوها بالعذاب قائلين ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ أى أخرجوا أرواحكم الينا من أجسادكم أو خلصوا أنفسكم من العذاب ﴿اليوم﴾ أى وقت الاماتة أو الوقت الممتد بعده الى ما لا نهاية له ﴿تجزون عذاب الهون﴾ أى العذاب المتضمن لشدة واهانة فاضافته الى الهون وهو الهوان لعراقته فيه ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ كاتخاذ الولد له ونسبة الشريك اليه وادعاء النبوة والوحى كاذبا ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون بها ﴿ولقد جئتمونا﴾ للحساب ﴿فرادى﴾ منفردين عن الاموال والأولاد وغير ذلك مما آثرتموه من الدنيا أو عن الاعوان والأصنام التى كنتم تزعمون أنها شفعاؤكم وهو جمع فرد والالف للتأنيث ككسالى وقرئ فرادا كرخال وفراد كثلاث وفردى كسكرى ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾

بدل من فرادى أى على الهيئة التى ولدتم عليها فى الانفراد أو حال ثانية عند من يجوز تعددها أو حال من الضمير فى فرادى أى مشبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة غرلا بهما أو صفة مصدر جئتمونا أى مجيئا كخلقنا لكم أول مرة ﴿وتركتم ما خولناكم﴾ تفضلنا عليكم فى الدنيا فشغلتم به عن الآخرة ﴿وراء ظهوركم﴾ ما قدمتم منه شيأ ولم تحملوا نقيرا ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ أى شركاء الله تعالى فى الربوبية واستحقاق العبادة ﴿لقد تقطع بينكم﴾ أى وقع التقطع بينكم كما يقال جمع بين الشيئين أى أوقع الجمع بينهما وقرئ بينكم بالرفع على اسناد الفعل الى الظرف كما يقال قوتل أمامكم وخلفكم أو على أن البين اسم للفصل والوصل أى تقطع وصلكم وقرئ ما بينكم ﴿وضل عنكم﴾ أى ضاع أو غاب ﴿ما كنتم تزعمون﴾ أنها شفعاؤكم أو أن لا بعث ولا جزاء ﴿ان الله فالق الحب والنوى﴾ شروع فى تقرير بعض أفاعيله تعالى الدالة على كمال علمه وقدرته ولطف صنعه وحكمته اثر تقرير أدلة التوحيد والفلق الشق بابانة أى شاق الحب بالنبات والنوى بالشجر وقيل المراد به الشق الذى فى الحبوب والنوى أى خالقهما كذلك كما فى قولك ضيق فم الركية ووسع أسفلها وقيل الفلق بمعنى الخلق قال الواحدى ذهبوا بفالق مذهب فاطر ﴿يخرج الحى من الميت﴾ أى يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات مما لا ينمو من النطفة والحب والجملة مستأنفة مبينة لما قبلها وقيل خبر ثان لأن وقوله تعالى ﴿ومخرج الميت﴾ كالنطفة والحب ﴿من الحى﴾ كالحيوان والنبات عطف على فالق الحب لا على يخرج على الوجه الأول لان اخراج الميت من الحى ليس من قبيل فلق الحب والنوى ﴿ذلكم﴾ القادر العظيم الشأن هو ﴿الله﴾ المستحق للعبادة وحده ﴿فأنى تؤفكون﴾ فكيف تصرفون عن عبادته الى غيره ولا سبيل اليه أصلا ﴿فالق الاصباح﴾ خبر آخر لأن أو لمبتدا محذوف والاصباح مصدر سمى به الصبح وقرئ بفتح الهمزة على أنه جمع صبح أى فالق عمود الفجر عن بياض النهار واسفاره أو فالق ظلمة الاصباح وهى الغبش الذى يلى الصبح وقرئ فالق بالنصب على المدح ﴿وجعل الليل سكنا﴾ يسكن اليه التعب بالنهار لاستراحته فيه من سكن اليه اذا اطمأن اليه استئناسا به أو يسكن فيه الخلق من قوله تعالى لتسكنوا فيه وقرئ جاعل الليل فانتصاب سكنا بفعل دل عليه جاعل وقيل بنفسه على أن المراد به الجعل المستمر فى الازمنة المتجددة حسب تجددها لا الجعل الماضى فقط وقيل اسم الفاعل من الفعل المتعدى الى اثنين يعمل فى الثانى وان كان بمعنى الماضى لأنه لما أضيف الى الاول تعين نصبه للثانى لتعذر الاضافة بعد ذلك ﴿والشمس والقمر﴾ معطوفان على الليل وعلى القراءة الاخيرة قيل هما معطوفان على محله والاحسن نصبهما حينئذ بفعل مقدر وقد قرئا بالجر وبالرفع أيضا على الابتداء والخبر محذوف أى مجعولان ﴿حسبانا﴾ أى على أدوار مختلفة يحسب بها الاوقات التى نيط بها العبادات والمعاملات أو محسوبان حسبانا والحسبان بالضم مصدر حسب كما أن الحساب بالكسر مصدر حسب ﴿ذلك﴾ اشارة الى جعلهما كذلك وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته أى ذلك التسيير البديع ﴿تقدير العزيز﴾ الغالب القاهر الذى لا يستعصى عليه شئ من الأشياء التى من جملتها تسييرهما على الوجه المخصوص ﴿العليم﴾ بجميع المعلومات التى من جملتها ما فى ذلك التسيير من المنافع والمصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم ﴿وهو الذى جعل لكم النجوم﴾ شروع فى بيان نعمته تعالى فى الكواكب اثر بيان نعمته تعالى فى النيرين والجعل متعد الى واحد واللام متعلقة به وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر أى أنشأها وأبدعها لاجلكم فقوله تعالى ﴿لتهتدوا بها﴾ بدل من المجرور باعادة العامل بدل اشتمال كما فى قوله تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا والتقدير جعل لكم النجوم لاهتدائكم لكن لا على أن غاية خلقها اهتداؤهم فقط بل على طريقة افراد بعض منافعها وغاياتها بالذكر

حسبما يقتضيه المقام وقد جوز أن يكون مفعولا ثانيا للجعل وهو بمعنى التصيير أى جعلها كائنة لاهتدائكم فى أسفاركم عند دخولكم المفاوز أو البحار كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿فى ظلمات البر والبحر﴾ أى فى ظلمات الليل فى البر والبحر واضافتها اليهما للملابسة فان الحاجة الى الاهتداء بها انما تتحقق عند ذلك أو فى مشتبهات الطرق عبر عنها بالظلمات على طريقة الاستعارة ﴿قد فصلنا الآيات﴾ أى بينا الآيات المتلوة المذكرة لنعمه التى هذه النعمة من جملتها أو الآيات التكوينية الدالة على شئونه تعالى مفصلة ﴿لقوم يعلمون﴾ أى معانى الآيات المذكورة ويعملون بموجبها أو يتفكرون فى الآيات التكوينية فيعلمون حقيقة الحال وتخصيص التفصيل بهم مع عمومه للكل لأنهم المنتفعون به ﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة﴾ تذكير لنعمة أخرى من نعمه تعالى دالة على عظيم قدرته ولطيف صنعه وحكمته أى أنشأكم مع كثرتكم من نفس آدم عليه السلام ﴿فمستقر ومستودع﴾ أى فلكم استقرار فى الاصلاب أو فوق الارض واستيداع فى الارحام أو تحت الارض أو موضع استقرار واستيداع فيما ذكر والتعبير عن كونهم فى الاصلاب أو فوق الارض بالاستقرار لأنهما مقرهم الطبيعى كما أن التعبير عن كونهم فى الارحام أو تحت الارض بالاستيداع لما أن كلا منهما ليس بمقرهم الطبيعى وقد حمل الاستيداع على كونهم فى الاصلاب وليس بواضح وقرىء فمستقر بكسر القاف أى فمنكم مستقر ومنكم مستودع فان الاستقرار منا بخلاف الاستيداع ﴿قد فصلنا الآيات﴾ المبينة لتفاصيل خلق البشر من هذه الآية ونظائرها ﴿لقوم يفقهون﴾ غوامض الدقائق باستعمال الفطنة وتدقيق النظر فان لطائف صنع الله عز وجل فى أطوار تخليق بنى آدم مما تحار فى فهمه الالباب وهو السر فى ايثار يفقهون على يعلمون كما ورد فى شأن النجوم ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء﴾ تذكير لنعمة أخرى من نعمه تعالى منبئة عن كمال قدرته تعالى وسعة رحمته أى أنزل من السحاب أو من سمت السماء ماء خاصا هو المطر وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا ﴿فأخرجنا به﴾ التفت الى التكلم اظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لاجله أى فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته ﴿نبات كل شئ﴾ من الاشياء التى من شأنها النمو من أصناف النجم والشجر وأنواعهما المختلفة فى الكم والكيف والخواص والآثار اختلافا متفاوتا فى مراتب الزيادة والنقصان حسبما يفصح عنه قوله تعالى يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل وقوله تعالى ﴿فأخرجنا منه خضرا﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل من الاخراج وقد بدىء بتفصيل حال النجم أى فأخرجنا من النبات الذى لاساق له شيئا غضا أخضر يقال شئ أخضر وخضر كأعور وعور وأكثر ما يستعمل الخضر فيما تكون خضرته خلقية وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة وقوله تعالى ﴿نخرج منه﴾ صفة لخضرا وصيغة المضارع لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة أى نخرج من ذلك الخضر ﴿حبا متراكبا﴾ هو السنبل المنتظم للحبوب المتراكبة بعضها فوق بعض على هيئة مخصوصة وقرىء يخرج منه حب متراكب وقوله تعالى ﴿ومن النخل﴾ شروع فى تفصيل حال الشجر اثر بيان حال النجم فقوله تعالى من النخل خبر مقدم وقوله تعالى ﴿من طلعها﴾ بدل منه باعادة العامل كما فى قوله تعالى لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله الخ والطلع شئ يخرج من النخل كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود وقوله تعالى ﴿قنوان﴾ مبتدأ أى وحاصلة من طلع النخل قنوان ويجوز أن يكون الخبر محذوفا لدلالة أخرجنا عليه أى ومخرجة من طلع النخل قنوان ومن قرأ يخرج منه حب متراكب كان قنوان عنده معطوفا على حب وقيل المعنى وأخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان أو ومن النخل شئ من طلعها قنوان وهو جمع قنو وهو عنقود النخلة كصنو وصنوان وقرىء بضم القاف كذئب

وذؤبان و بفتحها أيضا على أنه اسم جمع لان فعلان ليس من أبنية الجمع ﴿دانية﴾ سهلة المجتنى قريبة من القاطف فانها وان كانت صغيرة ينالها القاعد تأتى بالثمر لا ينتظر الطول أو ملتفة متقاربة والاقتصار على ذكرها لدلالتها على مقابلها كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر ولزيادة النعمة فيها ﴿وجنات من أعناب﴾ عطف على نبات كل شئ أى وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب وقرىء جنات بالرفع على الابتداء أى ولكم أو ثمة جنات وقد جوز عطفه على قنوان كأنه قيل وحاصلة أو مخرجة من النخل قنوان وجنات من نبات أعناب ولعل زيادة الجنات ههنا من غير اكتفاء بذكر اسم الجنس كما فيما تقدم وما تأخر لما أن الانتفاع بهذا الجنس لا يتأتى غالبا الا عند اجتماع طائفة من أفراده ﴿والزيتون والرمان﴾ منصوبان على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم أو على العطف على نبات وقوله تعالى ﴿مشتبها وغير متشابه﴾ حال من الزيتون اكتفى به عن حال ما عطف عليه كما يكتفى بخبر المعطوف عليه عن خبر المعطوف فى نحو قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وتقديره والزيتون مشتبها وغير متشابه والرمان كذلك وقد جوز أن يكون حالا من الرمان لقربه و يكون المحذوف حال الأول والمعنى بعضه متشابها و بعضه غير متشابه فى الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الاوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها وحكمة منشئها ومبدعها ﴿انظروا الى ثمره اذا أثمر﴾ أى انظروا اليه نظر اعتبار واستبصار اذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا لا يكاد ينتفع به وقرىء الى ثمره ﴿وينعه﴾ أى والى حال نضجه كيف يصير الى كماله اللائق به و يكون شيئا جامعا لمنافع جمة والينع فى الاصل مصدر ينعت الثمرة اذا أدركت وقيل جمع يانع كتاجر وتجر وقرىء بالضم وهى لغة فيه وقرىء يانعة ﴿ان فى ذلكم﴾ اشارة الى ما أمر بالنظر اليه ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه و بعد منزلته ﴿لآيات لقوم يؤمنون﴾ أى لآيات عظيمة أو كثيرة دالة على وجود القادر الحكيم ووحدته فان حدوث هاتيك الاجناس المختلفة والانواع المتشعبة من أصل واحد وانتقالها من حال الى حال على نمط بديع يحار فى فهمه الالباب لا يكاد يكون الا باحداث صانع يعلم تفاصيلها و يرجح ما تقتضيه حكمته من الوجوه الممكنة على غيره ولا يعوقه عن ذلك ضد يناويه أو ند يقاويه ولذلك عقب بتوبيخ من أشرك به والرد عليه حيث قيل ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ أى جعلوا فى اعتقادهم لله الذى شأنه ما فصل فى تضاعيف هذه الآيات الجليلة شركاء ﴿الجن﴾ أى الملائكة حيث عبدوهم وقالوا الملائكة بنات الله وسموا جناً لاجتنانهم تحقيرا لشأنهم بالنسبة الى مقام الالوهية أو الشياطين حيث أطاعوهم كما أطاعوا الله تعالى أو عبدوا الاوثان بتسويلهم وتحريضهم أو قالوا الله خالق الخير وكل نافع والشيطان خالق الشر وكل ضار كما هو رأى الثنوية ومفعولا جعلوا قوله تعالى شركاء الجن قدم ثانيهما على الاول لاستعظام أن يتخذ لله سبحانه شريك ما كائنا ما كان ولله متعلق بشركاء قدم عليه للنكتة المذكورة وقيل هما لله شركاء والجن بدل من شركاء مفسر له نص عليه الفراء وأبو اسحق أو منصوب بمضمر وقع جوابا عن سؤال مقدر نشأ من قوله تعالى وجعلوا لله شركاء كأنه قيل من جعلوه شركاء لله تعالى فقيل الجن أى جعلوا الجن و يؤيده قراءة أبى حيوة و يزيد بن قطيب الجن بالرفع على تقديرهم الجن فى جواب من قال من الذين جعلوهم شركاء لله تعالى وقد قرىء بالجر على أن الاضافة للتبيين ﴿وخلقهم﴾ حال من فاعل جعلوا بتقدير قد أو بدونه على اختلاف الرأيين مؤكدة لما فى جعلهم ذلك من كمال القباحة والبطلان باعتبار علمهم بمضمونها أى وقد علموا أنه تعالى خالقهم خاصة وقيل الضمير للشركاء أى والحال أنه تعالى خلق الجن فكيف يجعلون مخلوقه شريكا له تعالى وقرىء خلقهم عطفا على الجن أى وما يخلقونه من الاصنام أو على شركاء أى وجعلوا له اختلاقهم الافك حيث نسبوه اليه تعالى ﴿وخرقوا له﴾ أى افتعلوا وافتروا له يقال خلق الافك واختلقه وخرقه واخترقه بمعنى وقرىء خرقوا بالشديد للتكثير وقرىء وحرفوا

له أى زوروا ﴿بنين وبنات﴾ فقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت طائفة من العرب الملائكة بنات الله ﴿بغير علم﴾ أى بحقيقة ماقالوه من خطأ أو صواب بل رميا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية أو بغير علم بمرتبة ماقالوه وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لايقادر قدره والباء متعلقة بمحذوف هو حال من فاعل خرقوا أو نعت لمصدر مؤكد له أى خرقوا ملتبسين بغير علم أو خرقا كائنا بغير علم ﴿سبحانه﴾ استئناف مسوق لتنزيهه عز وجل عما نسبوه اليه وسبحان علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقادا وقولا أى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح فى الارض والماء اذا أبعد فيهما وأمعن ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى أنزهه عما لايليق به عقدا وعملا تنزيها خاصا به حقيقا بشأنه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من السبح ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران لانه سمع له فعل من الثلاثى كما ذكر فى القاموس أريد به التنزه التام والتباعد الكلى ففيه مبالغة من حيث اسناد التنزه الى ذاته المقدسة أى تنزه بذاته تنزها لائقا به وهو الانسب بقوله سبحانه ﴿وتعالى﴾ فانه معطوف على الفعل المضمر لامحالة ولما فى السبحان والتعالى من معنى التباعد قيل ﴿عما يصفون﴾ أى تباعد عما يصفونه من أن له شريكا أو ولدا ﴿بديع السموات والارض﴾ أى مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه فان البديع كما يطلق على المبدع يطلق على المبدع نص عليه أئمة اللغة كالصريح بمعنى المصرح وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه على ماذكر فى القاموس وغيره ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قوله أمن ريحانة الداعى السميع وقيل هو من اضافة الصفة المشبهة الى الفاعل للتخفيف بعد نصبه تشبيها لها باسم الفاعل كما هو المشهور أى بديع سمواته وأرضه من بدع اذا كان على نمط عجيب وشكل فائق وحسن رائق أوالى الظرف كما فى قولهم ثبت الغدر بمعنى أنه عديم النظير فيهما والاول هو الوجه والمعنى أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوى والسفلى بلا مادة فاعل على الاطلاق منزه عن الانفعال بالمرة والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه فكيف يمكن أن يكون له ولد وقرئ بديع بالنصب على المدح وبالجر على أنه بدل من الاسم الجليل أو من الضمير المجرور فى سبحانه على رأى من يجيزه وارتفاعه فى القراءة المشهورة على أنه خبر مبتدا محذوف أو فاعل تعالى واظهاره فى موضع الاضمار لتعليل الحكم وتوسيط الظرف بينه وبين الفعل للاهتمام ببيانه أو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿أنى يكون له ولد﴾ وهو على الاولين جملة مستقلة مسوقة كما قبلها لبيان استحالة مانسبوه اليه تعالى وتقرير تنزهه عنه وقوله تعالى ﴿ولم تكن له صاحبة﴾ حال مؤكدة للاستحالة المذكورة فان انتفاء أن يكون له تعالى صاحبة مستلزم لانتفاء أن يكون له ولد ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة وان أمكن وجوده بلا والد وانتفاء الاول مما لاريب فيه لاحد فمن ضرورته انتفاء الثانى أى من أين أو كيف يكون له ولد كما زعموا والحال أنه ليس له على زعمهم أيضا صاحبة يكون الولد منها وقرئ لم يكن بتذكير الفعل للفصل أو لان الاسم ضميره تعالى والخبر هو الظرف وصاحبة مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو الظرف خبر مقدم وصاحبة مبتدأ مؤخر والجملة خبر للكون وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الاسم ضمير الشان لصلاحية الجملة حينئذ لأن تكون مفسرة لضمير الشأن لاعلى الوجه الاول لمابين فى موضعه أن ضمير الشأن لايفسر الا بجملة صريحة وقوله تعالى ﴿وخلق كل شىء﴾ اما جملة مستأنفة أخرى سيقت لتحقيق ماذكر من الاستحالة أو حال أخرى مقررة لها أى أنى يكون له ولد والحال أنه خلق كل شىء انتظمه التكوين والايجاد من الموجودات التى من جملتها ماسموه ولدا له تعالى فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدا لخالقه ﴿وهو بكل شىء﴾ من شأنه أن يعلم كائنا ما كان

مخلوقا أو غير مخلوق كما ينبىء عنه ترك الاضمار الى الاظهار ﴿عليم﴾ مبالغ فى العلم أزلا وأبدا حسبما يعرب عنه العدول الى الجملة الاسمية فلا يخفى عليه خافية مما كان وما سيكون من الذوات والصفات والاحوال التى من جملتها مايجوز عليه تعالى ومالايجوز من المحالات التى مازعموه فرد من أفرادها والجملة استئناف مقرر لمضمون ماقبلها من الدلائل القاطعة ببطلان مقالتهم الشنعاء التى اجترءوا عليها بغير علم ﴿ذلكم﴾ اشارة الى المنعوت بما ذكر من جلائل النعوت وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه وبعد منزلته فى العظمة والخطاب للمشركين المعهودين بطريق الالتفات وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء﴾ أخبار أربعة مترادفة أى ذلك الموصوف بتلك الصفات العظيمة هو الله المستحق للعبادة خاصة مالك أمركم لاشريك له أصلا خالق كل شىء مما كان ومما سيكون فلا تكرار اذ المعتبر فى عنوان الموضوع انما هو خالقيته لما كان فقط كما ينبىء عنه صيغة الماضى وقيل الخبر هو الاول والبواقى أبدال وقيل الاسم الجليل بدل من المبتدا والبواقى أخبار وقيل يقدر لكل من الاخبار الثلاثة مبتدأ وقيل يجعل الكل بمنزلة اسم واحد وقوله تعالى ﴿فاعبدوه﴾ حكم مترتب على مضمون الجملة فان من جمع هذه الصفات كان هو المستحق للعبادة خاصة وقوله تعالى ﴿وهو على كل شىء وكيل﴾ عطف على الجملة المتقدمة أى هو مع ما فصل من الصفات الجليلة متولى أمور جميع مخلوقاته التى أنتم من جملتها فكلوا أموركم اليه وتوسلوا بعبادته الى نجاح مآربكم الدنيوية والاخروية ﴿لاتدركه الأبصار﴾ البصر حاسة النظر وقد تطلق على العين من حيث انها محلها وادراك الشىء عبارة عن الوصول اليه والاحاطة به أى لاتصل اليه الابصار ولا تحيط به كما قال سعيد بن المسيب وقال عطاء كلت أبصار المخلوقين عن الاحاطة به فلا متمسك فيه لمنكرى الرؤية على الاطلاق وقد روى عن ابن عباس ومقاتل رضى الله عنهم لاتدركه الابصار فى الدنيا وهو يرى فى الآخرة ﴿وهو يدرك الابصار﴾ أى يحيط بها علمه اذ لاتخفى عليه خافية ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ فيدرك مالاتدركه الابصار ويجوز أن يكون تعليلا للحكمين السابقين على طريقة اللف أى لاتدركه الابصار لانه اللطيف وهو يدرك الابصار لانه الخبير فيكون اللطيف مستفادا من مقابل الكثيف لما لايدرك بالحاسة ولاينطبع فيها وقوله تعالى ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ استئناف وارد على لسان النبى عليه الصلاة والسلام والبصائر جمع بصيرة وهى النور الذى به تستبصر النفس كما أن البصر نور به تبصر العين والمراد بها الآية الواردة ههنا أو جميع الآية المنتظمة لها انتظاما أوليا ومن لابتداء الغاية مجازا سواء تعلقت بجاء أو بمحذوف هو صفة لبصائر والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لاظهار كمال اللطف بهم أى قد جاءكم من جهة مالككم ومبلغكم الى كمالكم اللائق بكم من الوحى الناطق بالحق والصواب ماهو كالبصائر للقلوب أو قد جاءكم بصائر كائنة من ربكم ﴿فمن أبصر﴾ أى الحق بتلك البصائر وآمن به ﴿فلنفسه﴾ أى فلنفسه أبصر أو فابصاره لنفسه لأن نفعه مخصوص بها ﴿ومن عمى﴾ أى ومن لم يبصر الحق بعد ماظهر له بتلك البصائر ظهورا بينا وضل عنه وانما عبر عنه بالعمى تقبيحا له وتنفيرا عنه ﴿فعليها﴾ أى فعليها عمى أوفعماه عليها أو وبال عماه ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وانما أنا منذر والله هو الذى يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها ﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ أى مثل ذلك التصريف البديع نصرف الآيات الدالة على المعانى الرائقة الكاشفة عن الحقائق الفائقة لاتصريفا أدنى منه وقوله تعالى ﴿وليقولوا درست﴾ علة لفعل قد حذف تعويلا على دلالة السياق عليه أى وليقولوا درست نفعل مانفعل من التصريف المذكور واللام للعاقبة والواو اعتراضية وقيل هى عاطفة على علة محذوفة واللام متعلقة بنصرف أى مثل ذلك التصريف نصرف الآيات لنلزمهم الحجة وليقولوا الخ وقيل اللام لام الامر وتنصره القراءة بسكون اللام كانه قيل وكذلك نصرف الآيات وليقولوا هم مايقولون

فانه لاحتفال بهم و لااعتداد بقولهم وهذا أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بقولهم ورد عليه بأن مابعده يأباه ومعنى درست قرأت وتعلمت وقرئ دارست أى دارست العلماء ودرست أى قدمت هذه الآيات وعفت كما قالوا أساطير الأولين ودرست بضم الراء مبالغة فى درست أى اشتد دروسها ودرست على البناء للمفعول بمعنى قرئت أوعفيت ودارست وفسروها بدارست اليهود محمدا صلى الله عليه وسلم وجاز الاضمار لاشتهارهم بالدراسة وقد جوز اسناد الفعل الى الآيات وهو فى الحقيقة لأهلها أى دارس أهل الآيات وحملتها محمدا صلى الله عليه وسلم وهم أهل الكتاب ودرس أى درس محمد ودارسات أى هى دارسات أى قديمات أوذات درس كعيشة راضية وقوله تعالى ﴿ولنبينه﴾ عطف على ليقولوا واللام على الأصل لأن التبيين غاية التصريف والضمير للآيات باعتبار المعنى أوللقرآن وان لم يذكر أو للمصدر أى ولنفعل التبيين واللام فى قوله تعالى ﴿لقوم يعلمون﴾ متعلقة بالتبيين وتخصيصه بهم لما أنهم المنتفعون به قال ابن عباس هم أولياؤه الذين هداهم الى سبيل الرشاد و وصفهم بالعلم للايذان بغاية جهل الأولين وخلوهم عن العلم بالمرة ﴿اتبع ماأوحى اليك من ربك﴾ لما حكى عن المشركين قدحهم فى تصريف الآيات عقب ذلك بأمره عليه السلام بالثبات على ماهو عليه و بعدم الاعتداد بهم و بأباطيلهم أى دم على ماأنت عليه من اتباع ماأوحى اليك من الشرائع والأحكام التى عمدتها التوحيد و فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من اظهار اللطف بمالايخفى وقوله تعالى ﴿لااله الاهو﴾ اعتراض بين الأمرين المتعاطفين مؤكد لايجاب اتباع الوحى لاسيما فى أمر التوحيد وقد جوز أن يكون حالا من ربك أى منفردا فى الألوهية ﴿وأعرض عن المشركين﴾ لاتحتفل بهم و بأقاويلهم الباطلة التى من جملتها ماحكى عنهم آنفا ومن جعله منسوخا بآية السيف حمل الاعراض على مايعم الكف عنهم ﴿ولو شاء الله﴾ أى عدم اشراكهم حسبما هو القاعدة المستمرة فى حذف مفعول المشيئة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء ﴿ماأشركوا﴾ وهذا دليل على أنه تعالى لايريد ايمان الكافر لكن لابمعنى أنه تعالى يمنعه عنه مع توجهه اليه بل بمعنى أنه تعالى لايريده منه لعدم صرف اختياره الجزئى نحو الايمان واصراره على الكفر والجملة اعتراض مؤكد للاعراض وكذا قوله تعالى ﴿وماجعلناك عليهم حفيظا﴾ أى رقيبا مهيمنا من قبلنا تحفظ عليهم أعمالهم وكذا قوله تعالى ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ من جهتهم تقوم بأمورهم وتدبر مصالحهم وعليهم فى الموضعين متعلق بما بعده قدم عليه للاهتمام به أو لرعاية الفواصل ﴿ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله﴾ أى لاتشتموهم من حيث عبادتهم لآلهتهم كأن تقولوا تبا لكم ولما تعبدونه مثلا ﴿فيسبوا الله عدوا﴾ تجاوزا عن الحق الى الباطل بأن يقولوا لكم مثل قولكم لهم ﴿بغير علم﴾ أى بجهالة بالله تعالى و بما يجب أن يذكر به وقرئ عدوا يقال عدا يعدو عدوا وعدوا وعداء وعدوانا . روى أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون الهك وقيل كان المسلمون يسبونهم فنهوا عن ذلك لئلا يستتبع سبهم سبه سبحانه وتعالى وفيه أن الطاعة اذا أدت الى معصية راجحة وجب تركها فان مايؤدى الى الشر شر ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التزيين القوى ﴿زينا لكل أمة عملهم﴾ من الخير والشر باحداث مايمكنهم منه و يحملهم عليه توفيقا أو تخذيلا و يجوز أن يراد بكل أمة أمم الكفرة اذ الكلام فيهم و بعملهم شرهم وفسادهم والمشبه به تزيين سب الله تعالى لهم ﴿ثم الى ربهم﴾ مالك أمرهم ﴿مرجعهم﴾ أى رجوعهم بالبعث بعد الموت ﴿فينبئهم﴾ من غير تأخير ﴿بما كانوا يعملون﴾ فى الدنيا على الاستمرار من السيئات المزينة لهم وهو وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة سرية مبنية على حكمة أبية وهى أن كل مايظهر

فى هذه النشأة من الأعيان والاعراض فانما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة فان المعاصى سموم قاتلة قد برزت فى الدنيا بصورة ماتستحسنها نفوس العصاة كما نطقت به هذه الآية الكريمة وكذا الطاعات فانها مع كونها أحسن الاحاسن قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ولذلك قال عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات فأعمال الكفرة قد برزت لهم فى النشأة بصورة مزينة يستحسنها الغواة و يستحبها الطغاة وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا فعبر عن اظهارها بصورها الحقيقية بالاخبار بها لما أن كلا منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هى فليتدبر قوله تعالى ﴿وأقسموا بالله﴾ روى أن قريشا اقترحوا بعض آيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فان فعلت بعض ماتقولون أتصدقونى فقالوا نعم وأقسموا لئن فعلته لنؤمنن جميعا فسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها طمعا فى ايمانهم فهم عليه الصلاة والسلام بالدعاء فنزلت وقوله تعالى ﴿جهد أيمانهم﴾ مصدر فى موقع الحال أى أقسموا به تعالى جاهدين فى أيمانهم ﴿لئن جاءتهم آية﴾ من مقترحاتهم أومن جنس الآيات وهو الأنسب بحالهم فى المكابرة والعناد وترامى أمرهم فى العتو والفساد حيث كانوا لايعدون مايشاهدونه من المعجزات الباهرة من جنس الآيات ﴿ليؤمنن بها﴾ وماكان مرمى غرضهم فى ذلك الا التحكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلب المعجزة وعدم الاعتداد بما شاهدوا منه من البينات الحقيقة بأن تقطع بها الارض وتسير بها الجبال ﴿قل انما الآيات﴾ أى كلها فيدخل فيها مااقترحوه دخولا أوليا ﴿عند الله﴾ أى أمرها فى حكمه وقضائه خاصة يتصرف فيها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة لاتتعلق بها ولابشأن من شئونها قدرة أحد ولامشيئته لا استقلالا ولا اشتراكا بوجه من الوجوه حتى يمكننى أن أتصدى لاستنزالها بالاستدعاء وهنا كما ترى سد لباب الاقتراح على أبلغ وجه وأحسنه ببيان علو شأن الآيات وصعوبة منالها وتعاليها من أن تكون عرضة للسؤال والاقتراح وأما ماقيل من أن المعنى انما الآيات عند الله تعالى لاعندى فكيف أجيبكم اليها أو آتيكم بها وهو القادر عليها لا أنا حتى آتيكم بها فلا مناسبة له بالمقام كيف لا وليس مقترحهم مجيئها بغير قدرة الله تعالى وارادته حتى يجابوا بذلك وقوله تعالى ﴿وما يشعركم أنها اذا جاءت لايؤمنون﴾ كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر مسوق من جهته تعالى لبيان الحكمة الداعية الى ماأشعر به الجواب السابق من عدم مجىء الآيات خوطب به المسلمون اما خاصة بطريق التلوين لما كانوا راغبين فى نزولها طمعا فى اسلامهم واما معه عليه الصلاة والسلام بطريق التعميم لما روى عنه صلى الله عليه وسلم من الهم بالدعاء وقد بين فيه أن أيمانهم فاجرة وايمانهم مما لايدخل تحت الوجود وان أجيب الى ماسألوه ومااستفهامية انكارية لكن لاعلى أن مرجع الانكار هو وقوع المشعر به بل هو نفس الاشعار مع تحقق المشعر به فى نفسه أى وأى شىء يعلمكم أن الآية التى يقترحونها اذا جاءت لايؤمنون بل يبقون على ماكانوا عليه من الكفر والعناد أى لاتعلمون ذلك فتمنون مجيئها طمعا فى ايمانهم فكأنه بسط عذر من جهة المسلمين فى تمنيهم نزول الآيات وقيل لامزيدة فيتوجه الانكار الى الاشعار والمشعر به جميعا أى أى شىء يعلمكم ايمانهم عند مجىء الآيات حتى تتمنوا مجيئها طمعا فى ايمانهم فيكون تخطئة لرأى المسلمين وقيل أن بمعنى لعل يقال ادخل السوق أنك تشترى اللحم وعنك وعلك ولعلك كلها بمعنى و يؤيده أنه قرئ لعلها اذا جاءت لايؤمنون على أن الكلام قد تم قبله والمفعول الثانى ليشعركم محذوف كما فى قوله تعالى ومايدريك لعله يزكى والجملة استئناف لتعليل الانكار وتقريره أى أى شىء يعلمكم حالهم وماسيكون عند مجىء الآيات لعلها اذا جاءت لايؤمنون بها فمالكم تتمنون مجيئها فان تمنيه انما يليق بما اذا كان ايمانهم بها محقق الوجود عند مجيئها لامرجو العدم وقرئ انها بالكسر على أنه استئناف حسبما سبق مع زيادة

تحقيق لعدم ايمانهم وقرئ لاتؤمنون بالفوقانية فالخطاب فى ومايشعركم للمشركين وقرئ ومايشعرهم أنها اذا جاءت لايؤمنون فرجع الانكار اقدام المشركين على الاقسام المذكور مع جهلهم بحال قلوبهم عند مجئ الآيات وبكونها حينئذ كما هى الآن ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ عطف على لايؤمنون داخل فى حكم مايشعركم مقيد بما قيد به أى وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن ادراك الحق فلا يفقهونه وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه لكن لامع توجهها اليه واستعدادها لقبوله بل لكمال نبوها عنه واعراضها بالكلية ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم ايمانهم اشعارا بأصالتهم فى الكفر وحسمالتوهم أن عدم ايمانهم ناشئ من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الاجبار ﴿كما لم يؤمنوا به﴾ أى بما جاء من الآيات ﴿أول مرة﴾ أى عند ورود الآيات السابقة والكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف منصوب بلا يؤمنون وما مصدرية أى لا يؤمنون بل يكفرون كفرا كائنا ككفرهم أول مرة وتوسيط تقليب الأفئدة والابصار بينهما لانه من متممات عدم ايمانهم ﴿ونذرهم﴾ عطف على لا يؤمنون داخل فى حكم الاستفهام الانكارى مقيد بما قيد به مبين لما هو المراد بتقليب الأفئدة والابصار ومعرب عن حقيقته بأنه ليس على ظاهره بأن يقلب الله سبحانه مشاعرهم عن الحق مع توجهها اليه واستعدادهم له بطريق الاجبار بل بأن يخليهم وشأنهم بعد ماعلم فساد استعدادهم وفرط نفورهم عن الحق وعدم تأثير اللطف فيهم أصلا ويطبع على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم كما أشرنا اليه وقوله تعالى ﴿فى طغيانهم﴾ متعلق بنذرهم وقوله تعالى ﴿يعمهون﴾ حال من الضمير المنصوب فى نذرهم أى نذرهم فى طغيانهم متحيرين لانهديهم هداية المؤمنين أو مفعول ثان لنذرهم أى نصيرهم عامهين وقرئ يقلب ويذر بالياء على اسنادهما الى ضمير الجلالة وقرئ تقلب بالتاء والبناء للمفعول على اسناده الى أفئدتهم ﴿ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة﴾ تصريح بما أشعر به قوله عزوجل ومايشعركم أنها اذا جاءت لايؤمنون من الحكمة الداعية الى ترك الاجابة الى ما اقترحوه من الآيات اثر بيان أنها فى حكمه تعالى وقضائه المبنى على الحكم البالغة لامدخل لاحد فى أمرها بوجه من الوجوه وبيان لكذبهم فى أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وآكده أى ولو أننا لم نقتصر على ايتاء ما اقترحوه ههنا من آية واحدة من الآيات بل نزلنا اليهم الملائكة كما سألوه بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة وقولهم لو ماتأتينا بالملائكة ﴿وكلمهم الموتى﴾ وشهدوا بحقية الايمان بعد أن أحييناهم حسبما اقترحوه بقولهم فأتوا بآبائنا ﴿وحشرنا﴾ أى جمعنا ﴿عليهم كل شئ قبلا﴾ بضمتين وقرئ بسكون الباء أى كفلاء بصحة الامر وصدق النبى صلى الله عليه وسلم على أنه جمع قبيل بمعنى الكفيل كرغيف ورغف وقضيب وقضب وهو الانسب بقوله تعالى أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أى لو لم نقتصر على ما اقترحوه بل زدنا على ذلك بأن أحضرنا لديهم كل شئ يتأتى منه الكفالة والشهادة بما ذكر لافرادى بل بطريق المعية أو جماعات على أنه جمع قبيل وهو جمع قبيلة وهو الأوفق لعموم كل شئ وشموله للانواع والاصناف أى حشرنا كل شئ نوعا نوعا وصنفا صنفا وفوجا فوجا وانتصابه على الحالية وجمعيته باعتبار الكل المجموعى اللازم للكل الافرادى أو مقابلة وعيانا على أنه مصدر كقبلا وقد قرئ كذلك وانتصابه على الوجهين على أنه مصدر فى موقع الحال وقد نقل عن المبرد وجماعة من أهل اللغة أن الاخير بمعنى الجهة كما فى قولك لى قبل فلان حق وأن انتصابه على الظرفية ﴿ما كانوا ليؤمنوا﴾ أى ماصح وما استقام لهم الايمان لتماديهم فى العصيان وغلوهم فى التمرد والطغيان وأما سبق القضاء عليهم بالكفر فمن الاحكام المترتبة على ذلك حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل ونذرهم فى طغيانهم يعمهون وقوله تعالى ﴿الا أن يشاء الله﴾ استثناء مفرغ من أعم الاحوال والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة أى ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ماذكر من الامور الموجبة للايمان فى حال من الاحوال الداعية اليه المتممة لموجباته

المذكورة الا فى حال مشيئته تعالى لايمانهم أومن أعم العلل أى ما كانوا ليؤمنوا لعلة من العلل المعدودة وغيرها الا لمشيئته تعالى له وأيا ما كان فليس المراد بالاستثناء بيان أن ايمانهم على خطر الوقوع بناء على كون مشيئته تعالى أيضا كذلك بل بيان استحالة وقوعه بناء على استحالة وقوعها كأنه قيل ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله وهيهات ذلك وحالهم حالهم بدليل ماسبق من قوله تعالى ونقلب أفئدتهم الآية كيف لا وقوله عز وجل ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ استدراك من مضمون الشرطية بعد ورود الاستثناء لاقبله ولا ريب فى أن الذى يجهلونه سواء أريد بهم المسلمون وهو الظاهر أو المقسمون ليس عدم ايمانهم بلا مشيئة الله تعالى كما هو اللازم من حمل النظم الكريم على المعنى الاول فانه ليس مما يعتقده الاولون ولا مما يدعيه الآخرون بل انما هو عدم ايمانهم لعدم مشيئته ايمانهم ومرجعه الى جهلهم بعدم مشيئته اياه فالمعنى أن حالهم كما شرح ولكن أكثر المسلمين يجهلون عدم ايمانهم عند مجئ الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لايمانهم فيتمنون مجيئها طمعا فيما لايكون فالجملة مقررة لمضمون قوله تعالى ومايشعركم الخ على القراءة المشهورة أو ولكن أكثر المشركين يجهلون عدم ايمانهم عند مجئ الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لايمانهم حينئذ فيقسمون بالله جهد أيمانهم على مالا يكاد يكون فالجملة على القراءة السابقة بيان مبتدأ لمنشأ خطا المقسمين ومناط اقسامهم وتقرير له على قراءة لاتؤمنون بالتاء الفوقانية وكذا على قراءة وما يشعرهم أنها اذا جاءت لايؤمنون ﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا﴾ كلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يشاهده من عداوة قريش له عليه الصلاة والسلام وما بنوا عليها مما لاخير فيه من الاقاويل والافاعيل ببيان أن ذلك ليس مختصا بك بل هو أمر ابتلى به كل من سبقك من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أشير اليه بذلك منصوب بفعله المحذوف مؤكد لما بعده وذلك اشارة الى مايفهم مما قبله أى جعلنا لكل نبى عدوا والتقديم على الفعل المذكور للقصر المفيد للمبالغة أى مثل ذلك الجعل الذى جعلنا فى حقك حيث جعلنا لك عدوا يضادونك ويضارونك ولا يؤمنون ويبغونك الغوائل ويدبرون فى ابطال أمرك مكايد جعلنا لكل نبى تقدمك عدوا فعلوا بهم مافعل بك أعداؤك لاجعلا أنقص منه وفيه دليل على أن عداوة الكفرة للانبياء عليهم السلام بخلقه تعالى للابتلاء ﴿شياطين الانس والجن﴾ أى مردة الفريقين على أن الاضافة بمعنى من البيانية وقيل هى اضافة الصفة الى الموصوف والاصل الانس والجن الشياطين وقيل هى بمعنى اللام أى الشياطين التى للانس والتى للجن وهو بدل من عدوا والجعل متعد الى واحد أو الى اثنين وهو أول مفعوليه قدم عليه الثانى مسارعة الى بيان العداوة واللام على التقديرين متعلقة بالجعل أو بمحذوف هو حال من عدوا وقوله تعالى ﴿يوحى بعضهم الى بعض﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أحكام عداوتهم وتحقيق وجه الشبه بين المشبه والمشبه به أو حال من الشياطين أو نعت لعدوا وجمع الضمير باعتبار المعنى فانه عبارة عن الاعداء كما فى قوله

اذا أنا لم أنفع صديق بوده فان عدوى لم يضرهموا بغضى

والوحى عبارة عن الايماء والقول السريع أى يلقى ويوسوس شياطين الجن الى شياطين الانس أو بعض كل من الفريقين الى بعض آخر ﴿زخرف القول﴾ أى المموه منه المزين ظاهره الباطل باطنه من زخرفه اذا زينه ﴿غرورا﴾ مفعول له ليوحى أى ليغروهم أو مصدر فى موقع الحال أى غارين أو مصدر مؤكد لفعل مقدر هو حال من فاعل يوحى أى يغرون غرورا ﴿ولو شاء ربك﴾ رجوع الى بيان الشئون الجارية بينه صلى الله عليه وسلم وبين قومه المفهومة من حكاية ماجرى بين الأنبياء عليهم السلام وبين أممهم كما ينبئ عنه الالتفات والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم المعربة عن كمال اللطف فى التسلية أى ولو شاء ربك عدم الامور المذكورة لا ايمانهم كما قيل فان

القاعدة المستمرة أن مفعول المشيئة انما يحذف عند وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وهو قوله تعالى ﴿مافعلوه﴾ أى مافعلوا ماذكر من عداوتك وايحاء بعضهم الى بعض مزخرفات الاقاويل الباطلة المتعلقة بأمرك خاصة لابما يعمه وأمور الانبياء عليهم السلام أيضا كما قيل فان قوله تعالى ﴿فذرهم ومايفترون﴾ صريح فى أن المراد بهم الكفرة المعاصرون له عليه الصلاة والسلام أى اذا كان مافعلوه من أحكام عداوتك من فنون المفاسد بمشيئته تعالى فاتركهم وافتراءهم أو ومايفترونه من أنواع المكايد فان لهم فى ذلك عقوبات شديدة ولك عواقب حميدة لابتناء مشيئته تعالى على الحكم البالغة البتة ﴿ولتصغى اليه﴾ أى الى زخرف القول وهو على الوجه الاول علة أخرى للايحاء معطوفة على غرورا ومابينهما اعتراض وانما لم ينصب لفقد شرطه اذ الغرور فعل الموحى وصغو الافئدة فعل الموحى اليه أى يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول ليغروهم به ولتميل اليه ﴿أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة﴾ انما خص بالذكر عدم ايمانهم بالآخرة دون ماعداها من الامور التى يجب الايمان بهاوهم بها كافرون اشعارا بما هو المدار فى صغو أفئدتهم الى مايلقى اليهم فان لذات الآخرة محفوفة فى هذه النشأة بالمكاره وآلامها مزينة بالشهوات فالذين لايؤمنون بها وبأحوال مافيها لايدرون أن وراء تلك المكاره لذات ودون هذه الشهوات آلاما وانما ينظرون الى مابدالهم فى الدنيا بادىء الرأى فهم مضطرون الى حب الشهوات التى من جملتها مزخرفات الاقاويل وموهات الاباطيل وأما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال ناظرين الى عواقب الامور لم يتصور منهم الميل الى تلك المزخرفات لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتها وأما على الوجهين الاخيرين فهو علة لفعل محذوف يدل عليه المقام أى ولكون ذلك جعلنا ماجعلنا والمعتزلة جعلوا اللام لام العاقبة أو لام القسم أو لام الامر وضعفه فى غاية الظهور ﴿وليرضوه﴾ لانفسهم بعد مامالت اليه أفئدتهم ﴿وليقترفوا﴾ أى يكتسبوا بموجب ارتضائهم له ﴿ماهم مقترفون﴾ له من القبائح التى لايليق ذكرها ﴿أفغير الله أبتغى حكما﴾ كلام مستأنف وارد على ارادة القول والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام أى قل لهم أأميل الى زخارف الشياطين فأبتغى حكما غير الله يحكم بيننا ويفصل الحق منا من المبطل وقيل ان مشركى قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من أمرك فنزلت واسناد الابتغاء المنكر الى نفسه صلى الله عليه وسلم لا الى المشركين كما فى قوله تعالى أفغير دين الله يبغون مع أنهم الباغون لاظهار كمال النصفة أو لمراعاة قولهم اجعل بيننا وبينك حكما وغير امامفعول أبتغى وحكما حال منه واما بالعكس وأياما كان فتقديمه على الفعل الذى هو المعطوف بالفاء حقيقة كما أشير اليه للايذان بأن مدار الانكار هو ابتغاء غيره تعالى حكما لامطلق الابتغاء وقيل حكما تمييز لما فى غير من الابهام كقولهم ان لنا غيرها ابلا قالوا الحكم أبلغ من الحاكم وأدل على الرسوخ لما أنه لايطلق الاعلى العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم وقوله تعالى ﴿وهو الذى أنزل اليكم الكتاب﴾ جملة حالية مؤكدة لانكار ابتغاء غيره تعالى حكما ونسبة الانزال اليهم خاصة مع أن مقتضى المقام اظهار تساوى نسبته الى المتحاكمين لاستمالتهم نحو المنزل واستنزالهم الى قبول حكمه بايهام قوة نسبته اليهم أى أغيره تعالى أبتغى حكما والحال أنه هو الذى أنزل اليكم وأنتم أمة أمية لاتدرون ماتأتون وماتذرون القرآن الناطق بالحق والصواب الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب ﴿مفصلا﴾ أى مبينا فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الأحكام بحيث لم يبق فى أمور الدين شىء من التخليط والابهام فأى حاجة بعد ذلك الى الحكم وهذا كما ترى صريح فى أن القرآن الكريم كاف فى أمر الدين مغن عن غيره ببيانه وتفصيله وأما أن يكون لاعجاز مدخل فى ذلك كما قيل فلا وقوله تعالى ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾ كلام مستأنف غير داخل

تحت القول المقدر مسوق من جهته سبحانه لتحقيق حقية الكتاب الذى نيط به أمر الحكمية وتقرير كونه منزلا من عنده عزوجل ببيان أن الذين وثقوا بهم ورضوا بحكميتهم حسبما نقل آنفا من علماء اليهود والنصارى عالمون بحقيته ونزوله من عنده تعالى وفى التعبير عن التوراة والانجيل باسم الكتاب ايماء الى مابينهما وبين القرآن من المجانسة المقتضية للاشتراك فى الحقية والنزول من عنده تعالى مع مافيه من الايجاز وايراد الطائفتين بعنوان ايتاء الكتاب للايذان بأنهم علموه من جهة كتابهم حيث وجدوه حسبما نعت فيه وعاينوه موافقا له فى الاصول ومالايختلف من الفروع ومخبرا عن أمور لاطريق الى معرفتها سوى الوحى والمراد بالموصول اما علماء الفريقين وهو الظاهر فالايتاء هو التفهيم بالفعل واما الكل وهم داخلون فيه دخولا أوليا فهو أعم مما ذكر ومن التفهيم بالقوة ولاريب فى أن الكل متمكنون من ذلك وقيل المراد مؤمنو أهل الكتاب وقرىء منزل من الانزال والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم لتشريفه عليه الصلاة والسلام والباء فى قوله تعالى بالحق متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى منزل أى ملتبسا بالحق ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ أى فى أنهم يعلمون ذلك لما لاتشاهد منهم آثار العلم وأحكام المعرفة فالفاء لترتيب النهى على الاخبار بعلم أهل الكتاب بشأن القرآن أو فى أنه منزل من ربك بالحق فيكون من باب التهييج والالهاب كقوله تعالى ولاتكونن من المشركين وقيل الخطاب فى الحقيقة للامة وان كان له صلى الله عليه وسلم صورة وقيل الخطاب لكل أحد على معنى أن الادلة قد تعاضدت وتظاهرت فلاينبغى لاحد أن يمترى فيه والفاء على هذه الوجوه لترتيب النهى على نفس علمهم بحال القرآن ﴿وتمت كلمة ربك﴾ شروع فى بيان كمال الكتاب المذكور من حيث ذاته اثر بيان كماله من حيث اضافته اليه تعالى بكونه منزلا منه بالحق وتحقيق ذلك بعلم أهل الكتاب به وانما عبر عنه بالكلمة لأنها الاصل فى الاتصاف بالصدق والعدل وبها تظهر الآثار من الحكم وقرىء كلمات ربك ﴿صدقا وعدلا﴾ مصدران نصبا على الحال وقيل على التمييز وقيل على العلة وقوله تعالى ﴿لامبدل لكلماته﴾ اما استئناف مبين لفضلها على غيرها اثر بيان فضلها فى نفسها واما حال أخرى من فاعل تمت على أن الظاهر مغن عن الضمير الرابط والمعنى أنها بلغت الغاية القاصية صدقا فى الاخبار والمواعيد وعدلا فى الاقضية والاحكام لاأحد يبدل شيئا من ذلك بما هو أصدق وأعدل ولابما هو مثله فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى ﴿وهو السميع﴾ لكل مايتعلق به السمع ﴿العليم﴾ بكل مايمكن أن يعلم فيدخل فى ذلك أقوال المتحاكمين وأحوالهم الظاهرة والباطنة دخولا أوليا هذا وقد قيل المعنى لا أحد يقدر على أن يحرفها كما فعل بالتوراة فيكون ضمانا لها من الله عز وجل بالحفظ كقوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون أو لا نبى ولا كتاب بعدها ينسخها ﴿وان تطع أكثر من فى الأرض﴾ لما تحقق اختصاصه تعالى بالحكمية لاستقلاله بما يوجبها من انزال الكتاب الكامل الفاصل بين الحق والباطل وتمام صدق كلامه وكمال عدالة أحكامه وامتناع وجود من يبدل شيأ منها واستبداده تعالى بالاحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات عقب ذلك ببيان أن الكفرة متصفون بنقائض تلك الكمالات من النقائص التى هى الضلال والاضلال واتباع الظنون الفاسدة الناشىء من الجهل والكذب على الله سبحانه وتعالى ابانة لكمال مباينة حالهم لما يرومونه وتحذيرا عن الركون اليهم والعمل بآرائهم والمراد بمن فى الارض الناس وبأكثرهم الكفار وقيل أهل مكة والارض أرضها أى ان تطعهم بأن جعلت منهم حكما ﴿يضلوك عن سبيل الله﴾ عن الطريق الموصل اليه أو عن الشريعة التى شرعها لعباده ﴿ان يتبعون الا الظن﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم على آثارهم يهتدون أو جهالاتهم وآراؤهم الباطلة على أن المراد بالظن ما يقابل العلم والجملة استئناف مبنى على سؤال نشأ من الشرطية

كأنه قيل كيف يضلون فقيل لا يتبعون فى أمور دينهم الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا فيضلون ضلالا مبينا ولا ريب فى أن الضال المتصدى للارشاد انما يرشد غيره الى مسلك نفسه فهم ضالون مضلون وقوله تعالى ﴿وان هم الا يخرصون﴾ عطف على ما قبله داخل فى حكمه أى يكذبون على الله سبحانه فيما ينسبون اليه تعالى كاتخاذ الولد وجعل عبادة الاوثان ذريعة اليه تعالى وتحليل الميتة وتحريم البحائر ونظائرها أو يقدرون أنهم على شىء وأنى لهم ذلك ودونه مناط العيوق وحقيقته ما يقال عن ظن وتخمين ﴿ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ تقرير لمضمون الشرطية وما بعدها وتأكيد لما يفيده من التحذير أى هو أعلم بالفريقين فاحذر أن تكون من الاولين ومن موصولة أو موصوفة فى محل النصب لا بنفس أعلم فان أفعل التفضيل لا ينصب الظاهر فى مثل هذه الصور بل بفعل دل هو عليه أو استفهامية مرفوعة بالابتداء والخبر يضل والجملة معلق عنها الفعل المقدر وقرىء يضل بضم الياء على أن من فاعل ليضل ومفعوله محذوف ومحلها النصب بما ذكر من الفعل المقدر أى هو أعلم يعلم من يضل الناس فيكون تأكيدا للتحذير عن طاعة الكفرة وأما أن الفاعل هو الله تعالى ومن منصوبة بما ذكر أى يعلم من يضله أو مجرورة باضافة أعلم اليها أى أعلم المضلين من قوله تعالى من يضلل الله أو من قولك أضللته اذا وجدته ضالا فلا يساعده السباق والسياق والتفضيل فى العلم بكثرته واحاطته بالوجوه التى يمكن تعلق العلم بها ولزومه وكونه بالذات لا بالغير ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ أمر مترتب على النهى عن اتباع المضلين الذين من جملة اضلالهم تحليل الحلال وتحريم الحرام وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين انكم تعبدون الله فما قتله الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم فقيل للمسلمين كلوا مما ذكر اسمه تعالى خاصة على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره فقط أو مع اسمه تعالى أو مات حتف أنفه ﴿ان كنتم بآياته﴾ التى من جملتها الآيات الواردة فى هذا الشأن ﴿مؤمنين﴾ فان الايمان بها يقتضى استباحة ما أحله الله والاجتناب عما حرمه وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ انكار لأن يكون لهم شىء يدعوهم الى الاجتناب عن أكل ما ذكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب ونحوها وقوله تعالى ﴿وقد فصل لكم﴾ الخ جملة حالية مؤكدة للانكار كما فى قوله تعالى وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا أى وأى سبب حاصل لكم فى أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه أو وأى غرض يحملكم على أن لا تأكلوا ويمنعكم من أكله والحال أنه قد فصل لكم ﴿ما حرم عليكم﴾ بقوله تعالى قل لا أجد فيما أوحى الى محرما الخ فبقى ما عدا ذلك على الحل لا بقوله تعالى حرمت عليكم الميتة الخ لانها مدنية وأما التأخر فى التلاوة فلا يوجب التأخر فى النزول وقرىء الفعلان على البناء للمفعول وقرىء الأول على البناء للفاعل والثانى للمفعول ﴿الا ما اضطررتم اليه﴾ مما حرم فانه أيضا حلال حينئذ ﴿وان كثيرا﴾ أى من الكفار ﴿ليضلون﴾ الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام كعمرو بن لحى وأضرابه وقرىء يضلون ﴿بأهوائهم﴾ الزائغة وشهواتهم الباطلة ﴿بغير علم﴾ مقتبس من الشريعة الشريفة مستند الى الوحى ﴿ان ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ المتجاوزين لحدود الحق الى الباطل والحلال الى الحرام ﴿وذروا ظاهر الاثم وباطنه﴾ أى ما يعلن من الذنوب وما يسر أو ما يعمل منها بالجوارح وما بالقلب وقيل الزنا فى الحوانيت واتخاذ الأخدان ﴿ان الذين يكسبون الاثم﴾ أى يكتسبونه من الظاهر والباطن ﴿سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ كائنا ما كان فلا بد من اجتنابهما والجملة تعليل للأمر ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ ظاهر فى تحريم متروك التسمية عمدا كان أو نسيانا واليه ذهب داود وعن أحمد بن حنبل مثله وقال مالك والشافعى بخلافه لقوله عليه السلام ذبيحة المسلم حلال وان لم يذكر اسم الله عليه وفرق أبو حنيفة بين العمد والنسيان وأوله بالميتة أو بما ذكر عليه اسم

غيره تعالى لقوله ﴿وانه لفسق﴾ فان الفسق ما أهل به لغير الله والضمير لما ويجوز أن يكون للاكل المدلول عليه بلا تأكلوا والجملة مستأنفة وقيل حالية ﴿وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم﴾ المراد بالشياطين ابليس وجنوده فايحاؤهم وسوستهم الى المشركين وقيل مردة المجوس فايحاؤهم الى أوليائهم ما أنهوا الى قريش بالكتاب أن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن ما يقتلونه حلال وما يقتله الله حرام ﴿ليجادلوكم﴾ أى بالوساوس الشيطانية أو بما نقل من أباطيل المجوس وهو يؤيد التأويل بالميتة ﴿وان أطعتموهم﴾ فى استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم ﴿انكم لمشركون﴾ ضرورة أن من ترك طاعة الله الى طاعة غيره واتبعه فى دينه فقد أشركه به تعالى بل آثره عليه سبحانه ﴿أومن كان ميتاً﴾ وقرىء ميتا على الاصل ﴿فأحييناه﴾ تمثيل مسوق لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين اثر تحذيرهم عنها بالاشارة الى أنهم مستضيئون بأنوار الوحى الالهى والمشركون خابطون فى ظلمات الكفر والطغيان فكيف يعقل اطاعتهم لهم والهمزة للانكار والنفى والواو لعطف الجملة الاسمية على مثلها الذى يدل عليه الكلام أى أأنتم مثلهم ومن كان ميتا فأعطيناه الحياة وما يتبعها من القوى المدركة والمحركة ﴿وجعلنا له﴾ مع ذلك من الخارج ﴿نورا﴾ عظيما ﴿يمشى به﴾ أى بسببه والجملة استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا يصنع بذلك النور فقيل يمشى به ﴿فى الناس﴾ أى فيما بينهم آمنا من جهتهم أو صفة له ﴿كمن مثله﴾ أى صفته العجيبة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿فى الظلمات﴾ خبره على أن المراد بهما اللفظ لا المعنى كما فى قولك زيد صفته أسمر وهذه الجملة صلة لمن وهى مجرورة بالكاف وهى مع مجرورها خبر لمن الاولى وقوله تعالى ﴿ليس بخارج منها﴾ حال من المستكن فى الظرف وقيل من الموصول أى غير خارج منها بحال وهذا كما ترى مثل أريد به من بقى فى الضلالة بحيث لا يفارقها أصلا كما أن الاول مثل أريد به من خلقه الله تعالى على فطرة الاسلام وهداه بالآيات البينة الى طريق الحق يسلكه كيف يشاء لكن لا على أن يدل على كل واحد من هذه المعانى بما يليق به من الالفاظ الواردة فى المثلين بواسطة تشبيهه بما يناسبه من معانيها فان ألفاظ المثل باقية فى معانيها الاصلية بل على أنه قد انتزعت من الامور المتعددة المعتبرة فى كل واحد من جانبى الممثلين هيئة على حدة ومن الامور المتعددة المذكورة فى كل واحد من جانبى المثلين هيئة على حدة فشبهت بهما الاوليان ونزلتا منزلتيهما فاستعمل فيهما ما يدل على الأخريين بضرب من التجوز وقد أشير فى تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم الآية الى أن التمثيل قسم برأسه لا سبيل الى جعله من باب الاستعارة حقيقة وأن الاستعارة التمثيلية من عبارات المتأخرين. نعم قد يجرى ذلك على سنن الاستعارة بأن لا يذكر المشبه كهذين التمثيلين ونظائرهما وقد يجرى على منهاج التشبيه كما فى قوله

وما الناس الا كالديار وأهلها بها يوم حلوها وغدوا بلاقع

﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التزيين البليغ ﴿زين﴾ أى من جهة الله تعالى بطريق الخلق عند ايحاء الشياطين أو من جهة الشياطين بطريق الزخرفة والتسويل ﴿للكافرين﴾ التابعين للوساوس الشيطانية الآخذين بالمزخرفات التى يوحونها اليهم ﴿ما كانوا يعملون﴾ ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصى التى من جملتها ما حكى عنهم من القبائح فانها لو لم تكن مزينة لهم لما أصروا عليها ولما جادلوا بها الحق وقيل الآية نزلت فى حمزة رضى الله عنه وأبى جهل وقيل فى عمر أو عمار رضى الله عنهما وأبى جهل. ﴿وكذلك﴾ قيل معناه كما جعلنا فى مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴿جعلنا فى كل قرية﴾ من سائر القرى ﴿أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ ومفعولا جعلنا أكابر مجرميها على تقديم المفعول الثانى والظرف لغو أوهما الظرف وأكابر على أن مجرميها

بدل أو مضاف اليه فان أفعل التفضيل اذا أضيف جاز الافراد والمطابقة ولذلك قرىء أكبر مجرميها وقيل أكابر مجرميها مفعوله الاول والثانى ليمكروا فيها ولا يخفى أن أى معنى يراد من هذه المعانى لابد أن يكون مشهور التحقق عند الناس معهودا فيما بينهم حتى يصلح أن تصرف الاشارة عن سباق النظم الكريم وتوجه اليه ويجعل مقياسا لنظائره باخراجه مخرج المصدر التشبيهى وظاهر أن ليس الأمر كذلك ولا سبيل الى توجيهها الى مايفهم من قوله تعالى كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون وان كان المراد بهم أكابر مكة لأن مآل المعنى حينئذ بعد اللتيا والتى كما جعلنا أعمال أهل مكة مزينة لهم جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها الخ فاذن الأقرب أن ذلك اشارة الى الكفرة المعهودين باعتبار اتصافهم بصفاتهم والافراد بتأويل الفريق أو المذكور ومحل الكاف النصب على أنه المفعول الثانى لجعلنا قدم عليه لافادة التخصيص كما فى قوله تعالى كذلك كنتم من قبل الآية والاول أكابر مجرميها والظرف لغو أى ومثل أولئك الكفرة الذين هم صناديد مكة ومجرموها جعلنا فى كل قرية أكابرها المجرمين أى جعلناهم متصفين بصفات المذكورين مزينا لهم أعمالهم مصرين على الباطل مجادلين به الحق ليمكروا فيها أى ليفعلوا المكر فيها وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى ﴿وما يمكرون الا بأنفسهم﴾ اعتراض على سبيل الوعد لرسول الله عليه الصلاة والسلام والوعيد للكفرة أى وما تحيق غائلة مكرهم الا بهم ﴿وما يشعرون﴾ حال من ضمير يمكرون مع اعتبار ورود الاستثناء على النفى أى انما يمكرون بأنفسهم والحال أنهم مايشعرون بذلك أصلا بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم وقوله تعالى ﴿واذا جاءتهم آية﴾ رجوع الى بيان حال مجرمى أهل مكة بعد مابين بطريق التسلية أن حال غيرهم أيضا كذلك وأن عاقبة مكر الكل ماذكر فان العظيمة المنقولة انما صدرت عنهم لاعن سائر المجرمين أى اذا جاءتهم آية بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله﴾ قال ابن عباس رضى عنهما حتى يوحى الينا ويأتينا جبريل عليه السلام فيخبرنا أن محمدا صادق كما قالوا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا وعن الحسن البصرى مثله وهذا كما ترى صريح فى أن ماعلق بايتاء ماأوتى الرسل عليهم الصلاة والسلام هو ايمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أنزل اليه ايمانا حقيقيا كما هو المتبادر منه عند الاطلاق خلا أنه يستدعى أن يحمل ماأوتى رسل الله على مطلق الوحى ومخاطبة جبريل عليه السلام فى الجملة وأن تصرف الرسالة فى قوله تعالى ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ عن ظاهرها وتحمل على رسالة جبريل عليه السلام بالوجه المذكور ويراد بجعلها تبليغها الى المرسل اليه لاوضعها فى موضعها الذى هو الرسول ليتأتى كونه جوابا عن اقتراحهم ورد آله بأن يكون معنى الاقتراح لن نؤمن بكون تلك الآية نازلة من عند الله تعالى الى الرسول حتى يأتينا بالذات عيانا كما يأتى الرسول فيخبرنا بذلك ومعنى الرد الله أعلم من يليق بارسال جبريل عليه السلام اليه لأمر من الأمور ايذانا بأنهم بمعزل من استحقاق ذلك التشريف وفيه من التهكم ما لا يخفى وقال مقاتل نزلت فى أبى جهل حين قال زاحمنا بنى عبد مناف فى الشرف حتى اذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى اليه والله لانرضى به ولا نتبعه أبدا حتى يأتينا وحى كما يأتيه وقال الضحاك سأل كل واحد من القوم أن يخص بالرسالة والوحى كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة ولا يخفى أن كل واحد من هذين القولين وان كان مناسبا للرد المذكور لكنه يقتضى أن يراد بالايمان المعلق بايتاء ما أوتى الرسل مجرد تصديقهم برسالته عليه الصلاة والسلام فى الجملة من غير شمول لكافة الناس وأن تكون كلمة حتى فى قول اللعين حتى يأتينا وحى كما يأتيه الخ غاية لعدم الرضا لا لعدم الاتباع فانه مقرر على تقديرى ايتاء الوحى وعدمه فالمعنى لن نؤمن برسالته أصلا حتى نؤتى نحن من الوحى والنبوة مثل ماأوتى رسل الله أو ايتاء مثل ايتاء رسل الله وأما

ماقيل من أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك لأنى أكبر منك سنا وأكثر منك مالا وولدا فنزلت فلا تعلق له بكلامهم المردود الا أن يراد بالايمان المعلق بما ذكر مجرد الايمان بكون الآية النازلة وحيا صادقا لا الايمان بكونها نازلة اليه عليه الصلاة والسلام فيكون المعنى واذا جاءتهم آية نازلة الى الرسول قالوا لن نؤمن بنزولها من عند الله حتى يكون نزولها الينا لا اليه لأنا نحن المستحقون دونه فان ملخص معنى قوله لو كانت النبوة حقا الخ لو كان ماتدعيه من النبوة حقا لكنت أنا النبى لا أنت واذ لم يكن الأمر كذلك فليست بحق وما له تعليق الايمان بحقية النبوة بكون نفسه نبيا ومثل ماأوتى نصب على أنه نعت لمصدر محذوف وما مصدرية أى حتى نؤتاها ايتاء مثل ايتاء رسل الله واضافة الايتاء اليهم لأنهم منكرون لايتائه عليه الصلاة والسلام وحيث نصب على المفعولية توسعا لابنفس أعلم لما عرفت من أنه لا يعمل فى الظاهر بل بفعل دل هو عليه أى هو أعلم يعلم الموضع الذى يضعها فيه والمعنى أن منصب الرسالة ليس مما ينال بكثرة المال والولد وتعاضد الأسباب والعدد وانما ينال بفضائل نفسانية يخصها الله تعالى بمن يشاء من خلص عباده وقرىء رسالاته ﴿سيصيب الذين أجرموا﴾ استئناف آخر ناع عليهم ماسيلقونه من فنون الشر بعد مانعى عليهم حرمانهم مما أملوه والسين للتأكيد ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بأن اصابة مايصيبهم لاجرامهم المستتبع لجميع الشرور والقبائح أى يصيبهم البتة مكان ماتمنوه وعلقوا به أطماعهم الفارغة من عزة النبوة وشرف الرسالة ﴿صغار﴾ أى ذلة وحقارة بعد كبرهم ﴿عند الله﴾ أى يوم القيامة وقيل من عند الله ﴿وعذاب شديد﴾ فى الآخرة أو فى الدنيا ﴿بما كانوا يمكرون﴾ أى بسبب مكرهم المستمر أو بمقابلته وحيث كان هذا من معظم مواد اجرامهم صرح بسببيته ﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾ أى يعرفه طريق الحق ويوفقه للايمان ﴿يشرح صدره للاسلام﴾ فيتسع له وينفتح وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيئة لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه واليه أشار عليه الصلاة والسلام حين سئل فقال نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فينشرح له وينفتح فقالوا هل لذلك من أمارة يعرف بها فقال نعم الانابة الى دار الخلود والاعراض عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله ﴿ومن يرد أن يضله﴾ أى يخلق فيه الضلال بصرف اختياره اليه ﴿يجعل صدره ضيقا حرجا﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يكاد يدخله الايمان وقرىء ضيقا بالتخفيف وحرجا بكسر الراء أى شديد الضيق والأول مصدر وصف به مبالغة ﴿كأنما يصعد﴾ ماهذه مهيئة لدخول كأن على الجمل الفعلية ﴿فى السماء﴾ شبه للمبالغة فى ضيق صدره بمن يزاول مالا يكاد يقدر عليه فان صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة وفيه تنبيه على أن الايمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود وقيل معناه كأنما يتصاعد الى السماء نبوا عن الحق وتباعدا فى الهرب منه وأصل يصعد يتصعد وقد قرىء به وقرىء يصاعد وأصله يتصاعد ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الجعل الذى هو جعل الصدر حرجا على الوجه المذكور ﴿يجعل الله الرجس﴾ أى العذاب أو الخذلان قال مجاهد الرجس مالا خير فيه وقال الزجاج الرجس اللعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴿على الذين لا يؤمنون﴾ أى عليهم ووضع الموصول موضع المضمر للاشعار بأن جعله تعالى معلل بما فى حيز الصلة من كمال نبوهم عن الايمان واصرارهم على الكفر ﴿وهذا﴾ أى البيان الذى جاء به القرآن أو الاسلام أو ماسبق من التوفيق والخذلان ﴿صراط ربك﴾ أى طريقه الذى ارتضاه أو عادته وطريقته التى اقتضتها حكمته وفى التعرض لعنوان الربوبية ايذان بأن تقويم ذلك الصراط للتربية وافاضة الكمال ﴿مستقيما﴾ لاعوج فيه أو عادلا مطردا وهو حال مؤكدة كقوله تعالى وهو الحق مصدقا والعامل فيها معنى الاشارة ﴿قد فصلنا الآيات﴾ بيناها مفصلة ﴿لقوم يذكرون﴾ يتذكرون مافى تضاعيفها

فيعلمون أن كل مايحدث من الحوادث خيرا كان أو شرا فانما يحدث بقضاء الله تعالى وخلقه وأنه تعالى عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم وتخصيص القوم المذكورين بالذكر لأنهم المنتفعون بتفصيل الآيات ﴿لهم دار السلام﴾ أى للمتذكرين دار السلامة من كل المكاره وهى الجنة ﴿عند ربهم﴾ أى فى ضمانه أو ذخيرة لهم عنده لايعلم كنهها غيره تعالى ﴿وهو وليهم﴾ أى مولاهم وناصرهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ بسبب أعمالهم الصالحة أو متوليهم بجزائها يتولى ايصاله اليهم ﴿ويوم يحشرهم جميعا﴾ منصوب بمضمر اما على المفعولية أو الظرفية وقرئ بنون العظمة على الالتفات لتهويل الأمر والضمير المنصوب لمن يحشر من الثقلين أى واذكر يوم يحشر الثقلين قائلا ﴿يامعشر الجن﴾ أو ويوم يحشرهم يقول يامعشر الجن أو ويوم يحشرهم ويقول يامعشر الجن يكون من الأحوال والأهوال مالا يساعده الوصف لفظاعته والمعشر الجماعة والمراد بمعشر الجن الشياطين ﴿قد استكثرتم من الانس﴾ أى من اغوائهم واضلالهم أو منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم كقولهم استكثر الأمير من الجنود وهذا بطريق التوبيخ والتقريع ﴿وقال أولياؤهم﴾ أى الذين أطاعوهم ومن فى قوله تعالى ﴿من الانس﴾ اما لبيان الجنس أى أولياؤهم الذين هم الانس أو متعلقة بمحذوف هو حال من أولياؤهم أى كائنين من الانس ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أى انتفع الانس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به اليها وقيل بأن ألقوا اليهم من الأراجيف والسحر والكهانة والجن بالانس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم بقبول ماألقوه اليهم وقيل استمتاع الانس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم فى المفاوز والمخاوف واستمتاعهم بالانس اعترافهم بأنهم قادرون على اجارتهم ﴿وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا﴾ وهو يوم القيامة قالوه اعترافا بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتكذيب البعث واظهارا للندامة عليها وتحسرا على حالهم واستسلاما لربهم ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين للايذان بأن المضلين قد أفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلا ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية كلامهم كأنه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذ فقيل قال ﴿النار مثواكم﴾ أى منزلكم أو ذات ثوائكم كما أن دار السلام مثوى المؤمنين ﴿خالدين فيها﴾ حال والعامل مثواكم ان جعل مصدرا ومعنى الاضافة ان جعل مكانا ﴿الا ماشاء الله﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما استثنى الله تعالى قوما قد سبق فى علمه أنهم يسلمون و يصدقون النبى عليه الصلاة والسلام وهذا مبنى على أن الاستثناء ليس من المحكى وما بمعنى من وقيل المعنى الا الاوقات التى ينقلون فيها من النار الى الزمهرير فقد روى أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير مايميز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون و يطلبون الرد الى الجحيم وقيل يفتح لهم وهم فى النار باب الى الجنة فيسرعون نحوه حتى اذا صاروا اليه سد عليهم الباب وعلى التقديرين فالاستثناء تهكم بهم وقيل الا ماشاء الله قبل الدخول كأنه قيل النار مثواكم أبدا الا ماأمهلكم و لا يخفى بعده ﴿ان ربك حكيم﴾ فى أفاعيله ﴿عليم﴾ باحوال الثقلين وأعمالهم و بما يليق بها من الجزاء ﴿وكذلك﴾ أى مثل ماسبق من تمكين الجن من اغواء الانس واضلالهم ﴿نولى بعض الظالمين﴾ من الانس ﴿بعضا﴾ آخر منهم أى نجعلهم بحيث يتولونهم بالاغواء والاضلال أو نجعل بعضهم قرناء بعض فى العذاب كما كانوا كذلك فى الدنيا عند اقتراف مايؤدى اليه من القبائح ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصى ﴿يامعشر الجن والانس﴾ شروع فى حكاية ماسيكون من توبيخ المعشرين وتقريعهم بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسهم اثر حكاية توبيخ معشر الجن باغواء الانس واضلالهم و بيان مآل أمرهم ﴿ألم يأتكم﴾ أى فى الدنيا ﴿رسل﴾ أى من عند الله عز وجل لكن لاعلى أن يأتى كل رسول كل واحدة من الامم بل على أن يأتى كل أمة رسول خاص بها أى ألم يأت كل

أمة منكم رسول معين وقوله تعالى ﴿منكم﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لرسل أى كائنة من جملتكم لكن لاعلى أنهم من جنس الفريقين معا بل من الانس خاصة وانما جعلوا منهما اما لتأكيد وجوب اتباعهم والايذان بتقاربهما ذاتا واتحادهما تكليفا وخطابا كأنهما جنس واحد ولذلك تمكن أحدهما من اضلال الآخر واما لان المراد بالرسل مايعم رسل الرسل وقد ثبت أن الجن قد استمعوا القرآن وأنذروا به قومهم حيث نطق به قوله تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن الى قوله تعالى و لوا الى قومهم منذرين وقوله تعالى ﴿يقصون عليكم آياتى﴾ صفة أخرى لرسل محققة لما هو المراد من ارسال الرسل من التبليغ والانذار وقد حصل ذلك بالنسبة الى الثقلين ﴿وينذرونكم﴾ بما فى تضاعيفها من القوارع ﴿لقاء يومكم هذا﴾ يوم الحشر الذى قد عاينوا فيه ماأعدلهم من أفانين العقوبات الهائلة ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام السابق كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك التوبيخ الشديد فقيل قالوا ﴿شهدنا على أنفسنا﴾ أى باتيان الرسل وانذارهم و بمقابلتهم اياهم بالكفر والتكذيب و باستحقاقهم بسبب ذلك للعذاب المخلد حسبما فصل فى حكاية جوابهم عن سؤال خزنة النار حيث قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شئ ان أنتم الا فى ضلال كبير وقد أجمل ههنا فى الحكاية كما أجمل فى حكاية جوابهم حيث قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وقوله تعالى ﴿وغرتهم الحيوة الدنيا﴾ مع ماعطف عليه اعتراض لبيان ماأداهم فى الدنيا الى ارتكابهم للقبائح التى ارتكبوها والجائهم بعد ذلك فى الآخرة الى الاعتراف بالكفر واستيجاب العذاب وذم لهم بذلك أى واغتروا فى الدنيا بالحياة الدنيئة واللذات الخسيسة الفانية وأعرضوا عن النعيم المقيم الذى بشرت به الرسل واجترؤا على ارتكاب مايجرهم الى العذاب المؤبد الذى أنذروهم اياه ﴿وشهدوا﴾ فى الآخرة ﴿على أنفسهم أنهم كانوا﴾ فى الدنيا ﴿كافرين﴾ أى بالآيات والنذر التى أتى بها الرسل على التفصيل المذكور آنفا واضطروا الى الاستسلام لاشد العذاب كما ينبئ عنه ماحكى عنهم بقوله تعالى وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير وفيه من تحسيرهم وتحذير السامعين عن مثل صنيعهم مالا مزيد عليه ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من شهادتهم على أنفسهم بالكفر واستيجاب العذاب والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى﴾ بحذف اللام على أن أن مصدرية أو مخففة من أن وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف وقوله تعالى ﴿بظلم﴾ متعلق اما بمهلك أى بسبب ظلم أو بمحذوف وقع حالا من القرى أى ملتبسة بظلم فان ملابسة أهلها للظلم ملابسة للقرية له بواسطتهم وأما كونه حالا من ربك أو من ضميره فى مهلك كما قيل فيأباه أن غفلة أهلها مأخوذة فى معنى الظلم وحقيقته لامحالة فلايحسن تقييده بقوله تعالى ﴿وأهلها غافلون﴾ والمعنى ذلك ثابت لانتفاء كون ربك أو لان الشأن لم يكن ربك مهلك القرى بسبب أى ظلم فعلوه من أفراد الظلم قبل أن ينهوا عنه و ينبهوا على بطلانه برسول و كتاب وان قضى به بديهة العقول و ينذروا عاقبة جناياتهم أى لولا انتفاء كونه تعالى معذبا لهم قبل ارسال الرسل وانزال الكتب لما أمكن التوبيخ بما ذكر ولما شهدوا على أنفسهم بالكفر واستيجاب العذاب و لااعتذروا بعدم اتيان الرسل كما فى قوله تعالى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لو لا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى وانما علل ماذكر بانتفاء التعذيب الدنيوى الذى هو اهلاك القرى قبل الانذار مع أن التقريب فى تعليله بانتفاء مطلق التعذيب من غير بعث الرسل أتم على مانطق به قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا لبيان كمال نزاهته سبحانه وتعالى عن كلا التعذيبين الدنيوى والأخروى معا من غير انذار على أبلغ وجه وآكده حيث اقتصر على نفى التعذيب الدنيوى عنه تعالى ليثبت نفى التعذيب الأخروى عنه تعالى على الوجه البرهانى بطريق الاولوية فانه تعالى حيث لم يعذبهم بعذاب يسير منقطع

بدون انذار فلأن لا يعذبهم بعذاب شديد مخلد أولى وأجلى ولو علل بما ذكر من نفى التعذيب لانصرف بحسب المقام الى مافيه الكلام من نفى التعذيب الأخروى ونفى التعذيب الدنيوى غير متعرض له لاصريحا ولادلالة ضرورة أن نفى الاعلى لايدل على نفى الادنى ولان ترتب التعذيب الدنيوى على الانذار عند عدم تأثر المنذرين منه معلوم مشاهد عند السامعين فيستدلون بذلك على أن التعذيب الأخروى أيضا كذلك فينزجرون عن الاخلال بمواجب الانذار أشد انزجار هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم وأما جعل ذلك اشارة الى ارسال الرسل عليهم السلام وانذارهم وخبر المبتدا محذوف كما أطبق عليه الجمهور فبمعزل من مقتضى المقام والله سبحانه أعلم ﴿ولكل﴾ أى من المكلفين من الثقلين ﴿درجات﴾ متفاوتة وطبقات متباينة ﴿مما عملوا﴾ من أعمالهم صالحة كانت أو سيئة فان أعمالهم درجات فى أنفسها أو من جزاء أعمالهم فان كل جزاء مرتبة معينة لهم أو من أجل أعمالهم ﴿وماربك بغافل عما يعملون﴾ فيخفى عليه عمل من أعمالهم أو قدر مايستحقون بها من ثواب أو عقاب وقرئ بالتاء تغليبا للخطاب على الغيبة ﴿وربك الغنى﴾ مبتدأ وخبر أى هو المعروف بالغنى عن كل ماسواه كائنا من كان وما كان فيدخل فيه غناه عن العباد وعن عبادتهم وفى التعرض لوصف الربوبية فى الموضعين لاسيما فى الثانى لكونه موقع الاضمار مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من اظهار اللطف به عليه السلام وتنزيه ساحته عن توهم شمول الوعيد الآتى لها أيضا مالايخفى وقوله تعالى ﴿ذو الرحمة﴾ خبر آخر أو هو الخبر والغنى صفة أى يترحم عليهم بالتكليف تكميلا لهم ويمهلهم على المعاصى وفيه تنبيه على أن ماسلف ذكره من الارسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتمهيد لقوله تعالى ﴿ان يشأ يذهبكم﴾ أى مابه حاجة اليكم ان يشأ يذهبكم أيها العصاة وفى تلوين الخطاب من تشديد الوعيد مالايخفى ﴿ويستخلف من بعدكم﴾ أى من بعد اذهابكم ﴿مايشاء﴾ من الخلق وايثار ماعلى من لاظهار كمال الكبرياء واسقاطهم عن رتبة العقلاء ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ أى من نسل قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام لكنه أبقاكم ترحما عليكم ومافى كما مصدرية ومحل الكاف النصب على أنه مصدر تشبيهى على غير الصدر فان يستخلف فى معنى ينشئ كأنه قيل وينشئ انشاء كائنا كانشائكم الخ أو نعت لمصدر الفعل المذكور أى يستخلف استخلافا كائنا كانشائكم الخ والشرطية استئناف مقرر لمضمون ماقبلها من الغنى والرحمة ﴿ان ماتوعدون﴾ أى الذى توعدونه من البعث وما يتفرع عليه من الأمور الهائلة وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار التجددى ﴿لآت﴾ لواقع لامحالة كقوله تعالى ان ماتوعدون لواقع وايثاره عليه لبيان كمال سرعة وقوعه بتصويره بصورة طالب حثيث لايفوته هارب حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿وماأنتم بمعجزين﴾ أى بفائتين ذلك وان ركبتم فى الهرب متن كل صعب وذلول كما أن ايثار صيغة الفاعل على المستقبل للايذان بكمال قرب الاتيان والمراد بيان دوام انتفاء الاعجاز لا بيان انتفاء دوام الاعجاز فان الجملة الاسمية كما تدل على دوام الثبوت تدل بمعونة المقام اذا دخل عليها حرف النفى على دوام الانتفاء لاعلى انتفاء الدوام كما حقق فى موضعه ﴿قل ياقوم اعملوا على مكانتكم﴾ اثر مابين لهم حالهم ومآلهم بطريق الخطاب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين بأن يواجههم بتشديد التهديد وتكرير الوعيد ويظهر لهم ماهو عليه من غاية التصلب فى الدين ونهاية الوثوق بأمره وعدم المبالاة بهم أى اعملوا على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن أوعلى جهتكم وحالتكم التى أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة وقرئ مكاناتكم والمعنى اثبتوا على كفركم ومعاداتكم ﴿انى عامل﴾ ما أمرت به من الثبات على الاسلام والاستمرار على الأعمال الصالحة والمصابرة وايراد التهديد بصيغة الأمر مبالغة فى الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه جمعا عليه فيحمله بالأمر على مايؤدى اليه وتسجيل بأن المهدد لايتأتى

منه الا الشر كالذى أمر به بحيث لايجد الى التفصى عنه سبيلا ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ سوف لتأكيد مضمون الجملة والعلم عرفانى ومن اما استفهامية معلقة لفعل العلم محلها الرفع على الابتداء وتكون باسمها وخبرها خبر لها وهى مع خبرها فى محل نصب لسدها مسد مفعول تعلمون أى فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة الحسنى التى خلق الله تعالى هذه الدار لها واما موصولة فمحلها النصب على أنها مفعول لتعلمون أى فسوف تعلمون الذى له عاقبة الدار وفيه مع الانذار انصاف فى المقال وتنبيه على كمال وثوق المنذر بأمره وقرئ بالياء لان تأنيث العاقبة غير حقيقى ﴿انه﴾ أى الشأن ﴿لايفلح الظالمون﴾ وضع الظلم موضع الكفر ايذانا بأن امتناع الفلاح يترتب على أى فرد كان من أفراد الظلم فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفراده ﴿وجعلوا﴾ شروع فى تقبيح أحوالهم الفظيعة بحكاية أقوالهم وأفعالهم الشنيعة وهم مشركو العرب كانوا يعينون أشياء من حرث وتتاج لله تعالى وأشياء منهما لآلهتهم فاذا رأوا ماجعلوه لله تعالى زاكيا ناميا يزيد فى نفسه خيرا رجعوا فجعلوه لآلهتهم واذا زكا ماجعلوه لآلهتهم تركوه معتلين بأن الله تعالى غنى وماذاك الا لحب آلهتهم وايثارهم لها والجعل اما متعد الى واحد فالجاران فى قوله تعالى ﴿لله مما ذرأ﴾ متعلقان به ومن فى قوله تعالى ﴿من الحرث والأنعام﴾ بيان لما وفيه تنبيه على فرط جهالتهم حيث أشركوا الخالق فى خلقه جمادا لايقدر على شىء ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزكى له أى عينوا له تعالى مما خلقه من الحرث والانعام ﴿نصيبا﴾ يصرفونه الى الضيفان والمساكين وتأخيره عن المجرورين لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر واما الى مفعولين أولهما مما ذرأ على أن من تبعيضية أى جعلوا بعض ماخلقه نصيبا له وما قيل من أن الأول نصيبا والثانى لله لايساعده سداد المعنى وحكاية جعلهم له تعالى نصيبا تدل على أنهم جعلوا لشركائهم أيضا نصيبا ولم يذكر اكتفاء بقوله تعالى ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ وقرئ بضم الزاء وهو لغة فيه وانما قيد به الأول للتنبيه على أنه فى الحقيقة ليس بجعل لله تعالى غير مستتبع لشىء من الثواب كالتطوعات التى يبتغى بها وجه الله تعالى لا لما قيل من أنه للتنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله تعالى به فان ذلك مستفاد من الجعل ولذلك لم يقيد به الثانى ويجوز أن يكون ذلك تمهيدا لما بعده على معنى أن قولهم هذا لله مجرد زعم منهم لايعملون بمقتضاه الذى هو اختصاصه به تعالى فقوله تعالى ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم﴾ بيان وتفصيل له أى فما عينوه لشركائهم لايصرف الى الوجوه التى يصرف اليها ماعينوه لله تعالى من قرى الضيفان والتصدق على المساكين وماعينوه لله تعالى اذا وجدوه زاكيا يصرف الى الوجوه التى يصرف اليها ماعينوه لآلهتهم من انفاق عليها وذبح نسائك عندها والاجراء على سدنتها ونحو ذلك ﴿ساء مايحكمون﴾ فيما فعلوا من ايثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم بما لم يشرع لهم وما بمعنى الذى والتقدير ساء الذى يحكمون حكمهم فيكون حكمهم مبتدأ وماقبله الخبر وحذف لدلالة يحكمون عليه ﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك فى قسمة القربان بين الله تعالى وبين آلهتهم أومثل ذلك التزيين البليغ المعهود من الشياطين ﴿زين لكثير من المشركين قتل أولادهم﴾ بوأدهم ونحرهم لآلهتهم. كان الرجل يحلف فى الجاهلية لئن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب وهو مشهور ﴿شركاؤهم﴾ أى أولياؤهم من الجن أو من السدنة وهو فاعل زين أخر عن الظرف والمفعول لما مر غير مرة وقرئ على البناء للمفعول الذى هو القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء باضافة القتل اليه مفصولا بينهما بمفعوله وقرئ على البناء للمفعول ورفع قتل وجر أولادهم ورفع شركاؤهم باضمار فعل دل عليه زين كأنه لما قيل زين لهم قتل أولادهم قيل من زينه فقيل زينه شركاؤهم ﴿ليردوهم﴾ أى يهلكوهم بالاغواء ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ وليخلطوا عليهم ماكانوا عليه من دين اسمعيل عليه السلام أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به واللام للتعليل ان كان

التزيين من الشياطين وللعاقبة ان كان من السدنة ﴿ ولوشاء الله ﴾ أى عدم فعلهم ذلك ﴿ مافعلوه ﴾ أى مافعل المشركون مازين لهم من القتل أو الشركاء التزيين أو الارداء واللبس أو الفريقان جميع ذلك على اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ الفاء فصيحة أى اذا كان مافعلوه بمشيئة الله تعالى فدعهم وافتراءهم أو وما يفترونه من الافك فان فيما شاء الله تعالى حكما بالغة انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى ﴿ وقالوا ﴾ حكاية لنوع آخر من أنواع كفرهم ﴿ هذه ﴾ اشارة الى ماجعلوه لآلهتهم والتأنيث للخبر ﴿ أنعام وحرث حجر ﴾ أى حرام فعل بمعنى مفعول كالذبح يستوى فيه الواحد والكثير والذكر والانثى لأن أصله المصدر ولذلك وقع صفة لانعام وحرث وقرئ حجر بالضم و بضمتين وحرج أى ضيق وأصله حرج وقيل هو مقلوب من حجر ﴿ لايطعمها الا من نشاء ﴾ يعنون خدم الأوثان من الرجال دون النساء والجملة صفة أخرى لانعام وحرث ﴿ بزعمهم ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من فاعل قالوا أى قالوه ملتبسين بزعمهم الباطل من غير حجة ﴿ وأنعام ﴾ خبر مبتدا محذوف والجملة معطوفة على قوله تعالى هذه أنعام الخ أى قالوا مشيرين الى طائفة أخرى من أنعامهم وهذه أنعام ﴿ حرمت ظهورها ﴾ يعنون بها البحائر والسوائب والحوامى ﴿ وأنعام ﴾ أى وهذه أنعام كما مر وقوله تعالى ﴿ لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ صفة لأنعام لكنه غير واقع فى كلامهم المحكى كنظائره بل مسوق من جهته تعالى تعيينا للموصوف وتمييزا له عن غيره كما فى قوله تعالى وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله على أحد التفاسير كأنه قيل وأنعام ذبحت على الأصنام فانها التى لايذكر عليها اسم الله وانما يذكر عليها اسم الأصنام وقيل لايحجون عليها فان الحج لايعرى عن ذكر الله تعالى وقال مجاهد كانت لهم طائفة من أنعامهم لايذكرون اسم الله عليها ولا فى شئ من شأنها لا ان ركبوا ولا ان حلبوا ولا ان نتجوا ولا ان باعوا ولا ان حملوا ﴿ افتراء عليه ﴾ نصب على المصدر اما على أن ما قالوه تقول على الله تعالى واما على تقدير عامل من لفظه أى افتروا افتراء والجار متعلق بقالوا أو بافتروا المقدر أو بمحذوف هو صفة له لا بافتراء لأن المصدر المؤكد لا يعمل أو على الحال من فاعل قالوا أى مفترين أو على العلة أى للافتراء فالجار متعلق به ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ أى بسببه أو بدله وفى ابهام الجزاء من التهويل ما لا يخفى ﴿ وقالوا ﴾ حكاية لفن آخر من فنون كفرهم ﴿ ما فى بطون هذه الأنعام ﴾ يعنون به أجنة البحائر والسوائب ﴿ خالصة لذكورنا ﴾ حلال لهم خاصة والتاء للنقل الى الاسمية أو للمبالغة أو لأن الخالصة مصدر كالعافية وقع موقع الخالص مبالغة أو بحذف المضاف أى ذو خالصة أو للتأنيث بناء على أن ما عبارة عن الأجنة والتذكير فى قوله تعالى ﴿ ومحرم على أزواجنا ﴾ أى جنس أزواجنا وهن الأناث باعتبار اللفظ وفيه كما ترى حمل للنظم الكريم على خلاف المعهود الذى هو الحمل على اللفظ أولا وعلى المعنى ثانيا كما فى قوله تعالى ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم الخ ونظائره وأما العكس فقد قالوا أنه لانظير له فى القرآن وهذا الحكم منهم ان ولد ذلك حيا وهو الظاهر المعتاد ﴿ وان يكن ميتة ﴾ أى ان ولدت ميتة ﴿ فهم ﴾ أى الذكور والاناث ﴿ فيه ﴾ أى فيما فى بطون الأنعام وقيل المراد بالميتة ما يعم الذكر والأنثى فغلب الأول على الثانى ﴿ شركاء ﴾ يأكلون منه جميعا وقرئ خالصة بالنصب على أنه مصدر مؤكد والخبر لذكورنا أو حال من الضمير الذى فى الظرف لا من الذى فى ذكورنا ولا من الذكور لأنه لا يتقدم على العامل المعنوى ولا على صاحبه المجرور وقرئ خالصه بالرفع والاضافة الى الضمير على أنه بدل من ما أو مبتدأ ثان ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ أى جزاء وصفهم الكذب على الله تعالى فى أمر التحليل والتحريم

من قوله تعالى وتصف ألسنتهم الكذب ﴿ انه حكيم عليم ﴾ تعليل للوعيد بالجزاء فان الحكيم العليم بما صدر عنهم لا يكاد يترك جزاءهم الذى هو من مقتضيات الحكمة ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم ﴾ جواب قسم محذوف وقرئ بالتشديد وهم ربيعة ومضر وأضرابهم من العرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبى والفقر أى خسروا دينهم ودنياهم ﴿ سفها بغير علم ﴾ متعلق بقتلوا على أنه علة له أى لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرزاق لهم ولأولادهم أو نصب على الحال ويؤيده أنه قرئ سفهاء أو مصدر ﴿ وحرموا ما رزقهم الله ﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما ﴿ افتراء على الله ﴾ نصب على أحد الوجوه المذكورة واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لاظهار كمال عتوهم وطغيانهم ﴿ قد ضلوا ﴾ عن الطريق المستقيم ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ اليه وان هدوا بفنون الهدايات أو وما كانوا مهتدين من الاصل لسوء سيرتهم فالجملة حينئذ اعتراض وعلى الاول عطف على ضلوا ﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات ﴾ تمهيد لما سيأتى من تفصيل أحوال الانعام أى هو الذى أنشأهن من غير شركة لاحد فى ذلك بوجه من الوجوه والمعروشات من الكروم المرفوعات على مايحملها ﴿ وغير معروشات ﴾ وهن الملقيات على وجه الارض وقيل المعروشات ماغرسه الناس وعرشوه وغير المعروشات مانبت فى البوادى والجبال ﴿ والنخل والزرع ﴾ عطف على جنات أى أنشأهما ﴿ مختلفا أكله ﴾ وقرئ أكله بسكون الكاف أى ثمره الذى يؤكل فى الهيئة والكيفية والضمير اما للنخل والزرع داخل فى حكمه أو للزرع والباقى مقيس عليه أو للجميع على تقدير أكل ذلك أو كل واحد منهما ومختلفا حال مقدرة اذ ليس كذلك وقت الانشاء ﴿ والزيتون والرمان ﴾ أى أنشأهما وقوله تعالى ﴿ متشابها وغير متشابه ﴾ نصب على الحالية أى يتشابه بعض أفرادهما فى اللون والهيئة أو الطعم ولا يتشابه بعضها ﴿ كلوا من ثمره ﴾ أى من ثمر كل واحد من ذلك ﴿ اذا أثمر ﴾ وان لم يدرك ولم ينع بعد وقيل فائدته رخصة المالك فى الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ أريد به ما كان يتصدق به يوم الحصاد بطريق الوجوب من غير تعيين المقدار لا الزكاة المقدرة فانها فرضت بالمدينة والسورة مكية وقيل الزكاة والآية مدنية والأمر بايتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لايؤخر عن وقت الاداء وليعلم أن الوجوب بالادراك لا بالتصفية وقرئ يوم حصاده بكسر الحاء وهو لغة فيه ﴿ ولا تسرفوا ﴾ أى فى التصدق كما روى عن ثابت بن قيس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كلها ولم يدخل منه شيئا الى منزله كقوله تعالى ولا تبسطها كل البسط الآية ﴿ انه لايحب المسرفين ﴾ أى لا يرتضى اسرافهم ﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشا ﴾ شروع فى تفصيل حال الانعام وابطال ماتقولوا على الله تعالى فى شأنها بالتحريم والتحليل وهو عطف على مفعول أنشأ ومن متعلقة به أى وأنشأ من الانعام مايحمل عليه الاثقال ومايفرش للذبح أو مايفرش المصنوع من شعره وصوفه و و بره وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار الدانية من الارض كأنها فرش مفروش عليها ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ ماعبارة عما ذكر من الحمولة والفرش ومن تبعيضية أى كلوا بعض مارزقكم الله تعالى أى حلاله وفيه تصريح بأن انشاءها لاجلهم ومصلحتهم ﴿ ولا تتبعوا ﴾ فى أمر التحليل والتحريم بتقليد أسلافكم المجازفين فى ذلك من تلقاء أنفسهم المفترين على الله سبحانه ﴿ خطوات الشيطان ﴾ فان ذلك منهم باغوائه واستتباعه اياهم ﴿ انه لكم عدو مبين ﴾ ظاهر العداوة ﴿ ثمانية أزواج ﴾ الزوج مامعه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل والمراد بها الانواع الأربعة وايرادها بهذا العنوان وهذا العدد تمهيد لما سيق له الكلام من الانكار المتعلق بتحريم كل واحد من الذكر والأنثى و بما فى بطنها وهو بدل من حمولة وفرشا منصوب بما نصبهما وجعله مفعولا لكلوا على أن قوله تعالى ولا تتبعوا الآية معترض بينهما أوحالا من ما بمعنى مختلفة أو متعددة يأباه جزالة النظم الكريم لظهور أنه مسوق لتوضيح

حال الانعام بتفصيلها أو لا الى حمولة وفرش ثم بتفصيلها الى ثمانية أزواج حاصلة من تفصيل الأولى الى الابل والبقر وتفصيل الثانى الى الضأن والمعز ثم تفصيل كل من الاقسام الأربعة الى الذكر والانثى كل ذلك لتحرير المواد التى تقولوا فيها عليه سبحانه وتعالى بالتحليل والتحريم ثم تبكيتهم باظهار كذبهم وافترائهم فى كل مادة من تلك المواد بتوجيه الانكار اليها مفصلة واثنين فى قوله سبحانه وتعالى ﴿من الضأن اثنين﴾ بدل من ثمانية أزواج منصوب بناصبه وهو العامل فى من أى أنشأ من الضأن زوجين الكبش والنعجة وقرئ اثنان على الابتداء والضأن اسم جنس كالابل وجمعه ضئين كأمير أو جمع ضائن كتاجر وتجر وقرئ بفتح الهمزة ﴿ومن المعز اثنين﴾ عطف على مثله شريك له فى حكمه أى وأنشأ من المعز زوجين التيس والعنز وقرئ بفتح العين وهو جمع ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس وقرئ ومن المعزى وهذه الازواج الأربعة تفصيل للفرش ولعل تقديمها فى التفصيل مع تأخر أصلها فى الاجمال لكون هذين النوعين عرضة للاكل الذى هو معظم مايتعلق به الحل والحرمة وهو السر فى الاقتصار على الامر به فى قوله تعالى كلوا مما رزقكم الله من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب وغير ذلك مما حرموه فى السائبة وأخواتها ﴿قل﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تفصيل أنواع الانعام التى أنشأها أى قل تبكيتا لهم واظهارا لانقطاعهم عن الجواب ﴿آلذكرين﴾ من ذينك النوعين وهما الكبش والتيس ﴿حرم﴾ أى الله عز وجل كما تزعمون أنه هو المحرم ﴿أم الانثيين﴾ وهما النعجة والعنز ونصب آلذكرين والانثيين بحرم وهو مؤخر عنهما بحسب المعنى وان توسط بينهما صورة وكذا قوله تعالى ﴿أم مااشتملت عليه أرحام الانثيين﴾ أى أم ماحملت اناث النوعين حرم ذكرا كان أو أنثى وقوله تعالى ﴿نبئونى بعلم﴾ الخ تكرير للالزام وتثنية للتبكيت والافحام أى أخبرونى بأمر معلوم من جهة الله تعالى من الكتاب أو أخبار الانبياء يدل على أنه تعالى حرم شيئا مما ذكر أو نبئونى تنبئة ملتبسة بعلم صادرة عنه ﴿ان كنتم صادقين﴾ أى فى دعوى التحريم عليه سبحانه وقوله تعالى ﴿ومن الابل اثنين﴾ عطف على قوله تعالى من الضأن اثنين أى وأنشأ من الابل اثنين هما الجمل والناقة ﴿ومن البقر اثنين﴾ ذكرا وأنثى ﴿قل﴾ الخاما لهم فى أمر هذين النوعين أيضا ﴿آلذكرين﴾ منهما ﴿حرم أم الانثيين أم مااشتملت عليه أرحام الانثيين﴾ من ذينك النوعين والمعنى انكار أن الله سبحانه حرم عليهم شيئاً من الانواع الأربعة واظهار كذبهم فى ذلك وتفصيل ماذكر من الذكور والاناث ومافى بطونها للمبالغة فى الرد عليهم بايراد الانكار على كل مادة من مواد افترائهم فانهم كانوا يحرمون ذكور الانعام تارة واناثها تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى مسندين ذلك كله الى الله سبحانه وانما عقب تفصيل كل واحد من نوعى الصغار ونوعى الكبار بما ذكر من الأمر بالاستفهام والانكار مع حصول التبكيت بايراد الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة بأن يقال قل آلذكور حرم أم الاناث أم مااشتملت عليه أرحام الاناث لما فى التثنية والتكرير من المبالغة فى التبكيت والالزام وقوله تعالى ﴿أم كنتم شهداء﴾ تكرير للافحام كقوله تعالى نبئونى بعلم وأم منقطعة ومعنى الهمزة الانكار والتوبيخ ومعنى بل الاضراب عن التوبيخ بما ذكر الى التوبيخ بوجه آخر أى بل أكنتم حاضرين مشاهدين ﴿اذوصاكم الله بهذا﴾ أى حين وصاكم بهذا التحريم اذ أنتم لاتؤمنون بنبى فلا طريق لكم حسبما يقوده اليه مذهبكم الى معرفة أمثال ذلك الا المشاهدة والسماع وفيه من تركيك عقولهم والتهكم بهم مالايخفى ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ فنسب اليه تحريم مالم يحرم والمراد كبراؤهم المقررون لذلك أو عمرو بن لحى بن قمعة وهو المؤسس لهذا الشر أو الكل لاشتراكهم فى الافتراء عليه سبحانه وتعالى أى فأى فريق أظلم من فريق افتروا الخ ولا يقدح فى أظلمية الكل كون بعضهم مخترعين له وبعضهم مقتدين بهم والفاء لترتيب مابعدها على ماسبق من تبكيتهم واظهار كذبهم وافترائهم أى هو أظلم من

كل ظالم وان كان المنفى صريحا الأظلمية دون المساواة كما مر غير مرة ﴿ليضل الناس﴾ متعلق بالافتراء ﴿بغير علم﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل افترى أى افترى عليه تعالى جاهلا بصدور التحريم عنه تعالى وانما وصفوا بعدم العلم بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدوره عنه تعالى ايذانا بخروجهم فى الظلم عن الحدود والنهايات فان من افترى عليه تعالى بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه اذا كان أظلم من كل ظالم فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدر عنه ويجوز أن يكون حالا من فاعل يضل أى ملتبسا بغير علم بما يؤدى بهم اليه ﴿ان الله لايهدى القوم الظالمين﴾ كائنا من كان الى مافيه صلاح حالهم عاجلا أو آجلا واذا كان هذا حال المتصفين بالظلم فى الجملة فما ظنك بمن هو فى أقصى غاياته ﴿قل﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الزام المشركين وتبكيتهم وبيان أن مايقولونه فى أمر التحريم افتراء بحت لاأصل له قطعا بأن يبين لهم ماحرمه عليهم وفى قوله تعالى ﴿لاأجد فيما أوحى الى محرما﴾ ايذان بأن مناط الحل والحرمة هو الوحى وأنه صلى الله عليه وسلم قد تتبع جميع ماأوحى اليه وتفحص عن المحرمات فلم يجد غير ما فصل وفيه مبالغة فى بيان انحصارها فى ذلك ومحرما صفة لمحذوف أى لاأجد شيئا تصفحت ماأوحى الى طعاما محرما من المطاعم التى حرموها ﴿على طاعم﴾ أى أى طاعم كان من ذكر أو أنثى رداعلى قولهم محرم على أزواجنا وقوله تعالى ﴿يطعمه﴾ لزيادة التقرير ﴿الاأن يكون﴾ أى ذلك الطعام ﴿ميتة﴾ وقرئ تكون بالتاء لتأنيث الخبر وقرئ ميتة بالرفع على أن كان تامة وقوله تعالى ﴿أودما مسفوحا﴾ حينئذ عطف على أن مع مافى حيزه أى الاوجود ميتة أودما مسفوحا أى مصبوبا كالدماء التى فى العروق لا كالطحال والكبد ﴿أو لحم خنزير فانه﴾ أى الخنزير ﴿رجس﴾ أى لحمه قذر لتعوده أكل النجاسات أو خبيث ﴿أوفسقا﴾ عطف على لحم خنزير ومابينهما اعتراض مقرر لحرمته ﴿أهل لغير الله به﴾ صفة له موضحة أى ذبح على اسم الاصنام وانما سمى ذلك فسقا لتوغله فى الفسق ويجوز أن يكون فسقا مفعولا له لأهل وهو عطف على يكون والمستكن راجع الى ما رجع اليه المستكن فى يكون ﴿فمن اضطر﴾ أى أصابه الضرورة الداعية الى أكل الميتة بوجه من الوجوه المضطرة ﴿غير باغ﴾ فى ذلك على مضطر آخر مثله ﴿ولا عاد﴾ قدر الضرورة ﴿فان ربك غفور رحيم﴾ مبالغ فى المغفرة والرحمة لا يؤاخذه بذلك وليس التقييد بالحال الاولى لبيان أنه لو لم يوجد القيد لتحققت الحرمة المبحوث عنها بل للتحذير من حرام آخر هو أخذه حق مضطر آخر فان من أخذ لحم الميتة من يد مضطر آخر فأكله فان حرمته ليست باعتبار كونه لحم الميتة بل باعتبار كونه حقا للمضطر الآخر وأما الحال الثانية فلتحقيق زوال الحرمة المبحوث عنها قطعا فان التجاوز عن القدر الذى يسد به الرمق حرام من حيث أنه لحم الميتة وفى التعرض لوصفى المغفرة والرحمة ايذان بأن المعصية باقية لكنه تعالى يغفر له ويرحمه والآية محكمة لأنها تدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يجد فيما أوحى اليه الى تلك الغاية غيره ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك فى شىء آخر فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل الاشياء التى هى غيرها الا مع الاستصحاب ﴿وعلى الذين هادوا﴾ خاصة لا على من عداهم من الأولين والآخرين ﴿حرمنا كل ذى ظفر﴾ أى كل ماله اصبع من الابل والسباع والطيور وقيل كل ذى مخلب وحافر وسمى الحافر ظفرا مجازا والمسبب عن الظلم هو تعميم التحريم حيث كان بعض ذوات الظفر حلالا لهم فلما ظلموا عم التحريم كلها وهذا تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بابطال مايخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم فى ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا ﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما﴾ لا لحومهما فانها باقية على الحل والشحوم الثروب وشحوم الكلى والاضافة لزيادة الربط ﴿الا ما حملت ظهورهما﴾ استثناء من الشحوم

مخرج لما علق من الشحم بظهورهما عن حكم التحريم ﴿أو الحوايا﴾ عطف على ظهورهما أى ما حملته الحوايا وهى جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء وقواصع أو حوية كسفينة وسفائن ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ عطف على ما حملت وهو شحم الالية واختلاطه بالعظم اتصاله بعجب الذنب وقيل هو كل شحم متصل بالعظم من الأضلاع وغيرها ﴿ذلك﴾ اشارة الى الجزاء أو التحريم فهو على الأول نصب على أنه مصدر مؤكد لما بعده وعلى الثانى على أنه مفعول ثان له أى ذلك التحريم ﴿جزيناهم ببغيهم﴾ بسبب ظلمهم وهو قتلهم الأنبياء بغير حق وأكلهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل كقوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وكانوا كلما أتوا بمعصية عوقبوا بتحريم شىء مما أحل لهم وهم ينكرون ذلك ويدعون أنها لم تزل محرمة على الأمم فرد ذلك عليهم وأكد بقوله تعالى ﴿وانا لصادقون﴾ أى فى جميع أخبارنا التى من جملتها هذا الخبر ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يحسروا أن يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها جميع ما يحذرون أوضح بيان ﴿فان كذبوك﴾ قيل الضمير لليهود لأنهم أقرب ذكرا ولذكر المشركين بعد ذلك بعنوان الاشراك وقيل للمشركين فالمعنى على الأول ان كذبتك اليهود فى الحكم المذكور وأصروا على ما كانوا عليه من ادعاء قدم التحريم ﴿فقل﴾ لهم ﴿ربكم ذو رحمة واسعة﴾ لا يؤاخذكم بكل ما تأتونه من المعاصى ويمهلكم على بعضها ﴿ولا يرد بأسه﴾ بالكلية ﴿عن القوم المجرمين﴾ فلا تنكروا ما وقع منه تعالى من تحريم بعض الطيبات عليكم عقوبة وتشديدا وعلى الثانى فان كذبك المشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم فقل لهم ربكم ذو رحمة واسعة لا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم فلا تغتروا بذلك فانه امهال لا اهمال وقيل ذو رحمة للمطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقيم مقامه قوله تعالى ولا يرد بأسه الخ لتضمنه التنبيه على انزال البأس عليهم مع الدلالة على أنه لاحق بهم البتة من غير صارف يصرفه عنهم أصلا ﴿سيقول الذين أشركوا﴾ حكاية لفن آخر من كفرهم واخباره قبل وقوعه ثم وقوعه حسبما أخبر به كما يحكيه قوله تعالى عند وقوعه وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء صريح فى أنه من عند الله تعالى ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾ أى لو شاء خلاف ذلك مشيئة ارتضاء لما فعلنا الاشراك نحن ﴿ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء﴾ أرادوا به أن ما فعلوه حق مرضى عند الله تعالى لا الاعتذار من ارتكاب هذه القبائح بارادة الله تعالى اياها منهم حتى ينتهض ذمهم به دليلا للمعتزلة ألا يرى الى قوله تعالى ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أى مثل ما كذبك هؤلاء فى أنه تعالى منع من الشرك ولم يحرم ما حرموه كذب متقدموهم الرسل فانه صريح فيما قلنا وعطف آباؤنا على الضمير للفصل بلا ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾ الذى أنزلنا عليهم بتكذيبهم ﴿قل هل عندكم من علم﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم ﴿فتخرجوه لنا﴾ أى فتظهروه لنا ﴿ان تتبعون الا الظن﴾ أى ما تتبعون فى ذلك الا الظن الباطل الذى لا يغنى من الحق شيئا ﴿وان أنتم الا تخرصون﴾ تكذبون على الله عز وجل وليس فيه دلالة على المنع من اتباع الظن على الاطلاق بل فيما يعارضه قطعى ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ الفاء جواب شرط محذوف أى واذ قد ظهر أن لا حجة لكم فلله الحجة البالغة أى البينة الواضحة التى بلغت غاية المتانة والثبات أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه والمراد بها الكتاب والرسول والبيان وهى من الحجج بمعنى القصد كأنها تقصد اثبات الحكم وتطلبه ﴿فلو شاء﴾ هدايتكم ﴿لهداكم أجمعين﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن لم يشأ هداية الكل بل هداية البعض الصارفين هممهم الى سلوك طريق الحق وضلال آخرين صرفوا اختيارهم الى خلاف

ذلك من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم ﴿قل هلم شهداءكم﴾ أى أحضروهم وهو اسم فعل لا يتصرف على لغة أهل الحجاز وفعل يؤنث ويجمع على لغة بنى تميم على رأى الجمهور وقد خالفهم البعض فى فعليته وليس بشىء وأصله عند البصريين هالم من لم اذا قصد حذفت الالف لتقدير السكون فى اللام فانه الاصل وعند الكوفيين هل أم فحذفت الهمزة بالقاء حركتها على اللام وهو بعيد لأن هل لا تدخل الأمر ويكون متعديا كما فى الآية ولازما كما فى قوله تعالى هلم الينا ﴿الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾ وهم قدوتهم الذين ينصرون قولهم وانما أمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم وأنه لا متمسك لهم لمن يقلدهم ولذلك قيد الشهداء بالاضافة ووصفوا بما يدل على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم ﴿فان شهدوا﴾ بعد ما حضروا بأن الله حرم هذا ﴿فلا تشهد معهم﴾ أى فلا تصدقهم فانه كذب بحت وافتراء صرف وبين لهم فساده فان تسليمه منهم موافقة لهم فى الشهادة الباطلة ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾ من وضع المظهر مقام المضمر للدلالة على أن من كذب بآيات الله تعالى وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير وأن من اتبع الحجة لا يكون الا مصدقا بها ﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ كعبدة الأوثان عطف على الموصول الأول بطريق عطف الصفة على الصفة مع اتحاد الموصوف كما فى قوله

الى الماجد القرم وابن الهما م وليث الكتائب فى المزدحم

فان من يكذب بآياته تعالى لا يؤمن بالآخرة وبالعكس ﴿وهم بربهم يعدلون﴾ أى يجعلون له عديلا عطف على لا يؤمنون والمعنى لا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله وبين الكفر بالآخرة وبين الاشراك به سبحانه لكن لا على أن يكون مدار النهى الجمع المذكور بل على أن أولئك جامعون لها متصفون بكلها ﴿قل تعالوا﴾ لما ظهر بطلان ما ادعوا من أن اشراكهم واشراك آبائهم وتحريم ما حرموه بأمر الله تعالى ومشيئته بظهور عجزهم عن اخراج شىء يتمسك به فى ذلك واحضار شهداء يشهدون بما ادعوا فى أمر التحريم بعد ما كلفوه مرة بعد أخرى عجزا بينا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم من المحرمات ما يقتضى الحال بيانه على الأسلوب الحكيم ايذانا بأن حقهم الاجتناب عن هذه المحرمات وأما الأطعمة المحرمة فقد بينت بقوله تعالى قل لا أجد الآية وتعال أمر من التعالى والأصل فيه أن يقوله من فى مكان عال لمن هو فى أسفل منه ثم اتسع فيه بالتعميم كما أن الغنيمة فى الأصل اصابة الغنم من العدو ثم استعملت فى اصابة كل ما يصاب منهم اتساعا ثم فى الفوز بكل مطلب من غير مشقة ﴿أتل﴾ جواب الأمر وقوله تعالى ﴿ما حرم ربكم﴾ منصوب به على أن ما موصولة والعائد محذوف أى أقرأ الذى حرمه ربكم أى الآيات المشتملة عليه أو مصدرية أى الآيات المشتملة على تحريمه أو بحرم على أنها استفهامية والجملة مفعول لاتل لأن التلاوة من باب القول كأنه قيل أقل أى شىء حرم ربكم ﴿عليكم﴾ متعلق بحرم على كل حال وقيل بأتل والأول أنسب بمقام الاعتناء بايجاب الانتهاء عن المحرمات المذكورة وهو السر فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم فان تذكير كونه تعالى ربالهم ومالكا لأمرهم على الاطلاق من أقوى الدواعى الى انتهائهم عما نهاهم عنه أشد انتهاء وأن فى قوله تعالى ﴿أن لا تشركوا به﴾ مفسرة لفعل التلاوة المعلق بما حرم ولا ناهية كما ينبىء عنه عطف ما بعده من الأوامر والنواهى عليه وليس من ضرورة كون المعطوف عليه تفسير التلاوة المحرمات بحسب منطوقه كون المعطوفات أيضا كذلك حتى يمتنع انتظام الأوامر فى سلك العطف عليه بل يكفى فى ذلك كونها تفسيرا لها باعتبار لوازمها التى هى النواهى المتعلقة بأضداد ما تعلقت هى به فان الأمر بالشىء مستلزم للنهى عن ضده بل هو عينه عند البعض كأن الأوامر ذكرت وقصد لوازمها فان عطف الأوامر على النواهى الواقعة بعد أن المفسرة لتلاوة المحرمات مع القطع بأن المأمور به لا يكون محرما

أموالهم والأشد جمع شدة كنعمة وأنعم أوشد ككلب وأكلب أوشد كصر وآصر وقيل هو مفرد كآنك ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ أى بالعدل والتسوية ﴿لانكلف نفسا الاوسعها﴾ الامايسعها ولايعسر عليها وهو اعتراض جئ به عقيب الأمر بالعدل للايذان بأن مراعاة العدل كما هو عسير كأنه قيل عليكم بما فى وسعكم وماوراءه معفو عنكم ﴿واذا قلتم﴾ قولا فى حكومة أوشهادة أونحوهما ﴿فاعدلوا﴾ فيه ﴿ولوكان﴾ أى المقول له أوعليه ﴿ذاقربى﴾ أى ذا قرابة منكم ولاتميلوا نحوهم أصلا وقدمر تحقيق معنى لوفى مثل هذا الموضع مرارا ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ أى ماعهد اليكم من الأمور المعدودة أو أى عهد كان فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا أوماعاهدتم الله عليه من الايمان والنذور وتقديمه للاعتناء بشأنه ﴿ذلكم﴾ اشارة الى مافصل من التكاليف ومعنى البعد لماذكر فيما قبل ﴿وصاكم به﴾ أمركم به أمرا مؤكدا ﴿لعلكم تذكرون﴾ تتذكرون مافى تضاعيفه وتعملون بمقتضاه وقرئ بتشديد الذال وهذه أحكام عشرة لاتختلف باختلاف الأمم والأعصار. عن ابن عباس رضى الله عنهما هذه آيات محكمات لم ينسخهن شئ من جميع الكتب وهن محرمات على بنى آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار وعن كعب الأحبار والذى نفس كعب بيده ان هذه الآيات لأول شئ فى التوراة بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا الآيات ﴿وان هـذا صراطى﴾ اشارة الى ماذكر فى الآيتين من الأمر والنهى قاله مقاتل وقيل الى ماذكر فى السورة فانها بأسرها فى اثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة وقرئ صراطى بفتح الياء ومعنى اضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام انتسابه اليه عليه الصلاة والسلام من حيث السلوك لامن حيث الوضع كما فى صراط الله والمراد بيان أن مافصل من الأوامر والنواهى غير مختصة بالمتلو عليهم بل متعلقة به عليه الصلاة والسلام أيضا وأنه صلى الله عليه وسلم مستمر على العمل بها ومراعاتها وقوله تعالى ﴿مستقيما﴾ حال مؤكدة ومحل أن مع مافى حيزها الجر بحذف لام العلة أى ولأن هذا صراطى أى مسلكى مستقيما ﴿فاتبعوه﴾ كقوله تعالى وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا وتعليل اتباعه بكونه صراطه عليه الصلاة والسلام لا بكونه صراط الله تعالى مع أنه فى نفسه كذلك من حيث أن سلوكه صلى الله عليه وسلم فيه داع للخلق الى الاتباع اذ بذلك يتضح عندهم كونه صراط الله عز وجل وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف وقرئ أن هذا مخففة من أن على أن اسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف وقرئ سراطى وقرئ هذا صراطى وقرئ وهذا صراط ربكم وهذا صراط ربك ﴿ولاتتبعوا السبل﴾ الأديان المختلفة أوطرق البدع والضلالات ﴿فتفرق بكم﴾ بحذف احدى التاءين والباء للتعدية أى فتفرقكم حسب تفرقها أيادى سبا فهو كما ترى أبلغ من تفرقكم كما قيل من أن ذهب به لما فيه من الدلالة على الاستصحاب أبلغ من أذهبه ﴿عن سبيله﴾ أى سبيل الله الذى لاعوج فيه ولاحرج وهو دين الاسلام الذى ذكر بعض أحكامه وقيل هو اتباع الوحى واقتفاء البرهان وفيه تنبيه على أن صراطه عليه الصلاة والسلام عين سبيل الله تعالى ﴿ذلكم﴾ اشارة الى مامر من اتباع سبيله تعالى وترك اتباع سائر السبل ﴿وصاكم به لعلكم تتقون﴾ اتباع سبل الكفر والضلالة ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾ كلام مسوق من جهته تعالى تقريرا للوصية وتحقيقا لها وتمهيدا لما يعقبه من ذكر انزال القرآن المجيد كما ينبئ عنه تغيير الأسلوب بالالتفات الى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل بعد قوله تعالى ذلكم وصاكم به بطريق الاستئناف تصديقا له وتقريرا لمضمونه فعلنا ذلك ثم آتينا الخ كما أن قوله تعالى ونطبع على قلوبهم معطوف على مايدل عليه معنى أولم يهد الخ كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ وأما عطفه على ذلكم وصاكم به ونظمه معه فى سلك الكلام الملقن كما أجمع عليه الجمهور فمما لايليق بجزالة النظم الكريم فتدبر وثم للتراخى

دليل واضح على أن التحريم راجع الى الاضداد على الوجه المذكور فكأنه قيل أتل ماحرم ربكم أن لاتشركوا ولاتسيئوا الى الوالدين خلا أنه قد أخرج مخرج الأمر بالاحسان اليهما بين النهيين المكتنفين له للمبالغة فى ايجاب مراعاة حقوقهما فان مجرد ترك الاساءة اليهما غير كاف فى قضاء حقوقهما ولذلك عقب به النهى عن الاشراك الذى هو أعظم المحرمات وأكبر الكبائر هنا وفى سائر المواقع وقيل أن ناصبة ومحلها النصب بعليكم على أنه للاغراء وقيل النصب على البدلية مما حرم وقيل من عائدها المحذوف على أن لازائدة وقيل الجر بتقدير اللام وقيل الرفع بتقدير المتلو أن لاتشركوا أو المحرم أن لاتشركوا بزيادة لا وقيل والذى عليه التعويل هو الأول لأمور من جملتها أن فى اخراج المفسر على صورة النهى مبالغة فى بيان التحريم وقوله تعالى ﴿شيئا﴾ نصب على المصدرية أو المفعولية أى لاتشركوا به شيئا من الاشراك أوشيئا من الأشياء ﴿وبالوالدين﴾ أى وأحسنوا بهما ﴿احسانا﴾ وقدمر تحقيقه ﴿ولاتقتلوا أولادكم﴾ تكليف متعلق بحقوق الأولاد عقب به التكليف المتعلق بحقوق الوالدين أى لاتقتلوهم بالوأد ﴿من املاق﴾ أى من أجل فقر كما فى قوله تعالى خشية املاق وقيل هذا فى الفقر الناجز وذاك فى المتوقع وقوله تعالى ﴿نحن نرزقكم واياهم﴾ استئناف مسوق لتعليل النهى وابطال سببية ماتخذوه سببا لمباشرة المنهى عنه وضمان منه تعالى لارزاقهم أى نحن نرزق الفريقين لاأنتم فلاتخافوا الفقر بناء على عجزكم عن تحصيل الرزق وقوله تعالى ﴿ولاتقربوا الفواحش﴾ كقوله تعالى ولاتقربوا الزنا انه كان فاحشة الآية الا أنه جئ ههنا بصيغة الجمع قصدا الى النهى عن أنواعها ولذلك أبدل عنها قوله تعالى ﴿ماظهر منها ومابطن﴾ أى مايفعل منها علانية فى الحوانيت كما هو دأب أراذلهم ومايفعل سرا باتخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم وتعليق النهى بقربانها اما للمبالغة فى الزجر عنها لقوة الدواعى اليها واما لأن قربانها داع الى مباشرتها وتوسيط النهى عنها بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن القتل مطلقا كما وقع فى سورة بنى اسرائيل باعتبار أنها مع كونها فى نفسها جناية عظيمة فى حكم قتل الأولاد فان أولاد الزنا فى حكم الأموات وقد قال صلى الله عليه وسلم فى حق العزل اذ ذاك وأد خفى ومن ههنا تبين أن حمل الفواحش على الكبائر مطلقا وتفسير ماظهر منها ومابطن بما فسر به ظاهر الأثم وباطنه فيما سلف من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه ﴿ولاتقتلوا النفس التى حرم الله﴾ أى حرم قتلها بأن عصمها بالاسلام أو بالعهد فيخرج منها الحربى وقوله تعالى ﴿الا بالحق﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لاتقتلوها فى حال من الأحوال الا حال ملابستكم بالحق الذى هو أمر الشرع بقتلها وذلك بالكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان وقتل النفس المعصومة أومن أعم الأسباب أى لاتقتلوها بسبب من الأسباب الا بسبب الحق وهو ماذكر أومن أعم المصادر أى لاتقتلوها قتلا ما الا قتلا كائنا بالحق وهو القتل بأحد الأمور المذكورة ﴿ذلكم﴾ اشارة الى ماذكر من التكاليف الخمسة ومافى ذلك من معنى البعد للايذان بعلو طبقاتها من بين التكاليف الشرعية وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿وصاكم به﴾ أى أمركم به ربكم أمرا مؤكدا خبره والجملة استئناف جئ به تجديدا للعهد وتأكيدا لايجاب المحافظة على ما كلفوه ولما كانت الأمور المنهى عنها مما تقضى بديهة العقول بقبحها فصلت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿لعلكم تعقلون﴾ أى تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح المذكورة ﴿ولاتقربوا مال اليتيم﴾ توجيه النهى الى قربانه لما مر من المبالغة فى النهى عن أكله ولاخراج القربان النافع عن حكم النهى بطريق الاستثناء أى لاتتعرضوا له بوجه من الوجوه ﴿الا بالتى هى أحسن﴾ الا بالخصلة التى هى أحسن ما يكون من الحفظ والتثمير ونحو ذلك والخطاب للأولياء والأوصياء لقوله تعالى ﴿حتى يبلغ أشده﴾ فانه غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهى كأنه قيل احفظوه حتى يصير بالغا رشيدا فحينئذ سلموه اليه كما فى قوله تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم

فى الاخبار كما فى قولك بلغنى ماصنعت اليوم ثم ماصنعت أمس أعجب أو للتفاوت فى الرتبة كأنه قيل ذلكم وصاكم به قديما وحديثا ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى التوراة فان ايتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها أعظم من التوصية بها فقط ﴿تماما﴾ للكرامة والنعمة أى اتماما لها على أنه مصدر من أتم بحذف الزوائد ﴿على الذى أحسن﴾ أى على من أحسن القيام به كائنا من كان و يؤيده أنه قرئ على الذين أحسنوا وتماما على المحسنين أو على الذى أحسن تبليغه وهو موسى عليه السلام أو تماما على ما أحسنه موسى عليه السلام أى أجاده من العلم والشرائع أى زيادة على علمه على وجه التتميم وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى على الذى هو أحسن دين وأرضاه أو آتينا موسى الكتاب تماما أى تاما كاملا على أحسن ما يكون عليه الكتب ﴿وتفصيلا لكل شئ﴾ وبيانا مفصلا لكل مايحتاج اليه فى الدين وهو عطف على تماما ونصبهما اما على العلية أو على المصدرية كما أشير اليه أو على الحالية وكذا قوله تعالى ﴿وهدى ورحمة﴾ وضمير ﴿لعلهم﴾ لبنى اسرائيل المدلول عليهم بذكر موسى وايتاء الكتاب والباء فى قوله تعالى ﴿بلقاء ربهم﴾ متعلقة بقوله تعالى ﴿يؤمنون﴾ قدمت عليه محافظة على الفواصل قال ابن عباس رضى الله عنهما كى يؤمنوا بالبعث و يصدقوا بالثواب والعذاب ﴿وهذا﴾ أى الذى تليت عليكم أوامره ونواهيه أى القرآن ﴿كتاب﴾ عظيم الشأن لايقادر قدره وقوله تعالى ﴿أنزلناه مبارك﴾ أى كثير المنافع دينا ودنيا صفتان لكتاب وتقديم وصف الانزال مع كونه غير صريح لأن الكلام مع منكريه أو خبران آخران لاسم الاشارة أى أنزلناه مشتملا على فنون الفوائد الدينية والدنيوية التى فصلت عليكم طائفة منها والفاء فى قوله تعالى ﴿فاتبعوه﴾ لترتيب مابعدها على ماقبلها فان عظم شأن الكتاب فى نفسه و كونه منزلا من جنابه عز وجل مستتبعا للمنافع الدينية والدنيوية موجب لاتباعه أى ايجاب ﴿واتقوا﴾ مخالفته ﴿لعلكم ترحمون﴾ بواسطة اتباعه والعمل بموجبه ﴿أن تقولوا﴾ علة لأنزلناه المدلول عليه بالمذكور لا لنفسه للزوم الفصل حينئذ بين العامل والمعمول بأجنبى هو مبارك وصفا كان أو خبرا أى أنزلناه كذلك كراهة أن تقولوا يوم القيامة لو لم ننزله ﴿انما أنزل الكتاب﴾ الناطق بتلك الأحكام العامة لكل الأمم ﴿على طائفتين﴾ كائنتين ﴿من قبلنا﴾ وهما اليهود والنصارى وتخصيص الانزال بكتابيهما لأنهما الذى اشتهر حينئذ فيما بين الكتب السماوية بالاشتمال على الأحكام لاسيما الأحكام المذكورة ﴿وان كنا﴾ ان هى المخففة من ان واللام فارقة بينهما و بين النافية وضمير الشأن محذوف ومرادهم بذلك دفع مايرد عليهم من أن نزوله عليهما لاينافى عموم أحكامه فلم لم تعملوا بأحكامه العامة أى وانه كنا ﴿عن دراستهم لغافلين﴾ لاندرى مافى كتابهم اذ لم يكن على لغتنا حتى تتلقى منه تلك الأحكام العامة ونحافظ عليها وان لم يكن منزلا علينا و بهذا تبين أن معذرتهم هذه مع أنهم غير مأمورين بما فى الكتابين لاشتمالهما على الأحكام المذكورة المتناولة لكافة الأمم كما أن قطع تلك المعذرة بانزال القرآن لاشتماله أيضا عليها لاعلى سائر الشرائع والأحكام فقط ﴿أو تقولوا﴾ عطف على تقولوا وقرئ كلاهما بالياء على الالتفات من خطاب فاتبعوه واتقوا ﴿لو أنا أنزل علينا الكتاب﴾ كما أنزل عليهم ﴿لكنا أهدى منهم﴾ الى الحق الذى هو المقصد الأقصى أو الى مافى تضاعيفه من جلائل الأحكام والشرائع ودقائقها لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا و لذلك تلقفنا من فنون العلم كالقصص والأخبار والخطب والاشعار ونحو ذلك طرفا صالحا ونحن أميون وقوله تعالى ﴿فقد جاءكم﴾ متعلق بمحذوف ينبئ عنه الفاء الفصيحة اما معلل به أى لاتعتذروا بذلك فقد جاءكم الخ واما شرط له أى ان صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين على تقدير نزول الكتاب عليكم فقد حصل مافرضتم وجاءكم ﴿بينة﴾ وأى بينة أى حجة واضحة لايكتنه كنهها وقوله تعالى

﴿من ربكم﴾ متعلق بجاءكم أو بمحذوف هو صفة لبينة أى بينة كائنة منه تعالى وأيا ما كان ففيه دلالة على فضلها الاضافى كما أن فى تنوينها التفخيمى دلالة على فضلها الذاتى و فى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم مزيد تأكيد لايجاب الاتباع ﴿وهدى و رحمة﴾ عطف على بينة وتنوينهما أيضا تفخيمى عبر عن القرآن بالبينة ايذانا بكمال تمكنهم من دراسته ثم بالهدى والرحمة تنبيها على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس و رحمتهم بل هو عين الهداية والرحمة ﴿فمن أظلم﴾ الفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها فان مجئ القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه أى واذا كان الأمر كذلك فمن أظلم ﴿ممن كذب بآيات الله﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم بطريق الالتفات تنصيصا على اتصافهم بما فى حيز الصلة واشعارا بعلة الحكم واسقاطا لهم عن رتبة الخطاب وعبر عما جاءهم بآيات الله تهويلا للامر وتنبيها على أن تكذيب أى آية كانت من آيات الله تعالى كاف فى الأظلمية فما ظنك بتكذيب القرآن المنطوى على الكل والمعنى انكار أن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساو يا له وان لم يكن سبك التركيب متعرضا لانكار المساواة ونفيها فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد به حتما بحكم العرف الفاشى والاستعمال المطرد أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وقد مر مرارا ﴿وصدف عنها﴾ أى صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والاضلال ﴿سنجزى الذين يصدفون﴾ الناس ﴿عن آياتنا﴾ وعيدلهم ببيان جزاء اضلالهم بحيث يفهم منه جزاء ضلالهم أيضا و وضع الموصول موضع المضمر لتحقيق مناط الجزاء ﴿سوء العذاب﴾ أى العذاب السيئ الشديد النكاية ﴿بما كانوا يصدفون﴾ أى بسبب ما كانوا يفعلون الصدف والصرف على التجدد والاستمرار وهذا تصريح بما أشعر به اجراء الحكم على الموصول من علية مافى حيز الصلة له ﴿هل ينظرون﴾ استئناف مسوق لبيان أنه لايأتى منهم الايمان بانزال ماذكر من البينات والهدى وأنهم لايرعوون عن التمادى فى المكابرة واقتراح مايناف الحكمة التشريعية من الآيات الملجئة وأن الايمان عند اتيانها مما لافائدة له أصلا مبالغة فى التبليغ والانذار وازاحة العلل والأعذار أى ماينتظرون ﴿الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك﴾ حسبما اقترحوا بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا و بقولهم أو تأتى بالله والملائكة قبيلا و بقولهم لولا أنزل عليه ملك ونحو ذلك أو الا أن تأتيهم ملائكة العذاب أو يأتى أمر ربك بالعذاب والانتظار محمول على التمثيل كما سيجئ وقرئ يأتيهم بالياء لأن تأنيث الملائكة غير حقيقى ﴿أو يأتى بعض آيات ربك﴾ أى غير ماذكر كما اقترحوا بقولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ونحو ذلك من عظائم الآيات التى علقوا بها ايمانهم والتعبير عنها بالبعض للتهويل والتفخيم كما أن اضافة الآيات فى الموضعين الى اسم الرب المنبئ عن المالكية الكلية لذلك واضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقيل المراد بالملائكة ملائكة الموت و باتيانه سبحانه وتعالى اتيان كل آياته بمعنى آيات القيامة والهلاك الكلى بقرينة مابعده من اتيان بعض آياته تعالى على أن المراد به أشراط الساعة التى هى الدخان ودابة الأرض وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب والدجال وطلوع الشمس من مغربها و يأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام ونار تخرج من عدن كما نطق به الحديث الشريف المشهور وحيث لم يكن اتيان هذه الأمور مما ينتظرونه كاتيان ما اقترحوه من الآيات فان تعليق ايمانهم باتيانها انتظار منهم له ظاهرا حمل الانتظار على التمثيل المبنى على تشبيه حالهم فى الاصرار على الكفر والتمادى فى العناد الى أن تأتيهم تلك الأمور الهائلة التى لابد لهم من الايمان عند مشاهدتها البتة بحال المنتظرين لها وأنت خبير بأن النظم الكريم بسياقه المنبئ عن تماديهم فى تكذيب آيات الله تعالى وعدم الاعتداد بها وسياقه الناطق بعدم نفع الايمان عند اتيان ماينتظرونه يستدعى أن يحمل ذلك على أمور هائلة مخصوصة بهم اما بأن

تكون عبارة عما اقترحوه أو عن عقوبات مترتبة على جناياتهم كاتيان ملائكة العذاب واتيان أمره تعالى بالعذاب وهو الأنسب لما سيأتى من قوله تعالى قل انتظروا انا منتظرون وأما حمله على ماذكر من اتيان ملائكة الموت واتيان كل آيات القيامة وظهور أشراط الساعة مع شمول اتيانها الكل بر وفاجر واشتمال غائلتها على كل مؤمن وكافر فمما لايساعده المقام على أن بعض أشراط الساعة ليس مما ينسد به باب الايمان والطاعة نعم يجوز حمل بعض الآيات فى قوله عز وجل ﴿يوم يأتى بعض آيات ربك﴾ على مايعم مقترحاتهم وغيرها من الدواهى العظام السالبة للاختيار الذى عليه يدور فلك التكليف فانه بمنزلة الكبرى من الشكل الأول فيتم التقريب عند وقوعها بدخول ماينتظرونه فى ذلك دخولا أوليا ويوم منصوب بقوله تعالى ﴿لاينفع﴾ فان امتناع عمل مابعد لا فيما قبلها عند وقوعها جواب القسم وقرىء يوم بالرفع على الابتداء والخبر هو الجملة والعائد محذوف أى لاينفع فيه ﴿نفسا﴾ من النفوس ﴿إيمانها﴾ حينئذ لانكشاف الحال وكون الامر عيانا ومدار قبول الايمان أن يكون بالغيب كقوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وقرىء لاتنفع بالتاء الفوقانية لاكتساب الايمان من ملابسة المضاف اليه تأنيثا وقوله تعالى ﴿لم تكن آمنت من قبل﴾ أى من قبل اتيان بعض الآيات صفة لنفسا فصل بينهما بالفاعل لاشتماله على ضمير الموصوف ولا ضير فيه لانه غير أجنبى منه لاشتراكهما فى العامل ﴿أو كسبت فى ايمانها خيرا﴾ عطف على آمنت بايراد الترديد على النفى المفيد لكفاية أحد النفيين فى عدم النفع والمعنى أنه لاينفع الايمان حينئذ نفسا لم تقدم ايمانها أو قدمته ولم تكسب فيه خيرا ومن ضرورته اشتراط النفع بتحقق الامرين أى الايمان المقدم والخير المكسوب فيه معا بمعنى أن النافع هو تحققهما والايمان المؤخر لغو وتحصيل للحاصل لأنه هو النافع وتحققهما شرط فى نفعه كما لو كان المقدم غير المؤخر بالذات فان قولك لاينفع الصوم والصدقة من لم يؤمن قبلهما معناه أنهما ينفعانه عند وقوعهما بعد الايمان وقد استدل به أهل الاعتزال على عدم اعتبار الايمان المجرد عن الاعمال وليس بناهض ضرورة صحة حمله على نفى الترديد المستلزم لعمومه المفيد بمنطوقه لاشتراط عدم النفع بعدم الامرين معا وبمفهومه لاشتراط النفع بتحقق أحدهما بطريق منع الخلو دون الانفصال الحقيقى فالمعنى أنه لاينفع الايمان حينئذ نفسا لم يصدر عنها من قبل أحد الامرين اما الايمان المجرد أو الخير المكسوب فيه فيتحقق النفع بأيهما كان حسبما تنطق به النصوص الكريمة من الآيات والاحاديث وما قيل من أن عدم الايمان السابق مستلزم لعدم كسب الخير فيه بالضرورة فيكون ذكره تكرارا بلا فائدة على أن الموجب للخلود فى النار هو العدم الاول من غير أن يكون للثانى دخل مافى ذلك قطعا فيكون ذكره بصدد بيان مايوجب الخلود لغوا من الكلام لغو من الكلام مبنى على توهم أن المقصود بوصف النفس بالعدمين المذكورين مجرد بيان ايجابهما للخلود فيها وعدم نفع الايمان الحادث فى انجائها عنه وليس كذلك والا لكفى فى البيان أن يقال لاينفع نفسا ايمانها الحادث بل المقصد الاصلى من وصفها بذينك العدمين فى أثناء بيان عدم نفع الايمان الحادث تحقيق أن موجب النفع احدى ملكتيهما أعنى الايمان السابق والخير المكسوب فيه بما ذكر من الطريقة والترغيب فى تحصيلهما فى ضمن التحذير من تركهما ولا سبيل الى أن يقال كما أن عدم الاول مستقل فى ايجاب الخلود فى النار فيلغو ذكر عدم الثانى كذلك وجوده مستقل فى ايجاب الخلاص عنها فيكون ذكر الثانى لغوا لما أنه قياس مع الفارق كيف لا والخلود فيها أمر لايتصور فيه تعدد العلل وأما الخلاص عنها مع دخول الجنة فله مراتب بعضها مترتب على نفس الايمان وبعضها على فروعه المتفاوتة كما وكيفا وانما لم يقتصر على بيان مايوجب أصل النفع وهو الايمان السابق مع أنه هو المقابل لما لايوجبه أصلا أعنى الايمان الحادث بل قرن به مايوجب النفع الزائد أيضا ارشادا الى تحرى الأعلى وتنبيها على كفاية الأدنى واقناطا للكفرة عما علقوا به

أطماعهم الفارغة من أعمال البر التى عملوها فى الكفر من صلة الارحام واعتاق الرقاب وفك العناة واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم ببيان أن كل ذلك لغو بحت لابتنائه على غير أساس حسبما نطق به قوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح الآية ونحو ذلك من النصوص الكريمة وأن الايمان الحادث كما لاينفعهم وحده لاينفعهم بانضمام أعمالهم السابقة واللاحقة ولك أن تقول المقصود بوصف النفس بما ذكر من العدمين التعريض بحال الكفرة فى تمردهم وتفريطهم فى كل واحد من الامرين الواجبين عليهم وان كان وجوب أحدهما منوطا بالآخر كما فى قوله عز وجل فلا صدق ولا صلى تسجيلا بكمال طغيانهم وايذانا بتضاعف عقابهم لما تقرر من أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع فى حق المؤاخذة كما ينبىء عنه قوله تعالى فويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة اذا تحققت هذا وقفت على أن الآية الكريمة أحق بأن تكون حجة على المعتزلة من أن تكون حجة لهم هذا وقد قيل انها من باب اللف التقديرى أى لاينفع نفسا ايمانها ولا كسبها فى الايمان لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فيه وليس بواضح فان مبنى اللف التقديرى أن يكون المقدر من متممات الكلام ومقتضيات المقام قد ترك ذكره تعويلا على دلالة الملفوظ عليه واقتضائه اياه كما مر فى تفسير قوله عز وجل ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا فانه قد طوى فى المفصل ذكر حشر المؤمنين ثقة بانباء التفصيل عنه أعنى قوله تعالى فأما الذين آمنوا الآية ولا ريب فى أن ماقدر ههنا ليس مما يستدعيه قوله تعالى أو كسبت فى ايمانها خيرا ولا هو من مقتضيات المقام لانه ليس مما وعدوه وعلقوه باتيان ماذكر من الآيات كالايمان حتى يرد عليهم ببيان عدم نفعه اذ ذاك على أن ذلك مشعر بأن لهم بعد ماأصابهم من الدواهى ماأصابهم بقاء على السلامة وزمانا يتأتى منهم الكسب والعمل فيه وفيه من الاخلال بمقام تهويل الخطب وتفظيع الحال مالايخفى وقد أجيب عن الاستدلال بوجوه أخر قصارى أمرها اسقاط الآية الكريمة عن رتبة المعارضة للنصوص القطعية المتون القوية الدلالة على ماذكر من كفاية الايمان المجرد عن العمل فى الانجاء من العذاب الخالد ولو بعد اللتيا والتى لما تقرر من أن الظنى بمعزل من معارضة القطعى ﴿قل﴾ لهم بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد ﴿انتظروا﴾ ماتنتظرونه من اتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أى شىء تنتظرون ﴿انا منتظرون﴾ لذلك لنشاهد مايحل بكم من سوء العاقبة وفيه تأييد لكون المراد بما ينتظرونه اتيان ملائكة العذاب أو اتيان أمره تعالى بالعذاب كما أشير اليه وعدة ضمنية لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بمعاينتهم لما يحيق بالكفرة من العقاب ولعل ذلك هو الذى شاهدوه يوم بدر والله سبحانه أعلم ﴿ان الذين فرقوا دينهم﴾ استئناف لبيان أحوال أهل الكتابين اثر بيان حال المشركين أى بددوه وبعضوه فتمسك بكل بعض منه فرقة منهم وقرىء فارقوا أى باينوا فان ترك بعضه وان كان بأخذ بعض آخر منه ترك للكل ومفارقة له ﴿وكانوا شيعا﴾ أى فرقا تشيع كل فرقة اماما لها قال عليه الصلاة والسلام افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة كلهم فى الهاوية الا واحدة وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة كلهم فى الهاوية الا واحدة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى الهاوية الا واحدة واستثناء الواحدة من فرق كل من أهل الكتابين انما هو بالنظر الى العصر الماضى قبل النسخ وأما بعده فالكل فى الهاوية وان اختلفت أسباب دخولهم فمعنى قوله تعالى ﴿لست منهم فى شىء﴾ لست من البحث عن تفرقهم والتعرض لمن يعاصرك منهم بالمناقشة والمؤاخذة وقيل من قتالهم فى شىء سوى تبليغ الرسالة واظهار شعائر الدين الحق الذى أمرت بالدعوة اليه فيكون منسوخا بآية السيف وقوله تعالى ﴿انما أمرهم الى الله﴾ تعليل للنفى المذكور أى هو يتولى وحده أمر أولاهم وأخراهم ويدبره كيف يشاء حسبما تقتضيه الحكمة يؤاخذهم فى الدنيا متى شاء ويأمر بقتالهم اذا أراد وقيل المفرقون أهل البدع

والاهواء الزائغة من هذه الأمة و يرده أنه عليه الصلاة والسلام مأمور بمؤاخذتهم والاعتذار بأن معنى لست منهم فى شىء حينئذ أنت برىء منهم ومن مذهبهم وهم برآء منك يأباه التعليل المذكور ﴿ثم ينبئهم﴾ أى يوم القيامة ﴿بما كانوا يفعلون﴾ عبر عن اظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة فى أنهما سببان للعلم تنبيها على أنهم كانوا جاهلين بحال ماارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته أى يظهر لهم على رؤس الأشهاد و يعلمهم أى شىء شنيع كانوا يفعلونه فى الدنيا على الاستمرار و يرتب عليه مايليق به من الجزاء وقوله تعالى ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ استئناف مبين لمقادير أجزية العاملين وقد صدر ببيان أجزية المحسنين المدلول عليهم بذكر أضدادهم قال عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهم يريد من عمل من المصدقين حسنة كتبت له عشر حسنات أى من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة من المؤمنين اذلا حسنة بغير ايمان فله عشر حسنات أمثالها تفضلا من الله عز وجل وقرىء عشر بالتنوين وأمثالها بالرفع على الوصف وهذا أقل ماوعد من الاضعاف وقد جاء الوعد بسبعين و بسبعمائة و بغير حساب و لذلك قيل المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ أى بالأعمال السيئة كائنا من كان من العاملين ﴿فلا يجزى الا مثلها﴾ بحكم الوعد واحدة بواحدة ﴿وهم لا يظلمون﴾ بنقص الثواب و زيادة العقاب ﴿قل انني هداني ربي﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم ماهو عليه من الدين الحق الذى يدعون أنهم عليه وقد فارقوه بالكلية وتصدير الجملة بحرف التحقيق لاظهار كمال الاعتناء بمضمونها والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم لمزيد تشريفه أى قل لأولئك المفرقين أرشدنى ربى بالوحى و بما نصب فى الآفاق والأنفس من الآيات التكوينية ﴿الى صراط مستقيم﴾ موصل الى الحق وقوله تعالى ﴿دينا﴾ بدل من الى صراط فان محله النصب كما فى قوله تعالى و يهديك صراطا مستقيما أو مفعول لفعل مضمر يدل عليه المذكور ﴿قيما﴾ مصدر نعت به مبالغة والقياس قوما كعوض فأعل لاعلال فعله كالقيام وقرىء قيما وهو فعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من المستقيم باعتبار الزنة وان كان هو أبلغ منه باعتبار الصيغة ﴿ملة ابراهيم﴾ عطف بيان لدينا ﴿حنيفا﴾ حال من ابراهيم أى مائلا عن الأديان الباطلة وقوله تعالى ﴿وما كان من المشركين﴾ اعتراض مقرر لنزاهته عليه السلام عما عليه المفرقون لدينه من عقد وعمل أى ماكان منهم فى أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك ردا على الذين يدعون أنهم على ملته عليه السلام من أهل مكة واليهود والمشركين بقولهم عزير ابن الله والنصارى المشركين بقولهم المسيح ابن الله ﴿قل ان صلاتى ونسكى﴾ أعيد الأمر لما أن المأمور به متعلق بفروع الشرائع وماسبق بأصولها أى عبادتى كلها وقيل وذبحى جمع بينه و بين الصلاة كما فى قوله تعالى فصل لربك وانحر وقيل صلاتى وحجى ﴿ومحياى ومماتى﴾ أى وما أنا عليه فى حياتى وما أكون عليه عند موتى من الايمان والطاعة أو طاعات الحياة والخيرات المضافة الى الممات كالوصية والتدبير وقرىء محياى بسكون الياء اجراء للوصل مجرى الوقف ﴿لله رب العالمين لا شريك له﴾ خالصة له لا أشرك فيها غيره ﴿وبذلك﴾ اشارة الى الاخلاص ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته و بعد منزلته فى الفضل أى بذلك الاخلاص ﴿أمرت﴾ لا بشىء غيره وقوله تعالى ﴿وأنا أول المسلمين﴾ لبيان مسارعته عليه السلام الى الامتثال بما أمر به وأن ما أمر به ليس من خصائصه عليه السلام بل الكل مأمورون به و يقتدى به عليه السلام من أسلم منهم ﴿قل أغير الله أبغى ربا﴾ آخر فأشركه فى العبادة ﴿وهو رب كل شىء﴾ جملة حالية مؤكدة للانكار أى والحال أن كل ماسواه مربوب له مثلى فكيف يتصور أن يكون شريكا له فى المعبودية ﴿ولا تكسب كل نفس الا عليها﴾ كانوا يقولون للمسلمين اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم اما بمعنى ليكتب علينا ماعملتم من الخطايا لا عليكم واما بمعنى لنحمل يوم القيامة ماكتب

عليكم من الخطايا فهذا رد له بالمعنى الأول أى لا تكون جناية نفس من النفوس الا عليها ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر حتى يتأتى ما ذكرتم وقوله تعالى ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ رد له بالمعنى الثانى أى لا تحمل يومئذ نفس حاملة حمل نفس أخرى حتى يصح قولكم ﴿ثم الى ربكم مرجعكم﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكل لتأكيد الوعد وتشديد الوعيد أى الى مالك أموركم ورجوعكم يوم القيامة ﴿فينبئكم﴾ يومئذ ﴿بما كنتم فيه تختلفون﴾ ببيان الرشد من الغى وتمييز الحق من الباطل ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الارض﴾ حيث خلفتم الامم السالفة أو يخلف بعضكم بعضا أو جعلكم خلفاء الله تعالى فى أرضه تتصرفون فيها على أن الخطاب عام ﴿ورفع بعضكم﴾ فى الشرف والغنى ﴿فوق بعض درجات﴾ كثيرة متفاوتة ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ من المال والجاه أى ليعاملكم معاملة من يبتليكم لينظر ماذا تعملون من الشكر وضده ﴿ان ربك﴾ تجريد الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع اضافة اسم الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام لابراز مزيد اللطف به عليه السلام ﴿سريع العقاب﴾ أى عقابه سريع الاتيان لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله تعالى ولم يشكره لأن كل آت قريب أو سريع التمام عند ارادته لتعاليه عن استعمال المبادى والآلات ﴿وانه لغفور رحيم﴾ لمن راعاها كما ينبغى وفى جعل خبر هذه الجملة من الصفات الذاتية الواردة على بناء المبالغة مؤكدا باللام مع جعل خبر الاولى صفة جارية على غير من هى له من التنبيه على أنه تعالى غفور رحيم بالذات مبالغ فيهما فاعل للعقوبة بالعرض مسامح فيها ما لا يخفى والله أعلم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزلت على سورة الانعام جملة واحدة يشيعها سبعون الف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الانعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الانعام يوما وليلة والله تعالى أعلم

سورة الاعراف

(مكية غير ثمان آيات من قوله واسألهم الى قوله واذ نتقنا الجبل وآيها مائتان وخمس)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿المص﴾ اما مسرود على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الاعراب واما اسم للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف والتقدير هذا المص أى مسمى به وتذكير اسم الاشارة مع تأنيث المسمى لما أن الاشارة اليه من حيث انه مسمى بالاسم المذكور لا من حيث انه مسمى بالسورة وانما صحت الاشارة اليه مع عدم سبق ذكره لما أنه باعتبار كونه بصدد الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد وقوله عز وجل ﴿كتاب﴾ على الوجه الأول خبر مبتدا محذوف وهو ما ينبىء عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف مرادا به السورة كتاب الخ أو اسم اشارة أشير به اليه تنزيلا لحضور المؤلف منه منزلة حضور نفس المؤلف أى هذا كتاب الخ وعلى الوجه الثانى خبر بعد خبر جىء به اثر بيان كونه مترجما باسم بديع منبىء عن غرابته فى نفسه اباتة لجلالة محله ببيان كونه فردا من أفراد الكتب الالهية حائزا للكمالات المختصة بها وقد جوز كونه خبرا والمص مبتدأ أى المسمى بالمص كتاب وقد عرفت مافيه من أن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لا عهد بالتسمية قبل فحقها الاخبار بها ﴿أنزل اليك﴾ أى من جهته تعالى بنى الفعل للمفعول جريا على سنن الكبرياء وايذانا بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعينه وهو السر فى ترك ذكر مبدأ الانزال كما فى قوله جل ذكره بلغ ما أنزل اليك من ربك ونظائره والجملة صفة لكتاب مشرفة له ولمن أنزل اليه وجعله خبرا له على معنى

كتاب عظيم الشأن أنزل اليك خلاف الأصل ﴿فلا يكن فى صدرك حرج﴾ أى شك كما فى قوله تعالى فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك خلا أنه عبر عنه بما يلازمه من الحرج فان الشاك يعتريه ضيق الصدر كما أن المتيقن يعتريه انشراحه وانفساحه مبالغة فى تنزيه ساحته عليه الصلاة والسلام عن نسبة الشك اليه ولو فى ضمن النهى فانه من الأحوال القلبية التى يستحيل اعتراؤها اياه عليه الصلاة والسلام وما قد يقع من نسبته اليه فى ضمن النهى فعلى طريقة التهييج والالهاب والمبالغة فى التنفير والتحذير بايهام أن ذلك من القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلا فكيف بمن يمكن ذلك منه والتنوين للتحقير والجار فى قوله تعالى ﴿منه﴾ متعلق بحرج يقال حرج منه أى ضاق به صدره أو بمحذوف وقع صفة له أى حرج كائن منه أى لا يكن فيك شك ما فى حقيته أو فى كونه كتابا منزلا اليك من عنده تعالى فالفاء على الأول لترتيب النهى أو الانتهاء على مضمون الجملة فانه مما يوجب انتفاء الشك فيما ذكر بالكلية وحصول اليقين به قطعا وأما على الثانى فهى لترتيب ما ذكر على الاخبار بذلك لا على نفسه فتدبر وتوجيه النهى الى الحرج مع أن المراد نهيه عليه الصلاة والسلام عنه اما لما مر من المبالغة فى تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن الشك فيما ذكر فان النهى عن الشئ مما يوهم امكان صدوره عن المنهى عنه عن المنهى واما للمبالغة فى النهى فان وقوع الشك فى صدره عليه الصلاة والسلام سبب لاتصافه عليه الصلاة والسلام به والنهى عن السبب نهى عن المسبب بالطريق البرهانى ونفى له من أصله بالمرة كما فى قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الآية وليس هذا من قبيل لا أرينك ههنا فان النهى هناك وارد على المسبب مرادا به النهى عن السبب فيكون المآل نهيه عليه الصلاة والسلام عن تعاطى ما يورث الحرج فتأمل وقيل الحرج على حقيقته أى لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه مخافة أن يكذبوك وأن تقصر فى القيام بحقه فانه عليه الصلاة والسلام كان يخاف تكذيب قومه له واعراضهم عنه فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له فآمنه الله تعالى ونهاه عن المبالاة بهم فالفاء حينئذ للترتيب على مضمون الجملة أو على الاخبار به فان كلا منهما موجب للاقدام على التبليغ وزوال الخوف قطعا وان كان ايجابه الثانى بواسطة الأول وقوله تعالى ﴿لتنذر به﴾ أى بالكتاب المنزل متعلق بأنزل وما بينهما اعتراض توسط بينهما تقريرا لما قبله وتمهيدا لما بعده وحسما لتوهم أن مورد الشك هو الانزال للانذار وقيل متعلق بالنهى فان انتفاء الشك فى كونه منزلا من عنده تعالى موجب للانذار به قطعا وكذا انتفاء الخوف منهم أو العلم بأنه موفق للقيام بحقه موجب للتجاسر على ذلك وأنت خبير بأنه لا يتأتى على التفسير الأول لأن تعليل النهى عن الشك بما ذكر من الانذار والتذكير مع ايهامه لامكان صدوره عنه عليه الصلاة والسلام مشعر بأن المنهى عنه ليس محذورا لذاته بل لافضائه الى فوات الانذار والتذكير لا أقل من الايذان بأن ذلك معظم غائلته ولا ريب فى فساده وأما على التفسير الثانى فانما يتأتى التعليل بالانذار لا بتذكير المؤمنين اذ ليس فيه شائبة خوف حتى يجعل غاية لانتفائه وقوله تعالى ﴿وذكرى للمؤمنين﴾ فى حيز النصب باضمار فعله معطوفا على تنذر أى وتذكر المؤمنين تذكيرا أو الجر عطفا على محل أن تنذر أى للانذار والتذكير وقيل مرفوع عطفا على كتاب أو خبر لمبتدا محذوف وتخصيص التذكير بالمؤمنين للايذان باختصاص الانذار بالكفرة أى لتنذر به المشركين وتذكر المؤمنين وتقديم الانذار لأنه أهم بحسب المقام ﴿اتبعوا ما أنزل اليكم﴾ كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين بطريق التلوين وأمروا باتباع ما أمر النبى صلى الله عليه وسلم قبله بتبليغه بطريق الانذار والتذكير وجعله منزلا اليهم بواسطة انزاله اليه عليه الصلاة والسلام اثر ذكر ما يصححه من الانذار والتذكير لتأكيد وجوب اتباعه وقوله تعالى ﴿من ربكم﴾ متعلق بأنزل على أن من لابتداء الغاية مجازا أو بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من ضميره فى الصلة وفى التعرض

لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين مزيد لطف بهم وترغيب لهم فى الامتثال بما أمروا به وتأكيد لوجوبه وجعل ما أنزل ههنا عاما للسنة القولية والفعلية بعيد نعم يعمهما حكمه بطريق الدلالة لا بطريق العبادة ولما كان اتباع ما أنزله الله تعالى اتباعا له تعالى عقب الأمر بذلك بالنهى عن اتباع غيره تعالى فقيل ﴿ولا تتبعوا من دونه﴾ أى من دون ربكم الذى أنزل اليكم ما يهديكم الى الحق ومحله النصب على أنه حال من فاعل فعل النهى أى لا تتبعوا متجاوزين الله تعالى ﴿أولياء﴾ من الجن والانس بأن تقبلوا منهم ما يلقونه اليكم بطريق الوسوسة والاغواء من الأباطيل ليضلوكم عن الحق ويحملوكم على البدع والأهواء الزائغة أو من أولياء قدم عليه لكونه نكرة اذ لو أخر عنه لكان صفة له أى أولياء كائنة غيره تعالى وقيل الضمير للموصول على حذف المضاف فى أولياء أى ولا تتبعوا من دون ما أنزل أباطيل أولياء كأنه قيل ولا تتبعوا من دون دين ربكم دين أولياء وقرئ ولا تبتغوا كما فى قوله تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا وقوله تعالى ﴿قليلا ما تذكرون﴾ بحذف احدى التاءين وتخفيف الذال وقرئ بتشديدها على ادغام التاء المهموسة فى الذال المجهورة وقرئ يتذكرون على صيغة الغيبة وقليلا نصب اما بما بعده على أنه نعت لمصدر محذوف مقدم للقصر أو لزمان كذلك محذوف وما مزيدة لتأكيد القلة أى تذكرا قليلا أو زمانا قليلا تذكرون لا كثيرا حيث لا تتأثرون بذلك ولا تعملون بموجبه وتتركون دين الله تعالى وتتبعون غيره ويجوز أن يراد بالقلة العدم كما قيل فى قوله تعالى فقليلا ما يؤمنون والجملة اعتراض تذييلى مسوق لتقبيح حال المخاطبين والالتفات على القراءة الأخيرة للايذان باقتضاء سوء حالهم فى عدم الامتثال بالأمر والنهى صرف الخطاب عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة واما نصب على أنه حال من فاعل لا تتبعوا وما مصدرية مرتفعة به أى لا تتبعوا من دونه أولياء قليلا تذكركم لكن لا على توجيه النهى الى المقيد فقط كما فى قوله تعالى لا تقربوا الصلوة وأنتم سكارى بل الى المقيد والقيد جميعا وتخصيصه بالذكر لمزيد تقبيح حالهم بجمعهم بين المنكرين ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ شروع فى انذارهم بما جرى على الأمم الماضية بسبب اعراضهم عن اتباع دين الله تعالى واصرارهم على اتباع دين أوليائهم وكم خبرية للتكثير فى موضع رفع على الابتداء كما فى قولك زيد ضربته والخبر هو الجملة بعدها ومن قرية تمييز والضمير فى أهلكناها راجع الى معنى كم أى كثير من القرى أهلكناها أو فى موضع نصب بأهلكناها كما فى قوله تعالى انا كل شئ خلقناه بقدر والمراد باهلاكها ارادة اهلاكها كما فى قوله تعالى اذا قمتم الى الصلوة أى أردنا اهلاكها ﴿فجاءها﴾ أى فجاء أهلها ﴿بأسنا﴾ أى عذابنا ﴿بياتا﴾ مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال أى باتين كقوم لوط ﴿أو هم قائلون﴾ عطف عليه أى أو قائلين من القيلولة نصف النهار كقوم شعيب وانما حذفت الواو من الحال المعطوفة على أختها استثقالا لاجتماع العاطفين فان واو الحال حرف عطف قد استعيرت للوصل لا اكتفاء بالضمير كما فى جاءنى زيد هو فارس فانه غير فصيح وتخصيص الحالتين بالعذاب لما أن نزول المكروه عند الغفلة والدعة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة ووصف الكل بوصفى البيات والقيلولة مع أن بعض المهلكين بمعزل منهما لاسيما القيلولة للايذان بكمال غفلتهم وأمنهم ﴿فما كان دعواهم﴾ أى دعاؤهم واستغاثتهم ربهم أو ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم ﴿اذ جاءهم بأسنا﴾ عذابنا وعاينوا أمارته ﴿الا أن قالوا﴾ جميعا ﴿انا كنا ظالمين﴾ أى الا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وشهادتهم ببطلانه تحسرا عليه وندامة وطمعا فى الخلاص وهيهات ولات حين نجاة ﴿فلنسألن الذين أرسل اليهم﴾ بيان لعذابهم الأخروى اثر بيان عذابهم الدنيوى خلا أنه قد تعرض لبيان مبادى أحوال المكلفين جميعا لكونه أدخل فى التهويل والفاء لترتيب الأحوال الاخروية على الدنيوية ذكرا حسب ترتبها عليها وجودا أى لنسألن الأمم قاطبة قائلين ماذا أجبتم المرسلين ﴿ولنسألن المرسلين﴾ عما أجيبوا

قال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم والذى نفى بقوله تعالى ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون سؤال الاستعلام أو الأول فى موقف الحساب والثانى فى موقف العقاب ﴿فلنقصن عليهم﴾ أى على الرسل حين يقولون لاعلم لنا انك أنت علام الغيوب أو عليهم وعلى المرسل اليهم جميعا ماكانوا عليه ﴿بعلم﴾ أى عالمين بظواهرهم وبواطنهم أو بمعلومنا منهم ﴿وما كنا غائبين﴾ عنهم فى حال من الاحوال فيخفى علينا شىء من أعمالهم وأحوالهم والجملة تذييل مقرر لما قبلها ﴿والوزن﴾ أى وزن الاعمال والتميز بين راجحها وخفيفها وجيدها ورديئها ورفعه على الابتداء وقوله تعالى ﴿يومئذ﴾ خبره وقوله تعالى ﴿الحق﴾ صفته أى والوزن الحق ثابت يوم اذ يكون السؤال والقص وقيل خبر مبتدا محذوف كأنه قيل ماذلك الوزن فقيل الحق أى العدل السوى وقرىء القسط واختلف فى كيفية الوزن والجمهور على أن صحائف الاعمال هى التى توزن بميزان له لسان وكفتان ينظر اليه الخلائق اظهارا للمعدلة وقطعا للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وجوارحهم ويشهد عليهم الانبياء والملائكة والاشهاد وكما يثبت فى صحائفهم فيقرءونها فى موقف الحساب ويؤيده ماروى أن الرجل يؤتى به الى الميزان فينشر له تسعة وتسعون سجلا مدى البصر فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فتطيش السجلات وتثقل البطاقة وقيل يوزن الاشخاص لماروى عنه عليه الصلاة والسلام انه ليأتى العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة وقيل الوزن عبارة عن القضاء السوى والحكم العادل وبه قال مجاهد والاعمش والضحاك واختاره كثير من المتأخرين بناء على أن استعمال لفظ الوزن فى هذا المعنى شائع فى اللغة والعرف بطريق الكناية قالوا ان الميزان انما يراد به التوصل الى معرفة مقادير الشىء ومقادير أعمال العباد لايمكن اظهارها بذلك لانها أعراض قد فنيت وعلى تقدير بقائها لاتقبل الوزن وقيل ان الاعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح حتى ان الذنوب والمعاصى تتجسم هناك وتتصور بصورة النار وعلى ذلك حمل قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين وقوله تعالى الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وكذا قوله عليه الصلاة والسلام فى حق من يشرب من اناء الذهب والفضة انما يجرجر فى بطنه نار جهنم ولابعد فى ذلك ألا يرى أن العلم يظهر فى عالم المثال على صورة اللبن كما لايخفى على من له خبرة بأحوال الحضرات الخمس وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه يؤتى بالاعمال الصالحة على صور حسنة وبالاعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع فى الميزان ان قيل ان المكلف يوم القيامة اما مؤمن بأنه تعالى حكيم منزه عن الجور فيكفيه حكمه تعالى بكيفيات الاعمال وكمياتها واما منكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الاعمال على بعض لخصوصيات راجعة الى ذوات تلك الاعمال بل يسنده الى اظهار الله تعالى اياه على ذلك الوجه فما الفائدة فى الوزن أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذ وتظهر جميع الاشياء بحقائقها على ماهى عليه وبأوصافها وأحوالها فى أنفسها من الحسن والقبح وغير ذلك وتنخلع عن الصور المستعارة التى بها ظهرت فى الدنيا فلا يبقى لاحد ممن يشاهدها شبهة فى أنها هى التى كانت فى الدنيا بعينها وان كل واحد منها قد ظهر فى هذه النشأة بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته ولا يخطر بباله خلاف ذلك والله تعالى أعلم ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ تفصيل للاحكام المترتبة على الوزن والموازين اما جمع ميزان أو جمع موزون على أن المراد به ماله وزن وقدر وهو الحسنات فان رجحان أحدهما مستلزم لرجحان الآخر أى فمن رجحت موازينه التى توزن بها حسناته أو أعماله التى لها قدر وزنة وعن الحسن البصرى وحق لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف ﴿فأولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بثقل الميزان والجمعية باعتبار معناه كما أن جمع الموازين لذلك وأما ضمير موازينه

فراجع اليه باعتبار لفظه ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والشرف ﴿هم المفلحون﴾ الفائزون بالنجاة والثواب وهم اما ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند اليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لاولئك وتعريف المفلحون للدلالة على أنهم الناس الذين بلغك أنهم مفلحون فى الآخرة أو اشارة الى مايعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم ﴿ومن خفت موازينه﴾ أى موازين أعماله او أعماله التى لاوزن لها ولا اعتداد بها وهى أعماله السيئة ﴿فأولئك﴾ اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بتلك الصفة القبيحة والجمعية ومعنى البعد لما مر آنفا فى نظيره وهو مبتدأ خبره ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أى ضيعوا الفطرة السليمة التى فطروا عليها وقد أيدت بالآيات البينة وقوله تعالى ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ متعلق بخسر وما مصدرية وبآياتنا متعلق بيظلمون على تضمين معنى التكذيب قدم عليه لمراعاة الفواصل والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم فى الدنيا أى فأولئك الموصوفون بخفة الموازين الذين خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم المستمر بآياتنا ظالمين ﴿ولقد مكناكم فى الارض﴾ لما أمر الله سبحانه أهل مكة باتباع ماأنزل اليهم ونهاهم عن اتباع غيره وبين لهم وخامة عاقبته بالاهلاك فى الدنيا والعذاب المخلد فى الآخرة ذكرهم ماأفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر ترغيبا فى الامتثال بالامر والنهى اثر ترهيب أى جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ المعايش جمع معيشة وهى مايعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها أو مايتوصل به الى ذلك والوجه فى قراءته اخلاص الياء وعن ابن عامر أنه همزه تشبيها له بصحائف ومدائن والجعل بمعنى الانشاء والابداع أى أنشأنا وأبدعنا لمصالحكم ومنافعكم فيها أسبابا تعيشون بها وكل واحد من الظرفين متعلق به أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله المنكر اذ لو تأخر لكان صفة له وتقديمهما على المفعول مع أن حقهما التأخير عنه لما مر غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق الى المؤخر فان النفس عند تأخير ماحقه التقديم لاسيما عند كون المقدم منبئا عن منفعة للسامع تبقى مترقبة لورود المؤخر فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن وأما تقديم اللام على فى فلما أنه المنبىء عما ذكر من المنفعة فالاعتناء بشأنه أتم والمسارعة الى ذكره أهم هذا وقد قيل ان الجعل متعد الى مفعولين ثانيهما أحد الظرفين على أنه مستقر قدم على الاول والظرف الآخر اما لغو متعلق بالجعل أو بالمحذوف الواقع حالا من المفعول الأول كما مر وأنت خبير بأنه لافائدة معتد بها فى الاخبار بجعل المعايش حاصلة لهم أو حاصلة فى الارض وقوله تعالى ﴿قليلا ماتشكرون﴾ أى تلك النعمة تذييل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم وبقية الكلام فيه عين مامر فى تفسير قوله تعالى قليلا ماتذكرون ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ تذكير لنعمة عظيمة فائضة على آدم عليه السلام سارية الى ذريته موجبة لشكرهم كافة وتأخيره عن تذكير ماوقع قبله من نعمة التمكين فى الارض اما لانها فائضة على المخاطبين بالذات وهذه بالواسطة واما للايذان بأن كلا منهما نعمة مستقلة مستوجبة للشكر على حيالها فان رعاية الترتيب الوقوعى ربما تؤدى الى توهم عد الكل نعمة واحدة كما ذكر فى قصة البقرة وتصدير الجملتين بالقسم وحرف التحقيق لاظهار كمال العناية بمضمونهما وانما نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين مع أن المراد بهما خلق آدم عليه السلام وتصويره حتما توفية لمقام الامتنان حقه وتأكيدا لوجوب الشكر عليهم بالرمز الى أن لهم حظاً من خلقه عليه السلام وتصويره لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه عليه السلام كسجود الملائكة له عليه السلام بل من الامور السارية الى ذريته جميعا اذ الكل مخلوق فى ضمن خلقه على نمطه ومصنوع على شاكلته فكأنهم الذى تعلق به خلقه وتصويره أى خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم سار اليكم جميعا ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ صريح فى أنه ورد بعد خلقه

عليه الصلاة والسلام وتسويته ونفخ الروح فيه أمر منجز غير الامر المعلق الوارد قبل ذلك بقوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين وهو المراد بما حكى بقوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم الآية فى سورة البقرة وسورة بنى اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من غير تعرض لوقته وكلمة ثم ههنا تقتضى تراخيه عن التصوير من غير تعرض لبيان ماجرى بينهما من الامور وقد بينا فى سورة البقرة أن ذلك ظهور فضل آدم عليه السلام بعد المحاورة المسبوقة بالاخبار باستخلافه عليه السلام حسبما نطق به قوله عز وجل واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة الى قوله وما كنتم تكتمون فان ذلك أيضا من جملة ما نيط به الامر المعلق من التسوية ونفخ الروح وعدم ذكره عند الحكاية لايقتضى عدم ذكره عند وقوع المحكى كما أن عدم ذكر الامر المعلق عند حكاية الامر المنجز لايستلزم عدم مسبوقيته به فان حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة يقتضيها المقام ليست بعزيزة فى الكلام العزيز فلعله قد ألقى الى الملائكة عليهم السلام أولا جميع مايتوقف عليه الامر المنجز اجمالا بأن قيل مثلا انى خالق بشرا من طين وجاعل اياه خليفة فى الارض فاذا سويته ونفخت فيه من روحى وتبين لكم فضله فقعوا له ساجدين لخلقه فسواه فنفخ فيه من روحه فقالوا عند ذلك ماقالوا أو ألقى اليهم خبر الخلافة بعد تحقق الشرائط المذكورة بأن قيل اثر نفخ الروح انى جاعل هذا خليفة فى الأرض فهنالك ذكروا فى حقه عليه السلام ما ذكروا فأيده الله تعالى بتعليم الاسماء فشاهدوا منه عليه السلام ماشاهدوا فعند ذلك ورد الامر المنجز اعتناء بشأن المأمور به وايذانا بوقته وقد حكى بعض الأمور المذكورة فى بعض المواطن وبعضها فى بعضها اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى موطن آخر والذى يرفع غشاوة الاشتباه عن البصائر السليمة أن ما فى سورة ص من قوله تعالى اذ قال ربك للملائكة الآيات بدل من قوله اذ يختصمون فيما قبله من قوله ماكان لى من علم بالملا الأعلى اذ يختصمون أى بكلامهم عند اختصامهم ولاريب فى أن المراد بالملأ الأعلى الملائكة وآدم عليهم السلام وابليس حسبما أطبق عليه جمهور المفسرين وباختصامهم ماجرى بينهم فى شأن الخلافة من التقاول الذى من جملته ما صدر عنه عليه السلام من الانباء بالأسماء ومن قضية البدلية وقوع الاختصام المذكور فى تضاعيف ما شرح فيه مفصلا من الأمر المعلق وما علق به من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكة وعناد ابليس ولعنه واخراجه من بين الملائكة وما جرى بعده من الأفعال والأقوال واذ ليس تمام الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة ابليس وطرده من البين لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة فاذن هو بعد نفخ الروح وقبل السجود بأحد الطريقين المذكورين والله تعالى أعلم ﴿فسجدوا﴾ أى الملائكة عليهم السلام بعد الأمر من غير تلعثم ﴿الا ابليس﴾ استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه فى فسجدوا ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنسا يتوالدون يقال لهم الجن كما مر فى سورة البقرة فقوله تعالى ﴿لم يكن من الساجدين﴾ أى ممن سجد لآدم كلام مستأنف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فان عدم السجود قد يكون للتأمل ثم يقع السجود وبه علم أنه لم يقع قط وقيل منقطع فحينئذ يكون متصلا بما بعده أى لكن ابليس لم يكن من الساجدين ﴿قال﴾ استئناف مسوق للجواب عن سؤال نشأ من حكاية عدم سجوده كأنه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذ وبه يظهر وجه الالتفات الى الغيبة اذ لاوجه لتقدير السؤال على وجه المخاطبة وفيه فائدة أخرى هى الاشعار بعدم تعلق المحكى بالمخاطبين كما فى حكاية الخلق والتصوير ﴿ما منعك أن لاتسجد﴾ أى أن تسجد كما وقع فى سورة ص ولا مزيدة مؤكدة لمعنى الفعل الذى دخلت عليه كما فى قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب منبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود وقيل الممنوع عن الشئ مصروف الى خلافه

فالمعنى ما صرفك الى أن لا تسجد ﴿اذ أمرتك﴾ قيل فيه دلالة على أن مطلق الامر للوجوب والفور وفى سورة الحجر يا ابليس مالك أن لاتكون مع الساجدين وفى سورة ص مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى واختلاف العبارات عند الحكاية يدل على أن اللعين قد أدمج فى معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الامر ومفارقة الجماعة والاباء عن الانتظام فى سلك أولئك المقربين والاستكبار مع تحقير آدم عليه السلام وقد وبخ حينئذ على كل واحدة منها لكن اقتصر عند الحكاية فى كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاء بما ذكر فى موطن آخر واشعارا بأن كل واحدة منها كافية فى التوبيخ واظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا فى سورة البقرة وسورة بنى اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه ﴿قال﴾ استئناف كما سبق مبنى على سؤال نشأ من حكاية التوبيخ كأنه قيل فماذا قال اللعين عند ذلك فقيل قال ﴿أنا خير منه﴾ متجانفا عن تطبيق جوابه على السؤال بأن يقول منعنى كذا مدعيا لنفسه بطريق الاستئناف شيئا بين الاستلزام لمنعه من السجود على زعمه ومشعرا بأن من شأنه هذا لايحسن أن يسجد لمن دونه فكيف يحسن أن يؤمر به كما ينبئ عنه ما فى سورة الحجر من قوله لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون فهو أول من أسس بنيان التكبر واخترع القول بالحسن والقبح العقليين وقوله تعالى ﴿خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ تعليل لما ادعاه من فضله عليه ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أى بغير واسطة على وجه الاعتناء به وما من جهة الصورة كما نبه عليه بقوله تعالى ونفخت فيه من روحى وما من جهة الغاية وهو ملاك الامر ولذلك أمر الملائكة بسجوده عليه السلام حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة فى الأرض وأن له خواص ليست لغيره وفى الآية دليل على الكون والفساد وأن الشياطين أجسام كائنة ولعل اضافة خلق البشر الى الطين والشياطين الى النار باعتبار الجزء الغالب ﴿قال﴾ استئناف كما سلف والفاء فى قوله تعالى ﴿فاهبط منها﴾ لترتيب الامر على ماظهر من اللعين من مخالفة الامر وتعليله بالاباطيل واصراره على ذلك أى فاهبط من الجنة والاضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى عدن لافى جنة الخلد وقيل من زمرة الملائكة المعززين فان الخروج من زمرتهم هبوط وأى هبوط وفى سورة الحجر فاخرج منها وأما ماقيل من أن المراد الهبوط من السماء فيرده أن وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد فلابد أن يحمل على أحد الوجهين قطعا وتكون وسوسته على الوجه الاول بطريق النداء من باب الجنة كما روى عن الحسن البصرى وقوله تعالى ﴿فما يكون لك﴾ أى فما يصح ولا يستقيم لك ولا يليق بشأنك ﴿أن تتكبر فيها﴾ أى فى الجنة أو فى زمرة الملائكة تعليل للامر بالهبوط فان عدم صحة أن يتكبر فيها علة للامر المذكور فانها مكان المطيعين الخاشعين ولادلالة فيه على جواز التكبر فى غيرها وفيه تنبيه على أن التكبر لايليق بأهل الجنة وأنه تعالى انما طرده لتكبره لامجرد عصيانه وقوله تعالى ﴿فاخرج﴾ تأكيد للامر بالهبوط متفرع على علته وقوله تعالى ﴿انك من الصاغرين﴾ تعليل للامر بالخروج مشعر بأنه لتكبره أى من الاذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أوليائه لتكبرك وعن عمر رضى الله عنه من تواضع لله رفع الله حكمته وقال اتتعش نعشك الله ومن تكبر وعداطوره وهصه الله الى الارض ﴿قال﴾ استئناف كما مر مبنى على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فماذا قال اللعين بعد ماسمع هذا الطرد المؤكد فقيل قال ﴿أنظرنى﴾ أى أمهلنى ولاتمتنى ﴿الى يوم يبعثون﴾ أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وهو وقت النفخة الثانية وأراد اللعين بذلك أن يجد فسحة من اغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لاستحالته بعد البعث ﴿قال﴾ استئناف كما سلف ﴿انك من المنظرين﴾ ورود الجواب بالجملة

الاسمية مع التعرض لشمول ماسأله لآخرين على وجه يشعر بأن السائل تبع لهم فى ذلك صريح فى أنه اخبار بالانظار المقدر لهم أزلا لاانشاء لانظار خاص به اجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذبه يتحقق كونه من جملتهم لالتأخير العقوبة كما قيل أى انك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية الى وقت فناء غير ماستثناه الله تعالى من الخلائق وهو النفخة الأولى لاالى وقت البعث الذى هو المسئول وقد ترك التوقيت للايجاز ثقة بما وقع فى سورة الحجر وسورة ص كما ترك ذكر النداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ماذكر فيهما بقوله عز وجل رب فأنظرنى الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم وفى انظاره ابتلاء للعباد وتعريض للثواب ان قلت لاريب فى أن الكلام المحكى له عند صدوره عن المتكلم حالة مخصوصة تقتضى وروده على وجه خاص من وجوه النظم بحيث لو أخل بشىء من ذلك سقط الكلام عن رتبة البلاغة البتة فالكلام الواحد المحكى على وجوه شتى ان اقتضى الحال وروده على وجه معين من تلك الوجوه الواردة عند الحكاية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى رتبة البلاغة دون ماعداه من الوجوه اذا تمهد هذا فنقول لايخفى أن استنظار اللعين انما صدر عنه مرة واحدة لاغير فمقامه ان اقتضى اظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على ماحاق به من اللعن والطرد على نهج استدعاء الجبر فى مقابلة الكسر كما هو المتبادر من قوله رب فأنظرنى حسبما حكى عنه فى السورتين فما حكى ههنا يكون بمعزل من المطابقة لمقتضى الحال فضلا عن العروج الى معارج الايجاز قلنا مقام استنظاره مقتض لما ذكر من اظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على الحرمان المدلول عليه بالطرد والرجم وكذا مقام الانظار مقتض لترتيب الاخبار بالانظار على الاستنظار وقد طبق الكلام عليه فى تينك السورتين وفى كل واحد من مقامى الحكاية والمحكى جميعا حظه وأما ههنا فحيث اقتضى مقام الحكاية مجرد الاخبار بالاستنظار والانظار سيقت الحكاية على نهج الايجاز والاختصار من غير تعرض لبيان كيفية كل واحد منهما عند المخاطبة والحوار ان قلت فاذن لا يكون ذلك نقلا للكلام على ماهو عليه ولامطابقا لمقتضى المقام قلنا الذى يجب اعتباره فى نقل الكلام انما هو أصل معناه ونفس مدلوله الذى يفيده وأما كيفية افادته له فليس مما يجب مراعاته عند النقل البتة بل قد تراعى وقد لاتراعى حسب اقتضاء المقام ولايقدح فى أصل الكلام تجريده عنها بل قد يراعى عند نقله كيفيات وخصوصيات لم يراعها المتكلم أصلا ولايخل ذلك بكون المنقول أصل المعنى ألا يرى أن جميع المقالات المنقولة فى القرآن الكريم انما تحكى بكيفيات واعتبارات لايكاد يقدر على مراعاتها من تكلم بها حتما والا لأمكن صدور الكلام المعجز عن البشر فيما اذا كان المحكى كلاما وأما عدم مطابقته لمقتضى الحال فمنشؤه الغفلة عما يجب توفير مقتضاه من الأحوال فان ملاك الامر هو مقام الحكاية وأما مقام وقوع المحكى فان كان مقتضاه موافقا لمقتضى مقام الحكاية يوفى كل واحد من المقامين حقه كما فى سورة الحجر وسورة ص فان مقام الحكاية فيهما لما كان مقتضيا لبسط الكلام وتفصيله على الكيفيات التى وقع عليها روعى حق المقامين معا وأما فى هذه السورة الكريمة فحيث اقتضى مقام الحكاية الايجاز روعى جانبه ألا يرى أن المخاطب المنكر اذا كان ممن لايفهم الا أصل المعنى وجب على المتكلم أن يجرد كلامه عن التأكيد وسائر الخواص والمزايا التى يقتضيها المقام ويخاطبه بما يناسبه من الوجوه لكنه مع ذلك يجب أن يقصد معنى زائدا يفهمه سامع آخر بليغ هو تجريده عن الخواص رعاية لمقتضى حال المخاطب فى الفهم وبذلك يرتقى كلامه عن رتبة أصوات الحيوانات كما حقق فى مقامه فاذا وجب مراعاة مقام الحكاية مع افضائها الى تجريد الكلام عن الخواص والمزايا بالمرة فما ظنك بوجوب مراعاته مع تحلية الكلام بمزايا أخر يرتقى بها الى رتبة الاعجاز لاسيما اذا وفى حق مقام وقوع المحكى فى السورتين الكريمتين وكان هذا الايجاز مبنيا عليه وثقة به ﴿قال﴾ استئناف كامثاله

﴿فبما أغويتنى﴾ الباء للقسم كما فى قوله تعالى فبعزتك لأغوينهم فان اغوائه تعالى اياه أثر من آثار قدرته عز وجل وحكم من أحكام سلطانه تعالى فمآل الاقسام بهما واحد فلعل اللعين أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر والفاء لترتيب مضمون الجملة على الانظار ومامصدرية أى فأقسم باغوائك اياى ﴿لأقعدن لهم﴾ أو للسببية على أن الباء متعلقة بفعل القسم المحذوف لابقوله لاقعدن لهم كما فى الوجه الاول فان اللام تصد عن ذلك أى فبسبب اغوائك اياى لأجلهم أقسم بعزتك لأقعدن لآدم وذريته ترصدا بهم كما يتعد القطاع للقطع على السابلة ﴿صراطك المستقيم﴾ الموصل الى الجنة وهو دين الاسلام فالقعود مجاز متفرع على الكناية وانتصابه على الظرفية كما فى قوله كما عسل الطريق الثعلب وقيل على نزع الجار تقديره على صراطك كقولك ضرب زيد الظهر والبطن ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ أى من الجهات الأربع التى يعتاد هجوم العدو منها مثل قصده اياهم للتسويل والاضلال من أى وجه يتيسر باتيان العدو من الجهات الأربع ولذلك لم يذكر الفوق والتحت وعن ابن عباس رضى الله عنهما من بين أيديهم من قبل الآخرة ومن خلفهم من جهة الدنيا وعن أيمانهم وعن شمائلهم من جهة حسناتهم وسيئاتهم وقيل من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز منه ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم ومن حيث لايتيسر لهم ذلك وانما عدى الفعل الى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما متوجه اليهم والى الآخرين بحرف المجاوزة فان الآتى منهما كالمنحرف المتجافى عنهم المار على عرضهم ونظيره جلست عن يمينه ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ أى مطيعين وانما قاله ظنا لقوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه لما رأى منهم مبدأ الشر متعددا ومبدأ الخير واحدا وقيل سمعه من الملائكة عليهم السلام ﴿قال﴾ استئناف كما سلف مراراً ﴿اخرج منها﴾ أى من الجنة أو من السماء أو من بين الملائكة ﴿مذءوما﴾ أى مذموما من ذأمه اذا ذمه وقرئ مذوما كمسول فى مسئول أو كمكول فى مكيل من ذامه يذيمه ذيما ﴿مدحورا﴾ مطرودا ﴿لمن تبعك منهم﴾ اللام موطئة للقسم وجوابه ﴿لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط وقرئ لمن تبعك بكسر اللام على أنه خبر لاملأن على معنى لمن تبعك هذا الوعيد أو علة لاخرج ولأملأن جواب قسم محذوف ومعنى منكم منك ومنهم على تغليب المخاطب ﴿ويا آدم﴾ أى وقلنا كما وقع فى سورة البقرة وتصدير الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلقى المأمور به وتخصيص الخطاب به عليه السلام للايذان بأصالته فى تلقى الوحى وتعاطى المأمور به ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ هو من السكن الذى هو عبارة عن اللبث والاستقرار والاقامة لامن السكون الذى هو ضد الحركة وأنت ضمير أكد به المستكن ليصح العطف عليه والفاء فى قوله تعالى ﴿فكلا من حيث شئتما﴾ لبيان المراد مما فى سورة البقرة من قوله تعالى وكلا منها رغدا حيث شئتم من أن ذلك كان جمعا مع الترتيب وقوله تعالى من حيث شئتما فى معنى منها حيث شئتما ولم يذكر ههنا رغدا ثقة بما ذكر هناك وتوجيه الخطاب اليهما لتعميم التشريف والايذان بتساويهما فى مباشرة المأمور به فان حواء اسوة له عليه السلام فى حق الاكل بخلاف السكن فانها تابعة له فيه ولتعليق النهى بها صريحا فى قوله تعالى ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ وقرئ هذى وهو الاصل لتصغيره على ذيا والهاء بدل من الياء ﴿فتكونا من الظالمين﴾ اما جزم على العطف أو نصب على الجواب ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ أى فعل الوسوسة لاجلهما أو تكلم لهما كلاما خفيا متداركا متكررا وهى فى الأصل الصوت الخفى كالهينمة والخشخشة ومنه وسوس الحلى وقد سبق بيان كيفية وسوسته فى سورة البقرة ﴿ليبدى لهما﴾ أى ليظهر لهما واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما ولذلك عبر عنهما بالسوأة

وفيه دليل على أن كشف العورة فى الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن فى الطباع ﴿ماووري عنهما من سوآتهما﴾ ماغطى وستر عنهما من عوراتهما وكانا لايريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر وانما لم تقلب الواو المضمومة همزة فى المشهورة كما قلبت فى أويصل تصغير واصل لأن الثانية مدة وقرئ سواتهما بحذف الهمزة والقاء حركتها على الواو وبقلبها واوا وادغام الواو الساكنة فيها ﴿وقال﴾ عطف على وسوس بطريق البيان ﴿مانهاكما ربكما عن هـذه الشجرة﴾ أى عن أكلها ﴿الا أن تكونا ملكين﴾ أى الا كراهة أن تكونا ملكين ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ الذين لايموتون أو يخلدون فى الجنة وليس فيـه دلالة على أفضلية الملائكة عليهم السلام لما أن من المعلوم أن الحقائق لاتنقلب وانما كانت رغبتهما فى أن يحصل لهما أوصاف الملائكة من الكمالات الفطرية والاستغناء عن الاطعمة والاشربة وذلك بمعزل من الدلالة على الافضلية بالمعنى المتنازع فيه ﴿وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين﴾ أى أقسم لهما وصيغة المغالبة للمبالغة وقيل أقسم له بالقبول وقيل قالا له أتقسم بالله انك لمن الناصحين وأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة ﴿فدلاهما﴾ فنزلهما على الأكل من الشجرة وفيه تنبيه على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية فان التدلية والادلاء ارسال الشئ من الأعلى الى الأسفل ﴿بغرور﴾ بما غرهما به من القسم فانهما ظنا أن أحدا لايقسم بالله كاذبا أو ملتبسين بغرور ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما﴾ أى فلما وجدا طعمها آخذين فى الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما واختلف فى أن الشجرة كانت السنبلة أو الكرم أو غيرهما وأن اللباس كان نورا أو ظفرا ﴿وطفقا يخصفان﴾ طفق من أفعال الشروع والتلبس كأخذ وجعل وأنشا وعلق وهب وانبرى أى أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ﴿عليهما من ورق الجنة﴾ قيل كان ذلك ورق التين وقرئ يخصفان من أخصف أى يخصفان أنفسهما ويخصفان من التخصيف ويخصفان أصله يختصفان ﴿وناداهما ربهما﴾ مالك أمرهما بطريق العتاب والتوبيخ ﴿ألم أنهكما﴾ وهو تفسير للنداء فلامحل له من الاعراب أومعمول لقول محذوف أى وقال أوقائلا ألم أنهكما ﴿عن تلكما الشجرة﴾ ما فى اسم الاشارة من معنى البعد لما أنه اشارة الى الشجرة التى نهى عن قربانها ﴿وأقل لكما﴾ عطف على أنهكما أى ألم أقل لكما ﴿ان الشيطان لكما عدو مبين﴾ وهذا عتاب وتوبيخ على الاغترار بقول العدو كما أن الأول عتاب على مخالفة النهى قيل فيه دليل على أن مطلق النهى للتحريم ولكما متعلق بعدو لما فيه من معنى الفعل أو بمحذوف هو حال من عدو ولم يحك هذا القول ههنا وقد حكى فى سورة طه بقوله تعالى ان هذا عدو لك ولزوجك الآية. روى أنه تعالى قال لآدم ألم يكن فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هـذه الشجرة فقال بلى وعزتك ولكن ماظننت أن أحدا من خلقك يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لأهبطنك الى الارض ثم لاتنال العيش الا كدا فأهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وعجن وخبز ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ أى ضررناها بالمعصية والتعريض للاخراج من الجنة ﴿وان لم تغفر لنا﴾ ذلك ﴿وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ وهو دليل على أن الصغائر يعاقب عليها ان لم تغفر وقالت المعتزلة لايجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر ولذلك حملوا قولهما ذلك على عادات المقربين فى استعظام الصغير من السيئات واستصغار العظيم من الحسنات ﴿قال﴾ استئناف كما مر مراراً ﴿اهبطوا﴾ خطاب لآدم وحواء وذريتهما أولهما ولابليس كرر الأمر له تبعا لهما ليعلم أنهم قرناء أبدا أو أخبر عما قال لهم مفرقا كما فى قوله تعالى ياأيها الرسل كلوا من الطيبات ولم يذكر ههنا قبول توبتهما ثقة بما ذكر فى سائر المواضع ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ جملة حالية من فاعل اهبطوا أى متعادين ﴿ولكم فى الارض مستقر﴾ أى استقرار أو موضع استقرار ﴿ومتاع﴾ أى تمتع وانتفاع ﴿الى حين﴾ هو حين انقضاء آجالكم ﴿قال﴾ أعيد

الاستئناف اما للايذان بعدم اتصال مابعده بما قبله كما فى قوله تعالى قال فما خطبكم أيها المرسلون اثر قوله تعالى قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون وقوله تعالى قال أرأيتك هذا الذى كرمت على بعد قوله تعالى قال أأسجد لمن خلقت طينا واما لاظهار الاعتناء بمضمون مابعده من قوله تعالى ﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ أى للجزاء كقوله تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿يابنى آدم﴾ خطاب للناس كافة وايرادهم بهذا العنوان مما لايخفى سره ﴿قد أنزلنا عليكم لباسا﴾ أى خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة منها ونظيره وأنزل لكم من الانعام الخ وقوله تعالى وأنزلنا الحديد ﴿يوارى سوآتكم﴾ التى قصد ابليس ابداءها من أبويكم حتى اضطرا الى خصف الاوراق وأنتم مستغنون عن ذلك وروى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عرايا ويقولون لانطوف بثياب عصينا الله تعالى فيها فنزلت ولعل ذكر قصة آدم عليه السلام حينئذ للايذان بأن انكشاف العورة أول سوء أصاب الانسان من قبل الشيطان وأنه أغواهم فى ذلك كما أغوى أبويهم ﴿وريشا﴾ ولباسا تتجملون به والريش الجمال وقيل مالا ومنه تريش الرجل أى تمول وقرئ رياشا وهو جمع ريش كشعب وشعاب ﴿ولباس التقوى﴾ أى خشية الله تعالى وقيل الايمان وقيل السمت الحسن وقيل لباس الحرب ورفعه بالابتداء خبره جملة ﴿ذلك خير﴾ أو خبر وذلك صفته كأنه قيل ولباس التقوى المشار اليه خير وقرئ ولباس التقوى بالنصب عطفا على لباسا ﴿ذلك﴾ أى انزال اللباس ﴿من آيات الله﴾ دالة على عظيم فضله وعميم رحمته ﴿لعلهم يذكرون﴾ فيعرفون نعمته أو يتعظون فيتورعون عن القبائح ﴿يابنى آدم﴾ تكرير النداء للايذان بكمال الاعتناء بمضمون ماصدر به وايرادهم بهذا العنوان مما لايخفى سببه ﴿لايفتننكم الشيطان﴾ أى لايوقعنكم فى الفتنة والمحنة بأن يمنعكم من دخول الجنة ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ نعت لمصدر محذوف أى لايفتننكم فتنة مثل اخراج أبويكم وقد جوز أن يكون التقدير لايخرجنكم بفتنته اخراجا مثل اخراجه لابويكم والنهى وان كان متوجها الى الشيطان لكنه فى الحقيقة متوجه الى المخاطبين كما فى قولك لاأرينك ههنا وقد مر تحقيقه مرارا ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾ حال من أبويكم أو من فاعل أخرج واسناد النزع اليه للتسبيب وصيغة المضارع لاستحضار الصورة وقوله تعالى ﴿انه يراكم هو وقبيله﴾ أى جنوده وذريته استئناف لتعليل النهى وتأكيد التحذير منه ﴿من حيث لاترونهم﴾ من لابتداء غاية الرؤية وحيث ظرف لمكان انتفاء الرؤية ولاترونهم فى محل الجر باضافة الظرف اليه ورؤيتهم لنا من حيث لانراهم لاتقتضى امتناع رؤيتنا لهم مطلقا واستحالة تمثلهم لنا ﴿انا جعلنا الشياطين﴾ جعل قبيله من جملته فجمع ﴿أولياء للذين لايؤمنون﴾ أى جعلناهم بما أوجدنا بينهم من المناسبة أو بارسالهم عليهم وتمكينهم من اغوائهم وحملهم على ماسولوا لهم أولياء أى قرناء مسلطين عليهم والجملة تعليل آخر للنهى وتأكيد للتحذير اثر تحذير ﴿واذا فعلوا فاحشة﴾ جملة مبتدأة لامحل لها من الاعراب وقد جوز عطفها على الصلة والفاحشة الفعلة المتناهية فى القبح والتاء لانها مجراة على الموصوف المؤنث أو للنقل من الوصفية الى الاسمية والمراد بها عبادة الأصنام وكشف العورة فى الطواف ونحوهما ﴿قالوا﴾ جوابا للناهين عنها ﴿وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ محتجين بأمرين تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه ولعل تقديم المقدم للايذان منهم بأن آباءهم انما كانوا يفعلونها بأمر الله تعالى بها على أن ضمير أمرنا لهم ولآبائهم فحينئذ يظهر وجه الاعراض عن الأول فى رد مقالتهم بقوله تعالى ﴿قل ان الله لايأمر بالفحشاء﴾ فان عادته تعالى جارية على الأمر بمحاسن الأعمال والحث على مراضى الخصال ولا دلالة فيه على أن قبح الفعل بمعنى ترتب الذم عليه عاجلا والعقاب آجلا عقلى فان المراد بالفاحشة ماينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم وقيل هما جوابا سؤالين مترتبين كأنه قيل لما فعلوها لم فعلتم فقالوا وجدنا عليها

آباءنا فقيل لم فعلها آباؤكم فقالوا الله أمرنا بها وعلى الوجهين يمنع التقليد اذا قام الدليل بخلافه لا مطلقا ﴿أتقولون على الله مالا تعلمون﴾ من تمام القول المأمور به والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وتوجيه الانكار والتوبيخ الى قولهم عليه تعالى مالا يعلمون صدوره عنه تعالى مع أن بعضهم يعلمون عدم صدوره عنه تعالى مبالغة فى انكار تلك الصورة فان اسناد الم يعلم صدوره عنه تعالى اليه تعالى اذا كان منكرا فاسناد ما علم عدم صدوره عنه اليه عز وجل أشد قبحا وأحق بالانكار ﴿قل أمر ربى بالقسط﴾ بيان للمأمور به اثر نفى ما أسند أمره اليه تعالى من الأمور المنهى عنها والقسط العدل وهو الوسط من كل شئ المتجافى عن طرفى الافراط والتفريط ﴿وأقيموا وجوهكم﴾ وتوجهوا الى عبادته مستقيمين غير عادلين الى غيرها أو أقيموا وجوهكم نحو القبلة ﴿عند كل مسجد﴾ فى كل وقت سجود أو مكان سجود وهو الصلاة أو فى أى مسجد حضرتكم الصلاة عنده ولا تؤخروها حتى تعودوا الى مساجدكم ﴿وادعوه﴾ واعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ أى الطاعة فان مصيركم اليه بالآخرة ﴿كما بدأكم﴾ أى أنشأكم ابتداء ﴿تعودون﴾ اليه باعادته فيجازيكم على أعمالكم وانما شبه الاعادة بالابداء تقريرا لامكانها والقدرة عليها وقيل كما بدأكم من التراب تعودون اليه وقيل حفاة عراة غرلا تعودون اليه وقيل كما بدأكم مؤمنا وكافرا يعيدكم ﴿فريقا هدى﴾ بأن وفقهم للايمان ﴿وفريقا حق عليهم الضلالة﴾ بمقتضى القضاء السابق التابع للمشيئة المبنية على الحكم البالغة وانتصابه بفعل مضمر يفسره مابعده أى وخذل فريقا ﴿انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ تعليل لخذلانه أو تحقيق لضلالتهم ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ فيه دلالة على أن الكافر المخطئ والمعاند سواء فى استحقاق الذم وللفارق أن يحمله على المقصر فى النظر ﴿يابنى آدم خذوا زينتكم﴾ أى ثيابكم لمواراة عورتكم ﴿عند كل مسجد﴾ أى طواف أو صلاة ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة وفيه دليل على وجوب ستر العورة فى الصلاة ﴿وكلوا واشربوا﴾ مما طاب لكم. روى أن بنى عامر كانوا فى أيام حجهم لا يأكلون الطعام الا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فهم المسلمون بمثله فنزلت ﴿ولا تسرفوا﴾ بتحريم الحلال أو بالتعدى الى الحرام أو بالافراط فى الطعام والشره عليه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وقال على بن الحسين بن واقد جمع الله الطب فى نصف آية فقال كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴿انه لا يحب المسرفين﴾ أى لا يرتضى فعلهم ﴿قل من حرم زينة الله﴾ من الثياب وما يتجمل به ﴿التى أخرج لعباده﴾ من النبات كالقطن والكتان والحيوان كالحرير والصوف والمعادن كالدروع ﴿والطيبات من الرزق﴾ أى المستلذات من المآكل والمشارب وفيه دليل على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات الاباحة لان الاستفهام فى من انكارى ﴿قل هى للذين آمنوا فى الحيوة الدنيا﴾ بالاصالة والكفرة وان شاركوهم فيها فبالتبع ﴿خالصة يوم القيامة﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم وانتصابه على الحالية وقرئ بالرفع على أنه خبر بعد خبر ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ أى مثل هذا التفصيل نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما فى تضاعيفها من المعانى الرائقة ﴿قل انما حرم ربى الفواحش﴾ أى ما تفاحش قبحه من الذنوب وقيل ما يتعلق منها بالفروج ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ بدل من الفواحش أى جهرها وسرها ﴿والاثم﴾ أى ما يوجب الاثم وهو تعميم بعد تخصيص وقيل هو شرب الخمر ﴿والبغى﴾ أى الظلم أو الكبر أفرد بالذكر للمبالغة فى الزجر عنه ﴿بغير الحق﴾ متعلق بالبغى مؤكد له معنى ﴿وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا﴾ تهكم بالمشركين وتنبيه على تحريم اتباع ما لا يدل عليه برهان ﴿وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾ بالالحاد فى صفاته والافتراء عليه كقولهم والله أمرنا بها وتوجيه التحريم الى قولهم عليه تعالى مالا يعلمون وقوعه لا ما يعلمون عدم وقوعه قد مر سره ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم المهلكة ﴿أجل﴾ حد معين من الزمان مضروب

لمهلكهم ﴿فاذا جاء أجلهم﴾ ان جعل الضمير اللائم المدلول عليها بكل أمة فاظهار الأجل مضافا اليه لافادة المعنى المقصود الذى هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيئه اياها بواسطة اكتساب الأجل بالاضافة عموما يفيده معنى الجمعية كأنه قيل اذا جاءهم آجالهم بأن يجئ كل واحدة من تلك الأمم أجلها الخاص بها وان جعل لكل أمة خاصة كما هو الظاهر فالاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاضافة الى الضمير لافادة أكمل التمييز أى اذا جاءها أجلها الخاص بها ﴿لا يستأخرون﴾ عن ذلك الأجل ﴿ساعة﴾ أى شيئا قليلا من الزمان فانها مثل فى غاية القلة منه أى لا يتأخرون أصلا وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك مع طلبهم له ﴿ولا يستقدمون﴾ أى ولا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع امكانه فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا كما فى قوله سبحانه وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع ظهور أن لا توبة له رأسا قد نظم فى عدم القبول فى سلك من سوفها الى حضور الموت ايذانا بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة وقيل المراد بالمجئ الدنو بحيث يمكن التقدم فى الجملة كمجئ اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة فيه وليس بذاك وتقديم بيان انتفاء الاستيخار لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب وأما ما فى قوله تعالى ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون من سبق السبق فى الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير اهلاكهم مع استحقاقهم له حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون فالأهم هناك بيان انتفاء السبق ﴿اما يأتينكم﴾ هى ان الشرطية ضمت اليها ما التأكيد معنى الشرط ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة وفيه تنبيه على أن ارسال الرسل أمر جائز لا واجب عقلا ﴿رسل منكم﴾ الجار متعلق بمحذوف هو صفة لرسل أى كائنون من جنسكم وقوله ﴿يقصون عليكم آياتى﴾ صفة أخرى لرسل أى يبينون لكم أحكامى وشرائعى وقوله تعالى ﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ جملة شرطية وقعت جوابا للشرط أى فمن اتقى منكم التكذيب وأصلح عمله فلا خوف الخ وكذا قوله تعالى ﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أى والذين كذبوا منكم بآياتنا وايراد الاتقاء فى الأول للايذان بأن مدار الفلاح ليس مجرد عدم التكذيب بل هو الاتقاء والاجتناب عنه وادخال الفاء فى الجزاء الأول دون الثانى للمبالغة فى الوعد والمسامحة فى الوعيد ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته﴾ أى تقول عليه تعالى مالم يقله أو كذب ماقاله أى هو أظلم من كل ظالم وقد مر تحقيقه مرارا ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصول والجمع باعتبار معناه كما أن افراد الفعلين باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للايذان بتماديهم فى سوء الحال أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الافتراء والتكذيب ﴿ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أى مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار وقيل الكتاب اللوح أى ما أثبت لهم فيه وأيا ما كان فمن الابتدائية متعلقة بمحذوف وقع حالا من نصيبهم أى ينالهم نصيبهم كائنا من الكتاب وقيل نصيبهم من العذاب وسواد الوجه وزرقة العيون وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كتب لمن يفترى على الله سواد الوجه قال تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة وقوله تعالى ﴿حتى اذا جاءتهم رسلنا﴾ أى ملك الموت وأعوانه ﴿يتوفونهم﴾ أى حال كونهم متوفين لأرواحهم يؤيد الأول فان حتى وان كانت هى التى يبتدأ بها الكلام لكنها غاية لما قبلها فلابد أن يكون نصيبهم مما يتمتعون بها الى حين وفاتهم أى ينالهم نصيبهم من الكتاب الى أن يأتيهم ملائكة الموت فاذا جاءتهم ﴿قالوا﴾ لهم ﴿أينما كنتم تدعون من دون الله﴾ أى أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا وما وتهت موصولة بأين فى

خط المصحف وحقها الفصل لأنها موصولة ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية سؤال الرسل كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿ضلوا عنا﴾ أى غابوا عنا أى لا ندرى مكانهم ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ عطف على قالوا أى اعترفوا على أنفسهم ﴿أنهم كانوا﴾ أى فى الدنيا ﴿كافرين﴾ عابدين لما لا يستحق العبادة أصلا حيث شاهدوا حاله وضلاله ولعله أريد بوقت مجىء الرسل وحال التوفى الزمان الممتد من ابتداء المجىء والتوفى الى انتهائه يوم الجزاء بناء على تحقق المجىء والتوفى فى كل ذلك الزمان بقاء وان كان حدوثهما فى أوله فقط أو قصد بيان غاية سرعة وقوع البعث والجزاء كأنهما حاصلان عند ابتداء التوفى كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام من مات فقد قامت قيامته والا فهذا السؤال والجواب وما ترتب عليهما من الأمر بدخول النار وما جرى بين أهلها من التلاعن والتقاول انما يكون بعد البعث لا محالة ﴿قال﴾ أى الله عز وجل يوم القيامة بالذات أو بواسطة الملك ﴿ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم﴾ أى كائنين من جملة أمم مصاحبين لهم ﴿من الجن والانس﴾ يعنى كفار الأمم الماضية من النوعين ﴿فى النار﴾ متعلق بقوله ادخلوا ﴿كلما دخلت أمة﴾ من الأمم السابقة واللاحقة فيها ﴿لعنت أختها﴾ التى ضلت بالاقتداء بها ﴿حتى اذا ادارکوا فيها جميعا﴾ أى تداركوا وتلاحقوا فى النار ﴿قالت أخراهم﴾ دخولا أو منزلة وهم الاتباع ﴿لأولاهم﴾ أى لأجلهم اذ الخطاب مع الله تعالى لا معهم ﴿ربنا هؤلاء أضلونا﴾ سنوا لنا الضلال فاقتدينا بهم ﴿فآتهم عذابا ضعفا﴾ أى مضاعفا ﴿من النار﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿قال لكل ضعف﴾ أما القادة فلما ذكر من الضلال والاضلال وأما الاتباع فلكفرهم وتقليدهم ﴿ولكن لا تعلمون﴾ أى مالكم وما لكل فريق من العذاب وقرىء بالياء ﴿وقالت أولاهم﴾ أى مخاطبين ﴿لأخراهم﴾ حين سمعوا جواب الله تعالى لهم ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ أى فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وانا وايا كم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب ﴿فذوقوا العذاب﴾ أى العذاب المعهود المضاعف ﴿بما كنتم تكسبون﴾ من قول القادة ﴿ان الذين كذبوا بآياتنا﴾ مع وضوحها ﴿واستكبروا عنها﴾ أى عن الايمان بها والعمل بمقتضاها ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ أى لا تقبل أدعيتهم ولا أعمالهم أو لا تعرج اليها أرواحهم كما هو شأن أدعية المؤمنين وأعمالهم وأرواحهم والتاء فى تفتح لتأنيث الأبواب والتشديد لكثرتها وقرىء بالتخفيف وبالتخفيف والياء وقرىء على البناء للفاعل ونصب الأبواب على أن الفعل للآيات وبالياء على أنه لله تعالى ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط﴾ أى حتى يدخل ما هو مثل فى عظم الجرم فيما هو علم فى ضيق المسلك وهو ثقبة الابرة وفى كون الجمل مما ليس من شأنه الولوج فى سم الابرة مبالغة فى الاستبعاد وقرىء الجمل كالقمل والجمل كالنغر والجمل كالقفل والجمل كالنصب والجمل كالحبل وهى الحبل الغليظ من القنب وقيل حبل السفينة وسم بالضم والكسر وقرىء فى سم المخيط وهو الخياط أى ما يخاط به كالحزام والمحزم ﴿وكذلك﴾ أى ومثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نجزى المجرمين﴾ أى جنس المجرمين وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أى فراش من تحتهم والتنوين للتفخيم ومن تجريدية ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أى أغطية والتنوين للبدل عن الاعلال عند سيبويه وللصرف عند غيره وقرىء غواش على الغاء المحذوف كما فى قوله تعالى وله الجوار المنشآت ﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك الجزاء الشديد ﴿نجزى الظالمين﴾ عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى اشعارا بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بكل واحد من ذينك الوصفين القبيحين وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة والظلم مع التعذيب بالنار للتنبيه على أنه أعظم الجرائم والجرائر ﴿والذين آمنوا﴾ أى بآياتنا أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيدخل فيه الآيات دخولا أوليا وقوله تعالى ﴿وعملوا الصالحات﴾ أى الأعمال الصالحة التى شرعت بالآيات وهذا بمقابلة

الاستكبار عنها ﴿لا نكلف نفسا الا وسعها﴾ اعتراض وسط بين المبتدا الذى هو الموصول والخبر الذى هو جملة ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ للترغيب فى اكتساب ما يؤدى الى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله وتيسر تحصيله وقرىء لا تكلف نفس واسم الاشارة مبتدأ وأصحاب الجنة خبره والجملة خبر للمبتدا الأول أو اسم الاشارة بدل من المبتدا الأول الذى هو الموصول والخبر أصحاب الجنة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل والشرف ﴿هم فيها خالدون﴾ حال من أصحاب الجنة وقد جوز كونه حالا من الجنة لاشتماله على ضميرها والعامل معنى الاضافة أو اللام المقدرة أو خبر ثان لأولئك على رأى من جوزه وفيها متعلق بخالدون ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غل﴾ أى نخرج من قلوبهم أسباب الغل أو نطهرها منه حتى لا يكون بينهم الا التواد وصيغة الماضى للايذان بتحققه وتقرره وعن على رضى الله تعالى عنه انى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ﴿تجرى من تحتهم الأنهار﴾ زيادة فى لذتهم وسرورهم والجملة حال من الضمير فى صدورهم والعامل اما معنى الاضافة واما العامل فى المضاف أو حال من فاعل نزعنا والعامل نزعنا وقيل هى مستأنفة للاخبار عن صفة أحوالهم ﴿وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا﴾ أى لما جزاؤه هذا ﴿وما كنا لنهتدى﴾ أى لهذا المطلب الأعلى أو لمطلب من المطالب التى هذا من جملتها ﴿لولا أن هدانا الله﴾ ووفقنا له واللام لتأكيد النفى وجواب لولا محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه ومفعول نهتدى وهدانا الثانى محذوف لظهور المراد أو لارادة التعميم كما أشير اليه والجملة مستأنفة أو حالية وقرىء ما كنا لنهتدى الخ بغير واو على أنها مبينة ومفسرة للأولى ﴿لقد جاءت رسل ربنا﴾ جواب قسم مقدر قالوه تبجحا واغتباطا بما نالوه وابتهاجا بايمانهم بما جاءتهم الرسل عليهم السلام والباء فى قوله تعالى ﴿بالحق﴾ اما للتعدية فهى متعلقة بجاءت أو للملابسة فهى متعلقة بمقدر وقع حالا من الرسل أى والله لقد جاؤا بالحق أو لقد جاؤا ملتبسين بالحق ﴿ونودوا﴾ أى نادتهم الملائكة عليهم السلام ﴿أن تلكم الجنة﴾ أن مفسرة لما فى النداء من معنى القول أو مخففة من أن وضمير الشأن محذوف ومعنى البعد فى اسم الاشارة اما لأنهم نودوا عند رؤيتهم اياها من مكان بعيد واما لرفع منزلتها وبعد رتبتها واما للاشعار بأنها تلك الجنة التى وعدوها فى الدنيا ﴿أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ فى الدنيا من الأعمال الصالحة أى أعطيتموها بسبب أعمالكم أو بمقابلة أعمالكم والجملة حال من الجنة والعامل معنى الاشارة على أن تلكم الجنة مبتدأ وخبر أو الجنة صفة والخبر أورثتموها ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ تبجحا بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيرا لهم لا لمجرد الاخبار بحالهم والاستخبار عن حال مخاطبيهم ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا﴾ حيث نلنا هذا المنال الجليل ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا﴾ حذف المفعول من الفعل الثانى اسقاطا لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد وقيل لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصا بهم وعدا كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة فانهم قد وجدوا جميع ذلك حقا وان لم يكن وعده مخصوصا بهم ﴿قالوا نعم﴾ أى وجدناه حقا وقرىء بكسر العين وهى لغة فيه ﴿فأذن مؤذن﴾ قيل هو صاحب الصور ﴿بينهم﴾ أى بين الفريقين ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ بأن المخففة أو المفسرة وقرىء بأن المشددة ونصب لعنة وقرىء ان بكسر الهمزة على ارادة القول أو اجراء أذن مجرى قال ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ صفة مقررة للظالمين أو رفع على الذم أو نصب عليه ﴿ويبغونها عوجا﴾ أى يبغون لها عوجا بأن يصفوها بالزيغ والميل عن الحق وهو أبعد شىء منهما والعوج بالكسر فى المعانى والأعيان ما لم يكن منتصبا وبالفتح ما كان فى المنتصب كالرمح والحائط ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ غير معترفين ﴿وبينهما حجاب﴾ أى بين الفريقين كقوله تعالى فضرب بينهم بسور أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر

بهم مايفعل الناسى بالمنسى من عدم الاعتداد بهم وتركهم فى النار تركا كليا والفاء فى فاليوم فصيحة وقوله تعالى ﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى ننساهم نسيانا مثل نسيانهم لقاء يومهم هذا حيث لم يخطروه ببالهم ولم يعتدوا له وقوله تعالى ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ عطف على مانسوا أى وكما كانوا منكرين بأنها من عند الله تعالى انكارا مستمرا ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه﴾ أى بينا معانيه من العقائد والاحكام والمواعظ والضمير للكفرة قاطبة والمراد بالكتاب الجنس أوللمعاصرين منهم والكتاب هوالقرآن ﴿على علم﴾ حال من فاعل فصلناه أى عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيما أو من مفعوله أى مشتملا على علم كثير وقرئ فضلناه أى على سائر الكتب عالمين بفضله ﴿هدى ورحمة﴾ حال من المفعول ﴿لقوم يؤمنون﴾ لأنهم المنتفعون لآثاره المقتبسون من أنواره ﴿هل ينظرون الا تأويله﴾ أى ماينتظر هؤلاء الكفرة بعدم ايمانهم به الا مايؤل اليه أمره من تبين صدقه بظهور ماأخبر به من الوعد والوعيد ﴿يوم يأتى تأويله﴾ وهو يوم القيامة ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أى تركوه ترك المنسى من قبل اتيان تأويله ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أى قد تبين أنهم قد جاؤا بالحق ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ اليوم ويدفعوا عنا العذاب ﴿أو نرد﴾ أى هل نرد الى الدنيا وقرئ بالنصب عطفا على فيشفعوا أو لأن أو بمعنى الى أن فعلى الأول المسؤل أحد الأمرين اما الشفاعة لدفع العذاب أو الرد الى الدنيا وعلى الثانى أن يكون لهم شفعاء اما لأحد الأمرين أو لأمر واحد هو الرد ﴿فنعمل﴾ بالنصب على أنه جواب الاستفهام الثانى وقرئ بالرفع أى فنحن نعمل ﴿غير الذى كنا نعمل﴾ أى فى الدنيا ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ بصرف أعمارهم التى هى رأس مالهم الى الكفر والمعاصى ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أى ظهر بطلان ما كانوا يفترونه من أن الاصنام شركاء الله تعالى وشفعاؤهم يوم القيامة ﴿ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام﴾ شروع فى بيان مبدأ الفطرة اثر بيان معاد الكفرة أى ان خالقكم ومالككم الذى خلق الاجرام العلوية والسفلية فى ستة أوقات كقوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره أو فى مقدار ستة أيام فان المتعارف أن اليوم زمان طلوع الشمس الى غروبها ولم تكن هى حينئذ وفى خلق الاشياء مدرجا مع القدرة على ابداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الامور ﴿ثم استوى على العرش﴾ أى استوى أمره واستولى وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف والمعنى أنه تعالى استوى على العرش على الوجه الذى عناه منزها عن الاستقرار والتمكن والعرش الجسم المحيط بسائر الاجسام سمى به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فان الامور والتدابير تنزل منه وقيل الملك ﴿يغشى الليل النهار﴾ أى يغطيه به ولم يذكر العكس للعلم به أو لأن اللفظ يحتملهما ولذلك قرئ بنصب الليل ورفع النهار وقرئ بالتشديد للدلالة على التكرار ﴿يطلبه حثيثا﴾ أى يعقبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما شئ والحثيث فعيل من الحث وهو صفة مصدر محذوف أوحال من الفاعل أومن المفعول بمعنى حاثا أومحثوثا ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ أى خلقهن حال كونهن مسخرات بقضائه وتصريفه وقرئ كلها بالرفع على الابتداء والخبر ﴿ألا له الخلق والامر﴾ فانه الموجد للكل والمتصرف فيه على الاطلاق ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ أى تعالى بالوحدانية فى الألوهية وتعظم بالتفرد فى الربوبية وتحقيق الآية الكريمة والله تعالى أعلم أن الكفرة كانوا متخذين أربابا فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد هو الله تعالى لأنه الذى له الخلق والامر فانه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الافلاك ثم زينها بالشمس والقمر والنجوم كما أشار اليه بقوله تعالى فقضاهن سبع سموات فى يومين وعمد الى الاجرام السفلية فخلق جسما قابلا للصور المتبدلة والهيئات المختلفة ثم قسمها لصور نوعية متباينة الآثار والافعال وأشار اليه بقوله تعالى وخلق الارض فى يومين أى ما فى جهة السفل

احداهما الى الأخرى ﴿وعلى الأعراف﴾ أى على أعراف الحجاب وأعاليه وهو السور المضروب بينهما جمع عرف مستعار من عرف الفرس وقيل العرف ما ارتفع من الشئ فانه يظهره أعرف من غيره ﴿رجال﴾ طائفة من الموحدين قصروا فى العمل فيجلسون بين الجنة والنار حتى يقضى الله تعالى فيهم مايشاء وقيل قوم علت درجاتهم كالأنبياء والشهداء والأخيار والعلماء من المؤمنين أوملائكة يرون فى صور الرجال ﴿يعرفون كلا﴾ من أهل الجنة والنار ﴿بسيماهم﴾ بعلامتهم التى أعلمهم الله تعالى بها كبياض الوجه وسواده فعلى من سام ابله اذا أرسلها فى المرعى معلمة أومن وسم بالقلب كالجاه من الوجه وانما يعرفون ذلك بالالهام أو بتعليم الملائكة ﴿ونادوا﴾ أى رجال الأعراف ﴿أصحاب الجنة﴾ حين رأوهم ﴿أن سلام عليكم﴾ بطريق الدعاء والتحية أو بطريق الاخبار بنجاتهم من المكاره ﴿لم يدخلوها﴾ حال من فاعل نادوا أومن مفعوله وقوله تعالى ﴿وهم يطمعون﴾ حال من فاعل يدخلوها أى نادوهم وهم لم يدخلوها حال كونهم طامعين فى دخولها مترقبين له أى لم يدخلوها وهم فى وقت عدم الدخول طامعون ﴿واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ أى الى جهتهم وفى عدم التعرض لتعلق أنظارهم بأصحاب الجنة والتعبير عن تعلق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف اشعار بأن التعلق الأول بطريق الرغبة والميل الثانى بخلافه ﴿قالوا﴾ متعوذين بالله تعالى من سوء حالهم ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ أى فى النار وفى وصفهم بالظلم دون ماهم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذى هو الموجب للدعاء اشعار بأن المحذور عندهم ليس نفى العذاب فقط بل مع مايوجبه ويؤدى اليه من الظلم ﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾ كرر ذكرهم مع كفاية الاضمار لزيادة التقرير ﴿رجالا﴾ من رؤساء الكفار حين رأوهم فيما بين أصحاب النار ﴿يعرفونهم بسيماهم﴾ الدالة على سوء حالهم يومئذ وعلى رياستهم فى الدنيا ﴿قالوا﴾ بدل من نادى ﴿ما أغنى عنكم﴾ ما استفهامية للتوبيخ والتقريع أونافية ﴿جمعكم﴾ أى أتباعكم وأشياعكم أوجمعكم للمال ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ ما مصدرية أى ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم المستمر عن قبول الحق أوعلى الخلق وهو الأنسب بما بعده وقرئ تستكثرون من الكثرة أى من الأموال والجنود ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ من تتمة قولهم للرجال والاشارة الى ضعفاء المؤمنين الذين كانت الكفرة يحتقرونهم فى الدنيا ويحلفون صريحا أنهم لا يدخلون الجنة أو يفعلون مايئ عن ذلك كما فى قوله تعالى أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ﴿ادخلوا الجنة﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى أولئك المذكورين أى ادخلوا الجنة على رغم أنوفهم ﴿لا خوف عليكم﴾ بعد هذا ﴿ولا أنتم تحزنون﴾ أو قيل لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة بفضل الله تعالى بعد أن حبسوا وشاهدوا أحوال الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ماقالوا والاظهر أن لا يكون المراد بأصحاب الاعراف المقصرين فى العمل لأن هذه المقالات وماتتفرع هى عليه من المعرفة لا يليق بمن لم يتعين حاله بعد وقيل لما عيروا أصحاب النار أقسموا أن أصحاب الاعراف لا يدخلون الجنة فقال الله تعالى أوالملائكة ردا عليهم أهؤلاء الخ وقرئ ادخلوا ودخلوا على الاستئناف وتقديره دخلوا الجنة مقولا فى حقهم لا خوف عليكم ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة﴾ بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار واطمأنت به الدار ﴿أن أفيضوا علينا من الماء﴾ أى صبوه وفيه دلالة على أن الجنة فوق النار ﴿أو مما رزقكم الله﴾ من سائر الأشربة ليلائم الافاضة أو من الأطعمة على أن الافاضة عبارة عن الاعطاء بكثرة ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالوا فقيل قالوا ﴿ان الله حرمهما على الكافرين﴾ أى منعهما منهم منعا كليا فلا سبيل الى ذلك قطعا ﴿الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا﴾ كتحريم البحيرة والسائبة ونحوهما والتصدية حول البيت واللهو صرف الهم الى مالا يحسن أن يصرف اليه واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب ﴿وغرتهم الحيوة الدنيا﴾ بزخارفها العاجلة ﴿فاليوم ننساهم﴾ نفعل

فى يومين ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولا وتصويرها ثانيا كما قال بعد قوله تعالى خلق الارض فى يومين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام أى مع اليومين الأولين لما فصل فى سورة السجدة ثم لما تم له عالم الملك عمد الى تدبيره كالملك الجالس على سريره فدبر الأمر من السماء الى الارض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالى والايام ثم صرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال تعالى ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ثم أمر بأن يدعوه مخلصين متذللين فقال ﴿ادعوا ربكم﴾ الذى قد عرفتم شئونه الجليلة ﴿تضرعا وخفية﴾ أى ذوى تضرع وخفية فان الاخفاء دليل الاخلاص ﴿انه لا يحب المعتدين﴾ أى لا يحب دعاء المجاوزين لما أمروا به فى كل شئ فيدخل فيه الاعتداء فى الدعاء دخولا أوليا وقد نبه به على أن الداعى يجب أن لا يطلب مالا يليق به كرتبة الانبياء والصعود الى السماء وقيل هو الصياح فى الدعاء والاسهاب فيه وعن النبى صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم انى أسألك الجنة وماقرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وماقرب اليها من قول وعمل ثم قرأ انه لا يحب المعتدين ﴿ولا تفسدوا فى الارض﴾ بالكفر والمعاصى ﴿بعد اصلاحها﴾ ببعث الانبياء عليهم السلام وشرع الاحكام ﴿وادعوه خوفا وطمعا﴾ أى ذوى خوف نظرا الى قصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطمع نظرا الى سعة رحمته ووفور فضله واحسانه ﴿ان رحمة الله قريب من المحسنين﴾ فى كل شئ ومن الاحسان فى الدعاء أن يكون مقرونا بالخوف والطمع وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الرحم أو لأنه صفة لمحذوف أى أمر قريب أو على تشبيهه بفعيل الذى هو بمعنى مفعول أو الذى هو مصدر كالنقيض والصهيل أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره أو لاكتسابه التذكير من المضاف اليه كما أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف اليه ﴿وهو الذى يرسل الرياح﴾ عطف على الجملة السابقة وقرئ الريح ﴿بشرا﴾ تخفيف بشر جمع بشير أى مبشرات وقرئ بفتح الباء على أنه مصدر بشره بمعنى باشرات أو للبشارة وقرئ نشرا بالنون المضمومة جمع نشور أى ناشرات ونشرا على أنه مصدر فى موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فان الارسال والنشر متقاربان ﴿بين يدى رحمته﴾ قدام رحمته التى هى المطر فان الصبا تثير السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه ﴿حتى اذا أقلت﴾ أى حملت واشتقاقه من القلة فان المقل للشئ يستقله ﴿سحابا ثقالا﴾ بالماء جمعه لأنه بمعنى السحائب ﴿سقناه﴾ أى السحاب وافراد الضمير لافراد اللفظ ﴿لبلد ميت﴾ أى لأجله ولمنفعته أو لاحيائه أو لسقيه وقرئ ميت ﴿فأنزلنا به الماء﴾ أى بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح والتذكير بتأويل المذكور وكذلك قوله تعالى ﴿فأخرجنا به﴾ ويحتمل أن يعود الضمير الى الماء وهو الظاهر واذا كان للبلد فالباء للالصاق فى الأول والظرفية فى الثانى واذا كان لغيره فهى للسببية ﴿من كل الثمرات﴾ أى من كل أنواعها ﴿كذلك نخرج الموتى﴾ الاشارة الى اخراج الثمرات أو الى احياء البلد الميت أى كما نحييه باحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الاجداث ونحييها برد النفوس الى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس ﴿لعلكم تذكرون﴾ بطرح احدى التاءين أى تتذكرون فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا من غير شبهة ﴿والبلد الطيب﴾ أى الارض الكريمة التربة ﴿يخرج نباته باذن ربه﴾ بمشيئته وتيسيره عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لانه أوقعه فى مقابلة قوله تعالى ﴿والذى خبث﴾ من البلاد كالسبخة والحرة ﴿لا يخرج الا نكدا﴾ قليلا عديم النفع ونصبه على الحال والتقدير والبلد الذى خبث لا يخرج نباته الا نكدا فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فصار مرفوعا مستترا وقرئ لا يخرج الا نكدا أى لا يخرجه البلد الا نكدا فيكون الا نكدا مفعوله وقرئ نكدا على المصدر أى ذا نكد ونكدا

بالاسكان للتخفيف ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التصريف البديع ﴿نصرف الآيات﴾ أى نرددها ونكررها ﴿لقوم يشكرون﴾ نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها ويعتبرون بها وهذا كما ترى مثل لارسال الرسل عليهم السلام بالشرائع التى هى ماء حياة القلوب الى المكلفين المنقسمين الى المقتبسين من أنوارها والمحرومين من مغانم آثارها وقد عقب ذلك بما يحققه ويقرره من قصص الامم الخالية بطريق الاستئناف فقيل ﴿لقد أرسلنا نوحا الى قومه﴾ هو جواب قسم محذوف أى والله لقد أرسلنا الخ واطراد استعمال هذه اللام مع قد لكون مدخولها مظنة للتوقع الذى هو معنى قد فان الجملة القسمية انما تساق لتأكيد الجملة المقسم عليها ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس النبى عليهما السلام . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين سنة من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا ومائتين وأربعين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة ﴿فقال ياقوم اعبدوا الله﴾ أى اعبدوه وحده وترك التقييد به للايذان بأنها العبادة حقيقة وأما العبادة بالاشراك فليست من العبادة فى شئ وقوله تعالى ﴿مالكم من اله غيره﴾ أى من مستحق للعبادة استئناف مسوق لتعليل العبادة المذكورة أو الامر بها وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله الذى هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية وقرئ بالجر باعتبار لفظه وقرئ بالنصب على الاستثناء وحكم غير حكم الاسم الواقع بعد الا أى مالكم من اله الا اياه كقولك مافى الدار من أحد الا زيد أو غير زيد فمن اله ان جعل مبتدأ فلكم خبره أو خبره محذوف ولكم للتخصيص والتبيين أى مالكم فى الوجود أو فى العالم اله غير الله ﴿انى أخاف عليكم﴾ أى ان لم تعبدوه حسبما أمرت به ﴿عذاب يوم عظيم﴾ هو يوم القيامة أو يوم الطوفان والجملة تعليل للعبادة ببيان الصارف عن تركها اثر تعليلها ببيان الداعى اليها ووصف اليوم بالعظم لبيان عظم مايقع فيه وتكميل الانذار ﴿قال الملأ من قومه﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قوله عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالوا له عليه الصلاة والسلام فى مقابلة نصحه فقيل قال الرؤساء من قومه والاشراف الذين يملؤن صدور المحافل بأجرامهم والقلوب بجلالهم وهيبتهم والابصار بجمالهم وأبهتهم ﴿انا لنراك فى ضلال﴾ أى ذهاب عن طريق الحق والصواب والرؤية قلبية ومفعولاها الضمير والظرف ﴿مبين﴾ بين كونه ضلالا ﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿ياقوم﴾ ناداهم باضافتهم اليه استمالة لقلوبهم نحو الحق ﴿ليس بى ضلالة﴾ أى شئ ما من الضلال قصد عليه الصلاة والسلام تحقيق الحق فى نفى الضلال عن نفسه ردا على الكفرة حيث بالغوا فى اثباته له عليه الصلاة والسلام حيث جعلوه مستقرا فى الضلال الواضح كونه ضلالا وقوله تعالى ﴿ولكنى رسول من رب العالمين﴾ استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه فى أقصى مراتب الهداية فان رسالة رب العالمين مستلزمة له لا محالة كأنه قيل ليس بى شئ من الضلال ولكنى فى الغاية القاصية من الهداية ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف هو صفة لرسول مؤكدة لما يفيده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى رسول وأى رسول كائن من رب العالمين ﴿أبلغكم رسالات ربى﴾ استئناف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها وأحوالها وقيل صفة أخرى لرسول على طريقة أنا الذى سمتنى أمى حيدره وقرئ أبلغكم من الابلاغ وجمع الرسالات لاختلاف أوقاتها أو لتنوع معانيها أو لان المراد بها ما أوحى اليه والى النبيين من قبله وتخصيص ربوبيته تعالى به عليه الصلاة والسلام بعد بيان عمومها للعالمين للاشعار بعلة الحكم الذى هو تبليغ رسالته تعالى اليهم فان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته تعالى

اليهم ﴿وأنصح لكم﴾ عطف على أبلغكم مبين لكيفية أداء الرسالة و زيادة اللام مع تعدى النصح بنفسه للدلالة على امحاض النصيحة لهم وأنها لمنفعتهم ومصلحتهم خاصة وصيغة المضارع للدلالة على تجدد نصيحته لهم كما يعرب عنه قوله تعالى رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا وقوله تعالى ﴿وأعلم من الله مالا تعلمون﴾ عطف على ماقبله وتقرير لرسالته عليه الصلاة والسلام أى أعلم من جهة الله تعالى بالوحى مالا تعلمونه من الأمور الآتية أو أعلم من شئونه عز وجل وقدرته القاهرة و بطشه الشديد على أعدائه وأن بأسه لايرد عن القوم المجرمين مالا تعلمونه قيل كانوا لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا غافلين آمنين لا يعلمون ماعلمه نوح عليه السلام بالوحى ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم﴾ جواب و رد لما اكتفى عن ذكره بقولهم انا لنراك فى ضلال مبين من قولهم مانراك الا بشرا مثلنا وقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل أاستبعدتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر أى وحى أو موعظة من مالك أموركم ومربيكم ﴿على رجل منكم﴾ أى على لسان رجل من جنسكم كقوله تعالى ماوعدتنا على رسلك وقلتم لأجل ذلك ماقلتم من أن الله تعالى لو شاء لأنزل ملائكة ﴿لينذركم﴾ علة للمجئ أى ليحذركم عاقبة الكفر والمعاصى ﴿ولتتقوا﴾ عطف على العلة الأولى مترتبة عليها ﴿ولعلكم ترحمون﴾ عطف على العلة الثانية مترتبة عليها أى ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم وفائدة حرف الترجى التنبيه على عزة المطلب وأن التقوى غير موجب للرحمة بل هى منوطة بفضل الله تعالى وأن المتقى ينبغى أن لايعتمد على تقواه ولا يأمن عذاب الله عز وجل ﴿فكذبوه﴾ فتمادوا على تكذيبه فى دعوى النبوة وما نزل عليه من الوحى الذى بلغه اليهم وأنذرهم بما فى تضاعيفه واستمروا على ذلك هذه المدة المتطاولة بعدما كرر عليه الصلاة والسلام عليهم الدعوة مرارا فلم يزدهم دعاؤه الا فرارا حسبما نطق به قوله تعالى رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات اذ هو الذى يعقبه الانجاء والاغراق لامجرد التكذيب ﴿فأنجيناه والذين معه﴾ من المؤمنين قيل كانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة وقيل تسعة أبناؤه الثلاثة وستة ممن آمن به وقوله تعالى ﴿فى الفلك﴾ متعلق بالاستقرار فى الظرف أى استقروا معه فى الفلك أو صحبوه فيه أو بفعل الانجاء أى أنجيناهم فى السفينة ويجوز أن يتعلق بمضمر وقع حالا من الموصول أو من ضميره فى الظرف ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أى استمروا على تكذيبها وليس المراد بهم الملأ المتصدين للجواب فقط بل كل من أصر على التكذيب منهم ومن أعقابهم وتقديم ذكر الانجاء على الاغراق للمسارعة الى الاخبار به والايذان بسبق الرحمة التى هى مقتضى الذات وتقدمها على الغضب الذى يظهر أثره بمقتضى جرائمهم ﴿انهم كانوا قوما عمين﴾ عمى القلوب غير مستبصرين قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد وقرئ عامين والأول أدل على الثبات والقرار ﴿والى عاد﴾ متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا فى قصة نوح عليه السلام وهو الناصب لقوله تعالى ﴿أخاهم﴾ أى وأرسلنا الى عاد أخاهم أى واحداً منهم فى النسب لا فى الدين كقولهم يا أخا العرب وقيل العامل فيهما الفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا والأول هو الأولى وأيا ما كان فلعل تقديم المجرور ههنا على المفعول الصريح للحذار عن الاضمار قبل الذكر يرشدك الى ذلك ماسيأتى من قوله تعالى ولوطا الخ فان قومه لما لم يعهدوا باسم معروف يقتضى الحال ذكره عليه السلام مضافا اليهم كما فى قصة عاد وثمود ومدين خولف فى النظم الكريم بين قصته عليه السلام و بين القصص الثلاث وقوله تعالى ﴿هوداً﴾ عطف بيان لأخاهم وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن عم أبى عاد وانما جعل منهم لأنهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله فى صدقه وأمانته

وأقرب الى اتباعه ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية ارساله عليه السلام اليهم كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال ﴿ياقوم اعبدوا الله﴾ أى وحده كما يعرب عنه قوله ﴿مالكم من اله غيره﴾ فانه استئناف جار مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل لها أو للأمر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئا اذ ليس لكم اله سواه وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله وقرئ بالجر حملا له على لفظه ﴿أفلا تتقون﴾ انكار واستبعاد لعدم اتقائهم عذاب الله تعالى بعد ما علموا ما حل بقوم نوح والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا تتفكرون أو أتغفلون فلا تتقون فالتوبيخ على المعطوفين معا أو أتعلمون ذلك فلا تتقون فالتوبيخ على المعطوف فقط وفى سورة هود أفلا تعقلون ولعله عليه السلام خاطبهم بكل منهما وقد اكتفى بحكاية كل منهما فى موطن عن حكايته فى موطن آخر كما لم يذكرههنا ماذكر هناك من قوله تعالى ان أنتم الا مفترون وقس على ذلك حال بقية ماذكر ومالم يذكر من أجزاء القصة بل حال نظائره فى سائر القصص لاسيما فى المحاورات الجارية فى الاوقات المتعددة والله أعلم ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ استئناف كما مر وانما وصف الملأ بالكفر اذ لم يكن كلهم على الكفر كملأ قوم نوح بل كان منهم من آمن به عليه السلام ولكن كان يكتم ايمانه كمرثد ابن سعد وقيل وصفوا به لمجرد الذم ﴿انا لنراك فى سفاهة﴾ أى متمكنا فى خفة عقل راسخا فيها حيث فارقت دين آبائك ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴿وانا لنظنك من الكاذبين﴾ أى فيما ادعيت من الرسالة قالوه لعراقتهم فى التقليد وحرمانهم من النظر الصحيح ﴿قال﴾ مستعطفا لهم ومستميلا لقلوبهم مع ماسمع منهم ماسمع من الكلمة الشنعاء الموجبة لتغليظ القول والمشافهة بالسوء ﴿ياقوم ليس بى سفاهة﴾ أى شئ منها ولا شائبة من شوائبها ﴿ولكنى رسول من رب العالمين﴾ استدراك مما قبله باعتبار مايستلزمه و يقتضيه من كونه فى الغاية القصوى من الرشد والاناة والصدق والامانة فان الرسالة من جهة رب العالمين موجبة لذلك حتما كأنه قيل ليس بى شئ مما نسبتمونى اليه ولكنى فى غاية ما يكون من الرشد والصدق ولم يصرح بنفى الكذب اكتفاء بما فى حيز الاستدراك ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسول مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية وقوله تعالى ﴿أبلغكم رسالات ربى﴾ استئناف سيق لتقرير رسالته وتفصيل أحوالها وقيل صفة أخرى لرسول والكلام فى اضافة الرب الى نفسه عليه السلام بعد اضافته الى العالمين وكذا فى جمع الرسالات كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام وقرئ أبلغكم من الابلاغ ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ معروف بالنصح والامانة مشهور بين الناس بذلك وانما جئ بالجملة الاسمية دلالة على الثبات والاستمرار وايذانا بأن من هذا حاله لايحوم حوله شائبة السفاهة والكذب ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم﴾ الكلام فيه كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام ﴿على رجل منكم﴾ أى من جنسكم ﴿لينذركم﴾ ويحذركم عاقبة ماأنتم عليه من الكفر والمعاصى حتى نسبتمونى الى السفاهة والكذب و فى اجابة الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من يشافههم بما لاخير فيه من أمثال تلك الاباطيل بما حكى عنهم من المقالات الحقة المعربة عن نهاية الحلم والرزانة وكمال الشفقة والرأفة من الدلالة على حيازتهم القدح المعلى من مكارم الاخلاق مالايخفى مكانه ﴿واذكروا اذ جعلكم خلفاء﴾ شروع فى بيان ترتيب أحكام النصح والامانة والانذار وتفصيلها واذ منصوب باذكروا على المفعولية دون الظرفية وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر مافيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل عليها فاذا استحضر كانت هى حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا ولعله معطوف على مقدر كأنه قيل لاتعجبوا من ذلك أو تدبروا فى أمركم واذكروا وقت جعله تعالى اياكم خلفاء ﴿من بعد قوم نوح﴾ أى فى مساكنهم أو فى الارض بأن جعلكم ملوكا فان

شداد بن عاد ممن ملك معمورة الارض من رمل عالج الى شحر عمان ﴿ وزادكم فى الخلق ﴾ أى فى الابداع والتصوير أو فى الناس ﴿ بسطة ﴾ قامة وقوة فانه لم يكن فى زمانهم مثلهم فى عظم الاجرام قال الكلبى والسدى كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ التى أنعم بها عليكم من فنون النعماء التى هذه من جملتها وهذا تكرير للتذكير لزيادة التقرير وتعميم اثر تخصيص ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ كى يؤديكم ذلك الى الشكر المؤدى الى النجاة من الكروب والفوز بالمطلوب ﴿ قالوا ﴾ مجيبين عن تلك النصائح العظيمة ﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ﴾ أى لنخصه بالعبادة ﴿ ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴾ أنكروا عليه عليه السلام مجيئه لتخصيصه تعالى بالعبادة والاعراض عن عبادة الاوثان انهما كانا فى التقليد وحباً لما ألفوه وألفوا أسلافهم عليه ومعنى المجىء اما مجيئه عليه السلام من متعبده ومنزله واما من السماء على التهكم واما القصد والتصدى مجازا كما يقال فى مقابله ذهب يشتمنى من غير ارادة معنى الذهاب ﴿ فائتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى أفلا تتقون ﴿ ان كنت من الصادقين ﴾ أى فى الاخبار بنزول العذاب وجواب ان محذوف لدلالة المذكور عليه أى فائت به ﴿ قال قد وقع عليكم ﴾ أى وجب وحق أو نزل باصراركم هذا بناء على تنزيل المتوقع منزلة الواقع كما فى قوله تعالى أتى أمر الله ﴿ من ربكم ﴾ أى من جهته تعالى وتقديم الظرف الاول على الثانى مع أن مبدأ الشىء متقدم على منتهاه للمسارعة الى بيان اصابة المكروه لهم و كذا تقديمهما على الفاعل الذى هو قوله تعالى ﴿ رجس ﴾ مع مافيه من التشويق الى المؤخر و لان فيه نوع طول بما عطف عليه من قوله تعالى ﴿ وغضب ﴾ فربما يخل تقديمهما بتجاوب النظم الكريم والرجس العذاب من الارتجاس الذى هو الاضطراب والغضب ارادة الانتقام وتنوينهما للتفخيم والتهويل ﴿ أتجادلوننى فى أسماء ﴾ عارية عن المسمى ﴿ سميتموها ﴾ أى سميتم بها ﴿ أنتم و آباؤكم ﴾ انكار واستقباح لانكارهم مجيئه عليه السلام داعيا لهم الى عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الاصنام أى أتجادلوننى فى أشياء سميتموها آلهة ليست هى الامحض الاسماء من غير أن يكون فيها من مصداق الالهية شىء مالان المستحق للمعبودية بالذات ليس الا من أوجد الكل وأنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى اما بانزال آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل وذلك قوله تعالى ﴿ مانزل الله بها من سلطان ﴾ واذ ليس ذلك فى حيز الامكان تحقق بطلان ماهم عليه ﴿ فانتظروا ﴾ مترتب على قوله تعالى قد وقع عليكم أى فانتظروا ماتطلبونه بقولكم فائتنا بما تعدنا الخ ﴿ انى معكم من المنتظرين ﴾ لما يحل بكم والفاء فى قوله تعالى ﴿ فأنجيناه ﴾ فصيحة كما فى قوله تعالى فانفجرت أى فوقع ماوقع فأنجيناه ﴿ والذين معه ﴾ أى فى الدين ﴿ برحمة ﴾ أى عظيمة لا يقادر قدرها وقوله تعالى ﴿ منا ﴾ أى من جهتنا متعلق بمحذوف هو نعت لرحمة مؤكد لفخامتها الذاتية المنفهة من تنكيرها بالفخامة الاضافية ﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم ﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾ عطف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة أى أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا عن ذلك أبدا وتقديم حكاية الانجاء على حكاية الاهلاك قد مر سره وفيه تنبيه على أن مناط النجاة هو الايمان بالله تعالى وتصديق آياته كما أن مدار البوار هو الكفر والتكذيب .

وقصتهم أن عادا قوم كانوا باليمن بالاحقاف وكانوا قد تبسطوا فى البلاد مابين عمان الى حضرموت و كانت لهم أصنام يعبدونها صدا وصمود والهبا فبعث الله تعالى اليهم هودا نبيا وكان من أوسطهم وأفضلهم حسبا فكذبوه وازدادوا عتوا وتجبرا فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا وكان الناس اذا نزل بهم بلاء طلبوا الى الله الفرج منه عند بيته الحرام مسلمهم ومشركهم وأهل مكة اذ ذاك العماليق أو لاد عملیق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر فجهزت عاد الى مكة من أمائلهم سبعين رجلا منهم قيل بن عنز ومرثد بن سعد الذى كان يكتم اسلامه فلما قدموا نزلوا على معاوية

ابن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم قينتا معاوية فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك وقال قد هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء على ماهم عليه وكان يستحيى أن يكلمهم خشية أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقالتا قل شعرا تغنيهم به لا يدرون من قاله فقال معاوية

ألا ياقيل ويحك قم فهينم لعل الله يسقينا غماما
فيسقى أرض عاد ان عادا قد امسوا لا يبينون الكلاما

فلما غنتا به قالوا ان قومكم يتغوثون من البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال لهم مرثد ابن سعد والله لا تسقون بدعائكم ولكن ان أطعتم نبيكم وتبتم الى الله تعالى سقيتم وأظهر اسلامه فقالوا لمعاوية احبس عنا مرثدا لا يقدم معنا فانه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة فقال قيل اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء ياقيل اختر لنفسك ولقومك فقال اخترت السوداء فانها أكثر ماء فخرجت على عاد من واد يقال له المغيث فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه فأتوا مكة فعبدوا الله تعالى فيها الى أن ماتوا ﴿ والى ثمود أخاهم صالحا ﴾ عطف على ماسبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا موافق له فى تقديم المجرور على المنصوب وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الاكبر ثمود بن عابر ابن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل انما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وقرئ بالصرف بتأويل الحى وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام الى وادى القرى وأخوة صالح عليه السلام لهم من حيث النسب كهود عليه السلام فانه صالح بن عبيد بن اسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ولما كان الاخبار بارساله عليه السلام اليهم مظنة لأن يسأل و يقال فماذا قال لهم قيل جواباً عنه بطريق الاستئناف ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ﴾ وقد مر الكلام فى نظائره ﴿ قد جاءتكم بينة ﴾ أى آية ومعجزة ظاهرة شاهدة بنبوتى وهى من الألفاظ الجارية مجرى الابطح والابرق فى الاستغناء عن ذكر موصوفاتها حالة الافراد والجمع كالصالح افرادا وجمعا وكذلك الحسنة والسيئة سواء كانتا صفتين للاعمال أو المثوبة أو الحالة من الرخاء والشدة ولذلك أوليت العوامل وقوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ متعلق بجاءتكم أو بمحذوف هو صفة لبينة كما مر مرارا والمراد بها الناقة وليس هذا الكلام منه عليه السلام أول ما خاطبهم اثر دعوتهم الى التوحيد بل انما قاله بعد ما نصحهم وذكرهم بنعم الله تعالى فلم يقبلوا كلامه وكذبوه ألا يرى الى ما فى سورة هود من قوله تعالى هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها الى آخر الآيات . روى أنه لما أهلكت عاد عمرت ثمود بلادها وخلفوهم فى الأرض وكثروا وعمروا أعمارا طوالا حتى ان الرجل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم فى حياته فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا فى سعة ورخاء من العيش فعتوا على الله تعالى وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الاوثان فبعث الله تعالى اليهم صالحا وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا فدعاهم الى الله عز وجل فلم يتبعه الا قليل منهم مستضعفون فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال أية آية تريدون قالوا تخرج معنا الى عيدنا فى يوم معلوم لهم من السنة فتدعو الهك وندعو آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعتنا فقال صالح عليه السلام نعم فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوا الاستجابة فلم تجبهم ثم قال سيدهم جندع بن عمرو وأشار الى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يقال لها الكاثبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء والمخترجة التى شاكلت البخت فان فعلت صدقناك وأجبناك فاخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن

قالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء و براكا وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها الا الله تعالى وعظاؤهم ينظرون ثم تنجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع و رهط من قومه ومنع أعقابهم ناس من رؤسهم أن يؤمنوا فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد غبا فاذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر فما ترفعها حتى تشرب كل ما فيها ثم تنفجج فيحتلبون ما شاؤا حتى تملئ أوانيهم فيشربون و يدخرون وكانت اذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادى فيهرب منها أنعامهم فتهبط الى بطنه واذا وقع البرد تشتت بطن الوادى فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتى المواشى فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه فانطلق سقبها حتى رقى جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا وكان صالح عليه السلام قال لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه فانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح تصبحون غدا ووجوهكم مصفرة و بعد غد و وجوهكم محمرة واليوم الثالث و وجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالانطاع فأتتهم صيحة من السماء و رجفة من الارض فتقطعت قلوبهم فهلكوا وقوله تعالى ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ استئناف مسوق لبيان البينة واضافة الناقة الى الاسم الجليل لتعظيمها ولمجيئها من جهته تعالى بلا أسباب معهودة ووسايطه معتادة ولذلك كانت آية وأى آية ولكم بيان لمن هى آية له وانتصاب آية على الحالية والعامل فيها معنى الاشارة ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أوعطف بيان له أو مبتدأ ثانيا ولكم خبرا عاملا فى آية ﴿فذروها﴾ تفريع على كونها آية من آيات الله تعالى فان ذلك مما يوجب عدم التعرض لها ﴿تأكل فى أرض الله﴾ جواب الامر أى الناقة ناقة الله والارض أرض الله تعالى فاتركوها تأكل ماتأكل فى أرض ربها فليس لكم أن تحولوا بينها و بينها وقرئ تأكل بالرفع على أنه فى موضع الحال أى آكلة فيها وعدم التعرض للشرب اما للاكتفاء عنه بذكر الاكل أو لتعميمه له أيضا كما فى قوله علفتها تبنا وماء باردا وقد ذكر ذلك فى قوله تعالى لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ نهى عن المس الذى هو مقدمة الاصابة بالشر الشامل لأنواع الأذية ونكر السوء مبالغة فى النهى أى لا تتعرضوا لها بشئ مما يسوءها أصلا ولا تطردوها ولا تريبوها اكراما لآية الله تعالى ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ جواب للنهى ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر فى غزوة تبوك قال لأصحابه لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذى أصابهم وقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه يا على أتدرى من أشقى الاولين قال الله و رسوله أعلم قال عاقر ناقة صالح أتدرى من أشقى الآخرين قال الله و رسوله أعلم قال قاتلك ﴿واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ أى خلفاء فى الأرض أو خلفاء لهم كما مر ﴿و بوأكم فى الارض﴾ أى جعل لكم مباءة ومنزلا فى أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿تتخذون من سهولها قصورا﴾ استئناف مبين لكيفية التبوئة أى تبنون فى سهولها قصورا رفيعة أو تبنون من سهولة الارض بما تعملون منها من الرهص واللبن والآجر ﴿وتنحتون الجبال﴾ أى الصخور وقرئ تنحتون بفتح الحاء وتنحاتون باشباع الفتحة كما فى قوله ينباع من ذفرى أسيل حرة والنحت نجر الشئ الصلب فانتصاب الجبال على المفعولية وانتصاب قوله تعالى ﴿بيوتا﴾ على أنها حال مقدرة منها كما تقول خطت هذا الثوب قميصا وقيل انتصاب الجبال على اسقاط الجار أى من الجبال وانتصاب بيوتا على المفعولية وقد جوز أن يضمن النحت معنى الاتخاذ فانتصابهما على المفعولية قيل كانوا يسكنون السهول فى الصيف

والجبال فى الشتاء ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ التى أنعم بها عليكم مما ذكر أو جميع آلائه التى هذه من جملتها ﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾ فان حق آلائه تعالى أن تشكر ولا تهمل ولا يغفل عنها فكيف بالكفر والعثى فى الأرض بالفساد ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أى عتوا وتكبروا استئناف كما سلف وقرئ بالواو عطفا على ماقبله من قوله تعالى قال ياقوم الخ واللام فى قوله تعالى ﴿للذين استضعفوا﴾ للتبليغ وقوله تعالى ﴿لمن آمن منهم﴾ بدل من الموصول باعادة العامل بدل الكل ان كان ضمير منهم لقومه و بدل البعض ان كان للذين استضعفوا على أن من المستضعفين من لم يؤمن والأول هو الوجه اذ لا داعى الى توجيه الخطاب أولا الى جميع المستضعفين مع أن المجاوبة مع المؤمنين منهم على أن الاستضعاف مختص بالمؤمنين أى قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم ﴿أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه﴾ وانما قالوه بطريق الاستهزاء بهم ﴿قالوا انا بما أرسل به مؤمنون﴾ عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بان يقولوا نعم أو نعلم أنه مرسل منه تعالى مسارعة الى تحقيق الحق واظهار مالهم من الايمان الثابت المستمر الذى ينبئ عنه الجملة الاسمية وتنبيها على أن أمر ارساله من الظهور بحيث لا ينبغى أن يسأل عنه وانما الحقيق بالسؤال عنه هو الايمان به ﴿قال الذين استكبروا﴾ أعيد الموصول مع صلته مع كفاية الضمير ايذانا بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار ﴿انا بالذى آمنتم به كافرون﴾ وانما لم يقولوا انا بما أرسل به كافرون اظهارا لمخالفتهم اياهم و ردا لمقالتهم ﴿فعقروا الناقة﴾ أى نحروها أسند العقر الى الكل مع أن المباشر بعضهم للملابسة أو لان ذلك لما كان برضاهم فكأنه فعله كلهم وفيه من تهويل الامر وتفظيعه بحيث أصابت غائلته الكل ما لا يخفى ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ أى استكبروا عن امتثاله وهو ما بلغهم صالح عليه السلام من الامر والنهى ﴿وقالوا﴾ مخاطبين له عليه السلام بطريق التعجيز والافحام على زعمهم ﴿ياصالح ائتنا بما تعدنا﴾ أى من العذاب والاطلاق للعلم به قطعا ﴿ان كنت من المرسلين﴾ فان كونك من جملتهم يستدعى صدق ما تقول من الوعد والوعيد ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أى الزلزلة لكن لا اثر ما قالوا ما قالوا بل بعد ما جرى عليهم ما جرى من مبادئ العذاب فى الايام الثلاثة حسبما مر تفصيله ﴿فأصبحوا فى دارهم﴾ أى صاروا فى أرضهم و بلدهم أو فى مساكنهم ﴿جاثمين﴾ خامدين موتى لاحراك بهم وأصل الجثوم البروك يقال الناس جثوم أى قعود لا حراك بهم ولا ينبسون نبسة قال أبو عبيدة الجثوم للناس والطير والبروك للابل والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب ولا حركة كما يكون عند الموت المعتاد ولا يخفى ما فيه من شدة الاخذ وسرعة البطش اللهم انا نبك نعوذ من نزول سخطك وحلول غضبك وجاثمين خبر لاصبحوا والظرف متعلق به ولا مساغ لكونه خبرا وجاثمين حالا لافضائه الى كون الاخبار بكونهم فى دارهم مقصودا بالذات وكونهم جاثمين قيدا تابعا له غير مقصود بالذات قيل حيث ذكرت الرجفة وحدت الدار وحيث ذكرت الصيحة جمعت لان الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فقرن كل منهما بما هو أليق به ﴿فتولى عنهم﴾ اثر ما شاهد ما جرى عليهم تولى مغتم متحسر على ما فاتهم من الايمان متحزن عليهم ﴿وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم﴾ بالترغيب والترهيب وبذلت فيكم وسعى ولكن لم تقبلوا منى ذلك وصيغة المضارع فى قوله تعالى ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ حكاية حال ماضية أى شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم خاطبهم عليه الصلاة والسلام بذلك خطاب رسول الله عليه الصلاة والسلام أهل قليب بدر حيث قال انا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا وقيل انما تولى عنهم قبل نزول العذاب بهم عند مشاهدته عليه الصلاة والسلام لعلامات تولى ذاهب عنهم منكر لاصرارهم على ما هم عليه و روى أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء ونزل بهم العذاب يوم السبت و روى أنه خرج فى مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكى

فالتفت فرأى الدخان ساطعا فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفا وخمسمائة دار وروى أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم ﴿ولوطا﴾ منصوب بفعل مضمر معطوف على ماسبق وعدم التعرض للرسل اليهم مقدما على المنصوب حسبما وقع فيما سبق والحق قد مر بيانه فى قصة هود عليه والسلام وهو لوط بن هاران بن تارخ بن أخى ابراهيم كان من أرض بابل من العراق مع عمه ابراهيم فهاجر الى الشام فنزل فلسطين وأنزل لوطا الأردن وهى كورة بالشام فأرسله الله تعالى الى أهل سدوم وهى بلد بحمص وقوله تعالى ﴿اذ قال لقومه﴾ ظرف للمضمر المذكور أى أرسلنا لوطا الى قومه وقت قوله لهم الخ ولعل تقييد ارساله عليه السلام بذلك لما أن ارساله اليهم لم يكن فى أول وصوله اليهم وقيل هو بدل من لوطا بدل اشتمال على أن انتصابه باذكر أى اذكر وقت قوله عليه السلام لقومه ﴿أتأتون الفاحشة﴾ بطريق الانكار التوبيخى التقريعى أى أتفعلون تلك الفعلة المتناهية فى القبح المتمادية فى الشرية والسوء ﴿ماسبقكم بها﴾ ماعملها قبلكم على أن الباء للتعدية كما فى قوله عليه السلام سبقك بها عكاشة من قولك سبقته بالكرة أى ضربتها قبله ومن فى قوله تعالى ﴿من أحد﴾ مزيدة لتأكيد النفى وافادة معنى الاستغراق وفى قوله تعالى ﴿من العالمين﴾ للتبعيض والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع فان مباشرة القبيح قبيح واختراعه أقبح ولقد أنكر الله تعالى عليهم أولا اتيان الفاحشة ثم وبخهم بأنهم أول من عملها فان سبك النظم الكريم وان كان على نفى كونهم مسبوقين من غير تعرض لكونهم سابقين لكن المراد أنهم سابقون لكل من عداهم من العالمين كما مر تحقيقه مرارا فى نحو قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو مسوقة جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل من جهتهم لم لا نأتيها فقيل بيانا للعلة واظهارا للزاجر ماسبقكم بها أحد لغاية قبحها وسوء سبيلها فكيف تفعلونها قال عمرو بن دينار مانزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط قال محمد بن اسحق كانت لهم ثمار وقرى لم يكن فى الدنيا مثلها فقصدهم الناس فآذوهم فعرض لهم ابليس فى صورة شيخ ان فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فأبوا فلما ألح الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانا صباحا فأخبثوا فاستحكم فيهم ذلك قال الحسن كانوا لا يفعلون ذلك الا بالغرباء وقال الكلبى أول من فعل به ذلك الفعل ابليس الخبيث حيث تمثل لهم فى صورة شاب جميل فدعاهم الى نفسه ثم عبثوا بذلك العمل ﴿انكم لتأتون الرجال﴾ خبر مستأنف لبيان تلك الفاحشة وقرئ بهمزتين صريحتين وبتليين الثانية بغير مد وبمد أيضا على أنه تأكيد للانكار السابق وتشديد للتوبيخ وفى زيادة ان واللام مزيد توبيخ وتقريع كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد فيؤكد تأكيدا قويا وفى ايراد لفظ الرجال دون الغلمان والمردان ونحوهما مبالغة فى التوبيخ وقوله تعالى ﴿شهوة﴾ مفعول له أو مصدر فى موقع الحال وفى التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغى له أن يكون الداعى له الى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لاقضاء الشهوة ويجوز أن يكون المراد الانكار عليهم وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿من دون النساء﴾ أى متجاوزين النساء اللاتى هن محل الاشتهاء كما ينبئ عنه قوله تعالى هن أطهر لكم ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ اضراب عن الانكار المذكور الى الاخبار بحالهم التى أفضتهم الى ارتكاب أمثالها وهى اعتياد الاسراف فى كل شئ أو عن الانكار عليها الى الذم على جميع معايبهم أو عن محذوف أى لاعذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتكم الاسراف ﴿وما كان جواب قومه﴾ أى المستكبرين منهم المتولين للأمر والنهى المتصدين للعقد والحل وقوله تعالى ﴿الا أن قالوا﴾ استثناء مفرغ من أعم الأشياء أى ما كان جوابا من جهة قومه شئ من الأشياء الا قولهم أى لبعضهم الآخرين المباشرين للأمور معرضين عن مخاطبته عليه السلام ﴿أخرجوهم﴾ أى لوطا ومن معه من أهله المؤمنين ﴿من قريتكم﴾ أى الاهذا القول الذى يستحيل أن يكون جوابا لكلام لوط عليه السلام وقرئ برفع جواب على أنه اسم كان والا أن قالوا الخ خبرها وهو

أظهر وان كان الأول أقوى فى الصناعة لأن الاعرف أحق بالاسمية وأياما كان فليس المراد أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن مقالات لوط عليه السلام ومواعظه الا هذه المقالة الباطلة كما هو المتسارع الى الافهام بل انه لم يصدر عنهم فى المرة الأخيرة من مرات المحاورات الجارية بينهم وبينه عليه السلام الا هذه الكلمة الشنيعة والا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثير من الترهات حسبما حكى عنهم فى سائر السور الكريمة وهذا هو الوجه فى نظائره الواردة بطريق القصر وقوله تعالى ﴿انهم أناس يتطهرون﴾ تعليل للأمر بالاخراج ووصفهم بالتطهر للاستهزاء والسخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش والخبائث والافتخار بما هم فيه من القذارة كما هو دين الشطار والدعار ﴿فأنجيناه وأهله﴾ أى المؤمنين منهم ﴿الا امرأته﴾ استثناء من أهله فانها كانت تسر بالكفر ﴿كانت من الغابرين﴾ أى الباقين فى ديارهم الهالكين فيها والتذكير للتغليب ولبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون للفاحشة والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن استثنائها من حكم الانجاء كأنه قيل فماذا كان حالها فقيل كانت من الغابرين ﴿وأمطرنا عليهم مطرا﴾ أى نوعا من المطر عجيبا وقد بينه قوله تعالى وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل قال أبو عبيدة مطر فى الرحمة وأمطر فى العذاب وقال الراغب مطر فى الخير وأمطر فى العذاب والصحيح أن أمطرنا بمعنى أرسلنا عليهم ارسال المطر قيل كانت المؤتفكة خمس مدائن وقيل كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة فأمطر الله عليهم الكبريت والنار وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم وقيل أمطر عليهم ثم خسف بهم وروى أن تاجرا منهم كان فى الحرم فوقف الحجر له أربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه وروى أن امرأته التفتت نحو ديارها فأصابها حجر فماتت ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ خطاب لكل من يتأتى منه التأمل والنظر تعجيبا من حالهم وتحذيرا من أعمالهم ﴿والى مدين أخاهم شعيبا﴾ عطف على قوله والى عاد أخاهم هودا وما عطف عليه وقد روعى ههنا ما فى المعطوف عليه من تقديم المجرور على المنصوب أى وأرسلنا اليهم وهم أولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين وقيل شعيب بن ثويب ابن مدين وقيل شعيب بن يثرون بن مدين وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين مع كفرهم ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ عن حكاية ارساله اليهم كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال ﴿ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره﴾ مر تفسيره مرارا ﴿قد جاءتكم بينة﴾ أى معجزة وقوله تعالى ﴿من ربكم﴾ متعلق بجاءتكم أو بمحذوف هو صلة لفاعله مؤكدة لفخامته الذاتية المستفادة من تنكيره بفخامته الاضافية أى بينة عظيمة ظاهرة كائنة من ربكم ومالك أموركم ولم يذكر معجزته عليه السلام فى القرآن العظيم كما لم يذكر أكثر معجزات النبى صلى الله عليه وسلم فمنها ما روى من محاربة عصا موسى عليه السلام التنين حين دفع اليه غنمه ومنها ولادة الغنم الدرع خاصة حين وعد أن يكون له الدرع من أولادها ومنها وقوع عصا آدم عليه السلام على يده فى المرات السبع لأن كل ذلك كان قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام وقيل البينة مجيئه عليه السلام كما فى قوله تعالى ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى أى حجة واضحة وبرهان نير عبر بهما عما آتاه الله من النبوة والحكمة ﴿فأوفوا الكيل﴾ أى المكيال كما وقع فى سورة هود ويؤيده قوله تعالى ﴿والميزان﴾ فان المتبادر منه الآلة وان جاز كونه مصدرا كالميعاد وقيل آلة الكيل والوزن على الاضمار والفاء لترتيب الأمر على مجئ البينة ويجوز أن تكون عاطفة على اعبدوا فان عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهى التى معظمها بعد الكفر البخس الذى كانوا يباشرونه ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ التى تشترونها بهما معتمدين على تمامهما أى شئ كان وأى مقدار كان فانهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير وقيل كانوا مكاسين لا يدعون شيأ الا مكسوه قال زهير

أفى كل أسواق العراق اتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم

﴿ولا تفسدوا فى الارض﴾ أى بالكفر والحيف ﴿بعد اصلاحها﴾ بعدما أصلح أمرها وأهلها الانبياء وأتباعهم باجراء الشرائع أو أصلحوا فيها واضافته اليها كاضافة مكر الليل والنهار ﴿ذلكم خير لكم﴾ اشارة الى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ومعنى الخيرية اما الزيادة مطلقا أو فى الانسانية وحسن الأحدوثة وما يطلبونه من التكسب والربح لان الناس اذا عرفوهم بالامانة رغبوا فى معاملتهم ومتاجرتهم ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ أى مصدقين لى فى قولى هذا ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾ أى بكل طريق من طرق الدين كالشيطان وصراط الحق وان كان واحداً لكنه يتشعب الى معارف وحدود وأحكام وكانوا اذا رأوا أحدا يشرع فى شىء منها منعوه وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيبا انه كذاب لا يفتننك عن دينك و يتوعدون لمن آمن به وقيل يقطعون الطريق ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ أى السبيل الذى قعدوا عليه فوقع المظهر موقع المضمر بيانا لكل صراط ودلالة على عظم ما يصدون عنه وتقبيحا لما كانوا عليه أو الايمان بالله أو بكل صراط على أنه عبارة عن طرق الدين وقوله تعالى ﴿من آمن به﴾ مفعول تصدون على اعمال الاقرب ولو كان مفعول توعدون لقيل وتصدونهم وتوعدون حال من الضمير فى تقعدوا ﴿وتبغونها عوجا﴾ أى وتطلبون لسبيل الله عوجا بالقاء الشبه أو بوصفها للناس بأنها معوجة وهى أبعد شىء من شائبة الاعوجاج ﴿واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم﴾ بالبركة فى النسل والمال ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ من الامم الماضية كقوم نوح ومن بعدهم من عاد وثمود وأضرابهم واعتبروا بهم ﴿وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به﴾ من الشرائع والاحكام ﴿وطائفة لم يؤمنوا﴾ أى به أو لم يفعلوا الايمان ﴿فاصبروا حتى يحكم الله بيننا﴾ أى بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ﴿وهو خير الحاكمين﴾ اذ لا معقب لحكمه ولا حيف فيه ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه المقال كأنه قيل فماذا قالوا بعد ما سمعوا هذه المواعظ من شعيب عليه السلام فقيل قال أشراف قومه المستكبرون متطاولين عليه عليه السلام غير مكتفين بمجرد الاستعصاء عليه والامتناع من الطاعة له بل بالغين من العتو والاستكبار الى أن قصدوا استتباعه عليه السلام فيما هم فيه وأتباعه المؤمنين واجترؤا على اكراههم عليه بوعيد النفى وخاطبوه بذلك على طريقة التوكيد القسمى ﴿لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا﴾ بنسبة الاخراج اليه عليه السلام أولا والى المؤمنين ثانيا بعطفهم عليه تنبيها على اصالته عليه السلام فى الاخراج وتبعيتهم له فيه كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿معك﴾ فانه متعلق بالاخراج لا بالايمان وتوسيط النداء باسمه العلمى بين المعطوفين لزيادة التقرير والتهديد الناشئة عن غاية الوقاحة والطغيان أى والله لنخرجنك وأتباعك ﴿من قريتنا﴾ بغضا لكم ودفعا لفتنتكم المترتبة على المساكنة والجوار وقوله تعالى ﴿أو لتعودن فى ملتنا﴾ عطف على جواب القسم أى والله ليكونن أحد الامرين البتة على أن المقصد الاصلى هو العود وانما ذكر النفى والاجلاء المحض القسر والالجاء كما يفصح عنه عدم تعرضه عليه السلام لجواب الاخراج كأنهم قالوا لا ندعكم فيما بيننا حتى تعخلوا فى ملتنا وادخالهم له عليه السلام فى خطاب العود مع استحالة كونه عليه السلام فى ملتهم قبل ذلك انما هو بطريق تغليب الجماعة على الواحد وانما لم يقولوا أو لنعيدنكم على طريقة ما قبله لما أن مرادهم أن يعودوا اليها بصورة الطواعية حذار الاخراج باختيار أهون الشرين لا اعادتهم بسائر وجوه الاكراه والتعذيب ﴿قال﴾ استئناف كما سبق أى قال عليه السلام ردا لمقالتهم الباطلة وتكذيبا لهم فى أيمانهم الفاجرة ﴿أولو كنا كارهين﴾ على أن الهمزة لانكار الوقوع ونفيه لا لانكار الواقع واستقباحه كالتى فى قوله تعالى أولو جئتك بشىء مبين

ويجوز أن يكون الاستفهام فيه باقيا على حاله وقد مر مرارا أن كلمة لو فى مثل هذا المقام ليست لبيان انتفاء الشىء فى الزمن الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف تعويلا على دلالة ماقبلها عليه ملاحظة قصدية الاعند القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ماعداه من الاحوال بطريق الأولوية لما أن الشىء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى و لذلك لا يذكر معه شىء من سائر الاحوال و يكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعددها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الاحوال على سبيل الاجمال وهذا المعنى ظاهر فى الخبر الموجب والمنفى والأمر والنهى كما فى قولك فلان جواد يعطى و لو كان فقيرا أو بخيل لا يعطى ولو كان غنيا وكقولك أحسن اليه ولو أساء اليك ولا تهنه ولو أهانك لبقائه على حاله سالما عما يغيره وأما فيما نحن فيه ففيه نوع خفاء لتغيره بورود الانكار عليه لكن الأصل فى الكل واحد الا أن كلمة لو فى الصور المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال هو نفس مدلوله وأن الجملة حال من ضميره أو مما يتعلق به وأن ما فى حيز لو مقرر على ماهو عليه من الاستبعاد بخلاف ما نحن فيه لما أن كلمة لو متعلقة فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال هو مدلوله لا مدلول المذكور وأن الجملة حال من ضميره لا من ضمير المذكور كما سيأتى وأن المقصود الأصلى انكار مدلوله من حيث مقارنته للحالة المذكورة وأما تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وأن ما فى حيز لولا يقصد استبعاده فى نفسه بل يقصد الاشعار بأنه أمر مقرر الا أنه أخرج مخرج الاستبعاد مبالغة فى الانكار من جهة أن العود مما ينكر عند كون الكراهة أمرا مستبعدا فكيف به عند كونها أمرا محققا ومعاملة مع المخاطبين على معتقدهم لاستنزالهم من رتبة العناد وليس المراد بالكراهة مجرد كراهة المؤمنين للعود فى ملة الكفر ابتداء حتى يقال انها معلومة لهم فكيف تكون مستبعدة عندهم بل انما هى كراهتهم له بعد وعيد الاخراج الذى جعل قرينا للقتل فى قوله تعالى و لو أنا كتبنا الآية فانهم كانوا يستبعدونها و يطمعون فى أنهم حينئذ يختارون العود خشية الاخراج اذ رب مكروه يختار عند حلول ما هو أشد منه وأفظع والتقدير أنعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين غير مبالين بالاكراه فالجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير الفعل المقدر حسبما أشير اليه اذ مآله أنعود فيها حال عدم الكراهة وحال الكراهة انكارا لما تفيده كلمتهم الشنيعة باطلاقها من العود على أى حالة كانت غير أنه اكتفى بذكر الحالة الثانية التى هى أشد الاحوال منافاة للعود وأكثرها بعدا منه تنبيها على أنها هى الواقعة فى نفس الأمر وثقة باغنائها عن ذكر الاولى اغناء واضحا لان العود الذى تعلق به الانكار حين تحقق مع الكراهة على ما يوجبه كلامهم فلأن يتحقق مع عدمها أولى ان قلت النفى المستفاد من الاستفهام الانكارى فيما نحن فيه بمنزلة صريح النفى ولا ريب فى أن الأولوية هناك معتبرة بالنسبة الى النفى ألا يرى أن الاولى بالتحقق فيما ذكر من مثال النفى عند الحالة المسكوت عنها أعنى عدم الغنى هو عدم الاعطاء لا نفسه فكان ينبغى أن يكون الاولى بالتحقق فيما نحن فيه عند عدم الكراهة عدم العود لا نفسه اذ هو الذى يدل عليه قولنا أنعود لأنه فى معنى لا نعود فلم اختلف الحال بينهما قلت لما أن مناط الأولوية هو الحكم الذى أريد بيان تحققه على كل حال وذلك فى مثال النفى عدم الاعطاء المستفاد من الفعل المنفى المذكور وأما فيما نحن فيه فهو نفس العود المستفاد من الفعل المقدر اذ هو الذى يقتضيه الكلام السابق أعنى قولهم لتعودن وأما الاستفهام الخارج عنه وارد عليه لابطال ما يفيده ونفى

ما يقتضيه لا أنه من تمامه كما فى صورة النفى وتوضيحه أن بين النفيين فرقا معنويا تختلف به أحكامهما التى من جملتها ما ذكر من اعتبار الأولوية فى أحدهما بالنسبة الى نفسه وفى الآخر بالنسبة الى متعلقه ولذلك لا تستقيم اقامة أحدهما مقام الآخر على وجه الكلية ألا يرى أنك لو قلت مكان أنعود فيها الخ لا نعود فيها ولو كنا كارهين لاختل المعنى اختلالا فاحشا لأن مدلول الأول نفى العود المقيد بحال الكراهة ومدلول الثانى تقييد العود المنفى بها وذلك لأن حرف النفى يباشر نفس الفعل وينفيه وما يذكر بعده يرجع اليه من حيث هو منفى وأما همزة الاستفهام فانها تباشر الفعل بعد تقيده بما بعده لما أن دلالتها على الانكار والنفى ليست بدلالة وضعية كدلالة حرف النفى حتى يتعلق معناها بنفس الفعل الذى يليها ويكون ما بعده راجعا اليه من حيث هو منفى بل هى دلالة عقلية مستفادة من سياق الكلام فلا بد أن يكون ما يذكر بعد الفعل من موانعه ودواعى انكاره ونفيه حتما ليكون قرينة صارفة للهمزة عن حقيقتها الى معنى الانكار والنفى ثم لما كان المقصود نفى الحكم على كل حال مع الاقتصار على ذكر بعض منها مغن عن ذكر ما عداها لاستلزام تحققه معه تحققه مع غيره بطريق الأولوية وكانت حال الكراهة عند كونها قيداً لنفس العود كذلك أى مغنيا عن ذكر سائر الأحوال ضرورة أن تحقق العود فى حال الكراهة مستلزم لتحققه فى حال عدمها البتة وعند كونها قيداً لنفيه بخلاف ذلك أى غير مغن عن ذكر غيرها ضرورة أن نفى العود فى حال الكراهة لا يستلزم نفيه فى غيرها بل الأمر بالعكس فان نفيه فى حال الارادة مستلزم لنفيه فى حال الكراهة قطعا استقام الاول لافادته نفى العود فى الحالتين مع الاقتصار على ذكر ما هو مغن عن ذكر الأخرى ولم يستقم الثانى لعدم افادته اياه على الوجه المذكور ان قيل فما وجه استقامتهما جميعا عند ذكر المعطوفين معا حيث يصح أن يقال لا نعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين كما يصح أن يقال أنعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين مع أن المقدر فى حكم الملفوظ قلنا وجهها أن كلا منهما يفيد معنى صحيحا فى نفسه لا أن معنى أحدهما عين معنى الآخر أو متلازمان متفقان فى جميع الأحكام كيف لا ومدلول الاول أن العود منتف فى الحالتين ومدلول الثانى أن العود فى الحالتين منتف وكلا المعنيين صحيح فى نفسه مصحح لنفى العود فى الحالتين مع ذكرهما معا غير أن الثانى مصحح لنفى العود فى الحالتين مع الاقتصار على ذكر حالة الكراهة على عكس المعنى الاول فانه مصحح لنفيه فيهما مع الاقتصار على ذكر حالة الارادة ﴿قد افترينا على الله كذبا﴾ أى كذبا عظيما لا يقادر قدره ﴿ان عدنا فى ملتكم﴾ التى هى الشرك وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه أى ان عدنا فى ملتكم ﴿بعد اذ نجانا الله منها﴾ فقد افترينا على الله كذبا عظيما حيث نزعم حينئذ أن لله تعالى ندا وليس كمثله شىء وأنه قد تبين لنا أن ما كنا عليه من الاسلام باطل وأن ما كنتم عليه من الكفر حق وأى افتراء أعظم من ذلك وقيل انه جواب قسم محذوف حذف عنه اللام تقديره والله لقد افترينا الخ ﴿وما يكون لنا﴾ أى وما يصح وما يستقيم لنا ﴿أن نعود فيها﴾ فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات ﴿الا أن يشاء الله﴾ أى الاحال مشيئة الله تعالى أو وقت مشيئته تعالى لعودنا فيها وذلك مما لا يكاد يكون كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ربنا﴾ فان التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم مما ينبىء عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعا وكذا قوله تعالى بعد اذ نجانا الله منها فان تنجيته تعالى لهم منها من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها وقيل معناه الا أن يشاء الله خذلاننا وقيل فيه دليل على أن الكفر بمشيئته تعالى وأياما كان فليس المراد بذلك بيان أن العود فيها فى حيز الامكان وخطر الوقوع بناء على كون مشيئته تعالى كذلك بل بيان استحالة وقوعها كأنه قيل وما كان لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وهيهات ذلك بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له ﴿وسع ربنا كل شىء علما﴾ فهو محيط بكل ما كان وما سيكون من الأشياء التى من جملتها أحوال عباده وعزائمهم ونياتهم وما هو اللائق بكل

واحد منهم فحال من لطفه أن يشاء عودنا فيها بعد ما نجانا منها مع اعتصامنا به خاصة حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿على الله توكلنا﴾ أى فى أن يثبتنا على ما نحن عليه من الايمان ويتم علينا نعمته بانجائنا من الاشراك بالكلية واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار للمبالغة فى التضرع والجؤار وقوله تعالى ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ اعراض عن مقاولتهم اثر ما ظهر له عليه الصلاة والسلام أنهم من العتو والعناد بحيث لا يتصور منهم الايمان أصلا واقبال على الله تعالى بالدعاء لفصل ما بينه وبينهم بما يليق بحال كل من الفريقين أى احكم بيننا بالحق والفتاحة الحكومة أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز المحق من المبطل من فتح المشكل اذا بينه ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله على المعنيين ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ عطف على قال الملأ الذين الخ ولعل هؤلاء غير أولئك المستكبرين ودونهم فى الرتبة شأنهم الوساطة بينهم وبين العامة والقيام بأمورهم حسبما يراه المستكبرون ويجوز أن يكون عين الأولين وتغيير الصلة لما أن مدار قولهم هذا هو الكفر كما أن مناط قولهم السابق هو الاستكبار أى قال أشرافهم الذين أصروا على الكفر لاعقابهم بعد ما شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين فى الايمان وخافوا أن يستتبعوا قومهم تثبيطا لهم عن الايمان به وتنفيراً لهم عنه على طريقة التوكيد القسمى والله ﴿لئن اتبعتم شعيبا﴾ ودخلتم فى دينه وتركتم دين آبائكم ﴿انكم اذاً لخاسرون﴾ أى فى الدين لاشتراتكم الضلالة بهدا كم أو فى الدنيا لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف واذن حرف جواب وجزاء معترض بين اسم ان وخبرها والجملة سادة مسد جوابى الشرط والقسم الذى وطأته اللام ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أى الزلزلة وهكذا فى سورة العنكبوت وفى سورة هود وأخذت الذين ظلموا الصيحة أى صيحة جبريل عليه السلام ولعلها من مبادى الرجفة فأسند هلاكهم الى السبب القريب تارة والى البعيد أخرى ﴿فأصبحوا فى دارهم﴾ أى فى مدينتهم وفى سورة هود فى ديارهم ﴿جاثمين﴾ أى ميتين لازمين لأماكنهم لا براح لهم منها ﴿الذين كذبوا شعيبا﴾ استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم فيما سبق لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا وعقوبتهم بمقابلته والموصول مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أى استؤصلوا بالمرة وصاروا كأنهم لم يقيموا بقريتهم أصلا أى عوقبوا بقولهم ذلك وصاروا هم المخرجين من القرية اخراجا لادخول بعده أبدا وقوله تعالى ﴿الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾ استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الاخير واعادة الموصول والصلة كما هى لزيادة التقرير والايذان بأن ما ذكر فى حيز الصلة هو الذى استوجب العقوبتين أى الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بمقالتهم الاخيرة فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لا المتبعون له عليه الصلاة والسلام وبهذا القصر اكتفى عن التصريح بانجائه عليه الصلاة والسلام كما وقع فى سورة هود من قوله تعالى ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه الخ ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم﴾ قاله عليه الصلاة والسلام بعد ما هلكوا تأسفا بهم لشدة حزنه عليهم ثم أنكر على نفسه ذلك فقال ﴿فكيف آسى﴾ أحزن حزنا شديدا ﴿على قوم كافرين﴾ أى مصرين على الكفر ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم أو قاله اعتذارا عن عدم شدة حزنه عليهم والمعنى لقد بالغت فى الابلاغ والانذار وبذلت وسعى فى النصح والاشفاق فلم تصدقوا قولى فكيف آسى عليكم وقرىء ايسى بامالتين ﴿وما أرسلنا فى قرية من نبى﴾ اشارة اجمالية الى بيان أحوال سائر الأمم اثر بيان أحوال الأمم المذكورة تفصيلا ومن مزيدة لتأكيد النفى والصفة محذوفة أى من نبى كذب أو كذبه أهلها ﴿الا أخذنا أهلها﴾ استثناء مفرغ من أعم الاحوال وأخذنا فى محل النصب من فاعل أرسلنا والفعل الماضى لا يقع بعد الا الا بأحد شرطين اما تقدير قد كما فى هذه الآية أو مقارنة قد كما فى قولك ما زيد الا قد قام والتقدير وما أرسلنا فى

قرية من القرى المهلكة نبيا من الأنبياء فى حال من الأحوال الاحال كوننا آخذين أهلها ﴿بالبأساء﴾ بالبؤس والفقر ﴿والضراء﴾ بالضر والمرض لكن لا على معنى أن ابتداء الارسال مقارن للاخذ المذكور بل على أنه مستتبع له غير منفك عنه بالآخرة لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه حسبما فعلت الأمم المذكورة ﴿لعلهم يضرعون﴾ كى يتضرعوا و يتذللوا و يحطوا أردية الكبر والعزة عن أكتافهم كقوله تعالى لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ﴿ثم بدلنا﴾ عطف على أخذنا داخل فى حكمه ﴿مكان السيئة﴾ التى أصابتهم للغاية المذكورة ﴿الحسنة﴾ أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والسعة كقوله تعالى و بلوناهم بالحسنات والسيئات ﴿حتى عفوا﴾ أى كثروا عددا وعددا من عفا النبات اذا كثر وتكاثف وأبطرتهم النعمة ﴿وقالوا﴾ غير واقفين على أن ما أصابهم من الأمرين ابتلاء من الله سبحانه ﴿قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ كما مسنا ذلك وما هو الا من عادة الدهر يعاقب فى الناس بين الضراء والسراء من غير أن يكون هناك داعية تؤدى اليهما أو تبعة تترتب عليهما ولعل تأخير السراء للاشعار بأنها تعقب الضراء فلا ضير فيها ﴿فأخذناهم﴾ اثر ذلك ﴿بغتة﴾ فجأة أشد الاخذ وأفظعه ﴿وهم لا يشعرون﴾ بذلك و لا يخطرون ببالهم شيئاً من المكاره كقوله تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا الآية وليس المراد بالاخذ بغتة اهلاكهم طرفة عين كاهلاك عاد وقوم لوط بل ما يعمه وما يمضى بين الاخذ واتمام الاهلاك أيام كدأب ثمود ﴿ولو أن أهل القرى﴾ أى القرى المهلكة المدلول عليها بقوله تعالى فى قرية وقيل هى مكة وما حولها من القرى وقيل جنس القرى المنتظمة لما ذكر ههنا انتظاما أوليا ﴿آمنوا﴾ بما أوحى الى أنبيائهم معتبرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالضراء والسراء ﴿واتقوا﴾ أى الكفر والمعاصى أو اتقوا ما أنذروا به على ألسنة الأنبياء ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ولم يحملوا ابتلاء الله تعالى على عادات الدهر وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وحدوا الله واتقوا الشرك ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ لوسعنا عليهم الخير و يسرناه لهم من كل جانب مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التى بعضها من السماء و بعضها من الأرض وقيل المراد المطر والنبات وقرئ لفتحنا بالتشديد للتكثير ﴿ولكن كذبوا﴾ أى ولكن لم يؤمنوا ولم يتقوا وقد اكتفى بذكر الأول لاستلزامه للثانى ﴿فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ من أنواع الكفر والمعاصى التى من جملتها قولهم قد مس آباءنا الخ وهذا الأخذ عبارة عما فى قوله تعالى فأخذناهم بغتة لا عن الجدب والقحط كما قيل فانهما قد زالا بتبديل الحسنة مكان السيئة ﴿أفأمن أهل القرى﴾ أى أهل القرى المذكورة على وضع المظهر موضع المضمر للايذان بأن مدار التوبيخ أمن كل طائفة ما أتاهم من البأس لا أمن مجموع الأمم فان كل طائفة منهم أصابهم بأس خاص بهم لا يتعداهم الى غيرهم كما سيأتى والهمزة لانكار الواقع واستقباحه لا لانكار الوقوع ونفيه كما قاله أبو شامة وغيره لقوله تعالى فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون والفاء للعطف على أخذناهم وما بينهما اعتراض توسط بينهما للمسارعة الى بيان أن الأخذ المذكور بما كسبته أيديهم والمعنى أبعد ذلك الأخذ أمن أهل القرى ﴿أن يأتيهم بأسنا بياتا﴾ أى تبييتا أو وقت بيات أن مبيتا أو مبيتين وهو فى الأصل مصدر بمعنى البيتوتة ويجئ بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم ﴿وهم نائمون﴾ حال من ضميرهم البارز أو المستتر فى بياتا ﴿أو أمن أهل القرى﴾ انكار بعد انكار للمبالغة فى التوبيخ والتشديد ولذلك لم يقل أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون وقرئ أو بسكون الواو على الترديد ﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾ أى ضحوة النهار وهو فى الأصل ضوء الشمس اذا ارتفعت ﴿وهم يلعبون﴾ أى يلهون من فرط الغفلة أو يشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ تكرير للنكير لزيادة التقرير ومكر الله تعالى استعارة لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب والمراد به اتيان

بأسه تعالى فى الوقتين المذكورين ولذلك عطف الاول والثالث بالفاء فى الانكار فيهما متوجه الى ترتب الأمن على الأخذ المذكور وأما الثانى فمن تتمة الأول ﴿فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون﴾ أى الذين خسروا أنفسهم وأضاعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها والاستعداد القريب المستفاد من النظر فى الآيات ﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ أى يخلفون من خلا قبلهم من الأمم المهلكة و يرثون ديارهم والمراد بهم أهل مكة ومن حولها وتعدية فعل الهداية باللام اما لتنزيلها منزلة اللازم كأنه قيل أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم الخ واما لانها بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل على التقديرين هو الجملة الشرطية أى أولم يبين لهم مآل أمرهم ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ أى أن الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم أو بسبب ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وقرئ نهد بنون العظمة فالجملة مفعوله ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ عطف على مايفهم من قوله تعالى أولم يهد كأنه قيل لا يهتدون أو يغفلون عن الهداية أو عن التفكر والتأمل أو منقطع عنه بمعنى ونحن نطبع و لا يجوز عطفه على أصبناهم على أنه بمعنى طبعنا لافضائه الى نفى الطبع عنهم لأنه فى سياق جواب لو ﴿فهم لا يسمعون﴾ أى أخبار الأمم المهلكة فضلا عن التدبر والنظر فيها والاعتنام بما فى تضاعيفها من الهداية ﴿تلك القرى﴾ جملة مستأنفة جارية مجرى الفذلكة لما قبلها من القصص منبئة عن غاية غواية الأمم المذكورة وتماديهم فيها بعد ما أتتهم الرسل بالمعجزات الباهرة وتلك اشارة الى قرى الأمم المهلكة على أن اللام للعهد وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿نقص عليك من أنبائها﴾ خبره وصيغة المضارع للايذان بعدم انقضاء القصة بعد ومن للتبعيض أى بعض أخبارها التى فيها عظة وتذكير وقيل تلك مبتدأ والقرى خبره وما بعده حال أو خبر بعد خبر عند من يجوز كون الخبر الثانى جملة كما فى قوله تعالى فاذا هى حية تسعى وتصدير الكلام بذكر القرى واضافة الانباء اليها مع أن المقصوص أنباء أهلها والمقصود بيان أحوالهم حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ لما أن حكاية هلاكهم بالمرة على وجه الاستئصال بحيث يشمل أماكنهم أيضا بالخسف بها والرجفة و بقائها خاوية معطلة أهول وأفظع والباء فى قوله تعالى بالبينات متعلقة اما بالفعل المذكور على أنها للتعدية واما بمحذوف وقع حالا من فاعله أى ملتبسين بالبينات لكن لا بأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد الى الآحاد انما هى فيما بين الرسل وضمير الأمم والجملة مستأنفة مبينة لكمال عتوهم وعنادهم أى و بالله لقد جاء كل أمة من تلك الأمم المهلكة رسولهم الخاص بهم بالمعجزات البينة المتكثرة المتواردة عليهم الواضحة الدلالة على صحة رسالته الموجبة للايمان حتما وقوله تعالى ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ بيان لاستمرار عدم ايمانهم فى الزمان الماضى لا لعدم استمرار ايمانهم وترتيب حالتهم هذه على مجئ الرسل بالبينات بالفاء لما أن الاستمرار على فعل من الأفعال بعد و رود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه فى الحقيقة لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث نحو وعظته فلم ينزجر ودعوته فلم يجب واللام لتأكيد النفى أى فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوام فى وقت من الأوقات أن يؤمنوا بكل كان ذلك ممتنعا منهم الى أن لقوا ما لقوا لغاية عتوهم وشدة شكيمتهم فى الكفر والطغيان ثم ان كان المحكى عنهم آخر حال كل قوم منهم فالمراد بعدم ايمانهم المذكور ههنا اصرارهم على ذلك بعد التيا والتى و بما أشير اليه بقوله تعالى ﴿بما كذبوا من قبل﴾ تكذيبهم من لدن مجئ الرسل الى وقت الاصرار والعناد وانما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالأول بل جعل صلة للموصول ايذانا بأنه بين بنفسه وانما المحتاج الى البيان عدم ايمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من أصحاب العقول والموصول الذى تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وايجابا عبارة عن جميع الشرائع التى جاءبها كل رسول أصولها وفروعها

وان كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجىء الرسل الخ وبما أشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من جعل الموصول المذكور عبارة عن أصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم اليها آثر ذى أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجىء رسلهم أنهم ما كانوا فى زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا كلمة التوحيد قط بل كانت كل أمة من أولئك الأمم يتسامعون بها من بقايا من قبلهم فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجىء رسلهم كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الأصول لظهور حال الباقى بدلالة النص فانهم حين لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أن ما عليه يدور فلك العذاب والعقاب هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وانما ذكر ماوقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى كلا التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع الى أسلافهم والمعنى فما كان الابناء ليؤمنوا بما كذب به الآباء ولا يخفى ما فيه من التعسف وقيل المراد ما كانوا ليؤمنوا لو أحييناهم بعد اهلاكهم ورددناهم الى دار التكليف بما كذبوا من قبل كقوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقيل الباء للسببية وما مصدرية أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يرد عليه ههنا ما ورد فى سورة يونس من مخالفة الجمهور بجعل ما المصدرية من قبيل الأسماء كما هو رأى الأخفش وابن السراج ليرجع اليه الضمير فى به ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الطبع الشديد المحكم ﴿يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ أى من المذكورين وغيرهم فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر وفيه تحذير للسامعين واظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وادخال الروعة ﴿وما وجدنا لأكثرهم﴾ أى أكثر الأمم المذكورين واللام متعلقة بالوجدان كما فى قولك ما وجدت له مالا أى ما صادفت له مالا ولا لقيته أو بمحذوف وقع حالا من قوله تعالى ﴿من عهد﴾ لأنه فى الأصل صفة للنكرة فلما قدمت عليها انتصبت حالا والأصل ما وجدنا عهداً كائنا لأكثرهم ومن مزيدة للاستغراق أى وما وجدنا لأكثرهم من وفاء عهد فانهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه عند مساس البأساء والضراء قائلين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فتخصيص هذا الشأن بأكثرهم ليس لأن بعضهم كانوا يوفون بعهودهم بل لأن بعضهم كانوا لا يعهدون ولا يوفون وقيل المراد بالعهد ما عهد الله تعالى اليهم من الايمان والتقوى بنصب الآيات وانزال الحجج وقيل ما عهدوا عند خطاب ألست بربكم فالمراد بأكثرهم كلهم وقيل الضمير للناس والجملة اعتراض فان أكثرهم لا يوفون بالعهود بأى معنى كان ﴿وان وجدنا أكثرهم﴾ أى أكثر الأمم أى علمناهم كما فى قولك وجدت زيدا ذا حفاظ وقيل الأول أيضا كذلك وان مخففة من ان وضمير الشأن محذوف أى انه الشأن وجدناهم ﴿لفاسقين﴾ خارجين عن الطاعة ناقضين للعهود وعند الكوفيين أن ان نافية واللام بمعنى الا أى ما وجدناهم الا فاسقين ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى﴾ أى أرسلناه من بعد انقضاء وقائع الرسل المذكورين أو من بعد هلاك الامم المحكية والتصريح بذلك مع دلالة ثم على التراخى للايذان بأن بعثه عليه الصلاة والسلام جرى على سنن السنة الالهية من ارسال الرسل تترى وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ﴿بآياتنا﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعول بعثنا أو صفة لمصدره أى بعثناه عليه الصلاة والسلام ملتبسا بآياتنا أو بعثناه بعثا ملتبسا بها وهى الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم حسبما سيأتى على التفصيل ﴿الى فرعون﴾ هو لقب لكل من ملك مصر من العمالقة

كما أن كسرى لقب لكل من ملك فارس وقيصر لكل من ملك الروم واسمه قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن الريان ﴿وملئه﴾ أى أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر مع عموم رسالته عليه الصلاة والسلام لقومه كافة حيث كانوا جميعا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية لاصالتهم فى تدبير الامور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور ﴿فظلموا بها﴾ أى كفروا بها أجرى الظلم مجرى الكفر لكونهما من واد واحد أو ضمن معنى الكفر أو التكذيب أى ظلموا كافرين بها أو مكذبين بها أو كفروا بها مكان الايمان الذى هو من حقها لوضوحها ولهذا المعنى وضع ظلموا موضع كفروا وقيل ظلموا أنفسهم بسببها بأن عرضوها للعذاب الخالد أو ظلموا الناس بصدهم عن الايمان بها والمراد به الاستمرار على الكفر بها الى أن لقوا من العذاب ما لقوا ألا يرى الى قوله تعالى ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ فكما أن ظلمهم بها مستتبع لتلك العاقبة الهائلة كذلك حكاية ظلمهم بها مستتبع للامر بالنظر اليها وكيف خبر كان قدم على اسمها لاقتضائه الصدارة والجملة فى حيز النصب باسقاط الخافض أى فانظر بعين عقلك الى كيفية ما فعلنا بهم ووضع المفسدين موضع ضميرهم للايذان بأن الظلم مستلزم للافساد ﴿وقال موسى﴾ كلام مبتدأ مسوق لتفصيل ما أجمل فيما قبله من كيفية اظهار الآيات وكيفية عاقبة المفسدين ﴿يافرعون انى رسول﴾ أى اليك ﴿من رب العالمين﴾ على الوجه الذى مر بيانه ﴿حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق﴾ جواب عما ينساق اليه الذهن من حكاية ظلمهم بالآيات من تكذيبه اياه عليه الصلاة والسلام فى دعوى الرسالة وكان أصله حقيق على أن لا أقول الخ كما هو قراءة نافع فقلب للامن من الالباس كما فى قول من قال وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر أو لأن ما لزمك فقد لزمته أو للاغراق فى الوصف بالصدق والمعنى واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله لا يرضى الا بمثلى ناطقا به أو ضمن حقيق معنى حريص أو وضع على موضع الباء لافادة التمكن كقولهم رميت على القوس وجئت على حال حسنة ويؤيده قراءة أبى بالباء وقرىء حقيق أن لا أقول وقوله تعالى ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ استئناف مقرر لما قبله من كونه رسولا من رب العالمين وكونه حقيقا بقول الحق ولم يكن هذا القول منه عليه الصلاة والسلام وما بعده من جواب فرعون اثر ما ذكر ههنا بل بعد ما جرى بينهما من المحاورة المحكية بقوله تعالى قال فمن ربكما الآيات وقوله تعالى وما رب العالمين الآيات وقد طوى ههنا ذكره للايجاز ومن متعلقة اما بجئتكم على أنها لابتداء الغاية مجازا واما بمحذوف وقع صفة لبينة مفيدة لفخامتها الاضافية المؤكدة لفخامتها الذاتية المستفادة من التنوين التفخيمى واضافة اسم الرب الى المخاطبين بعد اضافته فيما قبله الى العالمين لتأكيد وجوب الايمان بها ﴿فأرسل معى بنى اسرائيل﴾ أى فخلهم حتى يذهبوا معى الى الارض المقدسة التى هى وطن آبائهم وكان قد استعبدهم بعد انقراض الاسباط يستعملهم ويكلفهم الافاعيل الشاقة فأنقذهم الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام وكان بين اليوم الذى دخل يوسف مصر واليوم الذى دخله موسى عليهما السلام أربعمائة عام والفاء لترتيب الارسال أو الامر به على ما قبله من رسالته عليه السلام ومجيئه بالبينة ﴿قال﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الكلام كأنه قيل فماذا قال فرعون له عليه السلام حين قال له ما قال فقيل قال ﴿ان كنت جئت بآية﴾ أى من عند من أرسلك كما تدعيه ﴿فأت بها﴾ أى فأحضرها حتى تثبت بها رسالتك ﴿ان كنت من الصادقين﴾ فى دعواك فان كونك من جملة المعروفين بالصدق يقتضى اظهار الآية لامحالة ﴿فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين﴾ أى ظاهر أمره لا يشك فى كونه ثعبانا وهو الحية العظيمة وايثار الجملة الاسمية للدلالة على كمال سرعة الانقلاب وثبات وصف الثعبانية فيها كأنها فى الأصل كذلك . روى أنه لما ألقاها صارت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجه نحو

فرعون فهرب منه وأحدث فانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بنى اسرائيل فأخذه فعاد عصا ﴿ونزع يده﴾ أى من جيبه أو من تحت ابطه ﴿فاذا هى بيضاء للناظرين﴾ أى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادة يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمرها وذلك مايروى أنه أرى فرعون يده وقال ماهذه فقال يدك ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فاذا هى بيضاء بياضا نورانيا غلب شعاعه شعاع الشمس وكان عليه السلام آدم شديد الادمة وقيل بيضاء للناظرين لأنها كانت بيضاء فى جبلتها ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ أى الاشراف منهم وهم أصحاب مشورته ﴿ان هذا لساحر عليم﴾ أى مبالغ فى علم السحر ماهر فيه قالوه تصديقا لفرعون وتقريرا لكلامه فان هذا القول بعينه معزى فى سورة الشعراء اليه ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ أى من أرض مصر ﴿فماذا تأمرون﴾ بفتح النون ومافى ماذا فى محل النصب على أنه مفعول ثان لتأمرون بحذف الجار والأول محذوف والتقدير بأى شئ تأمرونني وهذا من كلام فرعون كما فى قوله تعالى ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب أى فاذا كان كذلك فماذا تشيرون على فى أمره وقيل قاله الملأ من قبله بطريق التبليغ الى العامة فقوله تعالى ﴿قالوا أرجه وأخاه﴾ على الأول وهو الأظهر حكاية لكلام الملأ الذين شاورهم فرعون وعلى الثانى لكلام العامة الذين خاطبهم الملأ ويأباه أن الخطاب لفرعون وأن المشاورة ليست من وظائفهم أى أخره وأخاه وعدم التعرض لذكر ظهور كونه معه حسبما ينادى به الآيات الأخر والمعنى أخر أمرهما وأصدرهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبر شأنهما وقرئ أرجئه وأرجه من أرجأه وأرجاه ﴿وأرسل فى المدائن حاشرين﴾ قيل هى مدائن صعيد مصر وكان رؤساء السحرة ومهرتهم بأقصى مدائن الصعيد وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم كانوا سبعين ساحرا أخذوا السحر من رجلين مجوسيين من أهل نينوى مدينة يونس عليه السلام بالموصل ورد ذلك بأن المجوسية ظهرت بزرادشت وهو انما جاء بعد موسى عليه الصلاة والسلام ﴿يأتوك بكل ساحر عليم﴾ أى ماهر فى السحر وقرئ بكل سحار عليم والجملة جواب الأمر ﴿وجاء السحرة فرعون﴾ بعد ماأرسل اليهم الحاشرين وانما لم يصرح به حسبما فى قوله تعالى فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين للايذان بمسارعة فرعون الى الارسال ومبادرة الحاشرين والسحرة الى الامتثال ﴿قالوا﴾ استئناف منوط بسؤال نشأ من حكاية مجئ السحرة كأنه قيل فماذا قالوا له عند مجيئهم اياه فقيل قالوا مدلين بما عندهم واثقين بغلبتهم ﴿ان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين﴾ بطريق الاخبار بثبوت الأجر وايجابه كأنهم قالوا لابدلنا من أجر عظيم حينئذ أو بطريق الاستفهام التقريرى بحذف الهمزة وقرئ باثباتها وقولهم ان كنا لمجرد تعيين مناط ثبوت الأجر لا لترددهم فى الغلبة وتوسيط الضمير وتحلية الخبر باللام للقصر أى ان كنا نحن الغالبين لاموسى ﴿قال نعم﴾ وقوله تعالى ﴿وانكم لمن المقربين﴾ عطف على محذوف سد مسده حرف الايجاب كأنه قال ان لكم لأجرا وانكم مع ذلك لمن المقربين للمبالغة فى الترغيب . روى أنه قال لهم تكونون أول من يدخل مجلسى وآخر من يخرج منه ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر كأنه قيل فماذا فعلوا بعد ذلك فقيل قالوا متصدين لشأنهم مخاطبين لموسى عليه السلام ﴿ياموسى اما أن تلقى﴾ ماتلقى أولا ﴿واما أن نكون نحن الملقين﴾ أى لما نلقى أولا أو الفاعلين للالقاء أولا خيروه عليه السلام بالبدء بالالقاء مراعاة للادب واظهارا للجلادة وأنه لايختلف حالهم بالتقديم والتأخير ولكن كانت رغبتهم فى التقديم كما ينبئ عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل وتأكيد الضمير المتصل ﴿قال ألقوا﴾ غير مبال بأمرهم أى ألقوا ماتلقون ﴿فلما ألقوا﴾ ما ألقوا ﴿سحروا أعين الناس﴾ بأن خيلوا اليهم مالاحقيقة له ﴿واسترهبوهم﴾ أى بالغوا فى ارهابهم ﴿وجاءوا

بسحر عظيم﴾ فى بابه. روى أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا كأنها حيات ملأت الوادى وركب بعضها بعضا ﴿وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف مايأفكون﴾ الفاء فصيحة أى فألقاها فصارت حية فاذا هى الآية وانما حذف للاشعار بمسارعة موسى عليه السلام الى الالقاء وبغاية سرعة الانقلاب كأن لقفها لما يأفكون قد حصل متصلا بالأمر بالالقاء وصيغة المضارع لاستحضار صورة اللقف الهائلة والافك الصرف والقلب عن الوجه المعتاد وماموصولة أو موصوفة والعائد محذوف أى مايأفكونه ويزورونه أو مصدرية وهى مع الفعل بمعنى المفعول روى أنها لما تلقفت ملء الوادى من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصا كما كانت وأعدم الله تعالى بقدرته الباهرة تلك الاجرام العظام أو فرقها أجزاء لطيفة قالت السحرة لوكان هذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا ﴿فوقع الحق﴾ أى فثبت لظهور أمره ﴿وبطل ماكانوا يعملون﴾ أى ظهر بطلان ماكانوا مستمرين على عمله ﴿فغلبوا﴾ أى فرعون وقومه ﴿هنالك﴾ أى فى مجلسهم ﴿وانقلبوا صاغرين﴾ أى صاروا أذلاء مبهوتين أو رجعوا الى المدينة أذلاء مقهورين والأول هو الظاهر لقوله تعالى ﴿وألقى السحرة ساجدين﴾ فان ذلك كان بمحضر من فرعون قطعا أى خروا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم كيف لا وقد بهرهم الحق واضطرهم الى ذلك ﴿قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون﴾ أبدلوا الثانى من الأول لئلا يتوهم أن مرادهم فرعون. عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما آمنت السحرة اتبع موسى من بنى اسرائيل ستمائة ألف ﴿قال فرعون﴾ منكرا على السحرة موبخا لهم على مافعلوه ﴿آمنتم به﴾ بهمزة واحدة اما على الاخبار المحض المتضمن للتوبيخ أو على الاستفهام التوبيخى بحذف الهمزة كما مر فى ان لنا لأجرا وقد قرئ بتحقيق الهمزتين معا وبتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين أى آمنتم بالله تعالى ﴿قبل أن آذن لكم﴾ أى بغير أن آذن لكم كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لا أن الاذن منه ممكن فى ذلك ﴿ان هذا لمكر مكرتموه﴾ يعنى ان ما صنعتموه ليس مما اقتضى الحال صدوره عنكم لقوة الدليل وظهور المعجزة بل هو حيلة احتلتموها مع مواطأة موسى ﴿فى المدينة﴾ يعنى مصر قبل أن تخرجوا الى الميعاد. روى أن موسى عليه الصلاة والسلام وأمير السحرة التقيا فقال له موسى أرأيتك ان غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ماجئت به الحق فقال الساحر والله لئن غلبتنى لأومنن بك وفرعون يسمعهما وهو الذى نشأ عنه هذا القول ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ أى القبط وتخلص هى لك ولبنى اسرائيل وهاتان شبهتان ألقاهما الى أسماع عوام القبط عند معاينتهم لارتفاع أعلام المعجزة ومشاهدتهم لخضوع أعناق السحرة لها وعدم تمالكهم من أن يؤمنوا بها لئلا يمنعهم بهما عن الايمان بنبوة موسى عليه الصلاة والسلام باراءة أن ايمان السحرة مبنى على المواضعة بينهم وبين موسى وأن غرضهم بذلك اخراج القوم من المدينة وابطال ملكهم ومعلوم أن مفارقة الأوطان المألوفة والنعمة المعروفة مما لا يطاق به فجمع اللعين بين الشبهتين تثبيتا للقبط على ماهم عليه وتهييجا لعداوتهم له عليه الصلاة والسلام ثم عقبهما بالوعيد ليريهم أن له قوة وقدرة على المدافعة فقال ﴿فسوف تعلمون﴾ أى عاقبة مافعلتم وهذا وعيد ساقه بطريق الاجمال للتهويل ثم عقبه بالتفصيل فقال ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أى من كل شق طرفا ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ تفضيحا لكم وتنكيلا لامثالكم. قيل هو أول من سن ذلك فشرعه الله تعالى لقطاع الطريق تعظيما لجرمهم ولذلك سماه الله تعالى محاربة لله ورسوله ﴿قالوا﴾ استئناف مسوق للجواب عن سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال السحرة عند ماسمعوا وعيد فرعون هل تأثروا به أو تصلبوا فيما هم فيه من الدين فقيل قالوا ثابتين على ماأحدثوا من الايمان ﴿انا الى ربنا منقلبون﴾ أى بالموت لامحالة فسواء كان ذلك من قبلك أولا فلانبالى بوعيدك أوانا الى رحمة ربنا وثوابه منقلبون ان فعلت بنا ذلك كأنهم استطابوه شغفا على لقاء الله

تعالى أوانا جميعا الى ربنا منقلبون فيحكم بيننا وبينك ﴿وماتنقم منا﴾ أى وماتنكر وتعيب منا ﴿الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ وهو خير الأعمال وأصل المفاخر ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلبا لمرضاتك ثم أعرضوا عن مخاطبته اظهارا لما فى قلوبهم من العزيمة على ماقالوا وتقريرا له ففزعوا الى الله عز وجل وقالوا ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا﴾ أى أفض علينا من الصبر مايغمرنا كما يغمر الماء أوصب علينا مايطهرنا من أوضار الأوزار وأدناس الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون ﴿وتوفنا مسلمين﴾ ثابتين على مارزقتنا من الاسلام غير مفتونين من الوعيد قيل فعل بهم ماأوعدهم به وقيل لم يقدر عليه لقوله تعالى أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴿وقال الملأ من قوم فرعون﴾ مخاطبين له بعد ماشاهدوا من أمر موسى عليه السلام ﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض﴾ أى فى أرض مصر بتغيير الناس عليك وصرفهم عن متابعتك ﴿ويذرك﴾ عطف على يفسدوا أو جواب الاستفهام بالواو كما فى قول الحطيئة

ألم أك جاركم ويكون بينى ... وبينكم المودة والاخاء

أى أيكون منك ترك موسى ويكون تركه اياك وقرئ بالرفع عطفا على أتذر أو استئنافا أو حالا وقرئ بالسكون كأنه قيل يفسدوا ويذرك كقوله تعالى فأصدق وأكن ﴿وآلهتك﴾ ومعبوداتك قيل انه كان يعبد الكواكب وقيل صنع لقومه أصناما وأمرهم بأن يعبدوها تقربا اليه ولذلك قال أنا ربكم الأعلى وقرئ والهتك أى عبادتك ﴿قال﴾ مجيبا لهم ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم﴾ كما كنا نفعل بهم ذلك من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولايتوهم أنه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه وقرئ سنقتل بالتخفيف ﴿وانا فوقهم قاهرون﴾ كما كنا لم يتغير حالنا أصلا وهم مقهورون تحت أيدينا كذلك ﴿قال موسى لقومه﴾ تسلية لهم وعدة بحسن العاقبة حين سمعوا قول فرعون وتضجروا منه ﴿استعينوا بالله واصبروا﴾ على ماسمعتم من أقاويله الباطلة ﴿ان الأرض لله﴾ أى أرض مصر أو جنس الأرض وهى داخلة فيها دخولا أوليا ﴿يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ الذين أنتم منهم وفيه ايذان بأن الاستعانة بالله تعالى والصبر من باب التقوى وقرئ والعاقبة بالنصب عطفا على اسم ان ﴿قالوا﴾ أى بنو اسرائيل ﴿أوذينا﴾ أى من جهة فرعون ﴿من قبل أن تأتينا﴾ أى بالرسالة يعنون بذلك قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه الصلاة والسلام وبعده ﴿ومن بعد ماجئتنا﴾ أى رسولا يعنون به ماتوعدهم به من اعادة قتل الأبناء وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام من فنون الجور والظلم والعذاب وأما ما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن كما قيل فليس مما يلحقهم بواسطته عليه السلام فليس لذكره كثير ملابسة بالمقام ﴿قال﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام لما رأى شدة جزعهم مما شاهدوه مسليا لهم بالتصريح بما لوح به فى قوله ان الأرض لله الخ ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ الذى فعل بكم مافعل وتوعدكم باعادته ﴿ويستخلفكم فى الأرض﴾ أى يجعلكم خلفاء فى أرض مصر ﴿فينظر كيف تعملون﴾ أحسنا أم قبيحا فيجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال وفيه تأكيد للتسلية وتحقيق للأمر قيل لعل الاتيان بفعل الطمع لعدم الجزم منه عليه السلام بأنهم هم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم فقد روى أن مصر انما فتحت فى زمن داود عليه السلام ولا يساعده قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها فان المتبادر استخلاف أنفس المستضعفين لا استخلاف أولادهم وانما مجئ فعل الطمع للجرى على سنن الكبرياء ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ شروع فى تفصيل مبادى الهلاك الموعود وايذان بأنه تعالى لم يمهلهم بعد ذلك ولم يكونوا فى خفض ودعة بل رتبت أسباب هلاكهم فتحولوا من حال الى حال الى أن حل بهم عذاب الاستئصال وتصدير الجملة بالقسم

لاظهار الاعتناء بمضمونها والسنون جمع سنة والمراد بها عام القحط وفيها لغتان أشهرهما اجراؤها مجرى المذكر السالم فيرفع بالواو وينصب ويجر بالياء ويحذف نونه بالاضافة واللغة الثانية اجراء الاعراب على النون ولكن مع الياء خاصة اما باثبات تنوينها أو بحذفه قال الفراء هى فى هذه اللغة مصروفة عند بنى عامر وغير مصروفة عند بنى تميم ووجه حذف التنوين التخفيف وحينئذ لايحذف النون للاضافة وعلى ذلك جاء قول الشاعر

دعانى من نجد فان سنينه ... لعبن بنا شيبا وشيبننا مردا

وجاء الحديث اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف وسنين كسنين يوسف باللغتين ﴿ونقص من الثمرات﴾ باصابة العاهات عن كعب يأتى على الناس زمان لاتحمل النخلة الا تمرة. قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أما السنون فكانت لباديتهم وأهل ماشيتهم وأما نقص الثمرات فكان فى أمصارهم ﴿لعلهم يذكرون﴾ كى يتذكروا ويتعظوا بذلك ويقفوا على أن ذلك لأجل معاصيهم وينزجروا عما هم عليه من العتو والعناد. قال الزجاج ان أحوال الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل وفى الرجوع اليه تعالى ألا يرى الى قوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض وقدم تحقيق القول فى لعل وفى محلها فى تفسير قوله تعالى لعلكم تتقون فى أوائل سورة البقرة وقوله تعالى ﴿فاذا جاءتهم الحسنة﴾ الخ بيان لعدم تذكرهم وتماديهم فى الغى أى فاذا جاءتهم السعة والخصب وغيرهما من الخيرات ﴿قالوا لنا هذه﴾ أى لاجلنا واستحقاقنا لها ﴿وان تصبهم سيئة﴾ أى جدب وبلاء ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أى يتشاءموا بهم ويقولوا ماأصابتنا الا بشؤمهم وهذا كما ترى شاهد بكمال قساوة قلوبهم ونهاية جهلهم وغباوتهم فان الشدائد ترقق القلوب وتلين العرائك لاسيما بعد مشاهدة الآيات وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شئ منها بل ازدادوا عتوا وعنادا وتعريف الحسنة وذكرها بأداة التحقيق للايذان بكثرة وقوعها وتعلق الارادة بها بالذات كما أن تنكير السيئة وايرادها بحرف الشك للاشعار بندرة وقوعها وعدم تعلق الارادة بها الا بالعرض وقوله تعالى ﴿ألا انما طائرهم عند الله﴾ استئناف مسوق من قبله تعالى لرد مقالتهم الباطلة وتحقيق الحق فى ذلك وتصديره بكلمة التنبيه لابراز كمال العناية بمضمونه أى ليس سبب خيرهم الا عنده تعالى وهو حكمه ومشيئته المتضمنة للحكم والمصالح أو ليس سبب شؤمهم وهو أعمالهم السيئة الا عنده تعالى أى مكتوبة لديه فانها التى ساقت اليهم مايسوؤهم لاما عداها وقرئ انما طيرهم وهو اسم جمع طائر وقيل جمع له ﴿ولكن أكثرهم لايعلمون﴾ ذلك فيقولون مايقولون مما حكى عنهم واسناد عدم العلم الى أكثرهم للاشعار بأن بعضهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشر من جهة الله تعالى أو يعلمون أن ما أصابهم من المصائب والبلايا ليس الا بما كسبت أيديهم ولكن لايعملون بمقتضاه عنادا واستكبارا ﴿وقالوا﴾ شروع فى بيان بعض آخر مما أخذ به آل فرعون من فنون العذاب التى هى فى أنفسها آيات بينات وعدم ارعوائهم مع ذلك عما كانوا عليه من الكفر والعناد أى قالوا بعد مارأوا مارأوا من شأن العصا والسنين ونقص الثمرات ﴿مهما تأتنا به﴾ كلمة مهما تستعمل للشرط والجزاء وأصلها ما الجزائية ضمت اليها ما المزيدة للتأكيد كما ضمت الى أين وان فى أينما تكونوا واما نذهبن بك خلا أن ألف الاولى قلبت هاء حذرا من تكرير المتجانسين هذا هو الرأى السديد وقيل مه كلمة يصوت بها الناهى ضمت اليها ما الشرطية ومحلها الرفع بالابتداء أو النصب بفعل يفسره مابعدها أى أى شئ تظهره لدينا وقوله تعالى ﴿من آية﴾ بيان لمهما وتسميتهم اياها آية لمجاراتهم على رأى موسى عليه السلام واستهزائهم بها وللاشعار بأن عنوان كونها آية لا يؤثر فيهم وقوله تعالى ﴿لتسحرنا بها﴾ اظهار لكمال الطغيان والغلو فيه وتسمية للارشاد الى الحق بالسحر وتسكير الابصار والضميران المجروران راجعان الى مهما وتذكير الاول لمراعاة جانب اللفظ لابهامه وتأنيث الثانى للمحافظة على جانب المعنى لتبينه بآية كما فى قوله تعالى مايفتح الله

للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له ﴿فنحن لك بمؤمنين﴾ بمصدقين لك ومؤمنين لنبوتك ﴿فأرسلنا عليهم﴾ عقوبة لجرائمهم لاسيما لقولهم هذا ﴿الطوفان﴾ أى الماء الذى طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر أوسيل وقيل هو الجدرى وقيل الموتان وقيل الطاعون ﴿والجراد والقمل﴾ قيل هو كبار القردان وقيل أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها ﴿والضفادع والدم﴾ روى أنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يستطيع أن يخرج أحد من بيته ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه الى تراقيهم ولم يدخل بيوت بنى اسرائيل منه قطرة وهى فى خلال بيوتهم وفاض الماء على أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والتصرف ودام ذلك سبعة أيام فقالوا له عليه الصلاة والسلام ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك فدعا فكشف عنهم فنبت من العشب والكلأ مالم يعهد قبله ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم الجراد فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم ففزعوا اليه عليه الصلاة والسلام لما ذكر فخرج الى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الى النواحى التى جاءت منها فلم يؤمنوا فسلط الله تعالى عليهم القمل فأكل ما أبقته الجراد وكان يقع فى أطعمتهم ويدخل بين ثيابهم وجلودهم فيمصها ففزعوا اليه ثالثا فرفع عنهم فقالوا قد تحققنا الآن أنك ساحر ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام الا وجدت فيه وكانت تمتلئ منها مضاجعهم وتثب الى قدورهم وهى تغلى والى أفواههم عند التكلم ففزعوا اليه رابعا وتضرعوا فأخذ عليهم العهود فدعا فكشف الله عنهم فنقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماء حتى كان يجتمع القبطى والاسرائيلى على اناء فيكون مايليه دما وما يلى الاسرائيلى ماء على حاله ويمص من فم الاسرائيلى فيصير دما فى فيه وقيل سلط الله عليهم الرعاف ﴿آيات﴾ حال من المنصوبات المذكورة ﴿مفصلات﴾ مبينات لا يشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته وقيل مفرقات بعضها من بعض لامتحان أحوالهم وكان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة منها أسبوعا وقيل انه عليه السلام لبث فيهم بعد ماغلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل ﴿فاستكبروا﴾ أى عن الايمان بها ﴿وكانوا قوما مجرمين﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ماقبلها ﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أى العذاب المذكور على التفصيل فاللام للجنس المنتظم لكل واحدة من الآيات المفصلة أى كلما وقع عليهم عقوبة من تلك العقوبات قالوا فى كل مرة ﴿ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أى بعهده عندك وهو النبوة أو بالذى عهد اليك أن تدعوه فيجيبك كما أجابك فى آياتك وهو صلة لادع أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلا اليه بما عهد عندك أو متعلق بمحذوف دل عليه التماسهم مثل أسعفنا الى ما نطلب بحق ماعندك أو قسم أجيب بقوله تعالى ﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾ الذى وقع علينا ﴿لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل﴾ أى أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت الخ ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه﴾ أى الى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون بعده أو مهلكون ﴿اذا هم ينكثون﴾ جواب لما أى فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث من غير تأمل وتوقف ﴿فانتقمنا منهم﴾ أى فأردنا أن ننتقم منهم لما أسلفوا من المعاصى والجرائم فان قوله تعالى ﴿فأغرقناهم﴾ عين الانتقام منهم فلا يصح دخول الفاء بينهما ويجوز أن يكون المراد مطلق الانتقام منهم والفاء تفسيرية كما فى قوله تعالى ونادى نوح ربه فقال رب الخ ﴿فى اليم﴾ فى البحر الذى لا يدرك قعره وقيل فى لجته ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ تعليل للاغراق أى كان اغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى واعراضهم عنها وعدم تفكرهم فيها بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية والفاء وان دلت على ترتب الاغراق على ماقبله من النكث لكنه صرح بالتعليل ايذانا بأن مدار جميع ذلك تكذيب آيات الله تعالى والاعراض عنها ليكون ذلك مزجرة للسامعين عن تكذيب الآيات الظاهرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاعراض عنها

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ أى بالاستعباد وذبح الابناء والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده وهم بنو اسرائيل ذكروا بهذا العنوان اظهارا لكمال لطفه تعالى بهم وعظيم احسانه اليهم فى رفعهم من حضيض المذلة الى أوج العزة ﴿مشارق الارض ومغاربها﴾ أى جانبيها الشرقى والغربى حيث ملكها بنو اسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتصرفوا فى أكنافها الشرقية والغربية كيف شاؤا وقوله تعالى ﴿التى باركنا فيها﴾ أى بالخصب وسعة الارزاق صفة للمشارق والمغارب وقيل للارض وفيه ضعف للفصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف كما فى قولك قام أم هند وأبوها العاقلة ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى﴾ وهى وعده تعالى ايامهم بالنصر والتمكين كما ينبئ عنه قوله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين وقرئ كلمات لتعدد المواعيد ومعنى تمت مضت واستمرت ﴿على بنى اسرائيل بما صبروا﴾ أى بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من جهة فرعون وقومه ﴿ودمرنا﴾ أى خربنا وأهلكنا ﴿ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ من العمارات والقصور أى ودمرنا الذى كان فرعون يصنعه على أن فرعون اسم كان ويصنع خبر مقدم والجملة الكونية صلة ما والعائد محذوف وقيل اسم كان ضمير عائد الى ما الموصولة ويصنع مسند الى فرعون والجملة خبر كان والعائد محذوف أيضا والتقدير ودمرنا الذى كان هو يصنعه فرعون الخ وقيل كان زائدة وما مصدرية والتقدير مايصنع فرعون الخ وقيل كان زائدة كما ذكر وما موصولة اسمية والعائد محذوف تقديره ودمرنا الذى يصنعه فرعون الخ أى صنعه والعدول الى صيغة المضارع على هذين القولين لاستحضار الصورة ﴿وما كانوا يعرشون﴾ من الجنات أو ماكانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان وقرئ يعرشون بضم الراء والكسر أفصح وهذا آخر قصة فرعون وقومه وقوله عزوجل ﴿وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر﴾ شروع فى قصة بنى اسرائيل وشرح ما أحدثوه من الامور الشنيعة بعد أن أنقذهم الله عز وجل من ملكة فرعون ومن عليهم من النعم العظام الموجبة للشكر وأراهم من الآيات الكبار ماتخر له شم الجبال تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وايقاظا للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم وجاوز بمعنى جاز وقرئ جوزنا بالتشديد وهو أيضا بمعنى جاز فعدى بالباء أى قطعنا بهم البحر. روى أنه عبر بهم موسى عليه السلام يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون فصاموه شكرا لله عز وجل ﴿فأتوا﴾ أى مروا ﴿على قوم﴾ قيل كانوا من لخم وقيل من العالقة الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ أى يواظبون على عبادتها ويلازمونها وقرئ بكسر الكاف قال ابن جريج كانت أصنامهم تماثيل بقر وهو أول شأن العجل ﴿قالوا﴾ عند ماشاهدوا أحوالهم ﴿ياموسى اجعل لنا الها﴾ مثالا نعبده ﴿كما لهم آلهة﴾ الكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لالها وما موصولة ولهم صلتها وآلهة بدل من ما والتقدير اجعل لنا الها كائنا كالذى استقر هو لهم ﴿قال انكم قوم تجهلون﴾ تعجب عليه السلام من قولهم هذا اثر ما شاهدوا من الآية الكبرى والمعجزة العظمى فوصفهم بالجهل المطلق اذ لا جهل أعظم مما ظهر منهم وأكده بقوله ﴿انهؤلاء﴾ يعنى القوم الذين يعبدون تلك التماثيل ﴿متبر﴾ أى مدمر مكسر ﴿ما هم فيه﴾ أى من الدين الباطل أى يتبر الله تعالى ويهدم دينهم الذى هم عليه عن قريب ويحطم أصنامهم ويتركها رضاضا وانما جئ بالجملة الاسمية للدلالة على التحقق ﴿وباطل﴾ أى مضمحل بالكلية ﴿ما كانوا يعملون﴾ من عبادتها وان كان قصدهم بذلك التقرب الى الله تعالى فانه كفر محض وليس هذا كما فى قوله تعالى وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا كما توهم فان المراد به أعمال البر التى عملوها فى الجاهلية فانها فى أنفسها حسنات لو قارنت الايمان لاستتبعت أجورها وانما بطلت لمقارنتها الكفر وفى

ايقاع هؤلاء اسما لان وتقديم الخبر من الجملة الواقعة خبرا لها وسم لعبدة الأصنام بانهم هم المعرضون للتبار وأنه لا يعدوهم البتة وأنه لهم ضربة لازب ليحذرهم عاقبة ماطلبوا و يبغض اليهم ما أحبوا ﴿قال أغير الله أبغيكم الها﴾ شروع فى بيان شئون الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى بعد بيان أن ماطلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلا لكونه هالكا باطلا ولذلك وسط بينهما قال مع كون كل منهما كلام موسى عليه الصلاة والسلام والاستفهام للانكار والتعجب والتوبيخ وادخال الهمزة على غير للايذان بأن المنكر هو كون المبغى غيره تعالى لما أنه لاختصاص الانكار بغيره تعالى دون انكار الاختصاص بغيره تعالى وانتصاب غير على أنه مفعول أبغى بحذف اللام أى أبغى لكم أى أطلب لكم غير الله تعالى والها اما تمييز أو حال أو على الحالية من الها وهو المفعول لأبغى على أن الأصل أبغى لكم الها غير الله فغير الله صفة لالها فلما قدمت صفة النكرة انتصبت حالا ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ أى والحال أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم وفيه تنبيه على ماصنعوا من سوء المعاملة حيث قابلوا تخصيص الله تعالى اياهم من بين أمثالهم بما لم يستحقوه تفضلا بأن عمدوا الى أخس شئ من مخلوقاته فجعلوه شريكا له تعالى تبا لهم ولما يعبدون ﴿واذ أنجيناكم﴾ تذكير لهم من جهته سبحانه بنعمة الانجاء من ملكة فرعون وقرئ نجيناكم من التنجية وقرئ أنجاكم فيكون مسوقا من جهة موسى عليه الصلاة والسلام أى واذكروا وقت انجائنا اياكم ﴿من آل فرعون﴾ من ملكتهم لا بمجرد تخليصكم من أيديهم وهم على حالهم فى المكنة والقدرة بل باهلاكهم بالكلية وقوله تعالى ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ من سامه خسفا أى أولاه اياه أو كلفه اياه وهو اما استئناف لبيان ما أنجاهم منه أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما معا لاشتماله على ضميريهما وقوله تعالى ﴿يقتلون أبناءكم و يستحيون نساءكم﴾ بدل من يسومونكم مبين أو مفسر له ﴿وفى ذلكم﴾ الانجاء أو سوء العذاب ﴿بلاء﴾ أى نعمة أو محنة ﴿من ربكم﴾ من مالك أمركم فان النعمة والنقمة كلتاهما منه سبحانه وتعالى ﴿عظيم﴾ لايقادر قدره ﴿واعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ روى أن موسى عليه السلام وعد بنى اسرائيل وهم بمصر ان أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب فامره بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك وقيل أوحى الله تعالى اليه أما علمت أن ريح فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك فأمره الله تعالى بأن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك وذلك قوله تعالى ﴿وأتممناها بعشر﴾ والتعبير عنها بالليالى لأنها غرر الشهور وقيل أمره الله تعالى بأن يصوم ثلاثين يوما وأن يعمل فيها بما يقربه من الله تعالى ثم أنزلت عليه التوراة فى العشر وكلم فيها وقد أجمل ذكر الاربعين فى سورة البقرة وفصل ههنا وواعدنا بمعنى وعدنا وقد قرئ كذلك وقيل الصيغة على بابها بناء على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وثلاثين مفعول ثان لواعدنا بحذف المضاف أى اتمام ثلاثين ليلة ﴿فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ أى بالغا أربعين ليلة ﴿وقال موسى لأخيه هرون﴾ حين توجه الى المناجاة حسبما أمر به ﴿اخلفنى﴾ أى كن خليفتى ﴿فى قومى﴾ و راقبهم فيما يأتون وما يذرون ﴿وأصلح﴾ ما يحتاج الى الاصلاح من أمورهم أو كن مصلحا ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ أى لا تتبع من سلك الافساد ولا تطع من دعاك اليه ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ لوقتنا الذى وقتناه واللام للاختصاص أى اختص بمجيئه بميقاتنا ﴿وكلمه ربه﴾ من غير واسطة كما يكلم الملائكة عليهم السلام وفيما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه عز وجل ليس من جنس سماع كلام المحدثين ﴿قال رب أرنى أنظر اليك﴾ أى أرنى ذاتك بأن تمكننى من رؤيتك أو تتجلى لى فأنظر اليك وأراك وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة فى الجملة

لما أن طلب المستحيل مستحيل من الانبياء لا سيما ما يقتضى الجهل بشئون الله تعالى ولذلك رده بقوله لن ترانى دون لن أرى ولن أريك ولن تنظر الى تنبيها على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد فى الرائى ولم يوجد فيه ذلك بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا أرنا الله جهرة خطأ اذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم و يزيح شبهتهم كما فعل ذلك حين قالوا اجعل لنا الها وأن لا يتبع سبيلهم كما قال لأخيه ولا تتبع سبيل المفسدين والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ اذ لا يدل الاخبار بعدم رؤيته اياه على أنه لا يراه أبدا وأن لا يراه غيره أصلا فضلا عن أن يدل على استحالتها ودعوى الضرورة مكابرة أو جهل لحقيقة الرؤية ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا قال رب العزة حين قال موسى عليه السلام ماقال فقيل قال ﴿لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى﴾ استدراك لبيان أنه لا يطيق بها وفى تعليقها باستقرار الجبل أيضا دليل على الجواز ضرورة أن المعلق بالممكن ممكن والجبل قيل هو جبل أردن ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ أى ظهرت له عظمته وتصدى له اقتداره وأمره وقيل أعطى الجبل حياة و رؤية حتى رآه ﴿جعله دكا﴾ مدكوكا مفتتا والدك والدق أخوان كالشك والشق وقرئ دكاء أى أرضا مستوية ومنه ناقة دكاء للتى لا سنام لها وقرئ دكا جمع دكاء أى قطعا ﴿وخر موسى صعقا﴾ مغشيا عليه من هول ما رآه ﴿فلما أفاق﴾ الافاقة رجوع العقل والفهم الى الانسان بعد ذهابهما بسبب من الاسباب ﴿قال﴾ تعظيما لما شاهده ﴿سبحانك﴾ أى تنزيها لك من أن أسألك شيأ بغير اذن منك ﴿تبت﴾ اليك أى من الجراءة والاقدام على السؤال بغير اذن ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أى بعظمتك وجلالك وقيل أول من آمن بأنك لا ترى فى الدنيا وقيل بأنه لا يجوز السؤال بغير اذن منك ﴿قال ياموسى﴾ استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام من عدم الاجابة الى سؤال الرؤية كأنه قيل ان منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحدا من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها ﴿انى اصطفيتك﴾ أى اخترتك واتخذتك صفوة وآثرتك ﴿على الناس﴾ أى المعاصرين لك وهرون وان كان نبيا كان مأمورا باتباعه وما كان كليما ولا صاحب شرع ﴿برسالاتى﴾ أى بأسفار التوراة وقرئ برسالتى ﴿و بكلامى﴾ و بتكليمى اياك بغير واسطة ﴿فخذ ما آتيتك﴾ أى أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿وكن من الشاكرين﴾ على ما أعطيت من جلائل النعم. قيل كان سؤال الرؤية يوم عرفة واعطاء التوراة يوم النحر ﴿وكتبنا له فى الالواح من كل شئ﴾ أى مما يحتاجون اليه من أمور دينهم ﴿موعظة وتفصيلا لكل شئ﴾ بدل من الجار والمجرور أى كتبنا له كل شئ من المواعظ وتفصيل الاحكام واختلف فى عدد الألواح وفى جوهرها ومقدارها فقيل انها كانت عشرة ألواح وقيل سبعة وقيل لوحين وانها كانت من زمردة جاء بها جبريل عليه السلام وقيل من زبرجدة خضراء أو ياقوتة حمراء وقيل أمر الله تعالى موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده وشققها بأصابعه وعن الحسن رضى الله عنه كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة وان طولها كان عشرة أذرع وقيل أنزلت التوراة وهى سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منه فى سنة لم يقرأها الا أربعة نفر موسى و يوشع وعزير وعيسى عليهم السلام وعن مقاتل رضى الله عنه كتب فى الالواح انى أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بى شيئا و لا تقطعوا السبيل و لا تزنوا و لا تعقوا الوالدين ﴿فخذها﴾ على اضمار قول معطوف على كتبنا أى فقلنا خذها ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة وقيل هو بدل من قوله تعالى فخذ ما آتيتك والضمير للالواح أو لكل شئ لأنه بمعنى الأشياء أو للرسالة أو للتوراة ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ أى بأحسن مافيها كالعفو والصبر بالاضافة الى الاقتصاص والانتصار على طريقة الندب والحث على اختيار الأفضل كما فى قوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم أو بواجباتها فانها أحسن من المباح وقيل المعنى يأخذوا بها وأحسن صلة قال قطرب أى بحسنها

وكلها حسن كقوله تعالى ولذكر الله أكبر وقيل هو أن تحمل الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعان على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها الى الصواب ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى قومه عليه الصلاة والسلام بطريق الالتفات حملالهم على الجد فى الامتثال بما أمروا به اما على نهج الوعيد والترهيب على أن المراد بدار الفاسقين أرض مصر وديار عاد وثمود وأضرابهم فان رؤيتها وهى خالية عن أهلها خاوية على عروشها موجبة للاعتبار والانزجار عن مثل أعمال أهلها كيلا يحل بهم ماحل بأولئك واما على نهج الوعد والترغيب على أن المراد بدار الفاسقين اما أرض مصر خاصة أو مع أرض الجبابرة والعمالقة بالشام فانها أيضا مما أتيح لبنى اسرائيل وكتب لهم حسبما ينطق به قوله عزوجل ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ومعنى الاراءة الادخال بطريق الايراث ويؤيده قراءة من قرأ سأورثكم بالثاء المثلثة كما فى قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها وقرىء سأوريكم ولعله من أوريت الزند أى سأبينها لكم وقوله تعالى ﴿سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض﴾ استئناف مسوق لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر فى الآيات التى هى ما كتب فى ألواح التوراة من المواعظ والأحكام أومايعمها وغيرها من الآيات التكوينية التى من جملتها ماوعد اراءته من دار الفاسقين ومعنى صرفهم عنها الطبع على قلوبهم بحيث لايكادون يتفكرون فيها ولايعتبرون بها لاصرارهم على ماهم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع أن فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الجليل أى سأطبع على قلوب الذين يعدون أنفسهم كبراء ويرون لهم على الخلق مزية وفضلا فلا ينتفعون بآياتى التنزيلية والتكوينية ولايغتنمون مغانم آثارها فلا تسلكوا مسلكهم لتكونوا أمثالهم وقيل المعنى سأصرفهم عن ابطالها وان اجتهدوا كما اجتهد فرعون فى ابطال مارآه من الآيات فأبى الله تعالى الا احقاق الحق وازهاق الباطل وعلى هذا فالانسب أن يراد بدار الفاسقين أرض الجبابرة والعمالقة المشهورين بالفسق والتكبر فى الأرض وباراءتها للمخاطبين ادخالهم الشام واسكانهم فى مساكنهم ومنازلهم حسبما نطق به قوله تعالى ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ويكون قوله تعالى سأصرف عن آياتى الخ جوابا عن سؤال مقدر ناشىء من الوعد بادخال الشام على أن المراد بالآيات ماتلى آنفا ونظائره وبصرفهم عنها ازالتهم عن مقام معارضتها وممانعتها لوقوع أخبارها وظهور أحكامها وآثارها باهلاكهم على يد موسى عليه الصلاة والسلام حين سار بعد التيه بمن بقى من بنى اسرائيل أو بذرياتهم على اختلاف الروايتين الى أريحا ويوشع بن نون فى مقدمته ففتحها واستقر بنو اسرائيل بالشام وملكوا مشارقها ومغاربها كأنه قيل كيف يرون دارهم وهم فيها فقيل سأهلكهم وانما عدل الى الصرف ليزدادوا ثقة بالآيات واطمئنانا بها وقوله تعالى ﴿بغير الحق﴾ اما صلة للتكبر أى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط أو متعلق بمحذوف هو حال من فاعله أى يتكبرون ملتبسين بغير الحق وقوله تعالى ﴿وان يروا كل آية لايؤمنوا بها﴾ عطف على يتكبرون داخل معه فى حكم الصلة والمراد بالآية اما المنزلة فالمراد برؤيتها مشاهدتها بسماعها أو مايعمها وغيرها من المعجزات فالمراد برؤيتها مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع والابصار أى وان يشاهدوا كل آية من الآيات لايؤمنوا بها على عموم النفى لا على نفى العموم أى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم اياها كما هى وهذا كما ترى يؤيد كون الصرف بمعنى الطبع وقوله تعالى ﴿وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا﴾ عطف على ماقبله داخل فى حكمه أى لايتوجهون الى الحق ولايسلكون سبيله أصلا لاستيلاء الشيطنة عليهم ومطبوعيتهم على الانحراف والزيغ وقرىء بفتحتين وقرىء الرشاد وثلاثتها لغات كالسقم والسقم والسقام ﴿وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا﴾ أى يختارونه لأنفسهم مسلكا

مستمرا لايكادون يعدلون عنه لموافقته لأهوائهم الباطلة وافضائه بهم الى شهواتهم ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من تكبرهم وعدم ايمانهم بشىء من الآيات واعراضهم عن سبيل الرشد واقبالهم التام الى سبيل الغى وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿بأنهم﴾ أى حاصل بسبب أنهم ﴿كذبوا بآياتنا﴾ الدالة على بطلان مااتصفوا به من القبائح وعلى حقية أضدادها ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ لايتفكرون فيها والالما فعلوا مافعلوا من الاباطيل ويجوز أن يكون اشارة الى ماذكر من الصرف ولايمنعه الاشعار بعلية مافى حيز الصلة كيف لا وقدمر أن ذلك فى قوله تعالى ذلك بما عصوا الآية يجوز أن يكون اشارة الى ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم مع كون ذلك معللا بالكفر بآيات الله صريحا وقيل محل اسم الاشارة النصب على المصدر أى سأصرفهم ذلك الصرف بسبب تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾ أى وبلقائهم الدار الآخرة أولقائهم ماوعده الله تعالى فى الآخرة من الجزاء ومحل الموصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى ﴿حبطت أعمالهم﴾ خبره أى ظهر بطلان أعمالهم التى كانوا عملوها من صلة الأرحام واغاثة الملهوفين ونحو ذلك أو حبطت بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير ايمانهم بها ﴿هل يجزون﴾ أى لايجزون ﴿الاما كانوا يعملون﴾ أى الاجزاء ما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصى ﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾ أى من بعد ذهابه الى الطور ﴿من حليهم﴾ متعلق باتخذ كالجار الاول لاختلاف معنييهما فان الاول للابتداء والثانى للتبعيض أو للبيان أو الثانى متعلق بمحذوف وقع حالا مما بعده اذ لوتأخر لكان صفة له واضافة الحلى اليهم مع أنها كانت للقبط لادنى الملابسة حيث كانوا استعاروها من أربابها قبيل الغرق فبقيت فى أيديهم وأما أنهم ملكوها بعد الغرق فذلك منوط بتملك بنى اسرائيل غنائم القبط وهم مستأمنون فيما بينهم فلا يساعده قولهم حملنا أوزارا من زينة القوم والحلى بضم الحاء وكسر اللام جمع حلى كثدى وثدى وقرىء بكسر الحاء بالاتباع كدلى وقرىء حليهم على الافراد وقوله تعالى ﴿عجلا﴾ مفعول اتخذ أخر عن المجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع مافيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقيل هو متعد الى اثنين بمعنى التصيير والمفعول الثانى محذوف أى الها وقوله تعالى ﴿جسدا﴾ بدل من عجلا أى جثة ذادم ولحم أوجسدا من ذهب لاروح معه وقوله تعالى ﴿له خوار﴾ أى صوت بقر وقرىء بالجيم والهمزة وهو الصياح نعت لعجلا . روى أن السامرى لما صاغ العجل ألقى فى فمه ترابا من أثر فرس جبريل عليه الصلاة والسلام وقد كان أخذه عند فلق البحر أو عند توجهه الى الطور فصار حيا وقيل صاغه بنوع من الحيل فيدخل الريح فى جوفه فيصوت والانسب بما فى سورة طه هو الاول وانما نسب اتخاذه اليهم وهو فعله اما لأنه واحد منهم واما لأنهم رضوا به فكأنهم فعلوه واما لأن المراد بالاتخاذ اتخاذهم اياه الها لاصنعه واحداثه ﴿ألم يروا أنه لايكلمهم﴾ استئناف مسوق لتقريعهم وتشنيعهم وتركيك عقولهم وتسفيههم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى هو اتخاذه الها أى ألم يروا أنه ليس فيه شىء من أحكام الالوهية حيث لايكلمهم ﴿ولايهديهم سبيلا﴾ بوجه من الوجوه فكيف اتخذوه الها وقوله تعالى ﴿اتخذوه﴾ أى فعلوا ذلك ﴿وكانوا ظالمين﴾ أى واضعين للاشياء فى غير موضعها فلم يكن هذا أول منكر فعلوه والجملة اعتراض تذييلى وتكرير اتخذوه لتثنية التشنيع وترتيب الاعتراض عليه ﴿ولما سقط فى أيديهم﴾ أى ندموا على مافعلوا غاية الندم فان ذلك كناية عنه لأن النادم المتحسر يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها وقرىء سقط على البناء للفاعل بمعنى وقع العض فيها فاليد حقيقة وقال الزجاج معناه سقط الندم فى أنفسهم اما بطريق الاستعارة بالكناية أو بطريق التمثيل ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ باتخاذ العجل أى تبينوا بحيث تيقنوا بذلك حتى كأنهم رأوه بأعينهم وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية مع كونه متأخرا عنها للمسارعة الى بيانه والاشعار

بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية ﴿قالوا﴾ والله ﴿لئن لم يرحمنا ربنا﴾ بانزال التوبة المكفرة ﴿ويغفرلنا﴾ ذنوبنا بالتجاوز عن خطيئتنا وتقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية اما للمسارعة الى ماهو المقصود الأصلى واما لأن المراد بالرحمة مطلق ارادة الخير بهم وهو مبدأ لانزال التوبة المكفرة لذنوبهم واللام فى لئن موطئة للقسم كما أشير اليه وفى قوله تعالى ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ لجواب القسم وماحكى عنهم من الندامة والرؤية والقول وان كان بعد مارجع موسى عليه الصلاة والسلام اليهم كما ينطق به الآيات الواردة فى سورة طه لكن أريد بتقديمه عليه حكاية ماصدر عنهم من القول والفعل فى موضع واحد ﴿ولما رجع موسى الى قومه﴾ شروع فى بيان ماجرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه من الميقات اثر بيان ماوقع من قومه بعده وقوله تعالى ﴿غضبان أسفا﴾ حالان من موسى عليه السلام أو الثانى من المستكن فى غضبان والاسف الشديد الغضب وقيل الحزين ﴿قال بئسما خلفتمونى من بعدى﴾ أى بئسما فعلتم من بعد غيبتى حيث عبدتم العجل بعد مارأيتم فعلى من توحيد الله تعالى ونفى الشركاء عنه واخلاص العبادة له أو من حملكم على ذلك وكفكم عما طمحت نحوه أبصاركم حيث قلتم اجعل لنا الها كما لهم آلهة ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف فالخطاب للعبدة من السامرى وأشياعه أو بئسما قمتم مقامى ولم تراعوا عهدى حيث لم تكفوا العبدة عما فعلوا فالخطاب لهرون ومن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى قال ياهرون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا أن لاتتبعن أفعصيت أمرى ويجوز أن يكون الخطاب للكل على أن المراد بالخليفة مايعم الامرين المذكورين وما نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بئس المستكن فيه والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ أى تركتموه غير تام على تضمين عجل معنى سبق يقال عجل عن الامر اذا تركه غير تام أو أعجلتم وعد ربكم الذى وعدنيه من الأربعين وقد رتم موتى وغيرتم بعدى كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم ﴿وألقى الالواح﴾ طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حمية للدين . روى أن التوراة كانت سبعة أسباع فى سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفعت ستة أسباعها التى كان فيها تفصيل كل شئ وبقى سبع كان فيه المواعظ والاحكام ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ بشعر رأسه عليهما السلام ﴿يجره اليه﴾ حال من ضمير أخذ فعله عليه السلام توهما أنه قصر فى كفهم وهرون كان أكبر منه عليهما السلام بثلاث سنين وكان حمولا ولذلك كان أحب الى بنى اسرائيل ﴿قال﴾ أى هرون مخاطبا لموسى عليهما السلام ﴿ابن أم﴾ بحذف حرف النداء وتخصيص الأم بالذكر مع كونهما شقيقين لما أن حق الأم أعظم وأحق بالمراعاة مع أنها كانت مؤمنة وقد قاست فيه المخاوف والشدائد وقرئ بكسر الميم باسقاط الياء تخفيفا كالمنادى المضاف الى الياء وقراءة الفتح لزيادة التخفيف أو لتشبيهه بخمسة عشر ﴿ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى﴾ ازاحة لتوهم التقصير فى حقه والمعنى بذلت جهدى فى كفهم حتى قهرونى واستضعفونى وقاربوا قتلى ﴿فلا تشمت بى الأعداء﴾ أى فلا تفعل بى ما يكون سببا لشماتتهم بى ﴿ولا تجعلنى مع القوم الظالمين﴾ أى معدودا فى عدادهم بالمؤاخذة أو النسبة الى التقصير وهذا يؤيد كون الخطاب للكل أو لا تعتقد أنى واحد من الظالمين مع براءتى منهم ومن ظلمهم ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماذا قال موسى عند ذلك فقيل قال ﴿رب اغفرلى﴾ أى مافعلت بأخى من غير ذنب مقرر من قبله ﴿ولأخى﴾ ان فرط منه تقصير مافى كفهم عما فعلوه من العظيمة استغفر عليه السلام لنفسه ليرضى أخاه ويظهر للشامتين رضاه لئلا تتم شماتتهم به ولأخيه للايذان بأنه محتاج الى الاستغفار حيث كان يجب عليه أن يقاتلهم ﴿وأدخلنا فى رحمتك﴾ بمزيد الانعام بعد غفران ماسلف منا ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ فلا غرو فى انتظامنا فى سلك رحمتك الواسعة فى الدنيا

والآخرة والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله ﴿ان الذين اتخذوا العجل﴾ أى تموا على اتخاذه واستمروا على عبادته كالسامرى وأشياعه من الذين أشربوه فى قلوبهم كما يفصح عنه كون الموصول الثانى عبارة عن التائبين فان ذلك صريح فى أن الموصول الاول عبارة عن المصرين ﴿سينالهم﴾ أى فى الآخرة ﴿غضب﴾ أى عظيم لايقادر قدره مستتبع لفنون العقوبات لما أن جريمتهم أعظم الجرائم وأقبح الجرائر وقوله تعالى ﴿من ربهم﴾ أى مالكهم متعلق بينالهم أو بمحذوف هو نعت لغضب مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائن من ربهم ﴿وذلة فى الحيوة الدنيا﴾ هى ذلة الاغتراب التى تضرب بها الامثال والمسكنة المنتظمة لهم ولأولادهم جميعا والذلة التى اختص بها السامرى من الانفراد عن الناس والابتلاء بلا مساس . يروى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك واذا مس أحدهم أحد غيرهم حما جميعا فى الوقت وايراد مانالهم فى حيز السين مع مضيه بطريق تغليب حال الأخلاف على حال الأسلاف وقيل المراد بهم التائبون وبالغضب ماأمروا به من قتل أنفسهم واعتذر عن السين بأن ذلك حكاية عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل بأنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فيكون سابقا على الغضب وأنت خبير بأن سباق النظم الكريم وسياقه نابيان عن ذلك نبوا ظاهرا كيف لا وقوله تعالى ﴿وكذلك نجزى المفترين﴾ ينادى على خلافه فانهم شهداء تائبون فكيف يمكن وصفهم بعد ذلك بالافتراء وأيضا ليس يجزى الله تعالى كل المفترين بهذا الجزاء الذى ظاهره قهر وباطنه لطف ورحمة وقيل المراد بهم أبناؤهم المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فان تعيير الأبناء بأفاعيل الآباء مشهور معروف منه قوله تعالى واذ قتلتم نفسا الآية وقوله تعالى واذ قلتم ياموسى الآية والمراد بالغضب الغضب الأخروى وبالذلة ماأصابهم من القتل والاجلاء وضرب الجزية عليهم وقيل المراد بالموصول المتخذون حقيقة وبالضمير فى ينالهم أخلافهم ولا ريب فى أن توسيط حال هؤلاء فى تضاعيف بيان حال المتخذين من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه ﴿والذين عملوا السيئات﴾ أى سيئة كانت ﴿ثم تابوا﴾ عن تلك السيئات ﴿من بعدها﴾ أى من بعد عملها ﴿وآمنوا﴾ ايمانا صحيحا خالصا واشتغلوا باقامة ماهو من مقتضياته من الأعمال الصالحة ولم يصروا على مافعلوا كالطائفة الاولى ﴿ان ربك من بعدها﴾ أى من بعد تلك التوبة المقرونة بالايمان ﴿لغفور﴾ للذنوب وان عظمت وكثرت ﴿رحيم﴾ مبالغ فى افاضة فنون الرحمة الدنيوية والاخروية والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للتشريف ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ شروع فى بيان بقية الحكاية اثر مابين تحزب القوم الى مصر وتائب والاشارة الى مآل كل منهما اجمالا أى لما سكن عنه الغضب باعتذار أخيه وتوبة القوم وهذا صريح فى أن ماحكى عنهم من الندم ومايتفرع عليه كان بعد مجئ موسى عليه الصلاة والسلام وفى هذا النظم الكريم من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب الحامل له على ماصدر عنه من الفعل والقول منزلة الآمر بذلك المغرى عليه بالتحكم والتشديد والتعبير عن سكونه بالسكوت مالايخفى وقرئ سكن وسكت وأسكت على أن الفاعل هو الله تعالى أو أخوه أو التائبون ﴿أخذ الالواح﴾ التى ألقاها ﴿وفى نسختها﴾ أى فيما نسخ فيها وكتب فعلة بمعنى مفعول كالخطبة وقيل فيما نسخ منها أى من الالواح المنكسرة ﴿هدى﴾ أى بيان للحق ﴿ورحمة﴾ للخلق بارشادهم الى مافيه الخير والصلاح ﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾ اللام الاولى متعلقة بمحذوف هو صفة لرحمة أى كائنة لهم أوهى لام الاجل أى هدى ورحمة لاجلهم والثانية لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله تعالى ان كنتم للرؤيا تعبرون أوهى أيضا لام العلة والمفعول محذوف أى يرهبون المعاصى لاجل ربهم لا للرياء والسمعة ﴿واختار موسى قومه﴾ شروع فى بيان كيفية استدعاء التوبة وكيفية وقوعها واختار يتعدى الى اثنين ثانيهما مجرور بمن أى اختار من قومه بحذف

الجار وايصال الفعل الى المجرور كما فى قوله

اختارك الناس اذ رثت خلائقهم واعتل من كان يرجى عنده السول

أى اختارك من الناس ﴿سبعين رجلا﴾ مفعول لاختار أخر عن الثانى لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ﴿لميقاتنا﴾ الذى وقتناه بعد ماوقع من قومه ماوقع لاميقات الكلام الذى ذكر قبل ذلك كما قيل. قال السدى أمره الله تعالى بأن يأتيه فى ناس من بنى اسرائيل يعتذرون اليه تعالى من عبادة العجل و وعدهم موعدا فاختار عليه السلام من قومه سبعين رجلا وقال محمد بن اسحق اختارهم ليتوبوا اليه تعالى مما صنعوه و يسألوه التوبة على من تركوهم وراءهم من قومهم قالوا اختار عليه الصلاة والسلام من كل سبط ستة فزادا اثنان فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال عليه الصلاة والسلام ان لمن قعد مثل أجر من خرج فقعد كالب و يوشع وذهب مع الباقين وأمرهم أن يصوموا و يتطهروا ويطهروا ثيابهم فخرج بهم الى طور سيناء فلما دانوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجدا فسمعوه تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه حسبما يشاء وهو الامر بقتل أنفسهم توبة ﴿فلما أخذتهم الرجفة﴾ مما اجترءوا عليه من طلب الرؤية فانه يروى أنه لما انكشف الغمام أقبلوا الى موسى عليه السلام وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة أى الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها أى ماتوا ولعلهم أرادوا بقولهم لن نؤمن لك لن نصدقك فى أن الآمر بما سمعنا من الامر بقتل أنفسهم هو الله تعالى حتى نراه حيث قاسوا رؤيته تعالى على سماع كلامه قياسا فاسدا فحين شاهد موسى تلك الحالة الهائلة ﴿قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل﴾ أى حين فرطوا فى النهى عن عبادة العجل وما فارقوا عبدته حين شاهدوا اصرارهم عليها ﴿وايای﴾ أيضا حين طلبت منك الرؤية أى لو شئت اهلاكنا بذنوبنا لأهلكتنا حينئذ أراد به عليه السلام تذكير العفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق فان الاعتراف بالذنب والشكر على النعمة مما يربط العتيد و يستجلب المزيد يعنى انا كنا مستحقين للاهلاك ولم يكن من موانعه الاعدم مشيئتك اياه فحيث لطفت بنا وعفوت عنا تلك الجرائم فلا غرو فى أن تعفو عنا هذه الجريمة أيضا وحمل الكلام على التمنى يأباه قوله تعالى ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ أى الذين لا يعلمون تفاصيل شئونك ولا يتثبتون فى المداحض والهمزة اما لانكار وقوع الاهلاك ثقة بلطف الله عز وجل كما قاله ابن الانبارى أو للاستعطاف كما قاله المبرد أى لاتهلكنا ﴿ان هى الا فتنتك﴾ استئناف مقرر لما قبله واعتذار عما صنعوا ببيان منشأ غلطهم أى ما الفتنة التى وقع فيها السفهاء وقالوا بسببها ماقالوا من العظيمة الا فتنتك أى محنتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك ولم يتثبتوا فطمعوا فيما فوق ذلك تابعين للقياس الفاسد وقوله تعالى ﴿تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء﴾ اما استئناف مبين لحكم الفتنة أو حال من فتنتك أى حال كونها مضلا بها الخ أى تضل بسببها من تشاء اضلاله فلا يهتدى الى التثبت وتهدى من تشاء هدايته الى الحق فلا يتزلزل فى أمثالها فيقوى بها ايمانه ﴿أنت ولينا﴾ أى القائم بأمورنا الدنيوية والاخروية وناصرنا وحافظنا لاغيرك ﴿فاغفر لنا﴾ ماقارفناه من المعاصى والفاء لترتيب الدعاء على ماقبله من الولاية كانه قيل فمن شأن الولى المغفرة والرحمة وقيل ان اقدامه عليه الصلاة والسلام على أن يقول ان هى الا فتنتك الخ جراءة عظيمة فطلب من الله تعالى غفرانها والتجاوز عنها ﴿وارحمنا﴾ بافاضة آثار الرحمة الدنيوية والاخروية علينا ﴿وأنت خير الغافرين﴾ اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من الدعاء وتخصيص المغفرة بالذكر لانها الأهم بحسب المقام ﴿واكتب لنا﴾ أى عين لنا وقيل أوجب وحقق وأثبت ﴿فى هذه الدنيا حسنة﴾ أى نعمة وعافية أو خصلة حسنة. قال ابن عباس رضى الله عنهما اقبلنا وفادتنا و ردنا بالمغفرة والرحمة ﴿وفى الآخرة﴾ أى واكتب لنا فيها أيضا حسنة وهى المثوبة الحسنى والجنة

﴿انا هدنا اليك﴾ أى تبنا وأنبنا اليك من هاد يهود اذا رجع وقرئ بكسر الهاء من هاده يهيده اذا حركه وأماله ويحتمل أن يكون مبنيا للفاعل أو للمفعول بمعنى أملنا أنفسنا أو أملنا اليك وتجويز أن تكون القراءة المشهورة على بناء المفعول على لغة من يقول عود المريض مع كونها لغة ضعيفة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل والجملة استئناف مسوق لتعليل الدعاء فان التوبة مما يوجب قبوله بموجب الوعد المحتوم وتصديرها بحرف التحقيق لاظهار كمال النشاط والرغبة فى التوبة والمعنى انا تبنا ورجعنا عما صنعنا من المعصية العظيمة التى جئناك للاعتذار عنها وعما وقع ههنا من طلب الرؤية فبعيد من لطفك وفضلك أن لا تقبل توبة التائبين. قيل لما أخذتهم الرجفة ماتوا جميعا فأخذ موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع الى الله تعالى حتى أحياهم وقيل رجفوا وكادت تبين مفاصلهم وأشرفوا على الهلاك فخاف موسى عليه الصلاة والسلام فبكى فكشفها الله تعالى عنهم ﴿قال﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الكلام كأنه قيل فماذا قال الله تعالى عند دعاء موسى عليه السلام فقيل قال ﴿عذابى أصيب به من أشاء﴾ لعله عز وجل حين جعل توبة عبدة العجل بقتلهم أنفسهم ضمن موسى عليه السلام دعاءه التخفيف والتيسير حيث قال واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة أى خصلة حسنة عارية عن المشقة والشدة فان فى قتل أنفسهم من العذاب والتشديد مالا يخفى فأجاب تعالى بأن عذابى شأنه أن أصيب به من أشاء تعذيبه من غير دخل لغيرى فيه وهم ممن تناولته مشيئتى ولذلك جعلت توبتهم مشوبة بالعذاب الدنيوى ﴿ورحمتى وسعت كل شئ﴾ أى شأنها أن تسع فى الدنيا المؤمن والكافر بل كل مايدخل تحت الشيئية من المكلفين وغيرهم وقد نال قومك نصيب منها فى ضمن العذاب الدنيوى وفى نسبة الاصابة الى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة الى الرحمة بصيغة الماضى ايذان بأن الرحمة مقتضى الذات وأما العذاب فبمقتضى معاصى العباد والمشيئة معتبرة فى جانب الرحمة أيضا وعدم التصريح بها للاشعار بغاية الظهور ألا يرى الى قوله تعالى ﴿فسأكتبها﴾ أى أثبتها وأعينها فانه متفرع على اعتبار المشيئة كأنه قيل فاذا كان الأمر كذلك أى كما ذكر من اصابة عذابى وسعة رحمتى لكل من أشاء فسأكتبها كتبة كائنة كما دعوت بقولك واكتب لنا فى هذه الخ أى سأكتبها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوى ﴿للذين يتقون﴾ أى الكفر والمعاصى اما ابتداء أو بعد ملابستهما وفيه تعريض بقومه كأنه قيل لاقومك لانهم غير متقين فيكفيهم ماقدر لهم من الرحمة وان كانت مقارنة للعذاب الدنيوى ﴿ويؤتون الزكوة﴾ وفيه أيضا تعريض بهم حيث كانت الزكاة شاقة عليهم ولعل الصلاة انما لم تذكر مع انافتها على سائر العبادات اكتفاء عنها بالاتقاء الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك المنكرات عن آخرها وايراد ايتاء الزكاة لما مر من التعريض ﴿والذين هم بآياتنا﴾ جميعا ﴿يؤمنون﴾ ايمانا مستمرا من غير اخلال بشئ منها وفيه تعريض بهم وبكفرهم بالآيات العظام التى جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام وبما سيجئ بعد ذلك من الآيات البينات كتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغير ذلك وتكرير الموصول مع أن المراد به عين ماأريد بالموصول الأول دون أن يقال و يؤمنون بآياتنا عطفا على يؤتون الزكاة كما عطف هو على يتقون لما أشير اليه من القصر بتقديم الجار والمجرور أى هم بجميع آياتنا يؤمنون لا ببعضها دون بعض ﴿الذين يتبعون الرسول﴾ الذى نوحى اليه كتابا مختصا به ﴿النبى﴾ أى صاحب المعجزة وقيل عنوان الرسالة بالنسبة اليه تعالى وعنوان النبوة بالنسبة الى الأمة ﴿الأمى﴾ بضم الهمزة نسبة الى الأم كأنه باق على حالته التى ولد عليها من أمه أو الى أمة العرب كما قال عليه الصلاة والسلام انا أمة لانحسب ولا نكتب أو الى أم القرى وقرئ بفتح الهمزة أى الذى لم يمارس القراءة والكتابة وقد جمع مع ذلك علوم الأولين والآخرين والموصول بدل من الموصول الأول بدل الكل أو منصوب على المدح أو مرفوع عليه أى أعنى الذين أو هم الذين وأما جعله مبتدأ على أن خبره يأمرهم أو أولئك هم

المفلحون فغير سديد ﴿الذى يجدونه مكتوبا﴾ باسمه ونعوته بحيث لايشكون أنه هو ولذلك عدل عن أن يقال يجدون اسمه أو وصفه مكتوبا ﴿عندهم﴾ زيد هذا لزيادة التقرير وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لايغيب عنهم أصلا ﴿فى التوراة والانجيل﴾ اللذين تعبد بهما بنو اسرائيل سابقا ولاحقا والظرفان متعلقان بيجدونه أو بمكتوبا وذكر الانجيل قبل نزوله من قبيل مانحن فيه من ذكر النبى عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم قبل مجيئهما ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ كلام مستأنف لامحل له من الاعراب قاله الزجاج متضمن لتفصيل بعض أحكام الرحمة التى وعد فيما سبق بكتبها اجمالا فان مابين فيه من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واحلال الطيبات وتحريم الخبائث واسقاط التكاليف الشاقة كلها من آثار رحمته الواسعة وقيل فى محل النصب على أنه حال مقدرة من مفعول يجدونه أومن النبى أومن المستكن فى مكتوبا أومفسر لمكتوبا أى لما كتب ﴿ويحل لهم الطيبات﴾ التى حرمت عليهم بشؤم ظلمهم ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾ أى يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التى هى من قبيل ما كتب عليهم حينئذ من كون التوبة بقتل النفس كتعيين القصاص فى العمد والخطأ من غير شرع الدية وقطع الاعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب واحراق الغنائم وتحريم السبت. وعن عطاء أنه كانت بنو اسرائيل اذا قاموا يصلون لبسوا المسوح وغلوا أيديهم الى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها الى السارية يحبس نفسه على العبادة وقرئ آصارهم أصل الأصر الثقل الذى يأصر صاحبه من الحراك ﴿فالذين آمنوا به﴾ تعليم لكيفية اتباعه عليه الصلاة والسلام وبيان لعلو رتبة متبعيه واغتنامهم مغانم الرحمة الواسعة فى الدارين اثر بيان نعوته الجليلة والاشارة الى ارشاده عليه الصلاة والسلام اياهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واحلال الطيبات وتحريم الخبائث أى فالذين آمنوا بنبوته وأطاعوه فى أوامره ونواهيه ﴿وعزروه﴾ أى عظموه ووقروه وأعانوه بمنع أعدائه عنه وقرئ بالتخفيف وأصله المنع ومنه التعزير ﴿ونصروه﴾ على أعدائه فى الدين ﴿واتبعوا النور الذى أنزل معه﴾ أى مع نبوته وهو القرآن عبر عنه بالنور المنبئ عن كونه ظاهرا بنفسه ومظهرا لغيره أومظهرا للحقائق كاشفا عنها لمناسبة الاتباع ويجوز أن يكون معه متعلقا باتبعوا أى واتبعوا القرآن المنزل مع اتباعه عليه الصلاة والسلام بالعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه أواتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين من حيث اتصافهم بما فصل من الصفات الفاضلة للاشعار بعليتها للحكم وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم فى الفضل والشرف أى أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة ﴿هم المفلحون﴾ أى هم الفائزون بالمطلوب الناجون عن الكروب لاغيرهم من الامم فيدخل فيهم قوم موسى عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا حيث لم ينجوا عما فى توبتهم من المشقة الهائلة وبه يتحقق التحقيق ويتأتى التوفيق والتطبيق بين دعائه عليه الصلاة والسلام وبين الجواب لا بمجرد ماقيل من أنه لما دعا لنفسه ولبنى اسرائيل أجيب بما هو منطوق على توبيخ بنى اسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله عز وجل وعلى كفرهم بآياته العظام التى أجراها على يد موسى عليه الصلاة والسلام وعرض بذلك فى قوله تعالى والذين هم بآياتنا يؤمنون وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين لطفا بهم وترغيبا فى اخلاص الايمان والعمل الصالح ﴿قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم﴾ لما حكى ما فى الكتابين من نعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف من يتبعه من أهلهما ونيلهم لسعادة الدارين أمر عليه الصلاة والسلام ببيان أن تلك السعادة غير مختصة بهم بل شاملة لكل من يتبعه كائنا من كان ببيان عموم رسالته للثقلين مع اختصاص رسالة سائر الرسل عليهم السلام

باقوامهم وارسال موسى عليه السلام الى فرعون وملئه بالآيات التسع انما كان لأمرهم بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبارسال بنى اسرائيل من الاسر والقسر وأما العمل بأحكام التوراة فمختص ببنى اسرائيل ﴿جميعا﴾ حال من الضمير فى اليكم ﴿الذى له ملك السموات والأرض﴾ منصوب أو مرفوع على المدح أومجرور على أنه صفة للجلالة وان حيل بينهما بما هو متعلق بما أضيف اليه فانه فى حكم المتقدم عليه وقوله تعالى ﴿لا اله الا هو﴾ بيان لما قبله فان من ملك العالم كان هو الاله لاغيره وقوله تعالى ﴿يحيى ويميت﴾ لزيادة تقرير ألوهيته والفاء فى قوله تعالى ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ لتفريع الأمر على ما تمهد وتقرر من رسالته عليه الصلاة والسلام وايراد نفسه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات الى الغيبة للمبالغة فى ايجاب الامتثال بأمره ووصف الرسول بقوله ﴿النبى الأمى﴾ لمدحه عليه الصلاة والسلام بهما ولزيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب فى الكتابين ووصفه بقوله تعالى ﴿الذى يؤمن بالله وكلماته﴾ أى ما أنزل اليه والى سائر الرسل عليهم السلام من كتبه ووحيه لحمل أهل الكتابين على الامتثال بما أمروا به والتصريح بايمانه بالله تعالى للتنبيه على أن الايمان به تعالى لاينفك عن الايمان بكلماته ولا يتحقق الا به وقرئ وكلمته على ارادة الجنس أو القرآن تنبيها على أن المأمور به هو الايمان به عليه الصلاة والسلام من حيث أنزل عليه القرآن لا من حيثية أخرى أو على أن المراد بها عيسى عليه الصلاة والسلام تعريضا باليهود وتنبيها على أن من لم يؤمن به لم يعتد بايمانه ﴿واتبعوه﴾ أى فى كل ما يأتى وما يذر من أمور الدين ﴿لعلكم تهتدون﴾ علة للفعلين أو حال من فاعليهما أى رجاء لاهتدائكم الى المطلوب أوراجين له وفى تعليقه بهما ايذان بأن من صدقه ولم يتبعه بالتزام أحكام شريعته فهو بمعزل من الاهتداء مستمر على الغى والضلالة ﴿ومن قوم موسى﴾ كلام مبتدأ مسوق لدفع ماعسى يوهمه تخصيص كتب الرحمة والتقوى والايمان بالآيات بمتبعى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام من كل خير وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم بل منهم ﴿أمة يهدون﴾ أى الناس ﴿بالحق﴾ أى ملتبسين به أو يهدونهم بكلمة الحق ﴿وبه﴾ أى بالحق ﴿يعدلون﴾ أى فى الاحكام الجارية فيما بينهم وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية وقيل هم الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وياباه أنه قدم ذكرهم فيما سلف وقيل ان بنى اسرائيل لما بالغوا فى العتو والطغيان حتى اجترؤا على قتل الأنبياء عليهم السلام تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرق بينهم وبين أولئك الطاغين ففتح الله تعالى لهم نفقا فى الأرض فساروا فيه سنة ونصفا حتى خرجوا من وراء الصين وهم اليوم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا وقد ذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أن جبريل عليه السلام ذهب به ليلة الاسراء نحوهم فكلمهم فقال جبريل عليه السلام هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبى الأمى فآمنوا به وقالوا يارسول الله ان موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ منى عليه السلام فرد محمد على موسى السلام عليهما السلام ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت يومئذ فريضة غير الصلاة والزكاة أمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فامرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت هذا وأنت خبير بأن تخصيصهم بالهداية من بين قومه عليه السلام مع أن منهم من آمن بجميع الشرائع لا يخلو عن بعد ﴿وقطعناهم﴾ أى قوم موسى لا الأمة المذكورة منهم وقرئ بالتخفيف وقوله تعالى ﴿اثنتى عشرة﴾ ثانى مفعولى قطع لتضمنه معنى التصيير والتأنيث للحمل على الأمة أو القطعة أى صيرناهم اثنتى عشرة أمة أو قطعة متميزا بعضها من بعض أو حال من مفعوله أى فرقناهم معدودين هذا العدد وقوله تعالى ﴿أسباطا﴾ بدل منه ولذلك جمع أو مميزله على أن كل واحدة من اثنتى عشرة قطعة أسباط لا سبط وقرئ عشرة بكسر الشين وقوله تعالى ﴿أمما﴾ على الأول بدل

بعد بدل أو نعت لأسباطا وعلى الثانى بدل من أسباطا ﴿وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه﴾ حين استولى عليهم العطش فى التيه الذى وقعوا فيه بسوء صنيعهم لا بمجرد استسقائهم اياه عليه الصلاة والسلام بل باستسقائه لهم لقوله تعالى واذ استسقى موسى لقومه وقوله تعالى ﴿أن اضرب بعصاك الحجر﴾ مفسر لفعل الايحاء وقد مر بيان شأن الحجر فى تفسير سورة البقرة ﴿فانبجست﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف تعويلا على كمال الظهور وايذانا بغاية مسارعته عليه السلام الى الامتثال واشعارا بعدم تأثير الضرب حقيقة وتنبيها على كمال سرعة الانبجاس وهو الانفجار كانه حصل اثر الأمر قبل تحقق الضرب كما فى قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فضرب فانبجست ﴿منه اثنتا عشرة عينا﴾ بعدد الأسباط وأما ماقيل من أن التقدير فان ضربت فقد انبجست فغير حقيق بجزالة النظم التنزيلى وقرئ عشرة بكسر الشين وفتحها ﴿قد علم كل أناس﴾ كل سبط عبر عنهم بذلك ايذانا بكثرة كل واحد من الاسباط ﴿مشربهم﴾ أى عينهم الخاصة بهم ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ أى جعلناها بحيث تلقى عليهم ظلها تسير فى التيه بسيرهم وتسكن باقامتهم وكان ينزل بالليل عمود من نار يسيرون بضوئه ﴿وأنزلنا عليهم المن والسلوى﴾ أى الترنجبين والسمانى. قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر الى الطلوع لكل انسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه ﴿كلوا﴾ أى وقلنا لهم كلوا ﴿من طيبات ما رزقناكم﴾ أى مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى ﴿وماظلمونا﴾ رجوع الى سنن الكلام الأول بعد حكاية خطابهم وهو معطوف على جملة محذوفة للايجاز والاشعار بانه أمر محقق غنى عن التصريح به أى فظلموا بأن كفروا بتلك النعم الجليلة وماظلمونا بذلك ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ اذ لا يتخطاهم ضرره وتقديم المفعول لافادة القصر الذى يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب من التهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فيما هم فيه من الظلم والكفر ﴿واذ قيل لهم﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وايراد الفعل على البناء للمفعول مع استناده اليه تعالى كما يفصح عنه ما وقع فى سورة البقرة من قوله تعالى واذ قلنا للجرى على سنن الكبرياء والايذان بالغنى عن التصريح به لتعين الفاعل وتغيير النظم بالامر بالذكر للتشديد فى التوبيخ أى اذكرهم وقت قوله تعالى لأسلافهم ﴿اسكنوا هذه القرية﴾ منصوب على المفعولية يقال سكنت الدار وقيل على الظرفية اتساعا وهى بيت المقدس وقيل أريحا وهى قرية الجبارين وكان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة رأسهم عوج بن عنق وفى قوله تعالى اسكنوا ايذان بان المأمور به فى سورة البقرة هو الدخول على وجه السكنى والاقامة ولذلك اكتفى به عن ذكر رغدا فى قوله تعالى ﴿وكلوا منها﴾ أى من مطاعمها وثمارها على أن من تبعيضية أو منها على أنها ابتدائية ﴿حيث شئتم﴾ أى من نواحيها من غير أن يزاحمكم فيها أحد فان الأكل المستمر على هذا الوجه لا يكون الا رغدا واسعا وعطف كلوا على اسكنوا بالواو لمقارنتهما زمانا بخلاف الدخول فانه مقدم على الاكل ولذلك قيل هناك فكلوا ﴿وقولوا حطة﴾ أى مسئلتنا أو أمرك حطة لذنوبنا وهى فعلة من الحط كالجلسة ﴿وادخلوا الباب﴾ أى باب القرية ﴿سجدا﴾ أى متطامنين مخبتين أو ساجدين شكرا على اخراجهم من التيه وتقديم الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور فى سورة البقرة غير مخل بهذا الترتيب لأن المأمور به هو الجمع بين الفعلين من غير اعتبار الترتيب بينهما ثم ان كان المراد بالقرية أريحاء فقد روى أنهم دخلوها حيث سار اليها موسى عليه السلام بمن بقى من بنى اسرائيل أو بذراريهم على اختلاف الروايتين ففتحها كما مر فى سورة المائدة وأما ان كان بيت المقدس فقد روى أنهم لم يدخلوه فى حياة موسى عليه السلام فقيل المراد بالباب باب القبة التى كانوا يصلون اليها ﴿نغفر لكم خطيآتكم﴾ وقرئ خطاياكم كما فى سورة البقرة وتغفر لكم خطيئاتكم وخطاياكم وخطيئتكم على البناء للمفعول ﴿سنزيد المحسنين﴾ عدة بشيئين

بالمغفرة وبالزيادة وطرح الواو ههنا لايخل بذلك لأنه استئناف مترتب على تقدير سؤال نشأ من الاخبار بالغفران كأنه قيل فماذا لهم بعد الغفران فقيل سنزيد وكذلك زيادة منهم زيادة بيان ﴿فبدل الذين ظلموا منهم﴾ بما أمروا به من التوبة والاستغفار حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعه ﴿قولا﴾ آخر مما لا خير فيه. روى أنهم دخلوه زاحفين على أستاههم وقالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا شمقاثا يعنون حنطة حمراء استخفافا بأمر الله تعالى واستهزاء بموسى عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿غير الذى قيل لهم﴾ نعت لقولا صرح بالمغايرة مع دلالة التبديل عليها قطعا تحقيقا للمخالفة وتنصيصا على المغايرة من كل وجه ﴿فأرسلنا عليهم﴾ اثر ما فعلوا ما فعلوا من غير تأخير وفى سورة البقرة على الذين ظلموا والمعنى واحد والارسال من فوق فيكون كالانزال ﴿رجزا من السماء﴾ عذابا كائنا منها والمراد الطاعون. روى أنه مات منهم فى ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا ﴿بما كانوا يظلمون﴾ بسبب ظلمهم المستمر السابق واللاحق حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لا بسبب التبديل فقط كما يشعر به ترتيب الارسال عليه بالفاء والتصريح بهذا التعليل لما أن الحكم ههنا مترتب على المضمر دون الموصول بالظلم كما فى سورة البقرة وأما التعليل بالفسق بعد الاشعار بعلية الظلم فقد مر وجهه هناك والله تعالى أعلم ﴿واسألهم﴾ عطف على المقدر فى اذ قيل أى واسأل اليهود المعاصرين لك سؤال تقريع وتقرير بقديم كفرهم وتجاوزهم لحدود الله تعالى واعلاما لهم بأن ذلك مع كونه من علومهم الخفية التى لا يقف عليها الا من مارس كتبهم قد أحاط به النبى عليه الصلاة والسلام خبرا وأذليس ذلك بالتلقى من كتبهم لأنه عليه الصلاة والسلام بمعزل من ذلك تعين أنه من جهة الوحى الصريح ﴿عن القرية﴾ أى عن حالها وخبرها وماجرى على أهلها من الداهية الدهياء وهى ايلة قرية بين مدين والطور وقيل هى مدين وقيل طبرية والعرب تسمى المدينة قرية ﴿التى كانت حاضرة البحر﴾ أى قريبة منه مشرفة على شاطئه ﴿اذ يعدون فى السبت﴾ أى يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم السبت واذ ظرف للمضاف المحذوف أو بدل منه وقيل ظرف لكانت أو حاضرة وليس بذاك اذ لا فائدة فى تقييد الكون أو الحضور بوقت العدوان وقرئ يعدون وأصله يعتدون ويعدون من الاعداد حيث كانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت وهم منهيون عن الاشتغال فيه بغير العبادة ﴿اذ تأتيهم حيتانهم﴾ ظرف ليعدون أو بدل بعد بدل والاول هو الاولى لأن السؤال عن عدوانهم أدخل فى التقريع والحيتان جمع حوت قلبت الواو ياء لانكسار ماقبلها كنون ونينان لفظا ومعنى واضافتها اليهم للاشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجد فى سائر أفراد الجنس من الخواص الخارقة للعادة أو لأن المراد بها الحيتان الكائنة فى تلك الناحية وان ما ذكر من الاتيان وعدمه لاعتيادها أحوالهم فى عدم التعرض يوم السبت ﴿يوم سبتهم﴾ ظرف لتأتيهم أى تأتيهم يوم تعظيمهم لأمر السبت وهو مصدر سبتت اليهود اذا عظمت السبت بالتجرد للعبادة وقيل اسم لليوم والاضافة لاختصاصهم بأحكام فيه ويؤيد الاول قراءة من قرأ يوم اسباتهم وقوله تعالى ﴿شرعا﴾ جمع شارع من شرع عليه اذا دنا وأشرف وهو حال من حيتانهم أى تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء قريبة من الساحل ﴿ويوم لا يسبتون﴾ أى لا يراعون أمر السبت لكن لا بمجرد عدم المراعاة مع تحقق يوم السبت كما هو المتبادر بل مع انتفائهما معا أى لا سبت ولا مراعاة كما فى قوله ولا ترى الضب بها ينجحر وقرئ لا يسبتون من أسبت ولا يسبتون على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون فى السبت ولا يدار عليهم حكم السبت ولا يؤمرون فيه بما أمروا به يوم السبت ﴿لا تأتيهم﴾ كما كانت تأتيهم يوم السبت حذارا من صيدهم وتغيير السبك حيث لم يقل ولا تأتيهم يوم لا يسبتون لما أن الاخبار باتيانها يوم سبتهم مظنة أن يقال فماذا حالها يوم لا يسبتون فقيل يوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴿كذلك نبلوهم﴾ أى مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع

نعاملهم معاملة من يختبرهم ليظهر عداوتهم ونؤاخذهم به وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجيب منها ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أى بسبب فسقهم المستمر المدلول عليه بالجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لكن لافى تلك المادة فان فسقهم فيها لايكون سببا للبلوى بل بسبب فسقهم المستمر فى كل مايأتون وما يذرون وقيل كذلك متصل بما قبله أى لاتأتيهم مثل ماتأتيهم يوم سبتهم فالجملة بعده حينئذ استئناف مبنى على السؤال عن حكمة اختلاف حال الحيتان بالاتيان تارة وعدمه أخرى ﴿واذ قالت﴾ عطف على اذيعدون مسوق لتماديهم فى العدوان وعدم انزجارهم عنه بعد العظات والانذارات ﴿أمة منهم﴾ أى جماعة من صلحائهم الذين ركبوا فى عظتهم متن كل صعب وذلول حتى يئسوا من احتمال القبول لآخرين لايقلعون عن التذكير رجاء للنفع والتأثير مبالغة فى الاعذار وطمعا فى فائدة الانذار ﴿لم تعظون قوما الله مهلكهم﴾ أى مخترمهم بالكلية ومطهر الارض منهم ﴿أو معذبهم عذابا شديدا﴾ دون الاستئصال بالمرة وقيل مهلكهم مخزيهم فى الدنيا أو معذبهم فى الآخرة لعدم اقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق والطغيان والترديد لمنع الخلو دون منع الجمع فانهم مهلكون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة وايثار صيغة اسم الفاعل مع أن كلا من الاهلاك والتعذيب مترقب للدلالة على تحققهما وتقررهما البتة كأنهما واقعان وانما قالوه مبالغة فى أن الوعظ لاينجع فيهم أو ترهيبا للقوم أو سؤالا عن حكمة الوعظ ونفعه ولعلهم انما قالوه بمحضر من القوم حثالهم على الاتعاظ فان بت القول بهلاكهم وعذابهم مما يلقى فى قلوبهم الخوف والخشية وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعاظهم ردا عليهم وتهكما بهم وليس بذاك كما ستقف عليه ﴿قالوا﴾ أى الوعاظ ﴿معذرة الى ربكم﴾ أى نعظهم معذرة اليه تعالى على أنه مفعول له وهو الأنسب بظاهر قولهم لم تعظون أو نعتذر معذرة على أنه مصدر لفعل محذوف وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى موعظتنا معذرة اليه تعالى حتى لاننسب الى نوع تفريط فى النهى عن المنكر وفى اضافة الرب الى ضمير المخاطبين نوع تعريض بالسائلين ﴿ولعلهم يتقون﴾ عطف على معذرة أى ورجاء لأن يتقوا بعض التقاة وهذا صريح فى أن القائلين لم تعظون الخ ليسوا من الفرقة الهالكة والالوجب الخطاب ﴿فلما نسوا ماذكروا به﴾ أى تركوا ماذكرهم به صلحاؤهم ترك الناسى للشئ وأعرضوا عنه اعراضا كليا بحيث لم يخطر ببالهم شئ من تلك المواعظ أصلا ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ وهم الفريقان المذكوران واخراج انجائهم مخرج الجواب الذى حقه الترتب على الشرط وهو نسيان المعتدين المستتبع لاهلاكهم لما أن مافى حيز الشرط شيآن النسيان والتذكير كأنه قيل فلما ذكر المذكرون ولم يتذكر المعتدون أنجينا الاولين وأخذنا الآخرين وأما تصدير الجواب بانجائهم فلما مر مرارا من المسارعة الى بيان نجاتهم من أول الأمر مع مافى المؤخر من نوع طول ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ بالاعتداء ومخالفة الأمر ﴿بعذاب بئيس﴾ أى شديد وزنا ومعنى من بؤس يبؤس بأسا اذا اشتد وقرئ بيئس على وزن فيعل بفتح العين وكسرها وبئس كحذر وبئس على تخفيف العين ونقل حركتها الى الفاء ككبد فى كبد وبيس بقلب الهمزة ياء كذيب فى ذئب وبيس كريس بقلب همزة بئيس ياء وادغام الياء فيها وبيس على تخفيف بيس كهين فى هين وتنكير العذاب للتفخيم والتهويل ﴿بما كانوا يفسقون﴾ متعلق بأخذنا كالباء الأولى ولاضير فيه لاختلافهما معنى أى أخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب تماديهم فى الفسق الذى هو الخروج عن الطاعة وهو الظلم والعدوان أيضا واجراء الحكم على الموصول وان أشعر بعلية مافى حيز الصلة له لكنه صرح بالتعليل المذكور ايذانا بأن العلة هو الاستمرار على الظلم والعدوان مع اعتبار كون ذلك خروجا عن طاعة الله عز وجل لانفس الظلم والعدوان والالما أخروا عن ابتداء المباشرة ساعة ولعله تعالى قد عذبهم بعذاب شديد دون الاستئصال فلم يقلعوا عما كانوا

عليه بل ازدادوا فى الغى فمسخهم بعد ذلك لقوله تعالى ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ أى تمردوا وتكبروا وأبوا أن يتركوا مانهوا عنه ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ صاغرين أذلاء بعداء عن الناس والمراد بالأمر هو الأمر التكوينى لاالقولى وترتيب المسخ على العتو عن الانتهاء عما نهوا عنه للايذان بأنه ليس لخصوصية الحوت بل العمدة فى ذلك هو مخالفة الأمر والاستعصاء عليه تعالى وقيل المراد بالعذاب البئيس هو المسخ والجملة الثانية تقرير للأولى . روى أن اليهود أمروا باليوم الذى أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت وهو المعنى بقوله تعالى انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه فابتلوا به وحرم عليهم الصيد فيه وأمروا بتعظيمه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كأنها المخاض لايرى وجه الماء لكثرتها ولا تأتيهم فى سائر الأيام فكانوا على ذلك برهة من الدهر ثم جاءهم ابليس فقال لهم انما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا سهلة الورود صعبة الصدور ففعلوا فجعلوا يسوقون الحيتان اليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها ويأخذونها يوم الأحد وأخذ رجل منهم حوتا وربط فى ذنبه خيطا الى خشبة فى الساحل ثم شواه يوم الأحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع فى تنوره فقال له انى أرى الله سيعذبك فلما لم يره عذب أخذ فى يوم السبت القابل حوتين فلما رأوا أن العذاب لايعاجلهم استمروا على ذلك فصادوا وأكلوا وملحوا وباعوا وكانوا نحوا من سبعين ألفا فصار أهل القرية أثلاثا ثلث استمروا على النهى وثلث ملوا التذكير وسئموه وقالوا للواعظين لم تعظون الخ وثلث باشروا الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون نحن لانساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان لهم لشأنا فعلوا الجدار فنظروا فاذا هم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسباءهم من الانس وهم لايعرفونها فجعل القرد يأتى نسيبه فيشم ثيابه فيبكى فيقول له نسيبه ألم تنهكم فيقول القرد برأسه بلى ثم ماتوا عن ثلاث وقيل صار الشبان قردة والشيوخ خنازير وعن مجاهد رضى الله عنه مسخت قلوبهم وقال الحسن البصرى أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزيا فى الدنيا وأطولها عذابا فى الآخرة هاه وأيم الله ماحوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل موعدا والساعة أدهى وأمر ﴿واذ تأذن ربك﴾ منصوب على المفعولية بمضمر معطوف على قوله تعالى واسألهم وتأذن بمعنى آذن كما أن توعد بمعنى أوعد أو بمعنى عزم فان العازم على الأمر يحدث به نفسه وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله فلذلك أجيب بجوابه حيث قيل ﴿ليبعثن عليهم الى يوم القيامة﴾ أى واذكر لهم وقت ايجابه تعالى على نفسه أن يسلط على اليهود البتة ﴿من يسومهم سوء العذاب﴾ كالاذلال وضرب الجزية وغير ذلك من فنون العذاب وقد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه السلام بخت نصر فخرب ديارهم وقتل مقاتلتهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقى منهم وكانوا يؤدونها الى المجوس حتى بعث النبى عليه الصلاة والسلام ففعل مافعل ثم ضرب الجزية عليهم فلا تزال مضروبة الى آخر الدهر ﴿ان ربك لسريع العقاب﴾ يعاقبهم فى الدنيا ﴿وانه لغفور رحيم﴾ لمن تاب وآمن منهم ﴿وقطعناهم﴾ أى فرقنا بنى اسرائيل ﴿فى الأرض﴾ وجعلنا كل فرقة منهم فى قطر من أقطارها بحيث لاتخلو ناحية منها منهم تكملة لادبارهم حتى لاتكون لهم شوكة وقوله تعالى ﴿أمما﴾ اما مفعول ثان لقطعنا أو حال من مفعوله ﴿منهم الصالحون﴾ صفة لأمما أو بدل منه وهم الذين آمنوا بالمدينة ومن يسير بسيرتهم ﴿ومنهم دون ذلك﴾ أى ناس دون ذلك الوصف أى منحطون عن الصلاح وهم كفرتهم وفسقتهم ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ بالنعم والنقم ﴿لعلهم يرجعون﴾ عما كانوا فيه من الكفر والمعاصى ﴿فخلف من بعدهم﴾ أى من بعد المذكورين ﴿خلف﴾ أى بدل سوء مصدر نعت به

و لذلك يقع على الواحد والجمع وقيل جمع وهو شائع فى الشر والخلف بفتح اللام فى الخير والمراد به الذين كانوا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أى التوراة من أسلافهم يقرؤنها و يقفون على مافيها ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ استئناف مسوق لبيان مايصنعون بالكتاب بعد ورائتهم اياه أى يأخذون حطام هذا الشئ الأدنى أى الدنيا وهو من الدنو أو الدناءة والمراد به ما كانوا يأخذونه من الرشا فى الحكومات وعلى تحريف الكلام وقيل حال من واو ورثوا ﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ ولا يؤاخذنا الله تعالى بذلك و يتجاوز عنه والجملة تحتمل العطف والحالية والفعل مسند الى الجار والمجرور أو مصدر يأخذون ﴿ وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ حال من الضمير فى لنا أى يرجون المغفرة والحال أنهم مصرون على الذنب عائدون الى مثله غير تائبين عنه ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ﴾ أى الميثاق الوارد فى الكتاب ﴿ أن لا يقولوا على الله الا الحق ﴾ عطف بيان للميثاق أو متعلق به أى بأن لا يقولوا الخ والمراد به الردعليهم والتوبيخ على بتهم القول بالمغفرة بلا توبة والدلالة على أنها افتراء على الله تعالى وخروج عن ميثاق الكتاب ﴿ ودرسوا مافيه ﴾ عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فانه تقرير أو على ورثوا وهو اعتراض ﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ مافعل هؤلاء ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فتعلموا ذلك فلا تستبدلوا الأدنى المؤدى الى العقاب بالنعيم المخلد وقرئ بالياء و فى الالتفات تشديد للتوبيخ ﴿ والذين يمسكون بالكتاب ﴾ أى يتمسكون فى أمور دينهم يقال مسك بالشئ وتمسك به قال مجاهد هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذى جاء به موسى عليه السلام فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة وقال عطاء هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام وقرئ يمسكون من الامساك وقرئ تمسكوا واستمسكوا موافقا لقوله تعالى ﴿ وأقاموا الصلوة ﴾ ولعل التغيير فى المشهورة للدلالة على أن التمسك بالكتاب أمر مستمر فى جميع الأزمنة بخلاف اقامة الصلاة فانها مختصة بأوقاتها وتخصيصها بالذكر من بين سائر العبادات لانافتها عليها ومحل الموصول اما الجر نسقا على الذين يتقون وقوله أفلا تعقلون اعتراض مقرر لما قبله واما الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿ انا لانضيع أجر المصلحين ﴾ والرابط اما الضمير المحذوف كما هو رأى جمهور البصريين والتقدير أجر المصلحين منهم واما الالف واللام كما هو رأى الكوفيين فانه فى حكم مصلحيهم كما فى قوله تعالى فان الجنة هى المأوى أى مأواهم وقوله تعالى مفتحة لهم الأبواب أى أبوابها واما العموم فى مصلحين فانه من الروابط ومنه نعم الرجل زيد على أحد الوجوه وقيل الخبر محذوف والتقدير والذين يمسكون بالكتاب مأجورون أو مثابون وقوله تعالى انا لانضيع الخ اعتراض مقرر لما قبله ﴿ واذ نتقنا الجبل فوقهم ﴾ أى قلعناه من مكانه و رفعناه عليهم ﴿ كأنه ظلة ﴾ أى سقيفة وهى كل ماأظلك ﴿ وظنوا ﴾ أى تيقنوا ﴿ أنه واقع بهم ﴾ ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت فى الجو لأنهم كانوا يوعدون به واطلاق الظن فى الحكاية لعدم وقوع متعلقه وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله تعالى عليهم الطور وقيل لهم ان قبلتم مافيها فبها والا ليقعن عليكم ﴿ خذوا ما آتيناكم ﴾ أى وقلنا أو قائلين خذوا ما آتيناكم من الكتاب ﴿ بقوة ﴾ بجد وعزيمة على تحمل مشاقه وهو حال من الواو ﴿ واذكروا مافيه ﴾ بالعمل و لا تتركوه كالمنسى ﴿ لعلكم تتقون ﴾ بذلك قبائح الأعمال و رذائل الأخلاق أو راجين أن تنتظموا فى سلك المتقين ﴿ واذ أخذ ربك ﴾ منصوب بمضمر معطوف على ما انتصب به اذ نتقنا مسوق للاحتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العام المنتظم للناس قاطبة وتوبيخهم بنقضه اثر الاحتجاج عليهم بتذكير ميثاق الطور وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث قد مر بيانه مرارا أى واذكر لهم أخذ ربك ﴿ من بنى آدم ﴾ المراد بهم الذين ولدهم كائنا من كان نسلا بعد نسل سوى من لم يولد له بسبب من

الأسباب كالعقم وعدم التزوج والموت صغيرا وايثار الأخذ على الاخراج للايذان بالاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه من الأنباء عن الاجتباء والاصطفاء وهو السبب فى اسناده الى اسم الرب بطريق الالتفات مع مافيه من التمهيد للاستفهام الآتى واضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقوله تعالى ﴿ من ظهورهم ﴾ بدل من بنى آدم بدل البعض بتكرير الجار كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم ومن فى الموضعين ابتدائية وفيه مزيد تقرير لابتنائه على البيان بعد الابهام والتفصيل غب الاجمال وتنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم وهم فى أصلاب الآباء ولم يستودعوا فى أرحام الأمهات وقوله تعالى ﴿ ذريتهم ﴾ مفعول أخذ أخر عن المفعول بواسطة الجار لاشتماله على ضمير راجع اليه ولمراعاة أصالته ومنشئيته ولما مر مرارا من التشويق الى المؤخر وقرئ ذرياتهم والمراد بهم أولادهم على العموم فيندرج فيهم اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اندراجا أوليا كما اندرج أسلافهم فى بنى آدم كذلك وتخصيصهما باليهود سلفا وخلفا مع أن ما أريد بيانه من بديع صنع الله تعالى عز وجل شامل للكل كافة مخل بفخامة التنزيل وجزالة التمثيل ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ﴾ أى أشهد كل واحدة من أولئك الذريات المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسها لا على غيرها تقريرا لهم بربوبيته التامة وما تستتبعه من المعبودية على الاختصاص وغير ذلك من أحكامها وقوله تعالى ﴿ ألست بربكم ﴾ على ارادة القول أى قائلا ألست بربكم ومالك أمركم ومربيكم على الاطلاق من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شئونكم فينتظم استحقاق المعبودية و يستلزم اختصاصه به تعالى ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا ﴿ بلى شهدنا ﴾ أى على أنفسنا بأنك ربنا والهنا لا رب لنا غيرك كما ورد فى الحديث الشريف وهذا تمثيل لخلقه تعالى اياهم جميعا فى مبدأ الفطرة مستعدين للاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والأنفس المؤدية الى التوحيد والاسلام كما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة الحديث مبنى على تشبيه الهيئة المنتزعة من تعريضه تعالى اياهم لمعرفة ربوبيته بعد تمكينهم منها بما ركز فيهم من العقول والبصائر ونصب لهم فى الآفاق والانفس من الدلائل تمكينا تاما ومن تمكنهم منها تمكنا كاملا وتعرضهم لها تعرضا قويا بهيئة منتزعة من حمله تعالى اياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ومن مسارعتهم الى ذلك من غير تلعثم أصلا من غير أن يكون هناك أخذ واشهاد وسؤال وجواب كما فى قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقوله تعالى ﴿ أن تقولوا ﴾ بالتاء على تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى معاصريه من اليهود تشديدا فى الالزام أو اليهم والى متقدميهم بطريق التغليب لكن لا من حيث انهم مخاطبون بقوله تعالى ألست بربكم فانه ليس من الكلام المحكى وقرئ بالياء على أن الضمير للذرية وأيا ما كان فهو مفعول له لما قبله من الاخذ والاشهاد أى فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة أو يقولوا هم ﴿ يوم القيامة ﴾ عند ظهور الأمر ﴿ انا كنا عن هذا ﴾ عن وحدانية الربوبية وأحكامها ﴿ غافلين ﴾ لم ننبه عليه فانهم حيث جبلوا على ماذكر من التهيؤ التام لتحقيق الحق والقوة القريبة من الفعل صاروا محجوجين عاجزين عن الاعتذار بذلك اذ لا سبيل لاحد الى انكار ماذكر من خلقهم على الفطرة السليمة وقوله تعالى ﴿ أو تقولوا انما أشرك آباؤنا ﴾ عطف على تقولوا وأو لمنع الخلو دون الجمع أى هم اختر عوا الاشراك وهم سنوه ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل زماننا ﴿ وكنا ﴾ نحن ﴿ ذرية من بعدهم ﴾ لا نهتدى الى السبيل ولا نقدر على الاستدلال بالدليل ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ من آبائنا المضلين بعد ظهور أنهم المجرمون ونحن عاجزون عن التدبير والاستبداد بالرأى أو أتؤاخذنا فتهلكنا الخ فان ماذكر من استعدادهم الكامل يسد عليهم باب الاعتذار بهذا أيضا فان التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها مما لا مساغ له أصلا هذا وقد حملت هذه المقاولة على الحقيقة كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما

من أنه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة فقال ألست بربكم قالوا بلى فنودى يومئذ جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن الآية الكريمة فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال ان الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة و بعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار و بعمل أهل النار يعملون وليس المعنى أنه تعالى أخرج الكل من ظهره عليه الصلاة والسلام بالذات بل أخرج من ظهره عليه السلام أبناءه الصلبية ومن ظهرهم أبناءهم الصلبية وهكذا الى آخر السلسلة لكن لما كان المظهر الأصلى ظهره عليه الصلاة والسلام وكان مساق الحديثين الشريفين بيان حال الفريقين اجمالا من غير أن يتعلق بذكر الوسايط غرض علمى نسب اخراج الكل اليه وأما الآية الكريمة فحيث كانت مسوقة للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم و بيان عدم افادة الاعتذار باسناد الاشراك الى آبائهم اقتضى الحال نسبة اخراج كل واحد منهم الى ظهر أبيهم من غير تعرض لاخراج الابناء الصلبية لآدم عليه السلام من ظهره قطعا وعدم بيان الميثاق فى حديث عمر رضى الله تعالى عنه ليس بيانا لعدمه و لا مستلزما له وأما ماقالوا من أن أخذ الميثاق لاسقاط عذر الغفلة حسبما ينطق به قوله تعالى أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ومعلوم أنه غير دافع لغفلتهم فى دار التكليف اذ لا فرد من أفراد البشر يذكر ذلك فمردود لكن لا بما قيل من أن الله عز وجل قد أوضح الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمته الحجة ونسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد اخبار المخبر الصادق بل بأن قوله تعالى أن تقولوا الخ ليس مفعولا له لقوله تعالى وأشهدهم وما يتفرع عليه من قولهم بلى شهدنا حتى يجب كون ذلك الاشهاد والشهادة محفوظا لهم فى الزامهم بل لفعل مضمر ينسحب عليه الكلام والمعنى فعلنا ما فعلنا من الأمر بذكر الميثاق و بيانه كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة انا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه فى دار التكليف والا لعملنا بموجبه هذا على قراءة الجمهور وأما على القراءة بالياء فهو مفعول له لنفس الأمر المضمر العامل فى اذ أخذ والمعنى اذكر لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباء هذا على تقدير كون قوله تعالى شهدنا من كلام الذرية وهو الظاهر فاما على تقدير كونه من كلامه تعالى فهو العامل فى أن تقولوا ولا محذور أصلا اذ المعنى شهدنا قولكم هذا لئلا تقولوا يوم القيامة الخ لأنا نردكم ونكذبكم حينئذ ﴿وكذلك﴾ اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه و بعد منزلته والكاف مقحمة مؤكدة لما أفاده اسم الاشارة من الفخامة والتقديم على الفعل لافادة القصر ومحله النصب على المصدرية أى ذلك التفصيل البليغ المستتبع للنافع الجليلة ﴿نفصل الآيات﴾ المذكورة لاغير ذلك ﴿ولعلهم يرجعون﴾ ولير جعوا عما هم عليه من الاصرار على الباطل وتقليد الآباء نفعل التفصيل المذكور قالوا وان ابتدائيتان ويجوز أن تكون الثانية عاطفة على مقدر مترتب على التفصيل أى وكذلك نفصل الآيات ليقفوا على ما فيها من المرغبات والزواجر ولير جعوا الخ ﴿واتل عليهم﴾ عطف على المضمر العامل فى اذ أخذ وارد على نمطه فى الانباء عن الحور بعد الكور والضلالة بعد الهدى أى واتل على اليهود ﴿نبأ الذى آتيناه آياتنا﴾ أى خبره الذى له شأن وخطر وهو أحد علماء بنى اسرائيل وقيل هو بلعم بن باعوراء أو بلعام بن باعر من الكنعانيين أوتى علم بعض كتب الله تعالى وقيل هو أمية بن أبى الصلت وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل فى ذلك الزمان رسولا ورجا أن يكون هو الرسول فلما بعث الله تعالى النبى صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به والأول هو الانسب بمقام توبيخ اليهود بهناتهم

﴿فانسلخ منها﴾ أى من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة ولم يخطرها بباله أصلا أو خرج منها بالكلية بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره وأيا ما كان فالتعبير عنه بالانسلاخ المنبئ عن اتصال المحيط بالمحاط خلقة وعن عدم الملاقاة بينهما أبدا للايذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال ﴿فاتبعه الشيطان﴾ أى تبعه حتى لحقه وأدركه فصار قرينا له وهو المعنى على قراءة فاتبعه من الافتعال وفيه تلويح بأنه أشد من الشيطان غواية أو أتبعه خطواته ﴿فكان من الغاوين﴾ فصار من زمرة الضالين الراسخين فى الغواية بعد أن كان من المهتدين و روى أن قومه طلبوا اليه أن يدعو على موسى عليه السلام فقال كيف أدعو على من معه الملائكة فلم يزالوا به حتى فعل فبقوا فى التيه و يرده أن التيه كان لموسى عليه السلام روحا وراحة وانما عذب به بنو اسرائيل وقد كان ذلك بدعائه عليه السلام عليهم كما مر فى سورة المائدة ﴿ولو شئنا﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان مناط ماذكر من انسلاخه من الآيات ووقوعه فى مهاوى الغواية ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء على القاعدة المستمرة أى ولو شئنا رفعه ﴿لرفعناه﴾ أى الى المنازل العالية للابرار العاملين بتلك الآيات العاملين بموجبها لكن لا بمحض مشيئتنا من غير أن يكون له دخل فى ذلك أصلا فانه مناف للحكمة التشريعية المؤسسة على تعليق الاجزية بالافعال الاختيارية للعباد بل مع مباشرته للعمل المؤدى الى الرفع بصرف اختياره الى تحصيله كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿بها﴾ أى بسبب تلك الآيات بأن عمل بموجبها فان اختياره وان لم يكن مؤثرا فى حصوله ولا فى ترتب الرفع عليه بل كلاهما بخلق الله تعالى لكن خلقه تعالى منوط بذلك البتة حسب جريان العادة الالهية وقد أشير الى ذلك فى الاستدراك بأن أسند ما يؤدى الى نقيض التالى اليه حيث قيل ﴿ولكنه أخلد الى الأرض﴾ مع أن الاخلاد اليها أيضا مما لا يتحقق عند صرف اختياره اليه الا بخلقه تعالى كأنه قيل ولو شئنا رفعه بمباشرته لسببه لرفعناه بسبب تلك الآيات التى هى أقوى أسباب الرفع ولكن لم نشأ لمباشرته لسبب نقيضه فترك فى كل من المقامين ماذكر فى الآخر تعويلا على اشعار المذكور بالمطوى كما فى قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله وتخصيص كل من المذكورين بمقامه للايذان بأن الرفع مراد له تعالى بالذات وتفضل محض عليه لا دخل فيه لفعله حقيقة كيف لا وجميع أفعاله ومباديها من نعمه تعالى وتفضلاته وان نقيضه انما أصابه بسوء اختياره على موجب الوعيد لا بالارادة الذاتية له سبحانه كما قيل فى وجه ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر فى الآية المذكورة وهو السر فى جريان السنة القرآنية على اسناد الخير اليه تعالى واضافة الشر الى الغير كما فى قوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين ونظائره والاخلاد الى الشئ الميل اليه مع الاطمئنان به والمراد بالارض الدنيا وقيل السفالة والمعنى ولكنه آثر الدنيا الدنية على المنازل السنية أو الضعة والسفالة على الرفعة والجلالة ﴿واتبع هواه﴾ معرضا عن تلك الآيات الجليلة فانحط أبلغ انحطاط وارتد أسفل سافلين والى ذلك أشير بقوله تعالى ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ لما أنه أخس الحيوانات وأسفلها وقد مثل حاله بأخس أحواله وأذلها حيث قيل ﴿ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أى فحاله التى هى مثل فى السوء كصفته فى أرذل أحواله وهى حالة دوام اللهث به فى حالتى التعب والراحة فكأنه قيل فتردى الى مالا غاية وراءه فى الخسة والدناءة وايثار الجملة الاسمية على الفعلية بأن يقال فصار مثله كمثل الكلب الخ للايذان بدوام اتصافه بتلك الحالة الخسيسة و كمال استقراره واستمراره عليها والخطاب فى فعل الشرط لكل أحد ممن له حظ من الخطاب فانه أدخل فى اشاعة فظاعة حاله واللهث ادلاع اللسان بالتنفس الشديد أى هو ضيق الحال مكروب دائم اللهث سواء هيجته وأزعجته بالطرد العنيف أو تركته على حاله فانه فى الكلاب طبع لا تقدر على نفض الهواء المتسخن وجلب الهواء البارد بسهولة لضعف قلبها وانقطاع فؤادها بخلاف سائر الحيوانات فانها لا تحتاج الى التنفس الشديد

ولا يلحقها الكرب والمضايقة الاعند التعب والاعياء والشرطية مع أختها تفسير لما أبهم فى المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه لامحل له من الاعراب على منهاج قوله تعالى خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون اثر قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم وقيل هى فى محل النصب على الحالية من الكلب بناء على خروجهما من حقيقة الشرط وتحولهما الى معنى التسوية حسب تحول الاستفهامين المتناقضين اليه فى مثل قوله تعالى أأنذرتهم أم لم تنذرهم كأنه قيل لاهثا فى الحالتين وأيا ما كان فالاظهر أنه تشبيه للهيئة المنتزعة مما اعتراه بعد الانسلاخ من سوء الحال واضطرام القلب ودوام القلق والاضطراب وعدم الاستراحة بحال من الاحوال بالهيئة المنتزعة مما ذكر من حال الكلب وقيل لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فتدلى على صدره وجعل يلهث كالكلب الى أن هلك ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من الحالة الخسيسة منسوبة الى الكلب أو الى المنسلخ وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الخسة والدناءة أى ذلك المثل السيء ﴿مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وهم اليهود حيث أوتوا فى التوراة ما أوتوا من نعوت النبى عليه الصلاة والسلام وذكر القرآن المعجز ومافيه فصدقوه وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة ﴿فاقصص القصص﴾ القصص مصدر سمى به المفعول كالسلب واللام للعهد والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها أى اذا تحقق أن المثل المذكور مثل هؤلاء المكذبين فاقصصه عليهم حسبما أوحى اليك ﴿لعلهم يتفكرون﴾ فيقفون على جلية الحال وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال ويعلمون انك قد علمته من جهة الوحى فيزدادون ايقانا بك والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير المخاطب أو على أنها مفعول له أى فاقصص القصص راجيا لتفكرهم أى أو رجاء لتفكرهم ﴿ساء مثلا﴾ استئناف مسوق لبيان كمال قبح حال المكذبين بعد بيان كونه كحال الكلب أو المنسلخ وساء بمعنى بئس وفاعلها مضمر فيها ومثلا تمييز مفسر له والمخصوص بالذم قوله تعالى ﴿القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وحيث وجب التصادق بينه وبين الفاعل والتمييز وجب المصير الى تقدير مضاف اما اليه وهو الظاهر أى ساء مثلا مثل القوم الخ أو الى التمييز أى ساء أصحاب مثل القوم الخ وقرىء ساء مثل القوم واعادة القوم موصوفا بالموصول مع كفاية الضمير بأن يقال ساء مثلا مثلهم للايذان بأن مدار السوء مافى حيز الصلة ولربط قوله تعالى ﴿وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ به فانه اما معطوف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة بمعنى جمعوا بين تكذيب آيات الله بعد قيام الحجة عليها وعليهم بها وبين ظلمهم لانفسهم خاصة أو منقطع عنه بمعنى وما ظلموا بالتكذيب الا أنفسهم فان وباله لا يتخطاها وأيا ما كان ففى يظلمون لمح الى أن تكذيبهم بالآيات متضمن للظلم بها وأن ذلك أيضا معتبر فى القصر المستفاد من تقديم المفعول ﴿من يهد الله فهو المهتدى﴾ لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله ليتفكروا فيه ويتركوا ماهم عليه من الاخلاد الى الضلالة ويهتدوا الى الحق عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل وانما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية فى حصول الاهتداء من غير تأثير لها فيه سوى كونها دواعى الى صرف العبد اختياره نحو تحصيله حسبما نيط به خلق الله تعالى اياه كسائر أفعال العباد فالمراد بهذه الهداية مايوجب الاهتداء قطعا لكن لالأن حقيقتها الدلالة الموصلة الى البغية البتة بل لأنها الفرد الكامل من حقيقة الهداية التى هى الدلالة الى مايوصل الى البغية أى مامن شأنه الايصال اليها كما سبق تحقيقه فى تفسير قوله تعالى هدى للمتقين وليس المراد مجرد الاخبار باهتداء من هداه الله تعالى حتى يتوهم عدم الافادة بحسب الظاهر لظهور استلزام هدايته تعالى للاهتداء ويحمل النظم الكريم على تعظيم شأن الاهتداء والتنبيه على أنه فى نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره ليكفاه بل هو قصر الاهتداء على من هداه الله تعالى حسبما يقضى به تعريف الخبر فالمعنى

من يهده الله أى يخلق فيه الاهتداء على الوجه المذكور فهو المهتدى لاغير كائنا من كان ﴿ومن يضلل﴾ بأن لم يخلق فيه الاهتداء بل خلق فيه الضلالة لصرف اختياره نحوها ﴿فأولئك﴾ الموصوفون بالضلالة على الوجه المذكور ﴿هم الخاسرون﴾ أى الكاملون فى الخسران لاغير وافراد المهتدى نظرا الى لفظ من وجمع الخاسرين نظرا الى معناها للايذان باتحاد منهاج الهدى وتفرق طرق الضلال ﴿ولقد ذرأنا﴾ كلام مستأنف مقرر لمضمون ماقبله بطريق التذييل أى خلقنا ﴿لجهنم﴾ أى لدخولها والتعذيب بها وتقديمه على قوله تعالى ﴿كثيرا﴾ أى خلقا كثيرا مع كونه مفعولا به لما فى توابعه من نوع طول يؤدى توسيطه بينهما وتأخيره عنها الى الاخلال بجزالة النظم الكريم وقوله تعالى ﴿من الجن والانس﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لكثيرا أى كائنا منهما وتقديم الجن لأنهم أعرق من الانس فى الاتصاف بما نحن فيه من الصفات وأكثر عددا وأقدم خلقا والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة لكن لابطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم مايؤدى الى ذلك بل لعلمه تعالى بأنهم لايصرفون اختيارهم نحو الحق أبدا بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيا بها كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطرى للعبادة وتمكنهم التام منها جعل خلقهم مغيا بها كما نطق به قوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى ﴿لهم قلوب﴾ فى محل النصب على أنه صفة أخرى لكثيرا وقوله تعالى ﴿لا يفقهون بها﴾ فى محل الرفع على أنه صفة لقلوب مؤكدة لما يفيده تنكيرها وابهامها من كونها غير معهودة مخالفة لسائر أفراد الجنس فاقدة لكماله بالكلية لكن لابحسب الفطرة حقيقة بل بسبب امتناعهم عن صرفها الى تحصيله وهذا وصف لها بكمال الاغراق فى القساوة فانها حيث لم يتأت منها الفقه بحال فكأنها خلقت غير قابلة له رأسا وكذا الحال فى أعينهم وآذانهم وحذف المفعول للتعميم أى لهم قلوب ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئا مما من شأنه أن يفقه فيدخل فيه مايليق بالمقام من الحق ودلائله دخولا أوليا وتخصيصه بذلك مخل بالافصاح عن كنه حالهم ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ الكلام فيه كما فيما عطف هو عليه والمراد بالابصار والسمع المنفيين مايختص بالعقلاء من الادراك على ماهو وظيفة الثقلين لا مايتناول مجرد الاحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الانعام أى لا يبصرون بها شيأ من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجا أوليا ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ أى شيأ من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية تناولا أوليا واعادة الخبر فى الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بأن يقال وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها لتقرير سوء حالهم وفى اثبات المشاعر الثلاثة لهم ثم وصفها بعدم الشعور دون سلبها عنهم ابتداء بأن يقال ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها من الشهادة بكمال رسوخهم فى الجهل والغواية مالا يخفى ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الضلال أى أولئك الموصوفون بالاوصاف المذكورة ﴿كالأنعام﴾ أى فى انتفاء الشعور على الوجه المذكور أو فى أن مشاعرهم متوجهة الى أسباب التعيش مقصورة عليها ﴿بل هم أضل﴾ فانها تدرك مامن شأنها أن تدركه من المنافع والمضار فتجتهد فى جلبها وسلبها غاية جهدها مع كونها بمعزل من الخلود وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لا يميزون بين المنافع والمضار بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه وفى الخبر كل شىء أطوع لله من ابن آدم ﴿أولئك﴾ المنعوتون بما مر من مثلية الأنعام والشرية منها ﴿هم الغافلون﴾ الكاملون فى الغفلة المستحقون لأن يخص بهم الاسم ولا يطلق على غيرهم كيف لا وانهم لا يعرفون من شئون الله عز وجل ولا من شئون ماسواه شيأ فيشرفون

به سبحانه وليس كمثله شئ وهو السميع البصير أصنامهم التى هى من أخس مخلوقاته تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المخلين بذلك الغافلين عنه سبحانه عما يليق به من الأمور ومالا يليق به اثر بيان غفلتهم التامة وضلالتهم الطامة والحسنى تأنيث الأحسن أى الاسماء التى هى أحسن الاسماء وأجلها لانبائها عن أحسن المعانى وأشرفها ﴿فادعوه بها﴾ أى فسموه بتلك الاسماء ﴿وذروا الذين يلحدون فى أسمائه﴾ الالحاد واللحد الميل والانحراف يقال لحد وألحد اذا مال عن القصد وقرئ يلحدون من الثلاثى أى يميلون فى شأنها عن الحق الى الباطل اما بأن يسموه تعالى بما لا توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسدا كما فى قول أهل البدو يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا نخى ونحو ذلك فالمراد بالترك المأمور به الاجتناب عن ذلك و بأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم لا أسماؤه تعالى حقيقة وعلى ذلك يحمل ترك الاضمار بأن يقال يلحدون فيها واما بأن يعدلوا عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة كما قالوا وما الرحمن ما نعرف سوى رحمان اليمامة فالمراد بالترك الاجتناب أيضا و بالاسماء أسماؤه تعالى حقيقة فالمعنى سموه تعالى بجميع أسمائه الحسنى واجتنبوا اخراج بعضها من البين واما بأن يطلقوها على غيره تعالى كما سموا أصنامهم آلهة واما بأن يشتقوا من بعضها أسماء أصنامهم كما اشتقوا اللات من الله تعالى والعزى من العزيز فالمراد بالاسماء أسماؤه تعالى حقيقة كما فى الوجه الثانى والاظهار فى موقع الاضمار مع التجريد عن الوصف فى الكل للايذان بأن الحادهم فى نفس الاسماء من غير اعتبار الوصف وليس المراد بالترك حينئذ الاجتناب عن ذلك اذ لا يتوهم صدور مثل هذا الالحاد عن المؤمنين ليؤمروا بتركه بل هو الاعراض عنهم وعدم المبالاة بما فعلوا ترقبا لنزول العقوبة بهم عن قريب كما هو المتبادر من قوله تعالى ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾ فانه استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بعدم المبالاة والاعراض عن المجازاة كأنه قيل لم لا نبالى بالحادهم و لا نتصدى لمجازاتهم فقيل لانه سينزل بهم عقوبته وتتشفون بذلك عن قريب وأما على الوجهين الأولين فالمعنى اجتنبوا الحادهم كيلا يصيبكم ما أصابهم فانه سينزل بهم عقوبة الحادهم ﴿ومن خلقنا أمة يهدون بالحق و به يعدلون﴾ بيان اجمالى لحال من عدا المذكورين من الثقلين الموصوفين بما ذكر من الضلال والالحاد عن الحق ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ اما باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف وما بعده خبره كما مر فى تفسير قوله تعالى ومن الناس الخ أى و بعض من خلقنا أو و بعض ممن خلقنا أمة أى طائفة كثيرة يهدون الناس ملتبسين بالحق أو يهدونهم بكلمة الحق و يدلونهم على الاستقامة و بالحق يحكمون فى الحكومات الجارية فيما بينهم و لا يجورون فيها . عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول اذا قرأها هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة الآية . وعنه عليه الصلاة والسلام ان من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى وروى لا تزال من أمتى طائفة على الحق الى أن يأتى أمر الله وروى لا تزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم و لا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون وفيه من الدلالة على صحة الاجماع ما لا يخفى والاقتصار على نعتهم بهداية الناس للايذان بأن اهتداءهم فى أنفسهم أمر محقق غنى عن التصريح به ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ شروع فى تحقيق الحق الذى به يهدى الهادون و به يعدل العادلون وحمل الناس على الاهتداء به على وجه الترهيب ومحل الموصول الرفع على أنه مبتدأ خبره مابعده من الجملة الاستقبالية واضافة الآيات الى نون العظمة لتشريفها واستعظام الاقدام على تكذيبها أى والذين كذبوا بآياتنا التى هى معيار الحق ومصداق الصدق والعدل ﴿سنستدرجهم﴾ أى نستدنيهم البتة الى الهلاك شيئاً فشيئاً والاستدراج استفعال من درج اما بمعنى صعد ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل نقل تدريجى سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط أو الاستقامة واما بمعنى مشى مشيا ضعيفا واما بمعنى طوى والأول هو الانسب بالمعنى المراد الذى هو النقل الى

أعلى درجات المهالك ليبلغ أقصى مراتب العقوبة والعذاب ثم استعير لطلب كل نقل تدريجى من حال الى حال من الاحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه بحيث يزعم أن ذلك ترق فى مراقى منافعه مع أنه فى الحقيقة تردد فى مهاوى مصارعه فاستدراجه سبحانه اياهم أن يواتر عليهم النعم مع انهماكهم فى الغى فيحسبوا أنها لطف لهم منه تعالى فيزدادوا بطرا وطغيانا لكن لا على أن المطلوب تدرجهم فى مراتب النعم بل هو تدرجهم فى مدارج المعاصى الى أن يحق عليهم كلمة العذاب على أفظع حال وأشنعها والأول وسيلة اليه وقوله تعالى ﴿من حيث لا يعلمون﴾ متعلق بمضمر وقع صفة لمصدر الفعل المذكور أى سنستدرجهم استدراجا كائنا من حيث لا يعلمون أنه كذلك بل يحسبون أنه أثرة من الله عز وجل وتقريب منه وقيل لا يعلمون ما يراد بهم ﴿وأملى لهم﴾ عطف على سنستدرجهم غير داخل فى حكم السين لما أن الاملاء الذى هو عبارة عن الامهال والاطالة ليس من الأمور التدريجية كالاستدراج الحاصل فى نفسه شيئاً فشيئاً بل هو فعل يحصل دفعة وانما الحاصل بطريق التدريج آثاره وأحكامه لا نفسه كما يلوح به تغيير التعبير بتوحيد الضمير مع مافيه من الافتنان المنبئ عن مزيد الاعتناء بمضمون الكلام لابتنائه على تجديد القصد والعزيمة وأما ان ذلك للاشعار بأنه بمحض التقدير الالهى والاستدراج بتوسط المدبرات فبناه دلالة نون العظمة على الشركة وأنى ذلك والا لاحترز عن ايرادها فى قوله تعالى ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم انما نملى لهم الآية بل انما ايرادها فى أمثال هذه الموارد بطريق الجريان على سنن الكبرياء ﴿ان كيدى متين﴾ تقرير للوعيد وتأكيد له أى قوى لا يدافع بقوة ولا بحيلة والمراد به اما الاستدراج والاملاء مع نتيجتهما التى هى الأخذ الشديد على غرة فتسميته كيدا لما أن ظاهره لطف و باطنه قهر واما نفس ذلك الأخذ فقط فالتسمية لكون مقدماته كذلك وأما أن حقيقة الكيد هو الأخذ على خفاء من غير أن يعتبر فيه اظهار خلاف ما أبطنه فما لا تعويل عليه مع عدم مناسبته للمقام ضرورة استدعائه لاعتبار القيد المذكور حتما ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾ كلام مبتدأ مسوق لانكار عدم تفكرهم فى شأنه عليه الصلاة والسلام وجهلهم بحقيقة حاله الموجبة للايمان به و بما أنزل عليه من الآيات التى كذبوا بها والهمزة للانكار والتعجيب والتوبيخ والواو للعطف على مقدر يستدعيه سياق النظم الكريم وسياقه وما اما استفهامية انكارية فى محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم واما نافية اسمها جنة وخبرها بصاحبهم والجنة من المصادر التى يرادبها الهيئة كالركبة والجلسة وتنكيرها للتقليل والتحقير والجملة معلقة لفعل التفكر لكونه من أفعال القلوب ومحلها على الوجهين النصب على نزع الجار أى أكذبوا بها ولم يتفكروا فى أى شئ من جنون ما كائن بصاحبهم الذى هو أعظم الأمة الهادية بالحق وعليه أنزلت تلك الآيات أو فى أنه ليس بصاحبهم شئ من جنة حتى يؤديهم التفكر فى ذلك الى الوقوف على صدقه وصحة نبوته فيؤمنوا به و بما أنزل عليه من الآيات وقيل قد تم الكلام عند قوله تعالى أولم يتفكروا أى أكذبوا بها ولم يفعلوا التفكر ثم ابتدئ فقيل أى شئ بصاحبهم من جنة ما على طريقة الانكار والتعجيب والتبكيت أو قيل ليس بصاحبهم شئ منها والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم للايذان بأن طول مصاحبتهم له عليه الصلاة والسلام مما يطلعهم على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة ماذكر ففيه تأكيد للنكير وتشديد له والتعرض لنفى الجنون عنه عليه الصلاة والسلام مع وضوح استحالة ثبوته له عليه الصلاة السلام لما أن التكلم بما هو خارق لقضية العقول والعادات لا يصدر الا عمن به مس من الجنون كيفما اتفق من غير أن يكون له أصل ومعنى أو عمن له تأييد الهى يخبر به عن الأمور الغيبية واذ ليس به عليه السلام شائبة الأول تعين أنه عليه الصلاة والسلام مؤيد من عند الله تعالى وقيل انه عليه الصلاة والسلام علا الصفا ليلا فجعل يدعو قريشا فخذا فخذا يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم ان صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت الى الصباح فنزلت فالتصريح بنفى الجنون حينئذ للرد على عظيمتهم الشنعاء والتعبير عنه

عليه الصلاة والسلام بصاحبهم وارد على شاكلة كلامهم مع مافيه من النكتة المذكورة وقوله تعالى ﴿ان هو الانذير مبين﴾ جملة مقررة لمضمون ماقبلها ومبينة لحقيقة حاله عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى انهذا الاملك كريم بعد قوله تعالى ماهذا بشرا أى ماهو عليه الصلاة والسلام الا مبالغ فى الانذار مظهر له غاية الاظهار ابرازا لكمال الرأفة ومبالغة فى الاعذار وقوله تعالى ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض﴾ استئناف آخر مسوق للانكار والتوبيخ باخلالهم بالتأمل فى الآيات التكوينية المنصوبة فى الآفاق والانفس الشاهدة بصحة مضمون الآيات المنزلة اثر مانعى عليهم اخلالهم بالتفكر فى شأنه عليه الصلاة والسلام والهمزة لماذكر من الانكار والتعجب والتوبيخ والواو للعطف على المقدر المذكور أو على الجملة المنفية بلم والملكوت الملك العظيم أى أكذبوا بها أولم يتفكروا فيما ذكر ولم ينظروا نظر تأمل فيما يدل عليه السموات والارض من عظم الملك وكمال القدرة ﴿وماخلق الله﴾ أى وفيماخلق فيهما على أنه عطف على ملكوت وتخصيصه بهما لكمال ظهور عظم الملك فيهما أو وفى ملكوت ماخلق على أنه عطف على السموات والارض والتعميم لاشتراك الكل فى الدلالة على عظم الملك فى الحقيقة وعليه قوله تعالى فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ وقوله تعالى ﴿من شئ﴾ بيان لماخلق مفيد لعدم اختصاص الدلالة المذكورة بجلائل المصنوعات دون دقائقها والمعنى أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وماخلق فيهما من جليل ودقيق مما ينطلق عليه اسم الشئ ليدلهم ذلك على العلم بوحدانيته تعالى وبسائر شئونه التى ينطق بها تلك الآيات فيؤمنوا بها لاتحادهما فى المدلول فان كل فرد من أفراد الاكوان مما عزوهان دليل لائح على الصانع المجيد وسبيل واضح الى عالم التوحيد وقوله تعالى ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ عطف على ملكوت وأن مخففة من أن واسمها ضمير الشان وخبرها عسى مع فاعلها الذى هو أن يكون واسم يكون أيضا ضمير الشأن والخبر قداقترب أجلهم والمعنى أولم ينظروا فى أن الشأن عسى أن يكون الشان قد اقترب أجلهم وقد جوز أن يكون اسم يكون أجلهم وخبرها قد اقترب على أنها جملة من فعل وفاعل هو ضمير أجلهم لتقدمه حكما وأيا ماكان فمناط الانكار والتوبيخ تأخيرهم للنظر والتأمل أى لعلهم يموتون عما قريب فمالهم لايسارعون الى التدبر فى الآيات التكوينية الشاهدة بما كذبوه من الآيات القرآنية وقد جوز أن يكون الاجل عبارة عن الساعة والاضافة الى ضميرهم لملابستهم لها من جهة انكارهم لها وبحثهم عنها وقوله تعالى ﴿فبأى حديث بعده يؤمنون﴾ قطع لاحتمال ايمانهم رأسا ونفى له بالكلية مترتب على ماذكر من تكذيبهم بالآيات واخلالهم بالتفكر والنظر والباء متعلقة بيؤمنون وضمير بعده للآيات على حذف المضاف المفهوم من كذبوا والتذكير باعتبار كونها قرآنا أو بتأويلها بالمذكور واجراء الضمير مجرى اسم الاشارة والمعنى أكذبوا بها ولم يتفكروا فيما يوجب تصديقها من أحواله عليه الصلاة والسلام وأحوال المصنوعات فبأى حديث يؤمنون بعد تكذيبه ومعه مثل هذه الشواهد القوية كلا وهيهات وقيل الضمير للقرآن والمعنى فبأى حديث بعد القرآن يؤمنون اذا لم يؤمنوا به وهو النهاية فى البيان وقيل هو انكار وتبكيت لهم مترتب على اخلالهم بالمسارعة الى التأمل فيما ذكر كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فمالهم لايبادرون الى الايمان بالقرآن قبل الفوت وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا وقيل الضمير لاجلهم والمعنى فبأى حديث بعد انقضاء أجلهم يؤمنون وقيل للرسول عليه الصلاة والسلام على حذف مضاف أى فبأى حديث بعد حديثه يؤمنون وهو أصدق الناس وقوله تعالى ﴿من يضلل الله فلا هادى له﴾ استئناف مقرر لما قبله منبئ عن الطبع على قلوبهم وقوله تعالى ﴿ويذرهم فى طغيانهم﴾ بالياء والرفع على الاستئناف أى وهو يذرهم وقرئ بنون العظمة على طريقة الالتفات أى ونحن نذرهم وقرئ بالياء والجزم عطفا على محل فلا هادى له كأنه قيل من يضلل الله

لايهده أحد ويذرهم وقد روى الجزم بالنون عن نافع وأبى عمرو فى الشواذ وقوله تعالى ﴿يعمهون﴾ أى يترددون ويتحيرون حال من مفعول يذرهم وتوحيد الضمير فى حيز النفى نظرا الى لفظ من وجمعه فى حيز الاثبات نظرا الى معناها للتنصيص على شمول النفى والاثبات للكل ﴿يسألونك عن الساعة﴾ استئناف مسوق لبيان بعض أحكام ضلالهم وطغيانهم أى عن القيامة وهى من الاسماء الغالبة واطلاقها عليها اما لوقوعها بغتة أو لسرعة مافيها من الحساب أو لأنها ساعة عند الله تعالى مع طولها فى نفسها قيل ان قوما من اليهود قالوا يامحمد أخبرنا متى الساعة ان كنت نبيا فانا نعلم متى هى وكان ذلك امتحانا منهم مع علمهم أنه تعالى قداستأثر بعلمها وقيل السائلون قريش وقوله تعالى ﴿أيان مرساها﴾ بفتح الهمزة وقد قرئ بكسرها وهوظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام ويليه المبتدأ أوالفعل المضارع دون الماضى بخلاف متى حيث يليها كلاهما قيل اشتقاقه من أى فعلان منه لأن معناه أى وقت وهو من أويت الى الشئ لأن البعض آو الى الكل متساند اليه ومحله الرفع على أنه خبر مقدم ومرساها مبتدأ مؤخر أى متى ارساؤها أى اثباتها وتقريرها فانه مصدر ميمى من أرساه اذا أثبته وأقره ولا يكاد يستعمل الافى الشئ الثقيل كما فى قوله تعالى والجبال أرساها ومنه مرساة السفن ومحل الجملة قيل الجر على البدلية من الساعة والتحقيق أن محلها النصب بنزع الخافض لأنها بدل من الجار والمجرور لا من المجرور فقط كأنه قيل يسألونك عن الساعة عن أيان مرساها وفى تعليق السؤال بنفس الساعة أولا وبوقت وقوعها ثانيا تنبيه على أن المقصد الأصلى من السؤال نفسها باعتبار حلولها فى وقتها المعين لا وقتها باعتبار كونه محلا لها وقد سلك هذا المسلك فى الجواب الملقن أيضا حيث أضيف العلم المطلوب بالسؤال الى ضميرها فأخبر باختصاصه به عز وجل حيث قيل ﴿قل انما علمها﴾ أى علمها بالاعتبار المذكور ﴿عند ربى﴾ ولم يقل انما علم وقت ارسائها ومن لم يتنبه لهذه النكتة حمل النظم الكريم على حذف المضاف والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام للايذان بأن توفيقه عليه الصلاة والسلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والارشاد ومعنى كونه عنده تعالى خاصة أنه تعالى قد استأثر به بحيث لم يخبر به أحدا من ملك مقرب أو نبى مرسل وقوله تعالى ﴿لايجليها لوقتها الا هو﴾ بيان لاستمرار تلك الحالة الى حين قيامها واقناط كلى عن اظهار أمرها بطريق الاخبار من جهته تعالى أو من جهة غيره لاقتضاء الحكمة التشريعية اياه فانه أدعى الى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أن اخفاء الاجل الخاص للانسان كذلك والمعنى لا يكشف عنها ولا يظهر للناس أمرها الذى تسألونى عنه الا هو بالذات من غير أن يشعر به أحد من المخلوقين فيتوسط فى اظهاره لهم لكن لا بأن يخبرهم بوقتها قبل مجيئه كما هو المسئول بل بان يقيمها فيشاهدوها عيانا كما يفصح عنه التجلية المنبئة عن الكشف التام المزيل للابهام بالكلية وقوله تعالى لوقتها أى فى وقتها قيد للتجلية بعد ورود الاستثناء عليها لاقبله كأنه قيل لايجليها الا هو فى وقتها الا أنه قدم على الاستثناء للتنبيه من أول الامر على أن تجليتها ليست بطريق الاخبار بوقتها بل باظهار عينها فى وقتها الذى يسألون عنه وقوله تعالى ﴿ثقلت فى السموات والارض﴾ استئناف كما قبله مقرر لمضمون ماقبله أى كبرت وشقت على أهلها من الملائكة والثقلين كل منهم أهمه خفاؤها وخروجها عن دائرة العقول وقيل عظمت عليهم حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها وقيل ثقلت فيهما اذ لا يطيقها منهما ومما فيهما شئ أصلا والاول هو الانسب بما قبله وبما بعده من قوله تعالى ﴿لاتأتيكم الا بغتة﴾ فانه أيضا استئناف مقرر لمضمون ماقبله فلا بد من اعتبار الثقل من حيث الخفاء أى لاتأتيكم الا فجأة على غفلة كما قال عليه الصلاة والسلام ان الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقوم سلعته فى سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه ﴿يسألونك كأنك حفى عنها﴾ استئناف مسوق لبيان خطئهم فى توجيه السؤال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

بناء على زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام عالم بالمسئول عنه أو أن العلم بذلك من مواجب الرسالة اثر بيان خطئهم فى أصل السؤال باعلام شأن المسئول عنه والجملة التشبيهية فى محل النصب على أنها حال من الكاف جىء بها بيانا لما يدعوهم الى السؤال على زعمهم واشعارا بخطئهم فى ذلك أى يسألونك مشبها حالك عندهم بحال من هو حفى عنها أى مبالغ فى العلم بها فعيل من حفى وحقيقته كأنك مبالغ فى السؤال عنها فان ذلك فى حكم المبالغة فى العلم بها لما أن من بالغ فى السؤال عن الشىء والبحث عنه استحكم علمه به ومبنى التركيب على المبالغة والاستقصاء ومنه احفاء الشارب واحتفاء البقل أى استئصاله والاحفاء فى المسئلة أى الالحاف فيها وقيل عن متعلقة بيسألونك وقوله تعالى كأنك حفى معترض وصلة حفى محذوفة أى حفى بها وقد قرىء كذلك وقيل هو من الحفاوة بمعنى البر والشفقة فان قريشا قالوا له عليه الصلاة والسلام ان بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة والمعنى يسألونك كأنك حفى تتحفى بهم فتخصهم بتعليم وقتها لاجل القرابة وتزوى أمرها عن غيرهم ففيه تخطئة لهم من جهتين وقيل هو من حفى بالشىء بمعنى فرح به والمعنى كأنك فرح بالسؤال عنها تحبه مع أنك كاره لها أنه تعرض لحرم الغيب الذى استأثر الله عز وجل بعلمه ﴿قل انما علمها عند الله﴾ أمر عليه الصلاة والسلام باعادة الجواب الأول تأكيدا للحكم وتقريرا له واشعارا بعلته على الطريقة البرهانية بايراد اسم الذات المنبىء عن استتباعها الصفات الكمال التى من جملتها العلم وتمهيدا للتعريض بجهلهم بقوله تعالى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أى لا يعلمون ماذكر من اختصاص علمها به تعالى فبعضهم ينكرونها رأسا فلا يعلمون شيئا مما ذكر قطعا وبعضهم يعلمون أنها واقعة البتة ويزعمون أنك واقف على وقت وقوعها فيسألونك عنه جهلا وبعضهم يدعون أن العلم بذلك من مواجب الرسالة فيتخذون السؤال عنه ذريعة الى القدح فى رسالتك والمستثنى من هؤلاء هم الواقفون على جلية الحال من المؤمنين وأما السائلون عنها من اليهود بطريق الامتحان فهم منتظمون فى سلك الجاهلين حيث لم يعملوا بعلمهم وقوله تعالى ﴿قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا﴾ شروع فى الجواب عن السؤال ببيان عجزه عن علمها اثر بيان عجز الكل عنه وابطال زعمهم الذى بنوا عليه سؤالهم من كونه عليه الصلاة والسلام ممن يعلمها واعادة الأمر لاظهار كمال العناية بشأن الجواب والتنبيه على استقلاله ومغايرته للاول والتعرض لبيان عجزه عما ذكر من النفع والضر لاثبات عجزه عن علمها بالطريق البرهانى واللام اما متعلق بأملك أو بمحذوف وقع حالا من نفعا أى لا أقدر لأجل نفسى على جلب نفع ما ولا على دفع ضر ما ﴿الا ما شاء الله﴾ أن أملكه من ذلك بأن يلهمنيه فيمكننى منه ويقدرنى عليه أو لكن ماشاء الله من ذلك كائن فالاستثناء منقطع وهذا أبلغ فى اظهار العجز ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ أى جنس الغيب الذى من جملته مابين الاشياء من المناسبات المصححة عادة للسببية والمسببية ومن المباينات المستتبعة للمانعة والمدافعة ﴿لاستكثرت من الخير﴾ أى لحصلت كثيرا من الخير الذى نيط تحصيله بالافعال الاختيارية للبشر بترتيب أسبابه ودفع موانعه ﴿وما مسنى السوء﴾ أى السوء الذى يمكن التفصى عنه بالتوقى عن موجباته والمدافعة بموانعه لاسوء ما فان منه ما لا مدفع له ﴿ان أنا الا نذير وبشير﴾ أى ما أنا الا عبد مرسل للانذار والبشارة شأنى حيازة ما يتعلق بهما من العلوم الدينية والدنيوية لا الوقوف على الغيوب التى لا علاقة بينها وبين الاحكام والشرائع وقد كشفت من أمر الساعة ما يتعلق به الانذار من مجيئها لا محالة واقترابها وأما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الانذار بل هو مما يقدح فيه لما مر من أن ابهامه أدعى الى الانزجار عن المعاصى وتقديم النذير على البشير لما أن المقام مقام الانذار وقوله تعالى ﴿لقوم يؤمنون﴾ اما متعلق بهما جميعا لانهم ينتفعون بالانذار كما ينتفعون بالبشارة واما بالبشير فقط وما يتعلق بالنذير محذوف أى نذير للكافرين أى الباقين على الكفر وبشير لقوم يؤمنون أى فى أى وقت كان ففيه ترغيب للكفرة فى احداث الايمان وتحذير عن الاصرار على الكفر والطغيان ﴿هو الذى خلقكم﴾ استئناف

سيق لبيان كمال عظم جناية الكفرة فى جراءتهم على الاشراك بتذكير مبادى أحوالهم المنافية له وايقاع الموصول خبرا لتفخيم شأن المبتدا اى هو ذلك العظيم الشأن الذى خلقكم جميعا وحده من غير أن يكون لغيره مدخل فى ذلك بوجه من الوجوه ﴿من نفس واحدة﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام وهذا نوع تفصيل لما أشير اليه فى مطلع السورة الكريمة اشارة اجمالية من خلقهم وتصويرهم فى ضمن خلق آدم وتصويره وبيان لكيفيته ﴿وجعل﴾ عطف على خلقكم داخل فى حكم الصلة ولا ضير فى تقدمه عليه وجودا لما أن الواو لا تستدعى الترتيب فى الوجود ﴿منها﴾ أى من جنسها كما فى قوله تعالى جعل لكم من أنفسكم أزواجا أو من جسدها لما يروى أنه تعالى خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه الصلاة والسلام والأول هو الأنسب اذ الجنسية هى المؤدية الى الغاية الآتية لا الجزئية والجعل اما بمعنى التصيير فقوله تعالى ﴿زوجها﴾ مفعوله الأول والثانى هو الظرف المقدم واما بمعنى الانشاء والظرف متعلق بجعل قدم على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف هو حال من المفعول والأول هو الأولى وقوله تعالى ﴿ليسكن اليها﴾ علة غائية للجعل باعتبار تعلقه بمفعوله الثانى أى ليستأنس بها ويطمئن اليها اطمئنانا مصححا للازدواج كما يلوح به تذكير الضمير ويفصح عنه قوله تعالى ﴿فلما تغشاها﴾ أى جامعها ﴿حملت حملا خفيفا﴾ فى مبادىء الأمر فانه عند كونه نطفة أو علقة أو مضغة أخف عليها بالنسبة الى ما بعد ذلك من المراتب والتعرض لذكر خفته للاشارة الى نعمته تعالى عليهم فى انشائه تعالى اياهم متدرجين فى أطوار الخلق من العدم الى الوجود ومن الضعف الى القوة ﴿فمرت به﴾ أى فاستمرت به كما كانت قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت وعليه قراءة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقرىء فمرت بالتخفيف وفارت من المور وهو المجىء والذهاب أو من المرية فظنت الحمل وارتابت به وأما ماقيل من أن المعنى حملت حملا خف عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذية ولم تستثقله كما يستثقلنه فمرت به أى فمضت به الى ميلاده من غير اخداج ولا ازلاق فيرده قوله تعالى ﴿فلما أثقلت﴾ اذ معناه فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها ولا ريب فى أن الثقل بهذا المعنى ليس مقابلا للخفة بالمعنى المذكور انما يقابلها الكرب الذى يعترى بعضهن من أول الحمل الى آخره دون بعض أصلا وقرىء أثقلت على البناء للمفعول أى أثقلها حملها ﴿دعوا الله﴾ أى آدم وحواء عليهما السلام لما دهمهما أمر لم يعهداه ولم يعرفا مآله فاهتما به وتضرعا اليه عز وجل وقوله تعالى ﴿ربهما﴾ أى مالك أمرهما الحقيق بان يخص به الدعاء اشارة الى أنهما قد صدرا به دعاءهما كما فى قولهما ربنا ظلمنا أنفسنا الآية ومتعلق الدعاء محذوف تعويلا على شهادة الجملة القسمية به أى دعواه تعالى أن يؤتيهما صالحا ووعدا بمقابلته الشكر على سبيل التوكيد القسمى وقالا أو قائلين ﴿لئن آتيتنا صالحا﴾ أى ولدا من جنسنا سويا ﴿لنكونن﴾ نحن ومن يتناسل من ذريتنا ﴿من الشاكرين﴾ الراسخين فى الشكر على نعمائك التى من جملتها هذه النعمة وترتيب هذا الجواب على الشرط المذكور لما أنهما قد علما أن ما علقا به دعاءهما أنموذج لسائر أفراد الجنس ومعيار لها ذاتا وصفة وجوده مستتبع لوجودها وصلاحه مستلزم لصلاحها فالدعاء فى حقه متضمن للدعاء فى حق الكل مستتبع له كأنهما قالا لئن آتيتنا وذريتنا أولادا صالحة وقيل ان ضمير آتيتنا أيضا لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما فالوجه ظاهر وأنت خبير بأن نظم الكل فى سلك الدعاء اصالة يأباه مقام المبالغة فى الاعتناء بشأن ما هما بصدده وأما جعل ضمير لنكونن للكل فلا محذور فيه لأن توسيع دائرة الشكر غير مخل بالاعتناء المذكور بل مؤكد له وأيا ما كان فمعنى قوله تعالى ﴿فلما آتاهما صالحا﴾ لما آتاهما ما طلباه أصالة واستتباعا من الولد وولد الولد ما تناسلوا فقوله تعالى ﴿جعلا﴾ أى جعل أولادهما ﴿له﴾ تعالى ﴿شركاء﴾ على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ثقة بوضوح

الأمر وتعويلا على ما يعقبه من البيان وكذا الحال فى قوله تعالى ﴿فيما آتاهما﴾ أى فيما آتى أولادهما من الأولاد حيث سموهم بعبد مناف وعبد العزى ونحو ذلك وتخصيص اشراكهم هذا بالذكر فى مقام التوبيخ مع أن اشراكهم بالعبادة أغلظ منه جناية وأقدم وقوعا لما أن مساق النظم الكريم لبيان اخلالهم بالشكر فى مقابلة نعمة الولد الصالح وأول كفرهم فى حقه انما هو تسميتهم اياه بما ذكر وقرئ شركا أى شركة أوذوى شركة أى شركاء ان قيل ما ذكر من حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه انما يصار اليه فيما يكون للفعل ملابسة ما بالمضاف اليه أيضا بسرايته اليه حقيقة أوحكما وتتضمن نسبته اليه صورة مزية يقتضيها المقام كما فى مثل قوله تعالى واذ نجيناكم من آل فرعون الآية فان الانجاء منهم مع أن تعلقه حقيقة ليس الا باسلاف اليهود قد نسب الى أخلافهم بحكم سرايته اليهم توفية لمقام الامتنان حقه وكذا فى قوله تعالى قل فلم تقتلون أنبياء الله الآية فان القتل حقيقة مع كونه من جناية آبائهم قد أسند اليهم بحكم رضاهم به أداء لحق مقام التوبيخ والتبكيت ولا ريب فى أنهما عليهما الصلاة والسلام بريئان من سراية الجعل المذكور اليهما بوجه من الوجوه فما وجه اسناده اليهما صورة قلنا وجهه الايذان بتركهما الاولى حيث أقدما على نظم أولادهما فى سلك أنفسهما والتزما شكرهم فى ضمن شكرهما وأقسما على ذلك قبل تعرف أحوالهم ببيان أن اخلالهم بالشكر الذى وعداه وعدا مؤكدا باليمين بمنزلة اخلالهما بالذات فى استيجاب الحنث والخلف مع ما فيه من الاشعار بتضاعف جنايتهم ببيان أنهم بجعلهم المذكور أوقعوهما فى ورطة الحنث والخلف وجعلوهما كأنهما باشراه بالذات فجمعوا بين الجناية على الله تعالى والجناية عليهما عليهما السلام ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ تنزيه فيه معنى التعجب والفاء لترتيبه على مافصل من أحكام قدرته تعالى وآثار نعمته الزاجرة عن الشرك الداعية الى التوحيد وصيغة الجمع لما أشير اليه من تعين الفاعل وتنزيه آدم وحواء عن ذلك ومافى عما اما مصدرية أى عن اشراكهم أو موصولة أو موصوفة أى عما يشركونه به سبحانه والمراد باشراكهم اما تسميتهم المذكورة أومطلق اشراكهم المنتظم لها انتظاما أوليا وقرئ تشركون بتاء الخطاب بطريق الالتفات وقيل الخطاب لآل قصى من قريش والمراد بالنفس الواحدة نفس قصى فانهم خلقوا منه وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله تعالى ولدا صالحا فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم عبد مناف وعبد شمس وعبد قصى وعبد الدار وضمير يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما وأما ماقيل من أنه لما حملت حواء أتاها ابليس فى صورة رجل فقال لها مايدريك مافى بطنك لعله بهيمة أوكلب أو خنزير وما يدريك من أين يخرج فخافت من ذلك فذكرته لآدم فأهمهما ذلك ثم عاد اليها وقال انى من الله تعالى بمنزلة فان دعوته أن يجعله خلقا مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث وكان اسمه حارثا فى الملائكة فقبلت فلما ولدته سمته عبد الحرث فمما لاتعويل عليه . كيف لا وأنه عليه الصلاة والسلام كان علما فى علم الاسماء والمسميات فعدم علمه بابليس واسمه واتباعه اياه فى مثل هذا الشأن الخطير أمر قريب من المحال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ﴿أيشركون﴾ استئناف مسوق لتوبيخ كافة المشركين واستقباح اشراكهم على الاطلاق وابطاله بالكلية ببيان شأن ماأشركوه به سبحانه وتفصيل أحواله القاضية ببطلان ماعتقدوه فى حقه أى أيشركون به تعالى ﴿مالا يخلق شيئا﴾ أى لايقدر على أن يخلق شيئا من الاشياء أصلا ومن حق المعبود أن يكون خالقا لعابده لامحالة وقوله تعالى ﴿وهم يخلقون﴾ عطف على لايخلق وايراد الضميرين بجمع العقلاء مع رجوعهما الى ما المعبر بها عن الاصنام انما هو بحسب اعتقادهم فيها واجرائهم لها مجرى العقلاء وتسميتهم لها آلهة وكذا حال سائر الضمائر الآتية ووصفها بالمخلوقية بعد وصفها بنفى الخالقية لابانة كمال منافاة حالها لما اعتقدوه فى حقها واظهار غاية جهلهم فان اشراك مالا يقدر على خلق شىء مابخالقه وخالق جميع الاشياء مما لايمكن أن يسوغه من له عقل فى الجملة وعدم التعرض لخالقها

للايذان بتعينه والاستغناء عن ذكره ﴿ولا يستطيعون لهم﴾ أى لعبدتهم اذا حز بهم أمرمهم وخطب ملم ﴿نصرا﴾ أى نصرا ما بجلب منفعة أو دفع مضرة ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ اذا اعتراهم حادثة من الحوادث أى لايدفعونها عن أنفسهم وايراد النصر للمشاكلة وهذا بيان لعجزهم عن ايصال منفعة ما من المنافع الوجودية والعدمية الى عبدتهم وأنفسهم بعد بيان عجزهم عن ايصال منفعة الوجود اليهم والى أنفسهم خلا أنهم وصفوا هناك بالمخلوقية لكونهم أهلالها وههنا لم يوصفوا بالمنصورية لانهم ليسوا أهلا لها وقوله تعالى ﴿وان تدعوهم الى الهدى﴾ بيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر المنفى عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب والارشاد الى طريق حصوله من غير أن يحصله الطالب والخطاب للمشركين بطريق الالتفات المنبئ عن مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت أى ان تدعوهم أيها المشركون الى أن يهدوكم الى ماتحصلون به المطالب أو تنجون به عن المكاره ﴿لا يتبعوكم﴾ الى مرادكم وطلبتكم وقرئ بالتخفيف وقوله تعالى ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ استئناف مقرر لمضمون ماقبله ومبين لكيفية عدم الاتباع أى مستو عليكم فى عدم الافادة دعاؤكم لهم وسكوتكم البحت فانه لايتغير حالكم فى الحالين كما لايتغير حالهم بحكم الجمادية وقوله تعالى أم أنتم صامتون جملة اسمية فى معنى الفعلية معطوفة على الفعلية لانها فى قوة أم صمتم عدل عنها للمبالغة فى عدم افادة الدعاء بيان مساواته للسكوت الدائم المستمر وما قيل من أن الخطاب للمسلمين والمعنى وان تدعوا المشركين الى الهدى أى الاسلام لايتبعوكم الخ مما لايساعده سباق النظم الكريم وسياقه أصلا على أنه لوكان كذلك لقيل عليهم مكان عليكم كما فى قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فان استواء الدعاء وعدمه انما هو بالنسبة الى المشركين لا بالنسبة الى الداعين فانهم فائزون بفضل الدعوة ﴿ان الذين تدعون من دون الله﴾ تقرير لما قبله من عدم اتباعهم لهم أى ان الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الاصنام وتسمونهم آلهة ﴿عباد أمثالكم﴾ أى مماثلة لكم لكن لامن كل وجه بل من حيث أنها مملوكة لله عز وجل مسخرة لامره عاجزة عن النفع والضر وتشبيهها بهم فى ذلك مع كون عجزها عنهما أظهر وأقوى من عجزهم انما هو لاعترافهم بعجز أنفسهم وادعائهم لقدرتها عليهما اذ هو الذى يدعوهم الى عبادتها والاستعانة بها وقوله تعالى ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ تحقيق لمضمون ماقبله بتعجيزهم وتبكيتهم أى فادعوهم فى جلب نفع أو كشف ضر ﴿ان كنتم صادقين﴾ فى زعمكم أنهم قادرون على ماأنتم عاجزون عنه وقوله تعالى ﴿ألهم رجل يمشون بها﴾ الخ تبكيت اثر تبكيت مؤكد لما يفيده الأمر التعجيزى من عدم الاستجابة ببيان فقدان آلاتها بالكلية فان الاستجابة من الهياكل الجسمانية انما تتصور اذا كان لها حياة وقوى محركة ومدركة وما ليس له شىء من ذلك فهو بمعزل من الأفاعيل بالمرة كأنه قيل ألهم هذه الآلات التى بها تتحقق الاستجابة حتى يمكن استجابتهم لكم وقد وجه الانكار الى كل واحدة من هذه الآلات الأربع على حدة تكريرا للتبكيت وتثنية للتقريع واشعارا بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها كاف فى الدلالة على استحالة الاستجابة ووصف الأرجل بالمشى بها للايذان بأن مدار الانكار هو الوصف وانما وجه الى الأرجل لا الى الوصف بأن يقال أيمشون بأرجلهم لتحقيق أنها حيث لم يظهر منها مايظهر من سائر الأرجل فهى ليست بأرجل فى الحقيقة وكذا الكلام فيما بعده من الجوارح الثلاث الباقية وكلمة أم فى قوله تعالى ﴿أم لهم أيد يبطشون بها﴾ منقطعة وما فيها من الهمزة لما مر من التبكيت والالزام وبل للاضراب المفيد للانتقال من فن من التبكيت بعد تمامه الى فن آخر منه لما ذكر من المزايا والبطش الأخذ بقوة وقرئ يبطشون بضم الطاء وهى لغة فيه والمعنى بل ألهم أيد يأخذون بها مايريدون أخذه وتأخير هذا عما قبله لما أن المشى حالهم فى أنفسهم والبطش حالهم بالنسبة الى الغير وأما تقديمه على قوله تعالى ﴿أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ مع أن الكل

سواء فى أنها من أحوالهم بالنسبة الى الغير فلمراعاة المقابلة بين الأيدى والأرجل ولأن انتفاء المشى والبطش أظهر والتبكيت بذلك أقوى وأما تقديم الأعين فلما أنها أشهر من الآذان وأظهر عينا وأثرا هذا وقد قرئ ان الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم على اعمال ان النافية عمل ما الحجازية أى ما الذين تدعون من دونه تعالى عبادا أمثالكم بل أدنى منكم فيكون قوله تعالى ألهم الخ تقريراً لنفى المماثلة باثبات القصور والنقصان ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ بعد ما بين أن شركاءهم لا يقدرون على شئ ما أصلا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يناصبهم للمحاجة و يكرر عليهم التبكيت والقام الحجر أى ادعوا شركاءكم واستعينوا بهم على ﴿ثم كيدون﴾ جميعا أنتم وشركاؤكم وبالغوا فى ترتيب ماتقدرون عليه من مبادى الكيد والمكر ﴿فلا تنظرون﴾ أى فلا تمهلونى ساعة بعد ترتيب مقدمات الكيد فانى لا أبالى بكم أصلا ﴿ان ولى الله الذى نزل الكتاب﴾ تعليل لعدم المبالاة المنفهم من السوق انفهاما جليا و وصفه تعالى بتنزيل الكتاب للاشعار بدليل الولاية والاشارة الى علة أخرى لعدم المبالاة كأنه قيل لا أبالى بكم و بشركائكم لأن ولى هو الله الذى أنزل الكتاب الناطق بأنه ولى وناصرى و بأن شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصركم وقوله تعالى ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله أى ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده و ينصرهم ولا يخذلهم ﴿والذين تدعون﴾ أى تعبدونهم ﴿من دونه﴾ تعالى أو تدعونهم للاستعانة بهم على حسبما أمرتكم به ﴿لا يستطيعون نصركم﴾ أى فى أمر من الأمور أو فى خصوص الأمر المذكور ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ اذا نابتهم نائبة ﴿وان تدعوهم الى الهدى﴾ الى أن يهدوكم الى ماتحصلون به مقاصدكم على الاطلاق أو فى خصوص الكيد المعهود ﴿لا يسمعوا﴾ أى دعاءكم فضلا عن المساعدة والامداد وهذا أبلغ من نفى الاتباع وقوله تعالى ﴿وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون﴾ بيان لعجزهم عن الابصار بعد بيان عجزهم عن السمع و به يتم التعليل فلا تكرار أصلا والرؤية بصرية وقوله تعالى ينظرون اليك حال من المفعول والجملة الاسمية حال من فاعل ينظرون أى وترى الأصنام رأى العين يشبهون الناظرين اليك و يخيل اليك أنهم يبصرونك لما أنهم صنعوا لها أعينا مركبة بالجواهر المضيئة المتلألئة وصوروها بصورة من قلب حدقته الى الشئ ينظر اليه والحال أنهم غير قادرين على الابصار وتوحيد الضمير فى تراهم مع رجوعه الى المشركين لتوجيه الخطاب الى كل واحد منهم لا الى الكل من حيث هو كل كالخطابات السابقة تنبيها على أن رؤية الأصنام على الهيئة المذكورة لا تتسنى للكل معا بل لكل من يواجهها وقيل ضمير الفاعل فى تراهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وضمير المفعول على حاله وقيل للمشركين على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى لا يسمعوا أى وترى المشركين ينظرون اليك والحال أنهم لا يبصرونك كما أنت عليه وعن الحسن أن الخطاب فى قوله تعالى وان تدعوا للمؤمنين على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى ينصرون أى وان تدعوا أيها المؤمنون المشركين الى الاسلام لا يلتفتوا اليكم ثم خوطب عليه السلام بطريق التجريد بأنك تراهم ينظرون اليك والحال أنهم لا يبصرونك حق الابصار تنبيها على أن مافيه عليه السلام من شواهد النبوة ودلائل الرسالة من الجلاء بحيث لا يكاد يخفى على الناظرين ﴿خذ العفو﴾ بعد ماعد من أباطيل المشركين وقبائحهم مالا يطاق تحمله أمر عليه الصلاة والسلام بمجامع مكارم الأخلاق التى من جملتها الاغضاء عنهم أى خذ ماعفا لك من أفعال الناس وتسهل ولا تكلفهم مايشق عليهم من العفو الذى هو ضد الجهد أو خذ العفو من المذنبين أو الفضل من صدقاتهم وذلك قبل وجوب الزكاة ﴿وأمر بالعرف﴾ بالجميل المستحسن من الأفعال فانها قريبة من قبول الناس من غير نكير ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ من غير مماراة ولا مكافأة قيل لما نزلت سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فقال لا أدرى حتى أسأل ثم رجع فقال يا محمد ان ربك

أمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وعن جعفر الصادق أمر الله تعالى نبيه بمكارم الأخلاق وروى أنه لما نزلت الآية الكريمة قال عليه الصلاة والسلام كيف يارب والغضب متحقق فنزل قوله تعالى ﴿واما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ النزغ والنسغ والنخس الغرز شبهت وسوسته للناس واغراؤه لهم على المعاصى بغرز السائق لما يسوقه واسناده الى النزغ من قبيل جد جده أى واما يحملنك من جهته وسوسة ما على خلاف ماأمرت به من اعتراء غضب أو نحوه ﴿فاستعذ بالله﴾ فالتجئ اليه تعالى من شره ﴿انه سميع﴾ يسمع استعاذتك به قولا ﴿عليم﴾ يعلم تضرعك اليه قلبا فى ضمن القول أو بدونه فيعصمك من شره وقد جوز أن يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب على نهج الاستعارة كما فى قول الصديق رضى الله عنه ان لى شيطانا يعترينى فقيه زيادة تنفير عنه وفرط تحذير عن العمل بموجبه و فى الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة التى لا يتخلص من مضرتها الا بالالتجاء الى حرم عصمته عز وجل وقيل يعلم مافيه صلاح أمرك فيحملك عليه أو سميع بأقوال من آذاك عليم بأفعاله فيجازيه عليها ﴿ان الذين اتقوا﴾ استئناف مقرر لما قبله ببيان أن ماأمر به عليه الصلاة والسلام من الاستعاذة بالله تعالى سنة مسلوكة للمتقين والاخلال بها ديدن الغاوين أى ان الذين اتصفوا بوقاية أنفسهم عما يضرها ﴿اذا مسهم طائف من الشيطان﴾ أدنى لمة منه على أن تنوينه للتحقير وهو اسم فاعل من طاف يطوف كأنها تطوف بهم وتدور حولهم لتوقع بهم أو من طاف به الخيال يطيف طيفا أى ألم وقرئ طيف على أنه مصدر أو تخفيف من طيف من الواوى أو اليائى كهين ولين والمراد بالشيطان الجنس ولذلك جمع ضميره فيما سيأتى ﴿تذكروا﴾ أى الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه ﴿فاذاهم﴾ بسبب ذلك التذكر ﴿مبصرون﴾ مواقع الخطأ ومكايد الشيطان فيحترزون عنها ولا يتبعونه ﴿واخوانهم﴾ أى اخوان الشياطين وهم المنهمكون فى الغى المعرضون عن وقاية أنفسهم عن المضار ﴿يمدونهم فى الغى﴾ أى يكون الشياطين مددا لهم فيه و يعضدونهم بالتزيين والحمل عليه وقرئ يمدونهم من الامداد ويمادونهم كأنهم يعينونهم بالتسهيل والاغراء وهؤلاء بالاتباع والامتثال ﴿ثم لا يقصرون﴾ أى لا يمسكون عن الاغواء حتى يردوهم بالكلية و يجوز أن يكون الضمير للاخوان أى لا يرعوون عن الغى و لا يقصرون كالمتقين و يجوز أن يراد بالاخوان الشياطين و يرجع الضمير الى الجاهلين فيكون الخبر جاريا على من هو له ﴿واذا لم تأتهم بآية﴾ من القرآن عند تراخى الوحى أو بآية مما اقترحوه ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ اجتبى الشئ بمعنى جباه لنفسه أى هلا جمعتها من تلقاء نفسك تقولا يرون بذلك أن سائر الآيات أيضا كذلك أو هلا تلقيتها من ربك استدعاء ﴿قل﴾ ردا عليهم ﴿انما أتبع مايوحى الى من ربى﴾ من غير أن يكون لى دخل مافى ذلك أصلا على معنى تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام باتباع مايوحى اليه بتوجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى نفس الفعل بالنسبة الى مقابله الذى كلفوه اياه عليه الصلاة والسلام لا على معنى تخصيص اتباعه عليه الصلاة والسلام بمايوحى اليه بتوجيه القصر الى المفعول بالقياس الى مفعول آخر كما هو الشائع فى موارد الاستعمال وقدمر تحقيقه فى قوله تعالى ان أتبع الا مايوحى الى كأنه قيل ما أفعل الا اتباع مايوحى الى منه تعالى و فى التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية والتبليغ الى الكمال اللائق مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه عليه الصلاة والسلام والتنبيه على تأييده مالا يخفى ﴿هذا﴾ اشارة الى القرآن الكريم المدلول عليه بما يوحى الى ﴿بصائر من ربكم﴾ بمنزلة البصائر للقلوب بها تبصر الحق وتدرك الصواب وقيل حجج بينة و براهين نيرة ومن متعلقة بمحذوف هو صفة لبصائر مفيدة لفخامتها أى بصائر كائنة منه تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لتأكيد وجوب الايمان بها وقوله تعالى ﴿وهدى ورحمة﴾ عطف على

بصائر وتقديم الظرف عليهما وتعقيبهما بقوله تعالى ﴿لقوم يؤمنون﴾ للايذان بأن كون القرآن بمنزلة البصائر للقلوب متحقق بالنسبة الى الكل وبه تقوم الحجة على الجميع وأما كونه هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين به اذهم المقتبسون من أنواره والمغتنمون بآثاره والجملة من تمام القول المأمور به ﴿واذا قرئ القرآن فاستمعوا له﴾ ارشاد الى طريق الفوز بما أشير اليه من المنافع الجليلة التى ينطوى عليها القرآن أى واذا قرئ القرآن الذى ذكرت شئونه العظيمة فاستمعوا له استماع تحقيق وقبول ﴿وأنصتوا﴾ أى واسكتوا فى خلال القراءة وراعوها الى انقضائها تعظيما له وتكميلا للاستماع ﴿لعلكم ترحمون﴾ أى تفوزون بالرحمة التى هى أقصى ثمراته وظاهر النظم الكريم يقتضى وجوب الاستماع والانصات عند قراءة القرآن فى الصلاة وغيرها وقيل معناه اذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وجمهور الصحابة رضى الله تعالى عنهم على أنه فى استماع المؤتم وقد روى أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة فأمروا باستماع قراءة الامام والانصات له وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ فى المكتوبة وقرأ أصحابه خلفه فنزلت وأما خارج الصلاة فعامة العلماء على استحبابهما والآية امامن تمام القول المأمور به أو استئناف من جهته تعالى فقوله تعالى ﴿واذكر ربك فى نفسك﴾ على الأول عطف على قل وعلى الثانى فيه تجريد للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عام فى الأذكار كافة فان الاخفاء أدخل فى الاخلاص وأقرب من الاجابة ﴿تضرعا وخيفة﴾ أى متضرعا وخائفا ﴿ودون الجهر من القول﴾ أى ومتكلما كلاما دون الجهر فانه أقرب الى حسن التفكر ﴿بالغدو والآصال﴾ متعلق باذكر أى اذكره فى وقت الغدوات والعشيات وقرئ والايصال وهو مصدر آصل أى دخل فى الأصيل موافق للغدو ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ عن ذكر الله تعالى ﴿ان الذين عند ربك﴾ وهم الملائكة عليهم السلام ومعنى كونهم عنده سبحانه وتعالى قربهم من رحمته وفضله لتوفرهم على طاعته تعالى ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ بل يؤدونها حسبما أمروا به ﴿و يسبحونه﴾ أى ينزهونه عن كل مالا يليق بجناب كبريائه ﴿وله يسجدون﴾ أى يخصونه بغاية العبودية والتذلل لايشركون به شيئاً وهو تعريض بسائر المكلفين ولذلك شرع السجود عند قراءته . عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم آية السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى فيقول ياويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار . وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الأعراف جعل الله تعالى يوم القيامة بينه وبين ابليس سترا وكان آدم عليه السلام شفيعا له يوم القيامة

سورة الأنفال

(مدنية . وهى ست وسبعون آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿يسألونك عن الأنفال﴾ النفل الغنيمة سميت به لأنها عطية من الله تعالى زائدة على ماهو أصل الأجر فى الجهاد من الثواب الأخروى و يطلق على مايعطى بطريق التنفيل زيادة على السهم من المغنم وقرئ علنفال بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وادغام نون عن فى اللام . روى أن المسلمين اختلفوا فى غنائم بدر و فى قسمتها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم ولمن الحكم فيها أللمهاجرين أم للانصار أم لهم جميعا وقيل ان الشباب قد أبلوا يومئذ بلاء حسنا فقتلوا سبعين وأسروا سبعين فقالوا نحن المقاتلون ولنا الغنائم وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردءا لكم وفئة تنحازون اليها حتى قال سعد بن معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما منعنا

أن نطلب ماطلب هؤلاء زهادة فى الأجر و لا جبن من العدو ولكن كرهنا أن نعرى مصافك فيعطف عليك خيل من المشركين فنزلت وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم قد شرط لمن كان له بلاء أن ينفله ولذلك فعل الشبان مافعلوا من القتل والاسر فسألوه عليه الصلاة والسلام ماشرطه لهم فقال الشيوخ المغنم قليل والناس كثير وان تعط هؤلاء ماشرطت لهم حرمت أصحابك فنزلت والأول هو الظاهر لما أن السؤال استعلام لحكم الأنفال بقضية كلمة عن لا استعطاء لنفسها كما نطق به الوجه الأخير وادعاء زيادة عن تعسف ظاهر والاستدلال عليه بقراءة ابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وعلى ابن الحسين و زيد ومحمد الباقر وجعفر الصادق وعكرمة وعطاء يسألونك الأنفال غير منتهض فان مبناها كما قالوا على الحذف والايصال كما يعرب عنه الجواب بقوله عز وجل ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ أى حكمها مختص به تعالى يقسمها الرسول عليه الصلاة والسلام كيفما أمر به من غير أن يدخل فيه رأى أحد ولو كان السؤال استعطاء لما كان هذا جوابا له فان اختصاص حكم ماشرط لهم من الأنفال بالله والرسول لاينافى اعطاءها اياهم بل يحققه لأنهم انما يسألونها بموجب شرط الرسول عليه الصلاة والسلام الصادر عنه باذن الله تعالى لابحكم سبق أيديهم اليها ونحو ذلك مما يخل بالاختصاص المذكور وحمل الجواب على معنى أن الأنفال بالمعنى المذكور مختصة برسول الله صلى الله عليه وسلم لاحق فيها للمنفل كائنا من كان مما لاسبيل اليه قطعا ضرورة ثبوت الاستحقاق بالتنفيل وادعاء أن ثبوته بدليل متأخر التزام لتكرر النسخ من غير علم بالناسخ الأخير و لامساغ للمصير الى ماذهب اليه مجاهد وعكرمة والسدى من أن الأنفال كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لأحد فيها شئ بهذه الآية فنسخت بقوله تعالى فأن لله خمسه وللرسول لما أن المراد بالأنفال فيما قالوا هو المعنى الأول حتما كما نطق به قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ الآية على أن الحق أنه لانسخ حينئذ أيضا حسبما قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بل بين فى صدر السورة الكريمة اجمالا أن أمرها مفوض الى الله تعالى و رسوله ثم بين مصارفها و كيفية قسمتها على التفصيل وادعاء اقتصار هذا الحكم أعنى الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنفال المشروطة يوم بدر بجعل اللام للعهد مع بقاء استحقاق المنفل فى سائر الأنفال المشروطة يأباه مقام بيان الأحكام كما ينبئ عنه اظهار الأنفال فى موقع الاضمار على أن الجواب عن سؤال الموعود ببيان كونه له عليه الصلاة والسلام خاصة مما لايليق بشأنه الكريم أصلا وقد روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال قتل أخى عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبنى فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ان الله تعالى قد شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف فقال لى عليه الصلاة والسلام ليس هذا لى و لا لك اطرحه فى القبض فطرحته و بى مالا يعلمه الا الله من قتل أخى وأخذ سلبى فما جاوزت الا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ياسعد انك سألتنى السيف وليس لى وقد صار لى فاذهب فخذه وهذا كما ترى يقتضى عدم وقوع التنفيل يومئذ والا لكان سؤال السيف من سعد بموجب شرطه و وعده عليه السلام لا بطريق الهبة المبتدأة وحمل ذلك من سعد على مراعاة الأدب مع كون سؤاله بموجب الشرط يرده رده عليه الصلاة والسلام قبل النزول وتعليله بقوله ليس هذا لى لاستحالة أن يعد عليه الصلاة والسلام بما لا يقدر على انجازه واعطاؤه صلى الله عليه وسلم بعد النزول وترتيبه على قوله وقد صار لى ضرورة أن مناط صيرورته له عليه الصلاة والسلام قوله تعالى الأنفال لله والرسول والفرض أنه المانع من اعطاء المسئول ومما هو نص فى الباب قوله عز وجل ﴿فاتقوا الله﴾ أى اذا كان أمر الغنائم لله تعالى و رسوله فاتقوه تعالى واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لسخط الله تعالى أو فاتقوه فى كل ماتأتون وما تذرون فيدخل فيه ماهم فيه دخولا أوليا ولو كان السؤال طلبا للمشروط لما كان

فيه محذور يجب اتقاؤه واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ جعل مابينهم من الحال لملابستها التامة لبينهم صاحبة له كما جعلت الأمور المضمرة فى الصدور ذات الصدور أى اصلحوا مابينكم من الأحوال بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى وتفضل به عليكم وعن عبادة بن الصامت نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله تعالى من أيدينا فجعله لرسوله فقسمه بين المسلمين على السواء وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسوله واصلاح ذات البين وعن عطاء كان الاصلاح بينهم أن دعاهم وقال اقسموا غنائمكم بالعدل فقالوا قد أكلنا وأنفقنا فقال ليرد بعضكم على بعض ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ بتسليم أمره ونهيه وتوسيط الأمر باصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لاظهار كمال العناية بالاصلاح بحسب المقام وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة والجواب محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أو هو الجواب على الخلاف المشهور وأياً ما كان فالمقصود تحقيق المعلق بناء على تحقق المعلق به وفيه تنشيط للمخاطبين وحث لهم على المسارعة الى الامتثال والمراد بالايمان كماله أى ان كنتم كاملى الايمان فان كمال الايمان يدور على هذه الخصال الثلاث طاعة الأوامر واتقاء المعاصى واصلاح ذات البين بالعدل والاحسان ﴿انما المؤمنون﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان من أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث وفيه مزيد ترغيب لهم فى الامتثال بالأوامر المذكورة أى انما الكاملون فى الايمان المخلصون فيه ﴿الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أى فزعت لمجرد ذكره من غير أن يذكر هناك مايوجب الفزع من صفاته وأفعاله استعظاماً لشأنه الجليل وتهيبا منه وقيل هو الرجل يهم بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفا من عقابه وقرئ وجلت بفتح الجيم وهى لغة وقرئ فرقت أى خافت ﴿واذا تليت عليهم آياته﴾ أى آية كانت ﴿زادتهم ايمانا﴾ أى يقينا وطمأنينة نفس فان تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين وقيل ان نفس الايمان لا يقبل الزيادة والنقصان وانما زيادته باعتبار زيادة المؤمن به فانه كلما نزلت آية صدق بها المؤمن فزاد ايمانه عدداً وأما نفس الايمان فهو بحاله وقيل باعتبار أن الأعمال تجعل من الايمان فيزيد بزيادتها والأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة وهى التى عبر عنها بالزيادة للفرق النير بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الأمة وعليه مبنى ماقال على رضى الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا وكذا بين ماقام عليه دليل واحد وما قامت عليه أدلة كثيرة ﴿وعلى ربهم﴾ مالكهم ومدبر أمورهم خاصة ﴿يتوكلون﴾ يفوضون أمورهم لا الى أحد سواه والجملة معطوفة على الصلة وقوله تعالى ﴿الذين يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون﴾ مرفوع على أنه نعت للموصول الأول أو بدل منه أو بيان له أو منصوب على القطع المنبئ عن المدح ذكر أولا من أعمالهم الحسنة أعمال القلوب من الخشية والاخلاص والتوكل ثم عقب بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة ﴿أولئك﴾ اشارة الى من ذكرت صفاتهم الحميدة من حيث أنهم متصفون بها وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك عمن عداهم أكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الشرف ﴿هم المؤمنون حقا﴾ لأنهم حققوا ايمانهم بأن ضموا اليه ما فصل من أفاضل الأعمال القلبية والقالبية وحقا صفة لمصدر محذوف أى أولئك هم المؤمنون ايمانا حقا أو مصدر مؤكد للجملة أى حق ذلك حقا كقولك هو عبد الله حقا ﴿لهم درجات﴾ من الكرامة والزلفى وقيل درجات عالية فى الجنة وهو اما جملة مبتدأة مبنية على سؤال نشأ من تعداد مناقبهم كأنه قيل مالهم بمقابلة هذه الخصال فقيل لهم كيت وكيت أو خبر ثان لأولئك وقوله تعالى ﴿عند ربهم﴾ اما متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات مؤكدة لما أفاده التنوين من

الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائنة عنده تعالى أو بما تعلق به الخبر أعنى لهم من الاستقرار وفى اضافة الظرف الى الرب المضاف الى ضميرهم مزيد تشريف ولطف لهم وايذان بأن ماوعدلهم متيقن الثبوت والحصول مأمون الفوات ﴿ومغفرة﴾ لما فرط منهم ﴿ورزق كريم﴾ لا ينقضى أمده ولا ينتهى عدده وهو ما أعدلهم من نعيم الجنة ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ الكاف فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال اخراجك يعنى أن حالهم فى كراهتهم لما رأيت مع كونه حقا كحالهم فى كراهتهم لخروجك للحرب وهو حق أو فى محل النصب على أنه صفة لمصدر مقدر فى قوله تعالى الأنفال لله أى الأنفال ثبتت لله والرسول مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات اخراج ربك اياك من بيتك فى المدينة أو من المدينة اخراجا ملتبسا بالحق ﴿وان فريقا من المؤمنين لكارهون﴾ أى والحال أن فريقا منهم كارهون للخروج اما لنفرة الطبع عن القتال أو لعدم الاستعداد وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكبا منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم فنادى أبو جهل فوق الكعبة ياأهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول عيركم أموالكم ان أصابها محمد لم تفلحوا بعدها أبدا وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه رؤيا فقالت لاخيها انى رأيت عجبا رأيت كأن ملكا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة الا أصابه حجر من تلك الصخرة فحدث بها العباس رضى الله عنه فقال أبو جهل مايرضى رجالهم أن يتنبئوا حتى تتنبأ نساؤهم فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير فقيل له ان العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس الى مكة فقال لا واللات لا يكون ذلك أبدا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا وأن محمدا لم يصب العير وأنا قد أعضضناه فمضى بهم الى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما فى السنة فنزل جبريل عليه السلام فقال يامحمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبى عليه الصلاة والسلام أصحابه فقال ماتقولون ان القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب اليكم أم النفير فقالوا بل العير أحب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم فقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يارسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عند ماغضب النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فأحسنا ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فامض فوالله لو سرت الى عدن أبين ماتخلف عنك رجل من الانصار ثم قال المقداد بن عمرو رضى الله عنه يارسول الله امض لما أمرك الله فانا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون مادامت عين منا تطرف فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال أشيروا على أيها الناس وهو يريد الانصار لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة انا برآء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا فاذا وصلت الينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان النبى عليه الصلاة والسلام يتخوف أن تكون الأنصار لا ترى عليهم نصرته الا على عدو دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يارسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وانا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ماتقر به عينك فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد ثم قال سيروا على بركة الله وأبشروا

فان الله قدوعدنى احدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر الى مصارع القوم. وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شيء فناداه العباس رضى الله عنه وهو فى وثاقه لا يصلح فقال النبى عليه الصلاة والسلام لم قال لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد أعطاك ماوعدك ﴿يجادلونك فى الحق﴾ الذى هو تلقى النفير لايثارهم عليه تلقى العير والجملة استئناف أوحال ثانية أى أخرجك فى حال مجادلتهم اياك ويجوز أن يكون حالا من الضمير فى لكارهون وقوله تعالى ﴿بعد ماتبين﴾ منصوب بيجادلونك وما مصدرية أى بعد تبين الحق لهم باعلامك أنهم ينصرون أينما توجهوا ويقولون ما كان خروجنا الا للعير وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب وكان ذلك لكراهتهم القتال ﴿كأنما يساقون الى الموت﴾ الكاف فى محل النصب على الحالية من الضمير فى لكارهون أى مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار الى القتل ﴿وهم ينظرون﴾ حال من ضمير يساقون أى والحال أنهم ينظرون الى أسباب الموت ويشاهدونها عيانا وما كانت هذه المرتبة من الخوف والجزع الا لقلة عددهم وعدم تأهبهم وكونهم رجالة. روى أنه لم يكن فيهم الا فارسان ﴿واذ يعدكم الله احدى الطائفتين﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله عز وجل بالمؤمنين مع مابهم من قلة الحزم ودناءة الهمة وقصور الرأى والخوف والجزع واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به المؤمنون بطريق التلوين والالتفات واحدى الطائفتين مفعول ثان ليعدكم أى اذكروا وقت وعدالله اياكم احدى الطائفتين وتذكير الوقت مع أن المقصود تذكير مافيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة فى ايجاب ذكرها لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ماوقع فيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل على ماوقع فيه من الحوادث بتفاصيلها فاذا استحضر كان ماوقع فيه حاضرا مفصلا كأنه مشاهد عيانا وقرىء يعدكم بسكون الدال تخفيفا وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها وقوله تعالى ﴿أنها لكم﴾ بدل اشتمال من احدى الطائفتين مبين لكيفية الوعد أى يعدكم أن احدى الطائفتين كائنة لكم مختصة بكم مسخرة لكم تتسلطون عليها تسلط الملاك وتتصرفون فيهم كيف شئتم ﴿وتودون﴾ عطف على يعدكم داخل تحت الأمر بالذكر أى تحبون ﴿أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ من الطائفتين لاذات الشوكة وهى النفير ورئيسهم أبو جهل وهم ألف مقاتل وغير ذات الشوكة هى العير اذلم يكن فيها الا أربعون فارسا ورأسهم أبو سفيان والتعبير عنهم بهذا العنوان للتنبيه على سبب ودادتهم لملاقاتهم وموجب كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفير والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك وشوك القنا شباها ﴿ويريد الله﴾ عطف على تودون منتظم معه فى سلك التذكير ليظهر لهم عظيم لطف الله بهم مع دناءة هممهم وقصور آرائهم أى اذكروا وقت وعده تعالى اياكم احدى الطائفتين وودادتكم لأدناهما وارادته تعالى لأعلاهما وذلك قوله تعالى ﴿أن يحق الحق﴾ أى يثبته ويعليه ﴿بكلماته﴾ أى بآياته المنزلة فى هذا الشأن أو بأوامره للملائكة بالامداد وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم فى قليب بدر وقرىء بكلمته ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أى آخرهم ويستأصلهم بالمرة والمعنى أنتم تريدون سفساف الأمور والله عز وعلا يريد معاليها ومايرجع الى علو كلمة الحق وسمو رتبة الدين وشتان بين المرادين وقوله تعالى ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان الحكمة الداعية الى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها مع ارادتهم لغيرها واللام متعلقة بفعل مقدر مؤخر عنها أى لهذه الغاية الجليلة فعل مافعل لا لشيء آخر وليس فيه تكرار اذ الاول لبيان تفاوت مابين الارادتين وهذا لبيان الحكمة الداعية الى ماذكر ومعنى احقاق الحق اظهار حقيته لاجعله حقا بعد أن لم يكن كذلك وكذا حال ابطال الباطل ﴿ولو كره المجرمون﴾ أى المشركون ذلك أى احقاق الحق وابطال الباطل ﴿اذ تستغيثون ربكم﴾ بدل من اذ يعدكم معمول لعامله فالمراد تذكير استمدادهم

منه سبحانه والتجائهم اليه تعالى حين ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وامداده تعالى حينئذ وقيل متعلق بقوله تعالى ليحق الحق على الظرفية وماقيل من أن قوله تعالى ليحق مستقبل لأنه منصوب بأن فلا يمكن عمله فى اذ لانه ظرف لما مضى ليس بشيء لأن كونه مستقبلا انما هو بالنسبة الى زمان ماهو غاية له من الفعل المقدر لا بالنسبة الى زمان الاستغاثة حتى لايعمل فيه بل هما فى وقت واحد وانما عبر عن زمانها باذ نظرا الى زمان النزول وصيغة الاستقبال فى تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل متعلق بمضمر مستأنف أى اذكروا وقت استغاثتكم وذلك أنهم لما علموا أنه لابد من القتال جعلوا يدعون الله تعالى قائلين أى رب انصرنا على عدوك ياغياث المستغيثين أغثنا وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر الى المشركين وهم ألف والى أصحابه وهم ثلثمائة وبضعة عشر فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو اللهم أنجز لى ماوعدتنى اللهم ان تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضى الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك ﴿فاستجاب لكم﴾ عطف على تستغيثون داخل معه فى حكم التذكير لما عرفت أنه ماض وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة ﴿أنى ممدكم﴾ أى بأنى فحذف الجار وسلط عليه الفعل فنصب محله وقرىء بكسر الهمزة على ارادة القول أو على اجراء استجاب مجرى قال لان الاستجابة من مقولة القول ﴿بألف من الملائكة مردفين﴾ أى جاعلين غيرهم من الملائكة رديفا لانفسهم فالمراد بهم رؤساؤهم المستتبعون لغيرهم وقد اكتفى ههنا بهذا البيان الاجمالى وبين فى سورة آل عمران مقدار عددهم وقيل معناه متبعين أنفسهم ملائكة آخرين أو متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضا من أردفته اذا جئت بعده أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين أو أنفسهم المؤمنين من أردفته اياه فردفه وقرىء مردفين بفتح الدال أى متبعين أو متبعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أوساقتهم وقرىء مردفين بكسر الراء وضمها وتشديد الدال وأصلهما مرتدفين بمعنى مترادفين فأدغمت التاء فى الدال فالتقى الساكنان فحركت الراء بالكسر على الاصل أو بالضم على الاتباع وقرىء بآلاف ليوافق مافى سورة آل عمران ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالالف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة أو وجوههم وأعيانهم أو من قاتل منهم واختلف فى مقاتلتهم وقد روى أخبار تدل على وقوعها ﴿وما جعله الله﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن الاسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وانما التأثير مختص به عز وجل ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا من النصر عند فقدان أسبابه والجعل متعد الى مفعول واحد هو الضمير العائد الى مصدر فعل مقدر يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا مغنيا عن التصريح به كأنه قيل فأمدكم بهم وماجعل امدادكم بهم ﴿الا بشرى﴾ وهو استثناء مفرغ من أعم العلل أى وماجعل امدادكم بانزال الملائكة عيانا لشيء من الاشياء الا للبشرى لكم بأنكم تنصرون ﴿ولتطمئن به﴾ أى بالامداد ﴿قلوبكم﴾ وتسكن اليه نفوسكم كما كانت السكينة لبنى اسرائيل كذلك فكلاهما مفعول له للجعل وقد نصب الاول لاجتماع شرائطه وبقى الثانى على حاله لفقدانها وقيل للاشارة الى أصالته فى العلية وأهميته فى نفسه كما قيل فى قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وفى قصر الامداد عليهما اشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال وانما كان امدادهم بتقوية قلوب المباشرين وتكثير سوادهم ونحوه كما هو رأى بعض السلف وقيل الجعل متعد الى اثنين ثانيهما الا بشرى على أنه استثناء من أعم المفاعيل أى وما جعله الله شيئا من الاشياء الا بشارة لكم فاللام فى ولتطمئن متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره ولتطمئن به قلوبكم فعل ذلك لا لشيء آخر ﴿وما النصر﴾ اى حقيقة النصر على الاطلاق ﴿الا من عند الله﴾ أى الا كائن من عنده عز وجل من غير أن يكون فيه شركة من جهة الاسباب والعدد وانما هى مظاهر له بطريق جريان السنة الالهية ﴿ان الله عزيز﴾ لايغالب فى حكمه ولا

ينازع فى أقضيته ﴿حكيم﴾ يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل لما قبلها متضمن للاشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكم البالغة ﴿اذ يغشيكم النعاس﴾ أى يجعله غاشيا لكم ومحيطا بكم وهو بدل ثان من اذ يعدكم لاظهار نعمة أخرى وصيغة الاستقبال فيه وفيما عطف عليه لحكاية الحال الماضية كما فى تستغيثون أو منصوب باضمار اذكروا وقيل هو متعلق بالنصر أو بما فى من عند الله من معنى الفعل أو بالجعل وليس بواضح وقرىء يغشيكم من الاغشاء بمعنى التغشية والفاعل فى الوجهين هو البارى تعالى وقرىء يغشاكم على اسناد الفعل الى النعاس وقوله تعالى ﴿أمنة منه﴾ على القراءتين الأوليين منصوب على العلية بفعل مترتب على الفعل المذكور أى يغشيكم النعاس فتنعسون أمنا كائنا من الله تعالى لا كلالا واعياء أو على أنه مصدر لفعل آخر كذلك أى فتأمنون أمنا كما فى قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا على أحد الوجهين وقيل منصوب بنفس الفعل المذكور والأمنة بمعنى الايمان وعلى القراءة الاخيرة منصوب على العلية بيغشاكم باعتبار المعنى فانه فى حكم تنعسون أو على أنه مصدر لفعل مترتب عليه كما مر وقرىء أمنة كرحمة ﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ تقديم الجار والمجرور على المفعول به لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة له فعند وروده يتمكن عندها فضل تمكن وتقديم عليكم لما أن بيان كون التنزيل عليهم أهم من بيان كونه من السماء وقرىء بالتخفيف من الانزال ﴿ليطهركم به﴾ أى من الحدث الاصغر والاكبر ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ الكلام فى تقديم الجار والمجرور كما مر آنفا والمراد برجز الشيطان وسوسته وتخويفه اياهم من العطش. روى أنهم نزلوا فى كثيب أعفر تسوخ فيه الاقدام على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء فتمثل لهم الشيطان فوسوس اليهم وقال أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة وقد عطشتم ولو كنتم على الحق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم الا أن يجهدكم العطش فاذا قطع أعناقكم مشوا اليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم الى مكة فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا فأنزل الله عز وجل المطر فمطروا ليلا حتى جرى الوادى فاغتسلوا وتوضئوا وسقوا الركاب وتلبد الرمل الذى كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الاقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس وقويت القلوب وذلك قوله تعالى ﴿وليربط على قلوبكم﴾ أى يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعد بمشاهدة طلائعه ﴿ويثبت به الاقدام﴾ فلا تسوخ فى الرمل فالضمير للماء كالاول ويجوز أن يكون للربط فان القلب اذا قوى وتمكن فيه الصبر والجراءة لا تكاد تزل القدم فى معارك الحروب وقوله تعالى ﴿اذ يوحى ربك الى الملائكة﴾ منصوب بمضمر مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام بطريق التجريد حسبما تنطق به الكاف لما أن المأمور به مما لا يستطيعه غيره عليه الصلاة والسلام فان الوحى المذكور قبل ظهوره بالوحى المتلو على لسانه عليه الصلاة والسلام ليس من النعم التى يقف عليها عامة الامة كسائر النعم السابقة التى أمروا بذكر وقتها بطريق الشكر وقيل منصوب بقوله تعالى ويثبت به الاقدام فلا بد حينئذ من عود الضمير المجرور فى به الى الربط على القلوب ليكون المعنى ويثبت أقدامكم بتقوية قلوبكم وقت ايحائه الى الملائكة وأمره بتثبيتهم اياكم وهو وقت القتال ولا يخفى أن تقييد التثبيت المذكور بوقت مبهم عندهم ليس فيه مزيد فائدة وأما انتصابه على أنه بدل ثالث من اذ يعدكم كما قيل فيأباه تخصيص الخطاب به عليه الصلاة والسلام مع ما عرفت من أن المأمور به ليس من الوظائف العامة للكل كسائر أخواته وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من التنويه والتشريف ما لا يخفى والمعنى اذكر وقت ايحائه تعالى الى الملائكة ﴿أنى معكم﴾ أى بالامداد والتوفيق فى أمر التثبيت فهو مفعول يوحى وقرىء بالكسر على ارادة القول أو اجراء الوحى

مجراه وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية الملائكة انما هى من حيث انهم المباشرون للتثبيت صورة فلهم الاصالة من تلك الحيثية كما فى أمثال قوله تعالى ان الله مع الصابرين والفاء فى قوله تعالى ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان امداده تعالى اياهم من أقوى موجبات التثبيت واختلفوا فى كيفية التثبيت فقالت جماعة انما أمروا بتثبيتهم بالبشارة وتكثير السواد ونحوهما مما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم ويتأكد جدهم فى القتال وهو الأنسب بمعنى التثبيت وحقيقته التى هى عبارة عن الحمل على الثبات فى موطن الحراب والجد فى مقاساة شدائد القتال وقد روى أنه كان الملك يتشبه بالرجل الذى يعرفونه بوجهه فيأتى ويقول انى سمعت المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن ويمشى بين الصفين فيقول أبشروا فان الله تعالى ناصركم وقال آخرون أمروا بمحاربة أعدائهم وجعلوا قوله تعالى ﴿سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾ تفسيرا لقوله تعالى أنى معكم وقوله تعالى ﴿فاضربوا﴾ الخ تفسيرا لقوله تعالى فثبتوا مبينا لكيفية التثبيت وقد روى عن أبى داود المازنى رضى الله عنه وكان ممن شهد بدرا أنه قال اتبعت رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه فوقعت رأسه بين يدى قبل أن يصل اليه سيفى وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أنه قال لقد رأيتنا يوم بدر وان أحدنا يشير بسيفه الى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل اليه السيف وأنت خبير بأن قتلهم للكفرة مع عدم ملاءمته لمعنى تثبيت المؤمنين مما لا يتوقف على الامداد بالقاء الرعب فلا يتجه ترتيب الامر به عليه بالفاء وقد اعتذر الأولون بأن قوله تعالى سألقى الخ ليس بنص فيما ذكر بل يجوز أن يكون ذلك اثر قوله تعالى فثبتوا الذين آمنوا تلقيناً للملائكة ما يثبتونهم به كأنه قيل قولوا لهم قولى سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا الخ فالضاربون هم المؤمنون وأما ما قيل من أن ذلك خطاب منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين فمبناه توهم وروده قبل القتال وأنى ذلك والسورة الكريمة انما نزلت بعد تمام الوقعة وقوله تعالى ﴿فوق الأعناق﴾ أى أعاليها التى هى المذابح أو الهامات ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ قيل البنان أطراف الاصابع من اليدين والرجلين وقيل هى الاصابع من اليدين والرجلين وقال أبو الهيثم البنان المفاصل وكل مفصل بنانة وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك يعنى الاطراف أى اضربوهم فى جميع الاعضاء من أعاليها الى أسافلها وقيل المراد بالبنان الادانى وبفوق الاعناق الاعالى والمعنى فاضربوا الصناديد والسفلة وتكرير الامر بالضرب لمزيد التشديد والاعتناء بأمره ومنهم متعلق به أو بمحذوف وقع حالا مما بعده ﴿ذلك﴾ اشارة الى ما أصابهم من العقاب وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجته فى الشدة والفظاعة والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يليق بالخطاب ومحله الرفع على الابتداء وخبره قوله تعالى ﴿بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أى ذلك العقاب الفظيع واقع عليهم بسبب مشاقتهم ومغالبتهم من لا سبيل الى مغالبته أصلا واشتقاق المشاقة من الشق لما أن كلا من المشاقين فى شق خلاف شق الآخر كما أن اشتقاق المعاداة والمخاصمة من العدوة والخصم أى الجانب لان كلا من المتعادين والمتخاصمين فى عدوة وخصم غير عدوة الآخر وخصمه ﴿ومن يشاقق الله ورسوله﴾ الاظهار فى موضع الاضمار لتربية المهابة واظهار كمال شناعة ما اجترؤا عليه والاشعار بعلة الحكم وقوله تعالى ﴿فان الله شديد العقاب﴾ اما نفس الجزاء قد حذف منه العائد الى من عند من يلتزمه أى شديد العقاب له أو تعليل للجزاء المحذوف أى يعاقبه الله فان الله شديد العقاب وأيا ما كان فالشرطية تكملة لما قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهانى كأنه قيل ذلك العقاب الشديد بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله كائناً من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فاذن لهم بسبب مشاقتهم لهما عقاب شديد وأما أنه وعيد لهم بما أعد لهم فى الآخرة بعد ما حاق بهم فى الدنيا كما قيل فيرده ما بعده من قوله تعالى ﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ فانه مع كونه هو المسوق للوعيد بما ذكر

ناطق بكون المراد بالعقاب المذكور ما أصابهم عاجلا سواء جعل ذلكم اشارة الى نفس العقاب أو الى ماتفيده الشرطية من ثبوت العقاب لهم أما على الأول فلان الأظهر أن محله النصب بمضمر يستدعيه قوله تعالى فذوقوه والواو فى قوله تعالى وأن للكافرين الخ بمعنى مع فالمعنى باشروا ذلكم العقاب الذى أصابكم فذوقوه عاجلا مع أن لكم عذاب النار آجلا فوضع الظاهر موضع الضمير لتوبيخهم بالكفر وتعليل الحكم به وأما على الثانى فلان الأقرب أن محله الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى وأن للكافرين الخ معطوف عليه والمعنى حكم الله ذلكم أى ثبوت هذا العقاب لكم عاجلا وثبوت عذاب النار آجلا وقوله تعالى فذوقوه اعتراض وسط بين المعطوفين للتهديد والضمير على الأول لنفس المشار اليه وعلى الثانى لما فى ضمنه وقد ذكر فى اعراب الآية الكريمة وجوه أخر مدار الكل على أن المراد بالعقاب ماأصابهم عاجلا والله تعالى أعلم وقرئ بكسر أن على الاستئناف ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب للمؤمنين بحكم كلى جار فيما سيقع من الوقائع والحروب جئ به فى تضاعيف القصة اظهارا للاعتناء بشأنه ومبالغة فى حقهم على المحافظة عليه ﴿ اذا لقيتم الذين كفروا زحفا ﴾ الزحف الدبيب يقال زحف الصبى زحفا اذا دب على استه قليلا قليلا سمى به الجيش الدهم المتوجه الى العدو لانه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف وذلك لان الكل يرى كجسم واحد متصل فيحس حركته بالقياس اليه فى غاية البطء وان كانت فى نفس الأمر على غاية السرعة قال قائلهم

وأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لجاج والركاب تهملج

ونصبه اما على أنه حال من مفعول لقيتم أى زاحفين نحوكم واما على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال منه أى يزحفون زحفا وأما كونه حالا من فاعله أو منه ومن مفعوله معا كما قيل فيأباه قوله تعالى ﴿ فلا تولوهم الادبار ﴾ اذ لا معنى لتقييد النهى عن الادبار بتوجههم السابق الى العدو أو بكثرتهم بل توجه العدو اليهم وكثرتهم هو الداعى الى الادبار عادة والمحوج الى النهى عنه وحمله على الاشعار بما سيكون منهم يوم حنين حيث تولوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثنا عشر ألفا بعيد والمعنى اذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تولوهم أدباركم فضلا عن الفرار بل قابلوهم وقاتلوهم مع قلتكم فضلا عن أن تدانوهم فى العدد أو تساووهم ﴿ ومن يولهم يومئذ ﴾ أى يوم اللقاء ﴿ دبره ﴾ فضلا عن الفرار وقرئ بسكون الباء ﴿ الا متحرفا لقتال ﴾ اما بالتوجه الى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء واما بالفر للكر بأن يخيل عدوه أنه منهزم ليغره ويخرجه من بين أعوانه ثم يعطف عليه وحده أو مع من فى الكمين من أصحابه وهو باب من خدع الحرب ومكايدها ﴿ أو متحيزا الى فئة ﴾ أى منحازا الى جماعة أخرى من المؤمنين لينضم اليهم ثم يقاتل معهم العدو. عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ان سرية فروا وأنا معهم فلما رجعوا الى المدينة استحيوا ودخلوا البيوت فقلت يارسول الله نحن الفرارون فقال صلى الله عليه وسلم بل أنتم العكارون أى الكرارون من عكر أى رجع وأنا فئتكم وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة الى عمر رضى الله عنه فقال ياأمير المؤمنين هلكت ففررت من الزحف فقال رضى الله عنه أنا فئتك و و زن متحيز متفيعل لامتفعل والا لكان متحوزا لانه من حاز يحوز واتصابهما اما على الحالية والا لغو لا عمل لها واما على الاستثناء من المولين أى ومن يولهم دبره الا رجلا منهم متحرفا أو متحيزا ﴿ فقد باء ﴾ أى رجع ﴿ بغضب ﴾ عظيم لايقادر قدره ومن فى قوله تعالى ﴿ من الله ﴾ متعلقة بمحذوف هو صفة لغضب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة والهول بالفخامة الاضافية أى بغضب كائن منه تعالى ﴿ ومأواه جهنم ﴾ أى بدل ما أراد بفراره أن يأوى اليه من مأوى ينجيه من القتل ﴿ وبئس المصير ﴾ فى ايقاع البوء فى موقع جواب الشرط الذى هو التولية مقرونا بذكر المأوى والمصير من الجزالة مالا مزيد عليه . عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الفرار من الزحف من أكبر

الكبائر وهذا اذا لم يكن العدو أكثر من الضعف لقوله تعالى الآن خفف الله عنكم الآية وقيل الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه فى الحرب ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ رجوع الى بيان بقية أحكام الوقعة وأحوالها وتقرير ماسبق منها والفاء جواب شرط مقدر يستدعيه ما مر من ذكر امداده تعالى وأمره بالتثبيت وغير ذلك كأنه قيل اذا كان الأمر كذلك فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم وقدرتكم ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم والقاء الرعب فى قلوبهم ويجوز أن يكون التقدير اذا علمتم ذلك فلم تقتلوهم أى فاعلموا أو فاخبركم أنكم لم تقتلوهم وقيل التقدير ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم على أحد التأويلين لما روى أنهم لما انصرفوا من المعركة غالبين غانمين أقبلوا يتفاخرون يقولون قتلت وأسرت وفعلت وتركت فنزلت وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طلعت قريش من العقنقل قال هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم انى أسألك ما وعدتنى فأتاه جبريل عليه السلام فقال خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلى رضى الله تعالى عنه أعطنى قبضة من حصباء الوادى فرمى بها فى وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك الا شغل بعينيه فانهزموا وذلك قوله عز وجل بطريق تلوين الخطاب ﴿ وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ﴾ تحقيقا لكون الرمى الظاهر على يده عليه الصلاة والسلام حينئذ من أفعاله عز وجل وتجريد الفعل عن المفعول به لما أن المقصود الأصلى بيان حال الرمى نفيا واثباتا اذ هو الذى ظهر منه ماظهر وهو المنشأ لتغير المرمى به فى نفسه وتكثره الى حيث أصاب عينى كل واحد من أولئك الأمة الجمة شئ من ذلك أى وما فعلت أنت يامحمد تلك الرمية المستتبعة لهذه الآثار العظيمة حقيقة حين فعلتها صورة والا لكان أثرها من جنس آثار الأفاعيل البشرية ولكن الله فعلها أى خلقها حين باشرتها لكن لا على نهج عادته تعالى فى خلق أفعال العباد بل على وجه غير معتاد ولذلك أثرت هذا التأثير الخارج عن طوق البشر ودائرة القوى والقدر فمدار اثباتها لله تعالى ونفيها عنه عليه الصلاة والسلام كون أثرها من أفعاله سبحانه لا من أفعاله عليه الصلاة والسلام وقرئ ولكن الله بالتخفيف والرفع فى المحلين واللام فى قوله تعالى ﴿ وليبلى المؤمنين منه ﴾ أى ليعطيهم من عنده تعالى ﴿ بلاء حسنا ﴾ أى عطاء جميلا غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره اما متعلقة بمحذوف متأخر فالواو اعتراضية أى وللاحسان اليهم بالنصر والغنيمة فعل مافعل لا لشئ غير ذلك مما لا يجديهم نفعا واما برمى فالواو للعطف على علة محذوفة أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى الخ وقوله تعالى ﴿ ان الله سميع ﴾ أى لدعائهم واستغاثتهم ﴿ عليم ﴾ أى بنياتهم وأحوالهم الداعية الى الاجابة تعليل للحكم ﴿ ذلكم ﴾ اشارة الى البلاء الحسن ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى ﴿ وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ بالاضافة معطوف عليه أى المقصد ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وابطال حيلهم وقيل المشار اليه القتل والرمى والمبتدأ الامر أى الامر ذلكم أى القتل فيكون قوله تعالى وأن الله الآية من قبيل عطف البيان وقرئ موهن بالتنوين مخففا ومشددا ونصب كيد الكافرين ﴿ ان تستفتحوا ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم بهم وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين أى ان تستنصروا لأعلى الجندين ﴿ فقد جاءكم الفتح ﴾ حيث نصر أعلاهما وقد زعمتم أنكم الأعلى فالتهكم فى المجئ أو فقد جاءكم الهزيمة والقهر فالتهكم فى نفس الفتح حيث وضع موضع مايقابله ﴿ وان تنتهوا ﴾ عما كنتم عليه من الحراب ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فهو ﴾ أى الانتهاء ﴿ خير لكم ﴾ أى من الحراب الذى ذقتم غائلته لما فيه من السلامة من القتل والأسر ومبنى اعتبار أصل الخيرية فى المفضل عليه هو التهكم ﴿ وان تعودوا ﴾ أى الى حرابه عليه الصلاة والسلام ﴿ نعد ﴾ لما شاهدتموه من الفتح ﴿ ولن تغنى ﴾ بالتاء الفوقانية وقرئ بالياء التحتانية لأن تأنيث الفئة

غير حقيقى وللفصل أى لن تدفع أبدا ﴿عنكم فئتكم﴾ جماعتكم التى تجمعونهم وتستعينون بهم ﴿شيئا﴾ أى من الاغناء أو من المضار وقوله تعالى ﴿ولو كثرت﴾ جملة حالية وقد مر التحقيق ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ أى ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك أو والأمر أن الله مع المؤمنين ويقرب منه بحسب المعنى قراءة الكسر على الاستئناف وقيل الخطاب للمؤمنين والمعنى ان تستنصروا فقد جاءكم النصر وان تنتهوا عن التكاسل والرغبة عما يرغب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو خير لكم من كل شئ لما أنه مناط لنيل سعادة الدارين وان تعودوا اليه نعد عليكم بالانكار وتهييج العدو ولن تغنى حينئذ كثرتكم اذا لم يكن الله معكم بالنصر والأمر أن الله مع الكاملين فى الايمان ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا﴾ بطرح احدى التاءين وقرئ بادغامها ﴿عنه﴾ أى لا تتولوا عن الرسول فان المراد هو الأمر بطاعته والنهى عن الاعراض عنه وذكر طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على أن طاعته تعالى فى طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام من يطع الرسول فقد أطاع الله وقيل الضمير للجهاد وقيل للامر الذى دل عليه الطاعة وقوله تعالى ﴿وأنتم تسمعون﴾ جملة حالية واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولى مطلقا كما فى قوله تعالى فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون لا لتقييد النهى عنه بحال السماع كما فى قوله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى أى لا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سماع فهم واذعان ﴿ولا تكونوا﴾ تقرير للنهى السابق وتحذير عن مخالفته بالتنبيه على أنها مؤدية الى انتظامهم فى سلك الكفرة بكون سماعهم كلا سماع أى لا تكونوا بمخالفة الأمر والنهى ﴿كالذين قالوا سمعنا﴾ بمجرد الادعاء من غير فهم واذعان كالكفرة والمنافقين الذين يدعون السماع ﴿وهم لا يسمعون﴾ حال من ضمير قالوا أى قالوا ذلك والحال أنهم لا يسمعون حيث لا يصدقون ما سمعوه ولا يفهمونه حق فهمه فكأنهم لا يسمعونه رأسا ﴿ان شر الدواب﴾ استئناف مسوق لبيان كمال سوء حال المشبه بهم مبالغة فى التحذير وتقرير النهى اثر تقرير أى ان شر ما يدب على الأرض أو شر البهائم ﴿عند الله﴾ أى فى حكمه وقضائه ﴿الصم﴾ الذين لا يسمعون الحق ﴿البكم﴾ الذين لا ينطقون به وصفوا بالصمم والبكم لأن ما خلق له الاذن واللسان سماع الحق والنطق به وحيث لم يوجد فيهم شئ من ذلك صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأسا وتقديم الصم على البكم لما أن صممهم متقدم على بكمهم فان السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من فروع سماعه ثم وصفوا بعدم التعقل فقيل ﴿الذين لا يعقلون﴾ تحقيقا لكمال سوء حالهم فان الأصم الأبكم اذا كان له عقل ربما يفهم بعض الأمور ويفهمه غيره بالاشارة ويهتدى بذلك الى بعض مطالبه وأما اذا كان فاقدا للعقل أيضا فهو الغاية فى الشرية وسوء الحال وبذلك يظهر كونهم شرا من البهائم حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها وبه يفضلون على كثير من خلق الله عز وجل فصار وا أخس من كل خسيس ﴿ولو علم الله فيهم خيرا﴾ شيئا من جنس الخير الذى من جملته صرف قواهم الى تحرى الحق واتباع الهدى ﴿لأسمعهم﴾ سماع تفهم وتدبر ولوقفوا على حقية الرسول عليه الصلاة والسلام وأطاعوه وآمنوا به ولكن لم يعلم فيهم شيئا من ذلك لخلوهم عنه بالمرة فلم يسمعهم كذلك لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة واليه أشير بقوله تعالى ﴿ولو أسمعهم لتولوا﴾ أى لو أسمعهم سماع تفهم وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية لتولوا عما سمعوه من الحق ولم ينتفعوا به قط أو ارتدوا بعد ما صدقوه وصاروا كأن لم يسمعوه أصلا وقوله تعالى ﴿وهم معرضون﴾ اما حال من ضمير تولوا أى لتولوا على أدبارهم والحال أنهم معرضون عما سمعوه بقلوبهم واما اعتراض تذييلى أى وهم قوم عادتهم الاعراض وقيل كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحى قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك ونؤمن بك فالمعنى ولو أسمعهم كلام قصى الخ وقيل هم بنو عبد الدار بن قصى لم يسلم منهم الا مصعب بن

عمير وسويد بن حرملة كانوا يقولون نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه قاتلهم الله تعالى فقتلوا جميعا بأحد وكانوا أصحاب اللواء وعن ابن جريج أنهم المنافقون وعن الحسن رضى الله عنه أنهم أهل الكتاب ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ تكرير النداء مع وصفهم بنعت الايمان لتنشيطهم الى الاقبال على الامتثال بما يرد بعده من الأوامر وتنبيههم على أن فيهم ما يوجب ذلك ﴿استجيبوا لله وللرسول﴾ بحسن الطاعة ﴿اذا دعاكم﴾ أى الرسول اذ هو المباشر لدعوة الله تعالى ﴿لما يحييكم﴾ من العلوم الدينية التى هى مناط الحياة الأبدية كما أن الجهل مدار الموت الحقيقى أو هى ماء حياة القلب كما أن الجهل موجب موته وقيل لمجاهدة الكفار لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم كما فى قوله تعالى ولكم فى القصاص حياة . روى أنه عليه الصلاة والسلام مر على أبى بن كعب وهو يصلى فدعاه فعجل فى صلاته ثم جاء فقال عليه الصلاة والسلام ما منعك من اجابتى قال كنت فى الصلاة قال ألم تخبر فيما أوحى الى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم الخ واختلف فيه فقيل هذا من خصائص دعائه عليه الصلاة والسلام وقيل لأن اجابته عليه الصلاة والسلام لا تقطع الصلاة وقيل كان ذلك الدعاء لأمر مهم لا يحتمل التأخير وللمصلى أن يقطع الصلاة لمثله ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ تمثيل لغاية قربه تعالى من العبد كقوله تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وتنبيه على أنه تعالى مطلع من مكنونات القلوب على ما عسى يغفل عنه صاحبها أو حث على المبادرة الى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل ادراك المنية فانها حائلة بين المرء وقلبه أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه بحيث يفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده ويحول بينه وبين الكفران أراد سعادته ويبدله بالأمن خوفا وبالذكر نسيانا وما أشبه ذلك من الأمور المعترضة المفوتة للفرصة وقرئ بين المر بتشديد الراء على حذف الهمزة والقاء حركتها على الراء واجراء الوصل مجرى الوقف ﴿وأنه﴾ أى الله عز وجل أو الشأن ﴿اليه تحشرون﴾ لا الى غيره فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم فسارعوا الى طاعته تعالى وطاعة رسوله وبالغوا فى الاستجابة لهما ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ أى لا تختص اصابتها بمن يباشر الظلم منكم بل يعمه وغيره كاقرار المنكر بين أظهرهم والمداهنة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل فى الجهاد على أن قوله لا تصيبن الخ اما جواب الأمر على معنى ان أصابتكم لا تصيبن الخ وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهى ساغ فيه كقوله تعالى ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم واما صفة لفتنة ولا للنفى وفيه شذوذ لأن النون لا تدخل المنفى فى غير القسم أو للنهى على ارادة القول كقول من قال

حتى اذا جن الظلام واختلط جاؤا بمذق هل رأيت الذئب قط

واما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ لتصيبن وان اختلف المعنى فيهما وقد جوز أن يكون نهيا عن التعرض للظلم بعد الأمر باتقاء الذنب فان وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه ومن فى منكم على الوجوه الأول للتبعيض وعلى الأخيرين للتبيين وفائدته التنبيه على أن الظلم منكم أقبح منه من غيركم ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه ﴿واذكروا اذ أنتم قليل﴾ أى وقت كونكم قليلا فى العدد وايثار الجملة الاسمية للايذان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف وقوله تعالى ﴿مستضعفون﴾ خبر ثان أو صفة لقليل وقوله تعالى ﴿فى الأرض﴾ أى فى أرض مكة تحت أيدى قريش والخطاب للمهاجرين أو تحت أيدى فارس والروم والخطاب للعرب كافة فانهم كانوا أذلاء تحت أيدى الطائفتين وقوله تعالى ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ خبر ثالث أو صفة ثانية لقليل وصف بالجملة بعد ما وصف بالمفرد أو حال من المستكن فى مستضعفون والمراد بالناس على الاول وهو الاظهر اما كفار قريش واما كفار العرب لقربهم منهم وشدة عداوتهم لهم وعلى الثانى فارس والروم أى واذكروا وقت قلتكم وذلتكم

وهوانكم على الناس وخوفكم من اختطافهم ﴿فآواكم﴾ الى المدينة أوجعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم ﴿وأيدكم بنصره﴾ على الكفار أو بمظاهرة الانصار أو بامداد الملائكة ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من الغنائم ﴿لعلكم تشكرون﴾ هذه النعم الجليلة ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول﴾ أصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام واستعماله فى ضد الأمانة لتضمنه اياه أى لاتخونوهما بتعطيل الفرائض والسنن أو بأن تضمروا خلاف ماتظهرون أو فى الغلول فى الغنائم روى أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بنى قريظة احدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صالح بنى النضير على أن يسيروا الى اخوانهم بأذرعات وأريحاء من الشام فأبى الا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة وكان مناصحا لهم لما أن ماله وعياله كانا فى أيديهم فبعثه اليهم فقالوا ماترى هل ننزل على حكم سعد فأشار الى حلقه انه الذبح قال أبو لبابة فما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله فنزلت فشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فمكث سبعة أيام حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فحل نفسك قال لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاءه عليه الصلاة والسلام فحله فقال ان من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى فقال عليه الصلاة والسلام يجزئك الثلث ان تتصدق به ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ فيما بينكم وهو مجزوم معطوف على الاول أو منصوب على الجواب بالواو ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم تخونون أو وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ لانها سبب الوقوع فى الاثم والعقاب أو محنة من الله عز وجل ليبلوكم فى ذلك فلايحملنكم حبهما على الخيانة كأبى لبابة ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ لمن آثر رضاه تعالى عليهما وراعى حدوده فيهما فيبطوا هممكم بما يؤديكم اليه ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ تكرير الخطاب والوصف بالايمان لاظهار كمال العناية بما بعده والايذان بأنه مما يقتضى الايمان مراعاته والمحافظة عليه كما فى الخطابين السابقين ﴿ان تتقوا الله﴾ أى فى كل ما تأتون وما تذرون ﴿يجعل لكم﴾ بسبب ذلك ﴿فرقانا﴾ هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل أونصرا يفرق بين المحق والمبطل باعزاز المؤمنين واذلال الكافرين أو مخرجا من الشبهات أو نجاة مما تحذرون فى الدارين أو ظهورا يشهر أمركم وينشر صيتكم من قولهم بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان أى الصبح ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أى يسترها ﴿ويغفر لكم﴾ ذنوبكم بالعفو والتجاوز عنها وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لانها فى أهل بدر وقد غفرهما الله تعالى لهم وقوله تعالى ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ تعليل لما قبله وتنبيه على أن ما وعده الله تعالى لهم على التقوى تفضل منه واحسان لا أنه مما يوجبه التقوى كما اذا وعد السيد عبده انعاما على عمل ﴿واذ يمكر بك الذين كفروا﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم معطوف على قوله تعالى واذكروا اذ أنتم الخ مسوق لتذكير النعمة الخاصة به صلى الله عليه وسلم بعد تذكير النعمة العامة للكل أى واذكر وقت مكرهم بك ﴿ليثبتوك﴾ بالوثاق ويعضده قراءة من قرأ ليقيدوك أو الاثخان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبته لا حراك به ولا براح وقرئ ليثبتوك بالتشديد وليبيتوك من البيات ﴿أو يقتلوك﴾ أى بسيوفهم ﴿أو يخرجوك﴾ أى من مكة وذلك أنهم لما سمعوا باسلام الانصار ومبايعتهم له عليه الصلاة والسلام فرقوا واجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فى أمره صلى الله عليه وسلم فدخل ابليس عليهم فى صورة شيخ وقال أنا من نجد سمعت باجتماعكم فاردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا فقال أبو البحترى رأيى أن تحبسوه فى بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه منها حتى يموت فقال الشيخ بئس الرأى يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم فقال هشام بن عمرو رأيى أن

تحملوه على جمل وتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع فقال وبئس الرأى يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم فقال أبوجهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه فى القبائل فلايقوى بنوهاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه فقال صدق هذا الفتى فتفرقوا على رأيه فأتى جبريل النبى عليهما الصلاة والسلام وأخبره بالخبر وأمره بالهجرة فبيت عليا رضى الله تعالى عنه على مضجعه وخرج هو مع أبى بكر رضى الله عنه الى الغار ﴿ويمكرون ويمكر الله﴾ أى يرد مكرهم عليهم أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين وذلك بأن أخرجهم الى بدر وقال المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا منهم ما لقوا ﴿والله خير الماكرين﴾ لا يعبأ بمكرهم عند مكره واسناد أمثال هذا اليه سبحانه مما يحسن للمشاكلة ولا مساغ له ابتداء لما فيه من ايهام مالا يليق به سبحانه ﴿واذا تتلى عليهم آياتنا﴾ التى حقها أن يخرها صم الجبال ﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ قاله اللعين النضر بن الحرث واسناده الى الكل لما أنه كان رئيسهم وقاضيهم الذى يقولون بقوله ويأخذون برأيه وقيل قاله الذين ائتمروا فى أمره صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة وهذا كما ترى غاية المكابرة ونهاية العناد كيف لا ولو استطاعوا شيئا من ذلك فما الذى كان يمنعهم من المشيئة وقد تحدوا عشر سنين وقرعوا على العجز وذاقوا من ذلك الأمرين ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوا بما سواه مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا لاسيما فى باب البيان ﴿ان هذا الا أساطير الأولين﴾ أى ما يسطرونه من القصص ﴿واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ هذا أيضا من أباطيل ذلك اللعين. روى أنه لما قال ان هذا الا أساطير الأولين قال له النبى صلى الله عليه وسلم ويلك انه كلام الله تعالى فقال ذلك والمعنى ان القرآن ان كان حقا منزلا من عندك فأمطر علينا الحجارة عقوبة على انكارنا أو ائتنا بعذاب أليم سواه والمراد منه التهكم واظهار اليقين والجزم التام على أنه ليس كذلك وحاشاه وقرئ الحق بالرفع على أن هو مبتدأ لانصل وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقا على الوجه الذى يدعيه صلى الله عليه وسلم وهو تنزيله لا الحق مطلقا لتجويزهم أن يكون مطابقا للواقع غير منزل كالأساطير ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للموجب لامهالهم والتوقف فى اجابة دعائهم واللام لتأكيد النفى والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبى عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم خارج عن عادته تعالى غير مستقيم فى حكمه وقضائه والمراد باستغفارهم فى قوله تعالى ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ اما استغفار من بقى منهم من المؤمنين أو قولهم اللهم اغفر أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله تعالى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴿ومالهم أن لايعذبهم الله﴾ بيان لاستحقاقهم العذاب بعد بيان أن المانع ليس من قبلهم أى ومالهم مما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لايعذبون ﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ أى وحالهم ذلك ومن صدهم عنه الجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الهجرة واحصارهم عام الحديبية ﴿وما كانوا أولياءه﴾ حال من ضمير يصدون مفيدة لكمال قبح ماصنعوا من الصد فان مباشرتهم للصد عنه مع عدم استحقاقهم لولاية أمره فى غاية القبح وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء ﴿ان أولياؤه الا المتقون﴾ من الشرك الذين لايعبدون فيه غيره تعالى ﴿ولكن أكثرهم لايعلمون﴾ أنه لا ولاية لهم عليه وفيه اشعار بأن منهم من يعلم ذلك ولكنه يعاند وقيل أريد بأكثرهم كلهم كما يراد بالقلة العدم ﴿وما كان صلاتهم عند البيت﴾ أى دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضعون موضعها ﴿الا مكاء﴾ أى صفيرا فعال من مكا يمكو اذا صفر وقرئ بالقصر كالبكى ﴿وتصدية﴾ أى تصفيقا تفعلة من الصدى أو من الصد على ابدال أحد حرفى التضعيف بالياء وقرئ صلاتهم بالنصب على أنه الخبر

لكان ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب أوعدم ولايتهم للمسجد فانها لاتليق بمن هذه صلاته. روى أنهم كانوا يطوفون عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها و يصفقون وقيل كانوا يفعلون ذلك اذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي يخلطون عليه و يرون أنهم يصلون أيضا ﴿فذوقوا العذاب﴾ أى القتل والاسر يوم بدر وقيل عذاب الآخرة واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود اثنتا بعذاب أليم ﴿بما كنتم تكفرون﴾ اعتقادا وعملا ﴿ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر أو فى أبى سفيان استأجر ليوم أحد ألفين سوى من استجاش من العرب وأنفق فيهم أربعين أوقية أو فى أصحاب العير فانه لما أصيب قريش يوم بدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك ثأرنا منه ففعلوا والمراد بسبيل الله دينه واتباع رسوله ﴿فسينفقونها﴾ بتمامها ولعل الأول اخبار عن انفاقهم فى تلك الحال وهو انفاق يوم بدر والثانى اخبار عن انفاقهم فيما يستقبل وهو انفاق يوم أحد ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الأول لبيان الغرض من الانفاق ومساق الثانى لبيان عاقبته وأنه لم يقع بعد ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾ ندما وغما لفواتها من غير حصول المقصود جعل ذاتها حسرة وهى عاقبة انفاقها مبالغة ﴿ثم يغلبون﴾ آخر الامر وان كان الحرب بينهم سجالا قبل ذلك ﴿والذين كفروا﴾ أى تموا على الكفر وأصروا عليه ﴿الى جهنم يحشرون﴾ أى يساقون لاالى غيرها ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ أى الكافر من المؤمن أو الفساد من الصلاح واللام متعلقة بيحشرون أو يغلبون أو ما أنفقه المشركون فى عداوته صلى الله عليه وسلم مما أنفقه المسلمون فى نصرته واللام متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة وقرئ ليميز بالتشديد للمبالغة ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا﴾ أى يضم بعضه الى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم فيجمعه أو يضم الى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كما للكافرين ﴿فيجعله فى جهنم﴾ كله ﴿أولئك﴾ اشارة الى الخبيث اذ هو عبارة عن الفريق أو الى المنفقين ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى الخبث ﴿هم الخاسرون﴾ الكاملون فى الخسران لانهم خسروا أنفسهم وأموالهم ﴿قل للذين كفروا﴾ هم أبو سفيان وأصحابه أى قل لأجلهم ﴿ان ينتهوا﴾ عما هم فيه من معاداة النبى صلى الله عليه وسلم بالدخول فى الاسلام ﴿يغفر لهم ماقد سلف﴾ من الذنوب وقرئ ان تنتهوا يغفر لكم و يغفر لكم على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿وان يعودوا﴾ الى قتالهم ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ الذين تحزبوا على الانبياء عليهم السلام بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك ﴿وقاتلوهم﴾ عطف على قل وقد عم الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين فى القتال لتحقيق مايتضمنه قوله تعالى فقد مضت سنة الأولين من الوعيد ﴿حتى لاتكون فتنة﴾ أى لايوجد منهم شرك ﴿و يكون الدين كله لله﴾ وتضمحل الأديان الباطلة اما باهلاك أهلها جميعا أو برجوعهم عنها خشية القتل ﴿فان انتهوا﴾ عن الكفر بقتالكم ﴿فان الله بما يعملون بصير﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه واسلامهم وقرئ بتاء الخطاب أى بما تعملون من الجهاد المخرج لهم الى الاسلام وتعليقه بانتهائهم للدلالة على أنهم يثابون بالسببية كما يثاب المباشرون بالمباشرة ﴿وان تولوا﴾ ولم ينتهوا عن ذلك ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ ناصركم فثقوا به ولاتبالوا بمعاداتهم ﴿نعم المولى﴾ لايضيع من تولاه ﴿ونعم النصير﴾ لايغلب من نصره ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ عن الكلبى أنها نزلت ببدر وقال الواقدى كان الخمس فى غزوة بنى قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة وما موصولة وعائدها محذوف أى الذى أصبتموه من الكفار عنوة وأصل الغنيمة اصابة الغنم من العدو ثم اتسع وأطلق على كل ما أصيب منهم كائنا ما كان وقوله تعالى ﴿من شىء﴾ بيان للموصول

محله النصب على أنه حال من عائد الموصول قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة وأن لا يشذ عنها شىء أى ما غنمتموه كائنا مما يقع عليه اسم الشىء حتى الخيط والمخيط خلا أن سلب المقتول للقاتل اذا نفله الامام وأن الاسارى يخير فيها الامام وكذا الاراضى المغنومة وقوله تعالى ﴿فأن لله خمسه﴾ مبتدأ خبره محذوف أى فحق أو واجب أن له تعالى خمسه وهذه الجملة خبر لأنما الخ وقرئ بالكسر والاولى آكد وأقوى فى الايجاب لما فيه من تكرر الاسناد كأنه قيل فلا بد من ثبات الخمس ولا سبيل الى الاخلال به وقرئ فثله خمسه وقرئ خمسه بسكون الميم والجمهور على أن ذكر الله تعالى للتعظيم كما فى قوله تعالى والله و رسوله أحق أن يرضوه وأن المراد قسمة الخمس على المعطوفين عليه بقوله تعالى ﴿وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ واعادة اللام فى ذى القربى دون غيرهم من الاصناف الثلاثة لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى صلى الله عليه وسلم لمزيد اتصالهم به عليه الصلاة والسلام وهم بنو هاشم و بنو المطلب دون بنى عبد شمس و بنى نوفل لما روى عن عثمان وجبير بن مطعم رضى الله عنهما أنهما قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء اخوتك بنو هاشم لانكر فضلهم لمكانك الذى جعلك الله منهم أرأيت اخواننا بنى المطلب أعطيتهم وحرمتنا وانما نحن وهم بمنزلة واحدة فقال صلى الله عليه وسلم انهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا اسلام انما بنو هاشم و بنو المطلب شىء واحد وشبك بين أصابعه وكيفية قسمتها عندنا أنها كانت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم سهم له عليه الصلاة والسلام وسهم للمذكورين من ذوى قرباه وثلاثة أسهم للاصناف الثلاثة الباقية وأما بعده صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط وكذا سهم ذوى القربى وانما يعطون لفقرهم فهم أسوة لسائر الفقراء ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على الاصناف الثلاثة ويؤيده ما روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه منع بنى هاشم الخمس وقال انما لكم أن يعطى فقيركم وتزوج أيمكم ويخدم من لاخادم له منكم ومن عداهم فهو بمنزلة ابن السبيل الغنى لا يعطى من الصدقة شيأ وعن زيد بن على مثله قال ليس لنا أن نبنى منه قصورا ولا نركب منه البراذين وقيل سهم الرسول صلى الله عليه وسلم لولى الامر بعده وأما عند الشافعى رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف الى ما كان يصرفه عليه الصلاة والسلام من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من الكراع والسلاح ونحو ذلك وسهم لذوى القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم للذكر مثل حظ الانثيين والباقى للفرق الثلاث وعند مالك رحمه الله الامر فيه مفوض الى اجتهاد الامام ان رأى قسمه بين هؤلاء وان رأى أعطاه بعضا منهم دون بعض وان رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم وتعلق أبو العالية بظاهر الآية الكريمة فقال يقسم ستة أسهم و يصرف سهم الله تعالى الى رتاج الكعبة لما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ منه قبضة فيجعلها لمصالح الكعبة ثم يقسم مابقى على خمسة أسهم وقيل سهم الله لبيت المال وقيل هو مضموم الى سهم الرسول عليه الصلاة والسلام هذا شأن الخمس وأما الاخماس الاربعة فتقسم بين الغانمين للراجل سهم وللفارس سهمان عند أبى حنيفة رضى الله عنه وثلاثة أسهم عندهما رحمهما الله. قال القرطبى لما بين الله تعالى حكم الخمس وسكت عن الباقى دل ذلك على أنه ملك للغانمين وقوله تعالى ﴿ان كنتم آمنتم بالله﴾ متعلق بمحذوف ينبىء عنه المذكور أى ان كنتم آمنتم به تعالى فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به الى الله تعالى فاقطعوا أطماعكم منه واقتنعوا بالاخماس الاربعة وليس المراد به مجرد العلم بذلك بل العلم المشفوع بالعمل والطاعة لامره تعالى ﴿وما أنزلنا﴾ عطف على الاسم الجليل أى ان كنتم آمنتم بالله و بما أنزلناه ﴿على عبدنا﴾ وقرئ عبدنا وهو اسم جمع أريد به الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنون فان بعض مانزل نازل عليهم بالذات كما ستعرفه ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر سمى به لفرقه بين الحق والباطل وهو منصوب بأنزلنا أو بآمنتم ﴿يوم التقى الجمعان﴾ أى الفريقان من المؤمنين والكافرين

وهو بدل من يوم الفرقان أو منصوب بالفرقان والمراد ما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام يومئذ من الوحى والملائكة والفتح على أن المراد بالانزال مجرد الايصال والتيسير فينتظم الكل انتظاما حقيقيا وجعل الايمان بانزال هذه الاشياء من موجبات العلم بكون الخمس لله تعالى على الوجه المذكور من حيث ان الوحى ناطق بذلك وان الملائكة والفتح لما كانا من جهته تعالى وجب أن يكون ماحصل بسببهما من الغنيمة مصروفة الى الجهات التى عينها الله تعالى ﴿والله على كل شئ قدير﴾ يقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم ﴿اذ أنتم بالعدوة الدنيا﴾ بدل ثان من يوم الفرقان والعدوة بالضم شط الوادى وكذا بالفتح والكسر وقد قرئ بهما أيضا ﴿وهم بالعدوة القصوى﴾ أى البعدى من المدينة وهى تأنيث الاقصى وكان القياس قلب الواو ياء كالدنيا والعليا مع كونهما من بنات الواو لكنها جاءت على الاصل كالقود واستصوب وهو أكثر استعمالا من القصيا ﴿والركب﴾ أى العير أو قوادها ﴿أسفل منكم﴾ أى فى مكان أسفل من مكانكم يعنى الساحل وهو نصب على الظرفية واقع موقع الخبر والجملة حال من الظرف قبله وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على أن لايخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى جهدهم وضعف شأن المسلمين والتياث أمرهم واستبعاد غلبتهم عادة وكذا ذكر مراكز الفريقين فان العدوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الارجل ولا يمشى فيها الا بتعب ولم يكن فيها ماء بخلاف العدوة القصوى وكذا قوله تعالى ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد﴾ أى لو تواعدتم أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم فى الميعاد هيبة منهم ويأسا من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس الا صنعا من الله عز وجل خارقا للعادات فيزدادوا ايمانا وشكرا وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس ﴿ولكن﴾ جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد ﴿ليقضى الله أمرا كان مفعولا﴾ حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وقهر أعدائه أو مقدرا فى الازل وقوله تعالى ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة﴾ بدل منه أو متعلق بمفعولا أى ليموت من يموت عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن بينة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة فان وقعة بدر من الآيات الواضحة أو ليصدر كفر من كفر وايمان من آمن عن وضوح بينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والايمان والمراد بمن هلك ومن حيى المشارف للهلاك والحياة أو من حاله فى علم الله تعالى الهلاك والحياة وقرئ ليهلك بالفتح وحيى بفك الادغام حملا على المستقبل ﴿وان الله لسميع عليم﴾ أى بكفر من كفر وعقابه وايمان من آمن وثوابه ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد ﴿اذ يريكهم الله فى منامك قليلا﴾ منصوب باذكر أو بدل آخر من يوم الفرقان أو متعلق بعليم أى يعلم المصالح اذ يقللهم فى عينك فى رؤياك وهو أن تخبر به أصحابك فيكون تثبيتا لهم وتشجيعا على عدوهم ﴿ولو أراكهم كثيرا لفشلتم﴾ أى لجبنتم وهبتم الاقدام ﴿ولتنازعتم فى الامر﴾ أى أمر القتال وتفرقت آراؤكم فى الثبات والقرار ﴿ولكن الله سلم﴾ أى أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿انه عليم بذات الصدور﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع ولذلك دبر ما دبر ﴿واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا﴾ منصوب بمضمر خوطب به الكل بطريق التلوين والتعميم معطوف على المضمر السابق والضمير ان مفعولا يرى وقليلا حال من الثانى وانما قللهم فى أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضى الله عنه لمن الى جنبه أتراهم سبعين فقال أراهم مائة تثبيتا لهم وتصديقا لرؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ويقللكم فى أعينهم﴾ حتى قال أبوجهل انما أصحاب محمد أكلة جزور قللهم فى أعينهم قبل التحام القتال ليجترئوا عليهم ولا يستعدوا لهم ثم كثرهم حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وهذه من عظائم آيات تلك الوقعة فان البصر قد يرى الكثير قليلا والقليل كثيرا لكن لا على هذا الوجه ولا الى هذا الحد وانما ذلك بصد الله تعالى الابصار عن

ابصار بعض دون بعض مع التساوى فى الشرائط ﴿ليقضى الله أمرا كان مفعولا﴾ كرر لاختلاف الفعل المعلل به أو لأن المراد بالأمر ثمة الالتقاء على الوجه المذكور وههنا اعزاز الاسلام وأهله واذلال الكفر وحزبه ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ كلها يصرفها كيفما يريد لا راد لأمره ولا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ صدر الخطاب بحرفى النداء والتنبيه اظهارا لكمال الاعتناء بمضمون ما بعده ﴿اذا لقيتم فئة﴾ أى حاربتم جماعة من الكفرة وانما لم يوصفوا بالكفر لظهور أن المؤمنين لايحاربون الا الكفرة واللقاء مما غلب فى القتال ﴿فاثبتوا﴾ أى للقائهم فى مواطن الحرب ﴿واذكروا الله كثيرا﴾ أى فى تضاعيف القتال مستمدين منه مستعينين به مستظهرين بذكره مترقبين لنصره ﴿لعلكم تفلحون﴾ أى تفوزون بمرامكم وتظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه تنبيه على أن العبد ينبغى أن لايشغله شئ عن ذكر الله تعالى وأن يلتجئ اليه عند الشدائد ويقبل اليه بكليته فارغ البال واثقا بأن لطفه لاينفك عنه فى حال من الأحوال ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ فى كل ما تأتون وما تذرون فيندرج فيه ما أمروا به ههنا اندراجا أوليا ﴿ولا تنازعوا﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر أو أحد ﴿فتفشلوا﴾ جواب للنهى وقيل عطف عليه ﴿وتذهب ريحكم﴾ بالنصب عطف على جواب النهى وقرئ بالجزم على تقدير عطف فتفشلوا على النهى أى تذهب دولتكم وشوكتكم فانها مستعارة للدولة من حيث انها فى تمشى أمرها ونفاذه مشبهة بها فى هبوبها وجريانها وقيل المراد بها الحقيقة فان النصرة لاتكون الا بريح يبعثها الله تعالى وفى الحديث نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ﴿واصبروا﴾ على شدائد الحرب ﴿ان الله مع الصابرين﴾ بالنصرة والكلاءة وما يفهم من كلمة مع من أصالتهم انما هى من حيث انهم المباشرون للصبر فهم متبعون من تلك الحيثية ومعيته تعالى انما هى من حيث الامداد والاعانة ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم﴾ بعد ما أمروا بما أمروا به من أحاسن الأعمال ونهوا عما يقابلها من قبائحها والمراد بهم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير ﴿بطرا﴾ أى فخرا وأشرا ﴿ورئاء الناس﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك أنهم لما بلغوا جحفة أتاهم رسول أبى سفيان وقال ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبوا الا اظهار آثار الجلادة فلقوا ما لقوا حسبما ذكر فى أوائل السورة الكريمة فنهى المؤمنون أن يكونوا أمثالهم مرائين بطرين وأمروا بالتقوى والاخلاص من حيث ان النهى عن الشئ مستلزم للامر بضده ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ عطف على بطرا ان جعل مصدرا فى موضع الحال وكذا ان جعل مفعولا له لكن على تأويل المصدر ﴿والله بما يعملون محيط﴾ فيجازيهم عليه ﴿واذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أى واذكر وقت تزيين الشيطان أعمالهم فى معاداة المؤمنين وغيرها بأن وسوس اليهم ﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم﴾ أى ألقى فى روعهم وخيل اليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم وأوهمهم أن اتباعهم اياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم حتى قالوا اللهم انصر احدى الفئتين وأفضل الدينين ولكم خبر لا غالب أو صفته وليس صلته والا لانتصب كقولك لاضارب زيدا عندنا ﴿فلما تراءت الفئتان﴾ أى تلاقى الفريقان ﴿نكص على عقبيه﴾ رجع القهقرى أى بطل كيده وعاد ما خيل اليهم أنه مجير هم سببا لهلاكهم ﴿وقال انى برئ منكم انى أرى ما لا ترون انى أخاف الله﴾ أى تبرأ منهم وخاف عليهم ويئس من حالهم لما رأى امداد الله تعالى للمسلمين بالملائكة وقيل لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الاحنة فكاد ذلك يثنيهم فتمثل لهم ابليس فى صورة سراقة بن مالك الكنانى وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى مجيركم من كنانة فلما رأى الملائكة تنزل نكص وكان يده فى يد الحرث بن هشام فقال له الى أين أتخذلنا فى هذه الحالة فقال انى أرى مالا ترون ودفع فى صدر الحرث وانطلق فانهزموا

فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله انى أخاف الله أخافه أن يصيبنى بمكروه من الملائكة أو يهلكنى ويكون الوقت هو الوقت الموعود اذ رأى فيه مالم يره قبله والأول ما قاله الحسن واختاره ابن بحر ﴿والله شديد العقاب﴾ يجوز أن يكون من كلامه أو مستأنفا من جهة الله عز وجل ﴿اذ يقول المنافقون﴾ منصوب بزين أو بنكص أو بشديد العقاب ﴿والذين فى قلوبهم مرض﴾ أى الذين لم تطمئن قلوبهم بالايمان بعد وبقى فيها نوع شبهة وقيل هم المشركون وقيل هم المنافقون فى المدينة والعطف لتغاير الوصفين كما فى قوله

يالهف زيابة للحارث الصـابح فالغانم فالآيب

﴿غر هؤلاء﴾ يعنون المؤمنين ﴿دينهم﴾ حتى تعرضوا لما لا طاقة لهم به فخرجوا وهم ثلثمائة وبضعة عشر الى زهاء ألف ﴿ومن يتوكل على الله﴾ جواب لهم من جهته تعالى ورد لمقالتهم ﴿فان الله عزيز﴾ غالب لا يذل من توكل عليه واستجار به وان قل ﴿حكيم﴾ يفعل بحكمته البالغة ما تستبعده العقول وتحار فى فهمه ألباب الفحول وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه ﴿ولو ترى﴾ أى ولو رأيت فان لو الامتناعية ترد المضارع ماضيا كما أن ان ترد الماضى مضارعا والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ولو ترى اذ وقفوا على النار وكلمة اذ فى قوله تعالى ﴿اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ ظرف لترى والمفعول محذوف أى ولو ترى الكفرة أو حال الكفرة حين يتوفاهم الملائكة ببدر وتقديم المفعول للاهتمام به وقيل الفاعل ضمير عائد الى الله عز وجل والملائكة مبتدأ وقوله تعالى ﴿يضربون وجوههم﴾ خبره والجملة حال من الموصول قد استغنى فيها بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منه أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على ضميريهما ﴿وأدبارهم﴾ أى وأستاههم أو ما أقبل منهم وما أدبر من الأعضاء ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ على ارادة القول معطوفا على يضربون أو حالا من فاعله أى ويقولون أو قائلين ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا التهبت النار منها وجواب لو محذوف للايذان بخروجه عن حدود البيان أى لرأيت أمرا فظيعا لا يكاد يوصف ﴿ذلك﴾ اشارة الى ما ذكر من الضرب والعذاب ومافيه من معنى البعد للاشعار بكونهما فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره ﴿بما قدمت أيديكم﴾ أى ذلك الضرب والعذاب واقع بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصى ومحل أن فى قوله ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعا على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا قد مر تحقيقه فى سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبلها وأما ما قيل من أنها معطوفة على ما للدلالة على أن سببيته مقيدة بانضمامه اليه اذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم فليس بسديد لما أن امكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لا ينافى كون تعذيب هؤلاء الكفرة المعينة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج الى اعتبار عدمه معه نعم لو كان المدعى كون جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين لاحتيج الى ذلك ﴿كدأب آل فرعون﴾ فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان أن ما حل بهم من العذاب بسبب كفرهم لا بشىء آخر من جهة غيرهم بتشبيه حالهم بحال المعروفين بالاهلاك بسبب جرائمهم لزيادة تقبيح حالهم وللتنبيه على أن ذلك سنة مطردة فيما بين الأمم المهلكة أى شأنهم الذى استمروا عليه مما فعلوا وفعل بهم من الأخذ كدأب آل فرعون المشهورين بقباحة الأعمال وفظاعة العذاب والنكال ﴿والذين من قبلهم﴾ أى من قبل آل فرعون من الأمم التى فعلوا

من المعاصى مافعلوا ولقوا من العقاب مالقوا كقوم نوح وعاد وأضرابهم من أهل الكفر والعناد وقوله تعالى ﴿كفروا بآيات الله﴾ تفسير لدأبهم الذى فعلوه لا لدأب آل فرعون ونحوهم كما قيل فان ذلك معلوم منه بقضية التشبيه وقوله تعالى ﴿فأخذهم الله﴾ تفسير لدأبهم الذى فعل بهم والفاء لبيان كونه من لوازم جناياتهم وتبعاتها المتفرعة عليها وقوله تعالى ﴿بذنوبهم﴾ لتأكيد ما أفاده الفاء من السببية مع الاشارة الى أن لهم مع كفرهم ذنوبا أخر لها دخل فى استتباع العقاب ويجوز أن يكون المراد بذنوبهم معاصيهم المتفرعة على كفرهم فتكون الباء للملابسة أى فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها فدأبهم بمجموع مافعلوا وفعل بهم لا مافعلوه فقط كما قيل قال ابن عباس رضى الله عنهما ان آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبى الله فكذبوه كذلك هؤلاء جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق فكذبوه فأنزل الله تعالى بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون وجعل العذاب من جملة دأبهم مع أنه ليس مما يتصور مداومتهم عليه واعتيادهم اياه كما هو المعتبر فى مدلول الدأب اما لتغليب مافعلوه على مافعل بهم أو لتنزيل مداومتهم على مايوجبه من الكفر والمعاصى منزلة مداومتهم عليه لما بينهما من الملابسة التامة وقوله تعالى ﴿ان الله قوى شديد العقاب﴾ اعتراض مقرر لمضمون ماقبله من الأخذ وقوله تعالى ﴿ذلك﴾ الخ استئناف مسوق لتعليل مايفيده النظم الكريم من كون ماحل بهم من العذاب منوطا بأعمالهم السيئة غير واقع بلا سابقة مايقتضيه وهو المشار اليه لا نفس ماحل بهم من العذاب والانتقام كما قيل فانه مع كونه معللا بما ذكر من كفرهم وذنوبهم لا يتصور تعليله بجريان عادته تعالى على عدم تغيير نعمته على قوم قبل تغييرهم لحالهم وتوهم أن السبب ليس ماذكر كما هو منطوق النظم الكريم بل ما يستفاد من مفهوم الغاية من جريان عادته تعالى على تغيير نعمتهم عند تغيير حالهم بناء على تخيل أن المعلل ترتب عقابهم على كفرهم من غير تخلف عنه ركوب شطط هائل وابعاد عن الحق بمراحل وتهوين لأمر الكفر بآيات الله واسقاط له عن رتبة ايجاب العقاب فى مقام تهويله والتحذير منه فالمعنى ذلك أى ترتب العقاب على أعمالهم السيئة دون أن يقع ابتداء مع قدرته تعالى على ذلك ﴿بأن الله﴾ أى بسبب أنه تعالى ﴿لم يك﴾ فى حدذاته ﴿مغيرا نعمة أنعمها﴾ أى لم ينبغ له سبحانه ولم يصح فى حكمته أن يكون بحيث يغير نعمة أنعم بها ﴿على قوم﴾ من الاقوام أى نعمة كانت جلت أو هانت ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الأعمال والأحوال التى كانوا عليها وقت ملابستهم بالنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة مرضية صالحة أو قريبة من الصلاح بالنسبة الى الحادثة كدأب هؤلاء الكفرة حيث كانوا قبل البعثة كفرة عبدة أصنام مستمرين على حالة مصححة لافاضة نعمة الامهال وسائر النعم الدنيوية عليهم فلما بعث اليهم النبى صلى الله عليه وسلم بالبينات غيروها الى أسوأ منها وأسخط حيث كذبوه عليه الصلاة والسلام وعادوه ومن تبعه من المؤمنين وتحزبوا عليهم يبغونهم الغوائل فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الامهال وعاجلهم بالعذاب والنكال وأصل يك يكن لحذفت النون تخفيفا لشبهها بالحروف اللينة ﴿وأن الله سميع عليم﴾ عطف على أن الله الخ داخل معه فى حيز التعليل أى وبسبب أنه تعالى سميع عليم يسمع ويعلم جميع ما يأتون وما يذرون من الاقوال والافعال السابقة واللاحقة فيرتب على كل منها ما يليق بها من ابقاء النعمة وتغييرها وقرئ وان الله بكسر الهمزة فالجملة حينئذ استئناف مقرر لمضمون ماقبلها وقوله تعالى ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى حتى يغيروا ما بأنفسهم تغييرا كائنا كدأب آل فرعون أى كتغييرهم على أن دأبهم عبارة عما فعلوه فقط كما هو الانسب بمفهوم الدأب وقوله تعالى ﴿كذبوا بآيات ربهم﴾ تفسير له بتمامه وقوله تعالى ﴿فأهلكناهم﴾ اخبار بترتب العقوبة عليه لا أنه من تمام تفسيره ولا ضير فى توسط قوله تعالى وان الله سميع عليم بينهما كما مر نظيره فى سورة آل عمران حيث

جوزوا انتصاب محل الكاف بلن تغنى مع مابينهما من قوله تعالى وأولئك هم وقود النار وهـذا على تقدير عطف الجملة على ماقبلها وأما على تقدير كونها اعتراضا فلا غبار فى توسطها قطعا وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف كما قبله فالجملة حينئذ استئناف آخر مسوق لتقرير ماسيق له الاستئناف الاول بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين لكن لا بطريق التكرير المحض بل بتغيير العنوان وجعل الدأب فى الجانبين عبارة عما يلازم معناه الاول من تغيير الحال وتغيير النعمة أخذا بما نطق به قوله تعالى ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة الآية أى دأب هؤلاء وشأنهم الذى هو عبارة عن التغييرين المذكورين كدأب أولئك حيث غيروا حالهم فغير الله تعالى نعمته عليهم فقوله تعالى كذبوا بآيات ربهم تفسير لدأبهم الذى فعلوه من تغييرهم لحالهم وقوله تعالى فأهلكناهم تفسير لدأبهم الذى فعل بهم من تغييره تعالى مابهم من نعمته وأما دأب قريش فستفاد منه بحكم التشبيه فلله در شأن التنزيل حيث اكتفى فى كل من التشبيهين بتفسير أحد الطرفين واضافة الآيات الى الرب المضاف الى ضميرهم لزيادة تقبيح مافعلوا بها من التكذيب والالتفات الى نون العظمة فى أهلكنا جريا على سنن الكبرياء لتهويل الخطب والكلام فى الفاء وفى قوله تعالى ﴿بذنوبهم﴾ كالذى مر وعطف قوله تعالى ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ على أهلكنا مع اندراجه تحته للايذان بكمال هول الاغراق وفظاعته كعطف جبريل عليه السلام على الملائكة ﴿وكل﴾ أى وكل من الفرق المذكورين أوكل من هؤلاء وأولئك أوكل من غرقى القبط وقتلى قريش ﴿كانوا ظالمين﴾ أى أنفسهم بالكفر والمعاصى حيث عرضوها للهلاك أو واضعين للكفر والتكذيب مكان الايمان والتصديق ولذلك أصابهم ما أصابهم ﴿ان شر الدواب﴾ بعد ماشرح أحوال المهلكين من شرار الكفرة شرع فى بيان أحوال الباقين منهم وتفصيل أحكامهم وقوله تعالى ﴿عندالله﴾ أى فى حكمه وقضائه ﴿الذين كفروا﴾ أى أصروا على الكفر ولجوا فيه جعلوا شر الدواب لا شر الناس ايماء الى أنهم بمعزل من مجانستهم وانما هم من جنس الدواب ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى ان هم الا كالأنعام بل هم أضل وقوله تعالى ﴿فهم لا يؤمنون﴾ حكم مترتب على تماديهم فى الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أصل الطبع لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف أصلا جئ به على وجه الاعتراض لا أنه عطف على كفروا داخل معه فى حيز الصلة التى لا حكم فيها بالفعل وقوله تعالى ﴿الذين عاهدت منهم﴾ بدل من الموصول الاول أو عطف بيان له أو نصب على الذم أى عاهدتهم ومن للايذان بأن المعاهدة التى هى عبارة عن اعطاء العهد وأخذه من الجانبين معتبرة ههنا من حيث أخذه عليه الصلاة والسلام عهدهم اذ هو المناط لقباحة ما نعى عليهم من النقض لا اعطاؤه عليه الصلاة والسلام اياهم عهده كأنه قيل الذين أخذت منهم عهدهم وقيل هى للتبعيض لأن المباشر بالذات للعهد بعضهم لا كلهم ﴿ثم ينقضون عهدهم﴾ عطف على عاهدت داخل معه فى حكم الصلة وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض وتعدده وكونهم على نيته فى كل حال أى ينقضون عهدهم الذى أخذته منهم ﴿فى كل مرة﴾ أى من مرات المعاهدة اذ هى التى يتوقع فيها عدم النقض ويستقبح وجوده لا من مرات المحاربة كما قيل اذ لا يتوقع فيها عدم النقض بل لا يتصور أصلا حتى يستقبح فيها وجوده لكونها مظنة لعدمه فلا فائدة فى تقييد النقض بالوقوع فى كل مرة من مراتها بل لاصحة له قطعا لأن النقض لا يتحقق الا فى المرة الواردة على المعاهدة لا فى المرات الواقعة بعدها بلا معاهدة ولئن سلم أن المراد هى المرات الواقعة اثر المعاهدة يبقى النقض الواقع بلا محاربة كبيع السلاح ونحوه خارجا من البيان ولئن عد ذلك من المحاربة فلا محيص من لزوم خلو الكلام عن الفائدة بالمرة لأن المحاربة بهذا المعنى عين النقض فيؤول الأمر الى أن يقال ينقضون عهدهم فى كل مرة من مرات النقض وحمل المحاربة على محاربة غيرهم ليكون المعنى ينقضون عهدهم فى كل مرة من مرات

محاربة الأعداء مع كونه فى غاية البعد والركاكة يستلزم خروج بدئهم بالنقض من البيان ﴿وهم لا يتقون﴾ حال من فاعل ينقضون أى يستمرون على النقض والحال أنهم لا يتقون سبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار وقوله تعالى ﴿فاما تثقفنهم﴾ شروع فى بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها أى فاذا كان حالهم كما ذكر فاما تصادفنهم وتظفرن بهم ﴿فى الحرب﴾ أى فى تضاعيفها ﴿فشرد بهم﴾ أى ففرق عن مناصبتك تفريقا عنيفا موجبا للاضطرار والاضطراب ونكل عنها بأن تفعل بهم من النكاية والتعذيب مايوجب أن تنكل ﴿من خلفهم﴾ أى من ورائهم من الكفرة وفيه ايماء الى أنهم بصدد الحرب قريب من هؤلاء وقرئ شرذ بالذال المعجمة ولعله مقلوب شذر بمعنى فرق وقرئ من خلفهم أى افعل التشريد من ورائهم والمعنى واحد لأن ايقاع التشريد فى الوراء لا يتحقق الا بتشريد من وراءهم ﴿لعلهم يذكرون﴾ يتعظون بما شاهدوا مما نزل بالناقضين فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر وقوله تعالى ﴿واما تخافن من قوم خيانة﴾ بيان لأحكام المشرفين الى نقض العهد اثر بيان أحكام الناقضين له بالفعل والخوف مستعار للعلم أى واما تعلمن من قوم من المعاهدين نقض عهد فيما سيأتى بمالاح لك منهم من دلائل الغدر ومخايل الشر ﴿فانبذ اليهم﴾ أى فاطرح اليهم عهدهم ﴿على سواء﴾ على طريق مستو قصد بأن تظهر لهم النقض وتخبرهم اخبارا مكشوفا بأنك قد قطعت مابينك وبينهم من الوصلة ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد كيلا يكون من قبلك شائبة خيانة أصلا فالجار متعلق بمحذوف هو حال من النابذ أى فانبذ اليهم ثابتا على سواء وقيل على استواء فى العلم بنقض العهد بحيث يستوى فيه أقصاهم وأدناهم أو تستوى فيه أنت وهم فهو على الأول حال من المنبوذ اليهم وعلى الثانى من الجانبين ﴿ان الله لا يحب الخائنين﴾ تعليل للأمر بالنبذ اما باعتبار استلزامه للنهى عن المناجزة التى هى خيانة فيكون تحذيرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها واما باعتبار استتباعه للقتال بالآخرة فيكون حثا له عليه الصلاة والسلام على النبذ أولا وعلى قتالهم ثانيا كأنه قيل واما تعلمن من قوم خيانة فانبذ اليهم ثم قاتلهم ان الله لا يحب الخائنين وهم من جملتهم لما علمت من حالهم ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ أى أنفسهم فحذف للتكرار وقوله تعالى ﴿سبقوا﴾ أى فانوا وأفلتوا من أن يظفر بهم مفعول ثان ليحسبن والمراد اقناطهم من الخلاص وقطع أطماعهم الفارغة من الانتفاع بالنبذ والاقتصار على دفع هذا التوهم مع أن مقاومة المؤمنين بل الغلبة عليهم أيضا مما تتعلق به أمانيهم الباطلة للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم حوله وهمهم وحسبانهم وانما الذى يمكن أن يدور فى خلدهم حسبان المناص فقط وقيل الفعل مسند الى أحد أو الى من خلفهم والمفعول الأول الموصول المتناول لهم أيضا وقيل هو الفاعل وأن محذوفة من سبقوا وهى مع مافى حيزها سادة مسد المفعولين والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ويعضده قراءة من قرأ أنهم سبقوا ونظيره فى الحذف قوله تعالى ومن آياته يريكم البرق خوفا وقوله تعالى أغير الله تأمرونى أعبد الآية قاله الزجاج وقرئ بالتاء على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى قراءة واضحة وقرئ ولا تحسب الذين بكسر الباء وبفتحها على حذف النون الخفيفة وقوله تعالى ﴿انهم لا يعجزون﴾ أى لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن ادراكهم تعليل للنهى على طريقة الاستئناف وقرئ بفتح الهمزة على حذف لام التعليل وقيل الفعل واقع عليه ولا زائدة وسبقوا حال بمعنى سابقين أى مفلتين هاربين وهذا على قراءة الخطاب لازاحة ماعسى يحذر من عاقبة النبذ لما أنه ايقاظ للعدو وتمكين لهم من الهرب والخلاص من أيدى المؤمنين وفيه نفى لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجه وآكده كما أشير اليه وقيل نزلت فيمن أفلت من فل المشركين وقرئ لا يعجزون بكسر النون ولا يعجزون بالتشديد ﴿وأعدوا لهم﴾ توجيه الخطاب الى كافة المؤمنين لما أن

المأمور به من وظائف الكل كما أن توجيهه فيما سبق وما لحق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكون مافى حيزه من وظائفه عليه الصلاة والسلام أى أعدوا لقتال الذين نبذ اليهم العهد وهيئوا لحرابهم أو لقتال الكفار على الاطلاق وهو الأنسب بسياق النظم الكريم ﴿مااستطعتم من قوة﴾ من كل مايتقوى به فى الحرب كائنا ماكان وعن عقبة ابن عامر رضى الله عنه سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر ألا ان القوة الرمى قالها ثلاثا ولعل تخصيصه عليه الصلاة والسلام اياه بالذكر لانافته على نظائره من القوى ﴿ومن رباط الخيل﴾ الرباط اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله تعالى فعال بمعنى مفعول أو مصدر سميت هى به يقال ربط ربطا ورباطا ورابط مرابطة ورباطا أو جمع ربيط كفصيل وفصال أو جمع ربط ككعب وكعاب وكلب وكلاب وقرئ ربط الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط وعطفها على القوة مع كونها من جملتها للايذان بفضلها على بقية أفرادها كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة ﴿ترهبون به﴾ أى تخوفون وقرئ ترهبون بالتشديد وقرئ تخزون به والضمير لما استطعتم أوللاعداد وهو الأنسب ومحل الجملة النصب على الحالية من فاعل أعدوا أى أعدوا مرهبين به أو من الموصول أو من عائده المحذوف أى أعدوا مااستطعتموه مرهبا به ﴿عدو الله وعدوكم﴾ وهم كفار مكة خصوا بذلك من بين الكفار مع كون الكل كذلك لغاية عتوهم ومجاوزتهم الحد فى العداوة ﴿وآخرين من دونهم﴾ من غيرهم من الكفرة وقيل هم اليهود وقيل المنافقون وقيل الفرس ﴿لاتعلمونهم﴾ أى لاتعرفونهم بأعيانهم أولاتعلمونهم كما هم عليه من العداوة وهو الأنسب بقوله تعالى ﴿الله يعلمهم﴾ أى لاغيره فان أعيانهم معلومة لغيره تعالى أيضا ﴿وما تنفقوا من شئ﴾ لاعداد العتاد قل أوجل ﴿فى سبيل الله﴾ الذى أوضحه الجهاد ﴿يوف اليكم﴾ أى جزاؤه كاملا ﴿وأنتم لاتظلمون﴾ بترك الاثابة أو بنقص الثواب والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه تعالى كما مر فى تفسير قوله تعالى فاستجاب لهم ربهم أنى لاأضيع عمل عامل منكم ﴿وان جنحوا﴾ الجنوح الميل ومنه الجناح ويعدى باللام وبالى أى ان مالوا ﴿للسلم﴾ أى للصلح بوقوع الرهبة فى قلوبهم بمشاهدة مابكم من الاستعداد واعتاد العتاد ﴿فاجنح لها﴾ أى للسلم والتأنيث لحمله على نقيضه قال

السلم تأخذ منها مارضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وقرئ فاجنح بضم النون ﴿وتوكل على الله﴾ ولا تخف أن يظهر والك السلم وجوانحهم مطوية على المكر والكيد ﴿انه﴾ تعالى ﴿هو السميع﴾ فيسمع مايقولون فى خلواتهم من مقالات الخداع ﴿العليم﴾ فيعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه ويرد كيدهم فى نحرهم والآية خاصة باليهود وقيل عامة نسختها آية السيف ﴿وان يريدوا أن يخدعوك﴾ باظهار السلم وابطال الحراب ﴿فان حسبك الله﴾ أى فاعلم بأن محسبك الله من شرورهم وناصرك عليهم ﴿هو الذى أيدك بنصره﴾ تعليل لكفايته تعالى اياه عليه الصلاة والسلام بطريق الاستئناف فان تأييده تعالى اياه عليه الصلاة والسلام فيما سلف على ماذكر من الوجه البعيد من الوقوع من دلائل تأييده تعالى فيما سيأتى أى هو الذى أيدك بامداد من عنده بلا واسطة كقوله تعالى وما النصر الا من عند الله أو بالملائكة مع خرقه للعادات ﴿وبالمؤمنين﴾ من المهاجرين والأنصار ﴿وألف بين قلوبهم﴾ مع ماكان بينهم قبل ذلك من العصبية والضغينة والتهالك على الانتقام بحيث لايكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة وهذا من أبهر معجزاته عليه الصلاة والسلام ﴿لو أنفقت مافى الأرض جميعا﴾ أى لتأليف مابينهم ﴿ماألفت بين قلوبهم﴾ استئناف مقرر لما قبله ومبين لعزة

المطلب وصعوبة المأخذ أى تناهى التعادى فيما بينهم الى حد لو أنفق منفق فى اصلاح ذات البين جميع مافى الأرض من الأموال والذخائر لم يقدر على التأليف والاصلاح وذكر القلوب للاشعار بأن التأليف بينها لايتسنى وان أمكن التأليف ظاهرا ﴿ولكن الله ألف بينهم﴾ قلبا وقالبا بقدرته الباهرة ﴿انه عزيز﴾ كامل القدرة والغلبة لايستعصى عليه شئ مما يريده ﴿حكيم﴾ يعلم كيفية تسخير مايريده وقيل الآية فى الأوس والخزرج كان بينهم احن لاأمدلها ووقائع أفنت ساداتهم وأعاظمهم ودقت أعناقهم وجماجمهم فأنسى الله عز وجل جميع ذلك وألف بينهم بالاسلام حتى تصافوا وأصبحوا يرمون عن قوس واحدة وصاروا أنصارا ﴿ياأيها النبى﴾ شروع فى بيان كفايته تعالى اياه عليه الصلاة والسلام فى جميع أموره وأمور المؤمنين أو فى الأمور الواقعة بينهم وبين الكفرة كافة اثر بيان كفايته تعالى اياه عليه الصلاة والسلام فى مادة خاصة وتصدير الجملة بحرف النداء والتنبيه للتنبيه على مزيد الاعتناء بمضمونها وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة للاشعار بعليتها للحكم ﴿حسبك الله﴾ أى كافيك فى جميع أمورك أو فيما بينك وبين الكفرة من الحراب ﴿ومن اتبعك من المؤمنين﴾ فى محل النصب على أنه مفعول معه أى كفاك وكفى أتباعك الله ناصرا كما فى قول من قال فحسبك والضحاك عضب مهند وقيل فى موضع الجر عطفا على الضمير كما هو رأى الكوفيين أى كافيك وكافيهم أو فى محل الرفع عطفا على اسم الله تعالى أى كفاك الله والمؤمنون والآية نزلت فى البيداء فى غزوة بدر قبل القتال وقيل أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر رضى الله عنه فنزلت ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى اسلام عمر رضى الله عنه ﴿ياأيها النبى﴾ بعد مابين كفايته اياهم بالنصر والامداد أمر عليه الصلاة والسلام بترتيب مبادى نصره وامداده وتكرير الخطاب على الوجه المذكور لاظهار كمال الاعتناء بشأن المأمور به ﴿حرض المؤمنين على القتال﴾ أى بالغ فى حثهم عليه وترغيبهم فيه بكل ماأمكن من الأمور المرغبة التى أعظمها تذكير وعده تعالى بالنصر وحكمه بكفايته تعالى أو بكفايتهم وأصل التحريض الحرض وهو أن ينهكه المرض حتى يشفى على الموت وقال الراغب كأنه فى الأصل ازالة الحرض وهو مالا خير فيه ولا يعتد به قلت فالأوجه حينئذ أن يجعل الحرض عبارة عن ضعف القلب الذى هو من باب نهك المرض وقيل معنى تحريضهم تسميتهم حرضا بأن يقال انى أراك فى هذا الامر حرضا أى محرضا فيه لتهيجه الى الاقدام وقرئ حرض بالصاد المهملة وهو واضح ﴿ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ وعد كريم منه تعالى بتغليب كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم بطريق الاستئناف بعد الامر بتحريضهم وقوله تعالى ﴿وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا﴾ مع انفهام مضمونه مما قبله لكون كل منهما عدة بتأييد الواحد على العشرة لزيادة التقرير المفيدة لزيادة الاطمئنان على أنه قد يجرى بين الجمعين القليلين مالا يجرى بين الجمعين الكثيرين مع أن التفاوت فيما بين كل من الجمعين القليلين والكثيرين على نسبة واحدة فبين أن ذلك لايتفاوت فى الصورتين وقوله تعالى ﴿من الذين كفروا﴾ بيان للالف وهذا القيد معتبر فى المائتين أيضا وقد ترك ذكره تعويلا على ذكره ههنا كما ترك قيد الصبر ههنا مع كونه معتبرا حتما ثقة بذكره هناك ﴿بأنهم قوم لايفقهون﴾ متعلق بيغلبوا أى بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى وباليوم الآخر لايقاتلون احتسابا وامتثالا بأمر الله تعالى واعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعله المؤمنون وانما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان واثارة ثائرة البغى والعدوان فلا يستحقون الا القهر والخذلان وأما ماقيل من أن من لايؤمن بالله واليوم الآخر لايؤمن بالميعاد فالسعادة عنده ليست الاهذه الحياة الدنيوية فيشح بها ولا يعرضها للزوال بمزاولة الحروب واقتحام موارد الخطوب فيميل الى مافيه السلامة فيفر فيغلب وأما من اعتقد أن لاسعادة فى هذه الحياة الفانية وانما

السعادة هى الحياة الباقية فلا يبالى بهذه الحياة الدنيا ولا يقيم لها وزنا فيقدم على الجهاد بقلب قوى وعزم صحيح فيقوم الواحد من مثله مقام الكثير فكلام حق لكنه لا يلائم المقام ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا﴾ لما كان الوعد السابق متضمنا لايجاب مقاومة الواحد للعشرة وثباته لهم كما نقل عن ابن جريج أنه كان عليهم أن لا يفروا و يثبت الواحد للعشرة وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة فى ثلاثين راكبا فلقى أبا جهل فى ثلثمائة راكب فهزمهم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه بعد مدة فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد للاثنين وقيل كان فيهم قلة فى الابتداء ثم لما كثروا نزل التخفيف والمراد بالضعف ضعف البدن وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين فى الاهتداء الى القتال لا الضعف فى الدين كما قيل وقرئ ضعفا بضم الضاد وهى لغة فيه كالفقر والفقر والمكث والمكث وقيل الضعف بالفتح مافى الرأى والعقل و بالضم مافى البدن وقرئ ضعفاء جمع ضعيف والمراد بعلمه تعالى بضعفهم علمه تعالى به من حيث هو متحقق بالفعل لا علمه تعالى به مطلقا كيف لا وهو ثابت فى الازل وقوله تعالى ﴿فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ تفسير للتخفيف و بيان لكيفيته وقرئ تكن ههنا وفيما سبق بالتاء الفوقانية ﴿وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله﴾ أى بتيسيره وتسهيله وهذا القيد معتبر فيما سبق من غلبة المائة المائتين والالف وغلبة العشرين المائتين كما أن قيد الصبر معتبر ههنا وانما ترك ذكره ثقة بما مر و بقوله تعالى ﴿والله مع الصابرين﴾ فانه اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله والمراد بالمعية معية نصره وتأييده ولم يتعرض ههنا لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين مع أن مدار الغلبة فى الصورتين بمجموع الامرين أعنى نصر المؤمنين وخذلان الكفرة اكتفاء بما ذكر فى كل مقام عما ترك فى المقام الآخر وما تشعر به كلمة مع من متبوعية مدخولها لاصالتهم من حيث انهم المباشرون للصبر كما مر مرارا ﴿ما كان لنبى﴾ وقرئ للنبى على العهد والاول أبلغ لما فيه من بيان أن مايذكر سنة مطردة فيما بين الانبياء عليهم الصلاة والسلام أى ماصح وما استقام لنبى من الانبياء عليهم السلام ﴿أن يكون له أسرى﴾ وقرئ بتأنيث الفعل وأسارى أيضا ﴿حتى يثخن فى الارض﴾ أى يكثر القتل و يبالغ فيه حتى يذل الكفر و يقل حزبه و يعز الاسلام و يستولى أهله من أثخنه المرض والجرح اذا أثقله وجعله بحيث لا حراك به ولا براح وأصله الثخانة التى هى الغلظ والكثافة وقرئ بالتشديد للمبالغة ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ استئناف مسوق للعتاب أى تريدون حطامها بأخذكم الفداء وقرئ يريدون بالياء ﴿والله يريد الآخرة﴾ أى يريد لكم ثواب الآخرة الذى لا مقدار عنده للدنيا ومافيها أو يريد سبب نيل الآخرة من اعزاز دينه وقمع أعدائه وقرئ بجر الآخرة على اضمار المضاف كما فى قوله

أكل امرئ تحسبين امرأ ونار توقد بالليل نارا

﴿والله عزيز﴾ يغلب أولياءه على أعدائه ﴿حكيم﴾ يعلم مايليق بكل حال ويخصه بها كما أمر بالاثخان ونهى عن أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بينه و بين المن بقوله تعالى فاما منا بعد واما فداء لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسبعين أسيرا فيهم العباس وعقيل بن أبى طالب فاستشار فيهم فقال أبو بكر قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى أصحابك وقال عمر اضرب أعناقهم فانهم أئمة الكفر والله أغناك عن الفداء مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكنى من فلان نسيب له فلنضرب أعناقهم فقال عليه الصلاة والسلام ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ومثلك ياعمر مثل نوح قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فخير أصحابه فأخذوا الفداء فنزلت فدخل

عمر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يارسول الله أخبرنى فان وجدت بكاء بكيت والا تباكيت فقال أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه و روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لو نزل عذاب من السماء لما نجا غير عمر وسعد بن معاذ وكان هو أيضا ممن أشار بالاثخان ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ أى لولا حكم منه تعالى سبق اثباته فى اللوح المحفوظ وهو أن لا يعاقب المخطئ فى اجتهاده أو أن لا يعذب أهل بدر أو قوما لم يصرح لهم بالنهى وأما أن الفدية التى أخذوها استحل لهم فلا يصلح أن يعد من موانع مساس العذاب فان الحل اللاحق لا يرفع حكم الحرمة السابقة كما أن الحرمة اللاحقة كما فى الخمر مثلا لا ترفع حكم الاباحة السابقة على أنه قادح فى تهويل ما نعى عليهم من أخذ الفداء ﴿لمسكم﴾ أى لأصابكم ﴿فيما أخذتم﴾ أى لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿عذاب عظيم﴾ لا يقادر قدره ﴿فكلوا مما غنمتم﴾ روى أنهم أمسكوا عن الغنائم فنزلت قالوا الفاء لترتيب ما بعدها على سبب محذوف أى قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم والأظهر أنها للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى دعوه فكلوا مما غنمتم وقيل ما عبارة عن الفدية فانها من جملة الغنائم و يأباه سياق النظم الكريم وسياقه ﴿حلالا﴾ حال من المغنوم أو صفة للمصدر أى أكلا حلالا وفائدته الترغيب فى أكلها وقوله تعالى ﴿طيبا﴾ صفة لحلالا مفيدة لتأكيد الترغيب ﴿واتقوا الله﴾ أى فى مخالفة أمره ونهيه ﴿ان الله غفور رحيم﴾ فيغفر لكم ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل ورود الاذن فيه و يرحمكم و يتوب عليكم اذا اتقيتموه ﴿يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم﴾ أى فى ملكتكم كأن أيديكم قابضة عليهم ﴿من الأسرى﴾ وقرئ من الأسارى ﴿ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا﴾ خلوص ايمان وصحة نية ﴿يؤتكم خيرا مما أخذ منكم﴾ من الفداء وقرئ أخذ على البناء للفاعل. روى أنها نزلت فى العباس كلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفدى ابنى أخيه عقيل بن أبى طالب ونوفل ابن الحرث فقال يامحمد تركتنى أتكفف قريشا ما بقيت فقال له عليه الصلاة والسلام فاين الذهب الذى دفعته الى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها ما أدرى ما يصيبنى فى وجهى هذا فان حدث بى حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل فقال العباس ما يدريك فقال أخبرنى به ربى قال العباس فانا أشهد أنك صادق وأن لا اله الا الله وأنك عبده و رسوله والله لم يطلع عليه أحد الا الله ولقد دفعته اليها فى سواد الليل ولقد كنت مرتابا فى أمرك فأما اذا أخبرتنى بذلك فلا ريب قال العباس بعد حين فأبدلنى الله خيرا من ذلك لى الآن عشرون عبدا وان أدناهم ليضرب فى عشرين ألفا وأعطانى زمزم ما أحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربى يتأول به ما فى قوله تعالى ﴿و يغفر لكم والله غفور رحيم﴾ فانه وعد بالمغفرة مؤكد بما بعده من الاعتراض التذييلى ﴿وان يريدوا خيانتك﴾ أى نكث ما بايعوك عليه من الاسلام وهذا كلام مسوق من جهته تعالى لتسليته عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد له والوعيد لهم ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ بكفرهم ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿فأمكن منهم﴾ أى أقدرك عليهم حسبما رأيت يوم بدر فان أعادوا الخيانة فاعلم أنه سيمكنك منهم أيضا وقيل المراد بالخيانة منع ماضمنوا من الفداء وهو بعيد ﴿والله عليم﴾ فيعلم مافى نياتهم ومايستحقونه من العقاب ﴿حكيم﴾ يفعل كل مايفعله حسبما تقتضيه حكمته البالغة ﴿ان الذين آمنوا وهاجروا﴾ هم المهاجرون هاجروا أوطانهم حبا لله تعالى ولرسوله ﴿وجاهدوا بأموالهم﴾ بأن صرفوها الى الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاويج ﴿وأنفسهم﴾ بمباشرة القتال واقتحام المعارك والخوض فى المهالك ﴿فى سبيل الله﴾ متعلق بجاهدوا قيد لنوعى الجهاد ولعل تقديم الاموال على الأنفس لما أن المجاهدة بالاموال أكثر وقوعا وأتم دفعا للحاجة حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال ﴿والذين آووا ونصروا﴾ هم الانصار آووا المهاجرين

وأنزلوهم منازلهم وبذلوا اليهم أموالهم وآثروهم على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ونصروهم على أعدائهم ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضيلة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿بعضهم﴾ امابدل منه وقوله تعالى ﴿أولياء بعض﴾ خبره واما مبتدأ ثان وأولياء بعض خبره والجملة خبر للمبتدا الأول أى بعضهم أولياء بعض فى الميراث وقد كان المهاجرون والانصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله تعالى وأولو الارحام الآية وقيل فى النصرة والمظاهرة ويرده قوله تعالى فعليكم النصر بعد نفى موالاتهم ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ كسائر المؤمنين ﴿مالكم من ولايتهم من شئ﴾ أى من توليهم فى الميراث وان كانوا من أقرب أقاربكم ﴿حتى يهاجروا﴾ وقرئ بكسر الواو تشبيها بالعمل والصناعة كالكتابة والامارة ﴿وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿الا على قوم﴾ منهم ﴿بينكم وبينهم ميثاق﴾ معاهدة فانه لايجوز نقض عهدهم بنصرهم عليهم ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلا تخالفوا أمره كيلا يحل بكم عقابه ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ آخر منهم أى فى الميراث أوفى الموازرة وهذا بمفهومه مفيد لنفى الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وايجاب المباعدة والمصارمة وان كانوا أقارب ﴿الاتفعلوه﴾ أى ماأمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم بعضا حتى التوارث ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿تكن فتنة فى الأرض﴾ أى تحصل فتنة عظيمة فيها وهى ضعف الايمان وظهور الكفر ﴿وفساد كبير﴾ فى الدارين وقرئ كثير ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا﴾ كلام مسوق للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الايمان مع الوعد الكريم بقوله تعالى ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ لاتبعة له ولامنة فيه فلا تكرار لما أن مساق الأول لايجاب التواصل بينهم ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا﴾ بعد هجرتكم ﴿وجاهدوا معكم﴾ فى بعض مغازيكم ﴿فأولئك منكم﴾ أى من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار وهم الذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ألحقهم الله تعالى بالسابقين وجعلهم منهم تفضلا منه وترغيبا فى الايمان والهجرة وفى توجيه الخطاب اليهم بطريق الالتفات من تشريفهم ورفع محلهم مالايخفى ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ آخر منهم فى التوارث من الأجانب ﴿فى كتاب الله﴾ أى فى حكمه أو فى اللوح أو فى القرآن واستدل به على توريث ذوى الارحام ﴿ان الله بكل شئ عليم﴾ ومن جملته مافى تعليق التوارث بالقرابة الدينية أولا وبالقرابة النسبية آخرا من الحكم البالغة . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه برئ من النفاق وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته والله تعالى أعلم

سـورة براءة

(مدنيـة وهى مائة وثلاثون آية)

ولها أسماء أخر: سورة التوبة والمقشقشة والبحوث والمنقرة والمبعثرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكلة والمشردة والمدمدمة وسورة العذاب لما فيها من ذكر التوبة ومن التبرئة من النفاق والبحث والتنفير عن حال المنافقين واثارتها والحفر عنها ومايخزيهم ويشردهم ويدمدم عليهم واشتهارها بهذه الأسماء يقضى بأنها سورة مستقلة وليست بعضا من سورة الأنفال وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها خلاف الظاهر فيكون حكمة ترك التسمية عند النزول

نزولها فى رفع الامان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعا بوصف الرحمة كما روى عن ابن عيينة رضى الله عنه لا الاشتباه فى استقلالها وعدمه كما يحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما ولا رعاية ماوقع بين الصحابة رضى الله عنهم من الاختلاف فى ذلك على أن ذلك ينزع الى القول بأن التسمية ليست من القرآن وانما كتبت للفصل بين السور كما نقل عن قدماء الحنفية وأن مناط اثباتها فى المصاحف وتركها انما هو رأى من تصدى لجمع القرآن دون التوقيف ولا ريب فى أن الصحيح من المذهب أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها وأن لامدخل لرأى أحد فى الاثبات والترك وانما المتبع فى ذلك هو الوحى والتوقيف ولامرية فى عدم نزولها ههنا والا لامتنع أن يقع فى الاستقلال اشتباه أو اختلاف فهو اما لاتحاد السورتين أو لما ذكرنا لاسبيل الى الأول والا لبينه عليه الصلاة والسلام لتحقق مزيد الحاجة الى البيان لتعاضد أدلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولها فحيث لم يبينه عليه الصلاة والسلام تعين الثانى لان عدم البيان من الشارع فى موضع البيان بيان للعدم

﴿براءة﴾ خبر مبتدا محذوف وتنوينه للتفخيم وقرئ بالنصب أى اسمعوا براءة ومن فى قوله تعالى ﴿من الله ورسوله﴾ ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لها ليفيدها زيادة تفخيم وتهويل أى هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله واصلة ﴿الى الذين عاهدتم من المشركين﴾ وانما لم يذكر ماتعلق به البراءة حسبما ذكر فى قوله تعالى ان الله برئ من المشركين اكتفاء بما فى حيز الصلة فانه منبئ عنه انباء ظاهرا واحترازا عن تكرير لفظة من وقيل هى مبتدأ لتخصصها بالصفة وخبره الى الذين الخ والذى تقتضيه جزالة النظم هو الأول لان هذه البراءة أمر حادث لم يعهد عند المخاطبين ذاتها ولا عنوان ابتدائها من الله تعالى ورسوله حتى يخرج ذلك العنوان مخرج الصفة لها ويجعل المقصود بالذات والعمدة فى الاخبار شيئا آخر هو وصولها الى المعاهدين وانما الحقيق بأن يعتنى بافادته حدوث تلك البراءة من جهته تعالى ووصولها اليهم فان حق الصفات قبل علم المخاطب بثبوتها لموصوفاتها أن تكون أخبارا وحق الاخبار بعد العلم بثبوتها لما هى له أن تكون صفات كما حقق فى موضعه وقرئ من الله بكسر النون على أن الأصل فى تحريك الساكن الكسر ولكن الوجه هو الفتح فى لام التعريف خاصة لكثرة الوقوع والعهد العقد الموثق باليمين والخطاب فى عاهدتم للمسلمين وقد كانوا عاهدوا مشركى العرب من أهل مكة وغيرهم باذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم فنكثوا الا بنى ضمرة وبنى كنانة فأمر المسلمون بنبذ العهد الى الناكثين وأمهلوا أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤا وانما نسبت البراءة الى الله ورسوله مع شمولها للمسلمين واشتراكهم فى حكمها ووجوب العمل بموجبها وعلقت المعاهدة بالمسلمين خاصة مع كونها باذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم للايذان بتنجزها وتحتمها من غير توقف على رأى المخاطبين لانها عبارة عن انهاء حكم الأمان ورفع الخطر المترتب على العهد السابق عن التعرض للكفرة وذلك منوط بجناب الله عز وجل لانه أمر كسائر الأوامر الجارية على حسب حكمة تقتضيها وداعية تستدعيها تترتب عليها آثارها من غير توقف على شئ أصلا واشتراك المسلمين فى حكمها ووجوب العمل بموجبها انما هو على طريقة الامتثال بالأمر لاعلى أن يكون لهم مدخل فى اتمامها أو فى ترتب أحكامها عليها وأما المعاهدة فحيث كانت عقدا كسائر العقود الشرعية لاتحصل فى نفسها ولاتترتب عليها أحكامها الا بمباشرة المتعاقدين على وجوه مخصوصة اعتبرها الشرع لم يتصور صدورها عنه سبحانه وانما الصادر عنه فى شأنها هو الاذن فيها وانما الذى يباشرها ويتولى أمرها المسلمون ولايخفى أن البراءة انما تتعلق بالعهد لا بالاذن فيه فنسبت كل واحدة منهما الى من هو أصل فيها على أن فى ذلك تفخيما لشأن البراءة وتهويلا لأمرها وتسجيلا على الكفرة بغاية الذل والهوان ونهاية الخزى والخذلان وتنزيها لساحة السبحان والكبرياء عما يوهم شائبة النقص والبداء تعالى عن ذلك

علوا كبيرا وادراجه عليه الصلاة والسلام فى النسبة الأولى واخراجه عن الثانية لتنويه شأنه الرفيع واجلال قدره المنيع فى كلا المقامين صلى الله عليه وسلم وايثار الجملة الاسمية على الفعلية كأن يقال قد برئ الله ورسوله من الذين أونحو ذلك للدلالة على دوامها واستمرارها وللتوسل الى تهويلها بالتنوين التفخيمى كما أشير اليه ﴿فسيحوا﴾ السياحة والسيح الذهاب فى الارض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ماليس فى سيروا ونظائره وزيادة قوله عز وجل ﴿فى الارض﴾ لقصد التعميم لاقطارها من دار الاسلام وغيرها والمراد اباحة ذلك لهم وتخليتهم وشأنهم من الاستعداد للحرب أوتحصين الاهل والمال وتحصيل المهرب أوغير ذلك لا تكليفهم بالسياحة فيها وتلوين الخطاب بصرفه عن المسلمين وتوجيهه اليهم مع حصول المقصود بصيغة أمر الغائب أيضا للمبالغة فى الاعلام بالامهال حسما لمادة تعللهم بالغفلة وقطعا لشأفة اعتذارهم بعدم الاستعداد وايثار صيغة الامر مع تسنى افادة ذلك المعنى بطريق الاخبار أيضا كأن يقال مثلا فلكم أن تسيحوا أونحو ذلك لاظهار كمال القوة والغلبة وعدم الاكتراث لهم ولاستعدادهم فكأن ذلك أمر مطلوب منهم والفاء لترتيب الامر بالسياحة وما يعقبه على ما تؤذن به البراءة المذكورة من الحراب على أن الاول مترتب على نفسه والثانى بكلا متعلقيه على عنوان كونه من الله العزيز لا لترتيب الاول عليه والثانى على الاول كما فى قوله تعالى قل سيروا فى الارض فانظروا الخ كأنه قيل هذه براءة موجبة لقتالكم فاسعوا فى تحصيل العدد والاسباب وبالغوا فى اعتاد العتاد من كل باب ﴿أربعة أشهر واعلموا أنكم﴾ بسياحتكم فى أقطار الارض فى العرض والطول وان ركبتم متن كل صعب وذلول ﴿غير معجزى الله﴾ أى لا تفوتونه بالهرب والتحصن ﴿وأن الله﴾ وضع الاسم الجليل موضع المضمر لتربية المهابة وتهويل أمر الاخزاء وهو الاذلال بما فيه فضيحة وعار ﴿مخزى الكافرين﴾ أى مخزيكم ومذلكم فى الدنيا بالقتل والأسر وفى الآخرة بالعذاب وايثار الاظهار على الاضمار لذمهم بالكفر بعد وصفهم بالاشراك وللاشعار بأن علة الاخزاء هى كفرهم ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوليا والمراد بالأشهر الأربعة هى الأشهر الحرم التى علق القتال بانسلاخها فقيل هى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقيل هى عشرون من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشر من شهر ربيع الآخر وجعلت حرما لحرمة قتالهم فيها أو لتغليب ذى الحجة والمحرم على البقية وقيل من عشر ذى القعدة الى عشر من شهر ربيع الأول لأن الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت للنسىء الذى كان فيهم ثم صار فى العام القابل فى ذى الحجة وذلك قوله عليه الصلاة والسلام ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض . روى أنه عليه الصلاة والسلام أمر أبا بكر رضى الله تعالى عنه على موسم سنة تسع ثم أتبعه عليا رضى الله تعالى عنه على العضباء ليقرأها على أهل الموسم فقيل له عليه الصلاة والسلام لو بعثت بها الى أبى بكر فقال صلى الله عليه وسلم لا يؤدى عنى الا رجل منى وذلك لأن عادة العرب أن لا يتولى أمر العهد والنقض على القبيلة الا رجل منها فلما دنا على سمع أبو بكر الرغاء فوقف فقال هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال أمير أو مأمور قال مأمور فمضيا فلما كان قبل يوم التروية خطب أبو بكر رضى الله عنه وحدثهم عن مناسكهم وقام على رضى الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال ياأيها الناس انى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال أمرت بأربع أن لا يقرب البيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة وأن يتم الى كل ذى عهد عهده ﴿وأذان من الله ورسوله﴾ أى اعلام منهما فعال بمعنى الافعال كالاعطاء بمعنى الاعطاء ورفعه كرفع براءة والجملة معطوفة على مثلها وانما قيل ﴿الى الناس﴾ أى كافة لان

الأذان غير مختص بقوم دون آخرين كالبراءة الخاصة بالناكثين بل هو شامل لعامة الكفرة وللمؤمنين أيضا ﴿يوم الحج الأكبر﴾ هو يوم العيد لان فيه تمام الحج ومعظم أفعاله ولان الاعلام كان فيه ولما روى أنه عليه الصلاة والسلام وقف يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع فقال هذا يوم الحج الاكبر وقيل يوم عرفة لقوله عليه الصلاة والسلام الحج عرفة ووصف الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج الاصغر أو لان المراد بالحج ما يقع فى ذلك اليوم من أعماله فانه أكبر من باقى الاعمال أو لان ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون أو لانه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين ﴿أن الله﴾ أى بأن الله وقرئ بالكسر لما أن الأذان فيه معنى القول ﴿برئ من المشركين﴾ أى المعاهدين الناكثين ﴿ورسوله﴾ عطف على المستكن فى برئ أو على محل ان واسمها على قراءة الكسر وقرئ بالنصب عطفا على اسم أن أو لان الواو بمعنى مع أى برئ معه منهم وبالجر على الجوار وقيل على القسم ﴿فان تبتم﴾ من الشرك والغدر التفات من الغيبة الى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد والفاء لترتيب مقدم الشرطية على الاذان بالبراءة المذيلة بالوعيد الشديد المؤذن بلين عريكتهم وانكسار شدة شكيمتهم ﴿فهو﴾ أى فالتوب ﴿خير لكم﴾ فى الدارين ﴿وان توليتم﴾ عن التوبة أو ثبتم على التولى عن الاسلام والوفاء ﴿فاعلموا أنكم غير معجزى الله﴾ غير سابقين ولا فائتين ﴿وبشر الذين كفروا﴾ تلوين للخطاب وصرف له عنهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن البشارة ﴿بعذاب أليم﴾ وان كانت بطريق التهكم انما تليق بمن يقف على الاسرار الالهية ﴿الا الذين عاهدتم من المشركين﴾ استدراك من النبذ السابق الذى أخر فيه القتال أربعة أشهر كأنه قيل لاتمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر لكن الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين فى المسارعة الى قتالهم بل أتموا اليهم عهدهم ولا يضر فى ذلك تخلل الفاصل بقوله تعالى وأذان من الله ورسوله الخ لانه ليس بأجنبى بالكلية بل هو أمر باعلام تلك البراءة كأنه قيل واعلموها وقيل هو استثناء متصل من المشركين الأول ويرده بقاء الثانى على العموم مع كونهما عبارة عن فريق واحد وجعله استثناء من الثانى يأباه بقاء الأول كذلك وقيل هو استدراك من المقدر فى فسيحوا أى قولوا لهم سيحوا أربعة أشهر لكن الذين عاهدتم منهم ﴿ثم لم ينقصوكم شيئا﴾ من شروط الميثاق ولم يتتلوا منكم أحدا ولم يضروكم قط وقرئ بالمعجمة أى لم ينقضوا عهدكم شيأ من النقض وكلمة ثم للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة ﴿ولم يظاهروا﴾ أى لم يعاونوا ﴿عليكم أحدا﴾ من أعدائكم كما عدت بنو بكر على خزاعة فى غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح ﴿فأتموا اليهم عهدهم﴾ أى أدوه اليهم كملا ﴿الى مدتهم﴾ ولا تفاجئوهم بالقتال عند مضى الاجل المضروب للناكثين ولا تعاملوهم معاملتهم قال ابن عباس رضى الله عنهما بقى لحى من بنى كنانة من عهدهم تسعة أشهر فأتم اليهم عهدهم ﴿ان الله يحب المتقين﴾ تعليل لوجوب الامتثال وتنبيه على أن مراعاة حقوق العهد من باب التقوى وأن التسوية بين الوفى والغادر منافية لذلك وان كان المعاهد مشركا ﴿فاذا انسلخ﴾ أى انقضى استعير له من الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده والاغلب اسناده الى الجلد والمعنى اذا انقضى ﴿الأشهر الحرم﴾ وانفصلت عما كانت مشتملة عليه ساترة له انفصال الجلد عن الشاة وانكشفت عنه انكشاف الحجاب عما وراءه كما ذكره أبو الهيثم من أنه يقال أهللنا شهر كذا أى دخلنا فيه ولبسناه فنحن نزداد كل ليلة لباسا منه الى مضى نصفه ثم نسلخه عن أنفسنا جزءا فجزءا حتى نسلخه عن أنفسنا كله فينسلخ وأنشد

اذا ماسلخت الشهر أهللت مثله ... كفى قاتلا سلخى الشهور واهلالى

وتحقيقه أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد للحيوان وكذا كل جزء من أجزائه الممتدة من

الايام والشهور والسنين فاذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه وفيه مزيد لطف لما فيه من التلويح بأن تلك الاشهر كانت حرزا لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدى المسلمين فنيط قتالهم بزوالها والمراد بها اما مامر من الاشهر الاربعة فقط ووضع المظهر موضع المضمر ليكون ذريعة الى وصفها بالحرمة تأكيداً لما ينبئ عنه اباحة السياحة من حرمة التعرض لهم مع مافيه من مزيد الاعتناء بشأنها أو هى مع مافهم من قوله تعالى فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم من تتمة مدة بقيت لغير الناكثين فعلى الأول يكون المراد بالمشركين فى قوله تعالى ﴿فاقتلوا المشركين﴾ الناكثين خاصة فلا يكون قتال الباقين مفهوما من عبارة النص بل من دلالته وعلى الثانى مفهوما من العبارة الا أنه يكون الانسلاخ ومانيط به من القتال حينئذ شيأ فشيأ لادفعة واحدة كأنه قيل فاذا تم ميقات كل طائفة فاقتلوهم وحملها على الاشهر المعهودة الدائرة فى كل سنة لا يساعده النظم الكريم وأما أنه يستدعى بقاء حرمة القتال فيها اذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها فلا اعتداد به لا لانها نسخت بقوله تعالى وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة كما توهم فانه رجم بالغيب لانه ان أريد به ما فى سورة الانفال فانه نزل عقيب غزوة بدر وقد صح أن المراد بالذين كفروا فى قوله تعالى قل للذين كفروا الخ أبو سفيان وأصحابه وقد أسلم فى أواسط رمضان عام الفتح سنة ثمان وسورة التوبة انما نزلت فى شوال سنة تسع وان أريد ما فى سورة البقرة فانه أيضا نزل قبل الفتح كما يعرب عنه ماقبله من قوله تعالى وأخرجوهم من حيث أخرجوكم أى من مكة وقد فعل ذلك يوم الفتح فكيف ينسخ به ما ينزل بعده بل لان انعقاد الاجماع على انتساخها كاف فى الباب من غير حاجة الى كون سنده منقولا الينا وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم ﴿حيث وجدتموهم﴾ من حل وحرم ﴿وخذوهم﴾ أى أيسروهم والأخيذ الاسير ﴿واحصروهم﴾ أى قيدوهم أو امنعوهم من التقلب فى البلاد. قال ابن عباس رضى الله عنهما حيلوا بينهم وبين المسجد الحرام ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أى كل ممر ومجتاز يجتازون منه فى أسفارهم وانتصابه على الظرفية أى ارصدوهم وارقبوهم حتى لا يمروا به وفائدته على التفسير الثانى دفع احتمال أن يراد بالحصر المحاصرة المعهودة ﴿فان تابوا﴾ عن الشرك بالايمان بعدما اضطروا بما ذكر من القتل والاسر والحصر ﴿وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة﴾ تصديقا لتوبتهم وايمانهم واكتفى بذكرهما عن ذكر بقية العبادات لكونهما رأسى العبادات البدنية والمالية ﴿فخلوا سبيلهم﴾ فدعوهم وشأنهم ولا تتعرضوا لهم بشىء مما ذكر ﴿ان الله غفور رحيم﴾ يغفر لهم ماسلف من الكفر والغدر ويثيبهم بايمانهم وطاعاتهم وهو تعليل للامر بتخلية السبيل ﴿وان أحد﴾ شروع فى بيان حكم المتصدين لمبادى التوبة من سماع كلام الله تعالى والوقوف على شعائر الدين اثر بيان حكم التائبين عن الكفر والمصرين عليه وهو مرتفع بشرط مضمر يفسره الظاهر لا بالابتداء لان ان لاتدخل الاعلى الفعل ﴿من المشركين استجارك﴾ بعد انقضاء الاجل المضروب أى سألك أن تؤمنه وتكون له جارا ﴿فأجره﴾ أى أمنه ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة ماتدعو اليه والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة الى شىء آخر فى الفهم لكونهم من أهل اللسن والفصاحة وحتى سواء كانت للغاية أو للتعليل متعلقة بما بعدها لا بقوله تعالى استجارك لانه يؤدى الى اعمال حتى فى المضمر وذلك مما لا يكاد يرتكب فى غير ضرورة الشعر كما فى قوله

فلا والله لا يلفى أناس ... فتى حتاك يا ابن أبى يزيد

كذا قيل الا أن تعلق الاجارة بسماع كلام الله تعالى بأحد الوجهين يستلزم تعلق الاستجارة أيضا بذلك أو بما فى معناه من أمور الدين وما روى عن على رضى الله عنه أنه أتاه رجل من المشركين فقال ان أراد الرجل منا أن يأتى محمدا بعد انقضاء هذا الاجل لسماع كلام الله تعالى أو لحاجة قتل قال لا لان الله تعالى يقول وان أحد من المشركين استجارك فأجره الخ فالمراد بما فيه من الحاجة هى الحاجة المتعلقة بالدين لا ما يعمها وغيرها من الحاجات الدنيوية كما ينبئ عنه قوله أن يأتى

محمدا فان من يأتيه عليه السلام انما يأتيه للامور المتعلقة بالدين ﴿ثم أبلغه﴾ بعد استماعه له ان لم يؤمن ﴿مأمنه﴾ أى مسكنه الذى يأمن فيه وهو دار قومه ﴿ذلك﴾ يعنى الامر بالاجارة وابلاغ المأمن ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿قوم لا يعلمون﴾ ماالاسلام وماحقيقته أو قوم جهلة فلا بد من اعطاء الامان حتى يفهموا الحق ولا يبقى لهم معذرة أصلا ﴿كيف يكون للمشركين عهد﴾ شروع فى تحقيق حقية ماسبق من البراءة وأحكامها المتفرعة عليها وتبيين الحكمة الداعية الى ذلك والمراد بالمشركين الناكثون لأن البراءة انما هى فى شأنهم والاستفهام انكارى لا بمعنى انكار الواقع كما فى قوله تعالى كيف تكفرون بالله الخ بل بمعنى انكار الوقوع ويكون من الكون التام وكيف فى محل النصب على التشبيه بالحال أو الظرف وقيل من الكون الناقص وكيف خبر يكون قدم على اسمه وهو عهد لاقتضائه الصدارة وللمشركين متعلق بمحذوف وقع حالا من عهد ولو كان مؤخرا لكان صفة له أو يكون عند من يجوز عمل الأفعال الناقصة فى الظروف وعند متعلق بمحذوف وقع صفة لعهد أو بنفسه لأنه مصدر أو يكون كما مر ويجوز أن يكون الخبر للمشركين وعند كما ذكر أو متعلق بالاستقرار الذى تعلق به للمشركين ويجوز أن يكون الخبر عند الله وللمشركين اما تبيين واما حال من عهد واما متعلق بيكون أو بالاستقرار الذى تعلق به الخبر ولا يبالى بتقديم معمول الخبر على الاسم لكونه حرف جر وكيف على الوجهين الأخيرين نصب على التشبيه بالظرف أو الحال كما فى صورة الكون التام وهو الأولى لأن فى انكار ثبوت العهد فى نفسه من المبالغة ماليس فى انكار ثبوته للمشركين لان ثبوته الرابطى فرع ثبوته العينى فانتفاء الأصل يوجب انتفاء الفرع رأسا وفى توجيه الانكار الى كيفية ثبوت العهد من المبالغة ماليس فى توجيهه الى ثبوته لان كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى أى على أى أو فى أى حال يوجد لهم عهد معتد به ﴿عند الله وعند رسوله﴾ يستحق أن يراعى حقوقه ويحافظ عليه الى اتمام المدة ولا يتعرض لهم بحسبه قتلا ولا أخذا وأما أن يأمنوا به من عذاب الآخرة كما قيل فلا سبيل الى اعتباره أصلا اذ لا دخل لعهدهم فى ذلك الأمن قطعا وان كان مرعيا عند الله تعالى وعند رسوله كعهد غير الناكثين وتكرير كلمة عند للايذان بعدم الاعتداد به عند كل منهما على حدة ﴿الا الذين﴾ استدراك من النفى المفهوم من الاستفهام المتبادر شموله لجميع المعاهدين أى لكن الذين ﴿عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ وهم المستثنون فيما سلف والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها والاشعار بسبب وكادتها ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ والفاء لتضمنه معنى الشرط وما اما مصدرية منصوبة المحل على الظرفية بتقدير المضاف أى فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم واما شرطية منصوبة المحل على الظرفية الزمانية أى أى زمان استقاموا لكم فاستقيموا لهم أو مرفوعة على الابتداء والعائد محذوف أى أى زمان استقاموا لكم فيه فاستقيموا لهم فيه وقيل الاستثناء متصل محله النصب على الأصل أو الجر على البدل من المشركين والمراد بهم الجنس لا المعهود وأيا ما كان فحكم الأمر بالاستقامة ينتهى بانتهاء مدة العهد لأن استقامتهم التى وقت بوقتها الاستقامة المأمور بها عبارة عن مراعاة حقوق العهد وبعد انقضاء مدته لا عهد ولا استقامة فصار عين الأمر الوارد فيما سلف حيث قيل فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم خلا أنه قد صرح ههنا بما لم يصرح به هناك مع كونه معتبرا قطعا وهو تقييد الاتمام المأمور به ببقائهم على ما كانوا عليه من الوفاء ﴿ان الله يحب المتقين﴾ تعليل للأمر بالاستقامة واشعار بأن القيام بموجب العهد من أحكام التقوى كما مر ﴿كيف﴾ تكرير لاستنكار مامر من أن يكون للمشركين عهد حقيق بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسوله صلى الله عليه وسلم وأما ماقيل من أنه لاستبعاد ثباتهم على العهد فكما

ترى لأن مايذكر بصدد التعليل للاستبعاد عين عدم ثباتهم على العهد لاأنه شيء يستدعيه وانما أعيد الاستنكار والاستبعاد تأكيدا لهما وتمهيداً لتعداد العلل الموجبة لهما لاخلال تخلل مافى البين من الارتباط والتقريب وحذف الفعل المستنكر للايذان بأن النفس مستحضرة له مترقبة لورود مايوجب استنكاره لامجرد كونه معلوما كما فى قوله

وخبر تمانى أنما الموت بالقرى فكيف وهاتا هضبة وقليب

فانه علة مصححة لامرجحة أى كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وان يظهروا عليكم﴾ أى وحالهم أنهم ان يظهروا عليكم أى يظفروا بكم ﴿لايرقبوا فيكم﴾ أى لايراعوا فى شأنكم وأصل الرقوب النظر بطريق الحفظ والرعاية ومنه الرقيب ثم استعمل فى مطلق الرعاية والمراقبة أبلغ منه كالمراعاة وفى نفى الرقوب من المبالغة ماليس فى نفيها ﴿إلا ولا ذمة﴾ أى حلفا وقيل قرابة ولا عهدا أوحقا يعاب على اغفاله مع ماسبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق يعنى أن وجوب مراعاة حقوق العهد على كل من المتعاهدين مشروط بمراعاة الآخر لها فاذا لم يراعها المشركون فكيف تراعونها على منوال قول من قال

علام تقبل منهم فدية وهم لافضة قبلوا منا ولا ذهبا

وقيل الال من أسماء الله عز وجل أى لايراعوا حق الله تعالى وقيل الجوار ومآله الحلف لأنهم اذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم لتشهيره ولما كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر موهما للرعاية عند عدمه كشف عن حقيقة شئونهم الجلية والخفية بطريق الاستئناف وبين أنهم فى حالة العجز أيضا ليسوا من الوفاء فى شيء وأنما يظهرونه مداهنة لامهادنة فقيل ﴿يرضونكم بأفواههم﴾ حيث يظهرون الوفاء والمصافاة ويعدون لكم بالايمان والطاعة ويؤكدون ذلك بالأيمان الفاجرة ويتعللون عند ظهور خلافه بالمعاذير الكاذبة ونسبة الارضاء الى الأفواه للايذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق فى قلوبهم ﴿وتأبى قلوبهم﴾ ما يفيده كلامهم ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ خارجون عن الطاعة فان مراعاة حقوق العهد من باب الطاعة متمردون ليست لهم مروءة رادعة ولا عقيدة وازعة ولا يتسترون كما يتعاطاه بعضهم ممن يتفادى عن الغدر ويتعفف عما يجر أحدوثة السوء ﴿اشتروا بآيات الله﴾ بآياته الآمرة بالايفاء بالعهود والاستقامة فى كل أمر أو بجميع آياته فيدخل فيها ماذكر دخولا أوليا أى تركوها وأخذوا بدلها ﴿ثمنا قليلا﴾ أى شيئاً حقيرا من حطام الدنيا وهو أهوائهم وشهواتهم التى اتبعوها أوما أنفقه أبو سفيان من الطعام وصرفه الى الاعراب ﴿فصدوا﴾ أى عدلوا ونكبوا من صد صدودا أوصرفوا غيرهم من صد صداً والفاء للدلالة على سببية الاشتراء لذلك ﴿عن سبيله﴾ أى الدين الحق الذى لامحيد عنه والاضافة للتشريف أوسبيل بيته الحرام حيث كانوا يصدون الحجاج والعمار عنه ﴿انهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أى بئس ما كانوا يعملونه أو عملهم المستمر والمخصوص بالذم محذوف وقد جوز أن تكون كلمة ساء على أصلها من التصرف لازمة بمعنى قبح أو متعدية والمفعول محذوف أى ساءهم الذى يعملونه أوعملهم وقوله عز وعلا ﴿لايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة﴾ ناع عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين على الاطلاق فلا تكرار وقيل هذا فى اليهود أو فى الاعراب المذكورين ومن يحذو حذوهم وأما ماقيل من أنه تفسير لقوله تعالى يعملون أو دليل على ماهو مخصوص بالذم فمشعر باختصاص الذم والسوء بعملهم هذا دون غيره ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما عدد من الصفات السيئة ﴿هم المعتدون﴾ المجاوزون الغاية القصوى من الظلم والشرارة ﴿فان تابوا﴾ أى عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم والفاء للايذان بأن تقريعهم بما نعى عليهم من مساوى أعمالهم مزجرة عنها ومظنة للتوبة ﴿وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة﴾ أى التزموهما وعزموا على اقامتهما ﴿فاخوانكم﴾ أى فهم اخوانكم

وقوله تعالى ﴿فى الدين﴾ متعلق باخوانكم لما فيه من معنى الفعل أى لهم مالكم وعليهم ماعليكم فعاملوهم معاملة الاخوان وفيه من استمالتهم واستجلاب قلوبهم مالامزيد عليه والاختلاف بين جواب هذه الشرطية وجواب التى مرت من قبل مع اتحاد الشرط فيهما لما أن الاولى سيقت اثر الامر بالقتل ونظائره فوجب أن يكون جوابها أمراً بخلاف ذلك وهذه سيقت بعد الحكم عليهم بالاعتداء وأشباهه فلا بد من كون جوابها حكما بخلافه البتة ﴿ونفصل الآيات﴾ أى نبينها والمراد بها اما مامر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين من الناكثين وغيرهم وأحكامهم حالتى الكفر والايمان واما جميع الآيات فيندرج فيها تلك الآيات اندراجا أوليا ﴿لقوم يعلمون﴾ أى مافيها من الأحكام أو لقوم عالمين وهو اعتراض للحث على التأمل فى الاحكام المندرجة فى تضاعيفها والمحافظة عليها ﴿وان نكثوا﴾ عطف على قوله تعالى فان تابوا أى وان لم يفعلوا ذلك بل نقضوا ﴿أيمانهم من بعد عهدهم﴾ الموثق بها وأظهروا مافى ضمائرهم من الشر وأخرجوه من القوة الى الفعل حسبما ينبيء عنه قوله تعالى وان يظهروا عليكم لايرقبوا الآية أوثبتوا على ماهم عليه من النكث لا أنهم ارتدوا بعد الايمان كما قيل ﴿وطعنوا فى دينكم﴾ قدحوا فيه بصريح التكذيب وتقبيح الاحكام ﴿فقاتلوا ائمة الكفر﴾ أى فقاتلوهم وانما أوثر ماعليه النظم الكريم للايذان بأنهم صاروا بذلك ذوى رياسة وتقدم فى الكفر أحقاء بالقتل والقتال وقيل المراد بأئمتهم رؤساؤهم وصناديدهم وتخصيصهم بالذكر اما لاهمية قتلهم أو للمنع من مراقبتهم لكونهم مظنة لها أو للدلالة على استئصالهم فان قتلهم غالبا يكون بعد قتل من دونهم وقرىء أئمة بتحقيق الهمزتين على الأصل والأفصح اخراج الثانية بين بين وأما التصريح بالياء فلحن ظاهر عند الفراء ﴿انهم لا أيمان لهم﴾ أى على الحقيقة حيث لايراعونها ولا يعدون نقضها محذورا وان أجروها على ألسنتهم وانما علق النفى بها كالنكث فيما سلف لا بالعهد المؤكد بها لأنها العمدة فى المواثيق وجعل الجملة تعليلا للامر بالقتال لا يساعده تعليقه بالنكث والطعن لان حالهم فى أن لا أيمان لهم حقيقة بعد النكث والطعن كحالهم قبل ذلك وحمله على معنى عدم بقاء أيمانهم بعد النكث والطعن مع أنه لاحاجة الى بيانه خلاف الظاهر ولعل الاولى جعلها تعليلا لمضمون الشرط كأنه قيل وان نكثوا وطعنوا كما هو المتوقع منهم اذ لا أيمان لهم حقيقة حتى لاينكثوها أو لاستمرار القتال المأمور به المستفاد من سياق الكلام كأنه قيل فقاتلوهم الى أن يؤمنوا انهم لا أيمان لهم حتى يعقد معهم عهد آخر وقرىء بكسر الهمزة على أنه مصدر بمعنى اعطاء الامان أى لا سبيل الى أن تعطوهم أمانا بعد ذلك أبدا وأما العكس كما قيل فلا وجه له لاشعاره بأن معاهدتهم معنا على طريقة أن يكون اعطاء الامان من قبلهم وذلك بين البطلان أو بمعنى الاسلام فنى كونه تعليلا للامر بالقتال اشكال بل استحالة لانه ان حمل على انتفاء الاسلام مطلقا فهو بمعزل عن العلية للقتال أو للامر به كما قبل النكث والطعن وان حمل على انتفائه فيما سيأتى فلا يلائم جعل الانتهاء غاية للقتال فيما سيجيء فالوجه أن يجعل تعليلا لما ذكر من مضمون الشرط كأنه قيل ان نكثوا وطعنوا وهو الظاهر من حالهم لأنه لا اسلام لهم حتى يرتدعوا عن نقض جنس أيمانهم وعن الطعن فى دينكم ﴿لعلهم ينتهون﴾ متعلق بقوله تعالى فقاتلوهم أى قاتلوهم ارادة أن ينتهوا أى ليكن غرضكم من القتال انتهاءهم عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم التى يرتكبونها لا ايصال الاذية بهم كما هو ديدن المؤذين ﴿ألا تقاتلون﴾ الهمزة الداخلة على انتفاء مقاتلتهم للانكار والتوبيخ تدل على تحضيضهم على المقاتلة بطريق حملهم على الاقرار بانتفائها كأنه أمر لايمكن أن يعترف به طائعا لكمال شناعته فيلجئون الى ذلك ولا يقدرون على الاقرار به فيختارون المقاتلة ﴿قوما نكثوا أيمانهم﴾ التى حلفوها عند المعاهدة على أن لا يعاونوا عليهم فعاونوا بنى بكر على خزاعة ﴿وهموا باخراج الرسول﴾ من مكة حين تشاوروا

فى أمره بدار الندوة حسبما ذكر فى قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا فيكون نعيا عليهم جنايتهم القديمة وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وهموا باخراجه من المدينة ﴿وهم بدءوكم﴾ بالمعاداة والمقاتلة ﴿أول مرة﴾ لان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولا بالكتاب المبين وتحداهم به فعدلوا عن المحاجة لعجزهم عنها الى المقاتلة أو بدءوا بقتال خزاعة حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم لان اعانة بنى بكر عليهم قتال معهم ﴿أتخشونهم﴾ أى أتخشون أن ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا قتالهم وبخهم أولا بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الرغبة فيها ويحقق أن من كان على تلك الصفات السيئة حقيق بأن لا تترك مصادمته ويوبخ من فرط فيها ﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ بمخالفة أمره وترك قتال أعدائه ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ فان قضية الايمان تخصيص الخشية به تعالى وعدم المبالاة بمن سواه وفيه من التشديد ما لا يخفى ﴿قاتلوهم﴾ تجريد للامر بالقتال بعد التوبيخ على تركه ووعد بنصرهم وبتعذيب أعدائهم واخزائهم وتشجيع لهم ﴿يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم﴾ قتلا وأسرا ﴿وينصركم عليهم﴾ أى يجعلكم جميعا غالبين عليهم أجمعين ولذلك أخر عن التعذيب والاخزاء ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ ممن لم يشهد القتال وهم خزاعة قال ابن عباس رضى الله عنهما هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرا فبعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون اليه فقال عليه السلام أبشروا فان الفرج قريب ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ بما كابدوا من المكاره والمكايد ولقد أنجز الله سبحانه جميع ماوعدهم به على أجمل ما يكون فكان اخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ كلام مستأنف ينبىء عما سيكون من بعض أهل مكة من التوبة المقبولة بحسب مشيئته تعالى المبنية على الحكم البالغة فكان كذلك حيث أسلم ناس منهم وحسن اسلامهم وقرىء بالنصب باضمار أن ودخول التوبة فى جملة ما أجيب به الأمر بحسب المعنى فان القتال كما هو سبب لفل شوكتهم وإلانة شكيمتهم فهو سبب للتدبر فى أمرهم وتوبتهم من الكفر والمعاصى وللاختلاف فى وجه السببية غير السبك والله تعالى أعلم ﴿والله﴾ ايثار اظهار الجلالة على الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة ﴿عليم﴾ لايخفى عليه خافية ﴿حكيم﴾ لايفعل ولا يأمر الا بما فيه حكمة ومصلحة ﴿أم حسبتم﴾ أم منقطعة جىء بها للدلالة على الانتقال من التوبيخ السابق الى آخر وما فيها من همزة الاستفهام الانكارى توبيخ لهم على الحسبان المذكور أى بل أحسبتم ﴿أن تتركوا﴾ على ما أنتم عليه ولا تؤمروا بالجهاد ولا تبتلوا بما يمحصكم والخطاب اما لمن شق عليهم القتال من المؤمنين أو للمنافقين ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ الواو حالية ولما للنفى مع التوقع والمراد من نفى العلم نفى المعلوم بالطريق البرهانى اذ لوشم رائحة الوجود لعلم قطعا فلما لم يعلم لزم عدمه قطعا أى أم حسبتم أن تتركوا والحال أنه لم يتبين الخلص من المجاهدين منكم من غيرهم وما فى لما من التوقع منبه على أن ذلك سيكون وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقا للعلم ومداراً للثواب وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت ارادة أكرم الأكرمين ﴿ولم يتخذوا﴾ عطف على جاهدوا داخل فى حيز الصلة أو حال من فاعله أى جاهدوا حال كونهم غير متخذين ﴿من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أى بطانة وصاحب سر وهو الذى تطلعه على مافى ضميرك من الأسرار الخفية من الولوج وهو الدخول ومن دون الله متعلق بالاتخاذ ان أبقى على حاله أو مفعول ثان له ان جعل بمعنى التصيير ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أى بجميع أعمالكم وقرىء على الغيبة وهو تذييل يزيح مايتوهم من ظاهر قوله تعالى ولما يعلم الخ أو حال متداخلة من فاعله أو من مفعوله والمعنى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم

والحال أنه يعلم جميع أعمالكم لايخفى عليه شىء منها ﴿ما كان للمشركين﴾ أى ماصح وما استقام لهم على معنى نفى الوجود والتحقق لانفى الجواز كما فى قوله تعالى أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين أى ماوقع وما تحقق لهم ﴿أن يعمروا﴾ عمارة معتدا بها ﴿مساجد الله﴾ أى المسجد الحرام وانما جمع لأنه قبلة المساجد وامامها فعامره كعامرها أو لأن كل ناحية من نواحيه المختلفة الجهات مسجد على حياله بخلاف سائر المساجد اذ ليس فى نواحيها اختلاف الجهة ويؤيده القراءة بالتوحيد وقيل ما كان لهم أن يعمروا شيئاً من المساجد فضلا عن المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس ويأباه أنهم لا يتصدون لتعمير سائر المساجد ولا يفتخرون بذلك على أنه مبنى على كون النفى بمعنى نفى الجواز واللياقة دون نفى الوجود ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ أى باظهار آثار الشرك من نصب الأوثان حول البيت والعبادة لها فان ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر وان أبوا أن يقولوا نحن كفار كما نقل عن الحسن رضى الله عنه وهو حال من الضمير فى يعمروا أى محال أن يكون ماسموه عمارة عمارة بيت الله مع ملابستهم لما ينافيها ويحبطها من عبادة غيره تعالى فانها ليست من العمارة فى شىء وأما ماقيل من أن المعنى ماستقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله تعالى وعبادة غيره تعالى فليس بمعرب عن كنه المرام فان عدم استقامة الجمع بين المتنافيين انما يستدعى انتفاء أحدهما لابعينه لاانتفاء العمارة الذى هو المقصود. روى أن المهاجرين والانصار أقبلوا على أسارى بدر يعيرونهم بالشرك وطفق على رضى الله تعالى عنه يوبخ العباس بقتال النبى صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم وأغلظ له فى القول فقال العباس تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقال ولكم محاسن قالوا نعم انا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العانى فنزلت ﴿أولئك﴾ الذين يدعون عمارة المسجد ومايضاهيها من أعمال البر مع مابهم من الكفر ﴿حبطت أعمالهم﴾ التى يفتخرون بها بما قارنها من الكفر فصارت هباء منثورا ﴿وفى النار هم خالدون﴾ لكفرهم ومعاصيهم وايراد الجملة الاسمية للمبالغة فى الدلالة على الخلود والظرف متعلق بالخبر قدم عليه للاهتمام به ومراعاة الفاصلة وكلتا الجملتين مستأنفة لتقرير النفى السابق. الاولى من جهة نفى استتباع الثواب والثانية من جهة نفى استدفاع العذاب ﴿انما يعمر مساجد الله﴾ الكلام فى ايراد صيغة الجمع كما مر فيما مر خلا أن ارادة جميع المساجد وادراج المسجد الحرام فى ذلك غير مخالفة لمقتضى الحال فان الايجاب ليس كالسلب وقد قرىء بالافراد أيضا والمراد هنا أيضا قصر تحقق العمارة ووجودها على المؤمنين لاقصر جوازها ولياقتها أى انما يصح ويستقيم أن يعمرها عمارة يعتد بها ﴿من آمن بالله﴾ وحده ﴿واليوم الآخر﴾ بما فيه من البعث والحساب والجزاء حسبما نطق به الوحى ﴿وأقام الصلوة وآتى الزكوة﴾ على ماعلم من الدين فيندرج فيه الايمان بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم حتما وقيل هو مندرج تحت الايمان بالله خاصة فان أحد جزأى كلمتى الشهادة علم للكل أى انما يعمرها من جمع هذه الكمالات العلمية والعملية والمراد بالعمارة مايعم مرمة مااسترم منها وقمها وتنظيفها وتزيينها بالفرش وتنويرها بالسرج وادامة العبادة والذكر ودراسة العلوم فيها ونحو ذلك وصيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش وقال عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى ان بيوتى فى أرضى المساجد وان زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور أن يكرم زائره وعنه عليه الصلاة والسلام من ألف المسجد ألفه الله تعالى وقال عليه الصلاة والسلام اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان وعن أنس رضى الله عنه من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له مادام فى ذلك المسجد ضوؤه ﴿ولم يخش﴾ فى أمور الدين ﴿الا الله﴾ فعمل بموجب أمره ونهيه غير آخذ له فى الله لومة لائم ولا خشية ظالم فيندرج

فيه عدم الخشية عند القتال ونحو ذلك وأما الخوف الجبلى من الأمور المخوفة فليس من هذا الباب ولا مما يدخل تحت التكليف والخطاب وقيل كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد نفى تلك الخشية عنهم ﴿فعسى أولئك﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿أن يكونوا من المهتدين﴾ الى مباغيهم من الجنة ومافيها من فنون المطالب العلية وابراز اهتدائهم مع مابهم من الصفات السنية فى معرض التوقع لقطع أطماع الكفرة عن الوصول الى مواقف الاهتداء والانتفاع بأعمالهم التى يحسبون أنهم فى ذلك محسنون ولتوبيخهم بقطعهم بأنهم مهتدون فان المؤمنين مع مابهم من هذه الكمالات اذا كان أمرهم دائرا بين لعل وعسى فما بال الكفرة وهم هم وأعمالهم أعمالهم وفيه لطف للمؤمنين وترغيب لهم فى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء ورفض الاعتذار بالله تعالى ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ أى فى الفضيلة وعلو الدرجة ﴿كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله﴾ السقاية والعمارة مصدران لا يتصور تشبيههما بالاعيان فلا بد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين أى أجعلتم أهلهما كمن آمن بالله الخ ويؤيده قراءة من قرأ سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام أو أجعلتموهما كايمان من آمن الخ وعلى التقديرين فالخطاب اما للمشركين على طريقة الالتفات وهو المتبادر من تخصيص ذكر الايمان بجانب المشبه به واما لبعض المؤمنين المؤثرين للسقاية والعمارة ونحوهما على الهجرة والجهاد ونظائرهما وهو المناسب للاكتفاء فى الرد عليهم ببيان عدم مساواتهم عند الله للفريق الثانى وبيان أعظمية درجتهم عند الله تعالى على وجه يشعر بعدم حرمان الاولين بالكلية وجعل معنى التفضيل بالنسبة الى زعم الكفرة لايجدى كثير نفع لأنه ان لم يشعر بعدم الحرمان فليس بمشعر بالحرمان أيضا أما على الأول فهو توبيخ للمشركين ومداره على انكار تشبيه أنفسهم من حيث اتصافهم بوصفيهم المذكورين مع قطع النظر عما هم عليه من الشرك بالمؤمنين من حيث اتصافهم بالايمان والجهاد أو على انكار تشبيه وصفيهم المذكورين فى حدذاتهما مع الاغماض عن مقارنتهما للشرك بالايمان والجهاد وأما اعتبار مقارنتهما له كما قيل فيأباه المقام كيف لا وقد بين آنفا حبوط أعمالهم بذلك الاعتبار بالمرة وكونها بمنزلة العدم فتوبيخهم بعد ذلك على تشبيههما بالايمان والجهاد ثم رد ذلك بما يشعر بعدم حرمانهم عن أصل الفضيلة بالكلية كما أشير اليه مما لا يساعده النظم التنزيلى ولو اعتبر ذلك لما احتيج الى تقرير انكار التشبيه وتأكيده بشىء آخر اذ لا شىء أظهر بطلانا من تشبيه المعدوم بالموجود فالمعنى أجعلتم أهل السقاية والعمارة فى الفضيلة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيله أو أجعلتموهما فى ذلك كالايمان والجهاد وشتان بينهما فان السقاية والعمارة وان كانتا فى أنفسهما من أعمال البر والخير لكنهما وان خلتا عن القوادح بمعزل عن صلاحية أن يشبه أهلهما بأهل الايمان والجهاد أو يشبه نفسهما بنفس الايمان والجهاد وذلك قوله عز وجل ﴿لا يستوون عند الله﴾ أى لا يساوى الفريق الاول الثانى من حيث اتصاف كل منهما بوصفيهما ومن ضرورته عدم التساوى بين الوصفين الاولين وبين الآخرين لأنه المدار فى التفاوت بين الموصوفين واسناد عدم الاستواء الى الموصوفين لأن الأهم بيان تفاوتهم وتوجيه النفى ههنا والانكار فيما سلف الى الاستواء والتشبيه مع أن دعوى المفتخرين بالسقاية والعمارة من المشركين والمؤمنين انما هى الافضلية دون التساوى والتشابه للمبالغة فى الرد عليهم فان نفى التساوى والتشابه نفى للافضلية بالطريق الاولى والجملة استئناف لتقرير الانكار المذكور وتأكيده أو حال من مفعولى الجعل والرابط هو الضمير كأنه قيل أسويتم بينهم حال كونهم متفاوتين عنده تعالى وقوله تعالى ﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ حكم عليهم بأنهم مع ظلمهم بالاشراك ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ضالون فى هذا الجعل غير مهتدين الى طريق معرفة الحق وتمييز الراجح من المرجوح وظالمون بوضع كل منهما موضع الآخر وفيه زيادة تقرير لعدم التساوى بينهم وقوله تعالى ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم

وأنفسهم﴾ استئناف لبيان مراتب فضلهم اثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم وزيادة الهجرة وتفصيل نوعى الجهاد للايذان بأن ذلك من لوازم الجهاد لا أنه اعتبر بطريق التدارك أمر لم يعتبر فيما سلف أى هم باعتبار اتصافهم بهذه الاوصاف الجميلة ﴿أعظم درجة عند الله﴾ أى أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم يتصف بها كائنا من كان وان حاز جميع ما عداها من الكمالات التى من جملتها السقاية والعمارة ﴿وأولئك﴾ أى المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم فى الرفعة ﴿هم الفائزون﴾ المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة الى فوزهم وأما على الثانى فهو توبيخ لمن يؤثر السقاية والعمارة من المؤمنين على الهجرة والجهاد روى أن عليا قال للعباس رضى الله عنهما بعد اسلامه يا عم ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألست فى أفضل من الهجرة أسقى حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام فلما نزلت قال ما أرانى الا تارك سقايتنا فقال عليه السلام أقيموا على سقايتكم فان لكم فيها خيرا وروى النعمان بن بشير قال كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد أن أسقى الحاج وقال آخر ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن اذا صليتم استفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفتم فيه فدخل فأنزل الله عز وجل هذه الآية والمعنى أجعلتم أهل السقاية والعمارة من المؤمنين فى الفضيلة والرفعة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيله أو أجعلتموهما كالايمان والجهاد وانما لم يذكر الايمان فى جانب المشبه مع كونه معتبرا فيه قطعا تعويلا على ظهور الأمر واشعارا بأن مدار انكار التشبيه هو السقاية والعمارة دون الايمان وانما لم يترك ذكره فى جانب المشبه به أيضا تقوية للانكار وتذكيرا لأسباب الرجحان ومبادى الأفضلية وايذانا بكمال التلازم بين الايمان وما تلاه ومعنى عدم الاستواء عند الله تعالى على هذا التقدير ظاهر وكذا أعظمية درجة الفريق الثانى وأما قوله تعالى والله لا يهدى القوم الظالمين فالمراد به عدم هدايته تعالى لهم الى معرفة الراجح من المرجوح وظلمهم بوضع كل منهما موضع الآخر لاعدم الهداية مطلقا ولا الظلم عموما والقصر فى قوله تعالى وأولئك هم الفائزون بالنسبة الى درجة الفريق الثانى أو الى الفوز المطلق ادعاء كما مر والله أعلم ﴿يبشرهم﴾ وقرئ بالتخفيف ﴿ربهم برحمة﴾ عظيمة ﴿منه ورضوان﴾ كبير ﴿وجنات﴾ عالية ﴿لهم فيها﴾ فى تلك الجنات ﴿نعيم مقيم﴾ نعم لانفاد لها وفى التعرض لعنوان الربوبية تأكيد للمبشر به وتربية له ﴿خالدين فيها﴾ أى فى الجنات ﴿أبدا﴾ تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد به اذ قد يراد به المكث الطويل ﴿ان الله عنده أجر عظيم﴾ لا قدر عنده لأجور الدنيا أو للاعمال التى فى مقابلته والجملة استئناف وقع تعليلا لما سبق ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء﴾ نهى لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة فرد من المشركين بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجبة لانقسام الآحاد الى الآحاد كما فى قوله عز وجل وما للظالمين من أنصار لا عن موالاة طائفة منهم فان ذلك مفهوم من النظم دلالة لا عبارة والآية نزلت فى المهاجرين فانهم لما أمروا بالهجرة قالوا ان هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا وذهبت تجاراتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا وبقينا ضائعين فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت اليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ثم رخص لهم فى ذلك وقيل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة نهيا عن موالاتهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا يطعم أحدكم طعم الايمان حتى يحب فى الله ويبغض فى الله حتى يحب فى الله أبعد الناس منه ويبغض فى الله أقرب الناس اليه ﴿ان استحبوا الكفر﴾ أى اختاروه ﴿على الايمان﴾ وأصروا عليه اصرارا

لا يرجى معه الاقلاع عنه أصلا وتعليق النهى عن الموالاة بذلك لما أنها قبل ذلك ربما تؤدى بهم الى الاسلام بسبب شعورهم بمحاسن الدين ﴿ومن يتولهم﴾ أى واحدا منهم كما أشير اليه وافراد الضمير فى الفعل لمراعاة لفظ الموصول وللايذان باستقلال كل واحد منهم فى الاتصاف بالظلم لا أن المراد تولى فرد واحد وكلمة من فى قوله تعالى ﴿منكم﴾ للجنس لا للتبعيض ﴿فأولئك﴾ أى أولئك المتولون ﴿هم الظالمون﴾ بوضعهم الموالاة فى غير موضعها كأن ظلم غيرهم كلا ظلم عند ظلمهم ﴿قل﴾ تلوين للخطاب وأمر له عليه الصلاة والسلام بأن يثبت المؤمنين ويقوى عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه من موالاة الآباء والاخوان ويزهدهم فيهم وفيمن يجرى مجراهم من الأبناء والأزواج ويقطع علائقهم عن زخارف الدنيا وزينتها على وجه التوبيخ والترهيب ﴿ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم﴾ لم يذكر الابناء والأزواج فيما سلف لأن موالاة الأبناء والأزواج غير معتادة بخلاف المحبة ﴿وعشيرتكم﴾ أى أقرباؤكم مأخوذ من العشرة أى الصحبة وقيل من العشرة فانهم جماعة ترجع الى عقد كعقد العشرة وقرىء عشيراتكم وعشائركم ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أى اكتسبتموها وانما وصفت بذلك ايماء الى عزتها عندهم لحصولها بكد اليمين ﴿وتجارة﴾ أى أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح ﴿تخشون كسادها﴾ بفوات وقت رواجها بغيبتكم عن مكة المعظمة فى أيام الموسم ﴿ومساكن ترضونها﴾ أى منازل تعجبكم الاقامة فيها من الدور والبساتين والتعرض للصفات المذكورة للايذان بأن اللوم على محبة ما ذكر من زينة الحياة الدنيا ليس لتناسى ما فيها من مبادى المحبة وموجبات الرغبة فيها وأنها مع مالها من فنون المحاسن بمعزل عن أن يؤثر حبها على حبه تعالى وحب رسوله عليه الصلاة والسلام كما فى قوله عز وجل ما غرك بربك الكريم ﴿أحب اليكم من الله و رسوله﴾ بالحب الاختيارى المستتبع لأثره الذى هو الملازمة وعدم المفارقة لا الحب الجبلى الذى لا يخلو عنه البشر فانه غير داخل تحت التكليف الدائر على الطاقة ﴿وجهاد فى سبيله﴾ نظم حبه فى سلك حب الله عز وجل وحب رسوله صلى الله عليه وسلم تنويها لشأنه وتنبيها على أنه مما يجب أن يحب فضلا عن أن يكره وايذانا بأن محبته راجعة الى محبتهما فان الجهاد عبارة عن قتال أعدائهما لأجل عداوتهم فمن يحبهما يجب أن يحب قتال من لا يحبهما ﴿فتربصوا﴾ أى انتظروا ﴿حتى يأتى الله بأمره﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه فتح مكة وقيل هى عقوبة عاجلة أو آجلة ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن الطاعة فى موالاة المشركين أو القوم الفاسقين كافة فيدخل فى زمرتهم هؤلاء دخولا أوليا أى لا يرشدهم الى ما هو خير لهم وفى الآية الكريمة من الوعيد ما لا يكاد يتخلص منه الا من تداركه لطف من ربه والله المستعان ﴿لقد نصركم الله﴾ الخطاب للمؤمنين خاصة ﴿فى مواطن كثيرة﴾ من الحروب وهى مواقعها ومقاماتها والمراد بها وقعات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة ﴿ويوم حنين﴾ عطف على محل فى مواطن بحذف المضاف فى أحدهما أى وموطن يوم حنين أو فى أيام مواطن كثيرة ويوم حنين ولعل التغيير للايماء الى ما وقع فيه من قلة الثبات من أول الامر وقيل المراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين وقيل يوم حنين منصوب بمضمر معطوف على نصركم أى ونصركم يوم حنين ﴿اذ أعجبتكم كثرتكم﴾ بدل من يوم حنين ولا منع فيه من عطفه على محل الظرف بناء على أنه لم يكن فى المعطوف عليه كثرة ولا اعجاب اذ ليس من قضية العطف مشاركة المعطوفين فيما أضيف اليه المعطوف أو منصوب باضمار اذكر وحنين واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفا عشرة آلاف منهم من شهد فتح مكة من المهاجرين والانصار وألفان من الطلقاء وبين هوازن وثقيف وكانوا أربعة آلاف فيمن ضامهم من أمداد سائر العرب وكانوا الجم الغفير فلما التقوا قال رجل من المسلمين اسمه سلمة بن سلامة الانصارى

لن نغلب اليوم من قلة فساءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا الذرارى فأكب المسلمون على الغنائم فتنادى المشركون ياحماة السوء اذكروا الفضائح فتراجعوا فأدركت المسلمين كلمة الاعجاب فانكشفوا وذلك قوله عز وجل ﴿فلم تغن عنكم شيئا﴾ والاغناء اعطاء ما يدفع به الحاجة أى لم تعطكم تلك الكثرة ما تدفعون به حاجتكم شيئا من الاغناء ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ أى برحبها وسعتها على أن ما مصدرية والباء بمعنى مع أى لا تجدون فيها مفرا تطمئن اليه نفوسكم من شدة الرعب ولا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكان ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ روى أنه بلغ فلهم مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ليس معه الا عمه العباس آخذا بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن الحرث آخذا بركابه وهو يركض البغلة نحو المشركين وهو يقول أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب. روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يحمل على الكفار فيفرون ثم يحملون عليه فيقف لهم فعل ذلك بضع عشرة مرة قال العباس كنت أكف البغلة لئلا تسرع به نحو المشركين وناهيك بهذه الواحدة شهادة صدق على أنه عليه الصلاة والسلام كان فى الشجاعة ورباطة الجأش سباقا للغايات القاصية وما كان ذلك الا لكونه مؤيدا من عند الله العزيز الحكيم فعند ذلك قال يارب ائتنى بما وعدتنى وقال للعباس وكان صيتا صح بالناس فنادى الأنصار فخذا فخذا ثم نادى يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة فكروا عنقا واحدا وهم يقولون لبيك لبيك وذلك قوله تعالى ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله﴾ أى رحمته التى تسكن بها القلوب وتطمئن اليها اطمئنانا كليا مستتبعا للنصر القريب وأما مطلق السكينة فقد كانت حاصلة له عليه الصلاة والسلام قبل ذلك أيضا ﴿وعلى المؤمنين﴾ عطف على رسوله وتوسيط الجار بينهما للدلالة على ما بينهما من التفاوت أى المؤمنين الذين انهزموا وقيل على الذين ثبتوا مع النبى صلى الله عليه وسلم أو على الكل وهو الأنسب ولا ضير فى تحقق أصل السكينة فى الثابتين من قبل والتعرض لوصف الايمان للاشعار بعلية الانزال ﴿وأنزل جنودا لم تروها﴾ أى بأبصاركم كما يرى بعضكم بعضا وهم الملائكة عليهم السلام عليهم البياض على خيول بلق فنظر النبى صلى الله عليه وسلم الى قتال المسلمين فقال هكذا حين حمى الوطيس فأخذ كفا من التراب فرمى به نحو المشركين وقال شاهت الوجوه فلم يبق منهم أحد الا امتلأت به عيناه ثم قال عليه الصلاة والسلام انهزموا ورب الكعبة واختلفوا فى عدد الملائكة يومئذ فقيل خمسة آلاف وقيل ثمانية آلاف وقيل ستة عشر ألفا وفى قتالهم أيضا فقيل قاتلوا وقيل لم يقاتلوا الا يوم بدر وانما كان نزولهم لتقوية قلوب المؤمنين بالقاء الخواطر الحسنة وتأييدهم بذلك والقاء الرعب فى قلوب المشركين. قال سعيد بن المسيب حدثنى رجل كان فى المشركين يوم حنين قال لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم فلما انتهينا الى صاحب البغلة الشهباء تلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا ﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالقتل والاسر والسبى ﴿وذلك﴾ أى ما فعل بهم مما ذكر ﴿جزاء الكافرين﴾ لكفرهم فى الدنيا ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ أن يتوب عليه منهم لحكمة تقتضيه أى يوفقه للاسلام ﴿والله غفور﴾ يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصى ﴿رحيم﴾ يتفضل عليهم ويثيبهم روى أن ناسا منهم جاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الاسلام وقالوا يارسول الله أنت خير الناس وأبر الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا. قيل سبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الابل والغنم مالا يحصى فقال عليه الصلاة والسلام ان عندى ماترون ان خير القول أصدقه اختاروا اما ذراريكم ونساءكم واما أموالكم قالوا ما كنا نعدل بالاحساب شيئاً فقام النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان هؤلاء جاؤنا مسلمين وانا خيرناهم بين الذرارى والاموال فلم يعدلوا بالاحساب شيئاً فمن كان بيده سبى وطابت نفسه أن يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب

شيئاً فنعطيه مكانه قالوا قد رضينا وسلمنا فقال عليه الصلاة والسلام انا لاندرى لعل فيكم من لايرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك الينا فرفعت اليه العرفاء أنهم قد رضوا ﴿ياأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس﴾ وصفوا بالمصدر مبالغة كأنهم عين النجاسة أوهم ذوو نجس لخبث باطنهم أو لان معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس أو لانهم لايتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم . عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وعن الحسن من صافح مشركا توضأ وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين وقرئ نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف نجس ككبد فى كبد كأنه قيل انما المشركون جنس نجس أو ضرب نجس وأكثر ماجاء تابعا لرجس ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾ تفريع على نجاستهم وانما نهى عن القرب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم وهو مذهب عطاء وقيل المراد به النهى عن الدخول مطلقا وقيل المراد المنع عن الحج والعمرة وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله تعالى ويؤيده قوله عز وجل ﴿بعد عامهم هذا﴾ فان تقييد النهى بذلك يدل على اختصاص المنهى عنه بوقت من أوقات العام أى لايحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسعة من الهجرة حين أمر أبو بكر رضى الله عنه على الموسم ويدل عليه قول على رضى الله عنه حين نادى ببراءة ألا لايحج بعد عامنا هذا مشرك ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عنده وعند الشافعى يمنعون من المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون من جميع المساجد ونهى المشركين أن يقربوه راجع الى نهى المسلمين عن تمكينهم من ذلك وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك ﴿وان خفتم عيلة﴾ أى فقرا بسبب منعهم من الحج وانقطاع ما كانوا يجلبونه اليكم من الارفاق والمكاسب وقرئ عائلة على أنها مصدر كالعافية أو حالا عائلة ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ من عطائه أو من تفضله بوجه آخر فأرسل الله تعالى السماء عليهم مدرارا أغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا الى مكة الطعام ومايعاش به فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه اليهم الناس من أقطار الارض ﴿ان شاء﴾ أن يغنيكم مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها وانما قيد ذلك بها لتنقطع الآمال الى الله تعالى ولان الاغناء ليس مطردا بحسب الافراد والاحوال والاوقات ﴿ان الله عليم﴾ بمصالحكم ﴿حكيم﴾ فيما يعطى ويمنع ﴿قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ أمرهم بقتال أهل الكتابين اثر أمرهم بقتال المشركين وبمنعهم من أن يحوموا حول ماكانوا يفعلونه من الحج والعمرة غير خائفين من الفاقة المتوهمة من انقطاعهم ونبههم فى تضاعيف ذلك على بعض طرق الاغناء الموعود على الوجه الكلى وأرشدهم الى سلوكه ابتغاء لفضله واستنجازا لوعده والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية ما فى حيز الصلة للامر بالقتال وباتتظامهم بسبب ذلك فى سلك المشركين فان اليهود مثنية والنصارى مثلثة فهم بمعزل من أن يؤمنوا بالله سبحانه ولا باليوم الآخر فان علمهم باحوال الآخرة كلا علم فايمانهم المبنى عليه ليس بايمان به ﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ أى ما ثبت تحريمه بالوحى متلوا أو غير متلو وقيل المراد برسوله الرسول الذى يزعمون اتباعه أى يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقادا وعملا ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ الثابت الذى هو ناسخ لسائر الأديان وهو دين الاسلام وقيل دين الله ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ من التوراة والانجيل فمن بيانية لا تبعيضية حتى يكون بعضهم على خلاف مانعت ﴿حتى يعطوا﴾ أى يقبلوا أن يعطوا ﴿الجزية﴾ أى ما تقرر عليهم أن يعطوه مشتق من جزى دينه أى قضاه أو لانهم يجزون بها من من عليهم بالاعفاء عن القتل ﴿عن يد﴾ حال من الضمير فى يعطوا أى عن يد مؤاتية مطيعة بمعنى منقادين أو من يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدى غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه أو عن غنى ولذلك لم تجب الجزية على الفقير العاجز أو عن

يد قاهرة عليهم أى بسبب يد بمعنى عاجزين أذلاء أو عن انعام عليهم فان ابقاء مهجتهم بما بذلوا من الجزية نعمة عظيمة عليهم أو من الجزية أى نقدا مسلمة عن يد الى يد وغاية القتال ليست نفس هذا الاعطاء بل قبوله كما أشير اليه ﴿وهم صاغرون﴾ أى أذلاء وذلك بأن يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ويؤخذ بتلبيبه ويقال له أد الجزية وان كان يؤديها وهى تؤخذ عند أبى حنيفة رضى الله عنه من أهل الكتاب مطلقا ومن مشرکى العجم لا من مشرکى العرب وعند أبى يوسف رضى الله عنه لا تؤخذ من العربى كتابيا كان أو مشركا وتؤخذ من الاعجمى كتابيا كان أو مشركا وعند الشافعى رضى الله عنه تؤخذ من أهل الكتاب عربيا أو عجميا ولا تؤخذ من أهل الاوثان مطلقا وذهب مالك والاوزاعى الى أنها تؤخذ من جميع الكفار وأما المجوس فقد اتفقت الصحابة رضى الله عنهم على أخذ الجزية منهم لقوله عليه الصلاة والسلام سنوا بهم سنة أهل الكتاب وروى عن على رضى الله عنه أنه كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد أسرى على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبيحتهم ومناكحتهم لقوله عليه الصلاة والسلام فى آخر مانقل من الحديث غير ناكحى نسائهم وآكلى ذبيحتهم ووقت الأخذ عند أبى حنيفة رضى الله عنه أول السنة وتسقط بالموت والاسلام ومقدارها على الفقير المعتمل اثنا عشر درهما وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهما وعلى الغنى ثمانية وأربعون درهما ولا جزية على فقير عاجز عن الكسب ولا على شيخ فان أو زمن أو صبى أو امرأة وعند الشافعى رضى الله عنه تؤخذ فى آخر السنة من كل واحد دينار غنيا كان أو فقيرا كان له كسب أو لم يكن ﴿وقالت اليهود﴾ جملة مبتدأة سيقت لتقرير مامر من عدم ايمان أهل الكتابين بالله سبحانه وانتظامهم بذلك فى سلك المشركين ﴿عزير ابن الله﴾ مبتدأ وخبر وقرئ بغير تنوين على أنه اسم أعجمى كعازر وعزار غير منصرف للعجمة والتعريف وأما تعليله بالتقاء الساكنين أو بجعل الابن وصفا على أن الخبر محذوف فتعسف مستغنى عنه قيل هو قول قدمائهم ثم انقطع فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولا عبرة بانكار اليهود وقيل قول بعض ممن كان بالمدينة . عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس منهم وهم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا ذلك وقيل قاله فنحاص بن عازوراء وهو الذى قال ان الله فقير ونحن أغنياء وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الانبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله تعالى عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم فخرج عزير وهو غلام يسيح فى الارض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له أين تذهب قال أطلب العلم فحفظه التوراة فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لايخرم حرفا فقالوا ماجمع الله التوراة فى صدره وهو غلام الا أنه ابنه قال الامام الكلبى لما قتل بخت نصر علماءهم جميعا وكان عزير اذ ذاك صغيرا فاستصغره ولم يقتله فلما رجع بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون آية بعد ما أماته مائة عام يقال انه أتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت فى صدره فلما أتاهم فقال لهم انى عزير كذبوه فقالوا ان كنت كما تزعم فأملى علينا التوراة ففعل فقالوا ان الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب رجل الا لأنه ابنه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فأنساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم ورفع التابوت فتضرع عزير الى الله تعالى وابتهل اليه فعاد حفظ التوراة الى قلبه فأنذر قومه به ثم ان التابوت نزل فعرضوا ماتلاه عزير على مافيه فوجدوه مثله فقالوا ماقالوا ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ هو أيضا قول بعضهم وانما قالوه استحالة لأن يكون ولد بغير أب أو لأن يفعل مافعله من ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى من لم يكن الها ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماصدر عنهم من العظيمتين ومافيه من معنى البعد للدلالة على بعد درجة المشار اليه فى الشناعة والفظاعة ﴿قولهم بأفواههم﴾ اما تأكيد لنسبة القول المذكور اليهم ونفى التجوز عنها أو اشعار بأنه قول مجرد

عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الموجود فى الافواه من غير أن يكون له مصداق فى الخارج ﴿يضاهئون﴾ أى فى الكفر والشناعة وقرئ بغير همز ﴿قول الذين كفروا﴾ أى يشابه قولهم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه عند انقلابه مرفوعا قول الذين كفروا ﴿من قبل﴾ أى من قبلهم وهم المشركون الذين يقولون الملائكة بنات الله أو اللات والعزى بنات الله لا قدماؤهم كما قيل اذ لا تعدد فى القول حتى يتأتى التشبيه وجعله بين قولى الفريقين مع اتحاد المقول ليس فيه مزيد مزية وقيل الضمير للنصارى أى يضاهى قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير ابن الله أقدم منهم وهو أيضا كما ترى فانه يستدعى اختصاص الرد والابطال بقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم بقول النصارى ﴿قاتلهم الله﴾ دعاء عليهم جميعا بالاهلاك فان من قاتله الله هلك أو تعجب من شناعة قولهم ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يصرفون من الحق الى الباطل والحال أنه لا سبيل اليه أصلا ﴿اتخذوا﴾ زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى ﴿أحبارهم﴾ وهم علماء اليهود واختلف فى واحده قال الاصمعى لا أدرى أهو حبر أم حبر وقال أبو الهيثم بالفتح لا غير وكان الليث وابن السكيت يقولان حبر وحبر للعالم ذميا كان أو مسلما بعد أن كان من أهل الكتاب ﴿ورهبانهم﴾ وهم علماء النصارى من أصحاب الصوامع أى اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم لا الكل الكل ﴿أربابا من دون الله﴾ بأن أطاعوهم فى تحريم ما أحله الله تعالى وتحليل ما حرمه أو بالسجود لهم ونحوه تسمية اتباع الشيطان عبادة له فى قوله تعالى يا أبت لا تعبد الشيطان وقوله تعالى بل كانوا يعبدون الجن . قال عدى بن حاتم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب وكان اذ ذاك على دين يسمى الركوسية فريق من النصارى وهو يقرأ سورة براءة فقال يا عدى اطرح هذا الوثن فطرحته فلما انتهى الى قوله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قلت يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه الصلاة والسلام أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه فقلت بلى قال فذلك عبادتهم قال الربيع قلت لأبى العالية كيف كانت تلك الربوبية فى بنى اسرائيل قال انهم ربما وجدوا فى كتاب الله تعالى ما يخالف أقوال الاحبار فكانوا يأخذون بأقوالهم ويتركون حكم كتاب الله ﴿والمسيح ابن مريم﴾ عطف على رهبانهم أى اتخذه النصارى ربا معبودا بعد ما قالوا انه ابنه تعالى عن ذلك علوا كبيرا وتخصيص الاتخاذ به يشير الى أن اليهود ما فعلوا ذلك بعزير وتأخيره فى الذكر مع أن اتخاذهم له عليه الصلاة والسلام ربا معبودا أقوى من مجرد الاطاعة فى أمر التحليل والتحريم كما هو المراد باتخاذهم الاحبار والرهبان أربابا لأنه مختص بالنصارى ونسبته عليه الصلاة والسلام الى أمه من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية للايذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة ﴿وما أمروا﴾ أى والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا فى كتابيهم ﴿الا ليعبدوا الها واحدا﴾ عظيم الشأن هو الله سبحانه وتعالى و يطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه فان ذلك مخل بعبادته تعالى فان جميع الكتب السماوية متفقة على ذلك قاطبة وقد قال المسيح عليه السلام انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وأما اطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر من أمر الله تعالى بطاعته فهى فى الحقيقة اطاعة لله عز وجل أو وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أربابا من المسيح والأحبار والرهبان الا ليوحدوا الله تعالى فكيف يصح أن يكونوا أربابا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم ولا يقدح فى ذلك كون ربوبية الأحبار والرهبان بطريق الاطاعة فان تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق الا بتخصيص الطاعة أيضا به تعالى وحيث لم يخصوها به تعالى لم يخصوا العبادة به سبحانه ﴿لا اله الا هو﴾ صفة ثانية لالها أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿سبحانه عما يشركون﴾ عن الاشراك به فى العبادة والطاعة ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله﴾ اطفاء النار عبارة عن ازالة لهبها الموجبة لزوال نورها لا عن ازالة نورها كما قيل لكن لما كان الغرض من اطفاء نار لا يراد

بها الا النور كالمصباح ازالة نورها جعل اطفاؤها عبارة عنها ثم شاع ذلك حتى كان عبارة عن مطلق ازالة النور وان كان لغير النار والسر فى ذلك انحصار امكان الازالة فى نورها والمراد بنور الله سبحانه اما حجته النيرة الدالة على وحدانيته وتنزهه عن الشركاء والأولاد أو القرآن العظيم الناطق بذلك أى يريد أهل الكتابين أن يردوا القرآن و يكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والأولاد والشرائع التى من جملتها ما خالفوه من أمر الحل والحرمة ﴿بأفواههم﴾ بأقاويلهم الباطلة الخارجة منها من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه أو أصل تستند اليه حسبما حكى عنهم وقيل المراد به نبوة النبى صلى الله عليه وسلم هذا وقد قيل مثلت حالهم فيما ذكر بحال من يريد طمس نور عظيم منبث فى الآفاق بنفخه ﴿و يأبى الله﴾ أى لا يريد ﴿الا أن يتم نوره﴾ باعلاء كلمة التوحيد واعزاز دين الاسلام وانما صح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه بمعنى النفى كما أشير اليه لوقوعه فى مقابلة قوله تعالى يريدون وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس فى نفى الارادة أى لا يريد شيئا من الأشياء الا اتمام نوره فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلا عن الاطفاء وفى اظهار النور فى مقام الاضمار مضافا الى ضميره عز وجل زيادة اعتناء بشأنه وتشريف له على تشريف واشعار بعلة الحكم ﴿ولو كره الكافرون﴾ جواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة قبلها مقدرة وكلتاهما فى موقع الحال أى لا يريد الله الا اتمام نوره لو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوه أى على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطرداً لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة لأن الشىء اذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذا السر يدور ما فى ان ولو الوصليتين من التأكيد وقد مر زيادة تحقيق لهذا مرارا ﴿هو الذى أرسل رسوله﴾ ملتبسا ﴿بالهدى﴾ أى القرآن الذى هو هدى للمتقين ﴿ودين الحق﴾ الثابت وهو دين الاسلام ﴿ليظهره﴾ أى رسوله ﴿على الدين كله﴾ أى على أهل الأديان كلهم أو ليظهر الدين الحق على سائر الأديان بنسخه اياها حسبما تقتضيه الحكمة والجملة بيان وتقرير لمضمون الجملة السابقة والكلام فى قوله عز وجل ﴿ولو كره المشركون﴾ كما فيما سبق خلا أن وصفهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول الى الكفر بالله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ شروع فى بيان حال الأحبار والرهبان فى اغوائهم لأراذلهم اثر بيان سوء حال الاتباع فى اتخاذهم لهم أربابا يطيعونهم فى الأوامر والنواهى واتباعهم لهم فيما يأتون وما يذرون ﴿ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ يأخذونها بطريق الرشوة لتغيير الأحكام والشرائع والتخفيف والمسامحة فيها وانما عبر عن ذلك بالأكل بناء على أنه معظم الغرض منه وتقبيحا لحالهم وتنفيراً للسامعين عنهم ﴿و يصدون﴾ الناس ﴿عن سبيل الله﴾ عن دين الاسلام أو عن المسلك المقرر فى التوراة والانجيل الى ما افتروه وحرفوه بأخذ الرشا أو يصدون عنه بأنفسهم بأكلهم الأموال بالباطل ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ أى يجمعونهما و يحفظونهما سواء كان ذلك بالدفن أو بوجه آخر والموصول عبارة اما عن الكثير من الأحبار والرهبان فيكون مبالغة فى الوصف بالحرص والضن بهما بعد وصفهم بما سبق من أخذ الرشا والبراطيل فى الأباطيل واما عن المسلمين الكانزين غير المنفقين وهو الأنسب بقوله عز وجل ﴿ولا ينفقونها فى سبيل الله﴾ فيكون نظمهم فى قرن المرتشين من أهل الكتاب تغليظا ودلالة على كونهم أسوة لهم فى استحقاق البشارة بالعذاب الأليم فالمراد بالانفاق فى سبيل الله الزكاة لما روى أنه لما نزل كبر ذلك على المسلمين فذكر عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تعالى لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ولقوله عليه الصلاة والسلام ما أدى زكاته فليس بكنز أى بكنز أوعد عليه فان الوعيد عليه مع عدم الانفاق فيما أمر الله بالانفاق فيه وأما قوله عليه الصلاة والسلام من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها

ونحوه فالمراد بها مالم يؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام مامن صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ خبر للموصول والفاء لتضمنه معنى الشرط ويجوز أن يكون الموصول منصوبا بفعل يفسره فبشرهم ﴿يوم﴾ منصوب بعذاب أليم أو بمضمر يدل عليه ذلك أى يعذبون أو باذكر ﴿يحمى عليها فى نار جهنم﴾ أى يوم توقد النار ذات حمى شديد عليها وأصله تحمى النار فجعل الاحماء للنار مبالغة ثم حذفت النار وأسند الفعل الى الجار والمجرور تنبيها على المقصود فانتقل من صيغة التأنيث الى التذكير كما تقول رفعت القصة الى الأمير فان طرحت القصة قلت رفع الى الأمير وانما قيل عليها والمذكور شيآن لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة كما قال على رضى الله عنه أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز وكذا الكلام فى قوله تعالى ولا ينفقونها وقيل الضمير للاموال والكنوز فان الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لأنهما قانون التمول أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب كذلك بل أولى ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ لأن جمعهم لها وامساكهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية أو لأنهم ازوروا عن السائل وأعرضوا عنه ولووه ظهورهم أو لأنها أشرف الاعضاء الظاهرة فانها المشتملة على الاعضاء الرئيسة التى هى الدماغ والقلب والكبد أو لانها أصول الجهات الاربعة التى هى مقاديم البدن وما آخره وجنباه ﴿هذا ما كنزتم﴾ على ارادة القول ﴿لأنفسكم﴾ لمنفعتها فكان عين مضرتها وسبب تعذيبها ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أى وبال كنزكم أو ماتكنزونه وقرئ بضم النون ﴿ان عدة الشهور﴾ أى عددها ﴿عند الله﴾ أى فى حكمه وهو معمول لها لانها مصدر ﴿اثنا عشر﴾ خبر لان ﴿شهرا﴾ تمييز مؤكد كما فى قولك عندى من الدنانير عشرون دينارا والمراد الشهور القمرية اذ عليها يدور فلك الاحكام الشرعية ﴿فى كتاب الله﴾ فى اللوح المحفوظ أو فيما أثبته وأوجبه وهو صفة اثنا عشر أى اثنا عشر شهرا مثبتا فى كتاب الله وقوله عز وجل ﴿يوم خلق السموات والارض﴾ متعلق بما فى الجار والمجرور من معنى الاستقرار أو بالكتاب على أنه مصدر والمعنى ان هذا أمر ثابت فى نفس الامر منذ خلق الله تعالى الاجرام والحركات والازمنة ﴿منها﴾ أى من تلك الشهور الاثنى عشر ﴿أربعة حرم﴾ هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان والمعنى رجعت الاشهر الى ما كانت عليه من الحل والحرمة وعاد الحج الى ذى الحجة بعد ما كانوا أزالوه عن محله بالنسىء الذى أحدثوه فى الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة ﴿ذلك﴾ أى تحريم الاشهر الاربعة المعينة المعدودة وما فى ذلك من معنى البعد لتفخيم المشار اليه هو ﴿الدين القيم﴾ المستقيم دين ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وكانت العرب قد تمسكت به ورائة منهما وكانوا يعظمون الاشهر الحرم ويكرهون القتال فيها حتى أنه لو لقى رجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه وسموا رجبا الاصم ومنصل الأسنة حتى أحدثوا النسىء فغيروا ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرم فيهن والجمهور على أن حرمة القتال فيهن منسوخة وأن الظلم ارتكاب المعاصى فيهن فانه أعظم وزرا كارتكابها فى الحرم وعن عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الاشهر الحرم الا أن يقاتلوا وما نسخت ويؤيد الاول أنه عليه الصلاة والسلام حصر طائفا وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ أى جميعا وهو مصدر كف عن الشىء فان الجميع مكفوف عن الزيادة وقع موقع الحال ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾

أى معكم بالنصر والامداد فيما تباشرونه من القتال وانما وضع المظهر موضعه مدحا لهم بالتقوى وحثا للقاصرين عليه وايذانا بأنه المدار فى النصر وقيل هى بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم ﴿انما النسىء﴾ هو مصدر نسأه اذا أخره نسأ ونساء ونسيئا نحو مس مسا ومساسا ومسيسا وقرئ بهن جميعا وقرئ بقلب الهمزة ياء وتشديد الياء الاولى فيها كانوا اذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر حتى رفضوا خصوص الاشهر واعتبروا مجرد العدد وربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حرما ولذلك نص على العدد المعين فى الكتاب والسنة أى انما تأخير حرمة شهر الى شهر آخر ﴿زيادة فى الكفر﴾ لأنه تحليل ما حرمه الله وتحريم ما حلله فهو كفر آخر مضموم الى كفرهم ﴿يضل به الذين كفروا﴾ ضلالا على ضلالهم القديم وقرئ على البناء للفاعل من الافعال على أن الفعل لله سبحانه أى يخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه وأسبابه وهو المعنى على القراءة الأولى أيضا وقيل المضلون حينئذ رؤساؤهم والموصول عبارة عن أتباعهم وقرئ يضل بفتح الياء والضاد من ضل يضل ونضل بنون العظمة ﴿يحلونه﴾ أى الشهر المؤخر ﴿عاما﴾ من الاعوام ويحرمون مكانه شهرا آخر مما ليس بحرام ﴿ويحرمونه﴾ أى يحافظون على حرمته كما كانت والتعبير عن ذلك بالتحريم باعتبار احلالهم له فى العام الماضى أو لاسنادهم له الى آلهتهم كما سيجىء ﴿عاما﴾ آخر اذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم قال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان اذا هم الناس بالصدر من الموسم يقوم فيخطب ويقول لا مرد لما قضيت وأنا الذى لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيقول ان صفر العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة وان قال حلال عقدوا الأوتار وشدوا الأزجة وأغاروا وقيل هو جنادة بن عوف الكنانى وكان مطاعا فى الجاهلية كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى بأعلى صوته ان آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ثم يقوم فى العام القابل فيقول ان آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه وقيل هو رجل من كنانة يقال له القلمس قال قائلهم ومنا ناسىء الشهر القلمس وعن ابن عباس رضى الله عنهما أول من سن النسىء عمر بن لحى بن قمعة بن خندف والجملتان تفسير للضلال أو حال من الموصول والعامل عامله ﴿ليواطئوا﴾ أى ليوافقوا ﴿عدة ما حرم الله﴾ من الاشهر الاربعة واللام متعلقة بالفعل الثانى أو بما يدل عليه مجموع الفعلين ﴿فيحلوا ما حرم الله﴾ بخصوصه من الأشهر المعينة ﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ وقرئ على البناء للفاعل وهو الله سبحانه والمعنى جعل أعمالهم مشتهاة للطبع محبوبة للنفس وقيل خذلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا فاستمروا على ذلك ﴿والله لا يهدى القوم الكافرين﴾ هداية موصلة الى المطلوب البتة وانما يهديهم الى ما يوصل اليه عند سلوكه وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم فتاهوا فى تيه الضلال ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ رجوع الى حث المؤمنين وتحريد عزائمهم على قتال الكفرة اثر بيان طرف من قبائحهم الموجبة لذلك ﴿ما لكم﴾ استفهام فيه معنى الانكار والتوبيخ ﴿اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم﴾ تباطأتم وتقاعستم أصله تثاقلتم وقد قرئ كذلك أى أى شىء حصل أو حاصل لكم أو ما تصنعون حين قال لكم النبى صلى الله عليه وسلم انفروا أى اخرجوا الى الغزو فى سبيل الله متثاقلين على أن الفعل ماض لفظا مضارع معنى كأنه قيل تتثاقلون فالعامل فى الظرف الاستقرار المقدر فى لكم أو معنى الفعل المدلول عليه بذلك ويجوز أن يعمل فيه الحال أى مالكم متثاقلين حين قيل لكم انفروا وقرئ أثاقلتم على الاستفهام الانكارى التوبيخى فالعامل فى الظرف حينئذ انما هو الاول ﴿الى الأرض﴾ متعلق باثاقلتم على تضمينه معنى الميل والاخلاد أى اثاقلتم مائلين الى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل وكرهتم مشاق الغزو ومتاعبه المستتبعة للراحة الخالدة كقوله تعالى

أخلد الى الارض واتبع هواه أو الى الاقامة بأرضكم وديارکم وكان ذلك فى غزوة تبوك فى سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف استنفروا فى وقت عسرة وقحط وقيظ وقد أدركت ثمار المدينة وطابت ظلالها مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك وقيل ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها الا ورى بغيرها الا فى غزوة تبوك فانه عليه الصلاة والسلام بين لهم المقصد فيها ليستعدوا لها ﴿أرضيتم بالحيوة الدنيا﴾ وغرورها ﴿من الآخرة﴾ أى بدل الآخرة ونعيمها الدائم ﴿فما متاع الحيوة الدنيا﴾ أظهر فى مقام الاضمار لزيادة التقرير أى فما التمتع بها وبلذائذها ﴿فى الآخرة﴾ أى فى جنب الآخرة ﴿الا قليل﴾ أى مستحقر لا يؤبه له وفى ترشيح الحياة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ويستدعى الرغبة فيها وتجريد الآخرة عن مثل ذلك مبالغة فى بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة وعلوها ﴿الا تنفروا﴾ أى ان لا تنفروا الى ما استنفرتم اليه ﴿يعذبكم﴾ أى الله عز وجل ﴿عذابا أليما﴾ أى يهلككم بسبب فظيع هائل كقحط ونحوه ﴿ويستبدل﴾ بكم بعدا هلاككم ﴿قوما غيركم﴾ وصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد فى التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية المستلزمة للاستئصال أى قوما مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا ليسوا من أولادكم ولا أرحامكم كأهل اليمن وأبناء فارس وفيه من الدلالة على شدة السخط مالا يخفى ﴿ولا تضروه شيئا﴾ أى لا يقدح تثاقلكم فى نصرة دينه أصلا فانه الغنى عن كل شىء فى كل شىء وقيل الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم فان الله عز وجل وعده بالعصمة والنصرة وكان وعده مفعولا لامحالة ﴿والله على كل شىء قدير﴾ فيقدر على اهلاككم والاتيان بقوم آخرين ﴿الا تنصروه فقد نصره الله﴾ أى ان لم تنصروه فسينصره الله الذى قد نصره فى وقت ضرورة أشد من هذه المرة فحذف الجزاء وأقيم سببه مقامه أو ان لم تنصروه فقد أوجب له النصرة حتى نصره فى مثل ذلك الوقت فلن يخذله فى غيره ﴿اذ أخرجه الذين كفروا﴾ أى تسببوا لخروجه حيث أذلوه عليه الصلاة والسلام فى ذلك حين هموا باخراجه ﴿ثانى اثنين﴾ حال من ضميره عليه الصلاة والسلام وقرىء بسكون الياء على لغة من يجرى الناقص مجرى المقصور فى الاعراب أى أحد اثنين من غير اعتبار كونه عليه الصلاة والسلام ثانيا فان معنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الاعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع الجمهور أن ينصب مابعده بأن يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة وقدمر فى قوله تعالى لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة من سورة المائدة وجعله عليه الصلاة والسلام ثانيهما لمشى الصديق أمامه ودخوله فى الغار أولا لكنسه وتسوية البساط كما ذكر فى الاخبار تمحل مستغنى عنه ﴿اذ هما فى الغار﴾ بدل من اذ أخرجه بدل البعض اذ المراد به زمان متسع والغار ثقب فى أعلى ثور وهو جبل فى يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثا ﴿اذ يقول﴾ بدل ثان أو ظرف لثانى ﴿لصاحبه﴾ أى الصديق ﴿لا تحزن ان الله معنا﴾ بالعون والعصمة والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لا تحوم حول صاحبها شائبة شىء من الحزن وماهو المشهور من اختصاص مع بالمتبوع فالمراد بما فيه من المتبوعية هو المتبوعية فى الأمر المباشر روى أن المشركين طلعوا فوق الغار فاشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان نصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه الصلاة والسلام ماظنك باثنين الله ثالثهما وقيل لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا فى أسفله والعنكبوت فنسجت عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله تعالى أبصارهم عنه وفيه من الدلالة على علو طبقة الصديق رضى الله عنه وسابقة صحبته مالا يخفى ولذلك قالوا من أنكر صحبة أبى بكر رضى الله عنه فقد كفر لانكاره كلام الله سبحانه وتعالى ﴿فأنزل الله سكينته﴾ أمنته التى تسكن عندها القلوب ﴿عليه﴾ على النبى صلى الله عليه وسلم فالمراد بها مالا يحوم حوله شائبة الخوف

أصلا أو على صاحبه اذ هو المنزعج وأما النبى صلى الله عليه وسلم فكان على طمأنينة من أمره ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ عطف على نصره الله والجنود هم الملائكة النازلون يوم بدر والاحزاب وحنين وقيل هم الملائكة أنزلهم الله ليحرسوه فى الغار ويأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم وقوله عز وعلا ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ يعنى الشرك أو دعوة الكفر فان ذلك الجعل لا يتحقق بمجرد الانجاء بل بالقتل والاسر ونحو ذلك ﴿وكلمة الله﴾ أى التوحيد أو دعوة الاسلام ﴿هى العليا﴾ لايدانيها شىء وتغيير الاسلوب للدلالة على أنها فى نفسها كذلك لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها دون غيرها من الكلم ولذلك وسط ضمير الفصل وقرىء بالنصب عطفا على كلمة الذين ﴿والله عزيز﴾ لا يغالب ﴿حكيم﴾ فى حكمه وتدبيره ﴿انفروا﴾ تجريد للامر بالنفور بعد التوبيخ على تركه والانكار على المساهلة فيه وقوله تعالى ﴿خفافا وثقالا﴾ حالان من ضمير المخاطبين أى على أى حال كان من يسر وعسر حاصلين بأى سبب كان من الصحة والمرض أو الغنى والفقر أو قلة العيال وكثرتهم أو غير ذلك مما ينتظمه مساعدة الاسباب وعدمها بعد الامكان والقدرة فى الجملة وماذكر فى تفسيرهما من قولهم خفافا لقلة عيالكم وثقالا لكثرتها أو خفافا من السلاح وثقالا منه أو ركبانا ومشاة أو شبانا وشيوخا أو مهازيل وسمانا أو صحاحا ومراضا ليس لتخصيص الأمرين المتقابلين بالارادة من غير مقارنة للباقى وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلى أن أنفر قال عليه الصلاة والسلام نعم حتى نزل ليس على الأعمى حرج . وعن ابن عباس رضى الله عنهما نسخت بقوله عز وجل ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله﴾ ايجاب للجهاد بهما ان أمكن وبأحدهما عند امكانه واعواز الآخر حتى ان من ساعده النفس والمال يجاهد بهما ومن ساعده المال دون النفس يغزى مكانه من حاله على عكس حاله الى هذا ذهب كثير من العلماء وقيل هو ايجاب للقسم الاول فقط ﴿ذلكم﴾ أى ماذكر من النفير والجهاد ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الشرف ﴿خير لكم﴾ أى خير عظيم فى نفسه أو خير مما يبتغى بتركه من الراحة والدعة وسعة العيش والتمتع بالاموال والاولاد ﴿ان كنتم تعلمون﴾ أى تعلمون الخير علمتم أنه خير أو ان كنتم تعلمون أنه خير اذ لا احتمال لغير الصدق فى أخبار الله تعالى فبادروا اليه ﴿لو كان﴾ صرف للخطاب عنهم وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعديدا لما صدر عنهم من الهنات قولا وفعلا على طريق المباثة وبياناً لدناءة هممهم وسائر رذائلهم أى لو كان مادعوا اليه ﴿عرضا قريبا﴾ العرض ماعرض لك من منافع الدنيا أى لو كان ذلك غنما سهل المأخذ قريب المنال ﴿وسفرا قاصدا﴾ ذا قصد بين القريب والبعيد ﴿لاتبعوك﴾ فى النفير طمعا فى الفوز بالغنيمة وتعليق الاتباع بكلا الأمرين يدل على عدم تحققه عند توسط السفر فقط ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أى المسافة الشاطة الشاقة التى تقطع بمشقة وقرىء بكسر العين والشين ﴿وسيحلفون﴾ أى المتخلفون عن الغزو وقوله تعالى ﴿بالله﴾ اما متعلق بسيحلفون أو هو من جملة كلامهم والقول مراد على الوجهين أى سيحلفون بالله اعتذارا عند قفولك قائلين ﴿لو استطعنا﴾ أو سيحلفون قائلين بالله لو استطعنا الخ أى لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتهما جميعا حسبما عن لهم من الكذب والتعلل وعلى كلا التقديرين فقوله تعالى ﴿لخرجنا معكم﴾ سادمسد جوابى القسم والشرط جميعا أما على الثانى فظاهر وأما على الاول فلان قولهم لو استطعنا فى قوة بالله لو استطعنا لأنه بيان لقوله تعالى سيحلفون بالله وتصديق له والاخبار بما سيكون منهم بعد القفول وقد وقع حسبما أخبر به من جملة المعجزات الباهرة وقرىء لو استطعنا بضم الواو تشبيها لها بواو الجمع كما فى قوله عز وجل فتمنوا الموت ﴿يهلكون أنفسهم﴾ بدل من سيحلفون لان الحلف الكاذب اهلاك للنفس ولذلك قال عليه الصلاة والسلام اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع

أو حال من فاعله أى مهلكين أنفسهم أو من فاعل خرجنا جىء به على طريقة الاخبار عنهم كأنه قيل نهلك أنفسنا أى لخرجنامعكم مهلكين أنفسنا كما فى قولك حلف ليفعلن مكان لأفعلن ﴿والله يعلم انهم لكاذبون﴾ أى فى مضمون الشرطية وفيما ادعوا ضمنا من انتفاء تحقق المقدم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا ﴿عفا الله عنك﴾ صريح فى أنه سبحانه وتعالى قد عفا عنه عليه الصلاة والسلام ماوقع منه عند استئذان المتخلفين فى التخلف معتذرين بعدم الاستطاعة واذنه اعتمادا على أيمانهم ومواثيقهم لخلوها عن المزاحم من ترك الأولى والأفضل الذى هو التأنى والتوقف الى انجلاء الأمر وانكشاف الحال وقوله عزوجل ﴿لم أذنت لهم﴾ أى لاى سبب أذنت لهم فى التخلف حين اعتلوابعللهم بيان لما أشير اليه بالعفو من ترك الأولى واشارة الى أنه ينبغى أن تكون أموره عليه الصلاة والسلام منوطة بأسباب قوية موجبة لها أومصححة وأنما أبروزه فى معرض التعلل والاعتذار مشفوعا بالأيمان كان بمعزل من كونه سببا للاذن قبل ظهور صدقه وكلتا اللامين متعلقة بالاذن لاختلافهما فى المعنى فان الأولى للتعليل والثانية للتبليغ والضمير المجرور لجميع المستأذنين وتوجه الانكار الى الاذن باعتبار شموله للكل لاباعتبار تعلقه بكل فرد فرد لتحقق عدم استطاعة بعضهم كما ينبىء عنه قوله سبحانه ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ أى فيما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة من جهة المال أومن جهة البدن أومن جهتهما معاحسبما عن لهم هناك ﴿وتعلم الكاذبين﴾ فى ذلك فتعامل كلا من الفريقين بما يستحقه وهو بيان لذلك الأولى الأفضل وتحضيض له عليه الصلاة والسلام عليه فان كلمة حتى سواء كانت بمعنى اللام أو بمعنى الى لا يمكن تعلقها بقوله تعالى لم أذنت لاستلزامه أن يكون اذنه عليه الصلاة والسلام لهم معللا أومغيا بالتبين والعلم ويكون توجه الاستفهام اليه من تلك الحيثية وذلك بين الفساد بل يدل عليه ذلك كأنه قيل لم سارعت الى الاذن لهم وهلا تأنيت حتى ينجلى الأمر كما هو قضية الحزم. قال قتادة وعمرو بن ميمون اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشىء اذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الاسارى فعاتبه الله تعالى كما تسمعون وتغيير الاسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول الذى صلته فعل دال على الحدوث وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام للايذان بأن ماظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين وأن ماصدر من الآخرين وان كان كذبا حادثا متعلقا بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ناشىء عن رسوخهم فى الكذب والتعبير عن ظهور الصدق بالتبين وعما يتعلق بالكذب بالعلم لما هو المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلى فظهور صدقه انما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه بعد ما كان محتملا له احتمالا عقليا وأما كذبه فأمر حادث لادلالة للخبر عليه فى الجملة حتى يكون ظهوره تبينا له بل هو نقيض لمدلوله فما يتعلق به يكون علما مستأنفا واسناده الى ضميره عليه الصلاة والسلام لا الى المعلومين ببناء الفعل للمفعول مع اسناد التبين الى الأولين لما أن المقصود هنا علمه عليه الصلاة والسلام بهم ومؤاخذتهم بموجبه بخلاف الأولين حيث لا مؤاخذة عليهم ومن لم يتنبه لهذا قال حتى يتبين لك من صدق فى عذره ممن كذب فيه واسناد التبين الى الأولين وتعليق العلم بالآخرين مع أن مدار الاسناد والتعلق أولا وبالذات هو وصف الصدق والكذب كما أشير اليه لما أن المقصد هو العلم بكلا الفريقين باعتبار اتصافهما بوصفيهما المذكورين ومعاملتهما بحسب استحقاقهما لا العلم بوصفيهما بذاتيهما أو باعتبار قيامهما بموصوفيهما هذا وفى تصدير فاتحة الخطاب ببشارة العفو دون مايوهم العتاب من مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام وتعهده بحسن المفاوضة ولطف المراجعة مالا يخفى على أولى الالباب. قال سفيان بن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو ولقد أخطأ وأساء الأدب وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية وأن معناه أخطأت وبئسما فعلت هب أنه كناية أليس ايثارها على التصريح

بالجناية للتلطيف فى الخطاب والتخفيف فى العتاب وهب أن العفو مستلزم للخطأ فهل هو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة بحيث يصح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء أو يسوغ انشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح الى رتبة يتعجب منها ولا يخفى أنه لم يكن فى خروجهم مصلحة للدين أو منفعة للمسلمين بل كان فيه فساد وخبال حسبما نطق به قوله عز وجل لو خرجوا الخ وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى ولكن كره الله انبعاثهم الآية. نعم كان الأولى تأخير الاذن حتى يظهر كذبهم آثر ذى أثير ويفتضحوا على رؤس الاشهاد ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم بأنهم غروه عليه الصلاة والسلام وأرضوه بالاكاذيب على أنه لم يهنأ لهم عيش ولا قرت لهم عين اذ لم يكونوا على أمن واطمئنان بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ تنبيه على أنه كان ينبغى أن يستدل باستئذانهم على حالهم ولا يؤذن لهم أى ليس من عادة المؤمنين أى يستأذنوك فى ﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ وأن الخلص منهم يبادرون اليه من غير توقف على الاذن فضلا عن أن يستأذنوك فى التخلف وحيث استأذنك هؤلاء فى التخلف كان ذلك مئنة للتأنى فى أمرهم بل دليلا على نفاقهم وقيل المستأذن فيه محذوف ومعنى قوله تعالى أن يجاهدوا كراهة أن يجاهدوا ثم قيل المحذوف هو التخلف والمعنى لا يستأذنك المؤمنون فى التخلف كراهة الجهاد فيتوجه النفى الى القيد وبه يمتاز المؤمن من المنافق وهو وان كان فى نفسه أمرا خفيا لا يوقف عليه بادىء الأمر لكن عامة أحوالهم لما كانت منبئة عن ذلك جعل أمرا ظاهرا مقررا وقيل هو الجهاد أى لا يستأذنك المؤمنون فى الجهاد كراهة أن يجاهدوا بناء على أن الاستئذان فى الجهاد ربما يكون لكراهته ولا يخفى أن الاستئذان فى الشىء لكراهته مما لا يقع بل لا يعقل ولو سلم وقوعه فالاستئذان لعلة الكراهة مما لا يمتاز بحسب الظاهر من الاستئذان لعلة الرغبة ولو سلم فالذى نفى عن المؤمنين يجب أن يثبت للمنافقين وظاهر أنهم لم يستأذنوا فى الجهاد لكراهتهم له بل انما استأذنوا فى التخلف ﴿والله عليم بالمتقين﴾ شهادة لهم بالانتظام فى سلك المتقين وعدة لهم بأجزل الثواب وتقرير لمضمون ماسبق كأنه قيل والله عليم بأنهم كذلك واشعار بأن ماصدر عنهم معلل بالتقوى ﴿انما يستأذنك﴾ أى فى التخلف مطلقا على الأول أو لكراهة الجهاد على الثانى ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ تخصيص الايمان بهما فى الموضعين للايذان بأن الباعث على الجهاد ببذل النفس والمال انما هو الايمان بهما اذ به يتسنى للمؤمنين استبدال الحياة الأبدية والنعيم المقيم الخالد بالحياة الفانية والمتاع الكاسد ﴿وارتابت قلوبهم﴾ عطف على الصلة وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الريب وتقرره ﴿فهم﴾ حال كونهم ﴿فى ريبهم﴾ وشكهم المستقر فى قلوبهم ﴿يترددون﴾ أى يتحيرون فان التردد ديدن المتحير كما أن الثبات ديدن المستبصر والتعبير عنه بما لا يخفى حسن موقعه ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ يدل على أن بعضهم قالوا عند الاعتذار كنا نريد الخروج لكن لم تهيأله وقد قرب الرحيل بحيث لا يمكننا الاستعداد فقيل تكذيبا لهم لو أرادوه ﴿لأعدوا له﴾ أى للخروج فى وقته ﴿عدة﴾ أى أهبة من الزاد والراحلة والسلاح وغير ذلك مما لا بد منه للسفر وقرىء عده بحذف التاء والاضافة الى ضمير الخروج كما فعل بالعدة من قال وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا أى عدته وقرىء عده بكسر العين وعدة بالاضافة ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أى نهوضهم للخروج. قيل هو استدراك عما يفهم من مقدم الشرطية فان انتفاء ارادتهم للخروج يستلزم انتفاء خروجهم وكراهة الله تعالى انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج فكأنه قيل ماخرجوا ولكن تثبطوا والاتفاق فى المعنى لا يمنع الوقوع بين طرفى لكن بعد تحقق الاختلاف نفيا واثباتا فى اللفظ كقولك ماأحسن الى زيد ولكن أساء والأظهر أن يكون استدراكا من نفس المقدم على نهج مافى الأقيسة الاستثنائية والمعنى لو أرادوا

الخروج لاعدواله عدة ولكن ماأرادوه لما أنه تعالى كره انبعاثهم لما فيه من المفاسد التى ستبين ﴿فثبطهم﴾ أى حبسهم بالجبن والكسل فتثبطواعنه ولم يستعدوا له ﴿وقيل اقعدوامع القاعدين﴾ تمثيل لالقاء الله تعالى كراهة الخروج فى قلوبهم أو لوسوسة الشيطان بالأمر بالقعود أو هو حكاية قول بعضهم لبعض أو هو اذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم فى القعود والمراد بالقاعدين اما المعذورون أو غيرهم وأيا ماكان فغير خال عن الذم ﴿لوخرجوا فيكم﴾ بيان لسر كراهته تعالى لانبعاثهم أى لوخرجوا مخالطين لكم ﴿ما زادوكم﴾ أى ماأورثوكم شيئاًمن الأشياء ﴿الاخبالا﴾ أى فساداً وشراً فالاستثناء مفرغ متصل وقيل منقطع وليس بذلك ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ أى ولسعوا فيما بينكم بالنمائم والتضريب وافساد ذات البين من وضع البعير وضعا اذا أسرع وأوضعته أنا أى حملته على الاسراع والمعنى لأوضعوا ركائبهم بينكم والمرادبه المبالغة فى الاسراع بالنمائم لأن الراكب أسرع من الماشى وقرئ ولأرقصوا من رقصت الناقة أسرعت وأرقصتها أنا وقرئ ولأوفضوا أى أسرعوا ﴿يبغونكم الفتنة﴾ يحاولون أن يفتنوكم بايقاع الخلاف فيما بينكم والقاء الرعب فى قلوبكم وافساد نياتكم والجملة حال من ضمير أوضعوا أو استئناف ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أى نمامون يسمعون حديثكم لأجل نقله اليهم أوفيكم قوم ضعفة يسمعون للمنافقين أى يطيعونهم والجملة حال من مفعول يبغونكم أو من فاعله لاشتمالها على ضميريهما أو مستأنفة ولعلهم لم يكونوا فى كمية العددو كيفية الفساد بحيث يخل مكانهم فيما بين المؤمنين بأمر الجهاد اخلالا عظيما ولم يكن فساد خروجهم معادلا لمنفعته ولذلك لم تقتض الحكمة عدم خروجهم فخرجوا مع المؤمنين ولكن حيث كان انضمام المنافقين القاعدين اليهم مستتبعا لخلل كلى كره الله انبعاثهم فلم يتسن اجتماعهم فاندفع فسادهم ووجه العتاب على الاذن فى قعودهم مع تقرره لاستحالة وتضمن خروجهم لهذه المفاسد أنهم لو قعدوا بغير اذن منه عليه الصلاة والسلام لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الأمر ولم يقدروا على مخالطتهم والسعى فيما بينهم بالأراجيف ولم يتسن لهم التمتع بالعيش الى أن يظهر حالهم بقوارع الآيات النازلة ﴿والله عليم بالظالمين﴾ علما محيطاً بضمائرهم وظواهرهم وما فعلوا فيما مضى وما يتأتى منهم فيما سيأتى ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد فى الوعيد والاشعاربترتبه على الظلم ولعله شامل للفريقين السماعين والقاعدين ﴿لقد ابتغوا الفتنة﴾ تشتيت شملك وتفريق أصحابك منك ﴿من قبل﴾ أى يوم أحد حين انصرف عبد الله بن أبى بن سلول المنافق بمن معه وقد تخلف بمن معه عن تبوك أيضا بعد ماخرج مع النبى صلى الله عليه وسلم الى ذى جدة أسفل من ثنية الوداع وعن ابن جريج رضى الله عنه وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلا من المنافقين ليفتكوا به عليه الصلاة والسلام فردهم الله تعالى خاسئين ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ تقليب الأمر تصريفه من وجه الى وجه وترديده لأجل التدبير والاجتهاد فى المكر والحيلة يقال للرجل المتصرف فى وجوه الحيل حول وقلب أى اجتهدوا ودبروا لك الحيل والمكايد ودوّروا الآراء فى ابطال أمرك وقرئ بالتخفيف ﴿حتى جاء الحق﴾ أى النصر والتأييد الالهى ﴿وظهر أمر الله﴾ غلب دينه وعلا شرعه ﴿وهم كارهون﴾ والحال أنهم كارهون لذلك أى على رغم منهم والآيتان لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيان مائبطهم الله تعالى لاجله وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وازاحة أعذارهم تداركا لما عسى يفوت بالمبادرة الى الاذن وايذانا بأن مافات بها ليس مما لايمكن تلافيه تهوينا للخطب ﴿ومنهم من يقول ائذن لى﴾ فى القعود ﴿ولا تفتنى﴾ أى لاتوقعنى فى الفتنة وهى المعصية والاثم يريد انى متخلف لاستحالة أذنت أولم تأذن فائذن لى حتى لاأقع فى المعصية بالمخالفة أو لا تلقنى فى الهلكة فانى ان خرجت معك هلك مالى وعيالى لعدم من يقوم بمصالحهم

وقيل قال الجد بن قيس قد علمت الانصار أنى مشتهر بالنساء فلا تفتنى ببنات الاصفر يعنى نساء الروم ولكن أعينك بمالى فاتركنى وقرئ ولا تفتنى من أفتنه بمعنى فتنه ﴿ألافى الفتنة﴾ أى فى عينها ونفسها وأكمل أفرادها الغنى عن الوصف بالكمال الحقيق باختصاص اسم الجنس به ﴿سقطوا﴾ لافى شئ مغاير لها فضلا عن أن يكون مهربا ومخلصا عنها وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف والجراءة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة ومن القعود بالاذن المبنى عليه وعلى الاعتذارات الكاذبة وقرئ بافراد الفعل محافظة على لفظ من وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه مع تقديم الظرف ايذان بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة زعما منهم أن الفتنة انما هى التخلف بغير اذن وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم فى دركات الردى أسفل سافلين وقوله عزوجل ﴿وان جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ وعيد لهم على مافعلوا معطوف على الجملة السابقة داخل تحت التنبيه أى جامعة لهم يوم القيامة من كل جانب وايثار الجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار أومحيطة بهم الآن تنزيلا لشئ سيقع عن قريب منزلة الواقع أو وضعا لاسباب الشئ موضعه فان مبادى احاطة النار بهم من الكفر والمعاصى محيطة بهم الآن من جميع الجوانب ومن جملتها مافروا منه وما سقطوا فيه من الفتنة وقيل تلك المبادى المتشكلة بصور الاعمال والاخلاق هى النار بعينها ولكن لايظهر ذلك فى هذه النشأة وانما يظهر عند تشكلها بصورها الحقيقية فى النشأة الآخرة والمراد بالكافرين اما المنافقون وايثاروضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر والاشعار بأنه معظم أسباب الاحاطة المذكورة واما جميع الكافرين الشاملين للمنافقين شمولا أوليا ﴿ان تصبك﴾ فى بعض مغازيك ﴿حسنة﴾ من الظفر والغنيمة ﴿تسؤهم﴾ تلك الحسنة أى تورثهم مساءة لفرط حسدهم وعداوتهم لك ﴿وان تصبك﴾ فى بعضها ﴿مصيبة﴾ من نوع شدة ﴿يقولوا﴾ متبجحين بما صنعوا حامدين لآرائهم ﴿قد أخذنا أمرنا﴾ أى تلافينا ما يهمنا من الامر يعنون به الاعتزال عن المسلمين والقعود عن الحرب والمداراة مع الكفرة وغير ذلك من أمور الكفر والنفاق قولا وفعلا ﴿من قبل﴾ أى من قبل اصابة المصيبة فى وقت تداركه يشيرون بذلك الى أن المعاملة المذكورة انما تروج عند الكفرة بوقوعها حال قوة الاسلام لا بعد اصابة المصيبة ﴿ويتولوا﴾ عن مجلس الاجتماع والتحدث الى أهاليهم أو يعرضوا عن النبى صلى الله عليه وسلم ﴿وهم فرحون﴾ بما صنعوا من أخذ الامر وبما أصابه عليه الصلاة والسلام والجملة حال من الضمير فى يقولوا ويتولوا لا فى الاخير فقط لمقارنة الفرح لهما معا وايثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام السرور واسناد المساءة الى الحسنة والمسرة الى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال وان تصبك مصيبة تسررهم للايذان باختلاف حاليهم حالتى عروض المساءة والمسرة بأنهم فى الاولى مضطرون وفى الثانية مختارون ﴿قل﴾ بيانا لبطلان ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد ﴿لن يصيبنا﴾ أبدا وقرئ هل يصيبنا وهل يصيبنا من فيعل لامن فعل لانه واوى يقال صاب السهم يصوب واشتقاقه من الصواب ﴿الاما كتب الله لنا﴾ أى أثبته لمصلحتنا الدنيوية أو الاخروية من النصرة عليكم أو الشهادة المؤدية الى النعيم الدائم ﴿هو مولانا﴾ ناصرنا ومتولى أمورنا ﴿وعلى الله﴾ وحده ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ التوكل تفويض الامر الى الله والرضا بما فعله وان كان ذلك بعد ترتيب المبادى العادية والفاء للدلالة على السببية والاصل ليتوكل المؤمنون على الله قدم الظرف على الفعل لافادة القصر ثم أدخل الفاء للدلالة على استيجابه تعالى للتوكل عليه كما فى قوله تعالى واياى فارهبون والجملة ان كانت من تمام الكلام المأمور به فاظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار لاظهار التبرك والتلذذ به وان كانت مسوقة من قبله تعالى أمرا للمؤمنين بالتوكل اثر أمره عليه الصلاة والسلام بما ذكر فالامر ظاهر وكذا اعادة الامر فى قوله عزوجل

﴿قل هل تربصون بنا﴾ لانقطاع حكم الامر الاول بالثانى وان كان أمر الغائب وأما على الوجه الاول فهى لابراز كمال العناية بشأن المأمور به والاشعار بما بينه وبين ما أمر به أولا من الفرق فى السياق والتربص التمكث مع انتظار مجئ شئ خيرا كان أوشرا والباء للتعدية واحدى التاءين محذوفة أى ما تنتظرون بنا ﴿الا احدى الحسنيين﴾ أى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسنى العواقب وهما النصر والشهادة وهذا نوع بيان لما أبهم فى الجواب الاول وكشف لحقيقة الحال باعلام أن ما يزعمونه مضرة للمسلمين من الشهادة أنفع مما يعدونه منفعة من النصر والغنيمة ﴿ونحن نتربص بكم﴾ احدى السوأيين من العواقب اما ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾ كما أصاب من قبلكم من الامم المهلكة والظرف صفة عذاب ولذلك حذف عامله وجوبا ﴿أو﴾ بعذاب ﴿بأيدينا﴾ وهو القتل على الكفر ﴿فتربصوا﴾ الفاء فصيحة أى اذا كان الامر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ﴿انا معكم متربصون﴾ ما هو عاقبتكم فاذا لقى كل منا ومنكم ما يتربصه لا تشاهدون الا ما يسرنا ولا نشاهد الا ما يسوؤكم ﴿قل أنفقوا﴾ أموالكم فى سبيل الله ﴿طوعا أو كرها﴾ مصدران وقعا موقع الفاعل أى طائعين أو كارهين وهو أمر فى معنى الخبر كقوله تعالى استغفر لهم أو لا تستغفر لهم والمعنى أنفقتم طوعا أو كرها ﴿لن يتقبل منكم﴾ ونظم الكلام فى سلك الامر للمبالغة فى بيان تساوى الامرين فى عدم القبول كأنهم أمروا بأن يمتحنوا الحال فينفقوا على الحالين فينظروا هل يتقبل منهم فيشاهدوا عدم القبول وهو جواب قول جد بن قيس ولكن أعينك بمالى ونفى التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الاخذ منهم وأن يكون بمعنى عدم الاثابة عليه وقوله عز وجل ﴿انكم كنتم قوما فاسقين﴾ أى عاتين متمردين تعليل لرد انفاقهم ﴿وما منعهم أن تقبل منهم﴾ وقرئ بالتحتانية ﴿نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله و برسوله﴾ استئناف من أعم الاشياء أى ما منعهم قبول نفقاتهم منهم شئ من الاشياء الا كفرهم وقرئ يقبل على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى﴾ أى لا يأتونها فى حال من الاحوال الا حال كونهم متثاقلين ﴿ولا ينفقون الا وهم كارهون﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثوابا ولا يخافون على تركهما عقابا فقوله تعالى طوعا أى من غير الزام من جهته عليه الصلاة والسلام لا رغبة أو هو فرضى لتوسيع الدائرة ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ فان ذلك استدراج لهم و وبال عليهم حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل ﴿انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيوة الدنيا﴾ بما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يقاسون فيها من الشدائد والمصائب ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر فى العاقبة فيكون ذلك لهم نقمة لا نعمة وأصل الزهوق الخروج بصعوبة ﴿ويحلفون بالله انهم لمنكم﴾ فى الدين والاسلام ﴿وماهم منكم﴾ فى ذلك ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ يخافون أن يفعل بهم ما يفعل بالمشركين فيظهرون الاسلام تقية ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة ﴿لو يجدون ملجأ﴾ استئناف مقرر لمضمون ماسبق من أنهم ليسوا من المسلمين وأن التجاءهم الى الاتيان اليهم انما هو للتقية اضطرارا حتى انهم لو وجدوا غير ذلك ملجأ أى مكانا حصينا يلجأون اليه من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة وايثار صيغة الاستقبال فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم الوجدان فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس نصا فى افادة انتفاء استمرار الفعل كما هو الظاهر بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا حسبما يقتضيه المقام فان معنى قولك لو تحسن الى لشكرتك أن انتفاء الشكر بسبب استمرار انتفاء الاحسان لا أنه بسبب انتفاء استمرار الاحسان فان الشكر يتوقف على وجود الاحسان لا على استمراره كما حقق فى موضعه ﴿أو مغارات﴾ أى غيرانا و كهوفا يخفون فيها أنفسهم وقرئ بضم الميم من أغار الرجل اذا دخل الغور وقيل هو متعد من غار اذا دخل الغور أى أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم وأهليهم ويجوز أن يكون من

أغار الثعلب اذا أسرع بمعنى مهارب ومفار ﴿أو مدخلا﴾ أى نفقا يندسون فيه و ينجحرون وهو مفتعل من الدخول وقرئ مدخلا من الدخول ومدخلا من الادخال أى مكانا يدخلون فيه أنفسهم وقرئ متدخلا ومندخلا من التدخل والاندخال ﴿لولوا﴾ أى لصرفوا وجوههم وأقبلوا وقرئ لوالوا أى لالتجأوا ﴿اليه﴾ أى الى أحد ماذكر ﴿وهم يجمحون﴾ أى يسرعون بحيث لا يردهم شئ من الفرس الجموح وهو الذى لا يثنيه اللجام وفيه اشعار بكمال عتوهم وطغيانهم وقرئ يجمزون بمعنى يجمحون و يشتدون ومنه الجمازة ﴿ومنهم من يلمزك﴾ بكسر الميم وقرئ بضمها أى يعيبك سرا وقرئ يلمزك و يلامزك مبالغة ﴿فى الصدقات﴾ أى فى شأنها وقسمتها ﴿فان أعطوا منها﴾ بيان لفساد لمزهم وأنه لا منشأ له سوى حرصهم على حطام الدنيا أى ان أعطوا منها قدر ما يريدون ﴿رضوا﴾ بما وقع من القسمة واستحسنوها ﴿وان لم يعطوا منها﴾ ذلك المقدار ﴿اذا هم يسخطون﴾ أى يفاجئون السخط واذا نائب مناب فاء الجزاء . قيل نزلت الآية فى أبى الجواظ المنافق حيث قال ألا ترون الى صاحبكم يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم و يزعم أنه يعدل وقيل فى ابن ذى الخويصرة واسمه حرقوص بن زهير التميمى رأس الخوارج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال اعدل يارسول الله فقال عليه الصلاة والسلام و يلك ان لم أعدل فمن يعدل وقيل هم المؤلفة قلوبهم والأول هو الأظهر ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله و رسوله﴾ أى ما أعطاهم الرسول صلى الله عليه وسلم من الصدقات طيبى النفوس به وان قل وذكر الله عز وجل للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم كان بأمره سبحانه ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أى كفانا فضله وصنعه بنا وما قسمه لنا ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ بعد هذا حسبما نرجو ونؤمل ﴿انا الى الله راغبون﴾ فى أن يخولنا فضله والآية بأسرها فى حيز الشرط والجواب محذوف بناء على ظهوره أى لكان خيرا لهم ﴿انما الصدقات﴾ شروع فى تحقيق حقية ما صنعه الرسول صلى الله عليه وسلم من القسمة ببيان المصارف و رد لمقالة القالة فى ذلك وحسم لأطماعهم الفارغة المبنية على زعمهم الفاسد ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق أى جنس الصدقات المشتملة على الأنواع المختلفة ﴿للفقراء والمساكين﴾ أى مخصوصة بهؤلاء الاصناف الثمانية الآتية لاتتجاوزهم الى غيرهم كأنه قيل انما هى لهم لا لغيرهم فما للذين لا علاقة بينها و بينهم يقولون فيها ما يقولون وما سوغهم أن يتكلموا فيها وفى قاسمها والفقير من له أدنى شئ والمسكين من لا شئ له هو المروى عن أبى حنيفة رضى الله عنه وقد قيل على العكس ولكل منهما وجه يدل عليه ﴿والعاملين عليها﴾ الساعين فى جمعها وتحصيلها ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ هم أصناف فمنهم أشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم ليسلموا فيرضخ لهم ومنهم قوم أسلموا ونياتهم ضعيفة فيؤلف قلوبهم بأجزال العطاء كعيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس ومنهم من يترقب باعطائهم اسلام نظرائهم ولعل الصنف الأول كان يعطيهم الرسول صلى الله عليه وسلم من خمس الخمس الذى هو خالص ماله وقد عد منهم من يؤلف قلبه بشئ منها على قتال الكفار ومانعى الزكاة وقد سقط سهم هؤلاء بالاجماع لما أن ذلك كان لتكثير سواد الاسلام فلما أعزه الله عز وعلا وأعلى كلمته استغنى عن ذلك ﴿وفى الرقاب﴾ أى وللصرف فى فك الرقاب بأن يعان المكاتبون بشئ منها على أداء نجومهم وقيل بأن يفدى الاسارى وقيل بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق وأيا ما كان فالعدول عن اللام لعدم ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية والاختصاص كالذين من قبلهم أو للايذان بعدم قرار ملكهم فيما أعطوا كما فى الوجهين الاولين أو بعدم ثبوته رأسا كما فى الوجه الاخير أو للاشعار برسوخهم فى استحقاق الصدقة لما أن فى للظرفية المنبئة عن احاطتهم بها وكونهم محلها ومركزها ﴿والغارمين﴾ أى الذين تداينوا لانفسهم فى غير معصية اذا لم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم وكذلك

عند الشافعى رضى الله عنه من غرم لاصلاح ذات البين واطفاء النائرة بين القبيلتين وان كانوا أغنياء ﴿وفى سبيل الله﴾ أى فقراء الغزاة والحجيج والمنقطع بهم ﴿وابن السبيل﴾ أى المسافر المنقطع عن ماله وتكرير الظرف فى الاخيرين للايذان بزيادة فضلهما فى الاستحقاق أو لما ذكر من ايرادهما بعنوان غير مصحح للمالكية والاختصاص فهذه مصارف الصدقات فللمتصدق أن يدفع صدقته الى كل واحد منهم وأن يقتصر على صنف منهم لان اللام لبيان أنهم مصارف لا تخرج عنهم لا لاثبات الاستحقاق وقد روى ذلك عن عمر وابن عباس وحذيفة رضى الله عنهم وعند الشافعى لا يجوز الا أن يصرف الى ثلاثة من تلك الاصناف ﴿فريضة من الله﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه صدر الآية أى فرض لهم الصدقات فريضة ونقل عن سيبويه أنه منصوب بفعله مقدرا أى فرض الله ذلك فريضة أو حال من الضمير المستكن فى قوله للفقراء أى انما الصدقات كائنة لهم حال كونها فريضة أى مفروضة ﴿والله عليم﴾ بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم ﴿حكيم﴾ لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التى من جملتها سوق الحقوق الى مستحقيها ﴿ومنهم الذين يؤذون النبى﴾ نزلت فى فرقة من المنافقين قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام ما لا ينبغى فقال بعضهم لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ذلك فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد نقول ما شئنا ثم نأتيه فنكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول انما محمد أذن سامعة ويذلك قوله عز وجل ﴿ويقولون هو أذن﴾ أى يسمع كل ما قيل من غير أن يتدبر فيه ويميز بين ما يليق بالقبول لمساعدة أمارات الصدق له وبين ما لا يليق به وانما قالوه لأنه عليه الصلاة والسلام كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ويصفح عنهم حلما وكرما فحملوه على سلامة القلب وقالوا ما قالوا ﴿قل أذن خير لكم﴾ من قبيل رجل صدق فى الدلالة على المبالغة فى الجودة والصلاح كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الأذن ويجوز أن يكون المراد أذنا فى الخير والحق وفيما ينبغى سماعه وقبوله لا فى غير ذلك كما يدل عليه قراءة رحمة بالجر عطفا عليه أى هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله وقرئ أذن بسكون الذال فيهما وقرئ أذن خير على أنه صفة أو خبر ثان وقوله عز وجل ﴿يؤمن بالله﴾ تفسير لكونه أذن خير لهم أى يصدق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة الموجبة له وكون ذلك خيرا للمخاطبين كما أنه خير للعالمين مما لا يخفى ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾ أى يصدقهم لما علم فيهم من الخلوص واللام مزيدة للتفرقة بين الايمان المشهور وبين الايمان بمعنى التسليم والتصديق كما فى قوله تعالى أنؤمن لك الخ وقوله تعالى فما آمن لموسى الخ ﴿ورحمة﴾ عطف على أذن خير أى وهو رحمة بطريق اطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة ﴿للذين آمنوا منكم﴾ أى للذين أظهروا الايمان منكم حيث يقبله منهم لكن لا تصديقا لهم فى ذلك بل رفقا بهم وترحما عليهم ولا يكشف أسرارهم ولا يهتك أستارهم واسناد الايمان اليهم بصيغة الفعل بعد نسبته الى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار للايذان بأن ايمانهم أمر حادث ماله من قرار وقرئ بالنصب على أنها علة لفعل دل عليه أذن خير أى يأذن لكم رحمة ﴿والذين يؤذون رسول الله﴾ بما نقل عنهم من قولهم هو أذن ونحوه وفى صيغة الاستقبال المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه اشعار بقبول توبتهم كما أفصح عنه قوله تعالى فيما سيأتى فان يتوبوا يك خيرا لهم ﴿لهم﴾ بما يجترئون عليه من أذيته عليه الصلاة والسلام كما ينبئ عنه بناء الحكم على الموصول ﴿عذاب أليم﴾ وهذا اعتراض مسوق من قبله عز وجل على نهج الوعيد غير داخل تحت الخطاب وفى تكرير الاسناد باثبات العذاب الأليم لهم ثم جعل الجملة خبرا للموصول مالا يخفى من المبالغة وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة مضافا الى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته راجعة الى جنابه عز وجل موجبة لكمال السخط والغضب ﴿يحلفون بالله لكم﴾ الخطاب للمؤمنين خاصة وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن ثم يأتونهم فيعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم

بالأيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم أى يحلفون لكم أنهم ما قالوا ما نقل اليهم مما يورث أذاة النبى صلى الله عليه وسلم وأما التخلف عن الجهاد فليس بداخل فى هذا الاعتذار ﴿ليرضوكم﴾ بذلك وافراد ارضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم ارضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قبل عليه الصلاة والسلام ذلك منهم ولم يكذبهم للايذان بأن ذلك بمعزل من أن يكون وسيلة الى ارضائه عليه الصلاة والسلام وأنه صلى الله عليه وسلم انما لم يكذبهم رفقا بهم وسترا لعيوبهم لا عن رضا بما فعلوا كما أشير اليه ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ أى أحق بالارضاء ولا يتسنى ذلك الا بالطاعة والمتابعة وايفاء حقوقه عليه الصلاة والسلام فى باب الاجلال والاعظام مشهدا ومغيبا وأما ما أتوا به من الأيمان الفاجرة فانما يرضى به من انحصر طريق علمه فى الاخبار الى أن يجىء الحق ويزهق الباطل والجملة نصب على الحالية من ضمير يحلفون أى يحلفون لكم لارضائكم والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالارضاء منكم أى يعرضون عما يهمهم ويجديهم ويشتغلون بما لا يعنيهم وافراد الضمير فى يرضوه اما للايذان بأن رضاه عليه الصلاة والسلام مندرج تحت رضاه سبحانه وارضاؤه عليه الصلاة والسلام ارضاء له تعالى لقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله واما لأنه مستعار لاسم الاشارة الذى يشار به الى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور كما فى قول رؤبة

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأن ذلك لا يقال أى حاجة الى الاستعارة بعد التأويل المذكور لأنا نقول لولا الاستعارة لم يتسن التأويل لما أن الضمير لا يتعرض الا لذات ما يرجع اليه من غير تعرض لوصف من أوصافه التى من جملتها المذكورية وانما المتعرض لها اسم الاشارة واما لأنه عائد الى رسوله والكلام جملتان حذف خبر الأولى لدلالة خبر الثانية عليه كما ذهب اليه سيبويه ومنه قول من قال

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

أو الى الله على أن المذكور خبر الجملة الأولى وخبر الثانية محذوف كما هو رأى المبرد ﴿ان كانوا مؤمنين﴾ جوابه محذوف تعويلا على دلالة ماسبق عليه أى ان كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله بما ذكر فانهما أحق بالارضاء ﴿ألم يعلموا﴾ أى أولئك المنافقون والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتها وقرئ بالتاء على الالتفات لزيادة التقريع والتوبيخ أى ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من فنون القوارع والانذارات ﴿أنه﴾ أى الشأن ﴿من يحادد الله ورسوله﴾ المحادة من الحد كالمشاقة من الشق والمعاداة من العدوة بمعنى الجانب فان كل واحد من مباشرى كل من الأفعال المذكورة فى محل غير محل صاحبه ومن شرطية جوابها قوله تعالى ﴿فأن له نار جهنم﴾ على أن خبره محذوف أى فحق أن له نار جهنم وقرئ بكسر الهمزة والجملة الشرطية فى محل الرفع على أنها خبر لأن وهى مع خبرها سادة مسد مفعولى يعلموا وقيل المعنى فله وأن تكرير للأولى تأكيدا لطول العهد لا من باب التأكيد اللفظى المانع للأولى من العمل ودخول الفاء كما فى قول من قال

لقد علم الحى اليمانون أننى اذا قلت أما بعد أنى خطيبها

وقد جوز أن يكون فأن له معطوفا على أنه وجواب الشرط محذوف تقديره ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فأن له الخ ورد بأن ذلك انما يجوز عند كون فعل الشرط ماضيا أو مضارعا مجزوما بلم ﴿خالدا فيها﴾ حال مقدرة من الضمير المجرور ان اعتبر فى الظرف ابتداء الاستقرار وحدوثه وان اعتبر مطلق الاستقرار فالأمر ظاهر ﴿ذلك﴾ أشير الى ماذكر من العذاب الخالد بذلك ايذانا ببعد درجته فى الهول والفظاعة ﴿الخزى العظيم﴾ الخزى الذل والهوان المقارن للفضيحة والندامة وهى ثمرات نفاقهم حيث يفتضحون على رءوس الاشهاد بظهورها ولحوق العذاب الخالد

بهم والجملة تذييل لما سبق ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم﴾ فى شأنهم فان مانزل فى حقهم نازل عليهم ﴿سورة تنبئهم بما فى قلوبهم﴾ من الأسرار الخفية فضلا عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من أقاويل الكفر والنفاق ومعنى تنبئها اياهم بما فى قلوبهم مع أنه معلوم لهم وأن المحذور عندهم اطلاع المؤمنين على أسرارهم لا اطلاع أنفسهم عليها أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم فتنتشر فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة فكأنها تخبرهم بها أو المراد بالتنبئة المبالغة فى كون السورة مشتملة على أسرارهم كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة مالا يعلمونه فتنبئهم بها وتنعى عليهم قبائحهم وقيل معنى يحذر ليحذر وقيل الضميران الأولان للمؤمنين والثالث للمنافقين ولا يبالى بالتفكيك عند ظهور الأمر بعود المعنى اليه أى يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوب المنافقين وتهتك عليهم أستارهم قال أبو مسلم كان اظهار الحذر منهم بطريق الاستهزاء فانهم كانوا اذا سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر كل شئ ويقول انه بطريق الوحى يكذبونه ويستهزئون به ولذلك قيل ﴿قل استهزؤا﴾ أى افعلوا الاستهزاء وهو أمر تهديد ﴿ان الله مخرج﴾ أى من القوة الى الفعل أو من الكمون الى البروز ﴿ماتحذرون﴾ أى ماتحذرونه من انزال السورة ومن مخازيكم ومثالبكم المستكنة فى قلوبكم الفاضحة لكم على ملا الناس والتأكيد لرد انكارهم بذلك لالدفع ترددهم فى وقوع المحذور اذ ليس حذرهم بطريق الحقيقة ﴿ولئن سألتهم﴾ عما قالوا ﴿ليقولن انما كنا نخوض ونلعب﴾ روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ركب من المنافقين يستهزئون بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم ويقولون انظروا الى هذا الرجل يريد أن يفتتح حصون الشام وقصورها هيهات هيهات فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يانبى الله لاوالله ما كنا فى شئ من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا فى شئ مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر ﴿قل﴾ غير ملتفت الى اعتذارهم ناعيا عليهم جناياتهم منزلا لهم منزلة المعترف بوقوع الاستهزاء موبخا لهم على أخطائهم موقع الاستهزاء ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن﴾ حيث عقب حرف التقرير بالمستهزأ به ولا يستقيم ذلك الا بعد تحقق الاستهزاء وثبوته ﴿لاتعتذروا﴾ لاتشتغلوا بالاعتذار وهو عبارة عن محو أثر الذنب فانه معلوم الكذب بين البطلان ﴿قد كفرتم﴾ أظهرتم الكفر بايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم والطعن فيه ﴿بعد ايمانكم﴾ بعد اظهاركم له ﴿ان نعف عن طائفة منكم﴾ لتوبتهم واخلاصهم أو تجنبهم عن الايذاء والاستهزاء وقرئ ان يعف على اسناد الفعل الى الله سبحانه وقرئ على البناء للمفعول مسندا الى الظرف بتذكير الفعل وبتأنيثه أيضا ذهابا الى المعنى كأنه قيل ان ترحم طائفة ﴿نعذب﴾ بنون العظمة وقرئ بالياء على البناء للفاعل وبالتاء على البناء للمفعول مسندا الى مابعده ﴿طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ مصرين على الاجرام وهو غير التائبين أو مباشرين له وهم غير المجتنبين قال محمد بن اسحق الذى عفى عنه رجل واحد هو يحيى بن حمير الاشجعى لما نزلت هذه الآية تاب عن نفاقه وقال اللهم انى لاأزال أسمع آية تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لايقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة فما أحد من المسلمين الا عرف مصرعه غيره ﴿المنافقون والمنافقات﴾ التعرض لأحوال الاناث للايذان بكمال عراقتهم فى الكفر والنفاق ﴿بعضهم من بعض﴾ أى متشابهون فى النفاق والبعد عن الايمان كابعاض الشئ الواحد بالشخص وقيل أريد به نفى أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم فى حلفهم بالله انهم لمنكم وتقرير لقوله تعالى ومامهم منكم وقوله تعالى ﴿يأمرون بالمنكر﴾ أى بالكفر والمعاصى ﴿وينهون عن المعروف﴾ أى عن الايمان والطاعة استئناف مقرر لمضمون ماسبق ومفصح عن مضادة حالهم لحال المؤمنين أو خبر

ثان ﴿ويقبضون أيديهم﴾ أى عن المبرات والانفاق فى سبيل الله فان قبض اليد كناية عن الشح ﴿نسوا الله﴾ أغفلوا ذكره ﴿فنسيهم﴾ فتركهم من رحمته وفضله وخذلهم والتعبير عنه بالنسيان للمشاكلة ﴿ان المنافقين هم الفاسقون﴾ الكاملون فى التمرد والفسق الذى هو الخروج عن الطاعة والانسلاخ عن كل خير والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير كما فى قوله تعالى ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار﴾ أى المجاهرين ﴿نار جهنم خالدين فيها﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿هى حسبهم﴾ عقابا وجزاء وفيه دليل على عظم عقابها وعذابها ﴿ولعنهم الله﴾ أى أبعدهم من رحمته وأهانهم وفى اظهار الاسم الجليل من الايذان بشدة السخط مالايخفى ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أى نوع من العذاب غير عذاب النار دائم لاينقطع أبدا أو لهم عذاب مقيم معهم فى الدنيا لاينفك عنهم وهو مايقاسونه من تعب النفاق الذى هم منه فى بلية دائمة لايأمنون ساعة من خوف الفضيحة ونزول العذاب ان اطلع عن أسرارهم ﴿كالذين من قبلكم﴾ التفات من الغيبة الى الخطاب للتشديد والكاف فى محل الرفع على الخبرية أى أنتم مثل الذين من قبلكم من الأمم المهلكة أو فى حيز النصب بفعل مقدر أى فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم ﴿كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا﴾ تفسير وبيان لشبههم بهم وتمثيل لحالهم بحالهم ﴿فاستمتعوا﴾ تمتعوا فى صيغة الاستفعال مالىس فى صيغة التفعل من الاستزادة والاستدامة فى التمتع ﴿بخلاقهم﴾ بنصيبهم من ملاذ الدنيا واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير وهو ماقدر لصاحبه ﴿فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع﴾ الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى استمتاعا كاستمتاع ﴿الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية والتهائهم بها عن النظر فى العواقب الحقة واللذائذ الحقيقية تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم اياهم واقتفائهم أثرهم ﴿وخضتم﴾ أى دخلتم فى الباطل ﴿كالذى خاضوا﴾ أى كالذين باسقاط النون أو كالفوج الذى أو كالخوض الذى خاضوه ﴿أولئك﴾ اشارة الى المتصفين بالأوصاف المعدودة من المشبهين والمشبه بهم لا الى الفريق الأخير فقط فان ذلك يقتضى أن يكون حبوط أعمال المشبهين وخسرانهم مفهومين ضمنا لاصريحا ويؤدى الى خلو تلوين الخطاب عن الفائدة اذ الظاهر حينئذ أولئكم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للخطاب أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذميمة ﴿حبطت أعمالهم﴾ ليس المراد بها أعمالهم المعدودة كما يشعر به التعبير عنهم باسم الاشارة فان غائلتها غنية عن البيان بل أعمالهم التى كانوا يستحقون بها أجورا حسنة لوقارنت الايمان أى ضاعت وبطلت بالكلية ولم يترتب عليها أثر ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ بطريق المثوبة والكرامة أما فى الآخرة فظاهر وأما فى الدنيا فلأن مايترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون ليس ترتبه عليها على طريقة المثوبة والكرامة بل بطريق الاستدراج ﴿وأولئك﴾ أى الموصوفون بحبوط الاعمال فى الدارين ﴿هم الخاسرون﴾ الكاملون فى الخسران فى الدارين الجامعون لمباديه وأسبابه طرا فانه قد ذهبت رؤس أموالهم التى هى أعمالهم فيما ضرهم ولم ينفعهم قط ولو أنها ذهبت فيما لايضرهم ولا ينفعهم لكفى به خسرانا وايراد اسم الاشارة فى الموضعين للاشعار بعلية الاوصاف المشار اليها للحبوط والخسران ﴿ألم يأتهم﴾ أى المنافقين ﴿نبأ الذين من قبلهم﴾ أى خبرهم الذى له شأن وهو مافعلوا ومافعل بهم والاستفهام للتقرير والتحذير ﴿قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين﴾ وهم قوم شعيب ﴿والمؤتفكات﴾ قريات قوم لوط ائتفكت بهم أى انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل وقيل قريات المكذبين وائتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير الى الشر ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ استئناف لبيان نبئهم ﴿فما كان الله

ليظلمهم﴾ الفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام و يستدعيه النظام أى فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى فما ظلمهم بذلك وايثار ماعليه النظم الكريم للمبالغة فى تنزيه ساحة السبحان عن الظلم أى ماصح وما استقام له أن يظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى قوله عزوجل ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ للدلالة على استمرار ظلمهم حيث لم يزالوا يعرضونها للعقاب بالكفر والتكذيب وتقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم على رأى من لايرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما فى قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم من غير قصر للظلم على الفاعل أو المفعول وسيجىء لهذا مزيد بيان فى قوله سبحانه ان الله لايظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات حالا ومآلا اثر بيان قبح حال أضدادهم عاجلا وآجلا والتعبير عن نسبة هؤلاء بعضهم الى بعض بالولاية وعن نسبة أولئك بمن الاتصالية للايذان بأن نسبة هؤلاء بطريق القرابة الدينية المبنية على المعاقدة المستتبعة للآثار من المعونة والنصرة وغير ذلك ونسبة أولئك بمقتضى الطبيعة والعادة ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أى جنس المعروف والمنكر المنتظمين لكل خير وشر ﴿ويقيمون الصلوة﴾ فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو فى مقابلة ماسبق من قوله تعالى نسوا الله ﴿ويؤتون الزكوة﴾ بمقابلة قوله تعالى ويقبضون أيديهم ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ أى فى كل أمر ونهى وهو بمقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة ﴿أولئك﴾ اشارة الى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات الفاضلة ومافيه من معنى البعد للاشعار ببعد درجتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة ﴿سيرحمهم الله﴾ أى يفيض عليهم آثار رحمته من التأييد والنصرة البتة فان السين مؤكدة للوقوع كما فى قولك سأنتقم منك ﴿ان الله عزيز﴾ تعليل للوعد أى قوى قادر على اعزاز أوليائه وقهر أعدائه ﴿حكيم﴾ يبنى أحكامه على أساس الحكمة الداعية الى ايصال الحقوق من النعمة والنقمة الى مستحقيها من أهل الطاعة وأهل المعصية وهذا وعد للمؤمنين متضمن لوعيد المنافقين كما أن ماسبق فى شأن المنافقين من قوله تعالى فنسيهم وعيدلهم متضمن لوعد المؤمنين فان منع لطفه تعالى عنهم لطف فى حق المؤمنين ﴿وعدالله المؤمنين والمؤمنات﴾ تفصيل لآثار رحمته الأخروية اثر ذكر رحمته الدنيوية والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بعلية وصف الايمان لحصول ماتعلق به الوعد وعدم التعرض لذكر مامر من الأمر بالمعروف وغير ذلك للايذان بأنه من لوازمه ومستتبعاته أى وعدهم وعدا شاملا لكل أحد منهم على اختلاف طبقاتهم فى مراتب الفضل كيفا وكما ﴿جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ فان كل أحد منهم فائز بها لامحالة ﴿ومساكن طيبة﴾ أى وعد بعض الخواص الكمل منهم منازل تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش . فى الخبر أنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر ﴿فى جنات عدن﴾ هى أبهى أماكن الجنات وأسناها . عن النبى صلى الله عليه وسلم عدن دار الله لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لايسكنها غير ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج وله خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حوراء لايدخله الانبى أو صديق أو شهيد وعن ابن مسعود رضى الله عنه هى بطنان الجنة وسرتها فعدن على هذا علم وقيل هو بمعناه اللغوى أعنى الاقامة والخلود فمرجع العطف الى اختلاف الوصف وتغايره فكأنه وصفه أولا بأنه من جنس ماهو أشرف الاماكن المعروفة عندهم من الجنات ذات الانهار الجارية لسبيل اليها طباعهم أول مايقرع أسماعهم ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التى لاتكاد تخلو عنها أماكن الدنيا وفيها ماتشتهى

الأنفس وتلذ الأعين ثم وصفه بأنه دار اقامة وثبات فى جوار العليين لايعتريهم فيها فناء ولاتغير ثم وعدهم بما هو أعلى من ذلك كله فقال ﴿ورضوان من الله﴾ أى وشىء يسير من رضوانه تعالى ﴿أكبر﴾ اذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة وبه يناط نيل كل شرف وسيادة ولعل عدم نظمه فى سلك الوعد مع عزته فى نفسه لأنه متحقق فى ضمن كل موعود ولأنه مستمر فى الدارين . روى أنه تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم فيقولون مالنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا وأى شىء أفضل من ذلك قال أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماسبق ذكره ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجته فى العظم والفخامة ﴿هو الفوز العظيم﴾ دون مايعده الناس فوزا من حظوظ الدنيا فانها مع قطع النظر عن فنائها وتغيرها وتنغصها وتكدرها ليست بالنسبة الى أدنى شىء من نعيم الآخرة بمثابة جناح البعوض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوكانت الدنيا تزن عندالله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء ونعما قال من قال

تالله لوكانت الدنيا بأجمعها ... تبقى علينا و يأتى رزقها رغدا
ما كان من حق حر أن يذل بها ... فكيف وهى متاع يضمحل غد

﴿ياأيها النبى جاهد الكفار﴾ أى المجاهرين منهم بالسيف ﴿والمنافقين﴾ بالحجة واقامة الحدود ﴿واغلظ عليهم﴾ فى ذلك ولاتأخذك بهم رأفة . قال عطاء نسخت هذه الآية كل شىء من العفو والصفح ﴿ومأواهم جهنم﴾ جملة مستأنفة لبيان آجل أمرهم اثر بيان عاجله وقيل حالية ﴿وبئس المصير﴾ تذييل لما قبله والمخصوص بالذم محذوف ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ استئناف لبيان ماصدر عنهم من الجرائم الموجبة لما مر من الامر بالجهاد والغلظة عليهم ودخول جهنم روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن و يعيب المنافقين المتخلفين فيسمعه من كان منهم معه عليه الصلاة والسلام فقال الجلاس بن سويد منهم لئن كان مايقول محمد حقا لاخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا فنحن شر من الحمير فقال عامر بن قيس الانصارى للجلاس أجل والله ان محمداً لصادق وأنت شر من الحمار فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر فحلف بالله ما قال فرفع عامر يده فقال اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق فنزل وايثار صيغة الاستقبال فى يحلفون لاستحضار الصورة أو للدلالة على تكرير الحلف وصيغة الجمع فى قالوا مع أن القائل هو الجلاس للايذان بأن بقيتهم برضاهم بقوله صاروا بمنزلة القائل ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ هى ماحكى آنفا والجملة مع ماعطف عليها اعتراض ﴿وكفروا بعد اسلامهم﴾ أى وأظهروا ما فى قلوبهم من الكفر بعد اظهارهم الاسلام ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ هو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه توافق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عليه الصلاة والسلام عن راحلته اذا تسنم العقبة بالليل وكان عمار بن ياسر آخذا بخطام راحلته يقودها وحذيفة بن اليمان خلفها يسوقها فبينما هما كذلك اذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الابل و بقعقعة السلاح فالتفت فاذا قوم متلثمون فقال اليكم اليكم يا أعداء الله فهربوا وقيل هم المنافقون بقتل عامر لرده على الجلاس وقيل أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى بن سلول وان لم يرض به رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ومانقموا﴾ أى وما أنكروا وما عابوا أو وما وجدوا مايورث نقمتهم ﴿الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ سبحانه وتعالى وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فى غاية مايكون من ضنك العيش لايركبون الخيل ولايحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألف درهم فاستغنى والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو من أعم العلل أى وما أنكروا شيئاً من الاشياء الا اغناء الله تعالى اياهم أو وما أنكروا ما أنكروا العلة من العلل الا لاغناء الله اياهم ﴿فان يتوبوا﴾ عما هم عليه من الكفر

والنفاق ﴿ يك خيراً لهم ﴾ فى الدارين . قيل لما تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الجلاس يارسول الله لقد عرض الله على التوبة والله لقد قلت وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته ﴿ وان يتولوا ﴾ أى استمروا على ما كانوا عليه من التولى والاعراض عن الدين أو أعرضوا عن التوبة بعد هذا العرض ﴿ يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا ﴾ بالقتل والاسر والنهب وغير ذلك من فنون العقوبات ﴿ والآخرة ﴾ بالنار وغيرها من أفانين العقاب ﴿ ومالهم فى الارض ﴾ مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها المصححة لوجدان مانفى بقوله عز وجل ﴿ من ولى ولا نصير ﴾ ينقذهم من العذاب بالشفاعة أو المدافعة ﴿ ومنهم ﴾ بيان لقبائح بعض آخر منهم ﴿ من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ﴾ لنؤتين الزكاة وغيرها من الصدقات ﴿ ولنكونن من الصالحين ﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد الحج وقرئ بالنون الخفيفة فيهما . قيل نزلت فى ثعلبة بن حاطب أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال عليه الصلاة والسلام يا ثعلبة قليل تؤدى حقه خير من كثير لا تطيقه فراجعه وقال والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال يا ويح ثعلبة فبعث مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيه الفرائض فقال ماهذه الاجزية ماهذه الا أخت الجزية وقال ارجعا حتى أرى رأيى وذلك قوله عز وجل ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به ﴾ أى منعوا حق الله منه ﴿ وتولوا ﴾ أى أعرضوا عن طاعة الله سبحانه فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه يا ويح ثعلبة مرتين فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال عليه الصلاة والسلام ان الله منعنى أن أقبل منك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال عليه الصلاة والسلام هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى فقبض عليه الصلاة والسلام فجاء بها الى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها وجاء بها الى عمر رضى الله عنه فى خلافته فلم يقبلها وهلك فى خلافة عثمان رضى الله عنه وقيل نزلت فيه وفى سهل بن الحرث وجد بن قيس ومعتب بن قشير والأول هو الأشهر ﴿ وهم معرضون ﴾ جملة معترضة أى وهم قوم عادتهم الاعراض أو حالية أى تولوا باجرامهم وهم معرضون بقلوبهم ﴿ فأعقبهم ﴾ أى جعل الله عاقبة فعلهم ذلك ﴿ نفاقا ﴾ راسخا ﴿ فى قلوبهم الى يوم يلقونه ﴾ الى يوم موتهم الذى يلقون الله تعالى عنده أو يلقون فيه جزاء عملهم وهو يوم القيامة وقيل فأورثهم البخل نفاقا متمكنا فى قلوبهم ولا يلائمه قوله عز وجل ﴿ بما أخلفوا الله ماوعدوه ﴾ أى بسبب اخلافهم ماوعدوه تعالى من التصدق والصلاح ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ أى وبكونهم مستمرين على الكذب فى جميع المقالات التى من جملتها وعدهم المذكور وتخصيص الكذب به يؤدى الى تخلية الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل عن المزية فان تسبب الاعقاب المذكور بالاخلاف والكذب يقضى باسناده الى الله عز وجل اذ لا معنى لكونهما سببين لاعقاب البخل النفاق والتحقيق أنه لما كانت الفاء الدالة على الترتيب والتفريع منبئة عن ترتب اعقاب النفاق المخلد على أفعالهم المحكية عنهم من المعاهدة بالتصدق والصلاح والبخل والتولى والاعراض وفيها مالادخل له فى الترتب المذكور كالمعاهدة أزيح مافى ذلك من الابهام بتعيين ماهو المدار فى ذلك والله تعالى أعلم وقرئ بتشديد الذال ﴿ ألم يعلموا ﴾ أى المنافقون أو من عاهد الله وقرئ بالتاء الفوقانية خطابا للمؤمنين فالهمزة على الأول للانكار والتوبيخ والتهديد أى ألم يعلموا ﴿ أن الله يعلم سرهم ونجواهم ﴾ أى ماأسروا به فى أنفسهم وما تناجوا به فيما بينهم من المطاعن وتسمية الصدقة جزية وغير ذلك مما لا خير فيه وسر تقديم السر على النجوى سيظهر فى قوله سبحانه وستردون الى عالم الغيب والشهادة ﴿ وأن الله علام الغيوب ﴾ فلا يخفى عليه شىء من الأشياء

حتى اجترؤا على ما اجترؤا عليه من العظائم واظهار اسم الجلالة فى الموقعين لالقاء الروعة وتربية المهابة وفى ايراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة الدائمة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة ما لايخفى وعلى الثانى لتقرير علم المؤمنين بذلك وتنبيههم على أنه تعالى مؤاخذهم ومجازيهم بما علم من أعمالهم ﴿ الذين يلمزون ﴾ نصب أو رفع على الذم ويجوز جره على البدلية من الضمير فى سرهم ونجواهم وقرئ بضم الميم وهى لغة أى يعيبون ﴿ المطوعين ﴾ أى المتطوعين المتبرعين ﴿ من المؤمنين ﴾ حال من المطوعين وقوله تعالى ﴿ فى الصدقات ﴾ متعلق بيلمزون . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة فأتى عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب وقيل بأربعة آلاف درهم وقال كان لى ثمانية آلاف فأقرضت ربى أربعة وأمسكت لعيالى أربعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك له حتى صولحت تماضر رابعة نسائه عن ربع الثمن على ثمانين ألفا وتصدق عاصم بن عدى بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصارى بصاع من تمر فقال بت ليلتى أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالى وجئت بصاع فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره على الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا ما أعطى عبد الرحمن وعاصم الا رياء وان كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت ﴿ والذين لا يجدون الا جهدهم ﴾ عطف على المطوعين أى ويلمزون الذين لا يجدون الا طاقتهم وقرئ بفتح الجيم وهو مصدر جهد فى الأمر اذا بالغ فيه وقيل هو بالضم الطاقة وبالفتح المشقة ﴿ فيسخرون منهم ﴾ عطف على يلمزون أى يهزؤون بهم والمراد بهم الفريق الاخير ﴿ سخر الله منهم ﴾ اخبار بمجازاته تعالى اياهم على مافعلوا من السخرية والتعبير عنها بذلك للمشاكلة ﴿ ولهم ﴾ أى ثابت لهم ﴿ عذاب أليم ﴾ التنوين للتهويل والتفخيم وايراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار ﴿ استغفر لهم أولا تستغفر لهم ﴾ اخبار باستواء الامرين الاستغفار لهم وتركه فى استحالة المغفرة وتصويره بصورة الامر للمبالغة فى بيان استوائهما كأنه عليه الصلاة والسلام أمر بامتحان الحال بأن يستغفر تارة ويترك أخرى ليظهر له جلية الأمر كما مر فى قوله عز وجل قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم ﴿ ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ بيان لاستحالة المغفرة بعد المبالغة فى الاستغفار اثر بيان الاستواء بينه وبين عدمه . روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبى وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض أبيه أن يستغفر له ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام محافظة على ما هو الاصل من أن مراتب الاعداد حدود معينة يخالف حكم كل منها حكم ما فوقها ان الله قد رخص لى فسأزيد على السبعين فنزلت سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة فى مطلق التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنها العدد بأسره وقيل هى أكمل الاعداد لجمعها معانيها ولأن الستة أول عدد تام لتعادل أجزائها الصحيحة اذ نصفها ثلاثة وثلثها اثنان وسدسها واحد وجملتها ستة وهى مع الواحد سبعة فكانت كاملة اذ لا مرتبة بعد التمام الا الكمال ثم السبعون غاية الكمال اذ الآحاد غايتها العشرات والسبعمائة غاية الغايات ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة فى الاستغفار أى ذلك الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل ﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ كفروا بالله ورسوله ﴾ كفرا متجاوزا عن الحد كما يلوح به وصفهم بالفسق فى قوله عز وجل ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ فان الفسق فى كل شىء عبارة عن التمرد والتجاوز عن حدوده أى لا يهديهم هداية موصلة الى المقصد البتة لمخالفة ذلك للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وأما الهداية بمعنى الدلالة على ما يوصل اليه فهى متحققة

لا محالة ولكنهم بسوء اختيارهم لم يقبلوها فوقعوا فيما وقعوا وهو تذييل مؤكد لما قبله من الحكم فان مغفرة الكافر انما هى بالاقلاع عن الكفر والاقبال الى الحق والمنهمك فيه المطبوع عليه بمعزل من ذلك وفيه تنبيه على عذر النبى صلى الله عليه وسلم فى استغفاره لهم وهو عدم يأسه من ايمانهم حيث لم يعلم أنهم مطبوعون على الغى والضلال اذ الممنوع هو الاستغفار لهم بعد تبين حالهم كما سيتلى من قوله عز وجل ما كان للنبى الآية ﴿فرح المخلفون﴾ أى الذين خلفهم النبى صلى الله عليه وسلم بالاذن لهم فى القعود عند استئذانهم أو خلفهم الله بتثبيطه اياهم لما علم فى ذلك من الحكمة الخفية أو خلفهم كسلهم أو نفاقهم ﴿بمقعدهم﴾ متعلق بفرح أى بقعودهم وتخلفهم عن الغزو ﴿خلاف رسول الله﴾ أى خلفه وبعد خروجه حيث خرج ولم يخرجوا يقال أقام خلاف الحى أى بعدهم ظعنوا ولم يظعن و يؤيده قراءة من قرأ خلف رسول الله فانتصابه على أنه ظرف لمقعدهم اذ لا فائدة فى تقييد فرحهم بذلك وقيل هو بمعنى المخالفة و يعضده قراءة من قرأ خلف رسول الله بضم الخاء فانتصابه على أنه مفعول له والعامل اما فرح أى فرحوا لاجل مخالفته عليه الصلاة والسلام بالقعود واما مقعدهم أى فرحوا بقعودهم لاجل مخالفته عليه الصلاة والسلام أو على أنه حال والعامل أحد المذكورين أى فرحوا مخالفين له عليه الصلاة والسلام أو فرحوا بالقعود مخالفين له عليه الصلاة والسلام ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله﴾ لا ايثارا للدعة والخفض على طاعة الله تعالى فقط بل مع ما فى قلوبهم من الكفر والنفاق فان ايثار أحد الأمرين قد يتحقق بأدنى رجحان منه من غير أن يبلغ الآخر مرتبة الكراهية وانما أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال وكرهوا أن يخرجوا الى الغزو إيذانا بأن الجهاد فى سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب وأشرف المطالب التى يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه كما فرحوا بأقبح القبائح الذى هو القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وقالوا﴾ أى لاخوانهم تثبيتا لهم على التخلف والقعود وتواصيا فيما بينهم بالشر والفساد أو للمؤمنين تثبيطا لهم عن الجهاد ونهيا عن المعروف واظهارا لبعض العلل الداعية لهم الى ما فرحوا به من القعود فقد جمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر والضلال الفرح بالقعود وكراهية الجهاد ونهى الغير عن ذلك ﴿لا تنفروا فى الحر﴾ فانه لا يستطاع شدته ﴿قل﴾ رداعليهم وتجهيلا لهم ﴿نار جهنم﴾ التى ستدخلونها بما فعلتم ﴿أشد حرا﴾ مما تحذرون من الحر المعهود وتحذرون الناس منه فما لكم لا تحذرونها وتعرضون أنفسكم لها بايثار القعود على النفير ﴿لو كانوا يفقهون﴾ اعتراض تذييلى من جهته سبحانه وتعالى غير داخل تحت القول المأمور به مؤكد لمضمونه وجواب لو اما مقدر أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك أو كيف هى أو أن مآلهم اليها لما فعلوا مافعلوا أو لتأثروا بهذا الالزام واما غير منوى على أن لو لمجرد التمنى المنبئ عن امتناع تحقق مدخولها أى لو كانوا من أهل الفطانة والفقه كما فى قوله عز وجل قل انظروا ماذا فى السموات والارض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴿فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا﴾ اخبار عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل والبكاء الطويل المؤدى اليه أعمالهم السيئة التى من جملتها ماذكر من الفرح والفاء لسببية ماسبق للاخبار بما ذكر من الضحك والبكاء لانفسهما اذ لا يتصور السببية فى الأول أصلا وقليلا وكثيرا منصوبان على المصدرية أو الظرفية أى ضحكا قليلا و بكاء كثيرا أو زمانا قليلا و زمانا كثيرا واخراجه فى صورة الأمر للدلالة على تحتم وقوع المخبر به فان أمر الآمر المطاع مما لا يكاد يتخلف عنه المأمور به خلا أن المقصود افادته فى الأول هو وصف القلة فقط و فى الثانى وصف الكثرة مع الموصوف . يروى أن أهل النفاق يبكون فى النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع و لا يكتحلون بنوم و يجوز أن يكون الضحك كناية عن الفرح والبكاء عن الغم وأن تكون القلة عبارة عن العدم والكثرة عن الدوام ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من فنون المعاصى والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددى ماداموا فى الدنيا

وجزاء مفعول له للفعل الثانى أى ليبكوا جزاء أو مصدر حذف ناصبه أى يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء بما كسبوا من المعاصى المذكورة ﴿فان رجعك الله﴾ الفاء لتفريع الامر الآتى على مابين من أمرهم والفعل من الرجع المتعدى دون الرجوع اللازم أى فان ردك الله تعالى ﴿الى طائفة منهم﴾ أى الى المنافقين من المتخلفين فى المدينة فان تخلف بعضهم انما كان لعذر عائق مع الاسلام أو الى من بقى من المنافقين المتخلفين بأن ذهب بعضهم بالموت أو بالغيبة عن البلد أو بأن لم يستأذن البعض . عن قتادة أنهم كانوا اثنى عشر رجلا قيل فيهم ماقيل ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ معك الى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿فقل﴾ اخراجا لهم عن ديوان الغزاة وابعادا لمحلهم عن محفل صحبتك ﴿لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا﴾ من الاعداء وهو اخبار فى معنى النهى للمبالغة وقد وقع كذلك ﴿انكم﴾ تعليل لما سلف أى لانكم ﴿رضيتم بالقعود﴾ أى عن الغزو وفرحتم بذلك ﴿أول مرة﴾ هى غزوة تبوك ﴿فاقعدوا﴾ الفاء لتفريع الامر بالقعود بطريق العقوبة على ما صدر عنهم من الرضا بالقعود أى اذ رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا من بعد ﴿مع الخالفين﴾ أى المتخلفين الذين ديدنهم القعود والتخلف دائما وقرئ الخلفين على القصر فكان محو أساميهم من دفتر المجاهدين ولزمهم فى قرن الخالفين عقوبة لهم أى عقوبة وتذكير اسم التفضيل المضاف الى المؤنث هو الاكثر الدائر على الالسنة فانك لا تكاد تسمع قائلا يقول هى كبرى امرأة أو أولى مرة ﴿ولا تصل على أحد منهم مات﴾ صفة لأحد وانما جىء بصيغة الماضى تنبيها على تحقق الوقوع لا محالة ﴿أبدا﴾ متعلق بالنهى أى لا تدع ولا تستغفر لهم أبدا ﴿ولا تقم على قبره﴾ أى لا تقف عليه للدفن أو للزيارة والدعاء . روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم على قبور المنافقين و يدعو لهم فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيه فلما دخل عليه قال عليه السلام أهلكك حب اليهود فقال يارسول الله بعثت اليك لتستغفر لى لا لتؤنبنى وسأله أن يكفنه فى شعاره الذى يلى جلده و يصلى عليه فلما مات دعاه ابنه و كان مؤمنا صالحا فأجابه عليه السلام تسلية له ومراعاة لجانبه وأرسل اليه قميصه فكفن فيه فلما هم بالصلاة أو صلى نزلت . وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لما هلك عبد الله بن أبى و وضعناه ليصلى عليه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أتصلى على عدو الله القائل يوم كذا كذا وكذا والقائل يوم كذا كذا وكذا وعددت أيامه الخبيثة فتبسم عليه السلام وصلى عليه ثم مشى معه وقام على حفرته حتى دفن فوالله ما لبث الا يسيرا حتى نزل و لا تصل الخ فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على منافق و لا قام على قبره وانما لم ينه عن التكفين بقميصه صلى الله عليه وسلم لان الضنة بالقميص كانت مظنة الاخلال بالكرم على أنه كان مكافأة لقميصه الذى كان ألبسه العباس رضى الله تعالى عنه حين أسر ببدر والخبر مشهور ﴿انهم كفروا بالله و رسوله﴾ تعليل للنهى على معنى أن الاستغفار للميت والوقوف على قبره انما يكون لاستصلاحه وذلك مستحيل فى حقهم لانهم استمروا على الكفر بالله و رسوله مدة حياتهم ﴿وماتوا وهم فاسقون﴾ أى متمردون فى الكفر خارجون عن حدوده كما بين من معنى الفسق ﴿و لا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾ تكرير لما سبق وتقرير لمضمونه بالاخبار بوقوعه و يجوز أن يكون هذا فى حق فريق غير الفريق الاول وتقديم الاموال فى أمثال هذه المواقع على الاولاد مع كونهم أعز منها اما لعموم مساس الحاجة اليها بحسب الذات و بحسب الافراد والاوقات فانها مما لابد منه لكل أحد من الآباء والامهات والاولاد فى كل وقت وحين حتى أن من له أولاد و لا مال له فهو وأولاده فى ضيق ونكال وأما الاولاد فانما يرغب فيهم من بلغ مبلغ الابوة واما لأن المال مناط لبقاء النفس والاولاد لبقاء النوع واما لانها أقدم فى الوجود من الاولاد لأن الاجزاء المنوية انما تحصل من الاغذية كما سيأتى فى سورة الكهف

﴿انما يريد الله﴾ بما متعهم به من الاموال والاولاد ﴿أن يعذبهم بها فى الدنيا﴾ بسبب معاناتهم المشاق ومكابدتهم الشدائد فى شأنها ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أى فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها والالتهاء عن النظر والتدبر فى العواقب ﴿واذا أنزلت سورة﴾ من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها ﴿أن آمنوا بالله﴾ أن مفسرة لما فى الانزال من معنى القول والوحى أو مصدرية حذف عنها الجار أى بأن آمنوا ﴿وجاهدوا مع رسوله﴾ لاعزاز دينه واعلاء كلمته ﴿استأذنك أولوا الطول منهم﴾ أى ذووا الفضل والسعة والقدرة على الجهاد بدناً ومالا ﴿وقالوا﴾ عطف تفسيرى لاستأذنك مغن عن ذكر ما استأذنوا فيه يعنى القعود ﴿ذرنا نكن مع القاعدين﴾ أى الذين قعدوا عن الغزو لما بهم من عذر ﴿رضوا﴾ استئناف لبيان سوء صنيعهم وعدم امتثالهم لكلا الأمرين وان لم يردوا الاول صريحا ﴿بأن يكونوا مع الخوالف﴾ مع النساء اللاتى شأنهن القعود ولزوم البيوت جمع خالفة وقيل الخالفة من لا خير فيه ﴿وطبع على قلوبهم فهم﴾ بسبب ذلك ﴿لا يفقهون﴾ ما فى الايمان بالله وطاعته فى أوامره ونواهيه واتباع رسوله عليه السلام والجهاد من السعادة وما فى أضداد ذلك من الشقاوة ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه﴾ بالله وبما جاء من عنده تعالى وفيه ايذان بأنهم ليسوا من الايمان بالله فى شئ وان لم يعرضوا عنه صريحا اعراضهم عن الجهاد باستئذانهم فى القعود ﴿جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ أى ان تخلف هؤلاء عن الغزو فقد نهد اليه ونهض له من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقدا وأقاموا أمر الجهاد بكلا نوعيه كقوله تعالى فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ﴿وأولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿لهم﴾ بواسطة نعوتهم المزبورة ﴿الخيرات﴾ أى منافع الدارين النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى العقبى وقيل الحور كقوله عز قائلا فيهن خيرات حسان وهى جمع خيرة تخفيف خيرة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أى الفائزون بالمطلوب لا من حاز بعضا من الحظوظ الفانية عما قليل وتكرير اسم الاشارة تنويه لشأنهم وربء لمكانهم ﴿أعد الله لهم﴾ استئناف لبيان كونهم مفلحين أى هيأ لهم فى الآخرة ﴿جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ حال مقدرة من الضمير المجرور والعامل أعد ﴿ذلك﴾ اشارة الى ما فهم من اعداد الله سبحانه لهم الجنات المذكورة من نيل الكرامة العظمى ﴿الفوز العظيم﴾ الذى لا فوز وراءه ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾ شروع فى بيان أحوال منافقى الاعراب اثر بيان منافقى أهل المدينة والمعذرون من عذر فى الامر اذا قصر فيه وتوانى ولم يجد وحقيقته أن يوهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له أو المعتذرون بادغام التاء فى الذال ونقل حركتها الى العين وهم المعتذرون بالباطل وقرئ المعذرون من الاعذار وهو الاجتهاد فى العذر والاحتشاد فيه قيل هم أسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا لجهداً فائذن لنا فى التخلف وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك أغارت أعراب طيئ على أهالينا ومواشينا فقال عليه السلام سيغنينى الله تعالى عنكم وعن مجاهد نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله سبحانه وعن قتادة اعتذروا بالكذب وقرئ المعذرون بتشديد العين والذال من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن اذ التاء لا تدغم فى العين ادغامها فى الطاء والزاء والصاد فى المطوعين وازكى واصدق وقيل أريد بهم المعتذرون بالصحة وبه فسر المعذرون والمعذرون أى الذين لم يفرطوا فى العذر ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ وهم منافقو الاعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا فظهر أنهم كذبوا الله ورسوله فى ادعاء الايمان والطاعة ﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾ أى من الاعراب أو من المعذرين فان منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عذاب أليم﴾ بالقتل والاسر فى الدنيا والنار فى الآخرة ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ كالهرمى والزمنى ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ لفقرهم كمزينة وجهينة وبنى عذرة ﴿حرج﴾ اثم فى التخلف ﴿اذا نصحوا لله ورسوله﴾ وهو عبارة عن الايمان بهما والطاعة لهما فى السر

والعلن وتوليهما فى السراء والضراء والحب فيهما والبغض فيهما كما يفعل المولى الناصح بصاحبه ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ استئناف مقرر لمضمون ما سبق أى ليس عليهم جناح ولا الى معاتبتهم سبيل ومن مزيدة للتأكيد ووضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على انتظامهم بنصحهم لله ورسوله فى سلك المحسنين أو تعليل لنفى الحرج عنهم أى ما على جنس المحسنين من سبيل وهم من جملتهم ﴿والله غفور رحيم﴾ تذييل مؤيد لمضمون ما ذكر مشير الى أن بهم حاجة الى المغفرة وان كان تخلفهم بعذر ﴿ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم﴾ عطف على المحسنين كما يؤذن به قوله عز وجل فيما سيأتى انما السبيل الآية وقيل عطف على الضعفاء وهم البكاؤن سبعة من الانصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن معقل وعلبة بن زيد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغز معك فقال عليه السلام لا أجد فتولوا وهم يبكون وقيل هم بنو مقرن معقل وسويد ونعمان وقيل أبو موسى الاشعرى وأصحابه رضى الله تعالى عنهم ﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ حال من الكاف فى أتوك باضمار قد وما عامة لما سألوه عليه السلام وغيره مما يحمل عليه عادة وفى ايثار لا أجد على ليس عندى من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين ما لا يخفى كأنه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده ﴿تولوا﴾ جواب اذا ﴿وأعينهم تفيض﴾ أى تسيل بشدة ﴿من الدمع﴾ أى دمعا فان من البيانية مع مجرورها فى حيز النصب على التمييز وهو أبلغ من يفيض دمعها لافادتها أن العين بعينها صارت دمعا فياضا والجملة حالية وقوله عز اسمه ﴿حزنا﴾ نصب على العلية أو الحالية أو المصدرية لفعل دل عليه ما قبله أى تفيض للحزن فان الحزن يسند الى العين مجازا كالفيض أو تولوا له أو حزنين أو يحزنون حزنا فتكون هذه الجملة حالا من الضمير فى تفيض ﴿ألا يجدوا﴾ على حذف لام متعلقة بحزنا أو تفيض أى لئلا يجدوا ﴿ما ينفقون﴾ فى شراء ما يحتاجون اليه اذ لم يجدوه عندك ﴿انما السبيل﴾ بالمعاتبة ﴿على الذين يستأذنونك﴾ فى التخلف ﴿وهم أغنياء﴾ واجدون لأهبة الغزو مع سلامتهم ﴿رضوا﴾ استئناف تعليلى لما سبق كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا ﴿بأن يكونوا مع الخوالف﴾ الذين شأنهم الضعة والدناءة ﴿وطبع الله على قلوبهم﴾ أى خذلهم فغفلوا عن وخامة العاقبة ﴿فهم﴾ بسبب ذلك ﴿لا يعلمون﴾ أبدا غائلة ما رضوا به وما يستتبعه آجلا كما لم يعلموا بخساسة شأنه عاجلا ﴿يعتذرون اليكم﴾ استئناف لبيان ما يتصدون له عند القفول اليهم . روى أنهم كانوا بضعة وثمانين رجلا فلما رجع عليه السلام اليهم جاؤا يعتذرون اليه بالباطل والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانهم كانوا يعتذرون اليهم أيضا لا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط أى يعتذرون اليكم فى التخلف ﴿اذا رجعتم﴾ من الغزو منتهين ﴿اليهم﴾ وانما لم يقل الى المدينة ايذانا بأن مدار الاعتذار هو الرجوع اليهم لا الرجوع الى المدينة فلعل منهم من بادر الى الاعتذار قبل الرجوع اليها ﴿قل﴾ تخصيص هذا الخطاب برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه فيما سبق لاصحابه أيضا لما أن الجواب وظيفته عليه السلام وأما اعتذارهم فكان شاملا للمسلمين شمول الرجوع لهم ﴿لا تعتذروا﴾ أى لا تفعلوا الاعتذار كقوله تعالى اخسئوا فيها ولا تكلمون أو لا تعتذروا بما عندكم من المعاذير وأما التعرض لعنوان كذبها فلا يساعده قوله تعالى ﴿لن نؤمن لكم﴾ أى لن نصدقكم فى ذلك أبدا فانه استئناف تعليلى للنهى مبنى على سؤال نشأ من قبلهم متفرع على ادعاء الصدق فى الاعتذار كأنهم قالوا لم لا نعتذر فقيل لأنا لا نصدقكم أبدا فيكون عبثا اذ لا يترتب عليه غرض المعتذر وقوله عز وجل ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ تعليل لانتفاء التصديق أى أعلمنا بالوحى بعض أخباركم المنافية للتصديق مما باشرتموه من الشر والفساد وأضمرتموه فى ضمائركم وهيأتموه للابراز فى معرض الاعتذار من

الأكاذيب وجمع ضمير المتكلم فى الموضعين للمبالغة فى حسم أطماعهم من التصديق رأسا ببيان عدم رواج اعتذارهم عند أحد من المؤمنين أصلا فان تصديق البعض لهم ربما يطمعهم فى تصديق الرسول أيضا صلى الله عليه وسلم بواسطة المصدقين وللايذان بأن افتضاحهم بين المؤمنين كافة ﴿وسيرى الله عملكم﴾ فيما سيأتى أتنيبون اليه تعالى مما أنتم فيه من النفاق أم تثبتون وكأنه استتابة وامهال للتوبة وتقديم مفعول الرؤية على ماعطف على فاعله من قوله تعالى ﴿ورسوله﴾ للايذان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما وللاشعار بأن مدار الوعيد هو علمه عز وجل بأعمالهم ﴿ثم تردون﴾ يوم القيامة ﴿الى عالم الغيب والشهادة﴾ للجزاء بما ظهر منكم من الاعمال ووضع المظهر موضع المضمر لتشديد الوعيد فان علمه سبحانه وتعالى بجميع أعمالهم الظاهرة والباطنة واحاطته بأحوالهم البارزة والكامنة مما يوجب الزجر العظيم ﴿فينبئكم﴾ عند ردكم اليه ووقوفكم بين يديه ﴿بما كنتم تعملون﴾ أى بما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من الاعمال السيئة السابقة واللاحقة على أن ما موصولة والعائد اليها محذوف أو بعملكم المستمر على أنها مصدرية والمراد بالتنبئة بذلك المجازاة به وايثارها عليها لمراعاة ماسبق من قوله تعالى قد نبأنا الله الخ فان المنبأ به الاخبار المتعلقة بأعمالهم وللايذان بأنهم ما كانوا عالمين فى الدنيا بحقيقة أعمالهم وانما يعلمونها يومئذ ﴿سيحلفون بالله لكم﴾ تأكيدا لمعاذيرهم الكاذبة وتقريرا لها والسين للتأكيد والمحلوف عليه محذوف يدل عليه الكلام وهو ما اعتذروا به من الاكاذيب والجملة بدل من يعتذرون أو بيان له ﴿اذا انقلبتم﴾ أى انصرفتم من الغزو ﴿اليهم﴾ ومعنى الانقلاب هو الرجوع والانصراف مع زيادة معنى الوصول والاستيلاء وفائدة تقييد حلفهم به الايذان بأنه ليس لدفع ماخاطبهم النبى عليه السلام به من قوله تعالى لاتعتذروا الخ بل هو أمر مبتدأ ﴿لتعرضوا﴾ وتصفحوا ﴿عنهم﴾ صفح رضا فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم كما يفصح عنه قوله تعالى لترضوا عنهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾ لكن لا اعراض رضا كما هو طلبتهم بل اعراض اجتناب ومقت كما يعرب عنه قوله عز وجل ﴿انهم رجس﴾ فانه صريح فى أن المراد بالاعراض عنهم اما الاجتناب عنهم لما فيهم من الرجس الروحانى واما ترك استصلاحهم بترك المعاتبة لأن المقصود بها التطهير بالحمل على الانابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير فلا يتعرض لهم بها وقوله عز وعلا ﴿ومأواهم جهنم﴾ اما من تمام التعليل فان كونهم من أهل النار من دواعى الاجتناب عنهم وموجبات ترك استصلاحهم باللوم والعتاب واما تعليل مستقل أى وكفتهم النار عتابا وتوبيخا فلا تتكلفوا أنتم فى ذلك ﴿جزاء﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر من لفظه وقع حالا أى يجزون جزاء أو لمضمون الجملة السابقة فانها مفيدة لمعنى المجازاة قطعا كأنه قيل مجزيون جزاء ﴿بما كانوا يكسبون﴾ فى الدنيا من فنون السيئات أو على أنه مفعول له ﴿يحلفون لكم﴾ بدل مما سبق وعدم ذكر المحلوف به لظهوره أى يحلفون به تعالى ﴿لترضوا عنهم﴾ بحلفهم وتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم ﴿فان ترضوا عنهم﴾ حسبما راموا وساعدتموهم فى ذلك ﴿فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أى فان رضاكم عنهم لا يجديهم نفعا لأن الله ساخط عليهم ولا أثر لرضاكم عند سخطه سبحانه ووضع الفاسقين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط وللايذان بشمول الحكم لمن شاركهم فى ذلك والمراد به نهى المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده فان الرضا عمن لا يرضى عنه الله تعالى مما لا يكاد يصدر عن المؤمن وقيل انما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين من دواعى رضا الله تعالى. قيل هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين منافقا فقال النبى صلى الله عليه وسلم للمؤمنين حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقيل جاء عبد الله بن أبى يحلف أن لا يتخلف عنه أبدا ﴿الأعراب﴾ هى صيغة جمع وليست بجمع للعرب قاله سيبويه لئلا يلزم كون الجمع أخص من الواحد فان

العرب هو هذا الجيل الخاص سواء سكن البوادى أم القرى وأما الاعراب فلا يطلق الا على من يسكن البوادى ولهذا نسب الى الاعراب على لفظه فقيل أعرابى وقال أهل اللغة رجل عربى وجمعه العرب كما يقال مجوسى ويهودى ثم يحذف ياء النسب فى الجمع فيقال المجوس واليهود ورجل اعرابى ويجمع على الاعراب والأعاريب أى أصحاب البدو ﴿أشد كفرا ونفاقا﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوة قلوبهم وتوحشهم ونشئهم فى معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما فى قوله تعالى وكان الانسان كفورا اذ ليس كلهم كما ذكر على ماستحيط به خبرا ﴿وأجدر أن لا يعلموا﴾ أى أحق وأخلق بأن لا يعلموا ﴿حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ لبعدهم عن مجلسه صلى الله عليه وسلم وحرمانهم من مشاهدة معجزاته ومعاينة ماينزل عليه من الشرائع فى تضاعيف الكتاب والسنة ﴿والله عليم﴾ بأحوال كل من أهل الوبر والمدر ﴿حكيم﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم من العقاب والثواب ﴿ومن الأعراب﴾ شروع فى بيان تشعب جنس الاعراب الى فريقين وعدم انحصارهم فى الفريق المذكور كما يترامى من ظاهر النظم الكريم وشرح لبعض مثالب هؤلاء المتفرعة على الكفر والنفاق بعد بيان تماديهم فيهما وحمل الاعراب على الفريق المذكور خاصة وان ساعده كون من يحكى حاله بعضا منهم وهم الذين بصدد الانفاق من أهل النفاق دون فقرائهم أو أعراب أسد وغطفان وتميم كما قيل لكن لا يساعده ماسيأتى من قوله تعالى ومن الاعراب من يؤمن الخ فان أولئك ليسوا من هؤلاء قطعا وانما هم من الجنس أى ومن جنس الاعراب الذى نعت ببعض أفراده ﴿من يتخذ ماينفق﴾ من المال أى يعد مايصرفه فى سبيل الله ويتصدق به صورة ﴿مغرما﴾ أى غرامة وخسرانا لازما اذ لا ينفقه احتسابا ورجاء لثواب الله تعالى ليكون له مغنما وانما ينفقه رياء وتقية فهى غرامة محضة ومافى صيغة الاتخاذ من معنى الاختيار والانتفاع بما يتخذ انما هو باعتبار غرض المنفق من الرياء والتقية لا باعتبار ذات النفقة أعنى كونها غرامة ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ أصل الدائرة مايحيط بالشىء والمراد بها مالا محيص عنه من مصائب الدهر أى ينتظر بكم دوائر الدهر ونوبه ودوله ليذهب غلبتكم عليه فليتخلص مما ابتلى به ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين على نهج الاعتراض كقوله سبحانه غلت أيديهم بعد قول اليهود ماقالوا والسوء مصدر ثم أطلق على كل ضر وشر وأضيفت اليه الدائرة ذما كما يقال رجل سوء لأن من دارت عليه يذمها وهى من باب اضافة الموصوف الى صفته فوصفت فى الأصل بالمصدر مبالغة ثم أضيفت الى صفتها كقوله عز وجل ما كان أبوك امرأ سوء وقيل معنى الدائرة يقتضى معنى السوء فانما هى اضافة بيان وتأكيد كما قالوا شمس النهار ولحيا رأسه وقرئ بالضم وهو العذاب كما قيل له سيئة ﴿والله سميع﴾ لما يقولونه عند الانفاق مما لا خير فيه ﴿عليم﴾ بما يضمرونه من الأمور الفاسدة التى من جملتها أن يتربصوا بكم الدوائر وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى ﴿ومن الأعراب﴾ أى من جنسهم على الاطلاق ﴿من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ﴾ أى يأخذ لنفسه على وجه الاصطفاء والادخار ﴿ماينفق﴾ أى ينفقه فى سبيل الله تعالى ﴿قربات﴾ أى ذرائع اليها وللايذان بما بينهما من كمال الاختصاص جعل كأنه نفس القربات والجمع باعتبار أنواع القربات أو أفرادها وهى ثانى مفعولى يتخذ وقوله تعالى ﴿عند الله﴾ صفتها أو ظرف ليتخذ ﴿وصلوات الرسول﴾ أى وسائل اليها فانه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ولذلك سن للمصدق أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلى عليه كما فعله عليه الصلاة والسلام حين قال اللهم صل على آل أبى أوفى فان ذلك منصبه فله أن يتفضل به على من يشاء والتعرض لوصف الايمان بالله واليوم الآخر فى الفريق الأخير مع أن مساق الكلام لبيان الفرق بين الفريقين فى شأن اتخاذ ماينفقانه حالا

ومآلا وأن ذكر اتخاذه ذريعة الى القربات والصلوات مغن عن التصريح بذلك لكمال العناية بإيمانهم وبيان اتصافهم به وزيادة الاعتناء بتحقيق الفرق بين الفريقين من أول الأمر وأما الفريق الأول فاتصافهم بالكفر والنفاق معلوم من سياق النظم الكريم صريحا ﴿ألا انها قربة لهم﴾ شهادة لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه وتصديق لرجائهم والضمير لما ينفق والتأنيث باعتبار الخبر مع مامر من تعدده بأحد الوجهين والتنكير للتفخيم المغنى عن الجمع أى قربة عظيمة لايكتنه كنهها وفى ايراد الجملة اسمية وتصديرها بحرف التنبيه والتحقيق من الجزالة مالا يخفى والاقتصار على بيان كونها قربة لهم لأنها الغاية القصوى وصلوات الرسول من ذرائعها وقوله تعالى ﴿سيدخلهم الله فى رحمته﴾ وعد لهم باحاطة رحمته الواسعة بهم وتفسير للقربة كما أن قوله عز وعلا والله سميع عليم وعيد للأولين عقيب الدعاء عليهم والسين للدلالة على تحقق ذلك وتقرره البتة وقوله تعالى ﴿ان الله غفور رحيم﴾ تعليل لتحقق الوعد على نهج الاستئناف التحقيقى قيل هذا فى عبد الله ذى البجادين وقومه وقيل فى بنى مقرن من مزينة وقيل فى أسلم وغفار وجهينة وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم وغفار وشىء من جهينة ومزينة خير عند الله يوم القيامة من تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وغطفان ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين﴾ بيان لفضائل أشراف المسلمين اثر بيان فضيلة طائفة منهم والمراد بهم الذين صلوا الى القبلتين أو الذين شهدوا بدرا أو الذين أسلموا قبل الهجرة ﴿والأنصار﴾ أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة نفر وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا سبعين رجلا والذى آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير وقرىء بالرفع عطفا على والسابقون ﴿والذين اتبعوهم باحسان﴾ أى ملتبسين به والمراد به كل خصلة حسنة وهم اللاحقون بالسابقين من الفريقين على أن من تبعيضية أو الذين اتبعوهم بالايمان والطاعة الى يوم القيامة فالمراد بالسابقين جميع المهاجرين والانصار ومن بيانية ﴿رضى الله عنهم﴾ خبر للمبتدا أى رضى الله عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿ورضوا عنه﴾ بما نالوه من رضاه المستتبع لجميع المطالب طرا ﴿وأعدلهم﴾ فى الآخرة ﴿جنات تجرى تحتها الانهار﴾ وقرىء من تحتها كما فى سائر المواقع ﴿خالدين فيها أبدا﴾ من غير انتهاء ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ الذى لا فوز وراءه وما فى اسم الاشارة من معنى البعد لبيان بعد منزلتهم فى مراتب الفضل وعظم الدرجة من مؤمنى الاعراب ﴿وممن حولكم من الأعراب﴾ شروع فى بيان أحوال منافقى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيان حال أهل البادية منهم أى ممن حول بلدتكم ﴿منافقون﴾ وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها ﴿ومن أهل المدينة﴾ عطف على ممن حولكم عطف مفرد على مفرد وقوله تعالى ﴿مردوا على النفاق﴾ اما جملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب مسوقة لبيان غلوهم فى النفاق اثر بيان اتصافهم به واما صفة للمبتدا المذكور فصل بينها وبينه بما عطف على خبره وان صفة لمحذوف أقيمت هى مقامه وهو مبتدا خبره من أهل المدينة كما فى قوله أنا ابن جلا وطلاع الثنايا والجملة عطف على الجملة السابقة أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق أى تمهروا فيه من مرن فلان على عمله ومرد عليه اذا درب به وضرى حتى لان عليه ومهر فيه غير أن مرد لا يكاد يستعمل الا فى الشر فالتمرد على الوجهين الاولين شامل للفريقين حسب شمول النفاق وعلى الوجه الأخير خاص بمنافقى أهل المدينة وهو الأظهر والأنسب بذكر منافقى أهل البادية أولا ثم ذكر منافقى الاعراب المجاورين للمدينة ثم ذكر منافقى أهلها والله تعالى أعلم وقوله عز شأنه ﴿لاتعلمهم﴾ بيان لتمردهم أى لاتعرفهم أنت لكن لا بأعيانهم وأسمائهم وأنسابهم بل بعنوان نفاقهم يعنى أنهم بلغوا من المهارة فى النفاق والتنوق فى مراعاة التقية والتحامى عن مواقع التهم الى مبلغ يخفى عليك حالهم مع ما أنت عليه من علو الكعب وسمو الطبقة فى كمال الفطنة وصدق الفراسة وفى تعليق نفى العلم بهم مع أنه متعلق بحالهم مبالغة فى ذلك

وايماء الى أن ماهم فيه من صفة النفاق لعراقتهم ورسوخهم فيها صارت بمنزلة ذاتياتهم أو مشخصاتهم بحيث لا يعدمن لا يعرفهم بتلك الصفة عالما بهم وحمل عدم علمه عليه الصلاة والسلام بأعيانهم على عدم علمه عليه الصلاة والسلام بعد مجىء هذا البيان على أنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن فيهم منافقين لكن لا يعلمهم بأعيانهم مع كونه خلاف الظاهر عار عما ذكر من المبالغة وقوله عز وجل ﴿نحن نعلمهم﴾ تقرير لما سبق من مهارتهم فى فن النفاق أى لايقف على سرائرهم المركوزة فى ضمائرهم الا من لاتخفى عليه خافية لما هم عليه من شدة الاهتمام بابطان الكفر واظهار الاخلاص وفى تعليق العلم بهم مع أن المقصود بيان تعلقه بحالهم مامر فى تعليق نفيه بهم وقوله عز شأنه ﴿سنعذبهم﴾ وعيدلهم وتحقيق لعذابهم حسبما علم الله فيهم من موجباته والسين للتأكيد ﴿مرتين﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قام خطيبا يوم الجمعة فقال اخرج يافلان فانك منافق اخرج يافلان فانك منافق فأخرج ناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الاول والثانى اما القتل واما عذاب القبر أو الاول هو القتل والثانى عذاب القبر أو الاول أخذ الزكاة لما أنهم يعدونها مغرما بحتا والثانى نهك الابدان واتعابها بالطاعات الفارغة عن الثواب ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير كما فى قوله تعالى فارجع البصر كرتين أى كرة بعد أخرى ﴿ثم يردون﴾ يوم القيامة ﴿الى عذاب عظيم﴾ هو عذاب النار وفى تغيير السبك باسناد عذابهم السابق الى نون العظمة حسب اسناد ماقبله من العلم واسناد ردهم الى العذاب اللاحق الى أنفسهم ايذان باختلافهما حالا وأن الاول خاص بهم وقوعا وزمانا يتولاه سبحانه وتعالى والثانى شامل لعامة الكفرة وقوعا وزمانا وان اختلفت طبقات عذابهم ﴿وآخرون﴾ بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم فى أمور الدين وهو عطف على منافقون أى ومنهم يعنى وممن حولكم ومن أهل المدينة قوم آخرون ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ التى هى تخلفهم عن الغزو وايثار الدعة عليه والرضا بسوء جوار المنافقين وندموا على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة ولم يخفوا ماصدر عنهم من الاعمال السيئة كما فعله من اعتاد اخفاء مافيه وابراز ماينافيه من المنافقين الذين اعتذروا بما لاخير فيه من المعاذير المؤكدة بالأيمان الفاجرة حسب ديدنهم المألوف وهم رهط من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد عند ما بلغهم مانزل فى المتخلفين فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين حسب عادته الكريمة ورآهم كذلك فسأل عن شأنهم فقيل انهم أقسموا أن لايحلوا أنفسهم حتى تحلهم فقال عليه الصلاة والسلام وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت ﴿خلطوا عملا صالحا﴾ هو ماسبق منهم من الاعمال الصالحة والخروج الى المغازى السابقة وغيرها ومالحق من الاعتراف بذنوبهم فى التخلف عن هذه المرة وتذممهم وندامتهم على ذلك وتخصيصه بالاعتراف لاينا سب الخلط لاسيما على وجه يؤذن بتوارد المختلطين وكون كل منهما مخلوطا ومخلوطا به كما يؤذن به تبديل الواو بالباء فى قوله تعالى ﴿وآخر سيئا﴾ فان قولك خلطت الماء باللبن يقتضى ايراد الماء على اللبن دون العكس وقولك خلطت الماء واللبن معناه ايقاع الخلط بينهما من غير دلالة على اختصاص أحدهما بكونه مخلوطا والآخر بكونه مخلوطا به وترك تلك الدلالة للدلالة على جعل كل منهما متصفا بالوصفين جميعا وذلك فيما نحن فيه بورود كل من العملين على الآخر مرة بعد أخرى والمراد بالعمل السيىء ماصدر عنهم من الاعمال السيئة أولا وآخرا وعن الكلبى التوبة والاثم وقيل الواو بمعنى الباء كما فى قولهم بعت الشاء شاة ودرهما بمعنى شاة بدرهم ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ أى يقبل توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم ﴿ان الله غفور رحيم﴾ يتجاوز عن سيئات التائب ويتفضل عليه وهو تعليل لما تفيده كلمة عسى من وجوب القبول فانها للاطماع الذى هو من أكرم الاكرمين ايجاب وأى ايجاب ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ روى أنهم لما

أطلقوا قالوا يارسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا فقال عليه الصلاة والسلام ماأمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزلت فليست هى الصدقة المفروضة لكونها مأمورا بها ولما روى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ منهم الثلث وترك لهم الثلثين فوقع ذلك بيانا لما فى صدقة من الاجمال وانما هى كفارة لذنوبهم حسبما ينبئ عنه قوله عزوجل ﴿تطهرهم﴾ أى عما تلطخوا به من أوضار التخلف والتاء للخطاب والفعل مجزوم على أنه جواب للامر وقرئ بالرفع على أنه حال من ضمير المخاطب فى خذ أو صفة لصدقة والتاء للخطاب أو للصدقة والعائد على الاول محذوف ثقة بما بعده وقرئ تطهرهم من أطهره بمعنى طهره ﴿وتزكيهم بها﴾ باثبات الياء وهو خبر لمبتدا محذوف والجملة حال من الضمير فى الأمر أو فى جوابه أى وأنت تزكيهم بها أى تنمى بتلك الصدقة حسناتهم الى مراتب المخلصين أو أموالهم أو تبالغ فى تطهيرهم هذا على قراءة الجزم فى تطهرهم وأما على قراءة الرفع فسواء جعلت التاء للخطاب أو للصدقة وكذا اذا جعلت الجملة الأولى حالا من ضمير المخاطب أو صفة للصدقة على الوجهين فالثانية عطف على الأولى حالا وصفة من غير حاجة الى تقدير المبتدا لتوجيه دخول الواو فى الجملة الحالية ﴿وصل عليهم﴾ أى واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم ﴿ان صلوتك﴾ وقرئ صلواتك مراعاة لتعدد المدعو لهم ﴿سكن لهم﴾ تسكن نفوسهم اليها وتطمئن قلوبهم بها ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتهم والجملة تعليل للامر بالصلاة عليهم ﴿والله سميع﴾ يسمع ماصدر عنهم من الاعتراف بالذنب والتوبة والدعاء ﴿عليم﴾ بما فى ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم ومن الاخلاص فى التوبة والدعاء أو سميع يجيب دعاءك لهم عليم بما تقتضيه الحكمة والجملة حينئذ تذييل للتعليل مقرر لمضمونه وعلى الاول تذييل لما سبق من الآيتين محقق لما فيهما ﴿ألم يعلموا﴾ وقرئ بالتاء والضمير اما للتائبين فهو تحقيق لما سبق من قبول توبتهم وتطهير الصدقة وتزكيتها لهم وتقرير لذلك وتوطين لقلوبهم ببيان أن المتولى لقبول توبتهم وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه وان أسند الاخذ والتطهير والتزكية اليه عليه الصلاة والسلام أى ألم يعلم أولئك التائبون ﴿أن الله هو يقبل التوبة﴾ الصحيحة الخالصة ﴿عن عباده﴾ المخلصين فيها ويتجاوز عن سيئاتهم كما يفصح عنه كلمة عن والمراد بهم اما أولئك التائبون ووضع المظهر فى موضع المضمر للاشعار بعلية العبادة لقبولها واما كافة العباد وهم داخلون فى ذلك دخولا أوليا ﴿ويأخذ الصدقات﴾ أى يقبل صدقاتهم على أن اللام عوض عن المضاف اليه أو جنس الصدقات المندرج تحته صدقاتهم اندراجا أوليا أى هو الذى يتولى قبول التوبة وأخذ الصدقات ومايتعلق بها من التطهير والتزكية وان كنت أنت المباشر لها ظاهرا وفيه من تقرير ماذكر ورفع شأن النبى صلى الله عليه وسلم على نهج قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله مالايخفى ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾ تأكيد لما عطف عليه وزيادة تقرير لما يقرره مع زيادة معنى ليس فيه أى ألم يعلموا أنه المختص المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التوبة والرحمة وأن ذلك سنة مستمرة له وشأن دائم والجملتان فى حيز النصب بيعلموا بسد كل واحدة منهما مسد مفعوليه واما لغير التائبين من المؤمنين فقد روى أنهم قالوا لما تيب على الأولين هؤلاء الذين تابوا كانوا بالامس معنا لايكلمون ولايجالسون فما لهم فنزلت أى ألم يعلموا ماللتائبين من الخصال الداعية الى التكرمة والتقريب والانتظام فى سلك المؤمنين والتلقى بحسن القبول والمجالسة فهو ترغيب لهم فى التوبة والصدقة وقوله تعالى ﴿وقل اعملوا﴾ زيادة ترغيب لهم فى العمل الصالح الذى من جملته التوبة وللاولين فى الثبات على ماهم عليه أى قل لهم بعد مابان لهم شأن التوبة اعملوا ماتشاؤن من الأعمال فظاهره ترخيص وتخيير وباطنه ترغيب وترهيب وقوله عز وجل ﴿فسيرى الله عملكم﴾ أى خيرا كان أوشرا تعليل لما قبله وتأكيد للترغيب والترهيب والسين للتأكيد ﴿ورسوله﴾ عطف على الاسم الجليل وتأخيره عن المفعول للاشعار بما

بين الرؤيتين من التفاوت ﴿والمؤمنون﴾ فى الخبر لوأن رجلا عمل فى صخرة لاباب لها ولا كوة لخرج عمله الى الناس كائنا ماكان والمعنى ان أعمالكم غير خافية عليهم كما رأيتم وتبين لكم ثم ان كان المراد بالرؤية معناها الحقيقى فالامر ظاهر وان أريد بها مآلها من الجزاء خيرا أوشرا فهو خاص بالدنيوى من اظهار المدح والثناء والذكر الجميل والاعزاز ونحو ذلك من الأجزية وأضدادها ﴿وستردون﴾ أى بعد الموت ﴿الى عالم الغيب والشهادة﴾ فى وضع الظاهر موضع المضمر من تهويل الأمر وتربية المهابة مالايخفى ووجه تقديم الغيب فى الذكر لسعة علمه وزيادة خطره على الشهادة غنى عن البيان وقيل ان الموجودات الغائبة عن الحواس علل أو كالعلل للموجودات المحسوسة والعلم بالعلل علة للعلم بالمعلولات فوجب سبق العلم بالغيب على العلم بالشهادة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيب مايسرونه من الأعمال والشهادة مايظهرونه كقوله تعالى يعلم مايسرون ومايعلنون فالتقديم حينئذ لتحقيق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة على أبلغ وجه وآكده لا لايهام أن علمه سبحانه بمايسرونه أقدم منه بمايعلنونه كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته منزه عن أن يكون بطريق حصول الصورة بل وجود كل شئ وتحققه فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لايختلف الحال بين الأمور البارزة والكامنة واما للايذان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلن اذما من شئ يعلن الا وهو أو مباديه القريبة أو البعيدة مضمر قبل ذلك فى القلب فتعلق علمه تعالى به فى حالته الأولى متقدم على تعلقه به فى حالته الثانية ﴿فينبئكم﴾ عقيب الرد الذى هو عبارة عن الأمر الممتد الى يوم القيامة ﴿بما كنتم تعملون﴾ قبل ذلك فى الدنيا والمراد بالتنبئة بذلك الجزاء بحسبه ان خيرا فخير وان شرا فشر فهو وعد ووعيد ﴿وآخرون﴾ عطف على آخرون قبله أى ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب قوم آخرون غير المعترفين المذكورين ﴿مرجون﴾ وقرئ مرجئون من أرجيته وأرجأته أى أخرته ومنه المرجئة الذين لايقطعون بقبول التوبة ﴿لأمر الله﴾ فى شأنهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية لم يسارعوا الى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السوارى واظهار الغم والجزع والندم على ما فعلوا فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى أصحابه عن أن يسلموا عليهم ويكلموهم وكانوا من أصحاب بدر فهجروهم والناس فى شأنهم على اختلاف فمن قائل هلكوا وقائل عسى الله أن يغفر لهم فصاروا عندهم مرجئين لأمره تعالى ﴿اما يعذبهم﴾ ان بقوا على ماهم عليه من الحال وقيل ان أصروا على النفاق وليس بذاك فان المذكورين ليسوا من المنافقين ﴿واما يتوب عليهم﴾ ان خلصت نيتهم وصحت توبتهم والجملة فى محل النصب على الحالية أى منهم هؤلاء اما معذبين واما متوبا عليهم وقيل آخرون مبتدا ومرجون صفته وهذه الجملة خبره ﴿والله عليم﴾ بأحوالهم ﴿حكيم﴾ فيما فعل بهم من الارجاء وما بعده وقرئ والله غفور رحيم ﴿والذين اتخذوا مسجدا﴾ عطف على ماسبق أى ومنهم الذين أو نصب على الذم وقرئ بغير واو لأنها قصة على حيالها ﴿ضرارا﴾ أى مضارة للمؤمنين وانتصابه على أنه مفعول له أو مفعول ثان لاتخذوا أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر منصوب على الحالية أى يضارون بذلك ضرارا أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا من ضمير اتخذوا أى مضارين للمؤمنين . روى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فيصلى بهم فى مسجدهم فلما فعله عليه الصلاة والسلام حسدتهم اخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا نبنى مسجدا ونرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ويصلى فيه أبو عامر الراهب أيضا اذا قدم من الشام وهو الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق وقد كان قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لاأجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل يفعل ذلك

الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هاربا الى الشام وأرسل الى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فانى ذاهب الى قيصر وآت بجنود ومخرج محمدا وأصحابه من المدينة فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قباء وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة فقال عليه الصلاة والسلام انى على جناح سفر وحال شغل واذا قدمنا ان شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قفل عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد فنزلت عليه فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر ابن السكن ووحشى فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة وهلك أبو عامر الفاسق بالشام بقنسرين ﴿وكفرا﴾ تقوية للكفر الذى يضمرونه ﴿وتفريقا بين المؤمنين﴾ الذين كانوا يصلون فى مسجد قباء مجتمعين فيغص بهم فأرادوا أن يتفرقوا وتختلف كلمتهم ﴿وارصادا﴾ اعدادا وانتظارا وترقبا ﴿لمن حارب الله ورسوله﴾ وهو الراهب الفاسق أى لأجله حتى يجئ فيصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿من قبل﴾ متعلق باتخذوا أى اتخذوه من قبل أن ينافقوا بالتخلف حيث كانوا بنوه قبل غزوة تبوك أو بحارب أى حاربهما قبل اتخاذ هذا المسجد ﴿وليحلفن ان أردنا﴾ أى ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿الا الحسنى﴾ الا الخصلة الحسنى وهى الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين أو الا الارادة الحسنى ﴿والله يشهد انهم لكاذبون﴾ فى حلفهم ذلك ﴿لا تقم﴾ للصلاة ﴿فيه﴾ فى ذلك المسجد حسبما دعوك اليه ﴿أبدا لمسجد أسس﴾ أى بنى أصله ﴿على التقوى﴾ يعنى مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة وقيل هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وعن أبى سعيد رضى الله عنه سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذى أسس على التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال مسجدكم هذا مسجد المدينة واللام اما للابتداء أو للقسم المحذوف أى والله لمسجد وعلى التقديرين فمسجد مبتدأ وما بعده صفته وقوله تعالى ﴿من أول يوم﴾ أى من أيام تأسيسه متعلق بأسس وقوله تعالى ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ أى للصلاة وذكر الله تعالى خبره وقوله تعالى ﴿فيه رجال﴾ جملة مستأنفة مبينة لأحقيته لقيامه عليه الصلاة والسلام فيه من جهة الحال بعد بيان أحقيته له من حيث المحل أو صفة أخرى للمبتدا أو حال من الضمير فى فيه وعلى كل حال ففيه تحقيق وتقرير لاستحقاقه القيام فيه والمراد بكونه أحق نفس كونه حقيقا به اذ لا استحقاق فى مسجد الضرار رأسا وانما عبر عنه بصيغة التفضيل لفضله وكماله فى نفسه أو الأفضلية فى الاستحقاق المتناول لما يكون باعتبار زعم البانى ومن يشايعه فى الاعتقاد وهو الأنسب بما سيأتى ﴿يحبون أن يتطهروا﴾ من المعاصى والخصال الذميمة لمرضاة الله سبحانه وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها ﴿والله يحب المطهرين﴾ أى يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه ادناء المحب حبيبه. قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فاذا الأنصار جلوس فقال أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر رضى الله تعالى عنه يارسول الله انهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه الصلاة والسلام أترضون بالقضاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال أتشكرون فى الرخاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام مؤمنون ورب الكعبة فجلس ثم قال يامعشر الأنصار ان الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا نتبع الغائط الاحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء فتلا النبى عليه الصلاة والسلام فيه رجال يحبون أن يتطهروا وقرئ أن يطهروا بالادغام وقيل هو عام فى التطهر عن النجاسات كلها وكانوا يتبعون الماء اثر البول وعن الحسن رضى الله عنه هو التطهر عن

الذنوب بالتوبة وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم ﴿أفمن أسس بنيانه﴾ على بناء الفعل للفاعل والنصب وقرئ على البناء للمفعول والرفع وقرئ أسس بنيانه على الاضافة جمع اساس وأساس بالفتح والكسر جمع اس وقرئ اساس بنيانه جمع اس أيضا واس بنيانه وهى جملة مستأنفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين من أهل مسجد الضرار والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر أى أبعد ماعلم حالهم من أسس بنيان دينه ﴿على تقوى من الله ورضوان﴾ أى على قاعدة محكمة هى التقوى من الله وابتغاء مرضاته بالطاعة والمراد بالتقوى درجتها الثانية التى هى التوقى عن كل مايؤثم من فعل أوترك وقرئ تقوى بالتنوين على أن الألف للالحاق دون التأنيث ﴿خير أمن أسس بنيانه﴾ ترك الاضمار للايذان باختلاف البنيانين ذاتا مع اختلافهما وصفا واضافة ﴿على شفا جرف هار﴾ الشفا الحرف والشفير والجرف ما جرفه السيل أى استأصله واحتفر ما تحته فبقى واهيا يريد الانهدام والهار الهائر المتصدع المشرف الى السقوط من هاريهور ويهار أو هاريهير قدمت لامه على عينه فصار كغاز ورام وقيل حذفت عينه اعتباطا أى بغير موجب فجرى وجوه الاعراب على لامه ﴿فانهار به فى نار جهنم﴾ مثل ما بنوا عليه أمر دينهم فى البطلان وسرعة الانطماس بما ذكر ثم رشح بانهياره فى النار ووضع بمقابلة الرضوان تنبيها على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله الى الرضوان ومقتضياته التى أدناها الجنة وتأسيس هذا على ماهو بصدد الوقوع فى النار ساعة فساعة ثم مصيرهم اليها لامحالة وقرئ جرف بسكون الراء ﴿والله لايهدى القوم الظالمين﴾ أى لانفسهم أو الواضعين للاشياء فى غير مواضعها أى لايرشدهم الى مافيه نجاتهم وصلاحهم ارشادا موجبا له لا محالة وأما الدلالة على مايرشدهم اليه ان استرشدوا به فهو متحقق بلا اشتباه ﴿لايزال بنيانهم الذى بنوا﴾ البنيان مصدر أريد به المفعول ووصفه بالموصول الذى صلته فعله للايذان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على أوهن قاعدة وأوهى أساس وللاشعار بعلة الحكم أى لايزال مسجدهم ذلك مبنيا ومهدوما ﴿ريبة فى قلوبهم﴾ أى سبب ريبة وشك فى الدين كانه نفس الريبة أما حال بنيانه فظاهر لما أن اعتزالهم من المؤمنين واجتماعهم فى مجمع على حياله يظهرون فيه مافى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون فيه أمورهم ويتشاورون فى ذلك ويلقى بعضهم الى بعض ماسمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين وأما حال هدمه فلما أنه رسخ به ما كان فى قلوبهم من الشر وتضاعفت آثاره وأحكامه أو سبب ريبة فى أمرهم حيث ضعفت قلوبهم وهى اعتقادهم بخفاء أمرهم على المؤمنين لانهم أظهروا من أمرهم بعد البناء أكثر مما كانوا يظهرونه قبل ذلك وقت اختلاطهم بالمؤمنين وساءت ظنونهم بأنفسهم فلما هدم بنيانهم تضاعف ذلك الضعف وتقوى وصاروا مرتابين فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يتركهم على ما كانوا عليه من قبل أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم وقال الكلبى معنى ريبة حسرة وندامة وقال السدى وحبيب والمبرد لايزال هدم بنيانهم حزازة وغيظا فى قلوبهم ﴿الا أن تقطع﴾ من التفعل بحذف احدى التاءين أى الا أن تتقطع ﴿قلوبهم﴾ قطعا وتتفرق أجزاء بحيث لا يبقى لها قابلية ادراك واضمار قطعا وهو استثناء من أعم الاوقات أو أعم الاحوال ومحله النصب على الظرفية أى لايزال بنيانهم ريبة فى كل الاوقات أو كل الاحوال الاوقت تقطع قلوبهم أو حال تقطع قلوبهم فحينئذ يسلون عنها وأما مادامت سالمة فالريبة باقية فيها فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم ويجوز أن يكون المراد حقيقة تقطعها عند قتلهم أو فى القبور أو فى النار وقرئ تقطع على بناء المجهول من التفعيل وعلى البناء للفاعل منه على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم أى الا أن تقطع أنت قلوبهم بالقتل وقرئ على البناء للمجهول من الثلاثى مذكرا ومؤنثا وقرئ الى أن تقطع قلوبهم والى أن تقطع قلوبهم على الخطاب وقرئ ولو قطعت قلوبهم على اسناد الفعل مجهولا الى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم على الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم

او لكل أحد ممن يصلح للخطاب وقيل الا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم ﴿والله عليم﴾ بجميع الاشياء التى من جملتها ماذكر من أحوالهم ﴿حكيم﴾ فى جميع أفعاله التى من زمرتها أمره الوارد فى حقهم ﴿ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ ترغيب للمؤمنين فى الجهاد ببيان فضيلته اثر بيان حال المتخلفين عنه ولقد بولغ فى ذلك على وجه لامزيد عليه حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله تعالى واثابته اياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ثم جعل المبيع الذى هو العمدة والمقصد فى العقد أنفس المؤمنين وأموالهم والثمن الذى هو الوسيلة فى الصفقة الجنة ولم يجعل الامر على العكس بأن يقال ان الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصد فى العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون فى مقابلتها من الانفس والاموال وسيلة اليها ايذانا بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم ثم انه لم يقل بالجنة بل قيل ﴿بأن لهم الجنة﴾ مبالغة فى تقرير وصول الثمن اليهم واختصاصه بهم كانه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم وأما مايقال من أن ذلك لمدح المؤمنين بأنهم بذلوا أنفسهم وأموالهم بمجرد الوعد لكمال ثقتهم بوعده تعالى وأن تمام الاستعارة موقوف على ذلك اذ لو قيل بالجنة لاحتمل كون الشراء حقيقة لانها صالحة للعوضية بخلاف الوعد بها فليس بشئ لان مناط دلالة ماعليه النظم الكريم على الوعد ليس كونه جملة ظرفية مصدرة بأن فان ذلك بمعزل من الدلالة على الاستقبال بل هو الجنة التى يستحيل وجودها فى الدنيا ولو سلم ذلك يكون العوض الجنة الموعود بها لا الوعد بها ﴿يقاتلون فى سبيل الله﴾ استئناف لكن لا لبيان مالاجله الشراء ولا لبيان نفس الاشتراء لان قتالهم فى سبيل الله تعالى ليس باشتراء الله تعالى منهم أنفسهم وأموالهم بل هو بذل لها فى ذلك بل لبيان البيع الذى يستدعيه الاشتراء المذكور كانه قيل كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة فقيل يقاتلون فى سبيل الله وهو بذل منهم لأنفسهم وأموالهم الى جهة الله سبحانه وتعريض لها للهلاك وقوله تعالى ﴿فيقتلون ويقتلون﴾ بيان لكون القتال فى سبيل الله بذلا للنفس وأن المقاتل فى سبيله باذل لها وان كانت سالمة غانمة فان الاسناد فى الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف بأحدهما البتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض فانه يتحقق القتال من الكل سواء وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وان لم يصدر منهم أحدهما أيضا كما اذا وجدت المضاربة ولم يوجد القتل من أحد الجانبين أو لم توجد المضاربة أيضا فانه يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد وتقديم حالة القاتلية على حالة المقتولية للايذان بعدم الفرق بينهما فى كونهما مصداقا لكون القتال بذلا للنفس وقرئ بتقديم المبنى للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة فى الباب وايذانا بعدم مبالاتهم بالموت فى سبيل الله تعالى بل بكونه أحب اليهم من السلامة كما قيل فى حقهم

لايفرحون اذا نالت رماحهم ... قوما وليسوا مجازيعا اذا نيلوا

لايقطع الطعن الا فى نحورهم ... ومالهم عن حياض الموت تهليل

وقيل فى يقاتلون الخ معنى الأمر كما فى قوله تعالى تجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴿وعدا عليه﴾ مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلا ﴿حقا﴾ نعت لوعدا والظرف حال منه لأنه لو تأخر لكان صفة له وقوله تعالى ﴿فى التوراة والانجيل والقرآن﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لوعدا أى وعدا مثبتا فى التوراة والانجيل كما هو مثبت فى القرآن ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة فى كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل واف فان اخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع امكان صدوره عنهم فكيف بجناب الخلاق الغنى عن العالمين جل جلاله وسبك التركيب وان كان على انكار أن يكون أحد أوفى بالعهد منه تعالى من غير تعرض

لانكار المساواة ونفيها لكن المقصود به قصدا مطردا انكار المساواة ونفيها قطعا فاذا قيل من أكرم من فلان أولا أفضل منه فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل ﴿فاستبشروا﴾ التفات الى الخطاب تشريفا لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرور والاستبشار اظهار السرور والسين فيه ليس للطلب كاستوقد وأوقد والفاء لترتيب الاستبشار أو الامر به على ماقبله أى فاذا كان كذلك فسروا نهاية السرور وافرحوا غاية الفرح بما فزتم به من الجنة وانما قيل ﴿ببيعكم﴾ مع أن الابتهاج به باعتبار أدائه الى الجنة لأن المراد ترغيبهم فى الجهاد الذى عبر عنه بالبيع وانما لم يذكر العقد بعنوان الشراء لأن ذلك من قبل الله سبحانه لا من قبلهم والترغيب انما يكون فيما يتم من قبلهم وقوله تعالى ﴿الذى بايعتم به﴾ لزيادة تقرير بيعهم وللاشعار بكونه مغايرا لسائر البياعات فانه بيع للفانى بالباقى ولأن كلا البدلين له سبحانه وتعالى . عن الحسن رضى الله عنه أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها . روى أن الانصار لما بايعوه عليه الصلاة والسلام على العقبة قال عبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنه اشترط لربك ولنفسك ماشئت قال عليه الصلاة والسلام أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم قال فاذا فعلنا ذلك فمالنا قال لكم الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابى وهو يقرؤها قال كلام من قال كلام الله عز وجل قال بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج الى الغزو واستشهد ﴿وذلك﴾ أى الجنة التى جعلت ثمنا بمقابلة ما بذلوا من أنفسهم وأموالهم ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذى لا فوز أعظم منه وما فى ذلك من معنى البعد اشارة الى بعد منزلة المشار اليه وسمو رتبته فى الكمال ويجوز أن يكون ذلك اشارة الى البيع الذى أمروا بالاستبشار به ويجعل ذلك كأنه نفس الفوز العظيم أو يجعل فوزا فى نفسه فالجملة على الأول تذييل للآية الكريمة وعلى الثانى لقوله تعالى فاستبشروا مقرر لمضمونه ﴿التائبون﴾ رفع على المدح أى هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين كما يدل عليه القراءة بالياء نصبا على المدح ويجوز أن يكون مجرورا على أنه صفة للمؤمنين وقد جوز الرفع على الابتداء والخبر محذوف أى التائبون من أهل الجنة أيضا وان لم يجاهدوا كقوله تعالى وكلا وعد الله الحسنى ويجوز أن يكون خبره قوله تعالى ﴿العابدون﴾ وما بعده خبر بعد خبر أى التائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه النعوت الفاضلة أى المخلصون فى عبادة الله تعالى ﴿الحامدون﴾ لنعمائه أولما نابهم من السراء والضراء ﴿السائحون﴾ الصائمون لقوله عليه الصلاة والسلام سياحة أمتى الصوم شبه بها لأنه عائق عن الشهوات أو لأنه رياضة نفسانية يتوسل بها الى العثور على خفايا الملك والملكوت وقيل هم السائحون فى الجهاد وطلب العلم ﴿الراكعون الساجدون﴾ فى الصلاة ﴿الآمرون بالمعروف﴾ بالايمان والطاعة ﴿والناهون عن المنكر﴾ عن الشرك والمعاصى والعطف فيه للدلالة على أن المتعاطفين بمنزلة خصلة واحدة وأما قوله تعالى ﴿والحافظون لحدود الله﴾ أى فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع عملا وحملا للناس عليه فلئلا يتوهم اختصاصه بأحد الوجهين ﴿وبشر المؤمنين﴾ أى الموصوفين بالنعوت المذكورة ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الايمان وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به للايذان بخروجه عن حد البيان وفى تخصيص الخطاب بالأولين اظهار زيادة اعتناء بأمرهم من الترغيب والتسلية ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا﴾ بالله وحده أى ماصح لهم فى حكم الله عز وجل وحكمته وما استقام ﴿أن يستغفروا للمشركين﴾ به سبحانه ﴿ولو كانوا﴾ أى المشركون ﴿أولى قربى﴾ أى ذوى قرابة لهم وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة أخرى قبلها محذوفة حذفا مطردا كما بين فى قوله تعالى ولو كره الكافرون ونظائره . روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لعمه أبى طالب لما حضرته الوفاة ياعم قل كلمة أحاج

لك بها عند الله فأبى فقال عليه الصلاة والسلام لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه فنزلت وقيل لما افتتح مكة خرج الى الابواء فزار قبر أمه ثم قام مستعبرا فقال انى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى وأنزل على الآيتين ﴿من بعد ماتبين لهم﴾ أى للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿أنهم﴾ أى المشركين ﴿أصحاب الجحيم﴾ بأن ماتوا على الكفر أو نزل الوحى بأنهم يموتون على ذلك ﴿وما كان استغفار ابراهيم لأبيه﴾ بقوله واغفر لأبى أى بأن توفقه للايمان وتهديه اليه كما يلوح به تعليله بقوله انه كان من الضالين والجملة استئناف مسوق لتقرير ما سبق ودفع ما يتراءى بحسب الظاهر من المخالفة وقرئ وما استغفر ابراهيم لأبيه وقرئ وما يستغفر ابراهيم على حكاية الحال الماضية وقوله تعالى ﴿الا عن موعدة﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أى لم يكن استغفاره عليه السلام لأبيه ازر ناشئا عن شئ من الأشياء الا عن موعدة ﴿وعدها﴾ ابراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿إياه﴾ أى أباه وقد قرئ كذلك بقوله لأستغفرن لك وقوله سأستغفر لك ربى بناء على رجاء ايمانه لعدم تبين حقيقة أمره والا لما وعدها اياه كأنه قيل وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة مبنية على عدم تبين أمره كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فلما تبين له﴾ أى لابراهيم بأن أوحى اليه أنه مصر على الكفر غير مؤمن أبدا وقيل بأن مات على الكفر والأول هو الأنسب بقوله تعالى ﴿أنه عدو لله﴾ فان وصفه بالعداوة مما يأباه حالة الموت ﴿تبرأ منه﴾ أى تنزه عن الاستغفار له وتجانب كل التجانب وفيه من المبالغة ما ليس فى تركه ونظائره ﴿ان ابراهيم لأواه﴾ لكثير التأوه وهو كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب ﴿حليم﴾ صبور على الأذية والمحنة وهو استئناف لبيان ماكان يدعوه عليه الصلاة والسلام الى ما صدر عنه من الاستغفار وفيه ايذان بأن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان أواها حليما فلذلك صدر عنه ما صدر من الاستغفار قبل التبين فليس لغيره أن يأتسى به فى ذلك وتأكيد لوجوب الاجتناب عنه بعد التبين بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ منه بعد التبين وهو فى كمال رقة القلب والحلم فلابد أن يكون غيره أكثر منه اجتنابا وتبرؤا وأما أن الاستغفار قبل التبين لو كان غير محظور لما استثنى من الائتساء به فى قوله تعالى الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك فقد حقق فى سورة مريم باذن الله تعالى ﴿وما كان الله ليضل قوما﴾ أى ليس من عادته أن يصفهم بالضلال عن طريق الحق ويجرى عليهم أحكامه ﴿بعد اذ هداهم﴾ للاسلام ﴿حتى يبين لهم﴾ بالوحى صريحا أو دلالة ﴿مايتقون﴾ أى ما يجب اتقاؤه من محظورات الدين فلا ينزجروا عما نهوا عنه وأما قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالا ولا يؤاخذون به فكأنه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك وفيه دليل على أن الغافل غير مكلف بما لا يستبد بمعرفته العقل ﴿ان الله بكل شئ عليم﴾ تعليل لما سبق أى انه تعالى عليم بجميع الاشياء التى من جملتها حاجتهم الى بيان قبح مالا يستقل العقل فى معرفته فيبين لهم ذلك كما فعل ههنا ﴿ان الله له ملك السموات والأرض﴾ من غير شريك له فيه ﴿يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير﴾ لما منعهم من الاستغفار للمشركين وان كانوا أولى قربى وضمن ذلك التبرؤ منهم رأسا بين لهم أن الله تعالى مالك كل موجود ومتولى أموره والغالب عليه ولا يتأتى لهم نصر ولا ولاية الا منه تعالى ليتوجهوا اليه بشراشرهم متبرئين عما سواه غير قاصدين الا اياه ﴿لقد تاب الله على النبى﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو العفو عن اذنه للمنافقين فى التخلف عنه ﴿والمهاجرين والأنصار﴾ قيل هو فى حق زلات سبقت منهم يوم أحد ويوم حنين وقيل المراد بيان فضل التوبة وأنه مامن مؤمن الا وهو محتاج اليها حتى النبى صلى الله عليه وسلم لما صدر عنه فى بعض الأحوال من ترك الأولى ﴿الذين اتبعوه﴾ ولم يتخلفوا عنه ولم يخلوا بأمر من أوامره ﴿فى ساعة العسرة﴾ أى فى وقتها والتعبير عنه بالساعة لزيادة تعيينه وهى حالهم فى غزوة

تبوك كانوا فى عسرة من الظهر يعتقب عشرة على بعير واحد ومن الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والاهالة الزنخة وبلغت بهم الشدة الى أن اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء المتغير وفى عسرة من الماء حتى نحروا الابل واعتصروا فروثها وفى شدة زمان من حمادة القيظ ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة ووصف المهاجرين والأنصار بما ذكر من اتباعهم له عليه الصلاة والسلام فى مثل هاتيك المراتب من الشدة للمبالغة فى بيان الحاجة الى التوبة فان ذلك حيث لم يغنهم عنها فلأن لا يستغنى عنها غيرهم أولى وأحرى ﴿من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ بيان لتناهى الشدة وبلوغها الى مالاغاية وراءها وهو اشراف بعضهم على أن يميلوا الى التخلف عن النبى عليه الصلاة والسلام وفى كاد ضمير الشأن أو ضمير القوم الراجع اليه الضمير فى منهم وقرئ بتأنيث الفعل وقرئ من بعد مازاغت قلوب فريق منهم يعنى المتخلفين من المؤمنين كأبى لبابة وأضرابه ﴿ثم تاب عليهم﴾ تكرير للتأكيد وتنبيه على أنه يتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة والمراد أنه تاب عليهم لكيدودتهم ﴿انه بهم رؤف رحيم﴾ استئناف تعليلى فان صفة الرأفة والرحمة من دواعى التوبة والعفو ويجوز كون الأول عبارة عن ازالة الضرر والثانى عن ايصال المنفعة وأن يكون أحدهما للسوابق والآخر للواحق ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ أى وتاب الله على الثلاثة الذين أخر أمرهم عن أمر أبى لبابة وأصحابه حيث لم يقبل معذرتهم مثل أولئك ولا ردت ولم يقطع فى شأنهم بشئ الى أن نزل فيهم الوحى وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وقرئ خلفوا أى خلفوا الغازين بالمدينة أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم وقرئ على المخلفين والأول هو الأنسب لان قوله تعالى ﴿حتى اذا ضاقت عليهم الأرض﴾ غاية للتخليف ولا يناسبه الا المعنى الأول أى خلفوا وأخر أمرهم الى أن ضاقت عليهم الارض ﴿بما رحبت﴾ أى برحبها وسعتها لاعراض الناس عنهم وانقطاعهم عن مفاوضتهم وهو مثل لشدة الحيرة كأنه لا يستقر به قرار ولا تطمئن له دار ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أى اذا رجعوا الى أنفسهم لا يطمئنون بشئ لعدم الانس والسرور واستيلاء الوحشة والحيرة ﴿وظنوا أن لاملجأ من الله الا اليه﴾ أى علموا أنه لاملجأ من سخطه تعالى الا الى استغفاره ﴿ثم تاب عليهم﴾ أى وفقهم للتوبة ﴿ليتوبوا﴾ أو أنزل قبول توبتهم ليصيروا من جملة التوابين أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم ﴿ان الله هو التواب﴾ المبالغ فى قبول التوبة كما وكيفا وان كثرت الجنايات وعظمت ﴿الرحيم﴾ المتفضل عليهم بفنون الآلاء مع استحقاقهم لأفانين العقاب. روى أن ناسا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به عليه الصلاة والسلام. عن الحسن رضى الله عنه أنه قال بلغنى أنه كان لاحدهم حائط كان خيرا من مائة ألف درهم فقال ياحائطاه ماخلفنى الا ظلك وانتظار ثمارك اذهب فأنت فى سبيل الله ولم يكن لآخر الا أهله فقال ياأهلاه ما بطأنى ولا خلفنى الا الفتن بك فلاجرم والله لأكابدن الشدائد حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فتأبط زاده ولحق به عليه الصلاة والسلام قال الحسن رضى الله عنه كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها وعن أبى ذر الغفارى أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيا فقال عليه الصلاة والسلام لما رأى سواده كن أبا ذر فقال الناس هو ذاك فقال عليه الصلاة والسلام رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده وعن أبى خيثمة أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له فى الظل وبسطت له الحصير وقربت اليه الرطب والماء البارد فنظر فقال ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح والريح ما هذا بخير فقام ورحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه الى الطريق فاذا براكب يزهاه السراب فقال كن أبا خيثمة فكانه ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم

واستغفر له ومنهم من بقى لم يلحق به عليه الصلاة والسلام منهم الثلاثه. قال كعب رضى الله عنه لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد على كالمغضب بعد ما ذكرنى وقال ياليت شعرى ما خلف كعبا فقيل له ما خلفه الاحسن برديه والنظر فى عطفيه فقال عليه الصلاة والسلام ما أعلم الا فضلا واسلاما ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن فلما تمت خمسون ليلة اذا أنا بنداء من ذروة سلع أبشر يا كعب بن مالك فخررت لله ساجدا وكنت كما وصفنى ربى وضاقت علينا الأرض بما رحبت وضاقت علينا أنفسنا وتتابعت البشارة فلبست ثوبى وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون فقام الى طلحة بن عبيد الله يهرول الى حتى صافحنى وقال لتهنك توبة الله عليك فلن أنساها لطلحة رضى الله عنه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر أبشر يا كعب بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية وعن أبى بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب عام يندرج فيه التائبون اندراجا أوليا وقيل لمن تخلف عليه من الطلقاء عن غزوة تبوك خاصة ﴿اتقوا الله﴾ فى كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه المعاملة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر المغازى دخولا أوليا ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ فى أيمانهم وعهودهم أو فى دين الله نية وقولا وعملا أو فى كل شأن من الشئون فيدخل ما ذكر أو فى توبتهم وانابتهم فيكون المراد بهم حينئذ هؤلاء الثلاثة وأضرابهم. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه خطاب لمن آمن من أهل الكتاب أى كونوا مع المهاجرين والأنصار وانتظموا فى سلكهم فى الصدق وسائر المحاسن وقرئ من الصادقين ﴿ما كان لأهل المدينة﴾ ماصح وما استقام لهم ﴿ومن حولهم من الأعراب﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأضرابهم ﴿أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ عند توجهه عليه الصلاة والسلام الى الغزو ﴿ولا يرغبوا﴾ نصب وقد جوز الجزم ﴿بأنفسهم عن نفسه﴾ أى لا يصرفوها عن نفسه الكريمة ولا يصونوها عما لم يصن عنه نفسه بل يكابدوا معه ما يكابده من الاهوال والخطوب والكلام فى معنى النهى وان كان على صورة الخبر ﴿ذلك﴾ اشارة الى ما دل عليه الكلام من وجوب المشايعة ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿لا يصيبهم ظمأ﴾ أى عطش يسير ﴿ولا نصب﴾ ولا تعب ما ﴿ولا مخمصة﴾ أى مجاعة مالا يستباح عنده المحرمات من مراتبها فان الظمأ والنصب اليسيرين حين لم يخلوا من الثواب فلأن لا يخلو ذلك منه أولى فلا حاجة الى تأكيد النفى بتكرير كلمة لا ويجوز أن يراد بها تلك المرتبة ويكون الترتيب بناء على كثرة الوقوع وقلته فان الظمأ أكثر وقوعا من النصب الذى هو أكثر وقوعا من المخمصة بالمعنى المذكور فتوسيط كلمة لا حينئذ ليس لتأكيد النفى بل للدلالة على استقلال كل واحد منها بالفضيلة والاعتداد به ﴿فى سبيل الله﴾ واعلاء كلمته ﴿ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار﴾ أى لا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم دوسا أو مكانا يداس ﴿ولا ينالون من عدو نيلا﴾ مصدر كالقتل والأسر والنهب أو مفعول أى شيئا ينال من قبلهم ﴿الا كتب لهم به﴾ أى بكل واحد من الأمور المعدودة ﴿عمل صالح﴾ وحسنة مقبولة مستوجبة بحكم الوعد الكريم للثواب الجميل ونيل الزلفى والتنوين للتفخيم وكون المكتوب عين ما فعلوه من الأمور لا يمنع دخول الباء فان اختلاف العنوان كاف فى ذلك ﴿ان الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ على احسانهم تعليل لما سلف من الكتب والمراد بالمحسنين اما المبحوث عنهم ووضع المظهر موضع المضمر لمدحهم والشهادة عليهم بالانتظام فى سلك المحسنين وأن أعمالهم من قبيل الاحسان وللاشعار بعلية المأخذ للحكم واما جنس المحسنين وهم داخلون فيه دخولا أوليا ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة﴾ ولو تمرة أو علاقة سوط ﴿ولا كبيرة﴾ كما أنفق عثمان رضى الله عنه

والترتيب باعتبار ما ذكر من كثرة الوقوع وقلته وتوسيط لا للتنصيص على استبداد كل منهما بالكتب والجزاء لا لتأكيد النفى كما فى قوله عز وجل ﴿ولا يقطعون﴾ أى لا يجتازون فى مسيرهم ﴿واديا﴾ وهو فى الاصل كل منفرج من الجبال والآكام يكون منفذا للسيل اسم فاعل من ودى اذا سال ثم شاع فى الأرض على الاطلاق ﴿الا كتب لهم﴾ أى أثبت لهم ذلك الذى فعلوه من الانفاق والقطع ﴿ليجزيهم الله﴾ بذلك ﴿أحسن ما كانوا يعملون﴾ أحسن جزاء أعمالهم أو جزاء أحسن أعمالهم ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أى ماصح وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا جميعا فان ذلك مخل بأمر المعاش ﴿فلولا نفر﴾ فهلا نفر ﴿من كل فرقة﴾ أى طائفة كثيرة ﴿منهم﴾ كأهل بلدة أو قبيلة عظيمة ﴿طائفة﴾ أى جماعة قليلة ﴿ليتفقهوا فى الدين﴾ أى يتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا مشاق تحصيلها ﴿ولينذروا قومهم﴾ أى وليجعلوا غاية سعيهم ومرمى غرضهم من ذلك ارشاد القوم وانذارهم ﴿اذا رجعوا اليهم﴾ وتخصيصه بالذكر لأنه أهم وفيه دليل على أن التفقه فى الدين من فروض الكفاية وأن يكون غرض المتعلم الاستقامة والاقامة لا الترفع على العباد والتبسط فى البلاد كما هو ديدن أبناء الزمان والله المستعان ﴿لعلهم يحذرون﴾ ارادة أن يحذروا عما ينذرون واستدل به على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضى أن ينفر من كل ثلاثة نفر دوا بقرية طائفة الى التفقه لتنذر فرقتها كى يتذكروا ويحذروا فلو لم يعتبر الاخبار ما لم يتواتر لم يفد ذلك وقد قيل للآية وجه آخر وهو أن المؤمنين لما سمعوا ما نزل فى المتخلفين سارعوا الى التفير رغبة ورهبة وانقطعوا عن التفقه فأمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة الى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع الفقه الذى هو الجهاد الأكبر لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فالضمير فى ليتفقهوا ولينذروا لبواقى الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو وفى رجعوا للطوائف أى ولينذر البواقى قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم بما حصلوا فى أيام غيبتهم من العلوم ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب كما أمر عليه الصلاة والسلام أولا بانذار عشيرته فان الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح قيل هم اليهود حوالى المدينة كبنى قريظة والنضير وخيبر وقيل الروم فانهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة بالنسبة الى العراق وغيره ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ أى شدة وصبرا على القتال وقرئ بفتح الغين كسخطة وبضمها وهما لغتان فيها ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بالعصمة والنصرة والمراد بهم اما المخاطبون ووضع الظاهر موضع الضمير للتنصيص على أن الايمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى والشهادة بكونهم من زمرة المتقين واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والمراد بالمعية الولاية الدائمة وقد ذكر وجه دخول مع على المتبوع فى قوله تعالى ان الله معنا ﴿واذا ما أنزلت سورة﴾ من سور القرآن ﴿فمنهم﴾ أى من المنافقين ﴿من يقول﴾ لاخوانه ليثبتهم على النفاق أو لعوام المؤمنين وضعفتهم ليصدهم عن الايمان ﴿أيكم زادته هذه﴾ السورة ﴿ايمانا﴾ وقرئ بنصب أيكم على تقدير فعل يفسره المذكور أى أيكم زادت زادته هذه الخ وايراد الزيادة مع أنه لا ايمان فيهم أصلا باعتبار اعتقاد المؤمنين حسبما نطق به قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ﴿فأما الذين آمنوا﴾ جواب من جهته سبحانه وتحقيق للحق وتعيين لحالهم عاجلا وآجلا أى فأما الذين آمنوا بالله تعالى وبما جاء من عنده ﴿فزادتهم ايمانا﴾ بزيادة العلم اليقينى الحاصل من التدبر فيها والوقوف على ما فيها من الحقائق وانضمام ايمانهم بما فيها بايمانهم السابق ﴿وهم يستبشرون﴾ بنزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية ﴿وأما الذين فى قلوبهم مرض﴾ أى كفر وسوء عقيدة ﴿فزادتهم رجسا الى رجسهم﴾ أى كفرا بها مضموما الى الكفر بغيرها وعقائد باطلة وأخلاقا ذميمة كذلك ﴿وماتوا

وهم كافرون﴾ واستحكم ذلك الى أن يموتوا عليه ﴿أولا يرون﴾ الهمزة للانكار والتوبيخ والواو للعطف على مقدر أى ألا ينظرون ولا يرون ﴿أنهم﴾ أى المنافقين ﴿يفتنون فى كل عام﴾ من الاعوام ﴿مرة أو مرتين﴾ والمراد مجرد التكثير لا بيان الوقوع حسب العدد المزبور أى يبتلون بأفانين البليات من المرض والشدة وغير ذلك مما يذكر الذنوب والوقوف بين يدى رب العزة فيؤدى الى الايمان به تعالى أو بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاينون ما ينزل عليه من الآيات لا سيما القوارع الزائدة للايمان الناعية عليهم ما فيهم من القبائح المخزية لهم ﴿ثم لا يتوبون﴾ عطف على لا يرون داخل تحت الانكار والتوبيخ وكذا قوله تعالى ﴿ولا هم يذكرون﴾ والمعنى أو لا يرون افتتانهم الموجب لايمانهم ثم لا يتوبون عما هم عليه من النفاق ولا هم يتذكرون بتلك الفتن الموجبة للتذكر والتوبة وقرئ بالتاء والخطاب للمؤمنين والهمزة للتعجيب أى ألا تنظرون ولا ترون أحوالهم العجيبة التى هى افتتانهم على وجه التتابع وعدم التنبه لذلك فقوله تعالى ثم لا يتوبون وما عطف عليه معطوف على يفتنون ﴿واذا ما أنزلت سورة﴾ بيان لأحوالهم عند نزولها وهم فى محفل تبليغ الوحى كما أن الاول بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه ﴿نظر بعضهم الى بعض﴾ تغامزوا بالعيون انكارا لها أو سخرية بها أو غيظا لما فيها من مخازيهم ﴿هل يراكم من أحد﴾ أى قائلين هل يراكم أحد من المسلمين لننصرف مظهرين أنهم لا يصطبرون على استماعها ويغلب عليهم الضحك فيفتضحون أو ترامقوا يتشاورون فى تدبير الخروج والانسلال لواذا يقولون هل يراكم من أحد ان قمتم من المجلس وايراد ضمير الخطاب لبعث المخاطبين على الجد فى انتهاز الفرصة فان المرء بشأنه أكثر اهتماما منه بشأن أصحابه كما فى قوله تعالى وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا وقيل المعنى واذا ما أنزلت سورة فى عيوب المنافقين ﴿ثم انصرفوا﴾ عطف على نظر بعضهم والتراخى باعتبار وجدان الفرصة والوقوف على عدم رؤية أحد من المؤمنين أى انصرفوا جميعا عن محفل الوحى خوفا من الافتضاح أو غير ذلك ﴿صرف الله قلوبهم﴾ أى عن الايمان حسب انصرافهم عن المجلس والجملة اخبارية أو دعائية ﴿بأنهم﴾ أى بسبب أنهم ﴿قوم لا يفقهون﴾ لسوء الفهم أو لعدم التدبر ﴿لقد جاءكم﴾ الخطاب للعرب ﴿رسول﴾ أى رسول رسول عظيم الشأن ﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم عربى قرشى مثلكم وقرئ بفتح الفاء أى أشرفكم وأفضلكم ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أى شاق شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع فى العذاب وهذا من نتائج ما سلف من المجانسة ﴿حريص عليكم﴾ فى ايمانكم وصلاح حالكم ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رؤف رحيم﴾ قدم الأبلغ منهما وهى الرأفة التى هى عبارة عن شدة الرحمة محافظة على الفواصل ﴿فان تولوا﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى النبى صلى الله عليه وسلم تسلية له أى ان أعرضوا عن الايمان بك ﴿فقل حسبى الله﴾ فانه يكفيك ويعينك عليهم ﴿لا اله الا هو﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ﴿عليه توكلت﴾ فلا أرجو ولا أخاف الا منه ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ أى الملك العظيم أو الجسم الأعظم المحيط الذى تنزل منه الأحكام والمقادير وقرئ العظيم بالرفع وعن أبى أن آخر ما نزل هاتان الآيتان . وعن النبى صلى الله عليه وسلم ما نزل القرآن على الا آية آية وحرفا حرفا ما خلا سورة براءة وسورة قل هو الله أحد فانهما أنزلتا على ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة

سورة يونس عليه السلام

(مكية وآيها مائة وتسع آيات)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر﴾ بتفخيم الراء المفتوحة وقرئ بالامالة اجراء للأصلية مجرى المنقلبة عن الياء وقرئ بين بين وهو اما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الاعراب واما اسم للسورة كما عليه اطباق الأكثر فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى هذه السورة مسماة بالر وهو أظهر من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلم بالتسمية بعد فحقها الاخبار بها لا جعلها عنوان الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بالانتساب كما مر . والاشارة اليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده صارت فى حكم الحاضر كما يقال هذا ما اشترى فلان أو النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر أو اقرأ وكلمة ﴿تلك﴾ اشارة اليها أما على تقدير كون الر مسرودة على نمط التعديد فقد نزل حضور مادتها التى هى الحروف المذكورة منزلة ذكرها فأشير اليها كأنه قيل هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف المبسوطة الخ وأما على تقدير كونه اسما للسورة فقد نوهت بالاشارة اليها بعد تنويهها بتعيين اسمها أو الأمر بذكرها أو بقراءتها ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتها فى الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿آيات الكتاب﴾ وعلى تقدير كون الر مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الأول والمعنى هى آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمقصود ببيان بعضيتها منه وصفها بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة والصفات الكاملة والمراد بالكتاب اما جميع القرآن العظيم وان لم ينزل الكل حينئذ اما باعتبار تعينه وتحققه فى علم الله عز وعلا أو فى اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة الى السماء الدنيا كما هو المشهور فان فاتحة الكتاب كانت مسماة بهذا الاسم وبأم القرآن فى عهد النبوة ولما يحصل المجموع الشخصى اذ ذاك فلا بد من ملاحظة كل من الكتاب والقرآن بأحد الاعتبارات المذكورة واما جميع القرآن النازل وقتئذ المتفاهم بين الناس اذ ذاك فانه كما يطلق على المجموع الشخصى يطلق على مجموع ما نزل فى كل عصر ألا يرى الى ما روى عن جابر رضى الله عنه أنه قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد فى ثوب واحد ثم يقول أيهم أكثر أخذا للقرآن فاذا أشير له الى أحدهما قدمه فى اللحد فان ما يفهمه الناس من القرآن فى ذلك الوقت ويحافظون على التفاوت فى أخذه انما هو المجموع النازل حينئذ من غير ملاحظة لتحقق المجموع الشخصى فى علم الله سبحانه أو فى اللوح ولا لنزوله جملة الى السماء الدنيا ﴿الحكيم﴾ ذى الحكمة وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة ونطقه بها أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه أو من باب الاستعارة المكنية المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة هذا وقد جعل الكتاب عبارة عن نفس السورة وكلمة تلك اشارة الى ما فى ضمنها من الآى فانها فى حكم الحاضر لا سيما بعد ذكر ما يتضمنها من السورة عند بيان اسمها أو الأمر بذكرها أو بقراءتها وينبغى أن يكون المشار اليه حينئذ كل واحدة منها لا جميعها من حيث هو جميع لأنه عين السورة فلا يكون للاضافة وجه ولا لتخصيص الوصف بالمضاف اليه حكمة فلا يتأتى ما قصد من مدح المضاف بما للمضاف اليه من صفات الكمال ولأن فى بيان اتصاف كل منها بالكمال من المبالغة ما ليس فى بيان اتصاف الكل بذلك والمتبادر من الكتاب عند الاطلاق وان كان كله بأحد الوجهين المذكورين لكن صحة اطلاقه على بعضه أيضا مما لا ريب فيها والمعهود المشهور وان كان اتصاف الكل بأحد الاعتبارين

بما ذكر من نعوت الكمال الا أن شهرة اتصاف كل سورة منه بما اتصف به الكل مما لا ينكر وعليه يدور تحقق مدح السورة بكونها بعضا من القرآن الكريم اذ لولا أن بعضه منعوت بنعت كله داخل تحت حكمه لما تسنى ذلك وفيه مالا يخفى من التكلف والتعسف ﴿أكان للناس عجبا﴾ الهمزة لانكار تعجبهم ولتعجب السامعين منه لكونه فى غير محله والمراد بالناس كفار مكة وانما عبر عنهم باسم الجنس من غير تعرض لكفرهم مع أنه المدار لتعجبهم كما تعرض له فى قوله عز وجل قال الكافرون الخ لتحقيق مافيه الشركة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعيين مدار التعجب فى زعمهم ثم تبيين خطئهم واظهار بطلان زعمهم بايراد الانكار والتعجيب واللام متعلقة بمحذوف وقع حالا من عجباً وقيل بعجبا على التوسع المشهور فى الظروف وقيل المصدر اذا كان بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول جاز تقديم معموله عليه وقيل متعلقة بكان وهو مبنى على دلالة كان الناقصة على الحدث ﴿أن أوحينا﴾ اسم كان قدم عليه خبرها اهتماما بشأنه لكونه مدار الانكار والتعجيب وتشويقا الى المؤخر ولأن فى الاسم ضرب تفصيل ففى مراعاة الأصل نوع اخلال بتجاوب أطراف الكلام وقرئ برفع عجب على أنه الاسم وهو نكرة والخبر أن أوحينا وهو معرفة لأن أن مع الفعل فى تأويل المصدر المضاف الى المعرفة البتة والمختار حينئذ أن تجعل كان تامة وأن أوحينا متعلقا بعجب على حذف حرف التعليل أى أحدث للناس عجب لأن أوحينا أو من أن أوحينا أو بدلا من عجب لكن لا على توجيه الانكار والتعجيب الى حدوثه بل الى كونه عجبا فان كون الابدال فى حكم تنحية المبدل منه ليس معناه اهداره بالمرة وانما قيل للناس لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم وفيه من زيادة تقبيح حالهم مالا يخفى ﴿الى رجل منهم﴾ أى الى بشر من جنسهم كقولهم أبعث الله بشراً رسولا أو من أفنائهم من حيث المال لا من عظمائهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وكلا الوجهين من ظهور البطلان بحيث لا مزيد عليه . أما الأول فلأن بعث الملك انما يكون عند كون المبعوث اليهم ملائكة كما قال سبحانه قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية كيف لا وهى منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وانما الذى تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك من بينهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب . وأما الثانى فلما أن مناط الاصطفاء للنبوة والرسالة هو التقدم فى الاتصاف بما ذكر من النعوت الجميلة والصفات الجليلة والسبق فى احراز الفضائل العلية وحيازة الملكات السنية جبلة واكتسابا ولا ريب لاحد منهم فى أنه عليه الصلاة والسلام فى ذلك الشأن فى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية وأما التقدم فى الرياسات الدنيوية والسبق فى نيل الحظوظ الدنية فلا دخل له فى ذلك قطعا بل له اخلال به غالبا قال عليه الصلاة والسلام لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء ﴿أن أنذر الناس﴾ أن مصدرية لجواز كون صلتها أمرا كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك وذلك لان الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر سيان فساغ وقوع الأمر والنهى صلة حسب وقوع الفعل فليجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال ، ووجوب كون الصلة فى الموصول الاسمى خبرية انما هو للتوصل بها الى وصف المعارف بالجمل لا لقصور فى دلالة الانشاء على المصدر أو مفسرة اذ الايحاء فيه معنى القول وقد جوز كونها مخففة من المثقلة على حذف ضمير الشأن والقول من الخبر والمعنى أن الشأن قولنا أنذر الناس والمراد به جميع الناس كافة لاما أريد بالأول وهو النكتة فى ايثار الاظهار على الاضمار وكون الثانى عين الأول عند اعادة المعرفة ليس على الاطلاق ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ بما أوحيناه

وصدقوه ﴿أن لهم﴾ أى بأن لهم ﴿قدم صدق﴾ أى سابقة ومنزلة رفيعة ﴿عند ربهم﴾ وانما عبر عنها بها اذ بها يحصل السبق والوصول الى المنازل الرفيعة كما يعبر عن النعمة باليد لانها تعطى بها وقيل مقام صدق والوجه أن الوصول الى المقام انما يحصل بالقدم واضافتها الى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها وللتنبيه على أن مدار نيل مانالوه من المراتب العلية هو صدقهم فان التصديق لا ينفك عن الصدق ﴿قال الكافرون﴾ هم المتعجبون وايرادهم ههنا بعنوان الكفر مما لا حاجة الى ذكر سببه وترك العاطف لجريانه مجرى البيان للجملة التى دخلت عليها همزة الانكار أو لكونه استئنافا مبنيا على السؤال كأنه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب هل بقوا على التردد والاستبعاد أو قطعوا فيه بشئ فقيل قال الكافرون على طريقة التأكيد ﴿ان هذا﴾ يعنون به ماأوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن الحكيم المنطوى على الانذار والتبشير ﴿لسحر مبين﴾ أى ظاهر وقرئ لساحر على أن الاشارة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ ماهذا الا سحر مبين وهذا اعتراف من حيث لا يشعرون بأن ماعاينوه خارج عن طوق البشر نازل من جناب خلاق القوى والقدر ولكنهم سموه بما قالوا تماديا فى العناد كما هو ديدن المكابر اللجوج ودأب المفحم المحجوج ﴿ان ربكم﴾ كلام مستأنف سيق لاظهار بطلان تعجبهم المذكور ومابنوا عليه من المقالة الباطلة غب الاشارة اليه بالانكار والتعجيب وحقق فيه حقية ماتعجبوا منه وصحة ماأنكروه بالتنبيه الاجمالى على بعض مايدل عليها من شئون الخلق والتقدير وأحوال التكوين والتدبير ويرشدهم الى معرفتها بأدنى تذكير لاعترافهم به من غير نكير لقوله تعالى قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون وقوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض الى قوله تعالى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله أى ان ربكم ومالك أمركم الذى تتعجبون من أن يرسل اليكم رجلا منكم بالانذار والتبشير وتعدون ماأوحى اليه من الكتاب الحكيم سحرا هو ﴿الله الذى خلق السموات والارض﴾ ومافيهما من أصول الكائنات ﴿فى ستة أيام﴾ أى فى ستة أوقات أو فى مقدار ستة أيام معهودة فان نفس اليوم الذى هو عبارة عن زمان كون الشمس فوق الارض مما لا يتصور تحققه حين لا أرض ولا سماء وفى خلقها مدرجاً مع القدرة التامة على ابداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار وحث لهم على التأنى فى الاحوال والاطوار وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر قد استأثر بعلم مايستدعيه علام الغيوب جلت قدرته ودقت حكمته وايثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الايذان بأنها أجرام مختلفة الطباع متباينة الآثار والاحكام ﴿ثم استوى على العرش﴾ العرش هو الجسم المحيط بسائر الأجسام سمى به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فان الأوامر والتدابير منه تنزل وقيل هو الملك ومعنى استوائه سبحانه عليه استيلاؤه عليه أو استواء أمره وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف والمعنى أنه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذى عناه منزها عن التمكن والاستقرار وهذا بيان لجلالة ملكه وسلطانه بعد بيان عظمة شأنه وسعة قدرته بما مر من خلق هاتيك الاجرام العظام ﴿يدبر الأمر﴾ التدبير النظر فى أدبار الامور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود والمراد ههنا التقدير على الوجه الأتم الأكمل والمراد بالامر أمر ملكوت السموات والارض والعرش وغير ذلك من الجزئيات الحادثة شيئا فشيئا على أطوار شتى وأنحاء لا تكاد تحصى من المناسبات والمباينات فى الذوات والصفات والازمنة والاوقات أى يقدر ما ذكر من أمر الكائنات الذى ما تعجبوا منه من أمر البعث والوحى فرد من جملته وشعبة من دوحته ويهيئ أسباب كل منها حدوثا وبقاء فى أوقاتها المعينة ويرتب مصالحها على الوجه الفائق والنمط اللائق حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير استوى وقد جوز كونها خبرا ثانيا لان أو مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبنية على سؤال نشأ من ذكر الاستواء على العرش المنبئ

عن اجراء أحكام الملك وعلى كل حال فايثار صيغة المضارع للدلالة على تجدد التدبير واستمراره وقوله عز وجل ﴿ مامن شفيع ﴾ بيان لاستبداده سبحانه فى التقدير والتدبير ونفى للشفاعة على أبلغ الوجوه فان نفى جميع أفراد الشفيع بمن الاستغراقية يستلزم نفى الشفاعة على أتم الوجوه كما فى قوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله وهـذا بعد قوله تعالى يدبر الامر جار مجرى قوله تعالى وهو يجير ولا يجار عليه عقيب قوله تعالى قل من بيده ملكوت كل شئ وقوله تعالى ﴿ الا من بعد اذنه ﴾ استثناء مفرغ من أعم الاوقات أى ما من شفيع يشفع لاحد فى وقت من الاوقات الا بعد اذنه المبنى على الحكمة الباهرة وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الاخيار والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة كقوله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا وفيه من الدلالة على عظمة جلاله سبحانه ما لايخفى ﴿ ذلكم ﴾ اشارة الى المعلوم بتلك العظمة أى ذلكم العظيم الشأن المنعوت بما ذكر من نعوت الكمال التى عليها يدور استحقاق الالوهية ﴿ الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ ربكم ﴾ بيان له أو بدل منه أو خبر ثان لاسم الاشارة وهذا بعد بيان أن ربهم الله الذى خلق السموات والارض الخ لزيادة التقرير والمبالغة فى التذكير ولتفريع الامر بالعبادة عليه بقوله تعالى ﴿ فاعبدوه ﴾ أى وحدوه من غير أن تشركوا به شيئا من ملك أو نبى فضلا عن جماد لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وآمنوا بما أنزله اليكم ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى أتعلمون أن الامر كما فصل فلا تتذكرون ذلك حتى تقفوا على فساد ما أنتم عليه فترتدعوا عنه ﴿ اليه ﴾ لا الى أحد سواه استقلالا أو اشتراكا ﴿ مرجعكم ﴾ أى بالبعث كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ جميعا ﴾ فانه حال من الضمير المجرور لكونه فاعلا فى المعنى أى اليه رجوعكم مجتمعين والجملة كالتعليل لوجوب العبادة ﴿ وعد الله ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله عز وجل اليه مرجعكم وعد منه سبحانه بالبعث أو لفعل مقدر أى وعد الله وأيا ما كان فهو دليل على أن المراد بالمرجع هو الرجوع بالبعث لأن ما بالموت بمعزل من الوعد كما أنه بمعزل من الاجتماع وقرئ بصيغة الفعل ﴿ حقا ﴾ مصدر آخر مؤكد لما دل عليه الأول ﴿ انه يبدأ الخلق ﴾ وقرئ يبدئ ﴿ ثم يعيده ﴾ وهو استئناف علل به وجوب المرجع اليه سبحانه وتعالى فان غاية البدء والاعادة هو جزاء المكلفين بأعمالهم حسنة أو سيئة وقرئ بالفتح أى لانه ويجوز كونه منصوبا بما نصب وعد الله أى وعد الله وعدا بدء الخلق ثم اعادته ومرفوعا بما نصب حقا أى حق حقا بدء الخلق الخ ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ أى بالعدل وهو حال من فاعل يجزى أى ملتبسا بالعدل أو متعلق ببجزى أى ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم وانما أجمل ذلك ايذانا بأنه لا يفى به الحصر أو بقسطهم وعدلهم عند ايمانهم ومباشرتهم للاعمال الصالحة وهو الانسب بقوله عز وجل ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ فان معناه ويجزى الذين كفروا بسبب كفرهم وتكرير الاسناد بجعل الجملة الظرفية خبرا للموصول لتقوية الحكم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على مواظبتهم على الكفر وتغيير النظم الكريم للايذان بكمال استحقاقهم للعقاب وأن التعذيب بمعزل عن الانتظام فى سلك العلة الغائية للخلق بدءا واعادة وانما يحيق ذلك بالكفرة على موجب سوء اختيارهم وأما المقصود الاصلى من ذلك فهو الاثابة ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء ﴾ تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته بآثار صنعه فى النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بما مر من ابداع السموات والارض والاستواء على العرش وغير ذلك وبيان لبعض أفراد التدبير الذى أشير اليه اشارة اجمالية وارشاد الى أنه حيث دبرت أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بالمعاد بارسال الرسول وانزال الكتاب وتبيين طرائق الهدى وتعيين مهاوى الردى أولى وأحرى والجعل ان جعل بمعنى الانشاء والابداع فضياء حال من مفعوله أى خلقها حال كونها

ذات ضياء على حذف المضاف أو ضياء محضا للمبالغة وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعوله الثانى أى جعلها ضياء على أحد الوجهين المذكورين لكن لا بعد أن كانت خالية عن تلك الحالة بل أبدعها كذلك كما فى قولهم ضيق فم الركية و وسع أسفلها والضياء مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وسوط و ياؤه منقلبة من الواو لانكسار ما قبلها وقرئ ضئاء بهمزتين بينهما ألف بتقديم اللام على العين ﴿ والقمر نورا ﴾ الكلام فيه كالكلام فى الشمس والضياء أقوى من النور وقيل ما بالذات ضوء وما بالعرض نور ففيه اشعار بأن نوره مستفاد من الشمس ﴿ وقدره ﴾ أى قدر له وهيأ ﴿ منازل ﴾ أو قدر مسيره فى منازل أو قدره ذا منازل على تضمين التقدير معنى التصيير وتخصيص القمر بهذا التقدير لسرعة سيره ومعاينة منازله وتعلق أحكام الشريعة به وكونه عمدة فى تواريخ العرب وقد جعل الضمير لكل منهما وهى ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاه و لا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل الى الثامنة والعشرين فاذا كان فى آخر منازله دق واستقوس ثم يستسر ليلتين أو ليلة اذا نقص الشهر و يكون مقام الشمس فى كل منزلة منها ثلاثة عشر يوما وهذه المنازل هى مواقع النجوم التى نسبت اليها العرب الانواء المستمطرة وهى الشرطان والبطين والثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك الغفر الزبانى الاكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت ﴿ لتعلموا ﴾ اما بتعاقب الليل والنهار المنوطين بطلوع الشمس وغروبها أو باعتبار نزول كل منهما فى تلك المنازل ﴿ عدد السنين ﴾ التى يتعلق بها غرض علمى لاقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿ والحساب ﴾ أى حساب الاوقات من الاشهر والايام والليالى وغير ذلك مما نيط به شئ من المصالح المذكورة وتخصيص العدد بالسنين والحساب بالاوقات لما أنه لم يعتبر فى السنين المعدودة معنى مغاير لمراتب الاعداد كما اعتبر فى الاوقات المحسوبة وتحقيقه أن الحساب احصاء ماله كمية انفصالية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل كالسنة المتحصلة من اثنى عشر شهرا قد تحصل كل من ذلك من ثلاثين يوما قد تحصل كل من ذلك من أربع وعشرين ساعة مثلا والعد مجرد احصائه بتكرير أمثاله من غير اعتبار أن يتحصل بذلك شئ كذلك ولما لم يعتبر فى السنين المعدودة تحصل حد معين له اسم خاص غير أسامى مراتب الاعداد وحكم مستقل أضيف اليها العدد وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والالوف اعتبارى لا يجدى فى تحصل المعدود نفعا وحيث اعتبر فى الاوقات المحسوبة تحصل ماذكر من المراتب التى لها أسام خاصة وأحكام مستقلة علق بها الحساب المنبئ عن ذلك والسنة من حيث تحققها فى نفسها مما يتعلق به الحساب وانما الذى يتعلق به العد طائفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة من تلك الطائفة ليس من الحيثية المذكورة أعنى حيثية تحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث أنها فرد من تلك الطائفة المعدودة من غير أن يعتبر معها شئ غير ذلك وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالى بما تعلق به الحساب تفصيلا وان لم تتحد الجهة أو لأن العدد من حيث أنه لم يعتبر فيه تحصل أمر آخر حسبما حقق آنفا نازل من الحساب الذى اعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب ﴿ ماخلق الله ذلك ﴾ أى ماذكر من الشمس والقمر على ماحكى من الاحوال وفيه ايذان بأن معنى جعلهما على تلك الاحوال والهيئات ليس الا خلقهما كذلك كما أشير اليه و لا يقدح فى ذلك أن استفادة القمر النور من الشمس أمر حادث فان المراد بجعله نورا انما هو جعله بحيث يتصف بالنور عند وجود شرائط الاتصاف به بالفعل ﴿ الا بالحق ﴾ استثناء مفرغ من أعم أحوال الفاعل

أو المفعول أى ماخلق ذلك ملتبسا بشئ من الاشياء الاملتبسا بالحق مراعيا لمقتضى الحكمة البالغة أومراعى فيه ذلك وهو ماأشير اليه اجمالا من العلم بأحوال السنين والاوقات المنوط به أمور معاملاتهم وعباداتهم ﴿يفصل الآيات﴾ أى الآيات التكوينية المذكورة أو جميع الآيات فيدخل فيها الآيات المذكورة دخولا أوليا أو يفصل الآيات التنزيلية المنبهة على ذلك وقرئ بنون العظمة ﴿لقوم يعلمون﴾ الحكمة فى ابداع الكائنات فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا أو يعلمون مافى تضاعيف الآيات المنزلة فيؤمنون بها وتخصيص التفصيل بهم لانهم المنتفعون به ﴿ان فى اختلاف الليل والنهار﴾ تنبيه آخر اجمالى على ماذكر أى فى تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السموات وسكون الارض أو فى تفاوتهما فى أنفسهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا و بعدا بحسب الازمنة أو فى اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة امافى الطول والقصر فان البلاد القريبة من القطب الشمالى أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها واما فى أنفسهما فان كرية الارض تقتضى أن يكون بعض الاوقات فى بعض الاماكن ليلا و فى مقابله نهارا ﴿وماخلق الله فى السموات والارض﴾ من أصناف المصنوعات ﴿لآيات﴾ عظيمة أو كثيرة دالة على وجود الصانع تعالى ووحدته وكمال علمه وقدرته و بالغ حكمته التى من جملة مقتضياتها ما أنكروه من ارسال الرسول صلى الله عليه وسلم وانزال الكتاب والبعث والجزاء ﴿لقوم يتقون﴾ خصهم بذلك لأن الداعى الى النظر والتدبر انما هو تقوى الله تعالى والحذر من العاقبة فهم الواقفون على أن جميع المخلوقات آيات دون غيرهم وكائى من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴿ان الذين لايرجون لقاءنا﴾ بيان لمآل أمر من كفر بالبعث وأعرض عن البينات الدالة عليه بعد تحقيق أن مرجع الكل اليه تعالى وأنه يعيدهم بعد بدئهم للجزاء ثوابا وعقابا وتفصيل بعض الآيات الشاهدة بذلك والمراد بلقائه اما الرجوع اليه تعالى بالبعث أولقاء الحساب كما فى قوله عز وعلا انى ظننت أنى ملاق حسابيه وأيا ما كان ففيه مع الالتفات الى ضمير الجلالة من تهويل الأمر مالايخفى والمراد بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقا المنتظم لعدم الامل وعدم الخوف فان عدمهما لايستدعى عدم اعتقاد وقوع المأمول والمخوف أى لايتوقعون الرجوع الينا أو لقاء حسابنا المؤدى اما الى حسن الثواب أو الى سوء العذاب فلا يأملون الأول واليه أشير بقوله عزوجل ﴿ورضوا بالحيوة الدنيا﴾ فانه منبئ عن ايثار الادنى الخسيس على الاعلى النفيس كقوله تعالى أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة و لايخافون الثانى واليه أشير بقوله تعالى ﴿واطمأنوا بها﴾ أى سكنوا فيها سكون من لابراح لهمنها آمنين من اعتراء المزعجات غير مخطرين ببالهم مايسوءهم من عذابنا وقيل المراد بالرجاء معناه الحقيقى وباللقاء حسن اللقاء أى لايأملون حسن لقائنا بالبعث والاحياء بالحياة الابدية ورضوا بدلا منها وبما فيها من فنون الكرامات السنية بالحياة الدنيا الدنية الفانية واطمأنوا بها أى سكنوا اليها مكبين عليها قاصرين مجامع هممهم على لذائذها و زخارفها من غير صارف يلويهم و لاعاطف يثنيهم وايثار الباء على كلمة الى المنبئة عن مجرد الوصول والانتهاء للايذان بتمام الملابسة ودوام المصاحبة والمؤانسة وحمل الرجاء على الخوف فقط يأباه كلمة الرضا بالحياة الدنيا فانها منبئة عما ذكر من ترك الأعلى وأخذ الأدنى واختيار صيغة الماضى فى الصلتين الاخيرتين للدلالة على التحقق والتقرر كما أن اختيار صيغة المستقبل فى الاولى للايذان باستمرار عدم الرجاء ﴿والذين هم عن آياتنا﴾ المفصلة فى صحائف الاكوان حسبما أشير الى بعضها أوآياتنا المنزلة المنبهة على الاستشهاد بها المتفقة معها فى الدلالة على حقية مالا يرجونه من اللقاء المترتب على البعث وعلى بطلان مارضوا به واطمأنوا اليه من الحياة الدنيا ﴿غافلون﴾ لايتفكرون فيها أصلا وان نبهوا على ذلك وذكروا

بأنواع القوارع لانهماكهم فيما يصدهم عنها من الاحوال المعدودة وتكرير الموصول للتوسل به الى جعل صلته جملة اسمية منبئة عما هم عليه من استمرار الغفلة ودوامها وتنزيل التغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى ايذانا بمغايرة الوصف الاخير للاوصاف الاول واستقلاله باستتباع العذاب هذا وأما ماقيل من أن العطف اما لتغاير الوصفين والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأسا والانهماك فى الشهوات بحيث لايخطر ببالهم الآخرة أصلا واما لتغاير الفريقين والمراد بالاولين من أنكر البعث ولم يرد الا الحياة الدنيا و بالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل فكلام ناء عن السداد فتأمل ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿مأواهم﴾ أى مسكنهم ومقرهم الذى لابراح لهم منه ﴿النار﴾ لاما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمها ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الاعمال القلبية المعدودة وما يستتبعه من أصناف المعاصى والسيئات أو بكسبهم اياها والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددى والباء متعلقة بمضمون الجملة الاخيرة الواقعة خبرا عن اسم الاشارة وهو مع خبره خبر لان فى قوله تعالى ان الذين لايرجون لقاءنا الخ ﴿ان الذين آمنوا﴾ أى فعلوا الايمان أو آمنوا بما يشهد به الآيات التى غفل عنها الغافلون أو بكل مايجب أن يؤمن به فيندرج فيه ذلك اندراجا أوليا ﴿وعملوا الصالحات﴾ أى الاعمال الصالحة فى أنفسها اللائقة بالايمان وانما ترك ذكر الموصوف لجريانها مجرى الاسماء ﴿يهديهم ربهم﴾ أو ثر الالتفات تشريفا لهم باضافة الرب واشعارا بعلة الهداية ﴿بايمانهم﴾ أى يهديهم بسبب ايمانهم الى مأواهم ومقصدهم وهى الجنة وانما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس اليها لاسيما بملاحظة ماسبق من بيان مأوى الكفرة وما اواهم اليه من أعمالهم السيئة ومشاهدة مالحق من التلويح والتصريح و فى النظم الكريم اشعار بأن مجرد الايمان والعمل الصالح لايكفى فى الوصول الى الجنة بل لابد بعد ذلك من الهداية الربانية وأن الكفر والمعاصى كافية فى دخول النار ثم انه لانزاع فى أن المراد بالايمان الذى جعل سببا لتلك الهداية هو ايمانهم الخاص المشفوع بالاعمال الصالحة لا الايمان المجرد عنها و لا ماهو أعم منهما الا أن ذلك بمعزل عن الدلالة على خلاف ماعليه أهل السنة والجماعة من أن الايمان الخالى عن العمل الصالح يفضى الى الجنة فى الجملة و لا يخلد صاحبه فى النار فان منطوق الآية الكريمة أن الايمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية الى الجنة وأما أن كل ماهو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها و لا لغيرها عليه قطعا كيف لاوقوله عز وجل الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون مناد بخلافه فان المراد بالظلم هو الشرك كما أطبق عليه المفسرون والمعنى لم يخلطوا ايمانهم بشرك ولئن حمل على ظاهره أيضا يدخل فى الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحا ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرام أو بترك واجب ﴿تجرى من تحتهم الأنهار﴾ أى بين أيديهم كقوله سبحانه وهذه الأنهار تجرى من تحتى أو تجرى وهم على سرر مرفوعة وأرائك مصفوفة والجملة مستأنفة أو خبر ثان لان أو حال من مفعول يهديهم على تقدير كونه المهدى اليه مايريدونه فى الجنة كما قيل وقيل يهديهم و يسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدى الى الثواب والجنة وقوله تجرى من تحتهم الانهار جار مجرى التفسير والبيان فان التمسك بحبل السعادة فى حكم الوصول اليها وقيل يهديهم الى ادراك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية كما قال عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم ﴿فى جنات النعيم﴾ خبر آخر أو حال أخرى منه أو من الانهار أو متعلق بتجرى أو يهدى فالمراد بالمهدى اليه اما منازلهم فى الجنة أو مايريدونه فيها ﴿دعواهم﴾ أى دعاؤهم وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿فيها﴾ متعلق به وقوله تعالى ﴿سبحانك اللهم﴾ خبره أى دعاؤهم هذا الكلام وهو معمول لمقدر لايجوز اظهاره والمعنى اللهم انا نسبحك تسبيحا ولعلهم يقولونه عند ماعاينوا فيها من تعاجيب آثار قدرته تعالى ونتائج

رحمته ورأفته مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر تقديسا لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصان وتنزيها لوعده الكريم عن سمات الخلف ﴿وتحيتهم فيها﴾ التحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياك الله حياة طيبة أى مايحيي به بعضهم بعضا أو تحية الملائكة اياهم كما فى قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام أو تحية الله عز وجل لهم كما فى قوله تعالى سلام قولا من رب رحيم ﴿سلام﴾ أى سلامة عن كل مكروه ﴿وآخر دعواهم﴾ أى خاتمة دعائهم ﴿أن الحمد لله رب العالمين﴾ أى أن يقولوا ذلك نعتا له عز وجل بصفات الاكرام اثر نعته تعالى بصفات الجلال أى دعاؤهم منحصر فيما ذكر اذ ليس لهم مطلب مترقب حتى ينظموه فى سلك الدعاء وأن هى المخففة من أن المثقلة أصله أنه الحمد لله فحذف ضمير الشأن كما فى قوله أن هالك كل من يحنى وينتعل وقرئ أن الحمد لله بالتشديد ونصب الحمد ولعل توسيط ذكر تحيتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمته للتوسل الى ختم الحكاية بالتحميد تبركا مع أن التحية ليست بأجنبية على الاطلاق ودعوى كون ترتيب الوقوع أيضا كذلك بأن كانوا حين دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة من الآفات والفوز بأصناف الكرامات أوحياهم بذلك رب العزة فحمدوه تعالى وأثنوا عليه يأباها اضافة الآخر الى دعواهم وقد جوز أن يكون المراد بالدعاء العبادة كما فى قوله تعالى وأعتزلكم وماتدعون الخ ايذانا بأن لا تكليف فى الجنة أى ماعبادتهم الا أن يسبحوه ويحمدوه وليس ذلك بعبادة انما يلهمونه وينطقون به تلذذا ولا يساعده تعيين الخاتمة ﴿ولو يعجل الله للناس﴾ هم الذين لا يرجون لقاءنا تعالى لانكارهم البعث وما يترتب عليه من الحساب والجزاء أشير الى بعض من عظائم معاصيهم المتفرعة على ذلك وهو استعجالهم بما أوعدوا به من العذاب تكذيبا واستهزاء وايرادهم باسم الجنس لما أن تعجيل الخير لهم ليس دائرا على وصفهم المذكور اذ ليس كل ذلك بطريق الاستدراج أى لو يعجل الله لهم ﴿الشر﴾ الذى كانوا يستعجلون به فانهم كانوا يقولون اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ونحو ذلك وقوله تعالى ﴿استعجالهم بالخير﴾ نصب على أنه مصدر تشبيهى وضع موضع مصدر ناصبه دلالة على اعتبار الاستعجال فى جانب المشبه كاعتبار التعجيل فى جانب المشبه به واشعارا بسرعة اجابته تعالى لهم حتى كان استعجالهم بالخير نفس تعجيله لهم والتقدير ولو يعجل الله لهم الشر عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به فحذف ما حذف تعويلا على دلالة الباقى عليه ﴿لقضى اليهم أجلهم﴾ لأدى اليهم الاجل الذى عين لعذابهم وأميتوا وأهلكوا بالمرة وما أمهلوا طرفة عين وفى ايثار صيغة المبنى للمفعول جرى على سنن الكبرياء مع الايذان بتعين الفاعل وقرئ على البناء للفاعل كما قرئ لقضينا واختيار صيغة الاستقبال فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة أن عدم قضاء الاجل لاستمرار عدم التعجيل فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى افادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام كما حقق فى موضعه واعلم أن مدار الافادة فى الشرطية أن يكون التالى أمرا مغايرا للمقدم فى نفسه مترتبا عليه فى الوجود كما فى قوله عز وجل لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم فان العنت أى الوقوع فى المشقة والهلاك أمر مغاير لطاعته عليه الصلاة والسلام لهم مترتب عليها فى الوجود أو يكون فردا كاملا من أفراده ممتازا عن البقية بأمر يخصه كما فى الأجوبة المحذوفة فى مثل قوله تعالى ولو ترى اذ وقفوا على ربهم وقوله تعالى ولو ترى اذ وقفوا على النار وقوله تعالى ولو ترى اذ المجرمون ونظائرها أى لرأيت أمرا هائلا فظيعا أو نحو ذلك وكما فى قوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة اذا فسر الجواب بالاستئصال فانه فرد كامل من أفراد مطلق المؤاخذة قد عبر عنه بما لا مزيد عليه فى الدلالة على الشدة والفظاعة فحسن موقعه فى معرض التالى للمؤاخذة المطلقة وأما

مانحن فيه من القضاء فليس بأمر مغاير لتعجيل الشر فى نفسه وهو ظاهر بل هو اما نفسه أو جزئى منه كسائر جزئياته من غير مزية له على البقية اذ لم يعتبر فى مفهومه ما ليس فى مفهوم تعجيل الشر من الشدة والهول فلا يكون فى ترتبه عليه وجودا أو عدما مزيد فائدة مصححة لجعله تاليا له فالحق أن المقدم ليس نفس التعجيل المذكور بل هو ارادته المستتبعة للقضاء المذكور وجودا وعدما كما فى قوله تعالى لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب أى لو يريد مؤاخذتهم فان تعجيل العذاب لهم نفس المؤاخذة أو جزئى من جزئياتها غير ممتاز عن البقية فليس فى بيان ترتبه عليها وجودا أو عدما مزيد فائدة وانما الفائدة فى بيان ترتبه على ارادتها حسبما ذكر وأيضا فى ترتب التالى على ارادة المقدم ما ليس فى ترتبه على نفسه من الدلالة على المبالغة وتهويل الامر والدلالة على أن الامور منوطة بارادته تعالى المبنية على الحكم البالغة ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ بنون العظمة الدالة على التشديد فى الوعيد وهو عطف على مقدر تنبئ عنه الشرطية كانه قيل لكن لا نفعل ذلك لما تقتضيه الحكمة فنتركهم امهالا واستدراجا ﴿فى طغيانهم﴾ الذى هو عدم رجاء اللقاء وانكار البعث والجزاء وما يتفرع على ذلك من أعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة ﴿يعمهون﴾ أى يترددون ويتحيرون ففى وضع الموصول موضع الضمير نوع بيان للطغيان بما فى حيز الصلة واشعار بعليته للترك والاستدراج ﴿واذا مس الانسان الضر﴾ أى أصابه جنس الضر من مرض وفقر وغيرهما من الشدائد اصابة يسيرة ﴿دعانا﴾ لكشفه وازالته ﴿لجنبه﴾ حال من فاعل دعا بشهادة ماعطف عليه من الحالين واللام بمعنى على كما فى قوله تعالى يخرون للاذقان أى دعانا كائنا على جنبه أى مضطجعا ﴿أو قاعدا أو قائما﴾ أى فى جميع الاحوال مما ذكر ومالم يذكر وتخصيص المعدودات بالذكر لعدم خلو الانسان عنها عادة أو دعانا فى جميع أحوال مرضه على أنه المراد بالضر خاصة مضطجعا عاجزا عن القعود وقاعدا غير قادر على النهوض وقائما لا يستطيع الحراك ﴿فلما كشفنا عنه ضره﴾ الذى مسه غب مادعانا حسبما ينبئ عنه الفاء ﴿مر﴾ أى مضى واستمر على طريقته التى كان ينتحيها قبل مساس الضر ونسى حالة الجهد والبلاء أو مر عن موقف الضراعة والابتهال ونأى بجانبه ﴿كأن لم يدعنا﴾ أى كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن كما فى قوله كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا والجملة التشبيهية فى محل النصب على الحالية من فاعل مر أى مر مشبها بمن لم يدعنا ﴿الى ضر﴾ اى الى كشف ضر ﴿مسه﴾ وهذا وصف للجنس باعتبار حال بعض أفراده ممن هو متصف بهذه الصفات ﴿كذلك﴾ نصب على المصدرية وذلك اشارة الى مصدر الفعل الآتى ومافيه من معنى البعد للتفخيم والكاف مقحمة للدلالة على زيادة فخامة المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل مكان أنت لا تبخل أى مثل ذلك التزيين العجيب ﴿زين للمسرفين﴾ أى للموصوفين بما ذكر من الصفات الذميمة واسرافهم لما أن الله تعالى انما أعطاهم القوى والمشاعر ليصرفوها الى مصارفها ويستعملوها فيما خلقت له من العلوم والاعمال الصالحة فلما صرفوها الى مالا ينبغى وهى رأس مالهم فقد أتلفوها وأسرفوا اسرافا ظاهرا والتزيين اما من جهة الله سبحانه على طريقة التخلية والخذلان أو من الشيطان بالوسوسة والتسويل ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الاعراض عن الذكر والدعاء والانهماك فى الشهوات وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث ان فى كل منهما املاء للكفرة على طريقة الاستدراج بعد الانقاذ من الشر المقدر فى الأولى ومن الضر المقرر فى الأخرى ﴿ولقد أهلكنا القرون﴾ أى القرون الخالية مثل قوم نوح وعاد وأضرابهم ومن فى قوله تعالى ﴿من قبلكم﴾ متعلقة بأهلكنا أى أهلكناهم من قبل زمانكم والخطاب لأهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة فى تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمى ﴿لما ظلموا﴾ ظرف للاهلاك أى أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتمادى فى الغى والضلال من غير تأخير وقوله تعالى

﴿وجاءتهم رسلهم﴾ حال من ضمير ظلموا باضمار قد وقوله تعالى ﴿بالبينات﴾ متعلق بجاءتهم على أن الباء للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من رسلهم دالة على افراطهم فى الظلم وتناهيهم فى المكابرة أى ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينة الدالة على صدقهم أو ملتبسين بها حين لا مجال للتكذيب وقد جوز أن يكون قوله تعالى وجاءتهم عطفا على ظلموا فلا محل له من الاعراب عند سيبويه وعند غيره محله الجر لأنه معطوف على ماهو مجرور باضافة الظرف اليه وليس الظلم منحصرا فى التكذيب حتى يحتاج الى الاعتذار بأن الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى كما فى قوله تعالى ورفع أبويه على العرش وخروا له الخ بل هو محمول على سائر أنواع الظلم والتكذيب مستفاد من قوله تعالى ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ على أبلغ وجه وآكده فان اللام لتأكيد النفى أى وماصح وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله تعالى اياهم لعلمه بأن الالطاف لا تنجع فيهم والجملة على الاول عطف على ظلموا لأنه اخبار باحداث التكذيب وهذا بالاصرار عليه وعلى الثانى عطف على ماعطف عليه وقيل اعتراض بين الفعل ومايجرى مجرى مصدره والتشبيهى أعنى قوله تعالى ﴿كذلك﴾ فان الجزاء المشار اليه عبارة عن مصدره أى مثل ذلك الجزاء الفظيع أى الاهلاك الشديد الذى هو الاستئصال بالمرة ﴿نجزى القوم المجرمين﴾ أى كل طائفة مجرمة وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لأهل مكة لاشتراكهم لأولئك المهلكين فى الجرائم والجرائر التى هى تكذيب الرسول والاصرار عليه وتقرير لمضمون ماسبق من قوله تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير وقرئ بالياء على الالتفات الى الغيبة وقد جوز أن يكون المراد بالقوم المجرمين أهل مكة على طريقة وضع الظاهر موضع ضمير الخطاب ايذانا بأنهم أعلام فى الاجرام وبأباه كل الاباء قوله عز وجل ﴿ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم﴾ فانه صريح فى أنه ابتداء تعرض لأمورهم وأن مابين فيه انما هو مبادى أحوالهم لاختبار كيفيات أعمالهم على وجه يشعر باستتباعهم نحو الايمان والطاعة فحال أن يكون ذلك اثر بيان منتهى أمرهم وخطابهم بيت القول باهلاكهم لكمال اجرامهم والمعنى ثم استخلفناكم فى الارض من بعد اهلاك أولئك القرون التى تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها استخلاف من يختبر ﴿لننظر﴾ أى لنعامل معاملة من ينظر ﴿كيف تعملون﴾ فهى استعارة تمثيلية وكيف منصوب على المصدرية بتعملون لا بننظر فان مافيه من معنى الاستفهام مانع من تقدم عامله عليه أى أى عمل أو على الحالية أى على أى حال تعملون الاعمال اللائقة بالاستخلاف من أوصاف الحسن كقوله عز وعلا ليبلوكم أيكم أحسن عملا ففيه اشعار بأن المراد بالذات والمقصود الاصلى من الاستخلاف انما هو ظهور الكيفيات الحسنة للاعمال الصالحة وأما الاعمال السيئة فبمعزل من أن تصدر عنهم لاسيما بعد ماسمعوا أخبار القرون المهلكة وشاهدوا آثار بعضها فضلا عن أن ينظم ظهورها فى سلك العلة الغائية للاستخلاف وقيل منصوب على أنه مفعول به أى أى عمل تعملون أخيرا أم شرا فنعاملكم بحسبه فلا يكون فى كلمة كيف حينئذ دلالة على أن المعتبر فى الجزاء جهات الاعمال وكيفياتها لاذواتها كما هو رأى القائل بل تكون حينئذ مستعارة لمعنى أى شئ ﴿واذا تتلى عليهم﴾ التفات من خطابهم الى الغيبة اعراضا عنهم وتوجيها للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديد جناياتهم المضادة لما أريد منهم بالاستخلاف من تكذيب الرسول والكفر بالآيات البينات وغير ذلك كدأب من قبلهم من القرون المهلكة وصيغة المضارع للدلالة على تجدد جوابهم الآتى حسب تجدد التلاوة ﴿آياتنا﴾ الدالة على حقية التوحيد وبطلان الشرك والاضافة لتشريف المضاف والترغيب فى الايمان به والترهيب عن تكذيبه ﴿بينات﴾ حال كونها واضحات الدلالة على ذلك وايراد فعل التلاوة مبنيا للمفعول مسندا الى الآيات دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنائه للفاعل للاشعار بعدم الحاجة لتعين التالى وللايذان بأن كلامهم فى نفس المتلو دون التالى

﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ وضع الموصول موضع الضمير اشعارا بعلية مافى حيز الصلة للعظيمة المحكية عنهم وأنهم انما اجترؤا عليها لعدم خوفهم من عقابه تعالى يوم اللقاء لانكارهم له ولما هو من مباديه من البعث وذما لهم بذلك أى قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما لم يذكر ايذانا بتعينه ﴿ائت بقرآن غير هذا﴾ أشاروا بهذا الى القرآن المشتمل على تلك الآيات لا الى نفسها فقط قصدا الى اخراج الكل من البين أى ائت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه مانستبعده من البعث والحساب والجزاء ومانكرهه من ذم آلهتنا ومعايبها والوعيد على عبادتها ﴿أو بدله﴾ بتغيير ترتيبه بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى خالية عنها وانما قالوه كيدا وطمعا فى المساعدة ليتوسلوا به الى الالزام والاستهزاء به ﴿قل﴾ لهم ﴿ما يكون لى﴾ أى مايصح ومايستقيم لى ولا يمكننى أصلا ﴿أن أبدله من تلقاء نفسى﴾ أى من قبل نفسى وهو مصدر استعمل ظرفا وقرئ بفتح التاء وقصر الجواب ببيان امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثانى للايذان بأن استحالة ما اقترحوه أولا من الظهور بحيث لا حاجة الى بيانها وأن التصدى لذلك مع كونه ضائعا ربما يعد من قبيل المجاراة مع السفهاء اذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء ولان مايدل على استحالة الثانى يدل على استحالة الاول بالطريق الاولى ﴿ان أتبع﴾ أى ما أتبع فى شئ مما آتى وأذر ﴿الا مايوحى الى﴾ من غير تغيير له فى شئ أصلا على معنى قصر حاله عليه السلام على اتباع مايوحى اليه لا قصر اتباعه على مايوحى اليه كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل ما أفعل الا اتباع مايوحى الى وقد مر تحقيق المقام فى سورة الأنعام وهو تعليل لصدر الكلام فان من شأنه اتباع الوحى على ماهو عليه لا يستبد بشئ دونه قطعا وفيه جواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ورد لما عرضوا به عليه الصلاة والسلام بهذا السؤال من أن القرآن كلامه عليه الصلاة والسلام ولذلك قيد التبديل فى الجواب بقوله من تلقاء نفسى وسماه عصيانا عظيما مستتبعا لعذاب عظيم بقوله تعالى ﴿انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم﴾ فانه تعليل لمضمون ماقبله من امتناع التبديل واقتصار أمره عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى أى أخاف ان عصيته تعالى بتعاطى ماليس لى من التبديل من تلقاء نفسى والاعراض عن اتباع الوحى عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة أو يوم اللقاء الذى لا يرجونه وفيه اشعار بأنهم استوجبوه بهذا الاقتراح والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام لتهويل أمر العصيان واظهار كمال نزاهته عليه السلام عنه وايراد اليوم بالتنوين التفخيمى ووصفه بالعظم لتهويل مافيه من العذاب وتفظيعه ولا مساغ لحمل مقترحهم على التبديل والاتيان بقرآن آخر من جهة الوحى بتفسير قوله تعالى ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى بأنه لا يتسهل لى أن أبدله بالاستدعاء من جهة الوحى ما أتبع الا مايوحى الى من غير صنع ما من الاستدعاء وغيره من قبلى لأنه يرده التعليل المذكور لا لأن المقترح حينئذ ليس فيه معصية أصلا كما توهم فان استدعاء تبديل الآيات النازلة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بعضها ببعض لاسيما بموجب اقتراح الكفرة مما لا ريب فى كونه معصية بل لانه ليس فيه معصية الافتراء مع أنها المقصودة بما ذكر فى التعليل ألا يرى الى مابعده من الآيتين الكريمتين فانه صريح فى أن مقترحهم الاتيان بغير القرآن وتبديله بطريق الافتراء وأن زعمهم فى الاصل أيضا كذلك وقوله عز وجل ﴿قل لو شاء الله ماتلوته عليكم﴾ تحقيق لحقية القرآن وكونه من عند الله تعالى اثر بيان بطلان ماقترحوا الاتيان به واستحالته عبارة ودلالة وانما صدر بالامر المستقل مع كونه داخلا تحت الامر السابق اظهارا لكمال الاعتناء بشأنه وايذانا باستقلاله مفهوما وأسلوبا فانه برهان دال على كونه بأمر الله تعالى ومشيئته كما سيأتى وما سبق مجرد اخبار باستحالة ماقترحوه ومفعول شاء محذوف ينبئ عنه الجزاء لاغير ذلك كما قيل فان مفعول المشيئة انما يحذف اذا وقعت شرطا وكان مفعولها مضمون الجزاء ولم يكن فى تعلقها به غرابة

كما فى قوله ولو شئت أن أبكى دما لبكيته حيث لم يحذف لفقدان الشرط الاخير ولان المستلزم للجزاء أعنى عدم تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن عليهم انما هو مشيئته تعالى له لا مشيئته لغير القرآن والمعنى أن الامر كله منوط بمشيئته تعالى وليس لى منه شئ قط ولو شاء عدم تلاوتى له عليكم لا بأن شاء عدم تلاوتى له من تلقاء نفسى بل بأن لم ينزله على ولم يأمرنى بتلاوته كما ينبئ عنه ايثار التلاوة على القراءة ماتلوته عليكم ﴿ ولا أدراكم به ﴾ أى ولا أعلمكم به بواسطتى والتالى وهو عدم التلاوة والادراء منتف فينتفى المقدم أعنى مشيئة عدم التلاوة ولا يخفى أنها مستلزمة لعدم مشيئة التلاوة قطعا فانتفاؤها مستلزم لانتفائه حتما وانتفاء عدم مشيئة التلاوة انما يكون بتحقق مشيئة التلاوة فثبت أن تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن بمشيئته تعالى وأمره وانما قيدنا الادراء بكونه بواسطته عليه الصلاة والسلام لان عدم الاعلام مطلقا ليس من لوازم الشرط الذى هو مشيئة عدم تلاوته عليه السلام فلا يجوز نظمه فى سلك الجزاء وفى اسناد عدم الادراء اليه تعالى المنبئ عن استناد الادراء اليه تعالى ايذان بأن لادخل له عليه السلام فى ذلك حسبما يقتضيه المقام وقرئ ولا ادرأتكم ولا ادرأكم بالهمز فيهما على لغة من يقول أعطأت وأرضأت فى أعطيت وأرضيت أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أى ولا جعلتكم بتلاوته عليكم خصماء تدرؤننى بالجدال وقرئ ولا أنذرتكم به وقرئ لأدراكم بلام الجواب أى لو شاء الله ماتلوته عليكم أنا ولا علمكم به على لسان غيرى على معنى انه الحق الذى لا محيص عنه لو لم أرسل به أنا لأرسل به غيرى البتة أو على معنى أنه تعالى يمن على من يشاء تخصينى بهذه الكرامة ﴿ فقد لبثت فيكم عمرا ﴾ تعليل للملازمة المستلزمة لكون تلاوته بمشيئة الله تعالى وأمره حسبما بين آنفا لكن لا بطريق الاستدلال عليها بعدم تلاوته عليه الصلاة والسلام فيما سبق بسبب مشيئته تعالى اياه بل بطريق الاستشهاد عليها بما شاهدوا منه عليه الصلاة والسلام فى تلك المدة الطويلة من الأمور الدالة على استحالة كون التلاوة من جهته عليه الصلاة والسلام بلا وحى وعمرا نصب على التشبيه بظرف الزمان والمعنى قد أقمت فيما بينكم دهرا مديدا مقدار أربعين سنة تحفظون تفاصيل أحوالى طرا وتحيطون بما لدى خبرا ﴿ من قبله ﴾ أى من قبل نزول القرآن لا أتعاطى شيأ مما يتعلق به لا من حيث نظمه المعجز ولا من حيث معناه الكاشف عن أسرار الحقائق وأحكام الشرائع ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أى ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون امتناع صدوره عن مثلى ووجوب كونه منزلا من عند الله العزيز الحكيم فانه غير خاف على من له عقل سليم والحق الذى لا محيد عنه أن من له أدنى مسكة من العقل اذا تأمل فى أمره عليه الصلاة والسلام وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل من غير مصاحبة العلماء فى شأن من الشئون ولا مراجعة اليهم فى فن من الفنون ولا مخالطة البلغاء فى المفاوضة والحوار ولا خوض معهم فى انشاء الخطب والاشعار ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته كل فصيح فائق وبذت بلاغته كل بليغ رائق أو علا نظمه كل منثور ومنظوم وحوى فحواه بدائع أصناف العلوم كاشف عن أسرار الغيب من وراء أستار الكمون ناطق بأخبار ما قد كان وما سيكون مصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة مهيمن عليها فى أحكامها المجملة والمفصلة لا يبقى عنده شائبة اشتباه فى أنه وحى منزل من عند الله هذا هو الذى اتفقت عليه كلمة الجمهور ولكن الانسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم واقتصار حاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى وامتناع الاستبداد بالرأى من غير تعرض هناك ولا ههنا لكون القرآن فى نفسه أمرا خارجا عن طوق البشر ولا لكونه عليه الصلاة والسلام غير قادر على الاتيان بمثله أن يستشهد ههنا على المطلب بما يلائم ذلك من أحواله المستمرة فى تلك المدة المتطاولة من كمال نزاهته عليه الصلاة والسلام عما يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه فى حق أحد كائنا من كان كما ينبئ عنه تعقيبه بتظليم

المفترى على الله تعالى والمعنى قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحى لا أتعرض لاحد قط بتحكم ولا جدال ولا أحوم حول مقال فيه شائبة شبهة فضلا عما فيه كذب أو افتراء ألا تلاحظون فلا تعقلون أن من هذا شأنه المطرد فى هذا العهد البعيد مستحيل أن يفترى على الله عز وجل ويتحكم على كافة الخلق بالاوامر والنواهى الموجبة لسلب الاموال وسفك الدماء ونحو ذلك وأن ما أتى به وحى مبين تنزيل من رب العالمين وقوله عز وجل ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ استفهام انكارى معناه الجحد أى لا أحد أظلم منه على معنى أنه أظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب مفيدا لانكار أن يكون أحد أظلم منه من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها فانه اذا قيل من أفضل من فلان أو لا أعلم منه يفهم منه حتما أنه أفضل من كل فاضل وأعلم من كل عالم وزيادة قوله تعالى كذبا مع أن الافتراء لا يكون الا كذلك للايذان بأن ما أضافوه اليه ضمنا وحملوه عليه الصلاة والسلام عليه صريحا مع كونه افتراء على الله تعالى كذب فى نفسه فرب افتراء يكون كذبه فى الاسناد فقط كما اذا أسند ذنب زيد الى عمرو وهذا للمبالغة منه عليه الصلاة والسلام فى التفادى عما ذكر من الافتراء على الله سبحانه ﴿ أو كذب بآياته ﴾ فكفر بها وهذا تظليم للمشركين بتكذيبهم للقرآن وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام والفاء لترتيب الكلام على ما سبق من بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره فلا مجال لحمل الافتراء على الافتراء باتخاذ الولد والشريك أى واذا كان الأمر كذلك فمن افترى عليه تعالى بأن يختلق كلاما فيقول هذا من عند الله أو يبدل بعض آياته تعالى ببعض كما تجوزون ذلك فى شأنى وكذلك من كذب بآياته تعالى كما تفعلونه أظلم من كل ظالم ﴿ انه ﴾ الضمير للشأن وقع اسما لان والخبر ما يعقبه من الجملة ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصديرها به الايذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الامر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده عليه فضل تمكن فكأنه قيل ان الشأن هذا أى ﴿ لا يفلح المجرمون ﴾ أى لا ينجون من محذور ولا يظفرون بمطلوب والمراد جنس المجرمين فيندرج فيه المفترى والمكذب اندراجا أوليا ﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ حكاية لجناية أخرى لهم نشأت عنها جنايتهم الاولى معطوفة على قوله تعالى واذا تتلى عليهم الآية عطف قصة على قصة ومن دون متعلق بيعبدون ومحله النصب على الحالية من فاعله أى متجاوزين الله سبحانه لا بمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلها قرينا لعبادة الاصنام كما يفصح عنه سياق النظم الكريم ﴿ ما لا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ أى ما ليس من شأنه الضر والنفع من الاصنام التى هى جمادات وما موصولة أو موصوفة وتقديم نفى الضرر لأن أدنى أحكام العبادة دفع الضرر الذى هو أول المنافع والعبادة أمر حادث مسبوق بالعدم الذى هو مظنة الضرر فحيث لم تقدر الاصنام على الضرر لم يوجد لاحداث العبادة سبب وقيل لا يضرهم ان تركوا عبادتها ولا ينفعهم ان عبدوها . كان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة عزى ومناة وهبل واسافا ونائلة ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ عن النضر بن الحرث اذا كان يوم القيامة يشفع لى اللات قيل انهم كانوا يعتقدون أن المتولى لكل اقليم روح معين من أرواح الافلاك فعينوا لذلك الروح صنما معينا من الاصنام واشتغلوا بعبادته ومقصودهم ذلك الروح ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عند الاله الأعظم مشتغلا بعبوديته وقيل انهم كانوا يعبدون الكواكب فوضعوا لها أصناما معينة واشتغلوا بعبادتها قصدا الى عبادة الكواكب وقيل انهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الاصنام ثم تقربوا اليها وقيل انهم وضعوا هذه الاصنام على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان أولئك الأكابر يشفعون لهم عند الله تعالى ﴿ قل ﴾ تبكيتا لهم ﴿ أتنبئون الله بما لا يعلم ﴾ أى أتخبرونه بما لا وجود له أصلا وهو كون الأصنام

شفعاءهم عند الله تعالى اذ لو لاه لعلمه علام الغيوب وفيه تقريع لهم وتهكم بهم وبما يدعونه من المحال الذى لا يكاد يدخل تحت الصحة والامكان وقرئ أتنبئون بالتخفيف وقوله تعالى ﴿فى السموات ولا فى الارض﴾ حال من العائد المحذوف فى يعلم مؤكدة للنفى لان مالا يوجد فيهما فهو منتف عادة ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ عن اشراكهم المستلزم لتلك المقالة الباطلة أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءهم عند الله تعالى وقرئ تشركون بتاء الخطاب على أنه من جملة القول المأمور به وعلى الأول هو اعتراض تذييلى من جهته سبحانه وتعالى ﴿وما كان الناس الا أمة واحدة﴾ بيان لان التوحيد والاسلام ملة قديمة أجمعت عليها الناس قاطبة فطرة وتشريعا وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة خلافا للجمهور وشقا لعصا الجماعة وأما حمل اتحادهم على الاتفاق على الضلال عند الفترة واختلافهم على ما كان منهم من الاتباع والاصرار فمما لا احتمال له أى وما كان الناس كافة من أول الأمر الا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلاف وذلك من عهد آدم عليه الصلاة والسلام الى أن قتل قابيل هابيل وقيل الى زمن ادريس عليه السلام وقيل الى زمن نوح عليه السلام وقيل من حين الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا الى أن ظهر فيما بينهم الكفر وقيل من لدن ابراهيم عليه الصلاة والسلام الى أن أظهر عمرو بن لحى عبادة الأصنام فالمراد بالناس العرب خاصة وهو الأنسب بايراد الآية الكريمة اثر حكاية ما حكى عنهم من الهنات وتنزيه ساحة الكبرياء عن ذلك ﴿فاختلفوا﴾ بأن كفر بعضهم وثبت آخرون على ما هم عليه فخالف كل من الفريقين الآخر لا أن كلا منهما أحدث ملة على حدة من ملل الكفر مخالفة لملة الآخر فان الكلام ليس فى ذلك الاختلاف اذ كل منهما مبطل حينئذ فلا يتصور أن يقضى بينهما بابقاء المحق واهلاك المبطل والفاء التعقيبية لا تنافى امتداد زمان الاتفاق اذ المراد بيان وقوع الاختلاف عقيب انصرام مدة الاتفاق لا عقيب حدوث الاتفاق ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ بتأخير القضاء بينهم أو بتأخير العذاب الفاصل بينهم الى يوم القيامة فانه يوم الفصل ﴿لقضى بينهم﴾ عاجلا ﴿فيما فيه يختلفون﴾ بتمييز الحق من الباطل بابقاء المحق واهلاك المبطل وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية والدلالة على الاستمرار ﴿ويقولون﴾ حكاية لجناية أخرى لهم معطوفة على قوله تعالى ويعبدون وصيغة المضارع لاستحضار صورة مقالتهم الشنعاء والدلالة على الاستمرار والقائلون أهل مكة ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أرادوا آية من الآيات التى اقترحوها كأنهم لفرط العتو والفساد ونهاية التمادى فى المكابرة والعناد لم يعدوا البينات النازلة عليه عليه الصلاة السلام من جنس الآيات واقترحوا غيرها مع أنه قد أنزل عليه من الآيات الباهرة والمعجزات المتكاثرة ما يضطرهم الى الانقياد والقبول لو كانوا من أرباب العقول ﴿فقل﴾ لهم فى الجواب ﴿انما الغيب لله﴾ اللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فان الغيب والشهادة فى ذلك الاختصاص سيان والمعنى أن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم ايمانكم بنزوله من الغيوب المختصة بالله تعالى لا وقوف لى عليه ﴿فانتظروا﴾ نزوله ﴿انى معكم من المنتظرين﴾ أى لما يفعل الله بكم لاجترائكم على مثل هذه العظيمة من جحود الآيات واقتراح غيرها وجعل الغيب عبارة عن الصارف عن انزال الآيات المقترحة يأباه ترتيب الأمر بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى ﴿واذا أذقنا الناس رحمة﴾ صحة وسعة ﴿من بعد ضراء مستهم﴾ أى خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم واسناد المساس الى الضراء بعد اسناد الاذاقة الى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية كما فى قوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين ونظائره. قيل سلط الله تعالى على أهل مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحيا فطفقوا يطعنون فى آياته تعالى ويعادون رسوله عليه الصلاة والسلام ويكيدونه وذلك قوله تعالى ﴿اذا لهم مكر فى آياتنا﴾ أى بالطعن فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال فى دفعها واذا الأولى شرطية والثانية جوابها كأنه

قيل فاجؤوا وقوع المكر منهم وتنكير مكر للتفخيم وفى متعلقة بالاستقرار الذى يتعلق به اللام ﴿قل الله أسرع مكرا﴾ أى أعجل عقوبة أى عذابه أسرع وصولا اليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق وتسمية العقوبة بالمكر لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجودا أو ذكرا ﴿ان رسلنا﴾ الذين يحفظون أعمالكم والاضافة للتشريف ﴿يكتبون ما تمكرون﴾ أى مكركم أو ما تمكرونه وهو تحقيق للانتقام منهم وتنبيه على أن ما دبروا فى اخفائه غير خاف على الحفظة فضلا عن العليم الخبير وصيغة الاستقبال فى الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددى والجملة تعليل من جهته تعالى لأسرعية مكره سبحانه غير داخل فى الكلام الملقن كقوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا فان كتابة الرسل لما يمكرون من مبادى بطلان مكرهم وتخلف أثره عنه بالكلية وفيه من المبالغة ما لا يوصف وتلوين الخطاب بصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم للتشديد فى التوبيخ وقرئ على لفظ الغيبة فيكون حينئذ تعليلا لما ذكر أو للامر ﴿هو الذى يسيركم﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جناية أخرى لهم مبنية على ما مر آنفا من اختلاف حالهم حسب اختلاف ما يعتريهم من السراء والضراء أى يمكنكم من السير تمكينا مستمرا عند الملابسة به وقبلها ﴿فى البر﴾ مشاة وركبانا وقرئ ينشركم من النشر ومنه قوله عز وجل بشر تنتشرون ﴿والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك﴾ أى السفن فانه جمع فلك على زنة أسد جمع أسد لا على وزن قفل وغاية التسيير ليست ابتداء ركوبهم فيها بل مضمون الشرطية بتمامه كما ينبئ عنه ايثار الكون المؤذن بالدوام على الركوب المشعر بالحدوث ﴿وجرين﴾ أى السفن ﴿بهم﴾ بالذين فيها والالتفات الى الغيبة للايذان بمالهم من سوء الحال الموجب للاعراض عنهم كأنه يذكر لغيرهم مساوئ أحوالهم ليعجبهم منها ويستدعى منه الانكار والتقبيح وقيل ليس فيه التفات بل معنى قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك اذا كان بعضكم فيها اذ الخطاب للكل ومنهم المسيرون فى البر فالضمير الغائب عائد الى ذلك المضاف المقدر كما فى قوله تعالى أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه أى أو كذى ظلمات يغشاه موج ﴿بريح طيبة﴾ لينة الهبوب موافقة لمقصدهم ﴿وفرحوا بها﴾ بتلك الريح لطيبها وموافقتها ﴿جاءتها﴾ جواب اذا والضمير المنصوب للريح الطيبة أى تلقتها واستولت عليها من طرف مخالف لها فان الهبوب على وفقها لا يسمى مجيئا لريح أخرى عادة بل هو اشتداد للريح الاولى وقيل للفلك والأول أظهر لاستلزامه للثانى من غير عكس لأن الهبوب على طريقة الريح اللينة يعد مجيئا بالنسبة الى الفلك دون الريح اللينة مع أنه لا يستتبع تلاطم الأمواج الموجب لمجيئها من كل مكان ولأن التهويل فى بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلقوا به حبال رجائهم أكثر ﴿ريح عاصف﴾ أى ذات عصف وقيل العصوف مختص بالريح فلا حاجة الى الفارق وقيل الريح قد يذكر ﴿وجاءهم الموج﴾ فى الفلك ﴿من كل مكان﴾ أى من أمكنة مجئ الموج عادة ولا بعد فى مجيئه من جميع الجوانب أيضا اذ لا يجب ان يكون مجيئه من جهة هبوب الريح فقط بل قد يكون من غيرها بحسب أسباب تتفق له ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أى هلكوا فان ذلك مثل فى الهلاك أصله احاطة العدو بالحى أو سدت عليهم مسالك الخلاص ﴿دعوا الله﴾ بدل من ظنوا بدل اشتمال لما بينهما من الملابسة والتلازم أو استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الأذهان كأنه قيل فماذا صنعوا فقيل دعوا الله ﴿مخلصين له الدين﴾ من غير أن يشركوا به شيئا من آلهتهم لا مخصصين للدعاء به تعالى فقط بل للعبادة أيضا فانهم بمجرد تخصيص الدعاء به تعالى لا يكونون مخلصين له الدين ﴿لئن أنجيتنا﴾ اللام موطئة للقسم على ارادة القول أى قائلين والله لئن انجيتنا ﴿من هذه﴾ الورطة ﴿لنكونن﴾ البتة بعد ذلك أبدا ﴿من الشاكرين﴾ لنعمك التى من جملتها هذه النعمة المسئولة وقيل الجملة مفعول دعوا لأن الدعاء من قبيل القول والأول هو الأولى لاستدعاء الثانى لاقتصار دعائهم على ذلك فقط وفى قوله لنكونن من الشاكرين من المبالغة فى الدلالة على كونهم ثابتين فى الشكر مثابرين عليه منتظمين فى سلك المنعوتين

بالشكر الراسخين فيه ماليس فى أن يقال لنشكرن ﴿فلما أنجاهم﴾ مما غشيهم من الكربة والفاء للدلالة على سرعة الاجابة ﴿اذا هم يبغون فى الأرض﴾ أى فاجؤا الفساد فيها وسارعوا اليه متراقين فى ذلك متجاوزين عما كانوا عليه من حدود العيث من قولهم بغى الجرح اذا ترامى فى الفساد وزيادة فى الأرض للدلالة على شمول بغيهم لاقطارها وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقوله تعالى ﴿بغير الحق﴾ تأكيد لما يفيده البغى أو معناه أنه بغير الحق عندهم أيضا بأن يكون ذلك ظلما ظاهرا لايخفى قبحه على أحد كما فى قوله تعالى ويقتلون النبيين بغير الحق وأما ماقيل من أنه للاحتراز عن البغى بحق كتخريب الغزاة ديار الكفرة وقطع أشجارهم واحراق زرعهم فلا يساعده النظم الكريم لابتنائه على كون البغى بمعنى افساد صورة الشىء وابطال منفعته دون ماذكر من المعنى اللائق بحال المفسدين ﴿ياأيها الناس﴾ توجيه للخطاب الى أولئك الباغين للتشديد فى التهديد والمبالغة فى الوعيد ﴿انما بغيكم﴾ الذى تتعاطونه وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿على أنفسكم﴾ خبره أى عليكم فى الحقيقة لاعلى الذين تبغون عليهم وان ظن كذلك وقوله تعالى ﴿متاع الحيوة الدنيا﴾ بيان لكون مافيه من المنفعة العاجلة شيأ غير معتد به سريع الزوال دائم الوبال وهو نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستئناف أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا وقيل على أنه مصدر وقع موقع الحال أى متمتعين بالحياة الدنيا والعامل هو الاستقرار الذى فى الخبر لانفس البغى لأنه يؤدى الى الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر ولا يخبر عن الموصول الا بعد تمام صلته وأنت خبير بأنه ليس فى تقييد كون بغيهم على أنفسهم بحال تمتعهم بالحياة الدنيا معنى يعتد به وقيل على أنه ظرف زمان نحو مقدم الحاج أى زمن متاع الحياة الدنيا وفيه مامر بعينه وقيل على أنه مفعول لفعل دل عليه المصدر أى تبغون متاع الحياة الدنيا ولا يخفى أنه لايدل على البغى بمعنى الطلب وجعل المصدر أيضا بمعناه مما يخل بجزالة النظم الكريم لأن الاستئناف لبيان سوء عاقبة ماحكى عنهم من البغى المفسر بالافساد المفرط اللائق بحالهم فأى مناسبة بينه وبين البغى بمعنى الطلب وجعل الأول أيضا بمعناه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه وقيل على أنه مفعول له أى لأجل متاع الحياة الدنيا والعامل ماذكر من الاستقرار وفيه أن المعلل بما ذكر نفس البغى لا كونه على أنفسهم وقيل العامل فيه فعل مدلول عليه بالمصدر أى تبغون لأجل متاع الحياة الدنيا على أن الجملة مستأنفة وقيل على أنه مفعول صريح للمصدر وعلى أنفسكم ظرف لغو متعلق به والمراد بالأنفس الجنس والخبر محذوف لطول الكلام والتقدير انما بغيكم على أبناء جنسكم متاع الحياة الدنيا محذورا وظاهر الفساد أو نحو ذلك وفيه مامر من ابتنائه على مالا يليق بالمقام من كون البغى بمعنى الطلب نعم لو جعل نصبه على العلة أى انما بغيكم على أبناء جنسكم لأجل متاع الحياة الدنيا محذورا كما اختاره بعضهم لكان له وجه فى الجملة لكن الحق الذى تقتضيه جزالة التنزيل انما هو الأول وقرىء متاع بالرفع على أنه الخبر والظرف صلة للمصدر أو خبر ثان أو خبر لمبتدا محذوف أى هو متاع الخ كما فى قوله تعالى الا ساعة من نهار بلاغ أى هذا بلاغ فالمراد بأنفسهم على الوجه الأول أبناء جنسهم وانما عبر عنهم بذلك هزا لشفقتهم عليهم وحثا لهم على ترك ايثار التمتع المذكور على حقوقهم ولا مجال للحمل على الحقيقة لأن كون بغيهم وبالا عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ماحكى عنهم ولم يخبر به بعد حتى يجعل من تتمة الكلام ويجعل كونه متاعا مقصود الافادة على أن عنوان كونه وبالا عليهم قادح فى كونه متاعا فضلا عن كونه من مبادى ثبوته للمبتدا كما هو المتبادر من السوق وأما كون البغى على أبناء الجنس فمعلوم الثبوت عندهم ومتضمن لمبادى التمتع من أخذ المال والاستيلاء على الناس وغير ذلك وأما على الوجهين الأخيرين فلا موجب للعدول عن الحقيقة فان المبتدا اما نفس البغى أو الضمير العائد اليه من حيث هو هو لا من حيث كونه وبالا عليهم كما فى صورة كون

الظرف صلة المصدر فتدبر وقرىء متاعا الحياة الدنيا أما نصب متاعا فعلى مامر وأما نصب الحياة فعلى أنه بدل من متاعا بدل اشتمال وقيل على أنه مفعول به لمتاعا اذا لم يكن انتصابه على المصدرية لأن المصدر المؤكد لا يعمل . عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتمكر ولا تعن ماكرا ولا تبغ ولا تعن باغيا ولا تنكث ولا تعن ناكثا وكان يتلوها وقال محمد ابن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر قال تعالى انما بغيكم على أنفسكم وما يمكرون الا بأنفسهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه وعنه عليه الصلاة والسلام أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله تعالى فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لو بغى جبل على جبل لدك الباغى ﴿ثم الينا مرجعكم﴾ عطف على مامر من الجملة المستأنفة المقدرة كأنه قيل تتمعون متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون الينا وانما غير السبك الى الجملة الاسمية مع تقديم الجار والمجرور للدلالة على الثبات والقصر ﴿فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ فى الدنيا على الاستمرار من البغى وهو وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة خفية مبنية على حكمة أبية وهى أن كل مايظهر فى هذه النشأة من الأعيان والاعراض فانما يظهر بصورة مغايرة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة فان المعاصى مثلا سموم قاتلة قد برزت فى الدنيا بصور تستحسنها نفوس العصاة وكذا الطاعات مع كونها أحسن الأحاسن قد ظهرت عندهم بصور مكروهة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات فالبغى فى هذه النشأة وان برز بصورة تشتهيها البغاة وتستحسنها الغواة لتمتعهم به من حيث أخذ المال والتشفى من الأعداء ونحو ذلك لكن ذلك ليس بتمتع فى الحقيقة بل هو تضرر من حيث لايحتسبون وانما يظهر لهم ذلك عند ابرازما كانوا يعملونه من البغى بصورته الحقيقية المضادة لما كانوا يشاهدونه على ذلك من الصورة وهو المراد بالتنبئة المذكورة والله سبحانه وتعالى أعلم ﴿انما مثل الحيوة الدنيا﴾ كلام مستأنف مسرق لبيان شأن الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود وقد شبه حالها العجيبة الشأن البديعة المثال المنتظمة لغرابتها فى سلك الأمثال فى سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غب اقبالها واغترار الناس بها بحال ماعلى الأرض من أنواع النبات فى زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاما لم يبق لها أثر أصلا بعد ماكانت غضة طرية قد التف بعضها ببعض وزينت الأرض بألوانها وتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجوائح وليس المشبه به مادخله الكاف فى قوله عز وجل ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ بل مايفهم من الكلام فانه من التشبيه المركب ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾ من البقول والزروع والحشيش ﴿حتى اذا أخذت الأرض زخرفها﴾ جعلت الأرض فى تزينها بما عليها من أصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة المونقة آخذة زخرفها على طريقة التمثيل بالعروس التى قد أخذت من ألوان الثياب والزين فتزينت بها ﴿وازينت﴾ أصله تزينت فأدغم وقرىء على الأصل وقرىء وأزينت كأغيلت من غير اعلال والمعنى صارت ذات زينة وازينت كابياضت ﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها ﴿أتاها أمرنا﴾ جواب اذا أى ضرب زرعها مايجتاحه من الآفات والعاهات ﴿ليلا أو نهارا فجعلناها﴾ أى زرعها وساء ماعليها ﴿حصيدا﴾ أى شبيها بما حصد من أصله ﴿كأن لم تغن﴾ كأن لم يغن زرعها والمضاف محذوف للمبالغة وقرىء بتذكير الفعل ﴿بالأمس﴾ أى فيما قبل بزمان قريب فان الأمس مثل فى ذلك كأنه قيل لم تغن آنفا ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التفصيل البديع ﴿نفصل الآيات﴾ أى الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أى نوضحها ونبينها ﴿لقوم يتفكرون﴾ فى تضاعيفها ويقفون على معانيها وتخصيص تفصيلها بهم

لأنهم المنتفعون بها ويجوز أن يراد بالآيات ماذكر فى أثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات و بتفصيلها تصريفها على الترتيب المحكى ايجادا واعدادا فانها آيات وعلامات يستدل بها من يتفكر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالا ومآلا ﴿والله يدعو الى دار السلام﴾ ترغيب للناس فى الحياة الأخروية الباقية اثر ترغيبهم عن الحياة الدنيوية الفانية أى يدعو الناس جميعا الى دار السلامة عن كل مكروه وآفة وهى الجنة وانما ذكرت بهذا الاسم لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضا للآفات أو الى دار الله تعالى وتخصيص الاضافة التشريفية بهذا الاسم الكريم للتنبيه على ذلك أو الى دار يسلم الله أو الملائكة فيها على من يدخلها أو يسلم بعضهم على بعض ﴿ويهدى من يشاء﴾ هدايته منهم ﴿الى صراط مستقيم﴾ موصل اليها وهو الاسلام والتزود بالتقوى وفى تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الارادة وأن من أصر على الضلالة لم يرد الله رشده ﴿للذين أحسنوا﴾ أى أعمالهم أى عملوها على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ﴿الحسنى﴾ أى المثوبة الحسنى ﴿وزيادة﴾ أى وما يزيد على تلك المثوبة تفضلا لقوله عز اسمه ويزيدهم من فضله وقيل الحسنى مثل حسناتهم والزيادة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وأكثر وقيل الزيادة مغفرة من الله و رضوان وقيل الحسنى الجنة والزيادة اللقاء ﴿ولا يرهق وجوههم﴾ أى لا يغشاها ﴿قتر﴾ غبرة فيها سواد ﴿ولا ذلة﴾ أى أثر هوان وكسوف بال والمعنى لا يرهقهم مايرهق أهل النار أو لا يرهقهم مايوجب ذلك من الحزن وسوء الحال والتنكير للتحقير أى شىء منهما والجملة مستأنفة لبيان أنهم من المكاره اثر بيان فوزهم بالمطالب والثانى وان اقتضى الأول الا أنه ذكر اذكارا بما ينقذهم الله تعالى منه برحمته وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف أعضائهم وللتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة لوروده فعند وروده عليها يتمكن عندها فضل تمكن ولأن فى الفاعل ضرب تفصيل كما فى قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وقوله عز وجل وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بالصفات المذكورة وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم أى أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجميلة الفائزون بالمثوبات الناجون عن المكاره ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ بلا زوال دائمون بلا انتقال ﴿والذين كسبوا السيئات﴾ أى الشرك والمعاصى وهو مبتدا بتقدير المضاف خبره قوله تعالى ﴿جزاء سيئة بمثلها﴾ أى جزاء الذين كسبوا السيئات أن يجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها كما يزاد فى الحسنة وتغيير السبك حيث لم يقل وللذين كسبوا السيئات السو أى لمراعاة مابين الفريقين من كمال التنافى والتباين وايراد الكسب للايذان بأن ذلك انما هو لسوء صنيعهم وبسبب جنايتهم على أنفسهم أو الموصول معطوف على الموصول الأول كأنه قيل وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها كقولك فى الدار زيد والحجرة عمرو وفيه دلالة على أن المراد بالزيادة الفضل ﴿وترهقهم ذلة﴾ وأى ذلة كما ينبىء عنه التنوين التفخيمى وفى اسناد الرهق الى أنفسهم دون وجوههم ايذان بأنها محيطة بهم غاشية لهم جميعا وقرىء يرهقهم بالياء التحتانية ﴿مالهم من الله من عاصم﴾ أى لا يعصمهم أحد من سخطه وعذابه تعالى أو مالهم من عنده تعالى من يعصمهم كما يكون للمؤمنين وفى نفى العاصم من المبالغة فى نفى العصمة مالا يخفى والجملة مستأنفة أو حال من ضمير ترهقهم ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل﴾ لفرط سوادها وظلمتها ﴿مظلما﴾ حال من الليل والعامل فيه أغشيت لانه العامل فى قطعا وهو موصوف بالجار والمجرور والعامل فى الموصوف عامل فى الصفة أو معنى الفعل فى من الليل وقرىء قطعا بسكون الطاء وهو طائفة من الليل قال

افتحى الباب وانظرى فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

فيجوز كون مظلما صفة له أو حالا منه وقرىء كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم والجملة كما قبلها مستأنفة أو حال من ضمير ترهقهم ﴿أولئك﴾ أى الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة ﴿أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ وحيث كانت الآية الكريمة فى حق الكفار بشهادة السياق والسباق لم يكن فيها تمسك للوعيدية ﴿ويوم نحشرهم﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بعض آخر من أحوالهم الفظيعة وتأخيره فى الذكر مع تقدمه فى الوجود على بعض أحوالهم المحكية سابقا للايذان باستقلال كل من السابق واللاحق بالاعتبار ولو روعى الترتيب الخارجى لعد الكل شيأ واحدا كما مر فى قصة البقرة ولذلك فصل عما قبله ويوم منصوب على المفعولية بمضمر أى أنذرهم أو ذكرهم وضمير نحشرهم لكلا الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات لأنه المتبادر من قوله تعالى ﴿جميعا﴾ ومن أفراد الفريق الثانى بالذكر فى قوله تعالى ﴿ثم نقول للذين أشركوا﴾ أى نقول للمشركين من بينهم و لان توبيخهم وتهديدهم على رؤس الاشهاد أفظع والاخبار بحشر الكل فى تهويل اليوم أدخل وتخصيص وصف اشراكهم بالذكر فى حيز الصلة من بين سائر ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع مافيه من الايذان بكونه معظم جناياتهم وعمدة سيئاتهم وقيل للفريق الثانى خاصة فيكون وضع الموصول موضع الضمير لما ذكر آنفا ﴿مكانكم﴾ نصب على أنه فى الاصل ظرف لفعل أقيم مقامه لا على أنه اسم فعل وحركته حركة بناء كما هو رأى الفارسى أى الزموه حتى تنظروا مايفعل بكم ﴿أنتم﴾ تأكيد للضمير المنتقل اليه من عامله لسده مسده ﴿وشركاؤكم﴾ عطف عليه وقرىء بالنصب على أن الواو بمعنى مع ﴿فزيلنا﴾ من زلت الشىء عن مكانه أزيله أى أزلته والتضعيف للتكثير لا للتعدية وقرىء فزايلنا بمعناه نحو كلمته وكالمته وهو معطوف على نقول وايثار صيغة الماضى للدلالة على التحقق المورث لزيادة التوبيخ والتحسير والفاء للدلالة على وقوع التزييل ومباديه عقيب الخطاب من غير مهلة ايذانا بكمال رخاوة مابين الفريقين من العلاقة والوصلة أى ففرقنا ﴿بينهم﴾ وقطعنا أقرانهم والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا لكن لا من الجانبين بل من جانب العبدة فقط لعدم احتمال شمول الشركاء للشياطين كما سيجىء فخابت آمالهم وانصرمت عرى أطماعهم وحصل لهم اليأس الكلى من حصول ما كانوا يرجونه من جهتهم والحال وان كانت معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب لكن هذه المرتبة من اليقين انما حصلت عند المشاهدة والمشافهة وقيل المراد بالتزييل التفريق الحسى أى فباعدنا بينهم بعد الجمع فى الموقف وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم كما فى قوله تعالى أينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا فالواو حينئذ فى قوله تعالى ﴿وقال شركاؤهم﴾ حالية بتقدير كلمة قد عند من يشترطها و بدونه عند غيره لا عاطفة كما فى التفسير الاول لاستدعاء المحاورة المحاضرة الفائتة بالمباعدة وليس فى ترتيب التزييل بهذا المعنى على الامر بلزوم المكان مافى ترتيبه عليه بالمعنى الاول من النكتة المذكورة ليصار لاجل رعايتها الى تغيير الترتيب الخارجى فان المباعدة بعد المحاورة حتما وأما قطع الاقران والعلائق فليس كذلك بل ابتداؤه حاصل من حين الحشر بل بعض مراتبه حاصل قبله أيضا وانما الحاصل عند المحاورة أقصاها كما أشير اليه فلا اعتداد بما فى تقديمه من التغيير لاسيما مع رعاية ماذكر من النكتة ولو سلم تأخر جميع مراتبه عن المحاورة فمراعاة تلك النكتة كافية فى استدعاء تقديمه عليها ويجوز أن تكون حالية على هذا التقدير أيضا والمراد بالشركاء قيل الملائكة وعزير والمسيح وغيرهم ممن عبدوه من أولى العلم ففيه تأييد لرجوع الضمير الى الكل وقولهم ﴿ما كنتم ايانا تعبدون﴾ عبارة عن تبرئهم من عبادتهم وأنهم انما عبدوا فى الحقيقة أهواءهم وشياطينهم الذين أغووهم لانها الآمرة لهم بالاشراك دونهم كقولهم سبحانك أنت ولينا من دونهم الآية وقيل الاصنام ينطقها الله الذى أنطق كل شىء فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها ﴿فكفى بالله شهيدا بيننا و بينكم﴾ فانه العليم الخبير ﴿ان كنا عن

عبادتكم لغافلين﴾ أى عن عبادتكم لنا وتركه للظهور وللايذان بكمال الغفلة عنها والغفلة عبارة عن عدم الارتضاء والافعدم شعور الملائكة بعبادتهم لهم غير ظاهر وهذا يقطع احتمال كون المرادبالشركاء الشياطين كما قيل فان ارتضاءهم باشراكهم مما لاريب فيه وان لم يكونوا مجبرين لهم على ذلك وان مخففة من ان واللام فارقة ﴿هنالك﴾ أى فى ذلك المقام الدهش أو فى ذلك الوقت على استعارة ظرف المكان للزمان ﴿تبلو﴾ أى تختبر وتذوق ﴿كل نفس﴾ مؤمنة كانت أو كافرة سعيدة أو شقية ﴿ماأسلفت﴾ من العمل وتعاينه بكنهه مستتبعا لآثاره من نفع أو ضر وخير أو شر وأما ماعلمت من حالها من حين الموت والابتلاء بالعذاب فى البرزخ فأمر مجمل وقرئ تبلو بنون العظمة ونصب كل وابدال مامنه أى نعاملها معاملة من يبلوها و يتعرف أحوالها من السعادة والشقاوة باختبار ماأسلفت من العمل ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء أى العذاب كل نفس عاصية بسبب ماأسلفت من الشر فيكون مامنصوبة بنزع الخافض وقرئ تتلو أى تتبع لأن عملها هو الذى يهديها الى طريق الجنة أو الى طريق النار أو تقرأ فى صحيفة أعمالها ماقدمت من خير أو شر ﴿وردوا﴾ الضمير للذين أشركوا على أنه معطوف على زيلنا وماعطف عليه قوله عزوجل هنالك تبلو الخ اعتراض فى أثناء الحكاية مقرر لمضمونها ﴿الى الله﴾ أى الى جزائه وعقابه ﴿مولاهم﴾ ربهم ﴿الحق﴾ أى المتحقق الصادق ربوبيته لاما اتخذوه ربا باطلا وقرئ الحق بالنصب على المدح كقولهم الحمدلله أهل الحمد أو على المصدر المؤكد ﴿وضل عنهم﴾ وضاع أى ظهر ضياعه وضلاله لا أنه كان قبل ذلك غير ضال أوضل فى اعتقادهم أيضا ﴿ما كانوا يفترون﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم أوما كانوا يدعون أنها آلهة هذا وجعل الضمير فى ردوا للنفوس المدلول عليها بكل نفس على أنه معطوف على تبلو وأن العدول الى الماضى للدلالة على التحقق والتقرر وأن ايثار صيغة الجمع للايذان بأن ردهم الى الله يكون على طريقة الاجتماع لايلائمه التعرض لوصف الحقية فى قوله تعالى مولاهم الحق فانه للتعريض بالمردودين حسبما أشير اليه ولئن اكتفى فيه بالتعريض ببعضهم أو حمل الحق على معنى العدل فى الثواب والعقاب فقوله عزوجل وضل عنهم ما كانوا يفترون مما لامجال فيه للتدارك قطعا فان مافيه من الضمائر الثلاثة للمشركين فيلزم التفكيك حتما وتخصيص كل نفس بالنفوس المشركة مع عموم البلوى للكل يأباه مقام تهويل المقام والله تعالى أعلم ﴿قل﴾ أى لاولئك المشركين الذين حكيت أحوالهم و بين ما يؤدى اليه أعمالهم احتجاجا على حقية التوحيد و بطلان ماهم عليه من الاشراك ﴿من يرزقكم من السماء والارض﴾ أى منهما جميعا فان الارزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية أو من كل واحدة منهما توسعة عليكم وقيل من لبيان كلمة من على حذف المضاف أى من أهل السماء والارض ﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ أم منقطعة ومافيها من كلمة بل للاضراب عن الاستفهام الاول لكن لاعلى طريقة الابطال بل على وجه الانتقال وصرف الكلام عنه الى استفهام آخر تنبيها على كفايته فيما هو المقصود أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة أومن يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شئ يصيبهما ﴿ومن يخرج الحى من الميت و يخرج الميت من الحى﴾ أى ومن يحيى و يميت أو ومن ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ﴿ومن يدبر الأمر﴾ أى ومن يلى تدبير أمر العالم جميعا وهو تعميم بعد تخصيص بعض ماالمدرج تحته من الأمور الظاهرة بالذكر ﴿فسيقولون﴾ بلا تلعثم ولا تأخير ﴿الله﴾ اذ لامجال للمكابرة لغاية وضوحه والخبر محذوف أى الله يفعل ماذكر من الافاعيل لاغيره ﴿فقل﴾ عندذلك تبكيتا لهم ﴿أفلا تتقون﴾ الهمزة لانكار عدم الاتقاء بمعنى انكار الواقع كما فى أتضرب أباك لابمعنى انكار الوقوع كما فى أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى أتعلمون ذلك فلاتتقون أنفسكم عذابه الذى ذكر لكم بما تتعاطونه من اشراككم به

مالايشاركه فى شئ مما ذكر من خواص الالهية ﴿فذلكم﴾ فذلكة لما تقدم أى ذلكم الذى اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿الله﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ربكم﴾ أى مالككم ومتولى أموركم على الاطلاق بدل منه أو بيان له وقوله تعالى ﴿الحق﴾ صفة له أى ربكم الثابت ربوبيته والمتحقق ألوهيته تحققا لاريب فيه ﴿فماذا﴾ يجوز أن يكون الكل اسما واحدا قد غلب فيه الاستفهام على اسم الاشارة وأن يكون ذاموصولا بمعنى الذى أى ماالذى ﴿بعد الحق﴾ أى غيره بطريق الاستعارة واظهار الحق اما لأن المراد به غير الاول واما لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه و بين الضلال والاستفهام انكارى بمعنى انكار الوقوع ونفيه أى ليس غير الحق ﴿الاالضلال﴾ الذى لايختاره أحد فحيث ثبت أن عبادة من هو منعوت بما ذكر من النعوت الجميلة حق ظهر أن ماعداها من عبادة الاصنام ضلال محض اذ لاواسطة بينهما وانما سميت ضلالا مع كونها من أعمال الجوارح باعتبار ابتنائها على ماهو ضلال من الاعتقاد والرأى هذا على تقدير كون الحق عبارة عن التوحيد وأما على تقدير كونه عبارة عن الاول فالمراد بالضلال هو الاصنام لاعبادتها والمعنى فماذا بعد الرب الحق الثابت ربوبيته الا الضلال أى الباطل الضائع المضمحل وانما سمى بالمصدر مبالغة كأنه نفس الضلال والضياع وهذا أنسب بقوله تعالى وضل عنهم ما كانوا يفترون على التفسير الثانى ﴿فأنى تصرفون﴾ استفهام انكارى بمعنى انكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه وفيه من المبالغة مالايس فى توجيه الانكار الى نفس الفعل لأن كل موجود لابد من أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى كما مر مرارا والفاء لترتيب الانكار على ماقبله أى كيف تصرفون من الحق الذى لامحيد عنه وهو التوحيد الى الضلال عن السبيل المستبين وهو الاشراك وعبادة الاصنام أو من عبادة ربكم الحق الثابت ربوبيته الى عبادة الباطل الذى سمعتم ضلاله وضياعه فى الآخرة وفى ايثار صيغة المبنى للمفعول ايذان بأن الانصراف من الحق الى الضلال مما لايصدر عن العاقل بارادته وانما يقع عندوقوعه بالقسر من جهة صارف خارجى ﴿كذلك﴾ أى كما حقت الربوبية لله تعالى أو كما أنه ليس بعد الحق الا الضلال أو أنهم مصروفون عن الحق ﴿حقت كلمة ربك﴾ وحكمه وقضاؤه ﴿على الذين فسقوا﴾ أى تمردوا فى الكفر وخرجوا من أقصى حدوده ﴿أنهم لايؤمنون﴾ بدل من الكلمة أو تعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب ﴿قل هل من شركائكم﴾ احتجاج آخر على حقية التوحيد و بطلان الاشراك باظهار كون شركائهم بمعزل من استحقاق الالهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق واعادته به سبحانه وتعالى وانما لم يعطف على ما قبله ايذانا باستقلاله فى اثبات المطلوب والسؤال للتبكيت والالزام وقد جعلت هلية الاعادة وتحققها لوضوح مكانها وسنوح برهانها بمنزلة بدء الخلق فنظمت فى سلكه حيث قيل ﴿من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ ايذانا بتلازمهما وجودا وعلما يستلزم الاعتراف بها وان صدهم عن ذلك مابهم من المكابرة والعناد ثم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك فقيل له ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أى هو يفعلهما لاغير كائنا ما كان لابأن ينوب عليه الصلاة والسلام عنهم فى ذلك كما قيل لأن القول المأمور به غير ما أريد منهم من الجواب وان كان مستلزما له اذ ليس المسئول عنه من يبدأ الخلق ثم يعيده كما فى قوله تعالى قل من رب السموات والارض قل الله حتى يكون القول المأمور به عين الجواب الذى أريد منهم ويكون عليه الصلاة والسلام نائبا عنهم فى ذلك بل انما هو وجود من يفعل البدء والاعادة من شركائهم فالجواب المطلوب منهم لا لاغير نعم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يضمنه مقالته ايذانا بتعينه وتحققه واشعارا بأنهم لا يجترئون على التصريح به مخافة التبكيت والقام الحجر لا مكابرة ولجاجا فتدبر واعادة الجملة فى الجواب بتمامها غير محذوفة الخبر كما فى الجواب السابق لمزيد التأكيد

والتحقيق ﴿فأنى تؤفكون﴾ الافك الصرف والقلب عن الشيء وقد يخص بالقلب عن الرأى وهو الأنسب بالمقام أى كيف تقلبون من الحق الى الباطل والكلام فيه كما ذكر فى تصرفون ﴿قل هل من شركائكم﴾ احتجاج آخر على ما ذكر جيء به الزاما لهم غب الزام والخاما اثر الخام وفصله عما قبله لما ذكر من الدلالة على استقلاله ﴿من يهدى الى الحق﴾ أى بوجه من الوجوه فان أدنى مراتب المعبودية هداية المعبود لعبدته الى ما فيه صلاح أمرهم وأما تعيين طريق الهداية وتخصيصه بنصب الحجج وارسال الرسل والتوفيق للنظر والتدبر كما قيل فمخل بما يقتضيه المقام من كمال التبكيت والالزام فان العجز عن الهداية على وجه خاص لا يستلزم العجز عن مطلق الهداية وهدى كما يستعمل بكلمة الى لتضمنه معنى الانتهاء يستعمل باللام للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك استعمل بها ما أسند الى الله تعالى حيث قيل ﴿قل الله يهدى للحق﴾ أى هو يهدى له دون غيره وذلك بما ذكر من نصب الأدلة والحجج وارسال الرسل وانزال الكتب والتوفيق للنظر والتدبر وغير ذلك من فنون الهدايات والكلام فى الأمر بالسؤال والجواب كما مر فيما مر ﴿أفمن يهدى الى الحق﴾ وهو الله عز وجل ﴿أحق أن يتبع أمن لا يهدى﴾ بكسر الهاء أصله يهتدى فأدغم وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين وقرىء بكسر الياء اتباعا لها لحركة الهاء وقرىء بفتح الهاء نقلا لحركة التاء اليها أى لا يهتدى بنفسه فضلا عن هداية غيره وفيه من المبالغة ما لا يخفى وانما نفى عنه الاهتداء مع أن المفهوم مما سبق نفى الهداية لما أن نفيها مستتبع لنفيه غالبا فان من اهتدى الى الحق لا يخلو عن هداية غيره فى الجملة وأدناها كونه قدوة له بأن يراه فيسلك مسلكه من حيث لا يدرى والفاء لترتيب الاستفهام على ماسبق من تحقق هدايته تعالى صريحا وعدم هداية شركائهم المفهوم من القصر ومن عدم الجواب المنبىء عن الجواب بالعدم فان ذلك مما يضطرهم الى الجواب الحق لا لتوجيه الاستفهام الى الترتيب كما يقع فى بعض المواقع فان ذلك مختص بالانكارى كما فى قوله تعالى أفمن اتبع رضوان الله الخ ونحوه والهمزة متأخرة فى الاعتبار وانما تقديمها فى الذكر لاظهار عراقتها فى اقتضاء الصدارة كما هو رأى الجمهور حتى لو كان السؤال بكلمة أى لأخرت حتما ألا يرى الى قوله تعالى فأى الفريقين أحق بالأمن اثر تقدير ما يلجىء المشركين الى الجواب من حالهم وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء لا يهدى بمعنى لا يهتدى لمجيئه لازما أو لا يهدى غيره وصيغة التفضيل اما على حقيقتها والمفضل عليه محذوف كما اختاره مكى والتقدير أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع ممن لا يهدى أم من لا يهدى أحق الخ واما بمعنى حقيق كما اختاره أبو حيان وأيا ما كان فالاستفهام للالزام وأن يتبع فى حيز النصب أو الجر بعد حذف الجار على الخلاف المعروف أى بأن يتبع ﴿الا أن يهدى﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا يهتدى أو لا يهدى غيره فى حال من الاحوال الا حال هدايته تعالى له الى الاهتداء أو الى هداية الغير وهذا حال اشراف شركائهم من الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام وقيل المعنى أم من لا يهتدى من الاوثان الى مكان فينتقل اليه الا أن ينقل اليه أو الا أن ينقله الله تعالى من حاله الى أن يجعله حيوانا مكلفا فيهديه وقرىء الا أن يهدى من التفعيل للمبالغة ﴿فما لكم﴾ أى أى شىء لكم فى اتخاذكم هؤلاء شركاء لله سبحانه وتعالى والاستفهام للانكار التوبيخى وفيه تعجيب من حالهم وقوله تعالى ﴿كيف تحكمون﴾ أى بما يقضى صريح العقل ببطلانه انكار لحكمهم الباطل وتعجب منه وتشنيع لهم بذلك والفاء لترتيب كلا الانكارين على ماظهر من وجوب اتباع الهادى الى الحق ان قلت التبكيت بالاستفهام السابق انما يظهر فى حق من يعكس جوابه الصحيح فيحكم بأحقية من لا يهدى بالاتباع دون من يهدى وهم ليسوا حاكمين بأحقية شركائهم لذلك دون الله سبحانه وتعالى بل باستحقاقهما جميعا مع رجحان جانبه تعالى حيث يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قلت حكمهم باستحقاقه تعالى للاتباع بطريق الاشتراك حكم منهم

بعدم استحقاقه تعالى لذلك بطريق الاستقلال فصاروا حاكمين باستحقاق شركائهم له دون الله تعالى من حيث لا يحتسبون ﴿وما يتبع أكثرهم﴾ كلام مبتدأ غير داخل فى حيز الامر مسوق من قبله تعالى لبيان عدم فهمهم لمضمون ما ألهمهم وألقمهم الحجر من البرهان النير الموجب لاتباع الهادى الى الحق الناعى عليهم بطلان حكمهم وعدم تأثرهم من ذلك لعدم اهتدائهم الى طريق العلم أصلا أن ما يتبع أكثرهم فى معتقداتهم ومحاوراتهم ﴿الا ظنا﴾ واهيا من غير التفات الى فرد من أفراد العلم فضلا عن أن يسلكوا مسالك الادلة الصحيحة الهادية الى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الحقة فيفهموا مضمونها ويقفوا على صحتها وبطلان ما يخالفها من أحكامهم الباطلة فيحصل التبكيت والالزام فالمراد بالاتباع مطلق الاعتقاد الشامل لما يقارن القبول والانقياد ومالا يقارنه وبالقصر ما أشير اليه من أن لا يكون لهم فى أثنائه اتباع لفرد من أفراد العلم والتفات اليه ووجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم الاشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقية التوحيد وبطلان الشرك لكن لا يقبلونه مكابرة وعنادا فيحصل بالنسبة اليهم التأثر من البرهان المزبور وان لم يظهروه وكونهم أشد كفرا وأكثر عنادا من الفريق الأول لا يقدح فيما يفهم من فحوى الكلام عرفا من كون أولئك أسوأ حالا من غيرهم اذ المعتبر سوء الحال من حيث الفهم والادراك لا من حيث الكفر والعذاب أو ما يتبع أكثرهم مدة عمرهم الا ظنا ولا يتركونه أبدا فان حرف النفى الداخل على المضارع يفيد استمرار النفى بحسب المقام فالمراد بالاتباع حينئذ هو الاذعان والانقياد والقصر باعتبار الزمان ووجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم مع مشاركة المعاندين لهم فى ذلك التلويح بما سيكون من بعضهم من اتباع الحق والتوبة كما سيأتى هذا وقد قيل المعنى وما يتبع أكثرهم فى اقرارهم بالله تعالى الا ظنا غير مستند الى برهان عندهم وقيل وما يتبع أكثرهم فى قولهم للاصنام انها آلهة الا ظنا والمراد بالاكثر الجميع فتأمل وقيل الضمير فى أكثرهم للناس فلا حاجة الى التكلف ﴿ان الظن لا يغنى من الحق﴾ من العلم اليقينى والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع ﴿شيئا﴾ من الاغناء ويجوز أن يكون مفعولا به ومن الحق حالا منه والجملة استئناف ببيان شأن الظن وبطلانه وفيه دلالة على وجوب العلم فى الاصول وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد ﴿ان الله عليم بما يفعلون﴾ وعيد لهم على أفعالهم القبيحة فيندرج تحتها ما حكى عنهم من الاعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجا أوليا وقرىء تفعلون بالالتفات الى الخطاب لتشديد الوعيد ﴿وما كان هذا القرآن﴾ شروع فى بيان ردهم للقرآن الكريم اثر بيان ردهم للادلة العقلية المندرجة فى تضاعيفه أى وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع التى من جملتها هاتيك الحجج البينة الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك ﴿أن يفترى من دون الله﴾ أى افتراء من الخلق أى مفترى منهم سمى بالمصدر مبالغة ﴿ولكن تصديق الذى بين يديه﴾ من الكتب الالهية المشهود على صدقها أى مصدقا لها كيف لا وهو لكونه معجزا دونها عيار عليها شاهد بصحتها ونصبه بأنه خبر كان مقدرا وقد جوز كونه علة لفعل محذوف تقديره لكن أنزله الله تصديق الخ وقرىء بالرفع على تقدير المبتدا أى ولكن هو تصديق الخ ﴿وتفصيل الكتاب﴾ عطف عليه نصبا ورفعا أى وتفصيل ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع ﴿لا ريب فيه﴾ خبر ثالث داخل فى حكم الاستدراك أى منتفيا عنه الريب أو حال من الكتاب وان كان مضافا اليه فانه مفعول فى المعنى أو استئناف لا محل له من الاعراب ﴿من رب العالمين﴾ خبر آخر أى كائنا من رب العالمين أو متعلق بتصديق أو بتفصيل أو بالفعل المعلل بهما ولا ريب فيه اعتراض كما فى قولك زيد لا شك فيه كريم أو حال من الكتاب أو من الضمير فى فيه ومساق الآية الكريمة بعد المنع عن اتباع الظن لبيان ما يجب اتباعه ﴿أم يقولون افتراه﴾ أى بل أيقولون افتراه محمد عليه الصلاة والسلام والهمزة لانكار الواقع

واستبعاده ﴿قل﴾ تبكيتالهم واظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة ان كان الأمر كما تقولون ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ أى فى البلاغة وحسن الصياغة وقوة المعنى على وجه الافتراء فانكم مثلى فى العربية والفصاحة وأشد تمرنا منى فى النظم والعبارة وقرئ بسورة مثله على الاضافة أى بسورة كتاب مثله ﴿وادعوا﴾ للمظاهرة والمعاونة ﴿من استطعتم﴾ دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون أنها ممدة لكم فى المهمات والملمات ومدارهكم الذين تلجؤن الى آرائهم فى كل ماتأتون وما تذرون ﴿من دون الله﴾ متعلق بادعوا ودون جار مجرى أداة الاستثناء وقد مر تفصيله فى قوله تعالى وادعوا شهداءكم من دون الله أى ادعوا سواه تعالى من استطعتم من خلقه فانه لا يقدر عليه أحد واخراجه سبحانه من حكم الدعاء للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونهم فى عدوة المضادة والمشاقة لالبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فان ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم اليه ﴿ان كنتم صادقين﴾ أى فى انى افتريته فان ذلك مستلزم لامكان الاتيان بمثله وهو أيضا مستلزم لقدرتكم عليه والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ اضراب وانتقال عن اظهار بطلان ماقالوا فى حق القرآن العظيم بالتحدى الى اظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل فما عبارة عن كله لاعما فيه من ذكر البعث والجزاء وما يخالف دينهم كما قيل فانه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن مثله أى سارعوا الى تكذيبه آثر ذى أثير من غير أن يتدبروا فيه ويقفوا على مافى تضاعيفه من الشواهد الدالة على كونه كما وصف آنفا ويعلموا أنه ليس مما يمكن أن يكون له نظير يقدر عليه المخلوق والتعبير عنه بما لم يحيطوا بعلمه دون أن يقال بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للايذان بكمال جهلهم به وأنهم لم يعلموه الا بعنوان عدم العلم به وبأن تكذيبهم به انما هو بسبب عدم علمهم به لما أن ادارة الحكم على الموصول مشعرة بعلية مافى حيز الصلة له ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ عطف على الصلة أو حال من الموصول أى ولم يقفوا بعد على تأويله ولم يبلغ أذهانهم معانيه الرائقة المنبئة عن علو شأنه والتعبير عن ذلك باتيان التأويل للاشعار بأن تأويله متوجه الى الأذهان منساق اليها بنفسه أو لم يأتهم بعد تأويل مافيه من الاخبار بالغيوب حتى يتبين أنه صدق أم كذب والمعنى أن القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ومن جهة الاخبار بالغيب وهم قد فاجؤا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفكروا فى معناه أو ينتظروا وقوع ماأخبر به من الأمور المستقبلة ونفى اتيان التأويل بكلمة لما الدالة على التوقع بعد نفى الاحاطة بعلمه بكلمة لم لتأكيد الذم وتشديد التشنيع فان الشناعة فى تكذيب الشئ قبل علمه المتوقع اتيانه أفحش منها فى تكذيبه قبل علمه مطلقا والمعنى أنه كان يجب عليهم أن يتوقفوا الى زمان وقوع المتوقع فلم يفعلوا وأما أن المتوقع قد وقع بعد وأنهم استمروا عند ذلك أيضا على ماهم عليه أو لا فلا تعرض له ههنا والاستشهاد عليه بعدم انقطاع الذم أو ادعاء أن قولهم افتراه تكذيب بعد التدبر ناشئ من عدم التدبر فتدبر كيف لا وهم لم يقولوه بعد التحدى بل قبله وادعاء كونه مسبوقا بالتحدى الوارد فى سورة البقرة يرده أنها مدنية وهذه مكية وانما الذى يدل عليه ماسيتلى عليك من قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم الخ وقوله تعالى ﴿كذلك﴾ الخ وصف لحالهم المحكى وبيان لما يؤدى اليه من العقوبة أى مثل ذلك التكذيب المبنى على بادى الرأى والمجازفة من غير تدبر وتأمل ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ أى فعلوا التكذيب أو كذبوا ما كذبوا من المعجزات التى ظهرت على أيدى أنبيائهم أو كذبوا أنبياءهم ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ وهم الذين من قبلهم من المكذبين وانما وضع المظهر موضع المضمر للايذان بكون التكذيب ظلما أو بعليته لاصابة ما أصابهم من سوء العاقبة وبدخول هؤلاء الظالمين فى زمرتهم جرما وعيدا دخولا أوليا وقوله عز وجل ﴿ومنهم﴾ الخ وصف لحالهم بعد اتيان التأويل المتوقع اذ حينئذ يمكن تنويعهم الى المؤمن به وغير المؤمن به ضرورة امتناع الايمان بشئ من غير علم به واشتراك الكل فى التكذيب والكفر به

قبل ذلك حسبما أفاده قوله تعالى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه أى ومن هؤلاء المكذبين ﴿من يؤمن به﴾ عند الاحاطة بعلمه واتيان تأويله وظهور حقيته بعد ماسعوا فى المعارضة وراز وا قواهم فيها فتضاءلت دونها أو بعد ماشاهدوا وقوع ما أخبر به كما أخبر به مرارا ومعنى الايمان به اما الاعتقاد بحقيته فقط أى يصدق به فى نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند ويكابر وهؤلاء هم الذين أشير بقصر اتباع الظن على أكثرهم الى أنهم يعلمون الحق على التفسير الأول كما أشير اليه فيما سلف واما الايمان الحقيقى أى سيؤمن به ويتوب عن الكفر وهم الذين أشير بالقصر المذكور على التفسير الثانى الى أنهم سيتبعون الحق كما مر ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ أى لا يصدق به فى نفسه كما لا يصدق به ظاهراً لفرط غباوته المانعة عن الاحاطة بعلمه كما ينبغى وان كان فوق مرتبة عدم الاحاطة به أصلا أو لسخافة عقله واختلال تميزه وعجزه عن تخليص علومه عن مخالطة الظنون والاوهام التى ألفها فيبقى على ماكان عليه من الشك وهذا القدر من الاحاطة واتيان التأويل كاف فى مقابلة ماسبق من عدم الاحاطة بالمرة وهؤلاء هم الذين أريدوا فيما سلف بقوله عز وجل وما يتبع أكثرهم الا ظنا على التفسير الأول أو لا يؤمن به فيما سيأتى بل يموت على كفره معاندا كان أوشاكا وهم المستمرون على اتباع الظن على التفسير الثانى من غير اذعان للحق وانقياد له ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ أى بكلا الفريقين على الوجه الأول لا بالمعاندين فقط كما قيل لاشتراكهما فى أصل الافساد المستدعى لاشتراكهما فى الوعيد أو بالمصرين الباقين على الكفر على الوجه الثانى من المعاندين والشاكين ﴿وان كذبوك﴾ أى ان تموا على تكذيبك وأصروا عليه حسبما أخبر عنهم بعد الزام الحجة بالتحدى ﴿فقل لى عملى ولكم عملكم﴾ أى تبرأ منهم فقد أعذرت كقوله تعالى فان عصوك فقل انى برئ والمعنى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا وتوحيد العمل المضاف اليهم باعتبار الاتحاد النوعى ولمراعاة كمال المقابلة ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون﴾ تأكيد لما أفادته لام الاختصاص من عدم تعدى جزاء العمل الى غير عامله أى لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم ولما فيه من ايهام المتاركة وعدم التعرض لهم قيل انه منسوخ بآية السيف ﴿ومنهم من يستمعون اليك﴾ بيان لكونهم مطبوعا على قلوبهم بحيث لا سبيل الى ايمانهم وانما جمع الضمير الراجع الى كلمة من رعاية لجانب المعنى كما أفرد فيما سيأتى محافظة على ظاهر اللفظ ولعل ذلك للايماء الى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع على مايتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب والظلة أى ومنهم ناس يستمعون اليك عند قراءتك القرآن وتعليمك الشرائع ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ همزة الاستفهام انكارية والفاء عاطفة وليس الجمع بينهما لترتيب انكار الاسماع على الاستماع كما هو رأى سيبويه والجمهور على أن يجعل تقديم الهمزة على الفاء لاقتضائها الصدارة كما تقرر فى موضعه بل لانكار ترتبه عليه حسبما هو المعتاد لكن لا بطريق العطف على الفعل المذكور لادائه الى اختلال المعنى لانه اما صلة أو صفة وأياما كان فالعطف عليه يستدعى دخول المعطوف فى حيزه وتوجه الانكار اليه من تلك الحيثية ولا ريب فى فساده بل بطريق العطف على مقدر مفهوم من نحوى النظم كأنه قيل أيستمعون اليك فأنت تسمعهم لا انكارا لاستماعهم فانه أمر محقق بل انكارا لوقوع الاستماع عقيب ذلك وترتبه عليه حسب العادة الكلية بل نفيا لامكانه أيضا كما ينبئ عنه وضع الصم موضع ضميرهم ووصفهم بعدم العقل بقوله تعالى ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ أى ولو انضم الى صممهم عدم عقولهم لان الاصم العاقل ربما تفرس اذا وصل الى صماخه صوت وأما اذا اجتمع فقدان السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر ﴿ومنهم من ينظر اليك﴾ ويعاين دلائل نبوتك الواضحة ﴿أفأنت﴾ أى أعقيب ذلك أنت تهديهم وانما قيل ﴿تهدى العمى﴾ تربية لانكار هدايتهم وابرازا لوقوعها فى معرض الاستحالة وقد أكد ذلك حيث قيل ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾ أى ولو انضم الى عدم البصر عدم البصيرة فان المقصود من

الابصار الاعتبار والاستبصار والعمدة فى ذلك هى البصيرة و لذلك يحدس الاعمى المستبصر و يتفطن لما لا يدركه البصير الاحمق فحيث اجتمع فيهم الحمق والعمى فقد انسد عليهم باب الهدى وجواب لو فى الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى تسمع الصم تهدى العمى عليه و كل منهما معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها فى الفحوى كلتاهما فى موضع الحال من مفعول الفعل السابق أى أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون أفأنت تهدى العمى لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون أى على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فان الشىء اذا تحقق عند تحقق المانع أو المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أو عند تحقق المانع الضعيف أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى لو وان الوصليتين من التأكيد وقد مر الكلام فى قوله تعالى و لو كره الكافرون ونظائره مرارا ﴿ان الله لا يظلم الناس﴾ اشارة الى أن ما حكى عنهم من عدم اهتدائهم الى طريق الحق وتعطل مشاعرهم من الادراك ليس لأمر مستند الى الله عز وجل من خلقهم مؤفى المشاعر ونحو ذلك بل انما هو من قبلهم أى لا ينقصهم ﴿شيئا﴾ مما نيط به مصالحهم الدينية والدنيوية وكمالاتهم الاولوية والاخروية من مبادى ادراكاتهم وأسباب علومهم من المشاعر الظاهرة والباطنة والارشاد الى الحق بارسال الرسل وانزال الكتب بل يوفيهم ذلك من غير اخلال بشىء أصلا ﴿ولكن الناس﴾ وقرىء بالتخفيف و رفع الناس وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة تعيين وتقرير أى لكنهم بعدم استعمال مشاعرهم فيما خلقت له واعراضهم عن قبول دعوة الحق وتكذيبهم للرسل والكتب ﴿أنفسهم يظلمون﴾ أى ينقصون ما ينقصون مما يخلون به من مبادى كمالهم وذرائع اهتدائهم وانما لم يذكر لما أن مرمى الغرض انما هو قصر الظلم على أنفسهم لا بيان ما يتعاق به الظلم والتعبير عن فعلهم بالنقص مع كونه تفويتا بالكلية وابطالا بالمرة لمراعاة جانب قرينته وقوله عز وجل أنفسهم اما تأكيد للناس فيكون بمنزلة ضمير الفصل فى قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين فى قصر الظالمية عليهم واما مفعول ليظلمون حسبما وقع فى سائر المواقع وتقديمه عليه لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم على رأى من لا يرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما فى قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم من غير قصر للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول وأما على رأى من يراه موجبا له فلعل ايثار قصرها دون قصر الظالمية عليهم للمبالغة فى بيان بطلان أفعالهم وسخافة عقولهم لما أن أقبح الأمرين عند اتحاد الفاعل والمفعول وأشدهما انكارا عند العقل ونفرة لدى الطبع وأوجبهما حذرا منه عند كل أحد هو المظلومية لا الظالمية على أن قصر الأولى عليهم مستلزم لما يقتضيه ظاهر الحال من قصر الثانية عليهم ضرورة أنه اذا لم يظلم أحد من الناس الا نفسه يلزم أن لا يظلمه الا نفسه اذ لو ظلمه غيره يلزم كون ذلك الغير ظالما لغير نفسه والمفروض أن لا يظلم أحد الا نفسه فاكتفى بالقصر الأول عن الثانى مع رعاية ما ذكر من الفائدة وصيغة المضارع للاستمرار نفيا واثباتا فان حرف النفى اذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقام استمرار النفى لا نفى الاستمرار ألا يرى أن قولك ما زيدا ضربت يدل على اختصاص النفى لا على نفى الاختصاص ومساق الآية الكريمة لالزام الحجة ويجوز أن يكون للوعيد فالمضارع المنفى للاستقبال والمثبت للاستمرار والمعنى أن الله لا يظلمهم بتعذيبهم يوم القيامة شيئا من الظلم ولكنهم أنفسهم يظلمون ظلما مستمرا فان مباشرتهم المستمرة للسيئات الموجبة للتعذيب عين ظلمهم لأنفسهم وعلى الوجهين فالآية الكريمة تذييل لما سبق ﴿ويوم يحشرهم﴾ منصوب بمضمر وقرىء بالنون على الالتفات أى اذكر لهم أو أنذرهم يوم يحشرهم ﴿كأن لم يلبثوا﴾ أى كأنهم لم يلبثوا ﴿الا ساعة من النهار﴾ أى شيئا قليلا منه فانها مثل فى غاية القلة وتخصيصها بالنهار لأن ساعاته أعرف حالا من ساعات الليل والجملة فى موقع الحال من ضمير المفعول أى

يحشرهم مشبهين فى أحوالهم الظاهرة للناس بمن لم يلبث فى الدنيا ولم يتقلب فى نعيمها الا ذلك القدر اليسير فان من أقام بها دهرا وتمتع بمتاعها لا يخلو عن بعض اثار نعمة وأحكام بهجة منافية لما بهم من رثاثة الهيئة وسوء الحال أو بمن لم يلبث فى البرزخ الا ذلك المقدار ففائدة التقييد بيان كمال يسر الحشر بالنسبة الى قدرته تعالى و لو بعد دهر طويل واظهار بطلان استبعادهم وانكارهم بقولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ونحو ذلك أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين فى الأشكال والصور فان قلة اللبث فى البرزخ من موجبات عدم التبدل والتغير فيكون قوله عز وعلا ﴿يتعارفون بينهم﴾ بيانا وتقريرا له لأن التعارف مع طول العهد ينقلب تناكرا وعلى الاول يكون استئنافا أى يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا الا قليلا وذلك أول ما خرجوا من القبور اذ هم حينئذ على ما كانوا عليه من الهيئة المتعارفة فيما بينهم ثم ينقطع التعارف بشدة الاهوال المذهلة واعتراء الاحوال المغيرة للصور والاشكال المبدلة لها من حال الى حال ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ شهادة من الله سبحانه وتعالى على خسرانهم وتعجب منه وقيل حال من ضمير يتعارفون على ارادة القول والتعبير عنهم بالموصول مع كون المقام مقام اضمار لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعليته لما أصابهم والمراد بلقاء الله ان كان مطلق الحساب والجزاء أو حسن اللقاء فالمراد بالخسران الوضيعة والمعنى وضعوا فى تجاراتهم ومعاملاتهم واشتراائهم الكفر بالايمان والضلالة بالهدى ومعنى قوله تعالى ﴿وما كانوا مهتدين﴾ ما كانوا عارفين بأحوال التجارة مهتدين لطرقها وان كان سوء اللقاء فالخسار الهلاك والضلال أى قد ضلوا وهلكوا بتكذيبهم وما كانوا مهتدين الى طريق النجاة ﴿وإما نرينك﴾ أصله ان نرك ومامزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة أكد الفعل بالنون أى بنصرتك بأن نظهرك ﴿بعض الذى نعدهم﴾ أى وعدناهم من العذاب ونعجله فى حياتك فتراه والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار أى نعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من انذار غب انذار وفى تخصيص البعض بالذكر رمز الى العدة باراءة بعض الموعود وقد أراه يوم بدر ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ذلك ﴿فالينا مرجعهم﴾ أى كيفما دارت الحال أريناك بعض ما وعدناهم أو لا فالينا مرجعهم فى الدنيا والآخرة فننجز ما وعدناهم البتة وقيل المذكور جواب للشرط الثانى كأنه قيل فالينا مرجعهم فنريكه فى الآخرة وجواب الأول محذوف لظهوره أى فذاك ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ من الافعال السيئة التى حكيت عنهم والمراد بالشهادة اما مقتضاها ونتيجتها وهى معاقبته تعالى اياهم واما اقامتها وأداؤها بانطاق الجوارح واظهار اسم الجلالة لادخال الروعة وتربية المهابة وتأكيد التهديد وقرىء ثمة أى هناك ﴿ولكل أمة﴾ من الامم الخالية ﴿رسول﴾ يبعث اليهم بشريعة خاصة مناسبة لاحوالهم ليدعوهم الى الحق ﴿فاذا جاء رسولهم﴾ فبلغهم ما أرسل به فكذبوه وخالفوه ﴿قضى بينهم﴾ أى بين كل أمة و رسولها ﴿بالقسط﴾ بالعدل وحكم بنجاة الرسول والمؤمنين به وهلاك المكذبين كقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴿وهم لا يظلمون﴾ فى ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم لانه من نتائج أعمالهم أو ولكل أمة من الامم يوم القيامة رسول تنسب اليه وتدعى به فاذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والايمان كقوله عز وجل وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ استعجالا لما وعدوا من العذاب على طريقة الاستهزاء به والانكار حسبما يرشد اليه الجواب لا طلبا لتعيين وقت مجيئه على وجه الالزام كما فى سورة الملك ﴿ان كنتم صادقين﴾ أى فى أنه يأتينا والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآيات المتضمنة للوعد المذكور وجواب الشرط محذوف اعتمادا على ما تقدم حسبما حذف فى مثل قوله تعالى فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين فان الاستعجال فى قوة الامر بالاتيان عجلة كأنه قيل

فليأتنا عجلة ان كنتم صادقين ولما فيه من الاشعار بكون اتيانه بواسطة النبى صلى الله عليه وسلم قيل ﴿قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا﴾ أى لا أقدر على شىء منهما بوجه من الوجوه وتقديم الضر لما أن مساق النظم لاظهار العجز عنه وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملة للعجز وما وقع فى سورة الاعراف من تقديم النفع للاشعار بأهميته والمقام مقامه والمعنى انى لا أملك شيأ من شئونى ردا وايرادا مع أن ذلك أقرب حصولا فكيف أملك شئونكم حتى أتسبب فى اتيان عذابكم الموعود ﴿الا ما شاء الله﴾ استثناء منقطع أى ولكن ماشاء الله كائنا وحمله على الاتصال على معنى الا ماشاء الله أن أملكه يأباه مقام التبرؤ من أن يكون له عليه السلام دخل فى اتيان الوعد فان ذلك يستدعى بيان كون المتنازع فيه مما لا يشاء الله أن يملكه عليه السلام وجعل ماعبارة عن بعض الاحوال المعهودة المنوطة بالافعال الاختيارية المفوضة الى العباد على أن يكون المعنى لا أملك لنفسى شيأ من الضر والنفع الا ما شاء الله أن أملكه منهما من الضر والنفع المترتبين على أفعالى الاختيارية كالضر والنفع المترتبين على الاكل والشرب عدما ووجودا تعسف ظاهر وقوله تعالى ﴿لكل أمة أجل﴾ بيان لما أبهم فى الاستثناء وتقييد لما فى القضاء السابق من الاطلاق المشعر بكون المقضى به أمرا منجزا غير متوقف على شىء غير مجىء الرسول وتكذيب الامة أى لكل أمة أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم أجل معين خاص بهم لا يتعدى الى أمة أخرى مضروب لعذابهم يحل بهم عند حلوله ﴿اذا جاء أجلهم﴾ ان جعل الأجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر وان أريد به ما امتد اليه من الزمان فمجيؤه عبارة عن انقضائه اذ هناك يتحقق مجيؤه بتمامه والضمير ان جعل للامم المدلول عليها بكل أمة فاظهار الاجل مضافا اليه لافادة المعنى المقصود الذى هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيؤه اياها بعينها من بين الامم بواسطة اكتساب الاجل بالاضافة عموما يفيده معنى الجمعية كأنه قيل اذا جاءهم آجالهم بأن يجىء كل واحدة من تلك الامم أجلها الخاص بها وان جعل لكل أمة خاصة كما هو الظاهر فالاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاضافة الى الضمير لافادة كمال التعيين أى اذا جاءها أجلها الخاص بها ﴿فلا يستأخرون﴾ عن ذلك الاجل ﴿ساعة﴾ أى شيأ قليلا من الزمان فانها مثل فى غاية القلة منه أى لا يتأخرون عنه أصلا وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له ﴿ولا يستقدمون﴾ أى لا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع امكانه فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا كما فى قوله سبحانه وتعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع ظهور أن لا توبة له رأسا قد نظم فى عدم قبول التوبة فى سلك من سوفها الى حضور الموت ايذانا بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة كما مر فى سورة الاعراف وقد جوز أن يراد بمجىء الاجل دنوه بحيث يمكن التقدم فى الجملة كمجىء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة معينة منه لكن ليس فى تقييد عدم الاستئخار بدنوه مزيد فائدة وتقديم بيان انتفاء الاستئخار على بيان انتفاء الاستقدام لأن المقصود الاهم بيان عدم خلاصهم من العذاب ولو ساعة وذلك بالتأخر وأما ما فى قوله تعالى ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون من سبق السبق فى الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم له حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون فالاهم اذ ذاك بيان انتفاء السبق كما ذكر هناك ﴿قل﴾ لهم غب ما بينت كيفية جريان سنة الله عز وجل فيما بين الأمم على الاطلاق ونبهتهم على أن عذابهم أمر مقرر محتوم لا يتوقف الا على مجىء أجله المعلوم ايذانا بكمال دنوه وتنزيلا له منزلة اتيانه حقيقة ﴿أرأيتم﴾ أى أخبرونى ﴿ان أتاكم عذابه﴾ الذى تستعجلون به ﴿بياتا﴾ أى وقت بيات واشتغال بالنوم ﴿أو نهارا﴾ أى عند اشتغالكم بمشاغلكم حسبما عين لكم من الاجل بمقتضى المشيئة

التابعة للحكمة كما عين لسائر الامم المهلكة وقوله عز وجل ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ جواب للشرط بحذف الفاء كما فى قولك ان أتيتك ماذا تطعمنى والمجرمون موضوع موضع المضمر لتأكيد الانكار ببيان مباينة حالهم للاستعجال فان حق المجرم أن يهلك فزعا من اتيان العذاب فضلا عن استعجاله والجملة الشرطية متعلقة بأرأيتم والمعنى أخبرونى ان أتاكم عذابه تعالى أى شىء تستعجلون منه سبحانه والشىء لا يمكن استعجاله بعد اتيانه والمراد به المبالغة فى انكار استعجاله باخراجه عن حيز الامكان وتنزيله فى الاستحالة منزلة استعجاله بعد اتيانه بناء على تنزيل تقرر اتيانه ودنوه منزلة اتيانه حقيقة كما أشير اليه وهذا الانكار بمنزلة النهى فى قوله عز وعلا أتى أمر الله فلا تستعجلوه خلا أن التنزيل هناك صريح وهنا ضمنى كما فى قول من قال لغريمه الذى يتقضاه حقه أرأيت ان أعطيتك حقك فماذا تطلب منى يريد المبالغة فى انكار التقاضى بنظمه فى سلك التقاضى بعد الاعطاء بناء على تنزيل تقرره منزلة نفسه وقوله عز وجل ﴿أثم اذا ما وقع آمنتم به﴾ انكار لايمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة داخل مع ماقبله من انكار استعجالهم به بعد اتيانه حكما تحت القول المأمور به أى أبعد ما وقع العذاب وحل بكم حقيقة آمنتم به حين لا ينفعكم الايمان انكارا لتأخيره الى هذا الحد وايذانا باستتباعه للندم والحسرة ليقلعوا عما هم عليه من العناد ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الوقت فتقديم الظرف للقصر وقيل ماذا يستعجل منه متعلق بأرأيتم وجواب الشرط محذوف أى تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه والشرطية اعتراض مقرر لمضمون الاستخبار وقيل الجواب قوله تعالى أثم اذا ما وقع الخ والاستفهامية الاولى اعتراض والمعنى أخبرونى ان أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان ثم جىء بكلمة التراخى دلالة على الاستبعاد ثم زيد أداة الشرط دلالة على استقلاله بالاستبعاد وعلى أن الأول كالتمهيد له وجىء باذا مؤكدا بما ترشيحا لمعنى الوقوع وزيادة للتجهيل وأنهم لم يؤمنوا الا بعد أن لم ينفعهم الايمان البتة وقوله تعالى ﴿آلآن﴾ استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت القول الملقن مسوق لتقرير مضمون ماسبق على ارادة القول أى قيل لهم عند ايمانهم بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به انكارا للتأخير وتوبيخا عليه ببيان أنه لم يكن ذلك لعدم سبق الانذار به ولا للتأمل والتدبر فى شأنه ولا لشىء آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير بل كان ذلك على طريق التكذيب والاستعجال به على وجه الاستهزاء وقرىء آلان بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وقوله تعالى ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ أى تكذيبا واستهزاء جملة وقعت حالا من فاعل آمنتم المقدر لتشديد التوبيخ والتقريع وزيادة التنديم والتحسير وتقديم الجار والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصل دون القصر وقوله تعالى ﴿ثم قيل﴾ الخ تأكيد للتوبيخ والعتاب بوعيد العذاب والعقاب وهو عطف على ماقدر قبل آلآن ﴿للذين ظلموا﴾ أى وضعوا الكفر والتكذيب موضع الايمان والتصديق أو ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب والهلاك ووضع الموصول موضع الضمير لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعليته لاصابة ما أصابهم ﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾ المؤلم على الدوام ﴿هل تجزون﴾ اليوم ﴿الا بما كنتم تكسبون﴾ فى الدنيا من أصناف الكفر والمعاصى التى من جملتها مامر من الاستعجال ﴿ويستنبئونك﴾ أى يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء أو الانكار ﴿أحق هو﴾ أحق خبر قدم على المبتدا الذى هو الضمير للاهتمام به ويؤيده قوله تعالى انه لحق أو مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر والجملة فى موقع النصب بيستنبئونك وقرىء آلحق هو تعريضا بأنه باطل كأنه قيل أهو الحق لا الباطل أو أهو الذى سميتموه الحق ﴿قل﴾ لهم غير ملتفت الى استهزائهم مغضيا عما قصدوا وبانيا للامر على أساس الحكمة ﴿إى وربى﴾ إى من حروف الايجاب بمعنى نعم فى القسم خاصة كما أن هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة ولذلك يوصل بواوه ﴿انه﴾ أى العذاب الموعود ﴿لحق﴾ لثابت البتة أكد الجواب بأتم وجوه التأكيد حسب شدة انكارهم وقوته وقد زيد تقريرا

وتحقيقا بقوله عز اسمه ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أى بفائتين العذاب بالهرب وهو لاحق بكم لامحالة وهواما معطوف على جواب القسم أومستأنف سيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع مافيه من التقرير المذكور ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت﴾ بالشرك أو التعدى على الغير أو غير ذلك من أصناف الظلم ولو مرة حسبما يفيده كون الصفة فعلا ﴿مافى الارض﴾ أى مافى الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة بما كثرت ﴿لافتدت به﴾ أى لجعلته فدية لها من العذاب من افتداه بمعنى فداه ﴿وأسروا﴾ أى النفوس المدلول عليها بكل نفس والعدول الى صيغة الجمع مع تحقق العموم فى صورة الافراد أيضا لافادة تهويل الخطب بكون الاسرار بطريق المعية والاجتماع وانما لم يراع ذلك فيما سبق لتحقيق مايتوخى من فرض كون جميع مافى الارض لكل واحدة من النفوس وايثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على الشخص أو لتغليب ذكور مدلوله على اناثه ﴿الندامة﴾ على مافعلوا من الظلم أى أخفوها ولم يظهروها ايكن لا للاصطبار والتجلد هيهات ولات حين اصطبار بل لانهم بهتوا ﴿لما رأوا العذاب﴾ أى عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدة الاهوال مالم يكونوا يحتسبون فلم يقدروا على أن ينطقوا بشىء فلما بمعنى حين منصوب بأسروا أو حرف شرط حذف جوابه لدلالة ماتقدم عليه وقيل أسرها رؤساؤهم ممن أضلوهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم ولكن الأمر أشد من أن يعتريهم هناك شىء غير خوف العذاب وقيل أسروا الندامة أخلصوها لأن اسرارها اخلاصها أو لأن سر الشىء خالصته حيث تخفى ويضن بها ففيه تهكم بهم وقيل أظهروا الندامة من قولهم أسر الشىء وأشره اذا أظهره حين عيل صبره وفنى تجلده ﴿وقضى بينهم﴾ أى أوقع القضاء بين الظالمين من المشركين وغيرهم من أصناف أهل الظلم بأن أظهر الحق سواء كان من حقوق الله سبحانه أو من حقوق العباد من الباطل وعومل أهل كل منهما بما يليق به ﴿بالقسط﴾ بالعدل وتخصيص الظلم بالتعدى وحمل القضاء على مجرد الحكومة بين الظالمين والمظلومين من غير أن يتعرض لحال المشركين وهم أظلم الظالمين لايساعده المقام فان مقتضاه اما كون الظلم عبارة عن الشرك أوعما يدخل فيه دخولا أوليا ﴿وهم﴾ أى الظالمون ﴿لايظلمون﴾ فيما فعل بهم من العذاب بل هو من مقتضيات ظلمهم ولوازمه الضرورية ﴿ألا ان لله مافى السموات والأرض﴾ أى ماوجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما وكلمة ما لتغليب غير العقلاء على العقلاء فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الاشياء وبيان لاندراج الكل تحت ملكوته يتصرف فيه كيفما يشاء ايجادا واعداما واثابة وعقابا ﴿ألا ان وعد الله﴾ اظهار الاسم الجليل لتفخيم شان الوعد والاشعار بعلة الحكم وهو اما بمعنى الموعود أى جميع ماوعد به كائنا ماكان فيندرج فيه العذاب الذى استعجلوه وماذكر فى أثناء بيان حاله اندراجا أوليا أو بمعناه المصدرى أى وعده بجميع ماذكر فمعنى قوله تعالى ﴿حق﴾ على الاول ثابت واقع لامحالة وعلى الثانى مطابق للواقع وتصدير الجملتين بحرف التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقق مضمونهما المقرر لمضمون ماسلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضاره والمحافظة عليه ﴿ولكن أكثرهم﴾ لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم والفهم بالاحوال المحسوسة المعتادة ﴿لايعلمون﴾ ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون ﴿هو يحيى ويميت﴾ فى الدنيا من غير دخل لاحد فى ذلك ﴿واليه ترجعون﴾ فى الآخرة بالبعث والحشر ﴿ياأيها الناس﴾ التفات ورجوع الى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم الى قبوله واتباعه غب تحذيرهم من غوائل الضلال بما تلى عليهم من القوارع الناعية عليهم سوء عاقبتهم وايذان بأن جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم ﴿قد جاءتكم موعظة﴾ هى والوعظ والعظة التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر والترهيب أو بالاستمالة والترغيب وكلمة من فى قوله تعالى ﴿من ربكم﴾ ابتدائية متعلقة بجاءتكم أو تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لموعظة أى موعظة كائنة من

مواعظ ربكم وفى التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع مالايخفى ﴿وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ أى كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع فانه كاشف عن أحوال الاعمال حسناتها وسيئاتها مرغب فى الاولى ورادع عن الأخرى ومبين للمعارف الحقة التى هى شفاء لما فى الصدور من الادواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة وهاد الى طريق الحق واليقين بالارشاد الى الاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والانفس وفى مجيئه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال الى نور الايمان وتخلصوا من دركات النيران وارتقوا الى درجات الجنان والتنكير فى الكل للتفخيم ﴿قل﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأمر الناس بأن يغتنموا مافى مجىء القرآن العظيم من الفضل والرحمة ﴿بفضل الله وبرحمته﴾ المراد بهما اما مافى مجىء القرآن من الفضل والرحمة واما الجنس وهما داخلان فيه دخولا أوليا والباء متعلقة بمحذوف وأصل الكلام ليفرحوا بفضل الله وبرحمته وتكرير الباء فى رحمته للايذان باستقلالها فى استيجاب الفرح ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لافادة القصر ثم أدخل عليه الفاء لافادة معنى السببية فصار بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم قيل ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ للتأكيد والتقرير ثم حذف الفعل الاول لدلالة الثانى عليه والفاء الاولى جزائية والثانية للدلالة على السببية والأصل ان فرحوا بشىء فبذلك ليفرحوا لابشىء آخر ثم أدخل الفاء للدلالة على السببية ثم حذف الشرط ومعنى البعد فى اسم الاشارة للدلالة على بعد درجة فضل الله تعالى ورحمته ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا ويجوز أن يتعلق الباء بجاءتكم أى جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك أى فبمجيئها فليفرحوا وقرىء فلتفرحوا وقرأ أبى فافرحوا وعن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والاسلام وقيل فضله الاسلام ورحمته ماوعد عليه ﴿هو﴾ أى ما ذكر من فضل الله ورحمته ﴿خير مما يجمعون﴾ من حطام الدنيا وقرىء تجمعون أى فبذلك فليفرح المؤمنون هو خير مما تجمعون أيها المخاطبون ﴿قل أرأيتم﴾ أى أخبرونى ﴿ماأنزل الله لكم من رزق﴾ مامنصوبة المحل بما بعدها أو بما قبلها واللام للدلالة على أن المراد بالرزق ماحل لهم وجعله منزلا لأنه مقدر فى السماء محصل هو أو مايتوقف عليه وجودا أو بقاء باسباب سماوية من المطر والكواكب فى الانضاج والتلوين ﴿فجعلتم منه﴾ أى جعلتم بعضه ﴿حراما﴾ أى حكمتم بأنه حرام ﴿وحلالا﴾ أى وجعلتم بعضه حلالا أى حكمتم بحله مع كون كله حلالا وذلك قولهم هذه أنعام وحرث حجر الآية وقولهم مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ونحو ذلك وتقديم الحرام لظهور أثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه ﴿قل﴾ تكرير لتأكيد الأمر بالاستخبار أى أخبرونى ﴿آلله أذن لكم﴾ فى ذلك الجعل فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى ﴿أم على الله تفترون﴾ أم متصلة والاستفهام للتقرير والتبكيت لتحقق العلم بالشق الاخير قطعا كأنه قيل أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه فأظهر الاسم الجليل وقدم على الفعل دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيدا للتبكيت اثر تأكيد مع مراعاة الفواصل ويجوز أن يكون الاستفهام للانكار وأم منقطعة ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من التوبيخ والزجر بانكار الاذن الى ماتفيده همزتها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريره وتقديم الجار والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر كأنه قيل بل أعلى الله تعالى خاصة تفترون ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب﴾ كلام مسوق من قبله تعالى لبيان هول ماسيلقونه غير داخل تحت القول المأمور به والتعبير عنهم بالموصول فى موقع الاضمار لقطع احتمال الشق الاول من الترديد والتسجيل عليهم بالافتراء وزيادة الكذب مع أن الافتراء لا يكون الا كذبا لاظهار كمال قبح ماافتعلوا وكونه كذبا فى اعتقادهم أيضا وكلمة ما استفهامية وقعت مبتدأ وظن خبرها ومفعولاه

محذوفان وقوله عز وجل ﴿يوم القيامة﴾ ظرف لنفس الظن أى أى شئ ظنهم فى ذلك اليوم يوم عرض الافعال والاقوال والمجازاة عليها مثقالا بمثقال والمراد تهويله وتفظيعه بهول مايتعلق به مما يصنع بهم يومئذ وقيل هو ظرف لما يتعلق به ظنهم اليوم من الامور التى ستقع يوم القيامة تنزيلا له لما فيه من الأحوال لكمال وضوح أمره فى التقرر والتحقق منزلة المسلم عندهم أى أى شئ ظنهم لما سيقع يوم القيامة أيحسبون أنهم لا يسألون عن افترائهم أو لا يجازون عليه أو يجازون جزاء يسيرا و لا جل ذلك يفعلون مايفعلون كلا انهم لئى أشد العذاب لان معصيتهم أشد المعاصى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا وقرئ على لفظ الماضى أى أى ظن ظنوا يوم القيامة وايراد صيغة الماضى لأنه كائن فكأنه قد كان ﴿ان الله لذو فضل﴾ أى عظيم لا يكتنه كنهه ﴿على الناس﴾ أى جميعا حيث أنعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح و رحمهم بانزال الكتب وارسال الرسل و بين لهم الاسرار التى لا تستقل العقول فى ادراكها وأرشدهم الى مايهمهم من أمر المعاش والمعاد ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ تلك النعمة الجليلة فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم الى ماخلقت له و لا يتبعون دليل العقل فيما يستبد به و لا دليل الشرع فيما لا يدرك الا به وقد تفضل عليهم ببيان ماسيلقونه يوم القيامة فلا يلتفتون اليه فيقعون فيما يقعون فيه تذييل لما سبق مقرر لمضمونه ﴿وما تكون فى شأن﴾ أى فى أمر من شأنت شأنه أى قصدت قصده مصدر بمعنى المفعول ﴿وما تتلوا منه﴾ الضمير للشأن والظرف صفة لمصدر محذوف أى تلاوة كائنة من الشأن اذهى معظم شئونه عليه السلام أو للتنزيل والاضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ومن ابتدائية أو تبعيضية أو لله عز وجل ومن ابتدائية والتى فى قوله تعالى ﴿من قرآن﴾ مزيدة لتأكيد النفى او ابتدائية على الوجه الاول و بيانية أو تبعيضية على الثانى والثالث ﴿و لا تعملون من عمل﴾ تعميم للخطاب اثر تخصيصه بمقتدى الكل وقد روعى فى كل من المقامين مايليق به حيث ذكر أولا من الاعمال مافيه فخامة وجلالة وثانيا مايتناول الجليل والحقير ﴿الا كنا عليكم شهودا﴾ استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالافعال الثلاثة أى ما تلابسون بشئ منها فى حال من الاحوال الاحال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له ﴿اذ تفيضون فيه﴾ أى تخوضون وتندفعون فيه وأصل الافاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة وحيث أريد بالافعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة للزمان الماضى ايضا أوثر فى الاستثناء صيغة الماضى وفى الظرف كلمة اذ التى تفيد المضارع معنى الماضى ﴿وما يعزب عن ربك﴾ أى لا يبعد و لا يغيب على علمه الشامل و فى التعرض لعنوان الربوبية من الاشعار باللطف مالا يخفى وقرئ بكسر الزاء ﴿من مثقال ذرة﴾ كلمة من مزيدة لتأكيد النفى أى مايعزب عنه مايساوى فى الثقل نملة صغيرة أو هباء ﴿فى الأرض و لا فى السماء﴾ أى فى دائرة الوجود والامكان فان العامة لا تعرف سواهما ممكنا ليس فى أحدهما أو متعلقا بهما وتقديم الارض لان الكلام فى حال أهلها والمقصود اقامة البرهان على احاطة علمه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى ﴿و لا أصغر من ذلك و لا أكبر الا فى كتاب مبين﴾ كلام برأسه مقرر لما قبله و لا نافية للجنس وأصغر اسمها و فى كتاب خبرها وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ومن عطف على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعا كأنه قيل لا يعزب عن ربك شئ ما لكن جميع الاشياء فى كتاب مبين فكيف يعزب عنه شئ منها وقيل يجوز أن يكون الاستثناء متصلا و يعزب بمعنى يبين و يصدر والمعنى لا يصدر عنه تعالى شئ الا وهو فى كتاب مبين والمراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ ﴿ألا ان أولياء الله﴾ بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لاعمال المؤمنين وغاية لما ذكر قبله من كونه تعالى مهيمنا على نبيه عليه السلام وأمته فى كل مايأتون ومايذرون واحاطة علمه سبحانه بجميع مافى السماء والارض وكون الكل مثبتا فى الكتاب المبين بعد ماأشير الى فظاعة حال المفترين على الله

تعالى يوم القيامة وماسيعتريهم من الهول اشارة اجمالية على طريق التهديد والوعيد وصدرت الجملة بحرف التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها والولى لغة القريب والمراد بأولياء الله خاص المؤمنين لقربهم الروحانى منه سبحانه وتعالى كما سيفصح عنه تفسيرهم ﴿لا خوف عليهم﴾ فى الدارين من لحوق مكروه ﴿و لا هم يحزنون﴾ من فوات مطلوب أى لا يعتريهم مايوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون و لا يحزنون و لا أنه لا يعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى اقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا من أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام وانما لا يعتريهم ذلك لأن مقصدهم ليس الا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى وذلك مما لا ريب فى حصوله و لا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة اليه تعالى وأما ماعدا ذلك من الأمور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهى بمعزل من الانتظام فى سلك مقصدهم وجوداً وعدما حتى يخافوا من حصول ضارها أو يحزنوا بفوات نافعها وقوله عز وجل ﴿الذين آمنوا﴾ أى بكل ماجاء من عند الله تعالى ﴿وكانوا يتقون﴾ أى يقون أنفسهم عما يحق وقايتها عنه من الأفعال والتروك وقاية دائمة حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل بيان وتفسير لهم واشارة الى مابه نالوا مانالوا على طريقة الاستئناف المبنى على السؤال ومحل الموصول الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف كأنه قيل من أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة فقيل هم الذين جمعوا بين الايمان والتقوى المفضيين الى كل خير المنحيين عن كل شر وقيل محله النصب أو الرفع على المدح أو على أنه وصف مادح للاولياء و لا يقدح فى ذلك توسط الخبر والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك التى يفيدها الايمان أيضا ومرتبة التجنب عن كل مايؤثم من فعل وترك أعنى تنزه الانسان عن كل مايشغل سره عن الحق والتبتل اليه بالكلية وهى التقوى الحقيقى المأمور به فى قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته و به يحصل الشهود والحضور والقرب الذى عليه يدور اطلاق الاسم عليه وهكذا كان حال كل من دخل معه عليه السلام تحت الخطاب بقوله عز وجل و لا تعملون من عمل خلا أن لهم فى شأن التبتل والتنزه درجات متفاوتة حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الأبية أقصاها ماانتهى اليه همم الأنبياء عليهم السلام حتى جمعوا بذلك بين رياستى النبوة والولاية ولم يعقهم التعلق بعالم الأشباح عن الاستغراق فى عالم الأرواح ولم تصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن التبتل الى جناب الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية فملاك أمر الولاية هو التقوى المذكور فأولياء الله هم المؤمنون المتقون و يقرب منه ماقيل من أنهم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه و لا يخالفه ماقيل من أنهم الذين يذكر الله برؤيتهم لما روى عن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم أى بسمتهم واخباتهم وسكينتهم و لا ماقيل من أنهم المتحابون فى الله لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء و لا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يارسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام منهم و لا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس و لا يحزنون اذا حزن الناس فان ماذكر من حسن السمت والسكينة المذكر قلله تعالى والتحاب فى الله سبحانه من الأحكام الدنيوية اللازمة للايمان والتقوى والآثار الخاصة بهما

الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها وقربها من أفهام الناس قد أو رد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من ذلك حسبما يقتضيه مقام الارشاد والتذكير ترغيبا للسائلين أو غيرهم من الحاضرين فيما خصه بالذكر هناك من أحكامهما فلعل الحاضرين أو لا كانوا محتاجين الى اصلاح الحال من جهة الأقوال والأفعال والملابس ونحو ذلك والحاضرين ثانيا مفتقرين الى تأليف قلوبهم وعطفها نحو المؤمنين الذين لا علاقة بينهم و بينهم من جهة النسب والقرابة وتأكيد ما بينهم من الأخوة الدينية ببيان عظم شأنها ورفعة مكانتها وحسن عاقبتها ليراعوا حقوقها ويهجروا من لا يوافقهم فى الدين من أرحامهم وأما ماذكر من أنه يغبطهم الأنبياء فتصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل قال الكواشى وهذا مبالغة والمعنى لو فرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء وقيل أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة و يتولاهم بالكرامة وجعل قوله عز وجل الذين آمنوا وكانوا يتقون تفسيرا لتوليهم اياه تعالى وقوله عز وجل ﴿لهم البشرى فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة﴾ تفسيرا لتوليه تعالى اياهم ولا ريب فى أن اعتبار القيد الأخير فى مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيلها والثبات عليها و بشارتهم بآثارها ونتائجها بل مخل بذلك اذ التحصيل انما يتعلق بالمقدور والاستبشار لا يحصل الا بما علم وجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم و يستبشروا بمحاسن آثارها بل التولى بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره فى عنوان الموضوع ثم الاخبار بعدم الخوف والحزن مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل فالذى يقتضيه نظمه الكريم أن الأول تفسير للاولياء حسبما شرح والثانى بيان لما أولاهم من خيرات الدارين بعد بيان انجائهم من شرورهما ومكارههما والجملة مستأنفة كما سبق كأنه قيل هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة فقيل لهم ما يسرهم فى الدارين وتقديم الأول لما أن التخلية سابقة على التحلية مع مافيه من مراعاة حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل ادخال المسرة بتبشير الخلاص عن الأهوال وتوسيط البيان السابق بين بشارة الخلاص عن المحذور و بشارة الفوز بالمطلوب لاظهار كمال العناية بتفسير الأولياء مع الايذان بأن انتفاء الخوف والحزن لاتقائهم عما يؤدى اليهما من الأسباب والبشرى مصدر أريد به المبشر به من الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك والآجلة الغنية عن البيان وايثار الابهام والاجمال للايذان بكونه وراء البيان والتفصيل والظرفان فى موقع الحال منه والعامل ما فى الخبر من معنى الاستقرار أى لهم البشرى حال كونها فى الحياة الدنيا وحال كونها فى الآخرة أى عاجلة وآجلة أو من الضمير المجرور أى حال كونهم فى الحياة الخ ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن والذكر الجميل ومحبة الناس . عن أبى ذر رضى الله عنه قلت يارسول الله الرجل يعمل العمل لله و يحبه الناس فقال عليه السلام تلك عاجل بشرى المؤمن هذا وقيل البشرى مصدر والظرفان متعلقان به . أما البشرى فى الدنيا فهى البشارات الواقعة للمؤمنين المتقين فى غير موضع من الكتاب المبين وعن النبى صلى الله عليه وسلم هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له وعنه عليه الصلاة والسلام ذهبت النبوة و بقيت المبشرات وعن عطاء لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة . وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ومايرون من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرؤن منها وغير ذلك من البشارات فتكون هذه بشارة بما سيقع من البشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها ولا يخفى أن صرف البشارة الناجزة عن المقاصد بالذات الى وسائلها مما لا يساعده جلالة شأن التنزيل الكريم ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ لا تغيير لأقواله التى من جملتها مواعيده الواردة بشارة للمؤمنين المتقين فيدخل فيها البشارات الواردة ههنا دخولا أوليا و يثبت امتناع الاخلاف فيها ثبوتا قطعيا وعلى تقدير كون

المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم التخلف بينها و بين نتائجها الدنيوية والأخروية بل عدم التخلف بينها و بين ما دل على ثبوتها و وقوعها فيما سيأتى بطريق الوعد من قوله تعالى لهم البشرى فتدبر ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من أن لهم البشرى فى الدارين ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذى لا فوز وراءه وفيه تفسير لما أبهم فيما سبق وهاتيك الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه أن يكون بعده كلام متصل بما قبله أو هذه تذييل والسابقة اعتراض ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الأذية الناشئة عن مقالاتهم الموحشة وتبشير له عليه الصلاة والسلام بأنه عز وجل ينصره و يعزه عليهم اثر بيان أن له ولاتباعه أمنا من كل محذور وفوزا بكل مطلوب وقرئ ولا يحزنك من أحزنه وهو فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن الحزن كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بتكذيبهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وابطال أمرك وسائر ما يتفوهون به فى شأنك مما لا خير فيه وانما وجه النهى الى قولهم للمبالغة فى نهيه عليه السلام عن الحزن لما أن النهى عن التأثير نهى عن التأثر بأصله ونفى له بالمرة وقد يوجه النهى الى اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك لا أرينك ههنا وتخصيص النهى عن الحزن بالايراد مع شمول النفى السابق للحزن أيضا لما أنه لم يكن فيه عليه السلام شائبة خوف حتى ينهى عنه وربما كان يعتريه عليه السلام فى بعض الأوقات نوع حزن فسلى عن ذلك وقوله تعالى ﴿ان العزة﴾ تعليل للنهى على طريقة الاستئناف أى الغلبة والقهر ﴿لله جميعا﴾ أى فى ملكته وسلطانه لا يملك أحد شيئا منها أصلا لا هم ولا غيرهم فهو يقهرهم و يعصمك منهم و ينصرك عليهم وقد كان كذلك فهى من جملة المبشرات العاجلة وقرئ بفتح أن على صريح التعليل أى لأن العزة لله ﴿هو السميع العليم﴾ يسمع ما يقولون فى حقك و يعلم ما يعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك ﴿ألا ان لله من فى السموات ومن فى الأرض﴾ أى العقلاء من الملائكة والثقلين وتخصيصهم بالذكر للايذان بعدم الحاجة الى التصريح بغيرهم فانهم مع شرفهم وعلو طبقتهم اذا كانوا عبيدا له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فما عداهم من الموجودات أولى بذلك وهو مع مافيه من التأكيد لما سبق من اختصاص العزة بالله تعالى الموجب لسلوته عليه السلام وعدم مبالاته بالمشركين و بمقالاتهم تمهيد لما لحق من قوله تعالى ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ و برهان على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنية عليها وما اما نافية وشركاء مفعول يتبع ومفعول يدعون محذوف لظهوره أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فى الحقيقة وان سموها شركاء فاقتصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر و يجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون و يكون مفعول يتبع محذوفا لانفهامه من قوله تعالى ﴿ان يتبعون الا الظن﴾ أى ما يتبعون يقينا انما يتبعون ظنهم الباطل واما موصولة معطوفة على من كأنه قيل ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أى وله شركاؤهم وتخصيصهم بالذكر مع دخولهم فيما سبق عبارة أو دلالة للمبالغة فى بيان بطلان اتباعهم وفساد ما بنوه عليه من ظنهم شركاءهم معبودين مع كونهم عبيدا له سبحانه واما استفهامية أى وأى شئ يتبعون أى لا يتبعون شيئا ما يتبعون الا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها الخ وقرئ تدعون بالتاء فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ كأنه قيل وأى شئ يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين تقريرا لكونهم متبعين لله تعالى مطيعين له وتوبيخا لهم على عدم اقتدائهم بهم فى ذلك كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ثم صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة فقيل ان يتبع هؤلاء المشركون الا الظن ولا يتبعون ما يتبعه الملائكة والنبيون من الحق ﴿وان هم الا يخرصون﴾ يكذبون فيما ينسبونه اليه سبحانه و يحزرون و يقدرون انهم شركاء تقديرا باطلا ﴿هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ تنبيه على

تفرده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليدلهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة وتقرير لما سلف من كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكته المفصح عن اختصاص العزة به سبحانه والجعل ان كان بمعنى الابداع والخلق فمبصرا حال والا فلكم مفعوله الثانى أو هو حال كما فى الوجه الأول والمفعول الثانى لتسكنوا فيه أوهو محذوف يدل عليه المفعول الثانى من الجملة الثانية كما أن العلة الغائية منها محذوفة اعتمادا على ما فى الأولى والتقدير هو الذى جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لمصالحكم كما سيجىء نظيره فى قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله الآية فحذف فى كل واحد من الجانبين ماذكر فى الآخر اكتفاء بالمذكور عن المتروك واسناد الابصار الى النهار مجازى كالذى فى نهاره صائم ﴿ان فى ذلك﴾ أى فى جعل كل منهما كما وصف أو فيهما وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه وعلو رتبته ﴿لآيات﴾ عجيبة كثيرة أوآيات أخر غير ما ذكر ﴿لقوم يسمعون﴾ أى هذه الآيات المتلوة ونظائرها المنبهة على تلك الآيات التكوينية الآمرة بالتأمل فيها سماع تدبر واعتبار فيعملون بمقتضاها وتخصيص الآيات بهم مع انها منصوبة لمصلحة الكل لما أنهم المنتفعون بها ﴿قالوا﴾ شروع فى ذكر ضرب آخر من أباطيلهم وبيان بطلانه ﴿اتخذ الله ولدا﴾ أى تبناه ﴿سبحانه﴾ تنزيه وتقديس له عما نسبوا اليه وتعجيب من كلمتهم الحمقاء ﴿هو الغنى﴾ على الاطلاق عن كل شىء فى كل شىء وهو علة لتنزيهه سبحانه وايذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة وقوله عز وجل ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ أى من العقلاء وغيرهم تقرير لغناه وتحقيق لمالكيته تعالى لكل ماسواه وقوله تعالى ﴿ان عندكم من سلطان﴾ أى حجة ﴿بهذا﴾ أى بما ذكر من قولهم الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض فمن فى قوله تعالى من سلطان زائدة لتأكيد النفى وهو مبتدأ والظرف المقدم خبره أو مرتفع على أنه فاعل للظرف لاعتماده على النفى وبهذا متعلق اما بسلطان لأنه بمعنى الحجة والبرهان واما بمحذوف وقع صفة له واما بما فى عندكم من معنى الاستقرار كأنه قيل ان عندكم فى هذا القول من سلطان والالتفات الى الخطاب لمزيد المبالغة فى الالزام والافحام وتأكيد مافى قوله تعالى ﴿أتقولون على الله مالا تعلمون﴾ من التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلاقهم وفيه تنبيه على أن كل مقالة لادليل عليها فهى جهالة وأن العقائد لابدلها من برهان قطعى وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به ﴿قل﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم سوء مغبتهم ووخامة عاقبتهم ﴿ان الذين يفترون على الله الكذب﴾ أى فى كل أمر فيدخل مانحن بصدده من الافتراء بنسبة الولد والشريك اليه سبحانه دخولا أوليا ﴿لا يفلحون﴾ أى لاينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلا وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يندرج فى ذلك من عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة لايناسب مقام المبالغة فى الزجر عن الافتراء عليه سبحانه ﴿متاع فى الدنيا﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن مايتراءى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيوية على الاطلاق أو فى ضمن افترائهم بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح كأنه قيل كيف لايفلحون وهم فى غبطة ونعيم فقيل هو متاع يسير فى الدنيا وليس بفوز بالمطلوب ثم أشير الى انتفاء النجاة عن المكروه أيضا بقوله عز وعلا ﴿ثم الينا مرجعهم﴾ أى بالموت ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ فيقون فى الشقاء المؤبد بسبب كفرهم المستمر أو بكفرهم فى الدنيا فأين هم من الفلاح وقيل المبتدأ المحذوف حياتهم أو تقلبهم وقد قيل انه افتراؤهم ولايخفى أن المتاع انما يطلق على ما يكون مطبوعا عند النفس مرغوبا فيه فى نفسه يتمتع وينتفع به وانما عدم الاعتداد به لسرعة زواله ونفس الافتراء عليه سبحانه أقبح القبائح عند النفس فضلا عن أن يكون مطبوعا عندها وعده كذلك باعتبار

اجراء حكم مايؤدى اليه من رياستهم عليه مما لاوجه له فالوجه ماذكر أولا وليس ببعيد ماقيل ان المحذوف هو الخبر أى لهم متاع والآية اما مسوقة من جهة الله تعالى لتحقيق عدم افلاحهم غير داخلة فى الكلام المأمور به كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى ثم الينا وقوله تعالى ثم نذيقهم واما داخلة فيه على أن النبى عليه الصلاة والسلام مأمور بنقله وحكايته عنه عز وجل ﴿واتل عليهم﴾ أى على المشركين من أهل مكة وغيرهم لتحقيق ماسبق من أنهم لايفلحون وأن مايتمتعون به على جناح الفوات وأنهم مشرفون على العذاب الخالد ﴿نبأ نوح﴾ أى خبره الذى له شأن وخطر مع قومه الذين هم أضراب قومك فى الكفر والعناد ليتدبروا مافيه من زوال ماتمتعوا به من النعيم وحلول عذاب الغرق الموصول بالعذاب المقيم لينزجروا بذلك عما هم عليه من الكفر أو تنكسر شدة شكيمتهم أو يعترف بعضهم بصحة نبوتك بأن عرفوا أن ماتتلوه موافقا لما ثبت عندهم من غير مخالفة بينهما أصلا مع علمهم بأنك لم تسمع ذلك من أحد ليس الا بطريق الوحى وفيه من تقرير ماسبق من كون الكل لله سبحانه واختصاص العزة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن عن أوليائه عز وعلا قاطبة وتشجيع النبى صلى الله عليه وسلم وحمله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم مالايخفى ﴿اذ قال﴾ معمول لنبأ أو بدل منه بدل اشتمال وأيا ما كان فالمراد بعض نبئه عليه السلام لا كل ماجرى بينه وبين قومه واللام فى قوله تعالى ﴿لقومه﴾ للتبليغ ﴿ياقوم ان كان كبر﴾ أى عظم وشق ﴿عليكم مقامى﴾ أى نفسى كما يقال فعلته لمكان فلان أى لفلان ومنه قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه أى خاف ربه أو قيامى ومكثى بين ظهرانيكم مدة طويلة أو قيامى ﴿وتذكيرى بآيات الله﴾ فانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة يقومون على أرجلهم والجماعة قعود ليظهر حالهم ويسمع مقالهم ﴿فعلى الله توكلت﴾ جواب للشرط أى دمت على تخصيص التوكل به تعالى ويجوز أن يراد به احداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل ﴿فأجمعوا أمركم﴾ عطف على الجواب والفاء لترتيب الأمر بالاجماع على التوكل لالترتيب نفس الاجماع عليه أو هو الجواب وماسبق جملة معترضة والاجماع العزم قيل هو متعد بنفسه وقيل فيه حذف وايصال قال السدوسى أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه وقال أبو الهيثم أجمع أمره جعله مجموعا بعدما كان متفرقا وتفرقه أنه يقول مرة أفعل كذا وأخرى أفعل كذا واذا عزم على أمر واحد فقد جمعه أى جعله جميعا ﴿وشركاءكم﴾ بالنصب على أن الواو بمعنى مع كما تدل عليه القراءة بالرفع عطفا على الضمير المتصل تنزيلا للفصل منزلة التأكيد واسناد الاجماع الى الشركاء على طريقة التهكم وقيل انه عطف على أمركم بحذف المضاف أى أمر شركائكم وقيل منصوب بفعل محذوف أى وادعوا شركاءكم وقد قرىء كذلك وقرىء فاجمعوا من الجمع أى فاعزموا على أمركم الذى تريدون بى من السعى فى اهلاكى واحتشدوا فيه على أى وجه يمكنكم ﴿ثم لا يكن أمركم﴾ ذلك ﴿عليكم غمة﴾ أى مستورا من غمه اذا ستره بل مكشوفا مشهورا تجاهرونى به فان السر انما يصار اليه لسد باب تدارك الخلاص بالهرب أو نحوه فحيث استحال ذلك فى حقى لم يكن للسر وجه وانما خاطبهم عليه السلام بذلك اظهارا لعدم المبالاة بهم وأنهم لم يجدوا اليه سبيلا وثقة بالله سبحانه وبما وعده من عصمته وكلاءته فكلمة ثم للتراخى فى الرتبة واظهار الأمر فى موقع الاضمار لزيادة تقرير يقتضيها مقام الأمر بالاظهار الذى يستلزمه النهى عن التستر والاسرار وقيل المراد بأمرهم مايعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم والغمة والغم كالكربة والكرب وثم للتراخى الزمانى والمعنى لايكن حالكم عليكم غمة وتخلصوا باهلاكى من ثقل مقامى وتذكيرى ولايخفى أنه لايساعده قوله عز وجل ﴿ثم اقضوا الى ولا تنظرون﴾ أى أدوا الى أى أحكموا ذلك الأمر الذى تريدون بى ولا تمهلونى كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الأمر أو أدوا الى ماهو حق عليكم عندكم من اهلاكى كما يقضى الرجل غريمه فان توسيط مايحصل بعد الاهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه وبين الأمر بقضائه من قبيل

الفصل بين الشجر ولحائه وقرئ أفضوا بالفاء أى انتهوا الى بشر لم أو ابرزوا الى من أفضى اذا خرج الى الفضاء ﴿فان توليتم﴾ الفاء لترتيب التولى على ماسبق فالمراد به اما الاستمرار عليه واما احداث التولى المخصوص أى ان أعرضتم عن نصيحتى وتذكيرى اثر ماشاهدتم منى من مخايل صحة ما أقول ودلائلها التى من جملتها دعوتى اياكم جميعا الى تحقيق ماتريدون بى من السوء غير مبال بكم وبما يأتى منكم واحجامكم من الاجابة علما منكم بأنى على الحق المبين مؤيد من عندالله العزيز ﴿فما سألتكم﴾ بمقابلة وعظى وتذكيرى ﴿من أجر﴾ تؤدونه الى حتى يؤدى ذلك الى توليكم اما لاتهامكم اياى بالطمع والسؤال واما لثقل دفع المسئول عليكم أوحتى يضرنى توليكم المؤدى الى الحرمان فالاول لاظهار بطلان التولى ببيان عدم مايصححه والثانى لاظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه وعلى التقديرين فالفاء الجزائية لسببية الشرط لاعلام مضمون الجزاء لالنفسه والمعنى ان توليتم فاعلموا أن ليس فى مصحح له ولاتأثر منه وقوله عز وجل ﴿ان أجرى الا على الله﴾ ينتظم المعنيين جميعا خلا أنه على الاول تأكيد وعلى الثانى تعليل لاستغنائه عليه السلام عنهم أى ماثوابى على العظة والتذكير الاعليه تعالى يثيبنى به آمنتم أو توليتم ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ المنقادين لحكمه لاأخالف أمره ولاأرجو غيره أو المستسلمين لكل مايصيب من البلاء فى طاعة الله تعالى ﴿فكذبوه﴾ فأصروا على ماهم عليه من التكذيب بعد ما ألزمهم الحجة وبين لهم المحجة وحقق أن توليهم ليس له سبب غير التمرد والعناد فلاجرم حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فنجيناه ومن معه فى الفلك﴾ من المسلمين وكانوا ثمانين ﴿وجعلناهم خلائف﴾ من الهالكين ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أى بالطوفان وتأخير ذكره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع فى قوله عز وعلا ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة وغير ذلك من الآيات الكريمة لاظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللايذان بسبق الرحمة التى هى من مقتضيات الربوبية على الغضب الذى هو من مستتبعات جرائم المجرمين ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ تهويل لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول عليه الصلاة والسلام وتسلية له عليه السلام ﴿ثم بعثنا﴾ أى أرسلنا ﴿من بعده﴾ أى من بعد نوح عليه السلام ﴿رسلا﴾ التنكير للتفخيم ذاتا وصفا أى رسلا كراما ذوى عدد كثير ﴿الى قومهم﴾ أى الى أقوامهم لكن لابأن أرسلنا كل رسول منهم الى أقوام الكل أو الى قوم ما أى قوم كانوا بل كل رسول الى قومه خاصة مثل هود الى عاد وصالح الى ثمود وغير ذلك ممن قص منهم ومن لم يقص ﴿فجاءوهم﴾ أى جاء كل رسول قومه المخصوصين به ﴿بالبينات﴾ أى المعجزات الواضحة الدالة على صدق ماقالوا والباء امامتعلقة بالفعل المذكور على أنها للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من ضمير جاءوا أى ملتبسين بالبينات لكن لابأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد الى الآحاد انما هى فيما بين ضميرى جاءوهم كما أشير اليه ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ بيان لاستمرار عدم ايمانهم فى الزمان الماضى لالعدم استمرار ايمانهم كما مر مثله فى هذه السورة الكريمة غير مرة أى فما صح وما استقام لقوم من أولئك الاقوام فى قت من الاوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم لشدة شكيمتهم فى الكفر والعناد ثم ان كان المحكى آخر حال كل قوم حسبما يدل عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم ايمانهم المذكور ههنا اصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتى وبما أشير اليه فى قوله عز وجل ﴿بما كذبوا به من قبل﴾ تكذيبهم من حين مجىء الرسل الى زمان الاصرار والعناد وانما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالأول حيث جعل صلة للموصول ايذانا بأنه بين بنفسه غنى عن البيان وانما المحتاج الى ذلك عدم ايمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لوكانوا من أصحاب العقول

والموصول الذى تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وايجابا عبارة عن جميع الشرائع التى جاء بها كل رسول أصولها وفروعها وان كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجىء الرسل الى آخره وبما أشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من كون الموصول المذكور عبارة عن أصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم اليها آثر ذى أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجىء رسلهم أنهم ما كانوا فى زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كل قوم من أولئك الاقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كثمود من بقايا عاد وعاد من بقايا قوم نوح عليه السلام فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجىء الرسل كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الاصول لظهور حال الباقى بدلالة النص فانهم حيث لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أن ما عليه يدور أمر العذاب والعقاب عند اجتماع المكذبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وانما ذكر ما وقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع الى قوم نوح عليه السلام والمعنى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب بمثله قوم نوح ولا يخفى ما فيه من التعسف وقيل الباء للسببية أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولايخفى أن ذلك يؤدى الى مخالفة الجمهور من جعل ما المصدرية من قبيل الاسماء كما هو رأى الاخفش وابن السراج ليرجع اليها الضمير وفى ارجاعه الى الحق بادعاء كونه مركوزا فى الاذهان مالايخفى من التعسف ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الطبع المحكم ﴿نطبع﴾ بنون العظمة وقرئ بالياء على أن الضمير لله سبحانه ﴿على قلوب المعتدين﴾ المتجاوزين عن الحدود المعهودة فى الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم لانهماكهم فى الغى والضلال وفى أمثال هذا دلالة على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد ﴿ثم بعثنا﴾ عطف على قوله تعالى ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم عطف قصة على قصة ﴿من بعدهم﴾ أى من بعد أولئك الرسل عليهم السلام ﴿موسى وهرون﴾ خصت بعثتهما عليهما السلام بالذكر ولم يكتف باندراج خبرهما فيما أشير اليه اشارة اجمالية من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وأوثر فى ذلك ضرب تفصيل ايذانا بخطر شأن القصة وعظم وقعها كما فى نبأ نوح عليه السلام ﴿الى فرعون وملئه﴾ أى أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر لاصالتهم فى اقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل اليهم فى النوازل والملمات ﴿بآياتنا﴾ أى ملتبسين بها وهى الآيات المفصلات فى الأعراف ﴿فاستكبروا﴾ الاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة أى فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعهما وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين الخ ﴿وكانوا قوما مجرمين﴾ اعتراض مقرر لمضمون ماقبله أى كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العظام فان الاجرام مؤذن بعظم الذنب ومنه الجرم أى الجثة فلذلك اجترؤا على ما اجترؤا عليه من الاستهانة برسالة الله تعالى وحمل الاستكبار على الامتناع عن قبول الآيات لايساعده قوله عز وعلا ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين﴾ فانه صريح فى أن المراد باستكبارهم ماوقع منهم قبل مجىء الحق الذى سموه سحرا أعنى العصا واليد البيضاء كما ينبىء عنه سياق النظم الكريم وذلك أول ما أظهره عليه السلام من الآيات العظام والفاء فيه أيضا فصيحة معربة عما صرح به فى مواضع أخر كأنه قيل قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم الى قوله تعالى فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا

هى بيضاء للناظرين فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه قالوا من فرط عتوهم وعنادهم ان هذا لسحر مبين أى ظاهر كونه سحرا أوفائق فى بابه واضح فيما بين أضرابه وقرئ لساحر ﴿قال موسى﴾ استئناف مبنى على سؤال تنساق اليه الأذهان كأنه قيل فماذا قال لهم موسى حينئذ فقيل قال على طريقة الاستفهام الانكارى التوبيخى ﴿أتقولون للحق﴾ الذى هو أبعد شئ من السحر الذى هو الباطل البحت ﴿لما جاءكم﴾ أى حين مجيئه اياكم ووقوفكم عليه أو من أول الأمر من غير تأمل وتدبر وكلا الحالين مما ينافى القول المذكور والمقول محذوف ثقة بدلالة ما قبله وما بعده عليه وايذانا بأنه مما لا ينبغى أن يتفوه به ولو على نهج الحكاية أى أتقولون له ماتقولون من أنه سحر يعنى به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائل ويتكلم به متكلم أوالقول بمعنى العيب والطعن من قولهم فلان يخاف القالة وبين الناس تقاول اذا قال بعضهم لبعض مايسوؤه ونظيره الذكر فى قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ فيستغنى عن المفعول أى أتعيبونه وتطعنون فيه وعلى الوجهين فقوله عز وجل ﴿أسحر هذا﴾ انكار مستأنف من جهته عليه السلام لكونه سحرا وتكذيب لقولهم وتوبيخ لهم على ذلك اثر توبيخ وتجهيل بعد تجهيل أما على الأول فظاهر وأما على الثانى فوجه ايثار انكار كونه سحرا على انكار كونه معيبا بأن يقال مثلا أفيه عيب حسبما يقتضيه ظاهر الانكار السابق التصريح بالرد عليهم فى خصوصية ماعابوه به بعد التنبيه بالانكار السابق على أن ليس فيه شائبة عيب ما وما فى هذا من معنى القرب لزيادة تعيين المشار اليه واستحضار مافيه من الصفات الدالة على كونه آية باهرة من آيات الله المنادية على امتناع كونه سحرا أى أسحر هذا الذى أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة وتقديم الخبر للايذان بأنه مصب الانكار ولما استلزم كونه سحرا كون من أتى به ساحرا أكد الانكار السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل بقوله عز وجل ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ وهو جملة حالية من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو بلا ضمير كما فى قول من قال جاء الشتاء ولست أملك عدة وقولك جائزيد ولم تطلع الشمس أى أتقولون للحق انه سحر والحال أنه لا يفلح فاعله أى لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه فكيف يمكن صدوره من مثلى من المؤيدين من عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكل مطلب الناجين من كل محذور وقوله تعالى أسحر هذا جملة معترضة بين الحال وصاحبها أكد بها الانكار السابق ببيان استحالة كونه سحرا بالنظر الى ذاته قبل بيان استحالته بالنظر الى صدوره عنه عليه السلام هذا وأما تجويز أن يكون الكل مقول القول على أن المعنى أجئتنا بالسحر تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون فما لا يساعده النظم الكريم أصلا أما أولا فلان ما قالوا هو الحكم بأنه سحر من غير أن يكون فيه دلالة على ما تعسف فيه من المعنى بوجه من الوجوه فصرف جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به الى مالا يفهم منه أصلا مما يجب تنزيه النظم التنزيلى عن الحمل على أمثاله وأما ثانيا فلان التعرض لعدم افلاح السحرة على الاطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبين دون الكفرة المتشبثين بأذيال بعض منهم فى معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيص عدم الافلاح بمن زعموه ساحرا بناء على غلبة من يأتون به من السحرة وأما ثالثا فلان قوله عز وجل ﴿قالوا أجئتنا﴾ الخ مسوق لبيان أنه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن الاتيان بكلام له تعلق بكلامه عليه السلام فضلا عن الجواب الصحيح واضطروا الى التشبث بذيل التقليد الذى هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معاند لجوج على أنه استئناف وقع جوابا عما قبله من كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى قال موسى الخ حسبما أشير اليه كأنه قيل فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم ما قال فقيل قالوا عاجزين عن المحاجة أجئتنا ﴿لتلفتنا﴾ أى لتصرفنا فان الفتل واللفت أخوان ﴿عما وجدنا عليه آباءنا﴾ أى من عبادة الاصنام ولا ريب فى أن ذلك انما يتسنى بكون ما ذكر من تتمة

كلامه عليه السلام على الوجه الذى شرح اذ على تقدير كونه محكيا من قبلهم يكون جوابه عليه السلام خاليا عن التبكيت الملجئ لهم الى العدول عن سنن المحاجة ولا ريب فى أنه لا علاقة بين قولهم أجئتنا الخ وبين انكاره عليه السلام لما حكى عنهم مصححة لكونه جوابا عنه ﴿وتكون لكما الكبرياء﴾ أى الملك أو التكبر على الناس باستتباعهم وقرئ ويكون بالياء التحتانية وكلمة فى فى قوله تعالى ﴿فى الأرض﴾ أى أرض مصر متعلقة بتكون أو بالكبرياء أو بالاستقرار فى لكما لوقوعه خبرا أو بمحذوف وقع حالا من الكبرياء أو من الضمير فى لكما لتحمله اياه ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ أى بمصدقين فيما جئتما به وتثنية الضمير فى هذين الموضعين بعد افراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر وأما اللفت والمجئ له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسند الى موسى عليه السلام خاصة ﴿وقال فرعون﴾ توحيد الفعل لأن الأمر من وظائف فرعون أى قال لملئه يأمرهم بترتيب مبادى الزامهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأس من الزامهما بالقول ﴿ائتونى بكل ساحر عليم﴾ بفنون السحر حاذق ماهر فيه وقرئ سحار ﴿فلما جاء السحرة﴾ عطف على مقدر يستدعيه المقام قد حذف ايذانا بسرعة امتثالهم لأمر فرعون كما هو شأن الفاء الفصيحة فى كل مقام أى فأتوا به فلما جاؤا ﴿قال لهم موسى﴾ لكن لا فى ابتداء مجيئهم بل بعد ما قالوا له عليه السلام ماحكى عنهم فى السور الأخر من قولهم اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين ونحو ذلك ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أى ملقون له كائنا ما كان من أصناف السحر ﴿فلما ألقوا﴾ ما ألقوا من العصى والحبال واسترهبوا الناس وجاؤا بسحر عظيم ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى﴾ غير مكترث بهم وبما صنعوا ﴿ما جئتم به السحر﴾ ما موصولة وقعت مبتدأ والسحر خبره أى هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه من آيات الله سبحانه أو هو من جنس السحر يريهم أن حاله بين لا يعبأ به كأنه قال ما جئتم به مما لا ينبغى أن يجاء به وقرئ آلسحر على الاستفهام فما استفهامية أى أى شئ جئتم به أهو السحر الذى يعرف حاله كل أحد ولا يتصدى له عاقل وقرئ ماجئتم به سحر ودلالتهما على المعنى الثانى فى القراءة المشهورة أظهر ﴿ان الله سيبطله﴾ أى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدى من المعجزة فلا يبقى له أثر أصلا أو سيظهر بطلانه للناس والسين للتأكيد ﴿ان الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ أى عمل جنس المفسدين على الاطلاق فيدخل فيه السحر دخولا أوليا أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم وليس المراد بعدم اصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحا بل عدم اثباته واتمامه أى لا يثبته ولا يكمله ولا يديمه بل يمحقه ويهلكه ويسلط عليه الدمار والجملة تعليل لما سبق من قوله ان الله سيبطله والكل اعتراض تذييلى وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لا حقيقة له ﴿ويحق الله الحق﴾ عطف على قوله سيبطله أى يثبته ويقويه واظهار الاسم الجليل فى المقامين الأخيرين لالقاء الروعة وتربية المهابة ﴿بكلماته﴾ بأوامره وقضاياه وقرئ بكلمته ﴿ولو كره المجرمون﴾ ذلك والمراد بهم كل من اتصف بالاجرام من السحرة وغيرهم ﴿فما آمن لموسى﴾ معطوف على مقدر قد فصل فى مواقع أخر أى فألقى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون الخ وانما لم يذكر تعويلا على ذلك وايثارا للايجاز وايذانا بأن قوله تعالى ان الله سيبطله مما لا يحتمل الخلف أصلا وعطفه على ذلك بالفاء مع كونه عدما مستمرا من قبيل مافى قوله عز وجل فاتبعوا أمر فرعون ومافى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر والسر فى ذلك أن الاتيان بالشئ بعد وروده يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث أى فما آمن له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة ﴿الا ذرية من قومه﴾ أى الا أولاد من أولاد قومه بنى اسرائيل حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وأجابته طائفة من شبانهم وقيل الضمير

لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به عليه السلام أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وامرأته وماشطته وهو بعيد ﴿على خوف﴾ أى كائنين على خوف عظيم ﴿من فرعون وملئهم﴾ الضمير لفرعون والجمع لما هو المعتاد فى ضمائر العظماء ولا يأباه مقام بيان علوه فى الفساد وغلوه فى الشر والتسلط على العباد أو لأن المراد به آله كما يقال ربيعة ومضر أو للذرية أو للقوم أى على خوف من فرعون ومن أشراف بنى اسرائيل حيث كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم ﴿أن يفتنهم﴾ أى يعذبهم وهو بدل اشتمال أو مفعول لخوف فان اعمال المصدر المنكر كثير كما فى قوله عز وجل أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما أو مفعول له بعد حذف اللام واسناد الفعل الى فرعون خاصة لأنه الآمر بالتعذيب ﴿وان فرعون لعال فى الأرض﴾ لغالب فى أرض مصر ﴿وانه لمن المسرفين﴾ فى الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو فى الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء والجملتان اعتراض تذييلى مؤكد لمضمون ماسبق ﴿وقال موسى﴾ لما رأى تخوف المؤمنين منه ﴿ياقوم ان كنتم آمنتم بالله﴾ أى صدقتم به وبآياته ﴿فعليه توكلوا﴾ وبه ثقوا ولا تخافوا أحدا غيره فانه كافيكم كل شر وضر ﴿ان كنتم مسلمين﴾ مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين فان المعلق بالايمان وجوب التوكل عليه تعالى فانه المقتضى له والمشروط بالاسلام وجوده فانه لا يتحقق مع التخليط ونظيره ان أحسن اليك زيد فأحسن اليه ان قدرت عليه ﴿فقالوا﴾ مجيبين له عليه السلام من غير تلعثم فى ذلك ﴿على الله توكلنا﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ثم دعوا ربهم قائلين ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة﴾ أى موقع فتنة ﴿للقوم الظالمين﴾ أى لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يفتنوا بنا ويقولوا لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا وقوله تعالى ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ دعاء منهم بالانجاء من سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم بعد الانجاء من ظلمهم ولذلك عبر عنهم بالكفر بعد ماوصفوا بالظلم وفى ترتيب الدعاء على التوكل تلويح بأن الداعى حقه أن يبنى دعاءه على التوكل على الله تعالى ﴿وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ﴾ أن مفسرة لأن فى الوحى معنى القول أى اتخذا مباءة ﴿لقومكما بمصر بيوتا﴾ تسكنون فيها وترجعون اليها للعبادة ﴿واجعلوا﴾ أنتما وقومكما ﴿بيوتكم﴾ تلك ﴿قبلة﴾ مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعنى الكعبة فان موسى عليه السلام كان يصلى اليها ﴿وأقيموا الصلوة﴾ أى فيها أمروا بذلك فى أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ﴿وبشر المؤمنين﴾ بالنصرة فى الدنيا اجابة لدعوتهم والجنة فى العقبى وانما ثنى الضمير أولا لأن التبوأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم بتشاور ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل أحد ثم وحد لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالايمان وللاشعار بأنه المدار فى التبشير ﴿وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة﴾ أى مايتزين به من اللباس والمراكب ونحوها ﴿وأموالا﴾ وأنواعا كثيرة من المال ﴿فى الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر بما علم بممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره كقولك لعن الله ابليس وقيل اللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت أو للعلة لأن ايتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال ولأنهم لما جعلوها ذريعة الى الضلال فكأنهم أوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريرا للأول تأكيدا أو تنبيها على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم تقدمة لقوله تعالى ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ الطمس المحو وقرئ بضم الميم أى أهلكها ﴿واشدد على قلوبهم﴾ أى اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لا تنشرح للايمان كما هو قضية شأنهم ﴿فلا يؤمنوا﴾ جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهى أو عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾

أى يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفعهم ذلك اذ ذاك ﴿قال قد أجيبت دعوتكما﴾ يعنى موسى وهرون عليهما السلام لأنه كان يؤمن كما يشعر به اضافة الرب الى ضمير المتكلم مع الغير فى المواقع الثلاثة ﴿فاستقيما﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزام الحجة ولا تستعجلا فان ماطلبتما كائن فى وقته لا محالة . روى أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ أى بعادات الله سبحانه فى تعليق الأمور بالحكم والمصالح أو سبيل الجهلة فى الاستعجال أو عدم الوثوق بوعد الله تعالى وقرئ بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ولا تتبعان من تبع ولا تتبعان أيضا ﴿وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر﴾ هو من جاوز المكان اذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية أى جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه يبسا وحفظناهم حتى بلغوا الشط وقرئ جوزنا وهو من التجويز المرادف للمجاوزة لا لما هو بمعنى التنفيذ نحو ماوقع فى قول الأعشى كما جوز السكى فى الباب فيتق والا لقيل وجوزنا بنى اسرائيل فى البحر ولخلا النظم الكريم عن الايذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العناية الالهية لهم عند الجواز كما هو المشهور فى الفرق بين أذهبه وذهب به ﴿فأتبعهم﴾ يقال تبعته حتى اتبعته اذا كان سبقك فلحقته أى أدركهم ولحقهم ﴿فرعون وجنوده﴾ حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان ﴿بغيا وعدوا﴾ ظلما واعتداء أى باغين وعادين أو للبغى والعدوان وقرئ وعدوا وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببنى اسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم ووصل الى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ومسلكهم باق على حاله يبسا فسلكه بجنوده أجمعين فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج غشيهم من اليم ماغشيهم ﴿حتى اذا أدركه الغرق﴾ أى لحقه وألجمه ﴿قال آمنت أنه﴾ أى بأنه والضمير للشأن وقرئ انه على الاستئناف بدلا من آمنت وتفسير آله ﴿لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل﴾ لم يقل كما قاله السحرة آمنا برب العالمين رب موسى وهرون بل عبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته ايمان بنى اسرائيل به تعالى للاشعار برجوعه عن الاستعصاء واتباعه لمن كان يستتبعهم طمعا فى القبول والانتظام معهم فى سلك النجاة ﴿وأنا من المسلمين﴾ أى الذين أسلموا نفوسهم لله أى جعلوها سالمة خالصة له تعالى وأراد بهم اما بنى اسرائيل خاصة واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة على الأول عطف على آمنت وايثار الاسمية لادعاء الدوام والاستمرار وعلى الثانى يحتمل الحالية أيضا من ضمير المتكلم أى آمنت مخلصا لله منتظما فى سلك الراسخين فيه ولقد كرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصا على القبول المفضى الى النجاة وهيهات هيهات بعد مافات وأنى ماهو آت وقوله عز وجل ﴿آلآن﴾ مقول لقول مقدر معطوف على قال أى فقيل آلآن وهو الى قوله تعالى آية حكاية لما جرى منه سبحانه من الغضب على المخذول ومقابلة ما أظهره بالرد على وجه الانكار التوبيخى على تأخيره وتقريعه بالعصيان والافساد وغير ذلك وفى حذف الفعل المذكور وابراز الخبر المحكى فى صورة الانشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب مالا يخفى كما يفصح عنه ماروى من أن جبريل دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فانه تأكيد للرد القولى بالرد الفعلى ولا ينافيه تعليله بمخافة ادراك الرحمة فيما نقل أنه قال للنبى عليهما السلام فلو رأيتنى يامحمد وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة اذ المراد بها الرحمة الدنيوية أى النجاة التى هى طلبة المخذول وليس من ضرورة ادراكها صحة الايمان كما فى ايمان قوم يونس عليه السلام حتى يلزم من كراهته مالا يتصور فى شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر اذ لا استحالة فى ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه بكلمة الايمان وان كان ذلك فى حالة البأس واليأس فيحمل دسه عليه السلام على سد باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدة الحرد فتدبر والله الموفق وحق العامل فى الظرف أن يقدر مؤخرا ليتوجه الانكار والتوبيخ الى تأخير الايمان الى حد يمتنع قبوله فيه أى آلآن تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات وقوله عز وعلا ﴿وقد عصيت

قبل﴾ حال من فاعل الفعل المقدر جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الايمان الى هذا الآن ببيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة اليه ولا للتأمل والتدبر فى دلائله وآياته ولا لشيء آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والافساد فان قوله تعالى ﴿وكنت من المفسدين﴾ عطف على عصيت داخل فى حيز الحال أى وكنت من الغالين فى الضلال والاضلال عن الايمان كقوله تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون فهذا عبارة عن فساده الراجع الى نفسه والسارى الى غيره من الظلم والتعدى وصد بنى اسرائيل عن الايمان والأول عن عصيانه الخاص به ﴿فاليوم ننجيك﴾ أى نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافيا وفى التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده بالايمان هو النجاة كما مر وتهكم به أو نلقيك على نجوة من الارض ليراك بنو اسرائيل وقرىء ننجيك من الانجاء ونتحيك بالحاء من التنحية أى نلقيك بناحية الساحل ﴿ببدنك﴾ فى موضع الحال من ضمير المخاطب أى تنجيك ملابسا ببدنك فقط لا مع روحك كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لاطماعه بالمرة أو عاريا عن اللباس أو كاملا سويا أو بدرعك وكانت له درع من الذهب يعرف بها وقرىء بأبدانك أى بأجزاء بدنك كلها كقولهم هوى باجرامه أو بدروعك كأنه كان مظاهرا بينها ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ لمن وراءك علامة وهم بنو اسرائيل اذ كان فى نفوسهم من عظمته ماخيل اليهم أنه لا يهلك حتى يروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه الى أن عاينوه مطرحا على بمرهم من الساحل أو تكون لمن يأتى بعدك من الامم اذا سمعوا ما آل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا من الطغيان أو حجة تدلهم على أن الانسان وان بلغ الغاية القصوى من عظم الشان وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية وقرىء لمن خلفك فعلا ماضيا أى لمن خلفك من الجبابرة وقرىء لمن خلقك بالقاف أى لتكون لخالقك آية كسائر الآيات فان افراده سبحانه اياك بالالقاء الى الساحل دليل على أنه قصد منه لكشف تزويرك واماطة الشبهة فى أمرك وبرهان نير على كمال علمه وقدرته وحكمته وارادته وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة أيضا وفى تعليل تنجيته بما ذكر ايذان بأنها ليست لاعزازه أو لفائدة أخرى عائدة اليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رؤس الأشهاد وزيادة تفظيع حاله كمن يقتل ثم يجر جسده فى الأسواق أو يدار برأسه فى البلاد واللام الأولى متعلقة بننجيك والثانية بمحذوف وقع حالا من آية أى كائنة لمن خلفك ﴿وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها وهو اعتراض تذييلى جيء به عند الحكاية تقريرا لفحوى الكلام المحكى ﴿ولقد بوأنا بنى اسرائيل﴾ كلام مستأنف سيق لبيان النعم الفائضة عليهم اثر نعمة الانجاء على وجه الاجمال واخلالهم بشكرها وأداء حقوقها أى أسكناهم وأنزلناهم بعد ما أنجيناهم وأهلكنا أعداءهم ﴿مبوأ صدق﴾ أى منزلا صالحا مرضيا وهو الشام ومصر ملكوهما بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فى نواحيهما حسبما نطق به قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أى اللذائذ ﴿فما اختلفوا﴾ فى أمر دينهم ﴿حتى جاءهم العلم﴾ أى الا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها أو فى أمر محمد عليه الصلاة والسلام الا من بعد ما علموا صدق نبوته وتظاهر معجزاته فالمراد بالمختلفين أعقابهم الذين كانوا فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام ﴿ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فيميز بين المحق والمبطل بالاثابة والتعذيب ﴿فان كنت فى شك﴾ أى فى شك ما يسير على الفرض والتقدير فان مضمون الشرطية انما هو تعليق شيء بشيء من غير تعرض لامكان شيء منهما كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعا كقوله عز وجل قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين وقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك ونظائرهما ﴿مما أنزلنا اليك﴾ من القصص التى من جملتها

قصة فرعون وقومه وأخبار بنى اسرائيل ﴿فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك﴾ فان ذلك محقق عندهم ثابت فى كتبهم حسبما ألقينا اليك والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة الأحبار حسبما هو المسطور فى كتبهم وان لم يكن اليه حاجة أصلا أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ فى العلم بصحة نبوته عليه السلام أو تهييجه عليه السلام وزيادة تثبيته على ما هو عليه من اليقين لا تجويز صدور الشك منه عليه السلام ولذلك قال عليه السلام لا أشك ولا أسأل وقيل المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميم الدارى وكعب وأضرابهم وقيل الخطاب للنبى عليه السلام والمراد أمته أو لكل من يسمع أى ان كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا اليك على لسان نبينا وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع الى حلها بالرجوع الى أهل العلم وقرىء فاسأل الذين يقرؤن الكتب ﴿لقد جاءك الحق﴾ الذى لا محيد عنه ولا ريب فى حقيته ﴿من ربك﴾ وظهر ذلك بالآيات القاطعة التى لا يحوم حولها شائبة الارتياب وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من التشريف ما لا يخفى ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين ودم على ذلك كما كنت من قبل ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ من باب التهييج والالهاب والمراد به اعلام أن التكذيب من القبح والمحذورية بحيث ينبغى أن ينهى عنه من لا يتصور امكان صدوره عنه فكيف بمن يمكن اتصافه به وفيه قطع لاطماع الكفرة ﴿فتكون﴾ بذلك ﴿من الخاسرين﴾ أنفسا وأعمالا ﴿ان الذين حقت عليهم﴾ شروع فى بيان سر اصرار الكفرة على ما هم عليه من الكفر والضلال أى ثبتت ووجبت بمقتضى المشيئة المبنية على الحكمة البالغة ﴿كلمة ربك﴾ حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون فى النار كقوله تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم الى آخره ﴿لا يؤمنون﴾ أبدا اذ لا كذب لكلامه ولا انتقاض لقضائه أى لا يؤمنون ايمانا نافعا واقعا فى أوانه فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مثل فرعون باقيا عند الموت فيدخل فيهم المرتدون ﴿ولو جاءتهم كل آية﴾ واضحة المدلول مقبولة لدى العقول لأن سبب ايمانهم وهو تعلق ارادته تعالى به مفقود لكن فقدانه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارهم المتفرع على عدم استعدادهم لذلك ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ كدأب آل فرعون وأضرابهم ﴿فلولا كانت﴾ كلام مستأنف لتقرير ما سبق من استحالة ايمان من حقت عليهم كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكنهم من التدارك فيكون الاستثناء الآتى بيانا لكون قوم يونس عليه السلام ممن لم يحق عليه الكلمة لاهتدائهم الى التدارك فى وقته ولولا بمعنى هلا وقرىء كذلك أى فهلا كانت ﴿قرية﴾ من القرى المهلكة ﴿آمنت﴾ قبل معاينة العذاب ولم تؤخر ايمانها الى حين معاينته كما فعل فرعون وقومه ﴿فنفعها ايمانها﴾ بأن يقبله الله تعالى منها ويكشف بسببه العذاب عنها ﴿الا قوم يونس﴾ استثناء منقطع أى لكن قوم يونس ﴿لما آمنوا﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروا الى حلوله ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا﴾ بعد ما أظلهم وكاد يحل بهم ويجوز أن تكون الجملة فى معنى النفى كما يفصح عنه حرف التحضيض فيكون الاستثناء متصلا اذ المراد بالقرى أهاليها كأنه قيل ما آمنت طائفة من الامم العاصية فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس عليه السلام فيكون قوله تعالى لما آمنوا استئنافا لبيان نفع ايمانهم ويؤيده قراءة الرفع على البدلية ﴿ومتعناهم﴾ بمتاع الدنيا بعد كشف العذاب عنهم ﴿الى حين﴾ مقدر لهم فى علم الله سبحانه. روى أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وقيل قال لهم يونس عليه السلام أجلكم أربعون ليلة فقالوا انا رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيما

أسود هائلا يدخن دخانا شديدا ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها الى بعض وعلت الاصوات والعجيج وأظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضى الله عنه بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده الى صاحبه وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحى حين لاحى ويا حى محيى الموتى ويا حى لا اله الا أنت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل بن عياض قالوا ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الارض﴾ تحقيق لدوران ايمان كافة المكلفين وجودا وعدما على قطب مشيئته تعالى مطلقا اثر بيان تبعية كفر الكفرة لكلمته ومفعول المشيئة محذوف لوجود ما يقتضيه من وقوعها شرطا ولكون مفعولها مضمون الجزاء وأن لايكون فى تعلقها به غرابة كما هو المشهور أى لو شاء سبحانه ايمان من فى الارض من الثقلين لآمن ﴿كلهم﴾ بحيث لايشذ عنهم أحد ﴿جميعا﴾ مجتمعين على الايمان لايختلفون فيه لكنه لايشاؤه لكونه مخالفا للحكمة التى عليها بنى أساس التكوين والتشريع وفيه دلالة على أن من شاء الله تعالى ايمانه يؤمن لامحالة ﴿أفأنت تكره الناس﴾ على مالم يشأ الله منهم حسبما ينبئ عنه حرف الامتناع فى الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل أربك لايشاء ذلك فأنت تكرههم ﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ فيكون الانكار متوجها الى ترتيب الاكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الانكار على عدم مشيئته تعالى بناء على أن الهمزة متأخرة فى الاعتبار وانما قدمت لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وأيا ما كان فالمشيئة على اطلاقها اذ لا فائدة بل لاوجه لاعتبار عدم مشيئة الالجاء خاصة فى انكار الترتيب عليه أو ترتيب الانكار عليه وفى ايلاء الاسم حرف الاستفهام ايذان بأن الاكراه أمر ممكن لكن الشأن فى المكره من هو وماهو الاهو وحده لايشاركه فيه لأنه القادر على أن يفعل فى قلوبهم مايضطرهم الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر وفيه ايذان باعتبار الالجاء فى المشيئة كما أشير اليه ﴿وما كان لنفس﴾ بيان لتبعية ايمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجودا بعد بيان الدوران الكلى عليها وجودا وعدما أى ماصح ومااستقام لنفس من النفوس التى علم الله تعالى أنها تؤمن ﴿أن تؤمن الا باذن الله﴾ أى بتسهيله ومنحه للالطاف وانما خصت النفس بمن ذكر ولم يجعل من قبيل قوله تعالى وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله لان الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أى ما كان لنفس أن تؤمن فى حال من أحوالها الاحال كونها ملابسة باذنه تعالى فلا بد من كون الايمان مما يؤل اليه حالها كما أن الموت مآل لكل نفس بحيث لامحيص لها عنه فلابد من تخصيص النفس بمن ذكر فان النفوس التى علم الله أنها لاتؤمن ليس لها حال تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الحال من غيرها ﴿ويجعل الرجس﴾ أى الكفر بقرينة ماقبله عبر عنه بالرجس الذى هو عبارة عن القبيح المستقذر المستكره لكونه علما فى القبح والاستكراه وقيل هو العذاب أو الخذلان المؤدى اليه وقرئ بنون العظمة وقرئ بالزاى أى يجعل الكفر ويبقيه ﴿على الذين لايعقلون﴾ لايستعملون عقولهم بالنظر فى الحجج والآيات أولا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع فلا يحصل لهم الهداية التى عبر عنها بالاذن فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال أومقهورين بالعذاب والنكال والجملة معطوفة على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فيأذن لهم بمنح الالطاف ويجعل الخ ﴿قل﴾ مخاطبا لأهل مكة بعثا لهم على التدبر فى ملكوت السموات والأرض ومافيهما من تعاجيب الآيات الانفسية والآفاقية ليتضح لك أنهم من الذين

لايعقلون وحقت عليهم الكلمة ﴿انظروا﴾ أى تفكروا وقرئ بنقل حركة الهمزة الى لام قل ﴿ماذا فى السموات والارض﴾ أى أى شئ بديع فيهما من عجائب صنعه الدالة على وحدته وكمال قدرته على أن ماذا جعل بالتركيب اسما واحدا مغلبا فيه الاستفهام على اسم الاشارة فهو مبتدأ خبره الظرف ويجوز أن يكون ما مبتدأ وذا بمعنى الذى والظرف صلته والجملة خبر للمبتدا وعلى التقديرين فالمبتدا والخبر فى محل النصب باسقاط الخافض وفعل النظر معلق بالاستفهام ﴿وما تغنى﴾ أى ماتنفع وقرئ بالتذكير ﴿الآيات﴾ وهى التى عبر عنها بقوله تعالى ماذا فى السموات والارض ﴿والنذر﴾ جمع نذير على أنه فاعل بمعنى منذر أو على أنه مصدر أى لاتنفع الآيات والرسل المنذرون أو الانذارات ﴿عن قوم لايؤمنون﴾ فى علم الله تعالى وحكمه فما نافية والجملة اما حالية أو اعتراضية ويجوز كون ما استفهامية انكارية فى موضع النصب على المصدرية أى أى اغناء تغنى الخ فالجملة حينئذ اعتراضية ﴿فهل ينتظرون﴾ أى مشركو مكة وأضرابهم ﴿الا مثل أيام الذين خلوا﴾ أى الا يوما مثل أيام الذين خلوا ﴿من قبلهم﴾ من مشركى الامم الماضية أى مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم اذ لايستحقون غيره من قولهم أيام العرب لوقائعها ﴿قل﴾ تهديدا لهم ﴿فانتظروا﴾ ماهو عاقبتكم ﴿انى معكم من المنتظرين﴾ لذلك ﴿ثم ننجى رسلنا﴾ بالتشديد وقرئ بالتخفيف وهو عطف على مقدر يدل عليه قوله مثل أيام الذين خلوا وما بينهما اعتراض جئ به مسارعة الى التهديد ومبالغة فى تشديد الوعيد كأنه قيل أهلكنا الامم ثم نجينا رسلنا المرسلة اليهم ﴿والذين آمنوا﴾ وصيغة الاستقبال لحكاية الاحوال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورها وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الاهلاك على عكس ما فى قوله تعالى فنجيناه ومن معه فى الفلك الخ ونظائره الواردة فى مواقع عديدة ليتصل به قوله عز وجل ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الانجاء ﴿حقا علينا﴾ اعتراض بين العامل والمعمول أى حق ذلك حقا وقيل بدل من المحذوف الذى ناب عنه كذلك أى انجاء مثل ذلك حقا والكاف متعلقة بقوله تعالى ﴿ننجى المؤمنين﴾ أى من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه والمراد بالمؤمنين اما الجنس المتناول للرسل عليهم السلام والأتباع واما الاتباع فقط وانما لم يذكر انجاء الرسل ايذانا بعدم الحاجة اليه وأيا ما كان ففيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الايمان ﴿قل﴾ لجمهور المشركين ﴿ياأيها الناس﴾ أوثر الخطاب باسم الجنس مصدرا بحرف التنبيه تعميما للتبليغ واظهارا لكمال العناية بشأن مابلغ اليهم ﴿ان كنتم فى شك من دينى﴾ الذى أتعبد الله عز وجل به وأدعوكم اليه ولم تعلموا ماهو وماصفته ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ فى وقت من الاوقات ﴿ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم﴾ ثم يفعل بكم مايفعل من فنون العذاب أى فاعلموا أنه تخصيص العبادة به ورفض عبادة ماسواه من الاصنام وغيرها مما تعبدونه جهلا وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية كما فى كلمة التوحيد وللايذان بالمخالفة من أول الأمر أو ان كنتم فى شك من صحة دينى وسداده فاعلموا أن خلاصته اخلاص العبادة لمن بيده الايجاد والاعدام دون ماهو بمعزل منهما من الاصنام فاعرضوها على عقولكم وأجيلوا فيها أفكاركم وانظروا فيها بعين الانصاف لتعلموا أنه حق لاريب فيه وفى تخصيص التوفى بالذكر متعلقا بهم مالا يخفى من التهديد والتعبير عما هم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للايذان بأن أقصى مايمكن عروضه للعاقل فى هذا الباب هو الشك فى صحته وأما القطع بعدمها فما لاسبيل اليه أو ان كنتم فى شك من ثباتى على الدين فاعلموا أنى لاأتركه أبدا ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ بما دل عليه العقل ونطق به الوحى وهو تصريح بأن ماهو عليه من دين التوحيد ليس بطريق العقل الصرف بل بالامداد السماوى والتوفيق الالهى وحذف حرف الجر من أن يجوز أن يكون من باب الحذف المطرد مع أن وأن وأن يكون خاصا بفعل الأمر كما فى قوله

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ﴿وأن أقم وجهك للدين﴾ عطف على أن أكون خلا أن صلة أن محكية بصيغة الامر ولا ضير فى ذلك لان مناط جواز وصلها بصيغ الافعال دلالتها على المصدر وذلك لايختلف بالخبرية والطلبية ووجوب كون الصلة خبرية فى الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لاتوصف الا بالجمل الخبرية وليس الموصول الحرفى كذلك أى وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه بأداء المأمور به والانتهاء عن المنهى عنه أو باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم الالتفات الى اليمين والشمال ﴿حنيفا﴾ حال من الدين أو الوجه أى مائلا عن الاديان الباطلة ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ عطف على أقم داخل تحت الامر أى لاتكونن منهم اعتقادا ولا عملا وقوله عز وعلا ﴿ولا تدع﴾ عطف على قوله تعالى قل يا أيها الناس غير داخل تحت الامر وقيل على ماقبله من النهى والوجه هو الاول لأن مابعده من الجمل الى آخر الآيتين متسقة لايمكن فصل بعضها عن بعض كما ترى ولا وجه لادراج الكل تحت الامر وهو تأكيد للنهى المذكور وتفصيل لما أجمل فيه اظهارا لكمال العناية بالامر وكشفا عن وجه بطلان ماعليه المشركون أى لاتدع ﴿من دون الله﴾ استقلالا ولا اشتراكا ﴿مالا ينفعك﴾ اذا دعوته بدفع مكروه أو جلب محبوب ﴿ولا يضرك﴾ اذا تركته بسلب المحبوب دفعا أو رفعا أو بايقاع المكروه وتقديم النفع على الضر رغبى عن بيان السبب ﴿فان فعلت﴾ أى مانهيت عنه من دعاء مالا ينفع ولا يضر كنى به عنه تنويها لشأنه عليه السلام وتنبيها على رفعة مكانه من أن ينسب اليه عبادة غير الله سبحانه ولو فى ضمن الجملة الشرطية ﴿فانك اذا من الظالمين﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال من يسأل عن تبعة مانهى عنه ﴿وان يمسسك الله بضر﴾ تقرير لما أورد فى حيز الصلة من سلب النفع من الاصنام وتصوير لاختصاصه به سبحانه ﴿فلا كاشف له﴾ عنك كائنا من كان وما كان ﴿الا هو﴾ وحده فيثبت عدم كشف الاصنام بالطريق البرهانى وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزم لعدم النفع بجلب المحبوب استلزاما ظاهرا فان رفع المكروه أدنى مراتب النفع فاذا انتفى النفع بالكلية ﴿وان يردك بخير﴾ تحقيق لسلب الضرر الوارد فى حيز الصلة أى ان يرد أن يصيبك بخير ﴿فلا راد لفضله﴾ الذى من جملته ماأرادك به من الخير فهو دليل على جواب الشرط لانفس الجواب وفيه ايذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل من غير استحقاق عليه سبحانه أى لاأحد يقدر على رده كائنا ما كان فيدخل فيه الاصنام دخولا أوليا وهو بيان لعدم ضرها بدفع المحبوب قبل وقوعه المستلزم لعدم ضرها برفعه أو بايقاع المكروه استلزاما جليا ولعل ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الامرين للايذان بأن الخير مراد بالذات وأن الضر انما يمس من يمسه لما يوجبه من الدواعى الخارجية لا بالقصد الاولى أو أريد معنى الفعلين فى كل من الضر والخير وأنه لاراد لما يريد منهما ولامزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بأن ذكر فى أحدهما المس وفى الآخر الارادة ليدل بما ذكر فى كل جانب على ماترك فى الجانب الآخر على أنه قد صرح بالاصابة حيث قيل ﴿يصيب به﴾ اظهارا لكمال العناية بجانب الخير كما ينبئ عنه ترك الاستثناء فيه أى يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير وجعل الفضل عبارة عن ذلك الخير بعينه على أن يكون من باب وضع المظهر فى موضع المضمر لما ذكر من الفائدة يأباه قوله عز وجل ﴿من يشاء من عباده﴾ فان ذلك ينادى بعموم الفضل وقوله عز قائلا ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ تذييل لقوله تعالى يصيب به الخ مقرر لمضمونه والكل تذييل للشرطية الاخيرة محقق لمضمونها ﴿قل﴾ مخاطبا لاولئك الكفرة بعدما بلغتهم ما أوحى اليك ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾ وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام التى من جملتها مامر آنفا من أصول الدين واطلعتم على مافى تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبق لكم عذر ﴿فمن اهتدى﴾ بالايمان به والعمل بما فى

مطاويه ﴿فانما يهتدى لنفسه﴾ أى منفعة اهتدائه لها خاصة ﴿ومن ضل﴾ بالكفر به والاعراض عنه ﴿فانما يضل عليها﴾ أى فوبال الضلال مقصور عليها والمراد تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد اليه عليه السلام من جلب نفع أو دفع ضر كما يلوح به اسناد المجىء الى الحق من غير اشعار بكون ذلك بواسطته ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ بحفيظ موول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير ﴿واتبع﴾ اعتقادا وعملا وتبليغا ﴿مايوحى اليك﴾ على نهج التجدد والاستمرار من الحق المذكور المتأكد يوما فيوما وفى التعبير عن بلوغه اليهم بالمجىء واليه عليه السلام بالوحى تنبيه على مابين المرتبتين من التنائى ﴿واصبر﴾ على مايعتريك من مشاق التبليغ ﴿حتى يحكم الله﴾ بالنصرة عليهم أو بالامر بالقتال ﴿وهو خير الحاكمين﴾ اذ لايمكن الخطأ فى حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطى له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون والحمد لله وحده

﴿تم الجزء الثانى من تفسير العلامة أبى السعود ويليه الجزء الثالث أوله سورة هود عليه السلام﴾

صحيفة

٢ ﴿سورة المائدة﴾
١٠ تفسير قوله تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل)
١٩ تفسير قوله تعالى (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق)
٢٦ تفسير قوله تعالى (ياأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر)
٣٥ تفسير قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء)
٤٥ تفسير قوله تعالى (ياأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك)
٥٢ الجزء السابع
٥٢ تفسير قوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)
٦١ تفسير قوله تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس)
٦٩ تفسير قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم)
٧٧ ﴿سورة الأنعام﴾
٨٦ تفسير قوله تعالى (وله ماسكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم)
٩٦ تفسير قوله تعالى (انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله)
١٠٦ تفسير قوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو)
١١١ تفسير قوله تعالى (واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة)
١٢١ تفسير قوله تعالى (ان الله فالق الحب والنوى)
١٢٨ الجزء الثامن
١٢٨ تفسير قوله تعالى (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة)
١٣٦ تفسير قوله تعالى (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون)
١٤١ تفسير قوله تعالى (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات)
١٤٥ تفسير قوله تعالى (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئاً)
١٥٣ ﴿سورة الأعراف﴾
١٦٤ تفسير قوله تعالى ﴿يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا)
١٦٨ تفسير قوله تعالى (واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين)
١٧٢ تفسير قوله تعالى (والى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره)
١٨٠ الجزء التاسع
١٨٠ تفسير قوله تعالى (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا)
١٨٩ تفسير قوله تعالى (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف مايأفكون)
١٩٤ تفسير قوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة)
٢٠٠ تفسير قوله تعالى (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة اناهدنا اليك)

صحيفة

٢٠٨ تفسير قوله تعالى (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه)
٢١٨ تفسير قوله تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها)
٢٢٤ ﴿سورة الانفال﴾
٢٣٤ تفسير قوله تعالى (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون)
٢٣٨ الجزء العاشر
٢٣٨ تفسير قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)
٢٤٦ تفسير قوله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم)
٢٥٠ ﴿سورة براءة﴾
٢٦٠ تفسير قوله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله)
٢٦٨ تفسير قوله تعالى (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم)
٢٧٣ تفسير قوله تعالى (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم)
٢٧٧ تفسير قوله تعالى (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل
٢٨٤ تفسير قوله تعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين
٢٨٩ الجزء الحادى عشر
٢٨٩ تفسير قوله تعالى (انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف)
٢٩٨ تفسير قوله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)
٣٠٥ ﴿سورة يونس عليه السلام﴾
٣١٧ تفسير قوله تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم)
٣٢٤ تفسير قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار)
٣٣٣ تفسير قوله تعالى (ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى انه لحق وما أنتم بمعجزين)
٣٤١ تفسير قوله تعالى (واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه ياقوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت)
٣٤٧ تفسير قوله تعالى (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا)

﴿تم فهرس الجزء الثانى من تفسير أبى السعود﴾

کتابخانه
مجلس سنا